عمارة المسجد النبوى

منذ إنشائه حتى نهاية العصر المملوكى

الدكتور

محمد هزاع الشهرى

دار القاهرة للكتاب

١١٦ ش محمد فريد ـ القاهرة

ت ٣٩٢٩١٩٢

اسم الكتـــاب :	عمارة المسجد النبوى منذ إنشائه حتى نهاية العصر المملوكى
اسم المـؤلـف :	السيد الدكتور / محمد هزاع الشهرى
عدد الصفحات :	٤٩٢
رقـم الإيـداع :	١٧٠٧
الترقـيم الدولى :	I. S. B. N. 977 - 314 - 115 - 0
سنة النشر :	٢٠٠١
الطبـعـة :	الأولى
الناشـــر :	مكتبة القاهرة للكتاب
العـنـوان :	١١٦ شارع محمد فريد ـ القاهرة
البـلـد :	القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
تليـفـون :	٣٩٢٩١٩٢
فـاكس :	٣٩٢٩١٩٢ ـ ٣٩٣٣٩٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة :

الحمـد لله الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم . والصلاة والسلام على من أكرمه الله بهداية الأمة المحمدية ، جعلنا الله ممن يهتدى بهديه ويسير على سنته وهداه .

أما بعد فإن الزائر إلى المسجد النبوى الشريف ، يحتاج فى واقع الأمر إلى من يرشده إلى حدود المسجد فى عهد المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام ، ويوضح له حقيقة المسميات المدونة حتى الآن بأعلى بعض أسطوانة مقدم المسجد الشريف ، والتى اكتسبت معانيها الجليلة من أحداث وقعت زمن فترة النبوة ، كتحديده ﷺ للروضة الشريفة وأسماء أبواب المسجد الشريف ، وموضع حجرات أمهات المؤمنين فى المسجد فى حياة الرسول ﷺ ، وسبب ادخالها فى المسجد فى عمارة الوليد بن عبد الملك للمسجد الشريف فى العصر الأموى ، وغيـر ذلك مما يسأل عنه الإنسان العادى فضلا عن المثقف الباحث عن الحقيقة .

ولكون المسجد الشريف احتاج فى عهد الخلفاء الراشدين إلى توسعتين عظيمتين أوجبتهما الحاجة إلى إستيعاب الأعداد المتزايدة من المسلمين الجدد، خاصة وأن له إلى جانب هذه القدسية التى جعلت من هذا المبنى الدينى ثانى الحرمين الشريفين كونه المسجد الجامع لعاصمة الدولة الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وقد انعكست على عمارته والعناية به أحداث ما بعد الفتنة الكبرى ـ بعد مقتل سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ـ خاصة بعد إنتقال العاصمة السياسية من المدينة المنورة إلى الكوفة أولاً ثم إلى دمشق ، ومن بعد إلى بغداد فى عهد الدولة العباسية ثم إلى القاهرة فى عهد الدولة المملوكية . فلم يعد الاهتمام بالمسجد النبوى الشريف من أولوليات الخلافة فى عصورها المتباينة ،

إلا فى مواسم الحج ، أو عندما تدعوا الحاجة إلى إصلاح بعض جوانبه ، أو تحل به كارثة تدمر سنونه وتتلف محتوياته ، كما حدث فى حريق سنة ٦٥٤هـ وسنة ٨٨٦هـ .

ولكون أخبار هذه الأحداث وغيرها متناثرة فى كثير من الكتب التى تعود إلى عصور مختلفة ، يجمل فيها المتأخرون أخبار ما سبقهم من أحداث ، ولم يف الموضوع حقه من الجمع والترتيب إلا مؤرخ المدينة فى العصر المملوكى المبرز فى علوم شتى نور الدين على بن أحمد السمهودى المتوفى سنة ٩١١هـ ، والذى خص المدينة المنورة بكتابه « وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى » والذى يقع فى أربعة أجزاء جمعت فى مجلدين كبيرين ، ولضخامة الكتاب وأختلاف موضوعاته فمن الصعب على غير المتمرس الوقوف على مراحل بناء المسجد النبوى وتجديداته عبر العصور ، لا سيما وإن العمارة السعودية فى عهدها الأول والثانى قد احاطت بالمبنى القديم من جميع جوانبه ، وطغت بجمالياتها الجذابة على معالم المنطقة العمرانية المحيطة بالمسجد النبوى الشريف .

ولكون الله عز وجل قد من علىّ بتتبع هذه الحقب التاريخية فى دراسة أكاديمية فى سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، وكان لى شرف التتلمذ فيه على يد أستاذ قدير وعالم فاضل هو الأستاذ الدكتور عبد الرحمن فهمى محمد جزاه الله عنى خير الجزاء ، وبعد مضى أكثر من عشرة أعوام عاصرت فيها مراحل التوسعة الكبرى التى قام بها خادم الحرمين الشريفين فى المسجد النبوى الشريف ، أخذت برأى بعض الزملاء فى طبع هذا العمل العلمى وتسهيل تداوله بغية الفائدة لمن يبحث عنها والاستفادة من أى نقد أو نصح يسديه لى من يريد الخير للعلم وأهله ، ومن الله استمد العون والتوفيق .

المؤلف

مكة المكرمة ١٤٢١/٨/١٠هـ

تمهيد

دور المسجد النبوى فى تخطيط المساجد الجامعة فى صدر الإسلام :

اقتصرتخطيط المسجد النبوى الشريف طيلة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده على العناصر الأساسية ـ التى سأشير إليها فيما بعد ـ مع الإضافات الهامة التى كان لوجودها ضرورة ملحة .

وكان المسجد النبوى الشريف قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة جزءا من أرض يمتلكها بعض أيتام المدينة ، هيأها المسلمون لأداء فريضة الصلاة [١] وقد اكتفى عليه السلام عند قدومه إلى المدينة بتوسعة هذا المسجد الصغير والتثبت من صحة اتجاه قبلته . ولم يكد النصف الثانى من السنة الثانية من الهجرة يبدأ حتى كان المسجد الشريف محاطا بسور مرتفع وظلة شمالية تمنع الناس الحر والمطر . وأوجب تحويل القبلة إستحداث ظلة ثانية فى الجهة الجنوبية ، وبهذا صار المسجد مؤلفا من ظلتين وصحن مكشوف بينهما[٢] وهذا المخطط الذى استقر عليه المسجد فى آخر عهد الرسول عليه الصلاة والسلام أصبح النموذج الذى احتذته المساجد الإسلامية الأولى ، نظرا لما يكنه المسلمون لمنشئه من تكريم يفوق كل اعتبار ، حتى أنه ليس لدينا فيما يعرف من أعمال حتى الآن ما حظى بمثل

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية ، جـ١ ، ص ٢٤٣ أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: « أفترضت الصلاة على الرسول ﷺ أول ما أفترضت عليه ركعتين ركعتين ، كل صلاة ، ثم إن الله تعالى أتمها فى الحضر أربعا ، وأقرها فى السفر على فرضها الأول ركعتين » . ثم ذكر فى ص ٢٤٤ صفة تعليم الرسول عليه السلام لأم المؤمنين خديجة طريقة الوضوء وكان ذلك فى مكة قبل الهجرة إلى المدينة ، وفى ذلك ما يدل على فرض الصلاة قبل الهجرة كما أن القرآن الكريم يحتوى على ١٩ آية فى ١٣ سورة بها ذكر الصلاة والحث عليها .

(٢) لا يظن أن المخطط الذى أعده فريد شافعى فى كتابه العمارة العربية ص ٦٥ والذى يشبه إلى حد كبير المخطط الذى أعده كريزول فى كتابه العمارة الإسلامية المبكرة ، جـ١ القسم الأول ، ص ٨ يتفق والحقيقة ، وذلك لأن الظلة الأولى (موضع أهل الصفة فيما بعد) فى هذا المخطط ليست الأجزاء من عرض المسجد . وقد كانت كما هو معروف مكان الصلاة قبل تحويل القبلة إلى مكة، ثم ليس من المعقول أن يهدم بعض الظلة ويبقي منها جزء لأهل الصفة .

هذا الاجماع المتوارث على مدى خمسة عشر قرنا وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها .

وقبل التعرف على المساجد التى احتذت هذا النموذج يجب أن نلم بالعناصر الرئيسية التى يتكون منها المسجد النبوى الشريف وهى :

١ ـ الشكل المربع للمسجد وهو ما استقر عليه بعد زيادة الرسول الأخيرة له عند مقدمه من خيبر فى السنة السابعة من الهجرة وكانت مساحته آنذاك تقدر ١٠٠×١٠٠ ذراع [١].

٢ ـ ظلتا مقدم المسجد ومؤخرته ، اللتان ثبت وجودهما فى المسجد الشريف فى السنة الثانية من الهجرة بعد تحويل القبلة [٢].

٣ ـ الصحن المكشوف الذى كان يشغل جزءا كبيراً فى مؤخرة المسجد قبل تحويل القبلة ، والذى أصبح بعد تحويلها يقع بين ظلتين إحداهما فى مقدم المسجد والأخرى فى مؤخرته .

وفى مقدمة المساجد التى اقتبست عناصر التخطيط السالفة الذكر مسجد البصرة الذى كان « أول مسجد أنشئ بعد الفتوحات العربية » [٣]، وقد جاء أنه كان مجرد مساحة منبسطة يحيط بها خندق من جوانبها الأربعة تتخلله مداخل ثلاثة فى الشمال والشرق والغرب ، وفى جهة القبلة منه ظلة ، وبذلك لم يكن مخططه يختلف عن مخطط المسجد النبوى الشريف وكانت ظلته من القصب[٤]. وفى سنة ١٦هـ دمر الحريق البصرة فبنيت بيوتها باللبن وكذلك مسجدها فى ولاية أبى موسى الأشعرى . ويظن أن المسجد اقتصر اذ ذاك على ظلة فى مقدم المسجد ،

---

(١) انظر زيادة الرسول ﷺ للمسجد النبوى بعد مقدمة من خيبر ص ٥١ وما بعدها .

(٢) انظر المخطط الذى رسمته للمسجد بعد الزيادة الأخيرة فى حياة الرسول عليه السلام شكل (٢٨) .

(٣) أحمد فكرى : المدخل ، ص ١٩٩ .

(٤) ابن قتيبة : كتاب المعارف ، ص ٤٢٦ .

أو على ظلتين معا في المقدمة والمؤخرة احتذاء بمسجد الرسول في المدينة .

وفي سنة ٤٥هـ شهد المسجد عمارة جديدة وذلك في ولاية زياد بن أبيه في خلافة معاوية رضي الله عنه . وقد حظيت هذه العمارة بعناية بعض الباحثين [١] ، فأثبتوا أن المسجد كان مربعًا ، وأنه رغم اقتباسه لجميع عناصر المسجد النبوى الشريف ، فإنه سبق المسجد النبوى في استحداث المجنبتين اللتين لم يعرفهما المسجد الشريف إلا في عمارة الوليد بن عبد الملك له سنة ٨٧ ـ ٩١هـ شكل (١) .

وكانت الكوفة « ثاني مدينة أحدثت في الإسلام »[٢]. وقد اختط بها سعد بن أبي وقاص « مسجدها ودار إمارتها في مقام الغالى وما حوله »[٣]. ويذكر الطبرى أنه بني للمسجد « ظلة في مقدمه ليست لها مجنبات ولا مواخير »[٤]. شكل (٢)، وعندما ولي المغيرة بن شعبة الكوفة أعاد بناء المسجد ووسعه وذلك بغير مجنبات ولا مؤخرة أيضاً [٥]، وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه أعيد بناؤه من جديد في زمن ولاية زياد بن أبيه ، الذى استحدث فيه سنة ٥١هـ مجنبتين ومؤخرة لأول مرة [٦]. وقد شاهد ابن جبير المسجد على هذا الطراز في القرن السادس الهجرى[٧]، واتضح من الحفريات التى أجريت فيه أخيراً [٨] أن المسجد أقيم « على مساحة مربعة الشكل تقريبا ، طول جدار القبلة فيها ١١٠ مترا وجدار المؤخرة ١٠٩ مترا، وطول كل من الجدارين الشرقى والغربى ١١٦ مترا »[٩]،

---

(١) انظر المخطط الذى أعده كريزول فى كتابه العمارة الإسلامية المبكرة ، جـ١ ، القسم الأول ، ص ٤٧ ، وفريد شافعى فى كتابه العمارة العربية ، ص ٢٣٢ ، وأحمد فكرى فى المدخل ، ص ٢٠٢ إلا أنه اختلف معهما فى عدد بلاطات مقدم المسجد فإنه يقصرها على أربع بلاطات بدلا من خمس بلاطات .

(٢) أحمد فكرى : المدخل ، ص ٢٠٠ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٣٨٨ .

(٤) تاريخ الرسل والملوك ، جـ٥ ، ص ٢٤٨٩ .

(٥) الطبرى : نفس المصدر ، جـ٥ ، ص ٢٤٩٢ .

(٦) الطبرى : نفس المصدر ، جـ٥ ، ص ٢٤٩٢ .

(٧) رحلة ابن جبير ، ص ١٨٨ .

(٨ ، ٩) أحمد فكرى : المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

وقد خالف فكرى كل من كريزول وفريد شافعى فى عدد بلاطات مقدم المسجد[١]، شكل (٣) .

ويحسن بعد ذلك متابعة العناصر الرئيسية للمسجد النبوى الشريف فى أشهر مساجد العراق القديمة ، وعلى رأسها جامع واسط الذى أنشأه الحجاج بن يوسف الثقفى سنة ٨٤هـ / ٧٠٣م على قطعة أرض شبه مربعة طول أضلاعها ١٠٣×١٠٤م . ويتألف من صحن ومجنبات أربع[٢]، شكل (٤) ومنها كذلك المسجد العلوى بمدينة اسكاف بنى جنيد المنسوبة إلى خالد بن عبد الله القسرى الذى كان واليا لها سنة ١١٠هـ . « ويستدل من الرسم التخطيطى لأساسات هذا المسجد أنه يشغل مربعا غير منتظم الأضلاع ، طول جدار القبلة فيه خمسون مترا ، وطول جداره الشرقى خمس وخمسون ... وكان للمسجد صحن مستطيل تحيط به من كل جوانبه الشمالية والشرقية والغربية مجنبة من رواقين » [٣]، شكل (٥) .

ومن هذه المساجد أيضًا مسجد المنصور فى بغداد ، وقد أنشىء سنة ١٤٩هـ/٧٦٦م ، على شكل مربع طول ضلعه مائتا ذراع ، ويتألف من صحن تحيط به أروقة جانبية أكبرها رواق القبلة[٤] ، شكل (٦) . وعلى هذا النمط كان مخطط مسجد الرقة ، الذى أنشئ سنة ١٥٥هـ فى خلافة المنصور العباسى [٥]، شكل (٧) . ومسجد سامراء الكبير الذى أنشأه المتوكل على الله العباسى سنة ٢٣٥هـ [٦]، شكل (٨) . ومسجد أبى دلف الذى أنشىء أيضًا فى خلافة

---

(١) انظر المخطط الذى أعده كريزول فى العمارة الإسلامية المبكرة ، جـ١ ، القسم الأول ، ص ٤٧ ، وفريد شافعى فى كتاب العمارة العربية ص ٢٣٢ ، شكل (١) .

(٢) أحمد فكرى : المدخل ، ص ٢١٣ وما بعدها .

(٣) أحمد فكرى : نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .

(٤) أحمد فكرى : نفس المرجع ، ص ٢٣١ وما بعدها .

(٥) أحمد فكرى : نفس المرجع ، ص ٢٣٥ وما بعدها ، وانظر : فريد شافعى : العمارة العربية ، ص ٢٤٣ .

(٦) أحمد فكرى : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ وما بعدها ، وانظر : فريد شافعى : المرجع السابق ، ص ٢٣٤ ، ٢٤١ .

المتوكل سنة ٢٤٥ » فى مدينة الجعفرية [١]، شكل (٩) .

وهذه الأمثلة من المساجد تؤيد ما ذهب إليه فريد شافعى من أن هناك « علاقة كبيرة واضحة بين هذا التخطيط فى العراق وبين تخطيط الرسول لمسجده فى المدينة » [٢]، وفضلا عن ذلك فإن لموقع المسجد من العمران وكثرة المصلين فيه ، أثر كبير فى استخدام كل العناصر النبوية المذكورة أو بعضها على الأقل .

أما مساجد سوريا ففى مقدمتها الجامع الأموى الذى أنشىء سنة ٨٧هـ بأمر الوليد بن عبد الملك على شكل مستطيل « طوله ١٦٠ مترا تقريبا وعرضه مائة متر، وطول جدار القبلة فى بيت الصلاة (رواق القبلة) ١٣٦ مترا [٣]، شكل (١٠) . وتعد عمارة هذا المسجد كما يقول سوفاجيه « أول نجاح معمارى فى الإسلام » [٤]. ورغم اختلاف بنائه عن المسجد النبوى ، إلا أن رواق القبلة المغطاة وصحنه الواسع يعود بمخططه إلى طراز المسجد النبوى قبل تحويل القبلة ذلك إذا استثنينا البلاطات المحيطة بصحنه ، وليس كما يرى جورج مارسيه أنه خليط « بين التقليد المسيحى والصيغة المعمارية الجديدة التى عرفنا مخططها الأول فى مسجد الرسول فى المدينة » [٥]، وذلك لأن لكل مسجد من المساجد التى ذكرناها صفات مشتركة تجمعه بالمسجد النبوى وأخرى تميزه عنها ، وأغلب ما تظهر فى البناء وأسلوب الزخرفة ، وجوانب بسيطة من التخطيط .

ومن هذه المساجد فى سوريا مسجد بصرى شكل (١١) ، المنسوب إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠م [٦]. وكذلك المسجد الجامع فى

---

(١) أحمد فكرى : المرجع السابق ، ص ٢٤٠ ، وفريد شافعى : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ ، جورج مارسيه : الفن الإسلامى ، ص ٥٥ .

(٢) أحمد فكرى : المدخل ، ص ٢٣٩ .

(٣) أحمد فكرى : نفس المرجع ، ص ٢١٨ .

(٤) جورج مارسيه : الفن الإسلامى ، ص ٣٦ .

(٥) جورج مارسيه : نفس المرجع ، ص ٣٦ .

(٦) أحمد فكرى : المرجع السابق ، ص ٢٢١ وما بعدها .

حران ، شكل (١٢) الذى يشبه إلى حد كبير مخطط الجامع الأموى فى دمشق[١] .

أما مساجد إيران فإن أكثرها شبها بمخطط المسجد النبوى الشريف مسجد طريق خانة بدمغان ، ويرى جورج مارسيه أن « مخطط هذا المسجد الأول مشابها لمخططات مساجد سورية الأموية ، ومساجد الرافدين[٢] أيام العباسيين »[٣] . وهذه المساجد تشبه أيضًا مخطط المسجد النبوى الشريف ، ومثلها مسجد نايين الذى يقع شرقى أصفهان ، والذى أنشىء سنة ٦٩٠هـ[٤] . ولا يشذ مسجد أصفهان عن ذلك[٥] ، رغم اختلاف مادة البناء الذى تطور فى العصر السلجوقى بما يتفق وامكانيات الدولة وما بلغته من ترف ورخاء .

هذا عن أهم مساجد شرق العالم الإسلامى . أما مساجد مصر وما يليها غربا من البلاد الإسلامية فقد شاركت أيضًا مساجد المشرق فى اقتباس أهم العناصر المعمارية للمسجد النبوى الشريف فى المدينة المنورة . وفى مقدمة هذه المساجد الجامع العتيق بالفسطاط ، الذى يعود تاريخ إنشائه إلى سنة ٢١هـ ، وقد شيده عمرو بن العاص على شكل مستطيل طوله خمسين ذراعا وعرضه ثلاثين ذراعا[٦] . وقد تناول كثير من الباحثين هذا المسجد بالبحث والدراسة متتبعين جميع مراحل البناء التى مر بها . وشك فريد شافعى فى أنه كان للمسجد أول الأمر صحن مكشوف إذ يعتقد « أن المساحة كانت كلها على هيئة ظلة واحدة»[٧] . ولكن بساطة وسائل الإضاءة فى ذلك الوقت ، وكراهية العرب

---

(١) أحمد فكرى : نفس المرجع ، ص ٢٢٦ .

(٢) الرافدين هى أرض العراق نسبة إلى نهر دجلة والفرات ، انظر ابن منظور فى لسان العرب ، جـ٣ ص ١٨٢ .

(٣) جورج مارسيه : الفن الإسلامى ، ص ٩٧ .

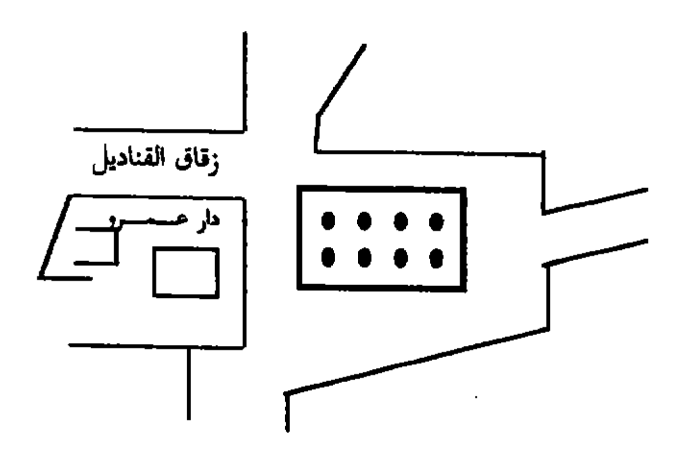
(٤) جورج مارسيه : نفس المرجع ، ص ٩٨ .

(٥) جورج مارسيه : نفس المرجع ، ص ٩٩ .

(٦) أحمد فكرى : المدخل ، ص ٦٧ ، سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ١ ص٦٢ .

(٧) العمارة العربية ، ص ٣٦٣ ، سعاد ماهر : المرجع السابق ، جـ ١ ص ٦٢ .

الفاتحين لمثل هذا البناء المغطى [1]، يجعلان من الصعب بقاء المسجد العتيق على هذه الصفة مدى ٣٢ عاما ، إلى أن جدده مسلمة بن مخلد سنة ٥٣هـ/٦٧٢م ، لذلك فإن المخطط التالى الذى نقله أحمد فكرى عن مصلحة الآثار المصرية شكل (١٣) ، يبدو مقبولا ، ويمكن إرجاعه إلى طراز المسجد النبوى قبل تحويل القبلة .



شكل (١٣) ـ رسم تصورى لتخطيط مسجد عمرو سنة
انشائه (٢١ ـ ٦٤٢م)
ـ عن محفوظات مصلحة الآثار .

وفى سنة ٢١٢هـ / ٨٢٧م زاد عبد الله بن طاهر فى المسجد العتيق بحيث أصبح يحتوى على جميع العناصر البارزة فى مخطط المسجد النبوى بعد عمارة

---

(١) يذكر كريزول فى العمارة الإسلامية المبكرة ، جـ١ ، القسم الأول ص ٧ « أن حياة العربى الخاصة كانت تقتضى فناءا خاصا مغلقا من جوانبه يعمل فيه النساء من نسيج وطبخ وغسيل وغير ذلك » . وبما أن المسجد فى فجر الإسلام لم يكن مقتصرا على أداء شعائر العبادة فقط ، فإن المسلمين الذين كانوا يقضون معظم أوقاتهم فى المسجد ، كانوا فى حاجة إلى صحن مكشوف يمدهم بالهواء والنور الكافى كما ألفوا ذلك فى مساكنهم الخاصة .

الوليد له سنة ٩٠هـ [١]. وذلك رغم اختلاف المخططات التى وضعت عن مسجد عمرو بن العاص فى ذلك التاريخ من ناحية عدد البلاطات فى كل رواق [٢]، شكل (١٤) .

وجامع أحمد بن طولون، الذى أنشئ فى سنة ٢٦٥هـ ، يتسق مع « النموذج الرئيسى الذى انبثق من المسجد النبوى بالمدينة »[٣] ولا يزال فى الوقت الحاضر دليلا قويا على اقتباسه لجميع العناصر الرئيسية المتمثلة فى مخطط المسجد النبوى بعد عمارة الوليد بن عبد الملك له ، شكل (١٥)، ويشارك الجامع الأزهر الذى أنشئ سنة ٣٥٩ ـ ٣٦١هـ بأروقته الثلاثة [٤]، المساجد التى اقتبست أهم خصائص تخطيطها من المسجد النبوى ، شكل (١٦) .

أما جامع الحاكم بأمر الله الذى أنشئ سنة ٣٨٠هـ فإن تخطيطه يعود إلى طراز المسجد النبوى قبل تحويل القبلة إذ اقتصر على ظلة واحدة وصحن مكشوف ، شكل (١٧) . وقد سارت معظم المساجد المملوكية المنتشرة فى أنحاء مختلفة من القاهرة على هذا النسق غير أنها حوت فى أواخر دولة المماليك البحرية « كتلة معمارية جديدة وهى مدفن المنشئ »[٥] وهى فكرة غير محمودة طبقتها المساجد التركية أيضاً .

هذا عن أهم مساجد مصر والمشرق الإسلامى التى اقتبست أهم العناصر البارزة فى مخطط المسجد النبوى الشريف ، ولم يشذ عن ذلك سوى المسجد الأقصى

---

(١) انظر جورج مارسيه : الفن الإسلامى ، ص ٧٠، وحسن الباشا : جامع عمرو ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .

(٢) أحمد فكرى : المدخل ، ص ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٥ ، فريد شافعى : العمارة العربية ، ص ٣٦١ ، سعاد ماهر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون جـ١ ص ٦٣ .

(٣) فريد شافعى : المرجع السابق ، ص ٦٦٢ ، حسن الباشا ، جامع ابن طولون ص ٢٤٤ ، جورج مارسيه : المرجع السابق ، ص ٧١ ، سعاد ماهر : المرجع السابق ، جـ١ ص ١٤٣ ، وما بعدها .

(٤) أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ١ ص ٤٩ ، سعاد ماهر : المرجع السابق ، جـ١ ص ١٩٥ ، وعبد الرحمن فهمى : الجامع الأزهر ، ص ٤٥٤ ، وانظر أيضاً جورج مارسيه : المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٥) محمد مصطفى نجيب : العمارة فى عصر المماليك ، ص ٢٤٣ .

الذى يبدو من المخططات ، التى حاول أصحابها فيها تطبيق المعلومات التاريخية المتوفرة ، أن ظلة القبلة هى الأساس فى هذا المسجد شكل (١٨) بيد أننى أظن أن هذا الوضع لم يتمثل فى المسجد الأقصى إلا فى العصر الأموى ، لا سيما وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه هو الذى أمر بتأسيسه عند قدومه إلى أرض فلسطين سنة ١٦هـ [١]، وقد كان رضى الله عنه أحرص الناس على الاقتداء بأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله . ولذلك فإن الشك كبير فى أنه كان كذلك من أول بناء له .

وأول مساجد غرب العالم العربى مسجد القيروان ، الذى أسسه عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ . وقد شهد عدة زيادات وتجديدات كان آخرها أعمال الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الذى زاد فيه سنة ٢٦١هـ « الأسكوبين (البلاطتين) المطلين على الصحن من بيت الصلاة (ظلة القبلة أو رواقها) ، وقبة البهو (المجاز) التى تتوسطهما ، والمجنبات الثلاثة المحيطة بالصحن . وقد أجريت فى المسجد بعد ذلك اصلاحات عديدة لم تمس تخطيطه ونظامه الذى بقى محتفظا بمقاساته وصورته التى تمت له فى سنة ٢٦١هـ » [٢]. والواقع أن الطراز الذى استقر عليه هذا المسجد شكل (١٩) والطراز الذى كان عليه بعد عمارة هشام بن عبد الملك له سنة ١٠٥هـ[٣] وطرزه السابقة لا تختلف عن الطراز الأول الذى اقتبسته المساجد الإسلامية الأولى [٤]. وعلى طراز جامع القيروان بنى جامع سوسه سنة ٢٣٦هـ فى عهد الأمير محمد بن الأغلب[٥] شكل (٢٠) ، ومسجد الزيتونة الذى استقر بعد سنة ٢٥٠هـ بأربع ظلات وصحن[٦] شكل (٢١) . وإلى الغرب من تونس هناك مساجد قديمة لم تتخل ، رغم بعدها ، عن اقتباس أهم عناصر التخطيط فى العصر

---

(١) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ص ١٤٧ ، وأحمد فكرى : المدخل ص ٢٠٩ ـ ٢١٠

(٢) أحمد فكرى : المدخل ، ص ٢٠٥ ، وجورج مارسيه : الفن الإسلامى ص ٧٨

(٣) أحمد فكرى : المرجع السابق ، ص ٢٠٦

(٤) أحمد فكرى . مسجد القيروان ص ٥١ ـ ٥٤

(٥) أحمد فكرى : المدخل ، ص ٢٥٠ ، وحسين مؤنس ، المساجد ص ١٩٩ ـ ٢٠٠

(٦) أحمد فكرى المدخل ، ص ٢٥٥ وما بعدها

النبوى ، ومن أشهرها جامع القرويين الذى أنشئ سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٨م فى عهد إدريس الثانى ، ثم وسع سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م ، فتضاعف حجمه وزاد بيت صلاته عمقا بما أضيف إليه من الأساكيب الجديدة ، ووسع الصحن أيضًا وأعيد بناء المجنبات [١]، وقد وسع مرة ثانية فى عهد الأمير على بن يوسف المرابطى فيما بين سنتى (٥٢٨هـ/ ١١٣٣م و٥٣٩هـ / ١١٤٣م) ، بيد أنه احتفظ رغم هذا بنظام تخطيطه الأول الذى يعتبر مشتقا من النظام النبوى فى المدينة . وعلى هذا النسق سارت مساجد المرابطين التى من أشهرها الجامع المرابطى فى تلمسان[٢]، وجامع الكتبية فى مراكش[٣]، ومسجد حسان فى الرباط ، وتتمثل فيه العناصر النبوية أوضح ما تكون ، إذ يتألف من ظلة فى مقدم المسجد ، ومجنبات يمنى ويسرى وخلفية ،[٤] وفى هذا المسجد وغيره من مساجد المغرب تبدو التأثيرات المعمارية الأندلسية واضحة فى بناء هذه المساجد وهندستها [٥].

أما مساجد الأندلس فأولها وأشهرها مسجد قرطبة الذى شيد فى عهد عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦م . ورغم تعدد الزيادات التى شهدها هذا المسجد ، وكان آخرها فى عهد المنصور بن أبى عامر سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م ، فإن مخططاته جميعها لا تخرج عن طراز المسجد النبوى الشريف فى مرحلته الأولى قبل تحويل القبلة[٦] شكل (٢٢) .

وفى ختام هذا العرض الموجز لأشهر مساجد الإسلام وأقدمها أود أن أؤكد أنه

---

(١) حسين مؤنس : المرجع السابق ص ١٩٠ .
(٢) حسين مؤنس : نفس المرجع ، ص ٢١٨ ، وما بعدها .
(٣) حسين مؤنس : نفس المرجع ص ٢٢٢ .
(٤) حسين مؤنس : المساجد ص ٢٢٤ .
(٥) حسين مؤنس : نفس المرجع ، ص ٢١٧ ، تبدو هذه التأثيرات الأندلسية فى شكل العقود والمنارات التى منها منارة مسجد الكتبية الشهيرة بمراكش .
(٦) انظر مخطط زيادات المسجد فى كتاب الفن الإسلامى لجورج مارسيه ص ١٤٥ والمخططات التى نقلها أحمد فكرى عن جوميث مورينو فى المدخل ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٨ ، وانظر حسين مؤنس : فى المرجع السابق ، ص ١٩٣ وما بعدها .

ليس لى فضل السبق فى اكتشاف ما يتضمنه من حقائق هامة . ثم أننى لا أدعى أن عناصر التخطيط التى شهدها المسجد النبوى فى مراحل عمارته المختلفة تتمثل بجملتها فى مخططات المساجد المذكورة وذلك لأن « عدد الأروقة (البلاطات) يختلف فى ظلة القبلة وفى الظلات الأخرى على جوانب الصحن الباقية ، كما كان يختلف اتجاه صفوف الأعمدة والبائكات التى تفصل بين الأروقة (البلاطات) أو بمعنى آخر فإن كل مسجد كان يتفق مع المساجد الأخرى فى المميزات الرئيسية والتخطيط العام ويختلف فى التفاصيل فكان كل مسجد منها يتميز بشخصية قائمة بذاتها [1] » ولذلك فقد تبين من خلال هذا العرض الموجز أن ما كان من المساجد الأولى بظلة وصحن فقط ، يمكن إرجاع تخطيطه إلى وضع المسجد النبوى الشريف قبل تحويل القبلة . وما كان منها بظلتين وصحن إلى وضع المسجد النبوى بعد تحويل القبلة ، وما كان منها بأربع ظلات وصحن إلى وضعه بعد بناء الوليد له .

وهكذا فإن هذا التقليد النابع من الحب الخالص للآثار النبوية الكريمة لم يحد من عبقرية المعمار الإسلامى الذى أعمل فكره فى ابتكار نماذج مختلفة لأنواع العقود وتيجان الأعمدة والقباب والمآذن وغير ذلك من العناصر الزخرفية التى أضفت على المسجد طابع الحيوية والجمال .

* * *

---

(١) فريد شافعى : العمارة العربية ، ص ٢٤١ ، وما بعدها ، وحسين مؤنس : المساجد ، ص ٢١١ ، وحسن الباشا : المدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص ١٢٣ .

الاصطلاحات والرموز

تبين لىّ من خلال قراءتى لما كتبه بعض المؤرخين عن تاريخ المساجد وعمارتها أن هناك خلط كبير فى استخدام مسميات بعض العناصر المعمارية فآثرت أن أبين الطريقة التى ألتزمتها عند تسميتى لتلك المصطلحات .

١ ـ التزمت عند ترتيب الأشكال جعل ظلة القبلة إلى أعلى الصفحة فى مواجهة القارىء .

٢ ـ الظلات : ويسميها البعض سقائف ، أروقة ، مجنبات .

٣ ـ الاسطوانات : وترد كثيرا بمعنى أساطين ، أعمدة ، سوارى .

٤ ـ الاسطوانات الشريفة : ويقصد بها اسطوانات الروضة المطهرة .

٥ ـ البلاطة المعترضة : ويسميها بعض المؤرخين رواق ، أسكوب وهى التى تمتد بين صفين من الأعمدة وهى على عكس البلاطات الموازية لجدار القبلة .

٦ ـ البوائك : وهى فتحات العقود المطلة على صحن المسجد .

٧ ـ أبواب المسجد : ويسميها البعض مداخل المسجد .

٨ ـ خرزة الاسطوانة : ويسميها بعضهم فلكة وهى قطع من الحجر مدورة كالرحى مثقوبة من وسطها تركب فوق بعضها تؤلف اسطوانة كاملة .

٩ ـ المقرنصات : ويسميها البعض حطات أو دلايات .

* * *

الفصل الأول
عمارة المسجد النبوى منذ إنشائه
حتى نهاية العصر العباسى

المبحث الأول

المسجد النبوى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

المبحث الأول

المسجد النبوى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

بدأت بشائر هذا الحدث المعمارى العظيم عندما اختار الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم يثرب داراً لمهاجره ، فما أن وطئت قدماه الشريفتان أرض قباء حين نزل على كلثوم بن الهدم [١] ، حتى ابتاع منه مربده[٢] وبنى فيه مسجدا « وصلى فيه إلى بيت المقدس » [٣] ، مدة بقائه بقباء ، وهى المدة التى يجملها المراغى بقوله « أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء فى بنى عمرو بن عوف (اثنتين) وعشرين ليلة حكاه يحيى ، وفى صحيح مسلم أقام فيهم أربع عشرة ليلة »[٤] . ويقال أنه أقام يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس [٥] .

وتعتبر المدة الأخيرة كافية لتأسيس المسجد وتحديد جوانبه ، وفى ذلك يقول السمهودى « يمكن أن النبى صلى الله عليه وسلم أسسه عند قدومه، ثم بناه بعد ذلك » [٦] ، عندما حولت القبلة ، وروى ابن النجار عن أبى عروبة أن عمر رضى

---

(١) يعلل ابن هشام فى السيرة النبوية ، القسم الأول ، ص ٤٩٣ السبب فى اختلاف الروايات فى موضع نزول النبى ﷺ فى قباء بقوله : « أنما كان رسول الله ﷺ إذا خرج من منزل كلثوم ابن الهدم جلس للناس فى بيت سعد بن خيثمة وذلك أنه كان عزبا لا أهل له ، وكان منزل الأعزاب من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين ، فمن هنالك يقال : نزل على سعد بن خيثمة ، وكان يقال لبيت سعد بن خيثمة ، بيت الأعزاب » . انظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ص ١١٤٣ ، والسمهودى : وفاء الوفاء ، جـ١ ص ٢٤٦ .

(٢) قال ابن منظور فى لسان العرب ، جـ٣ ص ١٧١ أن المربد « فضاء وراء البيوت يرتفق به ، والمربد كالحجرة فى الدار ومربد التمر جرينه الذى يوضع فيه بعد الجداد لييبس ، فالمربد بلغة أهل الحجاز والجرين لهم أيضاً ، والأندر لأهل الشام ، والبيدر لأهل العراق ، والمسطح والجرين فى لغة أهل نجد » .

(٣) القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ، ص ١١٣ ، السمهودى : المصدر السابق جـ١ ص ٢٥١ .

(٤) تحقيق النصرة فى تلخيص معالم دار الهجرة ص ٣٨ .

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية ، القسم الأول ص ٤٩٤ ، المراغى : المصدر السابق ص ٣٨ .

(٦) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ، ص ٢٥٢ .

الله عنه كان « يأتى قباء يوم الاثنين والخميس فجاء يوما فلم يجد أحدا من أهله فقال : والذى نفسى بيده لقد رأيتنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر فى أصحابه ننقل حجارته على بطوننا ويؤسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجبريل عليه السلام ، (يؤم به البيت) [١][٢]، ونقل السمهودى عن الطبرانى من حديث جابر بن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قدم المدينة قال لأصحابه : « إنطلقوا بنا إلى أهل قباء نسلم عليهم ، فأتاهم فسلم عليهم ، فرحبوا به ، ثم قال : يا أهل قباء ائتونى بأحجار من هذه الحرة ، فجمعت عنده أحجار كثيرة ، ومعه عنزه له[٣]، فخط قبلتهم [٤]، فأخذ حجرا فوضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أبا بكر ، خذ حجرا فضعه إلى حجرى ، ثم قال: يا عمر خذ حجرا فضعه إلى جنب حجر أبى بكر ، ثم قال : يا عثمان خذ حجرا فضعه إلى جنب حجر عمر ، ثم التفت إلى الناس فقال : ليضع كل رجل حجرة حيث أحب على ذلك الخط » [٥].

ونقل السمهودى أيضًا عن ابن أبى شبه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « بنى مسجد قباء وقدم القبلة إلى موضعها اليوم ، وقال جبريل يؤم بى البيت » [٦].

وما تتضمنه هذه الروايات المتعددة إلى تحويل القبلة إلى مكة المكرمة فى هذه

---

(١) ليست فى النص ولكن المراغى فى تحقيق النصرة ، ص ٣٥ يذكر فى النص الذى نقله عن ابن النجار فلعلها سقطت من النسخة المطبوعة وسياق المعنى يقتضى اضافتها .

(٢) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ١١٢ .

(٣) هى أطول من العصا وأقصر من الرمح فى أسفلها زج كزج الرمح يتوكأ عليها الشيخ الكبير . انظر المعجم الوسيط : جـ٢ ص ٦٣٧ لإبراهيم مصطفى وآخرون .

(٤) القبلة هنا بمعنى جدار القبلة بكامله وليس كما يقول فريد شافعى فى العمارة العربية ، ص ٦٥ ـ ٦٦ بأنها علامة توضع فى منتصف جدار القبلة .

(٥) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٢٥١ ، راجعت الحديث فى الجزء الأول والثانى من المعجم الكبير للطبرانى فلم أجده وكذلك فى المعجم الصغير ، أما المعجم الأوسط وما تبقى من أجزاء المعجم الكبير فلم أجدها .

(٦) المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٥١ .

المرحلة فى بناء مسجد قباء دليل على أنها غير مرحلة التأسيس الأولى [١]، التى كان اتجاه القبلة فيها إلى بيت المقدس . ومع ذلك فإن مسجد قباء ـ وإن كان أول مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة إلا أنه ـ لم يكن أول مسجد أسس فى الإسلام ، فقد نقل السمهودى عن ابن أبى شبه عن جابر قال : « لبثنا بالمدينة قبل أن يقدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سنتين نعمّر المساجد ونقيم الصلاة » [٢]، وفى رواية أن كلثوم بن الهدم كان يقيم الصلاة بأهل قباء فى مربده الذى اشتراه منه الرسول ووسعه قبل أن يغادر قباء يوم الجمعة[٣]، فى طريقه إلى المدينة حتى أدركته صلاة « الجمعة فى بنى سالم بن عوف فصلاها فى بطن وادى رانونا »[٤]، ثم خرج من وادى بنى سالم تحفه جموع الأنصار والمهاجرين ، حاثا ناقته القصوى على السير إلى المدينة عبر أحياء الأنصار ومنازلهم وكلهم يدعونه إلى المنعة والنصرة ، فيقول لهم عليه السلام خلوا سبيلها فإنها مأمورة حتى إذا أتت دار مالك بن النجار بركت على باب مسجده وهو يومئذ مربدا[٥] لسهل وسهيل ابنى رافع بن عمرو بن النجار » وهما يتيمان فى حجر معاذ بن عفراء ويقال أسعد بن زرارة وهو المرجح وبه جزم ابن النجار » [٦]. وهو ما أيده السمهودى أيضاً [٧]، فلما بركت الناقة لم ينزل عنها رسول الله حتى دارت فى بعض أنحاء المربد ثم عادت إلى مبركها الأول فبركت فيه ووضعت

---

(١) السمهودى : نفس المصدر ، جـ١ ص ٢٥٣ .

(٢) السمهودى : نفس المصدر ، جـ١ ص ٢٥٠ .

(٣) القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ، ص ١١٣ ، المراغى : تحقيق النصرة ، ص ١٨ ، السمهودى: المصدر السابق جـ١ ص ٢٥٦ .

(٤) المراغى : المصدر السابق ، ص ٣٨ ، ويقول عبد القدوس الأنصارى فى آثار المدينة ، ص ٢٣٢ أن وادى رانوناء فى الضاحية الجنوبية الغربية للمدينة ، على بعد ساعة بالسير العادى .

(٥) انظر : أعلاه ص ٢٣ عن تعريف المربد وليس فيما ذكر من أن المسلمين اتخذوا جزءا من المربد مسجدا لهم لأداء فريضة الصلاة قبل قدوم الرسول إلى المدينة ما يتعارض مع ذلك .

(٦) المراغى : تحقيق النصرة ، ص ٣٩ .

(٧) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٢٣ .

جرانها [١]، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول هذا المنزل إن شاء الله ، ثم قال عند نزوله « رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » [٢].

فاحتمل أبو أيوب رحل رسول الله ووضعه في بيته ودعته الأنصار إلى النزول عندهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع رحله [٣]، ونزوله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب ثابت باجماع الرواة ، وأن كان لا يعرف شيء عن مكانة أبي أيوب قبل مقدم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سوى أنه كان « أحد الأوس الذين شهدوا بيعة العقبة الأخيرة » [٤]. ويبدو أن هذا الاختيار لبيت أبي أيوب رضي الله عنه كان كما يقول ابن النجار رغبة منه عليه السلام في « أن يتوسط الأنصار كلها » [٥]، وهذا الاختيار غير مناف كما يقول المطرى فيما تقدم من قوله : « دعوها فانها مأمورة » لأن الله « اختار له ما كان يختار لنفسه » [٦]. هذا بالإضافة إلى قربه من الموقع الذي اختاره له الله لبناء مسجده وهو مربد الغلامين سهل وسهيل ابني رافع بن أبي عمرو من بني النجار ، وكان فيه كما تقول الروايات مصلى صغيرا اتخذه « أسعد بن زرارة قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس الصلوات الخمس ويجمع بهم » [٧]، ولا يخرج هذا

---

(١) إن الجران هو باطن العنق وقيل مقدم العنق من مذبح البعير إلى منحره ، والجمع جرن وأجرنة . انظر : ابن منظور في لسان العرب ، جـ١٣ ص ٨٦ .

(٢) سورة المؤمنون ، آية ٢٩ . انظر السمهودي : المصدر السابق جـ١ ص ٣٢٢ .

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ص ١٢٥٩ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ، القسم الزول ، ص ٤٥٤ . وذكر المراغي في تحقيق النصرة ، ص ٣٩ عن بعض شيوخه عن المبتدأ لابن اسحاق أن هذا البيت الذى كان لأبي أيوب بناه له تبع الأول واسمه تبان أسعد عندما مر بالمدينة وترك فيها أربع مائة عالم وكتب كتابا للنبي ﷺ ودفعه إلى كبيرهم وسأله أن يدفعه للنبي ﷺ فتداول الدار الملاك إلى أن صارت لأبي أيوب وهو من ولد ذلك العالم .

(٥) الدرة الثمينة ، ص ٢٦ .

(٦) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٣٦ . وفي هذا ما يتفق مع مقومات موقع المسجد من حيث توسطه للمدينة الإسلامية كما حدث فيما بعد في مدينة بغداد وغيرها من المدن الإسلامية .

(٧) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٢٥ .

المسجد عن صفة المساجد التي انتشرت في المدينة قبل مقدم الرسول عليه السلام[١]، من حيث الاقتصار على تحديد معالمه بأحجار تحدد جدار القبلة وتحميه من امتهان الدواب له [٢]. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بصاحبي المربد ، وهما كما ثبت في حجر أسعد بن زرارة ، فساومهما في شراء المربد « ليتخذه مسجدا ، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله ، فأبى أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما » [٣].

وهذه الرواية التي يرويها السمهودى هي المرجحة لأمور منها : ما يرويه المراغي عن الواقدى أن « عدم قبوله بلا ثمن لأنه لليتيمين » [٤]، اللذين يقول عنهما العبدرى « أنهما كانا بالغين مالكين أمرهما »[٥] وأن كونهما « في حجر أسعد بن زرارة يعنى في كنفه وجواره ولم يكن إذ ذاك حجر شرعى » [٦]، مما جعلهما يعرضان البيدر دون مقابل [٧].

أما الروايات التي تقول بأن ولى أمر الغلامين سيرضيهما من ماله [٨]، فإنها توحى بمعارضة الغلامين وعدم رضاهما بإعطاء المربد لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد جمع السمهودى بين الروايات المختلفة عمن كان يلى أمرهما ، هل

---

(١) انظر ما نقله السمهودى في نفس المصدر ، جـ١ ص ٢٥٠ عن ابن أبي شبه من انتشار المساجد في المدينة قبل مقدم الرسول ، وما ذكره المراغى في تحقيق النصرة ، ص٤٢ عن رزين عن أنس بن مالك « أن مصعب بن عمر كان يصلى في موضع المسجد قبل ذلك بطائفة من المهاجرين والأنصار قبل مقدم النبي ﷺ المدينة بسنة ، وهو أول من جمع الجمعة بأمر النبي ﷺ ، قال يحى فلما خرج مصعب إلى النبي ﷺ صلى بهم أسعد بن زرارة » .

(٢) إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين ، جـ١ ص ٤٦١ ، أحمد فكرى : المدخل ، ص ١٦٩ .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٢٢ .

(٤) تحقيق النصرة ، ص ١٨

(٥) الرحلة المغربية أو « رحلة العبدرى » روقة ١١٢ أ .

(٦) نفس المصدر ، ورقة ١١٢ أ .

(٧) السمهودى : المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٢٣ .

(٨) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ص ١٢٥٩ ، ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ٦٤ ، السمهودى : المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٢٣

هو أبو أيوب ، أم معاذ بن عفراء ، أم أسعد بن زرارة ، وبين دفع الرسول للثمن من مال أبى بكر بقوله « فيجمع بأنهما كانا فى حجر كل من المذكورين ، وأنهما بذلاه مجانا ، فامتنع صلى الله عليه وسلم من ذلك وأخذه بثمنه . ثم أن كلا من المذكورين لرغبته فى الخير بذل لهما شيئا عنه ، فنسب ذلك إليه »[١]. أما عن أبى بكر فيقول عنه السمهودى « فلعله رغب فى الخير أيضاً ، فدفع عشرة مع دفع أولئك »[٢]. وهذا الأداء من مال أبى بكر لم يكن الأول ولا الأخير فى سبيل إعلاء كلمة هذا الدين الحنيف ، وقد أثنى الرسول عليه الصلاة والسلام على هذا العطاء السخى من مال الصديق فقال : « أن آمن الناس علىّ فى صحبته وماله أبو بكر ، ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، وما نفعنى مال ما نفعنى مال أبى بكر »[٣].

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٢٤ ، ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار ، ص ٥٩ .

(٢) السمهودى : المصدر السابق جـ١ ص ٣٢٤ ، ابن حجر الهيثمى : المصدر السابق ، ص ٥٩ .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الصلاة الحديث رقم ٨٠ ، انظر : ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ٢ ص ٢٢٧ ، السخاوى : التحفة اللطيفة ، جـ٢ص ٣٥٩ ، السمهودى : المصدر السابق جـ١ ص ٤٧١ .

١ـ المراحل الأولى لبناء المسجد النبوى

أجمع الرواة على إقامة النبى صلى الله عليه وسلم أول جمعة له عند مقدمه إلى المدينة فى مسجد بنى سالم بوادى رنوناء[١]، وهو ما عرف فيما بعد بمسجد الجمعة ، وفى هذا ما يبطل الادعاء الذى أيده كريزول « من أن محمدا لم يقصد أن يكون هناك مواضع للصلاة اليومية »[٢].

ورغم اختلاف الروايات فى الموضع الذى أقام فيه الرسول عليه السلام صلاة العصر ، فمن المؤكد أنها كانت فى المدينة ، وبالتحديد فى موضع المسجد الذى اتخذه أسعد بن زرارة فى مربد سهل وسهيل قبل مقدم الرسول ﷺ إلى المدينة ، وذلك استنادا إلى ما ذكره السمهودى نقلا عن يحيى بن الحسين عن أم زيد بن ثابت أنها رأت « رسول الله ﷺ لما قدم صلى بهم فى المسجد »[٣]: وبما أن وادى رنوناء لا يبعد عن المدينة سوى ساعة بالسير العادى[٤]، فمن المؤكد أن صلاة العصر كانت فى هذا المربد الذى كان فى جزء منه مسجد وباقيه « به نخل وحرث وقبور من قبور الجاهلية »[٥]، وفى رواية أخرى ماء مستنجل[٦]. ومن المسلم به أن فكرة بناء المسجد النبوى الشريف قد حظيت باهتمام كبير من جانب الرسول عليه الصلاة والسلام ، منذ استقر به المقام فى دار أبى أيوب الأنصارى عندما سأل عن

---

(١) الذهبى : تاريخ الإسلام ، جـ١ ص ٢٠٢ ، القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ، ص ١١٣ ، المراغى : تحقيق النصرة ، ص ٣٨ .

(٢) العمارة الإسلامية المبكرة ، جـ١ القسم الأول ص ١٠ .

(٣) وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٢٥ . وانظر أدناه ص ٢٧ .

(٤) عبد القدوس الأنصارى : آثار المدينة المنورة ، ص ٢٣٢ .

(٥) البخارى : كتاب الصلاة جـ١ ص ٨٦ ، انظر : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك، جـ٢ ص٤٦١.

(٦) السمهودى : المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٢٧ . وقال ابن منظور فى لسان العرب جـ١١ ص ٦٤٨ « أن الماء المستنجل هو ما يظهر من الأرض ، الجمع نجال ، واستنجلت الأرض كثرت فيها النجال » .

أصحاب المربد وساومهما فى ثمنه [١].

ويبدو أن بناء المسجد قد سبقته أعمال كثيرة ، منها تكبير مساحة المسجد الذى أقامه أسعد بن زرارة [٢]، والتأكد من اتجاه قبلته إلى البيت المقدس ، لأنه ثبت أن جبريل عليه السلام قد حدد له الاتجاه الصحيح إلى بيت المقدس ، عند تأسيسه لمسجد قباء [٣]، مما يجعل التأكد من اتجاه قبلة مسجد المدينة أمرا ضروريا . كما أن من تلك الأعمال الكشف عن أماكن المؤنة اللازمة وتقريب الأحجار من حرار المدينة ، واعداد اللبن فى « بقيع الخبخبة ناحية بئر أبى أيوب بالمناصع » [٤]. وإشراف النبى ﷺ على إعداده كما جاء فى طبقات ابن سعد « أنه أمر باللبن فضرب [٥]. وما نقله السمهودى عن الإمام أحمد بن حنبل عن طلق بن على اليمانى[٦] أنه قال : « بنيت المسجد مع النبى ﷺ فكان يقول : قربوا اليمامى من

---

(١) أيد فريد شافعى فى كتابه العمارة العربية ، ص ٦٤ - ٦٥ أقوال بعض المستشرقين من أن الرسول عليه السلام لم يقصد بناء المسجد من أول مرة فقال : « ظهر ذلك الحدث المعمارى عندما خطط الرسول داراً لنفسه ولآل بيته وجعل عددا من الحجرات يتقدمها فناء واسع أحاطه بجدران لا تكاد تعلو على قامة رجل ، وجعل فى الركن الشمالى الغربى من الفناء صفة أو ظلة يحتمى بها الفقراء من أصحابه ، وكان يجلس فيها الرسول ليجتمع بالمسلمين ويتدارس معهم شئونهم وما يتصل بالدعوة إلى الدين الإسلامى ، وكان يصلى بهم أحيانا فى هذه الدار فى الأوقات الخمسة اليومية . ومن ثم أخذت الدار صفة المسجد ، أما الصلاة الجامعة فكانوا يؤدونها فى مسجد قباء خارج المدينة » . وقد فاته أن المسجد كان يقوم بوظائف عديدة إلى جانب العبادة.

(٢) المراغى : تحقيق النصرة ، ص ٤٢ .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٢٥٣ .

(٤) نفس المصدر ، جـ١ ص ٣٣٤ ، والخبخبة شجرة كانت هناك ، ويقول السمهودى أن بقيع الخبخبة « لا يعرف فى زمنه كما ذكره شيخ مشايخه الزين المراغى » . والمناصع كما يقول ابن منظور فى لسان العرب ، جـ٨ ص ٣٥٦ « موضع خارج المدينة » .

(٥) الطبقات الكبرى ، جـ١ ص ٢٣٩ .

(٦) نسبة إلى اليمامة التى ظهر بها مسيلمة الكذاب ، وانظر ترجمته عند السخاوى فى التحفة اللطيفة جـ٢ ص ٢٦٧ .

الطين فإنه أحسنكم له مسكا وأشدكم منكبا » [١] . وفي رواية لابن سعد عن طلق أيضًا أنه قال : « قدمت على النبى ﷺ وهو يبنى مسجده والمسلمون يعملون فيه معه ، وكنت صاحب علاج وخلط طين فأخذت المسحاة[٢] أخلط الطين ورسول الله ﷺ ينظر إلىّ ويقول إن هذا الحنفى لصاحب طين » [٣] . هذا بالإضافة إلى تسوية المربد وإزالة ما حوله من حرث وماء ونخل وقبور جاهلية [٤] ، ومن أجل ذلك كله بقى الرسول ﷺ فى بيت أبى أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه . وكان ابتداء بنيانه للمسجد « فى شهر ربيع الأول من السنة الأولى » [٥] ، وقد باشر فيه العمل بنفسه[٦] مما يدحض انكار بعض المستشرقين لبناء المسجد فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ورائدهم فى ذلك كما يقول الدكتور أحمد فكرى « العلامة كيتانى CAETANI الذى أفاض فى شرحه وحاول أن يجمع له من الحجج ما يزيده صحة واستيثاقا » [٧] . واقتنع برأيه كثير من العلماء [٨] ، ومنهم الكابتن كريزويل CRESWELL الذى قال أنه « لم يصبح مكانا للعبادة بمعنى الكلمة

---

(١) وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٣٤ .

(٢) هى أداة معدنية تستخدم فى الحرث وحفر الأرض .

(٣) ابن سعد : المصدر السابق ، جـ٥ ص ٥٥٢ .

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ص ١٢٥٩ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ٦٩ ، المراغى : تحقيق النصرة ص ٤٢ .

(٥) القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ، ص ١١٤ .

(٦) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية ، القسم الأول ، ص ٤٩٦ أن رسول الله عمل فى بناء المسجد بنفسه « ليرغب المسلمين فى العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ، ودأبوا فيه ، فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبى يعمل   لذاك منا العمل المضلل » .

(٧) أحمد فكرى : مسجد القيروان ، ص ٣٩ .

(٨) يقول أحمد فكرى فى نفس المرجع ص ٤٠ « أن اقتناع المستشرقين بما أورده كيتانى من آراء تتمثل فى أن مسجد المدينة الذى أجمع مؤرخوا الإسلام على ذكره ، لم يكن إلا بيت الرسول نفسه ، وتساءلوا ماذا كان يدعو المسلمين إلى بناء بيت للصلاة ، وصلاة الجمعة لم تفرض عليهم ، بل ولم تفرض الصلاة قبل وفاة الرسول »وذكر فى حاشية ص ٣٩ من نفس المرجع أنه لم يخالفهم إلا الأستاذ كريمر فى كتابه تاريخ المدينة فى الشرق تحت حكم الخلفاء .

إلا بعد نصف قرن من تطور الدين الإسلامي »[١]. بيد أن هذه المزاعم والافتراءات الناجمة عن تعصب هؤلاء العلماء، وعدم تمكنهم من فهم اللغة العربية فهما صحيحا تنهار أمام ما قام به الدكتور أحمد فكرى من بحث في كتابيه مسجد القيروان ، والمدخل إلى مساجد مصر والقاهرة [٢]. علاوة على ذلك لقد عارض FR. BUHL المستشرقين المؤيدين لآراء كيتاني مدللا على أن ذكر مسجد الضرار في سورة التوبة آية رقم ١٠٧ دليل على بناء المسجد النبوى في عهد الرسول [٣].

ولم يقتصر المستشرقون على التشكيك في بناء المسجد النبوى بأمر الرسول واشرافه ، وإنما امتد ذلك أيضًا إلى التشكيك في بعض العناصر المعمارية كالمحراب[٤]، والمنبر ونظام تخطيط المسجد وغيره مستغلين « ما في روايات المؤرخين والكتاب العرب القدماء من نقاط ضعف وثغرات »[٥]، عديدة ، مما يوجب على كل باحث منصف تفنيد هذه المزاعم ودحضها بأسلوب علمي سليم قائم على الدليل المقنع وخال من التعصب والأهواء .

* * *

---

(١) العمارة الإسلامية المبكرة ، جـ١ القسم الأول ، ص ٧ .
(٢) ص ٣٩ ــ ٥٠ من الكتاب الأول وصفحة ٢٦٧ من الكتاب الثاني .
(٣) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة المدينة جـ٣ ص ٩٠ .
(٤) يرى فريد شافعي في كتابه العمارة العربية ، ص ٥٩٩ أن المحراب المجوف وجد في المسجد النبوى في حياة الرسول وأنه كان على شكل تجويف بسيط لم يتضح هذا التجويف إلا في عمارة عثمان رضى الله عنه . والحقيقة أن اسطوانة مصلى النبي التي صلى إليها مدة من الزمن كانت علامة مميزة لموضع المصلى الشريف الذى كان محاذيا لها . ولم يتوفر لي نص يفيد بأن المحراب وجد في عهد الرسول كما يرى شافعي
(٥) فريد شافعي : المرجع السابق ص ٥٨٤

٢ تخطيط المسجد النبوي وبناؤه

اهتم النبي ﷺ ، بعد إعداده مكان المسجد ، بأمر بنائه وتعيين إتجاه القبلة على وجه التأكيد بمساعدة أمين الوحى عليه السلام من صحة إتجاه قبلة المسجد الأول، وليس غريبا أن يحتاج الرسول ﷺ فى هذا الأمر إلى مرشد سماوى لمعرفة الإتجاه الصحيح للقبلة ، نظرا لانعدام الوسائل التى تساعد على تحديد الاتجاه القطعى للقبلة فى ذلك الوقت ، وقد حدث إنحراف فى إتجاه القبلة فى بعض المساجد التى أسست بعد المسجد النبوى بوقت طويل ، كما هو الحال فى مسجد القيروان بتونس الذى وضع أساسه عقبة بن نافع سنة خمسين من الهجرة [١]، ومسجد واسط الذى أنشأه الحجاج سنة ٨٦هـ [٢]، ومسجد المنصور ببغداد الذى بنى سنة ١٤٩هـ [٣]، وكذلك جامع القرويين فى مدينة فاس [٤]. ولهذا فليس من المستغرب أن يحظى تعيين اتجاه القبلة بهذا الاهتمام الكبير من جانب الرسول ﷺ ، وذلك لأن جدار القبلة كما يقول أحمد فكرى « كالقاعدة للمستطيل إن انحرفت فلا مناص من أن تنحرف أضلاعه الأخرى ولا مناص من أن تحيد أساكيب (بلاطات) المسجد أيضاً فهى موازية لهذا الحائط »[٥] الذى كان يتجه عند تأسيس المسجد النبوى من الشرق إلى الغرب فى اتجاه بيت المقدس قبلة المسلمين الأولى . ويوازيه فى الجنوب جدار مثله فى الطول يتجه من الشرق إلى الغرب ، أما الجداران الآخران وهما الشرقى والغربى ، فيمتدان من الجنوب إلى الشمال فى شكل مستقيم ويتعامدان على طرفى جدار القبلة مما جعل مخطط المسجد يأخذ شكل المستطيل المتوازى

---

(١) أحمد فكرى . مسجد القيروان ، ص ٢٢

(٢) أحمد فكرى : المدخل ، ص ٢١٥ .

(٣) رمزية محمد الأطرقجى : بناء بغداد فى عهد أبى جعفر المنصور ، ص ٢٨ .

(٤) عبد الهادى التازى : جامع القرويين ، جـ٣ ص ٦٥٧ ـ ٦٥٩ .

(٥) أحمد فكرى : مسجد القيروان ، ص ٢٣

الأضلاع . وبدأ الرسول ﷺ مع أصحابه في تنفيذ هذا البناء البسيط ، الذى يتفق مع بساطة الدين الإسلامى الحنيف ، « والذى لا يتطلب أداؤه أكثر من جدران تقام بأية مادة من مواد البناء ، تحدد محيط المسجد وتحفظ حرمته ، ومن سقيفة أو ظلة أو أكثر يحتمى بها المسلمون فى أثناء صلاتهم »[١].

وهذه البساطة هى التى توخاها الرسول فى أول بناء لمسجده وهو ما عناه بقوله لأصحابه « ابنوا لى مسجدا عريشا كعريش موسى ، ابنوه لنا من لبن »[٢]. وكان اللبن مادة أساسية في بناء المسجد الأول بعد تأسيسه بالحجارة المحفور لها فى باطن الأرض إلى ارتفاع ثلاثة أذرع [٣]. أى بارتفاع ١٥٠ سم تقريباً [٤]، وهو ما اقتصر عليه الرسول ﷺ فى المرحلة الأولى من بناء المسجد الشريف استنادا إلى ما أورده السمهودى نقلا عن ابن عائذ عن عطاف بن خالد « أنه ﷺ صلى فيه وهو عريش إثنا عشر يوما ، ثم بناه وسقفه »[٥].

ويؤيد تطور البناء هذا ما ذكره ابن النجار عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان طول جدار المسجد بسطة [٦]، وكان عرض الحائط لبنة لبنة ثم أن المسلمين كثروا فبنوه لبنة ونصف ، ثم قالوا : يا رسول الله لو أمرت فزيد فيه قال : نعم فأمر به فزيد فيه وبنى جداره لبنتين مختلفتين ، ثم اشتد عليهم الحر فقالوا : يا رسول الله لو أمرت بالمسجد فظلل فقال : نعم فأمر له بسوارى من

---

(١) فريد شافعى : العمارة العربية ، جـ١ ص ٢٣٧ .

(٢) أورد السمهودى : فى وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٢٧ الروايات التى ذكرت العريش ومنها ما يقول أنه سبعة أذرع وأخرى تقول أنه إذا قام فيه أصاب رأسه السقف . ويشرح القرطبى فى بهجة ، ص ١١٦ العريش فيقول : « أن عريش موسى كان إذا قام به أصاب رأسه السقف ، والعريش كل شيء سقف والجمع عروش ، وقيل عرش ويسمى مجلس السلطان عرشا . وعرش الله عز سلطانه مما لا يعلمه البشر » .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ١ ص ٢٣٩ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص٧٩.

(٤) ذراع اليد هى نفس الذراع الشرعية وتساوى ٥٠/٣ من المتر . انظر : فالترهنتس فى المكاييل والأوزان الإسلامية ، ص ٨٨

(٥) وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٢٧ .

(٦) البسطة هى قامة الرجل مع رفع اليد إلى أعلى ، انظر ابن منظور : لسان العرب جـ٧ ص٢٦١ .

جذوع النخل شقة ثم شقة ، ثم طرح عليها العوارض والخصف والأذخر [١]، وجعل وسطه رحبة . فأصابتهم الأمطار فجعل المسجد يكف « يقطر سقفه » عليهم فقالوا : يا رسول الله لو أمرت بالمسجد فطين فقال لهم : عريش كعريش موسى ثمام وخشيبات والأمر أعجل من ذلك »[٢] وقد يبدو أن الشرح الموجز الذى أوردته السيدة عائشة رضى الله عنها للمراحل التى مر بها بناء المسجد فى عهد رسول الله ﷺ غير واضح ولكننى بتتبعى للروايات المختلفة استطعت أن أتفهم الأدوار التى مر بها المسجد فى مراحله الثلاث ، فقد أسس المسجد النبوى أول مرة بالحجارة[٣]. وذلك لأنها أقوى وأقدر على مقاومة السيول والمياه التى قيل أنها كانت مجتمعة فى مكان المسجد . وكعادة البناة فى كل عصر فلا بد من حفر أساس لجدران المسجد حتى لا تجرف السيول والأمطار تربة الأرض المحيطة بالمسجد فتبقى الجدران معلقة [٤]. وقد كان ارتفاع الجزء المبنى من الحجارة بما فيه الجزء المدفون ثلاثة أذرع أى متر ونصف تقريبا ، ثم أضيف عليه من اللبن ما أوصل الجدار إلى ارتفاع البسطة ، وهو المقصود من قول ابن النجار أنهم « جعلوا أساس المسجد من الحجارة وبنوا باقيه من اللبن » [٥] وذلك عن طريق وضع لبنة فوق

---

(١) قال ابن منظور فى نفس المصدر جـ٤ ص ٣٠٣ « الأذخر حشيش طيب الريح له أصل مندفن دقاق وفر الريح ، وهو مثل أسل الكولان إلا أنه أعرض وأصغر كعوبا ، وله ثمرة كأنها مكاسح القصب ، إلا أنها أدق وأصغر وهو يشبه فى نباته الغرز ، يطحن فيدخل فى الطيب ، وهو ينبت فى الحزون والسهول وقلما تنبت الأذخرة منفردة ... وإذا جف الأذخر أبيض ، وهو حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب .

(٢) الدرة الثمينة ، ص ٦٩ ــ ٧٠ ، المراغى : تحقيق النصرة ص ٤٤ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ١ ص ٢٣٩ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٧٩ .

(٤) ذكر السمهودى فى الوفا ، جـ٢ ص ٦٨٣عن ابن زبالة ويحيى أن « عرض جدار المسجد مما يلى المغرب ذراعان ينقصان شيئا ، وعرض منقبته (مدماكه) مما يلى المشرق ذراعان وأربعة أصابع ، وإنما زيد فيه لأنها من ناحية السيول » وفى هذا يقول السمهودى « وهذا لأن السيل كان يغشى المسجد من تلك الناحية » ، ويبدو من كلام ابن زبالة ويحيى أن عرض هذا الجدار كان فى عمارة المهدى ويبدو أن عرض المداميك التى أقامها الرسول كانت مثل المداميك المذكورة أو قريبا منها .

(٥) الدرة الثمينة ، ص ٦٩ .

أخرى وهذه فى نظرى هى المرحلة الأولى من بناء المسجد استنادا إلى ما أورده السمهودى نقلا عن رزين من رواية جعفر حيث قال « أن جداره قبل أن يظلل قامة وشيئا » [١]، وكان البناء الذى استخدم فيه هو السميط من اللبن »[٢] حين كان عدد المسلمين فى أول السنة التى قدم فيها الرسول ﷺ إلى المدينة لا يتجاوز الألف ، استنتاجا مما ذكره المراغى من أن عدد المسلمين الذين خرجوا معه من قباء وصلوا معه الجمعة فى مسجد بن سالم بوادى رنوناء « كانوا مائة رجل ويقال أربعين »[٣]، ومما ذكره السمهودى عن عدد المستقبلين له فى المدينة بأنهم خمسمائة مسلم [٤]، وهذا العدد من المهاجرين والأنصار هم الذين كانوا يداومون على شهود الصلاة مع رسول الله فى مسجده بالمدينة أول الأمر . بيد أن أتباع هذا الدين كثروا بمرور الوقت مما تطلب معه اعادة بناء المسجد مرة ثانية ، وهذا البناء هو الذى استخدمت فيه السعيدة من اللبن [٥]، ولكن أحدا من المؤرخين لم يشر إلى الأسباب التى من أجلها استخدم هذا النوع من البناء سوى ما أورده ابن النجار من رواية عائشة رضى الله عنها حيث قالت : « ثم أن المسلمين كثروا فبنوه لبنة ونصف » [٦]، ولكن الاختلاف الملحوظ فى الروايات التاريخية حول ذرع المسجد فى عهده ﷺ يجعل المرء يقف أمام هذا الأختلاف فى الذرع الذى يتدرج من الصغر إلى الكبر موقف المتشكك فى أن كل هذه الروايات تدور حول مرحلة واحدة من مراحل بناء المسجد .

١ - فقد روى ابن اسحاق الحربى عن يحيى بن حسين أنه قال : « حدثنى هارون بن موسى ، عن محمد ابن يحيى ، قال : كان فيما انتهى إلينا من ذرع

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص ٣٣٥ .

(٢) قال ابن منظور فى لسان العرب ، جـ٧ ص ٣٢٤ أن السَّميطَ والسَّمَيطُ هو الأجر القائم بعضه فوق بعض ومثل ذلك ذكره الفيروزبادى فى القاموس المحيط جـ٢ ص ٣٧٩ .

(٣) المراغى : تحقيق النصرة ، ص ٣٨ .

(٤) وفاء الوفا ، جـ١ ص ٢٥٥ .

(٥) قال ابن منظور فى لسان العرب جـ٣ ص ٢١٥ أن السعيدة هى اللبنة لبنة .

(٦) انظر أعلاه ص ٣٤ .

مسجد النبي ﷺ ، ذلك من القبلة إلى حده الشامي أربعا وخمسين ذراعا وثلثي ذراع ، وحده من المشرق ثلاثة وستون ، يكون ذلك مكسرا ثلاثة آلاف وأربع مائة ذراع ، وأربع وستون ذراعا [١].

٢ - وأجمل السمهودى ما تحصل له من روايات في ذرع المسجد النبوى فقال : «وقد تحصلنا فيما تقدم في ذرع المسجد على أربع روايات : الأولى ، سبعون ذراعا في ستين أو يزيد ، والثانية ، مائة ذراع في مائة ، وأنه مربع ، والثالثة ، أنه أقل من مائة ذراع ، وهذا صادق بالأولى فليحمل عليها ، الرابعة ، أنه بناه أولا أقل من مائة في مائة ثم بناه وزاد عليه مثله في الدور» [٢]. كما أن هذا التدرج ملحوظ في ارتفاع الجدار ، فتارة يوصف بأنه قدر قامة الرجل أو قامة وبسطة ، كما نقل السمهودى عن ابن زبالة ويحيى من أن «جداره قبل أن يظلل قامة وشيئا»[٣] وعند ابن سعد بسطة [٤]. وفي الصحيحين «كان جدار المسجد ما كادت الشاه تجوزه»[٥] وأورد السمهودى عن كل من الغزالي والأقشهرى روايتين مفادهما أن جدار القبلة سبعة أذرع [٦]، وهو ما يقول عنها أحمد فكرى أنها «ثلاثة أمتار ونصف» [٧]. وهو ارتفاع كبير لا

(١) ابن إسحاق : كتاب المناسك ، ص ٣٥٩ وحاصل الضرب مغلوط وصحته ٣٤٤٤ ذراع أى أنه يزيد خمسون ذراعا .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٤٠ . وقد علق السمهودى على الرواية الرابعة بقوله «الظاهر أن المراد من هذه الرواية الاشبار لا الأذرع ، فيقتضى أن المسجد النبوى بعد البناء الثانى صار أحد امتداديه مائتى شبر ، والامتداد الآخر نحوها ، فيوافق رواية مائة ذراع في مثلها» .
وإذا كان حاصل ضرب المرحلة الأولى ٧٠×٦٠ = ٤٢٠٠ ذراع فإن حاصل ضرب المرحلة الأخيرة أكثر من ضعفين هذا الرقم ١٠٠×١٠٠ = ١٠٠٠٠ ذراع وهذا يوافق قوله زاد عليه مثله في الدور .

(٣) السمهودى ، المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٣٥ ، وانظر المراغى : تحقيق النصرة ، ص ٤٥ .

(٤) الطبقات الكبرى ، جـ١ ص ٢٤٠ .

(٥) القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ص ١١٥ ويقصد به أن الشاة تستطيع بصعوبة القفز من فوقه .

(٦) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٣٦ .

(٧) المدخل ، ص ١٧١ .

يمكن أن يكون قد استخدم من أول مرة ، ومن هذا يتبين أن عمارة المسجد النبوى الشريف مرت بثلاث مراحل فى عهد الرسول ﷺ . واستخدم فى كل مرحلة منها نوع خاص من البناء كان يعبر عنه تارة بلبنة ، وتارة بلبنة ونصف وتارة بلبنتين مختلفتين [١]، وهى كالتالى :

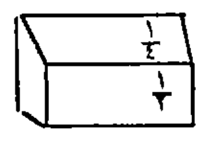
أولاً : المرحلة التى كان فيها طول المسجد من المشرق إلى المغرب ٦٣ ذراعا وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٥٤ ذراعا وثلثا ذراع ، وارتفاعه قامة أو بسطة ونوع البناء لبنة فوق لبنة ، وكانت أرض المسجد كلها مكشوفة .

ثانياً : المرحلةالتى كان طول المسجد فيها سبعين ذراعا وعرضه أكثر من ستين ذراعا وارتفاعه قامة وشىء ونوع البناء لبنة ونصف وأرضه مكشوفة . شكل)(٢٣).

ثالثاً : بقى المسجد فى هذه المرحلة كما هو فى المرحلة السابقة ، أى أقل من مائة ذراع إلا أنه سقف بالعوارض التى ترتكز على الأعمدة من جذوع النخل

---

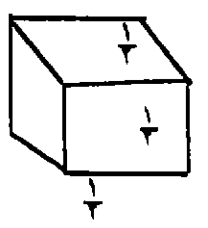
(١) وردت بعض التفسيرات عن طريقة وضع الطوب فى مراحل بناء المسجد النبوى فى عهد الرسول ﷺ إلا أننى وجدت صعوبة فى رسم بناء كل مرحلة وفق المعطيات التى ذكرها أحمد فكرى فى كتاب المدخل ص ١٧٠ وعبد الحى الكتانى فى التراتيب الإدارية جـ٢ ص ٧٧ عن صفة بناء اللبنة بجوار اللبنة وصفة بناء اللبنة والنصف ، وبناء اللبنتين المعترضتين . وقد ظل الأمر غامضا بالنسبة لى حتى ظفرت بما ذكره السمهودى فى وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٢٣ من أنهم وجدوا فى بعض جدران الحجرة الشريفة عند هدمها سنة ٨٨١هـ « لبنا غير مشوى طول اللبنة منه أرجح من ذراع وعرضه نصف ذراع وسمكه ربع ذراع وطول بعضه وعرضه وسمكه واحد وهو نصف ذراع » ثم ذكر بعد ذلك فى صفحة ٦٢٤ أن هذا اللبن من بقايا لبن الحجرة الشريفة فى عهد الرسول ﷺ وأنهم « رأوا أن لا يخلو بناؤهم من بركة ذلك اللبن ، فوضعوا منه ما رأوا فيه الصلابة بين الأحجار المبنية بالقصة » بعد هدم الحجرة الشريفة فى عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨هـ . وعلى هذا فإن لدينا نوعين من اللبن : الأول طوله ذراع ، وعرضه نصف ذراع ، وسمكه ربع ذراع هكذا :



وفوقها الخصف والأدخر ، ثم استخدم الطين فى تغشيتها فيما بعد ، وقد أوجب استخدام السقف فى هذه المرحلة رفع البناء الذى يقول عنه ابن المحجوب : « أن طول جدار المسجد فى الهواء كان قبل تسقيفه قامة تزيد شبرا ، كذا نقل ابن زبالة عن أنس ابن مالك ، ولما سقفه الرسول بالجريد كما تقدم فلابد أن تظهر فى طوله

= وهو ما يتفق مع ما ذكره ابن هشام فى القسم الأول من السيرة النبوية ص ٤٩٦ والسمهودى فى وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٣٠ من أن عمار بن ياسر اشتكى إلى رسول الله ﷺ عند بناء المسجد الشريف من تحميله لبنتين خلافا لبقية العاملين الذين كانوا يحملون لبنة واحدة وذلك لأن لبنة من هذا النوع هى ما يتفق وجهد الإنسان العادى .

أما النوع الثانى من اللبن فطوله نصف ذراع وعرضه نصف ذراع وسمكه نصف ذراع وشكله هكذا :



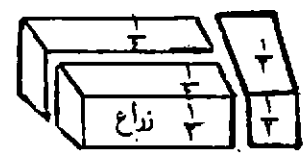
ويمكن وفق هذه المعطيات الجيدة إعادة ترسم كل طريقة من طرق البناء الثلاث كالتالى :

النوع الأول من البناء وهو ما يعبر عنه ابن النجار « بلبنة لبنة » فكان مبنيا كله بالنوع الأول من اللبن على هذا النحو :



أى أن سمك الجدار فيه ربع ذراع .

أما النوع الثانى وهو ما عبر عنه ابن النجار بلبنة ونصف فكان الجدار فيه أكثر سمكا من النوع الأول ، وذلك لأنه استخدم فيه لبنتين من النوع الأول وأقامهما بجوار بعض ووضع أمامهما لبنة من النوع الثانى وهو ما عبر عنه بالنصف وذلك على النحو التالى :



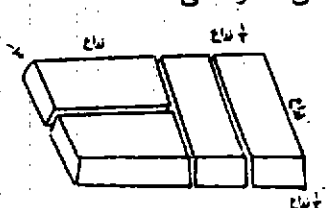
أما النوع الثالث من البناء وهو ما عبر عنه ابن النجار أيضًا بلبنتين مختلفتين فكلها من النوع الأول ، إلا أن اللبن قد وضع على عرضه رغبة فى زيادة عرض المدماك لكى يتفق مع التطور =

زيادة قليلة »[١]. ومن المرجح أن استخدم اللبنتين المعترضتين كان فى هذه المرحلة نظراً لما يتطلبه تسقيف المسجد الشريف من متانة فى البناء ، وهذا البناء هو ما بقى عليه المسجد حتى تم تحويل القبلة وتجديد بناء المسجد وتوسعته فى السنة السابعة من الهجرة . ولعل مما يؤيد هذا التقسيم بأدواره الثلاثة بقاء « رسول الله ﷺ فى بيت أبى أيوب سبعة أشهر »[٢] وقيل عشرة أشهر كما يبدو مما نقله السمهودى عن رزين الذى قال : أقام عند أبى أيوب من شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الثانية »[٣] وقال القرطبى : « كان ابتداء بنيانه ﷺ لمسجده فى شهر ربيع الأول من السنة الأولى ، وكانت اقامته فى دار أبى أيوب سبعة أشهر »[٤] وذكر الطبرى أن رسول الله ﷺ « بنى بعائشة بعد مقدمه المدينة بثمانية أشهر فى ذى القعدة فى قول بعضهم وفى قول بعض بعد مقدمه المدينة بسبعة أشهر فى شوال »[٥].

وليس بمستبعد أن يشهد المسجد النبوى الشريف فى الأشهر السبعة التى أقامها الرسول بدار أبى أيوب قبل أن يكمل بناء داره ومسجده هذا التطور المعمارى بمراحله الثلاث لا سيما وأن أنصار الدعوة فى ازدياد . ولا شك أن حرصهم على حضور الصلاة فى جماعة مع الرسول عليه السلام قد أوجب هذا التوسع المتتابع فى المسجد النبوى الشريف .

ومهما يكن من أمر فإن بناء المسجد كان مما لا بد منه كما يفهم من رواية أبى داود عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « أن كل بناء وبال على صاحبه إلا مالا ، إلا مالا » أى إلا ما لا بد منه[٦].

= المعمارى الذى حدث فى ارتفاع سقوف المسجد وجدرانه وكان على النحو التالى :



(١) قرة العين فى أوصاف الحرمين . ورقة ٦٥ أ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢ وابن النجار : الدرة الثمينة ص ٦٨ .
(٣) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٢٦٥ .
(٤) بهجة النفوس والأسرار ، ص ١١٤ .
(٥) تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ص ١٢٦١ .
(٦) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٠٩ .

٣ - المسجد النبوى من تحويل القبلة حتى السنة السابعة من الهجرة

احتل نبأ تحويل القبلة مكانا بارزا عند رواة السيرة ومدونيها ، وذلك لأن أمر القبلة كان يشغل بال الرسول منذ استقر به المقام فى المدينة المنورة [(١)]، كما أن الرغبة فى الاتجاه إلى الكعبة قد راودت بعض المسلمين قبل الهجرة كالبراء بن معرور الذى استقبل الكعبة عند مقدمه مع قومه الأنصار لمبايعة الرسول عليه الصلاة والسلام فى العقبة الثانية فقال له الرسول عليه السلام « قد كنت على قبلة لو صبرت عليها فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ » . وقد زالت حيرته ﷺ بعد ١٦ أو ١٧ شهرا بنزول الآية الكريمة ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾ [(٢)].

---

(١) عن سبب اهتمام الرسول بهذا الأمر انظر ما ذكره الطبرى عن حب النبى ﷺ لاستقبال البيت وما قالته اليهود فى استقباله لبيت المقدس ، جـ٣ ص ١٢٨١ ، وابن سعد فى طبقاته ، جـ١ ص ٢٤١ - ٢٤٣ عن حب النبى لاستقبال الكعبة ، وانظر ابن الأثير فى الكامل جـ٢ ص ١١٥ عن صلاته فى مكة وجعله الكعبة بينه وبين بيت المقدس وعدم تمكنه من ذلك فى المدينة وانظر ما ذكره السمهودى نقلا عن يحيى عن ابن عباس قال : « كان رسول الله ﷺ إذا وقف يصلى انتظر أمر الله فى القبلة ، وكان يفعل أشياء مما لم يؤمر بها ولم ينه عنها من فعل أهل الكتاب ، قال : فبينما رسول الله ﷺ يصلى ، فأشار له جبريل يا محمد صلى إلى البيت ، وصلى جبريل عليه السلام إلى البيت ، قال : فدار النبى ﷺ إلى البيت ، قال : فأنزل الله تعالى « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها » إلى « وما الله بغافل عما تعملون » قال : فقال المنافقون حن محمد إلى أرضه وقومه ، وقال المشركون أراد محمد أن يجعلنا له قبلة، وأن يجعلنا له وسيلة ، وعرف أن ديننا أهدى من دينه ، وقالت اليهود للمؤمنين ، ما صرفكم إلى مكة وتركتم قبلة موسى ويعقوب والأنبياء ؟ والله ما أنتم إلا تعبثون » الوفاء ، جـ١ ص ٣٦٠ .

(٢) سورة البقرة : آية ١٤٤ . وذكر الزرزقى فى أخبار مكة جـ١ ص ١٩ ترجيح رواية السبعة عشر شهرا . وذكر السمهودى نقلا عن ابن حجر العسقلانى أن « أسانيد الروايات المتقدمة أعنى =

وقد استجاب عليه السلام لهذا الأمر الربانى فاستدار إلى الكعبة وهو يصلى الظهر فى مسجد بنى سلمة ، وبالرغم من اختلاف الروايات ، إلا أن الثابت عند الحافظ بن حجر كما يقول السمهودى « أن أول صلاة صلاها فى بنى سلمة الظهر وأول صلاة صلاها بالمسجد النبوى العصر »[1] ومن ثم انتشر نبأ تحويل القبلة فى المدينة وما يحيط بها من قرى ، فكان وقت وصول الخبر يختلف من مكان لآخر [2].

وقد ترتب على هذا الحدث الكبير فى المسجد النبوى آثارا معمارية مهمة هى :

أولاً : انتقلت القبلة من الشمال إلى الجنوب بأمر الله عز وجل ولهذا كان لا بد من نقل الظلة التى أقيمت فيما سبق لتقى المصلين الحر والمطر من الجهة الشمالية إلى الجهة الجنوبية ، بيد أن الحاجة إليها لايواء الفقراء والمساكين أوجبت بقاءها وإقامة أخرى فى الجهة الجنوبية . وكان ما بين الظلتين رحبة واسعة [3]. ولكن المصادر التى أمكننى الاطلاع عليها لم تشر إلى تغيير اتجاه جدار القبلة الذى يقول عنه أحمد فكرى أنه « كالقاعدة للمستطيل إن انحرفت فلا مناص من أن

= رواية لثلاثة عشر شهرا وتسعة عشر شهرا ونحوها شاذة . قال وأما رواية الصحيح فطريق الجمع بين رواية سبعة عشر شهرا وستة عشر ، ورواية الشك فى ذلك أن من جزم بستة عشر لفق من شهر القدوم وشهر التحويل شهرا ، وألغى الأيام الزائدة ، ومن جزم بسبعة عشر شهرا عدها معا ، ومن شك تردد فى ذلك ، وذلك أن القدوم كان فى شهر ربيع الأول بلا خلاف ، وكان التحويل فى نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح وبه جزم الجمهور ورواه الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس ، وقول ابن حبان « سبعة عشر شهر وثلاثة أيام » بنى على أن القدوم كان فى ثانى عشر ربيع الأول . انظر : الوفا ، جـ١ ص ٣٦٤ .

(١) وفاء الوفا جـ١ ص ٣٦٤ .

(٢) كما حدث لبنى حارثة إذا يقول السمهودى فى نفس المصدر جـ١ ص ٣٦٢ نقلا عن ابن أبى حاتم عن ثويلة بنت أسلم قالت « صليت الظهر والعصر فى مسجد بنى حارثة ، فاستقبلت مسجد ايلياء ، فصلينا سجدتين : أى ركعتين ، ثم جاء من يخبرنا أن النبى ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال ، والرجال مكان النساء فصلينا السجدتين الباقيتين إلى البيت الحرام » .

(٣) أحمد فكرى : المدخل ص ١٧١ .

تنحرف أضلاعه الأخرى »[1].

ولم يرد عن هذا الحدث المعمارى أدنى إشارة إلا ما ذكره أبو عبد الله بن المحجوب حين قال : « ولا خلاف أنه ﷺ جعل قبلة مسجده الكريم فى أول بنائه إلى جهة الشام لبيت المقدس وصلى إليها ستة عشر أو سبعة عشر شهرا ، ثم أمره الله باستقبال الكعبة بمكة فحوّل قبلة مسجده إليها وهى على عكس ما كانت عليه ، فإن استقبال الشام إلى شمال المسجد واستقبال الكعبة ومكة إلى جنوبيه »[2]. إلا أن كلا من بيت المقدس والمدينة المنورة ومكة المكرمة ليست على خط طول واحد كما يظهر من الخريطة المرفقة شكل (٢٤) والصورة شكل (٢٥) ومعنى ذلك أن الإكتفاء بعمل ظلة فى المسجد بازاء جدار القبلة قد يترتب عليه انحراف فى ترتيب الصفوف داخل هذه الظلة وباقى المسجد ، فالمدينة المنورة تقع على خط طول ٣٦و٣٩° شرقا[3]، ومكة المكرمة على خط طول ٩ر٤٠° شرقا[4]. وبيت المقدس على خط طول ١٣ر٣٥° شرقا[5] . أى أن هناك خط يشبه القوس يربط ما بين هذه المدن الثلاث . ومما يؤيد تشككى فى بقاء جدران المسجد على حالها الأول ، ما ورد فى الروايات التى تذكر نبأ تحويل القبلة ، فابن المحجوب ينقل عن ابن زبالة « أنه ﷺ لما أمره الله باستقبال الكعبة أتاه جبريل عليه السلام فرفع له الكعبة ، وقال يا رسول الله ابن قبلة مسجدك وأنت تنظر إلى الكعبة فصوب قبلته وهو يشاهدها لا يحال بينه وبينها ، حتى إذا فرغ قال جبريل للجبال والشجر هكذا وأشار إليها فعادت كما كانت »[6].

وذكر القرطبى أن رسول الله ﷺ أقام « رهطا على زوايا المسجد ليعدلوا القبلة

---

(١) انظر أعلاه ، ص ٣٣ .

(٢) قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٦٥ أ .

(٣) عمر الفاروق رجب : المدينة المنورة ص ٢٣ .

(٤) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٣٧ .

(٥) عبد الحميد زايد : القدس الخالدة ص ١٣ .

(٦) قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٦٥ أ .

فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال يا رسول الله ضع القبلة وأنت تنظر إلى الكعبة»[١]. وقال ابن النجار أنه عليه الصلاة والسلام « أقام رهطا على زوايا المسجد ليعدل القبلة فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا رسول الله ضع القبلة وأنت تنظر إلى الكعبة »[٢]. وأسند يحيى عن طريق ابن زبالة كما نقله السمهودى عن الخليل بن عبد الله الأزدى عن رجل من الأنصار أن رسول الله ﷺ أقام رهطا على زوايا المسجد ليعدل القبلة ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا رسول الله ، ضع القبلة وأنت تنظر إلى الكعبة ، ثم قال بيده هكذا ، فأماط كل جبل بينه وبين القبلة ، فوضع تربيع المسجد وهو ينظر إلى الكعبة .. »[٣]. واستنادا إلى ما ورد فى هذه الروايات من ألفاظ تؤيد تربيع المسجد وتعديل قبلته يتبين أن المسجد النبوى شهد فى هذه المرحلة الهامة من تاريخه تعديلا فى وضع جدرانه ، وإلا فما الداعى إلى استعانة الرسول ﷺ بمن يقوم على أركان المسجد ليضع الاتجاه الصحيح الذى لم يتم إلا بمساعدة أمين الوحى عليه السلام ؟[٤] ولولا أن الأمر بهذه الصعوبة لاكتفى الرسول ﷺ بوضع علامة فى جدار القبلة الجديدة . ومما يؤيد اعتقادى فى تغيير جدران المسجد الشريف بقاء الصفوف فى المسجد موازية حتى الآن لجدار القبلة الذى كان بإزائه موضع مصلاه عليه السلام . وهو كما يقول السمهودى اتجاه قطعى ولا مجال للاجتهاد فيه[٥]، وأنه « لا يجتهد فى محراب النبى ﷺ لأنه

---

(١) بهجة النفوس والأسرار ص ١١٦ .

(٢) الدرة الثمينة ص ٧٠ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ص ٧٩ ، المراغى : تحقيق النصرة ص ٢٠ .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا جـ١ ص ٣٦٦ كما أورد فى الصفحة نفسها أحاديث منها « عن نافع بن جبير من طرق مرفوعا : ما وضعت قبلة مسجدى هذا حتى رفعت إلى الكعبة فوضعتها أومها» . « وعن ابن عجلان قال : وضع رسول الله ﷺ قبلة مسجده وجبريل قائم ينظر إلى الكعبة ، ثم كشف له ما بينه وبينها » . وعن ابن شهاب مرفوعا ما وضعت قبلة مسجدى هذا حتى فرج لى ما بينى وبين الكعبة فوضعتها أومها » .

(٤) أن الوضع الذى رسمه بوتى للمسجد النبوى قبل تحويل القبلة شكل (٢٦) يمكن قبوله فى حالة عدم تعرض المسجد النبوى فى هذه المرحلة لتغيير وضع جدران المسجد .

(٥) المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٨٣ .

صواب قطعا : إذ لا يقر على خطأ . فلا مجال للاجتهاد فيه حتى لا يجتهد في اليمنة واليسرة ، بخلاف محاريب المسلمين سيما وقد تقدم أنه وضعه[١] وجبريل يؤم به البيت »[٢]. ونقل أيضًا عن الإمام النووى قوله : « وكل موضع صلى فيه رسول الله ﷺ وضبط موقفه تعين ولا يجتهد فيه بتيامن ولا تياسر »[٣].

ثانيًا : ترتب على نقل القبلة من الشمال إلى الجنوب مع الابقاء على الظلة الأولى مكانًا لأهل الصفة[٤]، أن أصبح للمسجد لأول مرة ظلتان يتوسطهما صحن مكشوف ، ولعل الظلة في المسجد النبوى قد أثبتت جدواها منذ استحداثها حتى تم تحويل القبلة ، الأمر الذى أوجب اقامتها أمام جدار القبلة الجديد .

ثالثًا : استجد للمسجد النبوى باب في مؤخره ، وذلك في رواق القبلة القديم الذى خصص لأهل الصفة فيما بعد . وسد الباب الذى كان في مؤخر المسجد القديم الذى أصبح بعد تحويل القبلة رواقا لها . أما البابان الآخران وهما باب الرحمة أو باب عاتكة وباب جبريل ، فبقيا على حاليهما[٥]، وهما كما يقول ابن المحجوب « فرج لا أغلاق عليها »[٦].

رابعًا : أصبحت حجر أمهات المؤمنين التى أنشئت منذ قدوم الرسول إلى المدينة مجاورة لصدر المسجد ، أى لرواق القبلة الجديد الذى كان يغشاه الناس للإجتماع بالرسول ﷺ وحضور الصلاة معه فيه ، وكان أول هذه البيوت بيت أم المؤمنين سودة بنت زمعة[٧]، ثم بيت عائشة رضى الله عنها . وفى ذلك يقول الزركشى

---

(١) يقصد أن رسول الله ﷺ وضع علامة مصلاه بنفسه وهى العود الذى كان يرتكز عليه عند آداء الصلاة أما المحراب بمعناه المعروف فلم ينشأ إلا فيما بعد وبالتحديد فى عمارة الوليد للمسجد النبوى .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٨٣ .

(٣) السمهودى : نفس المصدر ، جـ١ ص ٣٨٣ .

(٤) السمهودى : نفس المصدر ، جـ٢ ص ٤٥٣ ، أحمد فكرى :المدخل ، ص ١٧١ .

(٥) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٣١ ، السمهودى : المصدر السابق ، جـ١ ص٣٣٦.

(٦) قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٦٥ أ . ويقصد بكلمة الأغلاق مصاريع البيان التى تغلق بها فتحات المداخل .

(٧) ذكر الطبرى فى تاريخ الرسل والملوك جـ٣ ص ١٣٦٣ أن قدومها رضى الله عنها إلى المدينة كان فى السنة الأولى من الهجرة الشريفة .

نقلا عن الذهبي : « لم يبلغنا أنه عليه السلام بنى له تسعة أبيات حين بنى المسجد، ولا أحسبه فعل ذلك . إنما كان يريد بيتا واحدا حينئذ لسودة أم المؤمنين، ثم لم يحتج إلى بيت آخر حتى بنى بعائشة »[1]، رضى الله عنها ، ولكن الروايات أوردت أنه عيه السلام بنى بيتين مع بناء المسجد أول مرة ، أحداهما لعائشة رضى الله عنها « لأنها كانت زوجته غير أنه لم يبن بها فتأهب لذلك بأن بنى لها حجرتها »[2]. وكانت هاتان الحجرتان مبنيتان كباقي الحجر ، باللبن وسقفهما بجذوع النخل والجريد[3]، وإلى جوارهما كان بيت فاطمة رضى الله عنها لأن زواجها من على بن أبي طالب رضى الله عنه كان كما يذكر الطبرى في شهر رجب من السنة الثانية[4]، ويؤيد الذهبي فيما رواه عن ابن عائذ عن محمد بن شعيب أن النبى ﷺ بنى « لحمزة ولعلى ولجعفر وهم بأرض الحبشة وجعل مسكنهم فى مسكنه وجعل أبوابهم فى المسجد مع بابه ثم أنه بدا له ، فصرف باب حمزة وجعفر »[5].

وبناء على ما تقدم فإن قرب هذه البيوت التى بناها رسول الله ﷺ حتى حولت القبلة فى النصف الأول من السنة الثانية ، من مقدم المسجد ، كان نتيجة من نتائج تحويل القبلة . كما أن كثيرا من معالم المسجد الشريف كالاسطوانات المشهورة ومنبره الشريف لم تحدد إلا بعد نقل القبلة على أن كثيرا من الروايات يحدد موضع مصلى النبى قبل تحويل القبلة . فينقل السمهودى عن ابن زبالة عن أبي هريرة رضى الله عنه قوله « كان مصلاه الذى يصلى فيه بالناس إلى الشام فى مسجده أن تضع موضع الاسطوان المخلق اليوم[6] خلف ظهرك ثم تمشى إلى الشام ، حتى إذا

---

(١) أعلام المساجد بأحكام المساجد ، ص ٢٢٤ .

(٢) البرزنجى : نزهة الناظرين ، ص ١٠ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ١ ص ٢٤٠ .

(٤) المصدر السابق جـ٢ ص ١٢٧٣ .

(٥) تاريخ الإسلام ، جـ١ ص ٢٠ .

(٦) هى الاسطوانة المعروفة باسطوانة عائشة رضى الله عنها .

كنت (بيمين) باب آل عثمان كانت قبلته ذلك الموضع »[١].

هذا عن الآثار المعمارية التى ترتبت على تحويل القبلة . أما الوصف الدقيق لظلتى المسجد فإن كتب التاريخ لم تزودنا بما يكفى لمعرفة حال الظلة الأولى ، إلا أنها قد أعطتنا من الإشارات ما يكفى لترسم حال الظلة الثانية ، فمن المعروف أن رسول الله ﷺ قد اتخذ مصلاه بازاء جدار القبلة من أول يوم أمر فيه بالتوجه فى صلاته إلى الكعبة ، وإن كان ما نقله السمهودى عن ابن زبالة يفيد أنه صلى إلى اسطوانة عائشة رضى الله عنها ، المتوسطة للروضة « بضع عشرة المكتوبة [٢]، ثم تقدم إلى مصلاه الذى وجاه المحراب فى الصف الأوسط »[٣]، والمشهور كما يقول السمهودى أن مقام النبى ﷺ لم يغير باتفاق ، وكذلك المنبر لم يؤخر عن منصبه الأول »[٤]. ولا بد أن الرسول ﷺ كان يتوسط المصلين فى صلاته . وقد اتخذت الاسطوانات المشهورة فى الروضة الشريفة أسماءها من أحداث وقعت قبل السنة السابعة للهجرة ، فمثلا إسطوانة التوبة « التى ارتبط فيها أبو لبابة بشير بن عبد المنذر الأنصارى الأوسي رضى الله عنه »[٥]، عقب تورطه فى نصح بنى قريظة فى السنة الخامسة من الهجرة ، والتى يقول عنها المطرى « أنها الثانية من القبر الشريف والثالثة من القبلة والرابعة من المنبر والخامسة من رحبة المسجد ، وهى التى تلى إسطوانة المهاجرين من جهة الشرق فى الصف الأول الذى خلف الإمام المصلى فى مقام النبى ﷺ »[٦]، وقد ذرع ابن زبالة ما بينها وبين القبر الشريف والمنبر ، وأعاد السمهودى ذلك الذرع فكان مطابقا لما ذرعه ابن زبالة وهو أن ما بين « اسطوان

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا جـ١ ص ٣٦٧ وقال عنه مؤلف تاريخ مكة والمدينة لمجهول ، ورقة ٣٨ ب بأنه « فى محاذاة محرابه الآن » ولهذا نراه لا يتوسط جدار قبلة المسجد الأول الذى كان على عهد رسول الله ﷺ .

(٢) أى قرابة ثلاثة أيام على اعتبار أن الصلاة المكتوبة هى خمس صلوات فى اليوم .

(٣) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٤٤١ .

(٤) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٦٧ .

(٥) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٢٧ ، السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ، ص٤٤٥ .

(٦) المطرى : المصدر السابق ، ص ٢٧ .

التوبة وبين جدار القبر الشريف عشرين دراعا »[١] وأن ما بين « مصلى النبي ﷺ من مسجده الأول وبين اسطوان التوبة سبع عشرة ذراعا »[٢] ومن المتفق عليه أن الاسطوانات في العمائر التالية للمسجد لم تغير موضعها الأول ، كما حدث في عمارة سيدنا عثمان رضي الله عنه للمسجد النبوي الشريف حين « قدّر زيد بن ثابت أساطينه فجعلها على قدر النخل » [٣]. هذا عن اسطوانة التوبة ، وعن اسطوانة القرعة المعروفة بأسماء عدة ، أشهرها اسطوانة عائشة ، فقد صلى إليها رسول الله ﷺ قرابة ثلاثة أيام ثم تقدم إلى مصلاه [٤]، وفي فضلها قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها « لو عرفها الناس لاضطربوا على الصلاة عندها بالأسهم » [٥]، وقد عرفت بهذا الاسم منذ صلى إليها الرسول عليه السلام بعد اقامتها فور تحويل القبلة . « وهي الثالثة من المنبر والثالثة من القبر الشريف ، وكانت أيضاً الثالثة من رحبة المسجد قبل أن يزاد في القبلة رواقان (بلاطتان) »[٦].

وقد ذرع ابن زبالة المسافة بينها وبين مصلى النبي ﷺفكانت سبعة عشر ذراعا، وقد اختبره السمهودي وأثبت صحة ذلك الذرع [٧]. إلا أنه ذكر أنه وجد بإحدى نسخ كتاب ابن زبالة أنه تسعة عشر ذراعا ، وهذا الفرق في الأذرع يمكن قبوله على احتمالين : الأول أنه ذرع من اسطوانة التوبة إلى طرف المصلى الشرقي فكان سبعة عشر ذراعا ، والآخر إلى طرفه الغربي فكان تسعة عشر ذراعا . ومن هذا الذرع المتطابق عند المؤلفين يتبين أن المسافة بين كل اسطوانتين هي عشرة أذرع[٨]، وهو ما يتفق مع ما ذكرته معظم الروايات من قياس المسجد بعد الزيادة

---

(١) المصدر السابق ، جـ٢ ص ٤٤٦

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٤٤٦

(٣) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٥٠٥

(٤) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ٩١ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٢٧ .

(٥) ابن النجار : المصدر السابق ، ص ٩١ .

(٦) المطرى : المصدر السابق ، ص ٢٧ .

(٧) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٤٦

(٨) ذكر ابن حجر الهيثمي في تحفة الزوار ص ٨٩ أن اسطوانات المسجد النبوي من جذوع النخل بين كل اسطوانتين عشرة أذرع

الثانية ، والتي قدرت بسبعين ذراعا في ستين وشيء في رواية[١] وثلاثة وستين في رواية أخرى [٢] ، ومع ما ذكره ابن زبالة ويحيى من « أن مسجد رسول الله ﷺ كان ثلاث أساطين مما يلي المشرق ، وثلاث أساطين مما يلي المغرب[٣] سوى ما خرج في الرحبة أي الأساطين المصفوفة من الرحبة إلى القبلة »[٤].

ويؤيد هذا ما ذكره ابن جماعة في منسكه [٥]. حين قال : « قد عرف المتأخرون مقدار المسجد الذي كان عليه أولا ، فقالوا : كان على التربيع من الحجرة المقدسة إلى مكان السارية السابعة من جهة المغرب ، ومن موضع الدرابزين الذي هو بين الأساطين المتصل[٦] بالصندوق أمام المصلى الشريف إلى موضع الحجرين المفروزين في صحن المسجد الشريف » [٧]. ويبدو أن ابن جماعة عد من اسطوانة السرير حتى أدخل الاسطوانة الملاصقة للجدار الغربي والواقعة الآن في الصف المجاور لمحراب الحنفية ، وقد أعاد السمهودي هذا الذرع فقال : « وقد ذرعت ما بين الاسطوانة التي تلي المنبر عند ظهره من المغرب إلى حائز عمر بن عبد العزيز الذي داخله الحجرة الشريفة بمقط[٨] فكانت مساحته سبعة وخمسين ذراعا ونصف ذراع راجح ، وعرض الحائز المذكور ذراع وربع راجح كما تحرر لي عند عمارة ما نقض منه ... فيكون ما بين الاسطوانة المذكورة والحجرة الشريفة تسعة وخمسون ذراعا ينقص يسيرا » [٩].

---

(١) السمهودي : المصدر السابق جـ١ ص ٣٤٠ .

(٢) السمهودي : وفاء الوفا جـ١ ص ٣٤٨ ، السخاوي : التحفة اللطيفة جـ١ ص ٤٥ .

(٣) عدها على اعتبار توسط مصلى النبي ﷺ لهذه الاسطوانات فثلاث عن يمينه وثلاث عن يساره .

(٤) السمهودي : المصدر السابق جـ١ ص ٣٤٩ .

(٥) بحثت عن منسك ابن جماعة فلم أجده .

(٦) أقيم هذا الدرابزين في موضع جدار قبلة المسجد في عهد الرسول ليفصل بين البلاطتين اللتين أضافهما عمر وعثمان في مقدم المسجد .

(٧) السمهودي : المصدر السابق جـ١ ص ٣٤٢ .

(٨) قال ابن منظور في لسان العرب ، جـ٧ ص ٨٠٦ إن المقط « حبل صغير يكاد يقوم من شدة فتله ، وقيل هو الحبل أيا كان » .

(٩) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٤٦ .

ولعل الناقص عما قيل من أن عرض المسجد من الشرق إلى الغرب سبعون ذراعا هو ما كان موضع الجدار لأنه تقرر كما يقول السمهودى « أن جدار المسجد من جملة المسجد » [١]، وإلى هذا يشير في معرض حديثه عن الأقوال التى تحصل عليها فى حد المسجد من الغرب فيقول « أحد الأقوال : أنه إلى الاسطوانة التى تلى المنبر من تلك الجهة ، وهو الذى عول عليه ابن النجار ومن تبعه » [٢]، أما ذرع المسجد من الشمال إلى الجنوب فيقول عنه السمهودى أنه اختبر بنفسه هذا الذرع» من الدرابزينات المذكورة فى رواية ابن جماعة إلى الحجرين المذكورين فكان سبعين ذراعا بذراع اليد المتقدم ذكره ، وقد قال ابن جماعة أنه اختبر ذلك بذراع العمل، فكان ستة وأربعين ذراعا وثلثى ذراع [٣]. فهو موافق لذرعنا ، بل يرجح قليلا ، لأن ذراع العمل ذراع ونصف راجح من ذراع اليد» [٤].

أما الروايات التى ذكرت أن حد المسجد ثلاث اسطوانات عن يمين المنبر وثلاث عن يساره فلا أظنها تنطبق على وصف المسجدالشريف فى هذه المرحلة من البناء إذ أن المنبر لم يدخل المسجد إلا فى السنة الثامنة ، والأجدر بتوسط جدار القبلة هو مصلى النبى عليه السلام الذى اتخذه الرسول بعد تحويل القبلة [٥]. واستنادا إلى ما سبق من عرض وتحليل لبعض الروايات يتضح لنا أن الظلة التى أقيمت خلف جدار القبلة الجنوبى كانت تتألف من ستة أعمدة تمتد من الشرق إلى الغرب ، ومن سبع بوائك تمتد عمودية على جدار القبلة ، وإن كنت قد توصلت إلى معرفة عدد اسطوانات رواق القبلة الممتدة من الشرق إلى الغرب فإننى لم أهتد إلى معرفة عدد الأسطوانات الممتدة من جدار القبلة إلى رحبة المسجد ، علما بأن طول الجدار الممتد من الشمال إلى الجنوب هو سبعون ذراعا على أشهر الروايات التى اعتمدت عليها .

---

(١) نفس المصدر ، جـ١ ص ٣٤٥ .

(٢) نفس المصدر ، جـ١ ص ٣٥٣ .

(٣) أى حوالى ٣١ مترا لأن ذراع العمل يساوى ٦٦٫٥ سم كما يقول فالترهنتس فى المكاييل والأوزان الإسلامية ، ص ٨٩ .

(٤) السمهودى : المصدر السابق ، جـ١ ص ٣٤١ .

(٥) انظر المخطط الذى وضعته عن المسجد النبوى قبل تحويل القبلة وبعدها شكل (٢٣ ، ٢٧) .

٤ - الزيادة الرابعة للمسجد النبوى سنة ٧ هـ

بقى المسجد النبوى الشريف محتفظا بعمارته التى تلت تحويل القبلة شكل (٧) ، حتى السنة السابعة من الهجرة ، عقب عودة الرسول ﷺ من خيبر ، أما الرواية التى تذكر أن رسول الله بنى مسجده باللبن بعد أربع سنين [١]، فهى تخالف ما أثبته من استخدام اللبن فى عمارة المسجد من أول سنة للهجرة [٢]، فضلا عن أنها رواية غير مشهورة . ومخالفة لكثير من الحقائق الثابتة ، كتحويل القبلة فى النصف الأول من السنة الثانية ، والذى ترتب عليه كما عرفنا من قبل آثار معمارية مهمة . ومهما يكن من أمر فليس هناك شك فى أن السبب الذى دفع الرسول ﷺ إلى توسعة المسجد هو ضيقه بالمصلين كما فى رواية الترمذى عن قصة اشراف عثمان على الناس يوم الدار [٣]، إذ روى « عن ثمامة بن حزن القشيرى أن عثمان رضى الله عنه قال : أنشدكم بالله وبالاسلام هل تعلمون أن المسجد ضاق بأهله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشترى بقعة آل فلان فيزيدها فى المسجد بخير له منها فى الجنة ؟ »[٤].

وكان من الطبيعى أن يزاد فى المسجد فى هذه الفترة من عمر الدعوة الإسلامية التى ازداد أنصارها وكثر الإقبال عليها لا سيما وأنها قد اتخذت منه من أول يوم مكانا لعبادتها ومركزا لقيادتها السياسية والعسكرية بالإضافة إلى ما كان يقوم به المسجد من دور فى نشر تعاليم الدين الجديد ، وقد اختلف فى موضع هذه الزيادة . فابن زبالة فيما ينقله عنه السمهودى يقول : « ترك رسول الله ﷺ المسجد من القبلة فى تلك البنية على حده الأول ، وزاد فيه من ناحية المشرق إلى الاسطوان التى دون المربعة التى عند القبر ... ومن المغرب إلى الأسطوان التى تلي المربعة التى

---

(١) ابن اسحاق : كتاب الناسك ، ص ٤٠٣ ، المراغى : تحقيق النصرة ص ٢٠ .

(٢) انظر ما قدمته فى ص ٣٩ عن مراحل استخدام اللبن فى عمارة المسجد النبوى .

(٣) نسبة إلى دار عثمان التى حصر فيها قبل قتله رضى الله عنه .

(٤) رواه الترمذى فى الجامع الصحيح ، جـ٥ ص ٢٩٠ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص٣٣٨.

لها نجاف[١] أيضاً من بين الأساطين ... وترك مما يلى الشام لم يزد فيه » [٢]. بيد أن السمهودى فيما ينقله عن المحاسبى يفيد بأن « منتهى طوله من قبلته إلى مؤخرة حذاء تمام الرابع من طيقان[٣] المسجد اليوم ، أى فى زمنه [٤]، وما زاد على ذلك فهو خارج عن المسجد الأول ، قال : وقد روى عن مالك أنه قال : مؤخر المسجد بحذاء عضادة الباب الثانى من الباب الذى يقال له باب عثمان [٥]...وهو أربع طيقان » [٦]. ثم يذكر السمهودى أن هذا « مؤيد للرواية المتقدمة فى الذرع ، وهى رواية مائة ذراع فى مائة ذراع » [٧]، ثم يذكر أن جداره كان فى موضع الاسطوانة الخامسة من الجهتين ، إلا أنه يزيد على الاسطوانة الخامسة فى المشرق شيئا مما بينها وبين الاسطوانات اللاصقة بجدار القبر[٨] ويذكر السمهودى دليلا أثريا على صحة هذا الحد من المشرق فيقول : «ويؤيد ذلك أنه قد ظهر عند تأسيس دعائم القبة الآتى ذكرها[٩] درج عند باب مقصورة الحجرة الشامى فى موازاة الحد المذكور يقابل الباب المعروف اليوم بباب جبريل عليه السلام . فالظاهر أنه كان هناك قبل نقله إلى محله اليوم » [١٠].

---

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب ، جـ١١ ص ٢٣٦ ، أن النجاف هو ما يستقبل الباب من أعلاه والنجاف هى العتبة ، وهى أسكفة الباب .

(٢) وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٥٢ .

(٣) قال ابن منظور فى المصدر السابق ، جـ١٠ ص ٢٣٣ ، أن « الطاق ما عطف من الأبنية ، الجمع الطاقات ، والطيقان فارسى معرب . والطاق عقد البناء حيث كان ، والجمع أطواق وطيقان » .

(٤) توفى الحارث بن أسد المحاسبى كما يقول الزركلى فى الأعلام ، جـ٢ ص ١٥٣ سنة ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م .

(٥) أى المعروف بباب النساء .

(٦) المصدر السابق جـ١ ص ٣٥٣ .

(٧) نفس المصدر جـ١ ص ٣٥٣ .

(٨) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٥٠ ، وقد ذكر ابن اسحاق فى كتاب المناسك ص ٣٩٧ عن مالك رضى الله عنه ، « أن الجدار من الشرق حد القناديل التى بين الأساطين التى وسطها اسطوانة التوبة وبين الأساطين التى تلى القبر » .

(٩) يقصد القبة التى أعيد تجديدها سنة ٨٨٧هـ فوق الحجرة الشريفة .

(١٠) المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٨٩ .

أما حدوده من المغرب فالمرجح عند السمهودى أنها الاسطوانة الخامسة من المنبر وذلك « لأن تجاهها فى حائط القبلة طراز آخذ من السقف نازل إلى العصابة السفلى الظاهرية ، لكنه انقشر بعضه عند اصلاح العصابة العليا وتبييض الجدار فى العمارة التى أدركناها أولا [١]، وذهب منه ما كان بين العصابتين وبعض ما فوق العليا ، وبقى منه ما بين العصابة العليا والسقف ثم ذهب بقيته فى الحريق الحادث فى زماننا [٢]، وبقى موضعه أصباغ ملونة فى الجدار من صناعة الأقدمين ، وقد ذهب ذلك عند هدم الجدار القبلى ، فالظاهر أنه علامة نهاية المسجد النبوى من هذه الجهة [٣].

وعلى هذا فإن الزيادة فى المسجد الشريف فى عهده عليه الصلاة والسلام كانت « فى شرقيه بمقدار عشرة أذرع أو اسطوانة ، وفى غربيه بمقدار عشرين ذراعا ، أو اسطوانتين » [٤]. أما شماليه فكانت بمقدار أربعين ذراعا [٥]، ولذا فإن عرض المسجد من الشرق إلى الغرب كان مائة ذراع وليس كما يذكر الدكتور أحمد فكرى أنه تسعون ذراعا [٦]، لأن « جدار المسجد الشرقى كان فيما بين الأساطين اللاصقة بالقبر وبين الأساطين المقابلة لها » [٧]، أى أنه كان إلى الشرق

---

(١) يقصد عمارة قايتباى الأولى للمسجد النبوى سنة ٨٧٩هـ .
(٢) يقصد الحريق الثانى الذى دمر المسجد سنة ٨٨٦هـ .
(٣) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٥٤ . وقد ذكر أن شيخ الحرم النبوى فى حدود سنة ٨٩٢هـ قد اتخذ لأعالى « الاسطوانة الخامسة من المنبر من صف الاساطين التى فى قبلة المنبر طرازا متصلا بالسقف منقوشا فيه أن ذلك هو الذى استقر عليه الأمر فى نهاية المسجد النبوى وحده » . وقال السخاوى فى التحفة اللطيفة جـ١ ص ٤٥ « وبين انتهائه وباب السلام الآن خمس بوائك حسبما علم أعلى الاسطوانة الخامسة من المنبر » .
(٤) أحمد فكرى : المدخل ص ١٧١ .
(٥) انظر المخطط شكل (٢٧) .
(٦) أحمد فكرى : المرجع السابق ص ١٧١ ، ويبدو أنه اعتبر الذرع يبدأ من الاسطوانات الواقعة فى صف اسطوانة الوفود بينما الصواب أنه بينها وبين الأساطين الملاصقة للقبر الشريف .
(٧) السمهودى : وفاء الوفا جـ١ ص ٣٥٠ .

من أسطوانة الوفود ، وهو ما يتفق مع ما ذكره من أن عائشة رضى الله عنها كانت ترجل رأس النبى ﷺ من بيتها وهو فى معتكفه على سرير له يوضع بين «الاسطوان التى وجاه القبر وبين القناديل[1] » ، ويرجحه كذلك ما يذكره السمهودى من «أن المنبر الشريف يكون حينئذ متوسطا للمسجد إذ يبعد أنه ﷺ لا يتوسط أصحابه ويقف على منبر فى طرفهم [2]» . انظر شكل (٢٧) . هذا عن ذرع المسجد وموقع الزيادة منه ، أما صفة العمارة وعدد الأسطوانات فى كل ظلة ، فلم يرد عنهما إلا إشارات يمكن التعرف عليهما من خلالها . فقد ذكرت بعض الروايات أن الأحجار استخدمت فى بناء المسجد لرفع أساس جدرانه ثم وضعت عليها «اللبنتان المعترضتان » [3]، وهذا النوع من البناء هو ما استخدم فى المسجد النبوى الشريف منذ استقر الرأى على تسقيفه ، نظرا لمتانته وقوة تحمله ، ويصف السمهودى بعض هذا اللبن فيقول : « شاهدت لبنا أخرج من جدران الحجرة الشريفة فى العمارة التى أدركناها أولا [4]، يزيد فى الطول على الذراع وعرضه نصف ذراع وسمكه ربع ذراع ، وفيه شىء مرتفع طوله وعرضه وسمكه واحد ، وكل ثنتين منه طول لبنة مما قدمناه ، والذى يظهر أنه كان من بقايا لبن الحجرة الشريفة التى كانت مبنية به أولا جعل للتبرك لأنه أتى غير مستو[5] والجدار مبنى بالحجارة الوجوه المحكمة [6]، وبالقصة فلا يناسبه وضع ذلك فيه ولهذا جعل بين الحجارة الوجوه فى أعالى الجدار وقد تقدم أن الذى استقر عليه عرض الجدار فى زمنه ﷺ الأنثى والذكر ، وهما لبنتان مختلفتان ، واللبنتان المختلفتان ، من هذا اللبن الذى رأيناه أو اللبنة ونصف الأخرى وهو السعيدة يزيد على ذراع ونصف

---

(١) نفس المصدر جـ١ ص ٣٥١ .
(٢) نفس المصدر جـ١ ص ٣٤٨ .
(٣) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ٧٠ ، السمهودى : المصدر السابق جـ١ ص ٣٤٦ .
(٤) يقصد عمارة قايتباى الأولى سنة ٨٧٩هـ .
(٥) يقصد غير محروق أى أنه لبن وليس أجر .
(٦) يعنى الحجارة المنحوتة .

يسيرا فيكون ذلك هو عرض الجدار فى زمنه ﷺ[١] ويشهد له ما شاهدناه أيضًا فى عرض جدار الحجرة الشريفة »[٢].

أما ارتفاع سقف المسجد الشريف فقد بلغ سبعة أذرع[٣]، أى ثلاثة أمتار ونصف كما يقول فكرى[٤]، وهو ارتفاع كبير يتناسب مع عمق ظلتى المسجد اللتين أمكن معرفة عددبلاطاتها وبوائكهما ، فمن خلال تتبع مواقع الاسطوانات المشهورة فى الروضة المشرفة ، يلاحظ أن آخرها مما يلى الصحن فى عهده عليه السلام اسطوانة الوفود ، والتى يقول عنها المطرى أن رسول الله ﷺ « كان يجلس إليها لوفود العرب إذا جاءته وكانت مما يلى رحبة المسجد »[٥]، ومنها إلى جدار القبلة ثلاث اسطوانات كما فى الشكل رقم (٢٨) ، وعلى ذلك فعدد بلاطات رواق القبلة ثلاث بلاطات فى عشر بوائك ، والأمر كذلك بالنسبة للرواق الشمالى، الذى به موضع أهل الصفة .

ولكن الوضع الحالى للصفة كما يظهر من مخطط المسجد النبوى الذى أعده مهندسو الأتراك بعد عمارة السلطان عبد المجيد شكل (٢٩) يثير بعض التساؤلات ، ومنها هل كان موضعها من المسجد كما كان فى عهد الرسول عليه السلام؟ ثم ما الداعى إلى اقتصاره على النصف الشمالى الشرقى من مؤخر المسجد[٦]؟

---

(١) هذا يخالف الطريقة التى توصلت إليها فى بناء اللبن فى المسجد النبوى والتى اتضح فيها أن أقصى عرض للجدار المبنى باللبن الذى أورد السمهودى مقاساته هو ذراع فقط ، ولا يمكن أن يتشكل من هذا اللبن جدار بعرض متر ونصف بناءً على ما ذكره السمهودى من أن آخر طريقة للبناء شهدها المسجد النبوى فى عهد الرسول كانت باللبنتين المختلفتين التى يقول عنها الكتانى فى التراتيب الإدارية ، جـ٢ ص ٧٧ أنها « لبنتان تعرض عليها لبنتان » .

(٢) وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٤٦ .

(٣) السخاوى : التحفة اللطيفة جـ١ ص ٤٥ .

(٤) المدخل : ص ١٧١ .

(٥) التعريف بما أنست الهجرة ص ٢٨ ، والقرطبى ، بهجة النفوس والأسرار ص ١٢٦ والخوارزمى ، اثارة الترغيب والتشويق ص ٢٩١ .

(٦) خالف كريزول ومن أخذ برأيه هذا الوضع الذى أقره مهندسو الأتراك ووضعوا الصفة فى الجانب الشمالى الغربى من مؤخر المسجد ، انظر شكل (٣٠ ، ٣١ ، ٣٢) .

ومهما يكن من أمر فإن الوضع الذى استقر عليه المسجد النبوى فى آخر عمارة له فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، يتفق من وجوه عدة مع المخطط الذى أعده أحمد فكرى عن المسجد النبوى فى عهد الرسول عليه السلام ، ويعد كما يقول محاولة أولى من جانبه ، وإن ذكر « أن جزءا منه افتراضى »[1]. ولى ملاحظات على هذا المخطط سوف أذكرها عند الحديث عنه .

---

(١) المدخل ص ١٨٩ .

٥ - تقييم المخططات التى وضعت عن عمارة المسجد النبوى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

اهتم كثير من الباحثين برسم مخططات للمسجد النبوى الشريف فى حياة الرسول ﷺ ، وكان رائدهم فى ذلك الكابتن كريزول CRESWELL الذى أعد مخططا شكل (٣٠) رفضه أحمد فكرى ، وقال عنه أنه من نسج الخيال[١] . وكان فى هذا الرفض ما يغنى لولا أن تشابه المخططات التى أعدها كل من فريد شافعى[٢]، وسعاد ماهر[٣]، لمخطط كريزول . قد دعانى إلى دراسة هذه المخططات ومقارنتها بمخطط فكرى من ناحية ، وبما اتضح لى من خلال دراستى للمسجد النبوى فى عهد الرسول من ناحية ثانية ، فمن الأخطاء التى يمكن ملاحظتها على مخطط كريزول وما تبعه من مخططات كمخطط فريد شافعى شكل (٣١) ومخطط سعاد ماهر شكل (٣٢) .

١ ـ أنه قصر ظلة مؤخر المسجد على جزء من بلاطة واحدة تحتل الجانب الشمالى الغربى من المسجد[٤]، ومن المعروف أن هذه الظلة كانت بها قبلة المسلمين الأولى قبل تحويل القبلة فى السنة الثانية من الهجرة ، ولا يعقل أن يكون المسجد قد بقى دون ظلة تحمى المسلمين من الحر والمطر قبل تحويل القبلة ، ولا أظن أن الرسول ﷺ قد هدم هذه الظلة عند تحويل القبلة إلى الظلة الجنوبية، إلا إذا كانت جدران المسجد كلها قد تعرضت للتغيير عقب تحويل القبلة ، وهو احتمال له وجاهته[٥]، وعلى ذلك فإن ما يحظى بالقبول والتأييد هو أن هذا الجزء المخصص للصلاة قبل تحويل القبلة الذى كان مسقوفا بسعف

---

(١) المدخل : ص ١٨٤ .

(٢) العمارة العربية ، ص ٦٥ .

(٣) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ١ ص ٣٧ .

(٤) انظر كريزول ، العمارة الإسلامية المبكرة جـ١ القسم الأول ص ٩ .

(٥) انظر ما ذكرته عن هذا الاحتمال فى ص ٤٤ من الرسالة .

النخيل أو غيره قد خصص لأهل الصفة - لنومهم وراحتهم - دون بقية المسجد [١]، وكان عددهم يتراوح بين السبعين والمائة [٢]، ولم أجد في النصوص الكثيرة التي اطلعت عليها ما يشير إلى تحديد موقعها من مؤخر المسجد، مما يزكي في اعتقادي أن الظلة كانت بامتداد الجدار الشمالي للمسجد، على أن المخطط الذي أعده محمود عكوش شكل (٣٣) [٣]، ومخطط المسجد النبوي بعد عمارة السلطان عبد المجيد له سنة ١٢٧٧هـ شكل (٢٩)، يجعلان موقعها في الجانب الشمالي الشرقي من المسجد بخلاف كريزول ومن أخذ برأيه [٤]، فأنهم يجعلونها في الجانب الشمالي الغربي، على غير سند في كلتا الحالتين.

٢ - قصرت المخططات المذكورة، مقدم المسجد على بلاطتين فقط، ومن المعروف أن ثلاث من اسطوانات الروضة الشريفة، التي اكتسبت أسماءها من أحداث وقعت في عهد الرسول ﷺ، تقع خلف بعضها في خط مستقيم، كما يظهر من النص الذي أورده السمهودي عن ابن زبالة من أن «الأسطوان التي إلى الرحبة في صف اسطوان التوبة بينها وبين اسطوان التوبة مصلى علي بن أبي طالب [٥]»، ومعنى هذا أن مقدم المسجد كان يتألف من ثلاث بلاطات ومثلها أيضاً في مؤخر المسجد [٦].

٣ - وضعت بيوت أمهات المؤمنين كلها في الجهة الشرقية من المسجد على إمتداد جدار المسجد الشرقي حتى باب جبريل. ورغم تأييد بعض الروايات لهذا

---

(١) أحمد فكري : المدخل ص ١٨٦ .
(٢) القرطبي : بهجة النفوس والأسرار، ص ١٢٣ ، السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٥٣ .
(٣) انظر المخططين اللذين أعددتهما شكل (٢٧ ، ٢٨) .
(٤) انظر فريد شافعي شكل (٣١) وسعاد ماهر شكل (٣٢) .
(٥) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٤٩ .
(٦) انظر المخطط الذي أعده أحمد فكري شكل (٣٤) .

الوضع [١]، إلا أن الكثير من الرويات تؤيد امتداد بيوت أمهات المؤمنين إلى الجنوب من حجرة عائشة رضى الله عنها [٢]، ومنها دار حفصة رضى الله عنها ، وقد أدخل بعضها فى المسجد النبوى الشريف فى عمارة الوليد بن عبد الملك ، بعد اتفاق عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه مع أصحابها على فتح الخوخة المعروفة بخوخة آل عمر ، والتى كانت تفضى إلى المسجد الشريف فى البلاط الذى يقع أمام الوجوه الشريفة ، فى موقف الزائرين اليوم ، ولم تسد إلا فى عمارة الأشرف قايتباى للمسجد النبوى سنة ٨٨٨هـ [٣].

هذا عن أهم ما لاحظته فى المخططات المشابهة لمخطط كريزول ، أما المخططان اللذان أعدهما بوتى شكل (٢٦) ومحمود عكوش شكل (٣٣) ففى نقد الدكتور أحمد فكرى لهما ما يفى بالغرض [٤]، لا سيما وأن محمود عكوش قد شارك

---

(١) قال ابن النجار فى الدرة الثمينة ص ٧٣ « لما تزوج رسول الله ﷺ نساءه بنى لهن حجرا وهى تسعة أبيات وهى ما بين بيت عائشة رضى الله عنها إلى الباب الذى يلى باب النبى ﷺ » . ونقل السمهودى فى الوفاء جـ٢ ص ٤٦٠ « عن يحيى من طريق الواقدى عن عبد الله بن يزيد الهذلى قال : رأيت بيوت أزواج النبى ﷺ حين هدمها عمر بن عبد العزيز كانت من لبن ، ولها حجر من جريد مطرودة (ملبسة) بالطين ، عددت تسعة أبيات بحجرها ، وهى ما بين بيت عائشة إلى الباب الذى يلى باب النبى ﷺ إلى منزل أسماء بنت حسن اليوم (فى زمنه) » انظر موقع منزل أسماء من المسجد النبوى فى الشكل (٤٥) .

(٢) ذكر ابن اسحاق فى كتاب المناسك ص ٣٧٣ عن إسماعيل بن محمد بن إسحاق « وهو أحد علماء المدينة وذو سنهم ، قال : كانت أول حجرة من حجر أزواج النبى ﷺ ، حجرة حفصة وهى موضع الخوخة التى تدعى خوخة عمر ثم تليها حجرة حجرة ، حتى تنتهى إلى حجرة عائشة رضى الله عنهن أجمعين ، وهو موضع القبر ، وبعدها حجرة فاطمة فى الصدر عند باب جبريل ، وبعدها حجرة أم سلمة ، وآخر الحجرات حجرة جويرية ثم علامة مثل خاتم سليمان فى ذلك الحائط من رخام أرانيه إسماعيل ، وهناك دار عقيل بن أبى طالب » . وانظر : الذهبى ، تاريخ الإسلام ، جـ٣ ص ٢٣٨ ، السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٤٥٩ .

(٣) انظر أدناه ص ٣٤٣ .

(٤) اعترض أحمد فكرى فى المدخل ص ١٨٦ على مخطط محمود عكوش بأربع نقاط ، أولا : قصره الظلة الشمالية على موضع أهل الصفة ، وثانياً جعله طول جدار القبلة مائة ذراع ، وأنا أميل إلى ما ذهب إليه محمود عكوش ، وثالثا جعله زيادة الرسول الأخيرة من الشرق قدر اسطوانتين ، ورابعا فتح الأبواب فى غير مواضعها . أما رسم بوتى فقريب من الدائرة به باب واحد، وهو عن وضع المسجد قبل تحويل القبلة .

المخططات السابقة فى قصره ظلة مؤخر المسجد على جانب أمام الجدار الشمالى[١]، ومع اقتناعى ببعض اعتراضات أحمد فكرى على هذين المخططين ، إلا أننى ألاحظ أيضًا على المخطط الذى أعده فكرى عن المسجد الشريف فى عهد الرسول ﷺ شكل (٣٤) أمرين مهمين :

أولاً : قصره طول جدار القبلة الممتد من الشرق إلى الغرب على تسعين ذراعا[٢]، وفى هذا إهمال لكثير من الروايات التى تؤيد تربيع المسجد ، وتنص صراحة على أنه مائة فى مائة ذراع [٣]. هذا فضلا عن أن مخططه يحتوى على عشر بوائك بكل من الظلتين . وقد ورد أن بعد الإسطوانات عن بعضها عشرة أذرع [٤]، وفى هذا تأييد لكون جدار القبلة مائة ذراع، ولكنه يذكر فى موضع آخر أن طوله تسعون ذراعا [٥].

ثانيا : موقع باب النساء من المخطط الذى أعده ، مع أن هذا الباب لم يفتح إلا فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه [٦]. بالإضافة إلى إهماله للباب الذى نقل بعد تحويل القبلة من الجدار الجنوبى إلى منتصف الجدار الشمالى علما بأن الأبواب الثابت وجودها فى عهد الرسول عليه السلام « ثلاث أبواب ، باب فى خلفه[٧] وباب عن يمين المصلى وباب عن يساره » [٨].

ومهما يكن من أمر فإن مخطط أحمد فكرى بعد إجراء التعديلات السابقة عليه يتفق مع ما كان عليه المسجد فى عهد الرسول ﷺ . أما المخطط الذى أعده

---

(١) انظر الرسم فى المدخل لأحمد فكرى ، ص ١٨٦ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٧١ .

(٣) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ص ٧٩ ، المراغى : تحقيق النصرة ص ٤٤ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٥٣ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ .

(٤) ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار ص ٨٩ .

(٥) انظر ص ١٧١ من المدخل .

(٦) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٩٦ .

(٧) يعنى فى مؤخر المسجد .

(٨) ابن النجار : الدرة الثمينة ص ٦٩ .

الدكتور حسن الباشا عن المسجد النبوى شكل (٣٥) بعد تحويل القبلة ، والمنشور فى مجلة منبر الإسلام ، فإنه رغم احتوائه على ظلة جنوبية وأخرى شمالية ، إلا أنه قصر البلاطات فى كل منهما على بلاطتين [١]، وهو مخالف لعدد البلاطات الثلاث التى ثبت وجودها فى رواق القبلة [٢]، بالإضافة إلى أنه جعل بين الحجرات التى ظهرت بالمخطط وبين المسجد طريق ضيق ، وهو مخالف لما ثبت من أن الحجرات شرعت فى المسجد الشريف بعد الزيادة الأخيرة سنة سبع من الهجرة . هذا فضلا عن قصره الحجرات على حجرتين فقط .

أما المخطط الذى أعده الدكتور حسن الباشا أيضًا فى كتاب المدخل إلى الآثار الإسلامية عن عمارة المسجد النبوى فى فجر الإسلام شكل (٣٦) فإنه لا يشير إلا إلى تحديد موضع الزيادات من المسجد الشريف دون ذكر عدد الأذرع المضافة فى كل زيادة سواء فى المتن أو على الرسم ، إلا أنه يدل بشكل واضح على نسبة الزيادات ، كما أنه تدارك ما فاته فى المخطط الأول فجعل بيوت أمهات المؤمنين ملاصقة لجدار المسجد الشرقى ، وأن كان قد قصرها على ثمان حجرات بدلا من تسع .

* * *

(١) العدد الثالث ، السنة ٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ص ١٣٨ .

(٢) انظر أعلاه ص ٥٠ وما قبلها ، وانظر أدناه ص ٦٣ ، ٦٤ .

٦ - معالم المسجد النبوى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

توفى النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد اتضحت معالم المسجد الشريف المتمثلة فى الروضة المطهرة والمنبر الشريف ، وموضع مصلاه ﷺ ، وأبواب المسجد الثلاثة وحجر أزواجه ، كما سن بعده الزيادة فى المسجد الشريف إن احتاج الأمر إلى ذلك، كما يستفاد من الحديث الشريف « لو مد مسجدى هذا إلى صنعاء لكان مسجدى »[١].

أما الروضة المطهرة فقد تحددت معالمها بموجب الحديث الشريف « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة »[٢]، وطولها ٢٢ مترا فى عرض ١٥ مترا[٣]. وعن الطول فمتفق عليه ، وذلك لأن الحديث صرح بأنه ما بين بيته ﷺ ومنبره . ولكن الاختلاف وقع فى تحديد عرضها ، ومنشأ هذا الاختلاف أن الحجرة الشريفة، المتفق على أنها المقصودة فى الحديث الشريف[٤]، ليست فى موازاة المنبر الشريف ، ولهذا « فليس شىء من البيت فى محاذاة شىء من المنبر ، بل البيت يحاذى الرواقين (البلاطتين) خارج المنبر من أمامه من جهة الشمال والمنبر يحاذى

---

(١) ابن اسحاق : كتاب المناسك ، ص ٣٦١ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ص ٩٣ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٨١ ، المراغى تحقيق النصرة ، ص ٤٦ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٨١ .

(٢) ذكر محمد ناصر الدين الألبانى فى تحذير الساجد عن اتخاذ القبور مساجد : حاشية ص ١٩٩ أن هذا الحديث قد رواه البخارى ومسلم وغيرهما ، وأنه حديث متواتر ، وأن الصحيح هو بيتى بدلا من قبرى كما ترويه بعض الروايات .

(٣) البتنونى : الرحلة الحجازية ، ص ٢٤٠ ، إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين ، جـ١ ص ٤٥١ .

(٤) أورد ابن الجوزى فى الوفا بأحوال المصطفى ، جـ١ ص ٤٠٤ أربع روايات لهذا الحديث كلها تنص على كلمة بيتى . وفى هذا المعنى يقول محمد ناصر الدين الألبانى نقلا عن ابن تيمية أن « هذا هو الثابت الصحيح ، ولكن بعضهم رواه بالمعنى فقال (قبرى) وهو ﷺ حين قال هذا القول لم يكن قد قبر ﷺ ، ولهذا لم يحتج بهذا أحد من الصحابة حينما تنازعوا فى موضع دفنه، ولو كان هذا عندهم لكان نصا فى محل النزاع ، ولكن دفن فى حجرة عائشة فى الموضع الذى مات فيه » .

الرواق (البلاط) الذى خارج البيت من جهة القبلة ، وعلى هذا فإن جعلت الروضة ما حاذى كلا منهما وإن لم يحاذ الآخر كانت مربعة لشمولها الرواقات (البلاطات) الثلاثة المذكورة ، وإن جعلت ما حاذاهما معا خرجت عن التربيع وكانت كصورة مثلث قاعدته جدار البيت ، وهو الذى فيه القبر الشريف الآن ، ويتضايق ضلعاه إلى قدر امتداد المنبر وهو خمسة أشبار ، والأول أصح بل الصواب وعليه العلماء والناس » [1]. ويزيد ذلك توكيدا ابن الخطيب المدنى فيقول : «والصواب أن نهايتها إلى صف اسطوانة الوفود التى تلى اسطوانة سيدنا على رضى الله عنه » [2]. ويذكر ابن المحجوب أن اهتمام العلماء بقياس « المسافة التى بين حجرة قبره وموضع منبره يدل على أن مفهومهم من الروضة هى هذه المسافة لا سيما مع تزاحم الناس عليها ورغبتهم فى الصلاة والدعاء بها فى صدر الإسلام إلى الآن فاتضح بذلك كله أنها هى المراد بالحديث الكريم » [3].

وأشهر ما يميز الروضة المطهرة اسطواناتها الشريفة شكل (٢٨) التى اكتسبت فضلها وشهرتها فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . وهى التى مكنتنى من معرفة حدود رواق القبلة فى عهده ﷺ . وآخر هذه الاسطوانات مما يلى الصحن اسطوانة الوفود التى يقول عنها ابن النجار أنها « خلف اسطوانة على بن أبى طالب التى خلف اسطوانة التوبة . كان النبى يجلس إليها لوفود العرب إذا جاءته » [4]، وتعرف أيضًا باسطوانة القلادة ، وهو اسم اكتسبته بعد موت الرسول ﷺ نظرا لجلوس « سرات الصحابة وأفاضلهم إليها » [5]. ومن الغريب حقا أن ينشأ بعد هذا التحديد الدقيق المجمع عليه بين قدماء مؤرخى المدينة وثقاتهم خلاف فى تحديد

(١) تاريخ مكة والمدينة ، لمؤلف مجهول ، ورقة ٤٠ ب ، البرزنجى : نزهة الناظرين ، ص ١٥ .
(٢) نتيجة الفكر فى أخبار مدينة سيد البشر ، ورقة ١٥٣ ب .
(٣) قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٧٥ أ .
(٤) الدرة الثمينة ، ص ٩٢ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٢٧ ، المراغى : تحقيق النصرة ص ٦٠ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٤٩ .
(٥) السمهودى ك نفس المصدر ، جـ٢ ص ٤٤٩ .

الموقع الصحيح لهاتين الاسطوانتين ، فيُكتب الإسمان على الاسطوانتين الموازيتين لهما من الشرق ، انظر شكل (٢٩) ، وذلك في حدود المائة العاشرة زمن السلطان سليم العثماني كما يظن البرزنجي [١] ، الذي حاول اقناع المسئولين عن عمارة الحرم النبوي الشريف في عهد السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٧هـ ، بتحديد الموقع الصحيح لهما . إلا أن رأيه المدعم بالأدلة والبراهين لم يجد قبولا لدى المسئولين عن عمارة الحرم رغم اقتناع الكثيرين من أهل المدينة آنذاك بصحة رأيه[٢] . ولا زلنا نرى هذا الخطأ قائما في المسجد النبوي الشريف إلى اليوم .

أما اسطوانة التوبة [٣] ، فهي الاسطوانة الثانية عن يمين حجرة النبي ﷺ في الصف الأول خلف إمام الروضة » [٤] . وتجمع النصوص على أنها في صف اسطوانة الوفود واسطوانة المحرس في الصف الثاني من الحجرة الشريفة ، ولم يشذ عن ذلك إلا ابن فرحون الذي إعتبرها ملاصقة للشباك [٥] ، أي في موضع اسطوانة السرير . وقد أنكر السمهودي ذلك وأثبت صحة موقعها الحالي اعتمادا على تأكيده بنفسه من ذرع ابن زبالة المسافة بينهما وبين مصلى

---

(١) نزهة الناظرين ، ص ٥٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) عن سبب تسمية هذه الاسطوانة باسطوانة التوبة ، انظر المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٢٧ ، القرطبي : بهجة النفوس ، ص ١٢٤ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٥ . أما ما جاء عن الاختلاف في تاريخ التسمية من أنه كان بعد غزوة بنى قريظة وأن نزول الآية الكريمة ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول ﴾ الآية ، كان بسبب تورط أبو لبابة في نصح بني قريظة ، أو كان بسبب تخلفه عن غزوة تبوك ، وأنه نزلت فيه وفي المتخلفين معه الآية ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ الآية . وقد ذهب البرزنجي في نزهة الناظرين ، ص ٥٥ إلى الجمع بين الروايتين ، وذكر أن أبا لبابة . كان يعمد في كل مرة إلى هذه الاسطوانة ، ولذلك سميت باسمه ، بيد أني ألاحظ أنه إذا كان بشير بن عبد المنذر المعروف بأبي لبابة قد أذنب في غزوة بن قريظة سنة ٥ هـ . فإنه لا يمكن أن يتجرأ على مخالفة الرسول في غزوة تبوك سنة ٩هـ مما يضعف الجمع بين التاريخين .

(٤) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ٩١ .

(٥) نصيحة المشاور وتعزية المجاور ، ص ٦٣ .

الرسول عليه السلام في مسجده الأول ، والذى بلغ ١٩ ذراعا [١] ، وما بينها وبين جدار القبر الشريف الذى بلغ عشرين ذراعا[٢] . وإلى الشرق فى محاذاتها تقع اسطوانة السرير «وهى اللاصقة بالشباك اليوم فى شرق أسطوانة التوبة وابن فرحون يجعلها أياها»[٣] .

أما اسطوانة عائشة رضى الله عنها ، والتى عرفت بأسماء عدة أشهرها القرعة ، والسهمان ، والمخلقة ، والمهاجرون ، فهى كما يقول ابن زبالة فيما يرويه السمهودى ووافقه عليه المطرى « الثالثة من المنبر والثالثة من القبر الشريف وكانت أيضًا الثالثة من رحبة المسجد » [٤] ، وهى التى كان يصلى إليها الرسول الفريضة قبل أن يتحول إلى المصلى الشريف ، وبينها وبين المصلى المذكور كما يقول السمهودى تسعة عشر ذراعا ، وهو موافق لما ذرعه ابن زبالة [٥] .

أما اسطوانة مصلى رسول الله ﷺ فهى الواقعة اليوم فى الجانب الغربى من المحراب النبوى فى موضع جدار القبلة فى عهد الرسول ، وموضعها الحالى كما يظهر من مخطط المسجد شكل (٢٨) ، يوحى بأنها لم تكن من الاسطوانات التى كان يعتمد عليها سقف المسجد فى عهد الرسول . فصف الاسطوانات الذى تقع فيه وما يليه استحدثا بعد هدم جدار القبلة الأول فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ولذلك لم يرد أن بها شيئا من الاسطوانات المشهورة . ويذكر ابن النجار أن الجذع الذى كان يخطب إليه الرسول ﷺ كان « فى موضع الاسطوانة المخلقة التى عن يمين محراب النبى ﷺ عند الصندوق » [٦] .

ويذكر المطرى أن الجذع كان لاصقا بالجدار القبلى للمسجد « فى موضع كرسى الشمعة اليمنى التى توضع عن يمين الإمام المصلى فى مقام رسول الله

---

(١) وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٧٤ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٤٤٦ .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٤٧ .

(٤) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ص ٢٧ ، السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٤٤١ .

(٥) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٤٤٦ .

(٦) الدرة الثمينة ، ص ٧٨ .

ﷺ (١)» ، وقصة حنين الجذع معروفة ومشهورة عند المحدثين ، والخبر بها متواتر ، كثير من الصحابة (٢). « يحدث بمعنى هذا الحديث » (٣).

أما الاسطوانات التي حجبها المشبك الخارجي الذى أحيط بالحجرة الشريفة في عهد قايتباى سنة ٨٨٧هـ . فأولها اسطوانة مربعة القبر ، ويقال لها مقام جبريل أيضاً (٤)، وهى فى حائز الحجرة الشريفة فى جانبها الغربى الشمالى بينها وبين اسطوانة الوفود الاسطوانة اللاصقة بالشباك (٥). وكانت هذه الاسطوانة خارج المسجد كما يقول ابن إسحاق الحربى فيما يرويه عن أبى ثوبة عن سليمان بن عبد العزيز ، عن أبيه قال : « مقام جبريل إذا خرجت من باب النبى ﷺ الذى يقال له باب عثمان على يمينك بجنب الميزاب إلى الباب » (٦).

أما اسطوانة التهجد فهى « وراء بيت فاطمة رضى الله عنها وفيها محراب(٧)

---

(١) التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٤٨ .

(٢) الخوارزمى : اثارة الترغيب والتشويق ، ص ٣٣٩ ، الاسفرائنى : زبدة الأعمال ، ورقة ١٩٠ ب ، وقد عد منهم الخوارزمى أبى بن كعب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر ، وعبد اله بن عباس ، وسعد بن سعد ، وأبو سعيد الخدرى ، وبريده ، وأم سلمة والمطلب بن أبى وداعة .

(٣) أورد ابن النجار فى الدرة الثمينة ، ص ٧٧ ـ ٧٩ عدة أحاديث عن خبر حنين الجذع منها ما رواه بسنده إلى أنس بن مالك « قال : كان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إلى خشبة مسندا ظهره إليها فلما كثر الناس قال : ابنوا لى منبرا فبنوا له منبرا له عتبتان فلما قام على المنبر يخطب حنت الخشبة إلى رسول الله ﷺ : قال أنس وأنا فى المسجد فسمعت الخشبة تحن حنين الواله فما زالت تحن حتى نزل إليها فاحتضنها فسكنت » . وانظر أيضاً . المطرى : المصدر السابق ، ص٢٨ ، والمراغى : تحقيق النصرة ، ص ٦٠ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ .

(٤) ذكر السمهودى : فى نفس المصدر ، جـ٢ ص ٥٨٠ وما بعدها أن سبب تسمية هذا الموضع بمقام جبريل يعودإلى غزوة بنى قريظة عندما أمر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ بالتوجه إلى بنى قريظة بعد عودته من غزوة الخندق وذلك فى السنة الخامسة من الهجرة .

(٥) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٤٥٠ .

(٦) ابن اسحاق : كتاب المناسك ، ص ٣٩٧ .

(٧) ربما يكون هذا المحراب قد أحدث فيها بعد دخولها فى المسجد فى عمارة الوليد بن عبد الملك للمسجد الشريف .

إذا توجه الرجل إليه كان يساره إلى باب عثمان رضى الله عنه »[١]. وتجمع الروايات على صلاة النبى إليها بما يفيد بأنها من المسجد ، بيد أنها خارج حدوده فى زمنه ﷺ . ويذهب السمهودى إلى أن هذه الاسطوانة ليست من المسجد ولا من بيت النبى ﷺ[٢]، وإنما موضعها لعله « القبة التى كان يعتكف ﷺ فيها فى رمضان . فقد روى الطبرانى فى الكبير عن أبى ليلى قال : رأيت رسول الله ﷺ اعتكف فى قبة من خوص ، وفى الكبير والأوسط عن معيقيب قال : « اعتكف رسول الله ﷺ فى قبة من خوص بابها من حصير والناس فى المسجد »[٣]، ويمضى السمهودى فيذكر أن يحيى أسند عن أبى حازم مولى الأنصار أنه قال : « اعتكف رسول الله ﷺ فى المسجد فى رمضان فى قبة على بابها حصير »[٤].

ثم يذكر السمهودى أيضاً عن ابن عمر رضى اله عنهما أنه قال : « بنى النبى ﷺ بيتا من سعف فى المسجد فى آخر شهر رمضان يصلى فيه »[٥]. ومع ذلك يلاحظ أن من الروايات التى يذكرها السمهودى ما يفيد أن « القبة » أو « البيت » من السعف كان داخل المسجد . بيد أن هذا يخالف الحديث الذى نقله السمهودى عن يحيى عن عيسى بن عبد الله عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ يخرج حصيرا كل ليلة إذا انكفت الناس[٦] ، فيطرح وراء بيت على ، ثم يصلى صلاة الليل ، فرآه رجل فصلى بصلاته ، ثم أخر فصلى بصلاته ، حتى كثروا ، فالتفت رسول الله ﷺ فإذا بهم ، فأمر بالحصير فطوى ثم دخل ، فلما أصبح جاءوا فقالوا : يا رسول الله ،

---

(١) ابن النجار : الدرة الثمينة ص ٧٧ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٣٠ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ .

(٢) السمهودى : نفس المصدر جـ٢ ص ٤٥١ .

(٣) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٤٥٢ .

(٤) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٤٥٢ .

(٥) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٥٢ ، وقد وجدت قول أبى ليلى « رأيت رسول ﷺ اعتكف فى قبة من خوص » فى مسند الإمام أحمد بن حنبل ، جـ٤ ص ٣٤٨ .

(٦) يعنى انصرفوا إلى منازلهم لأن الكفت كما يقول ابن منظور فى لسان العرب ، جـ٢ ص ٧٨ ، هو « صرفك الشيء عن وجهه وانكفت أى رجع راجعاً » .

كنت تصلى الليل فنصلى بصلاتك ، فقال : انى خشيت أن تنزل عليكم صلاة الليل ثم لا تقوون عليها »[١]، وهذه الصلاة غير صلاة الاعتكاف التى كان يقوم بها معه كثير من أمته ، ولا زال يعكف عليها كثير من المسلمين .

أما التعليل لهذا الموقع كما أراه فيما أورده السمهودى فى الروايات السابقة وما ذكره ابن سعد من أنه كان لبيت عائشة رضى الله عنها بابان[٢] وأن بيت فاطمة رضى الله عنها كان به « كوة إلى بيت عائشة رضى الله عنها ، فكان رسول الله ﷺ إذا قام إلى المخرج[٣]، أطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرهم »[٤]، أقول إذا صح ذلك فإن الرسم الذى اقترحه محمد لبيب البتنونى[٥] شكل (٣٧) يتفق والحقيقة أو يقرب منها . وعلى هذا فإن خروج النبى عليه السلام من باب بيته الشامى بعد خروج الناس من المسجد وصلاته فى موضع اسطوانة التهجد ، والذى كان قريبا من بيت عائشة رضى الله عنها ، ييسر الأمر على من أراد الاقتداء به ، وإلا لو كان هذا الموضع من بيت النبى لما تجرأ أحد على الدخول إليه والصلاة خلف الرسول بغير إذنه .

---

(١) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٤٥١ .

(٢) ذكر ابن سعد فى الطبقات الكبرى جـ٢ ص ٢٨٩ أن الناس قالوا عندما قبض رسول الله ﷺ «كيف نصلى عليه ؟ قالوا : أدخلوا من ذا الباب أرسالا أرسالا فصلوا عليه وأخرجوا من الباب الآخر» . قال ابن المحجوب فى قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٦٤ أ ، ب أن أبواب بيوت أمهات المؤمنين « كانت شارعة إلى فضاء العجاج والطرقات فكان لكل بيت بابان باب هو خوخة يخرج منها إلى المسجد وهو شارع فى المسجد وباب بخارج حجرة من خيام الشعر وهو شارع إلى الطرقات » ، ونقل السمهودى فى وفاء الوفاء ، جـ٢ ص ٤٥٩ وما بعدها عن ابن زبالة « عن محمد بن هلال قال : أدركت بيوت أزواج النبى ﷺ كانت من جريد مستورة بمسوح الشعر مستطيرة من القبلة وفى المشرق والشام ، ليس فى غربى المسجد شىء منها ، وكان باب عائشة مواجه الشام » .

(٣) الموضع الذى كان يقضى فيه حاجته .

(٤) السمهودى : الكصدر السابق ، جـ٢ ص ٤٦٦ .

(٥) الرحلة الحجازية ، ص ٢٥٠ .

أما المحراب النبوى الشريف فلم يكن له وجود فى زمنه ﷺ [(١)]، وإنما كان يعرف مصلاه بعلامات منها اسطوانة عائشة رضى الله عنها ، التى قيل أنه صلى إليها بضعة عشر فرضا ، قبل أن ينتقل إلى مصلاه الشريف [(٢)]، الذى يبعد عنها بتسعة عشر ذراعا [(٣)]، كما تحدد موضعه فى مرحلة ثانية ، بموضع الجذع الذى كان يخطب إليه الرسول الكريم قبل صنع المنبر الشريف ، وقد ذكر ابن النجار أنه كان « فى موضع الاسطوانة المخلقة التى عن يمين محراب النبى » [(٤)]، كما أن العود الذى أضيف إلى جدار القبلة فى أواخر حياة الرسول عليه الصلاة والسلام قد حدد موضع المصلى الشريف بشكل أفضل ، كما يفهم مما ذكره ابن اسحاق بسنده عن سهل بن يعقوب « أن العود الذى كان فى المقصورة[(٥)] جعل لرسول الله ﷺ حين أسن فكان يتكئ عليه إذا قام فى صلاته ، وإذا قام من سجوده اعتمد عليه ، وإذا كلم إنسانا لحاجته اعتمد عليه » [(٦)].

---

(١) يذكر فريد شافعى فى العمارة العربية ، ص ٦١١ ، أنه كان « فى عهد الرسول الكريم محراب بمسجده فى المدينة وفى مسجده بقباء ، وذلك منذ السنة الثانية من الهجرة على الأقل ، والتى نزلت فيها الآية الكريمة بالأمر باتخاذ الكعبة قبلة للصلاة ، وأغلب ظننا أنها (كانت) على هيئة علامة فى جدار القبلة تتميز بالبساطة ، وأن هذه الهيئة المبسطة انتقلت إلى طور أو أطوار جديدة فى العراق والشام ومصر وأقطار شمال افريقية » وذكرت نجاة يونس الحاج فى ص ٢٠ من المحاريب العراقية أن رسول الله ﷺ اتخذ « الحربة والعنزة والوتد أثناء اقامته للصلاة فى الفضاء لكى يحدد بها اتجاه القبلة ، بينما فى بيت الصلاة اتخذ المحراب المجوف » وما ذكراه بخصوص اتخاذ المحراب المجوف فى عهد الرسول عليه السلام ، كلام يحتاج إلى سند لم يوفق المؤلفان إليه .

(٢) ابن النجار : الدر الثمينة ، ص ٩١ .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٤٤٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٥) ذكر ابن اسحاق : فى كتاب المناسك ، ص ٤٠٣ أن عمر بن عبد العزيز هو الذى نقل العود الذى كان يعتمد عليه الرسول من موضع مصلاه إلى جدار القبلة بجوار المحراب العثمانى ، وانظر أيضاً ابن النجار الدرة الثمينة ، ص ٨٩ .

(٦) كتاب المناسك ، ص ٤٠٣ وذكر فى رواية ثانية عن أنس بن مالك رضى الله عنه « أن النبى ﷺ كان يستمسك بعود كان فى القبلة ثم يلتفت عن يمينه وعن شماله فإذا استوت الصفوف كبر » وذكر فى رواية أخرى ص ٤٠٣ أن هذا العود سرق بعد وفاة الرسول « فلم يجده أبو بكر حتى =

ويبدو أن الاسطوانة المخلقة التى ذكرها ابن النجار فى روايته السابقة ، لم يكن لها وجود فى زمنه ﷺ ، وأنها وضعت فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،بعد انتقال جدار القبلة عند اضافة البلاطة الواقعة فى مقدم المسجد سنة ١٧هـ ، وأن تخليقها كما يذكر ابن اسحاق الحربى كان بقصد الدلالة على المصلى الشريف (١). ومهما يكن من أمر فقد تواتر العلم بالموضع الصحيح لمصلى النبى ﷺ وقد اهتم العلماء بتحديد مكانه ، فقد ذكر السمهودى أنه ذرع ما بين المنبر الذى كان قبل الحريق الثانى والمصلى الشريف فكان طوله أربعة عشر ذراعا وشبراً ثم ذكر أنه موافق لما ذكره ابن زبالة (٢). ثم ذكر أن من المنبر إلى الحجرة ثلاثة وخمسون ذراعا كما هو عند ابن زبالة (٣)، ونقل ابن حجر الهيثمى عن أبى غسان صاحب الإمام مالك « أن ما بين الحجرة الشريفة ومقام النبى ﷺ ثمانية وثلاثون ذراعا » (٤).

أما عن الصلاة فى الفضاء فقد ذكر الطبرى أن رسول الله ﷺ « خرج فى السنة الثانية إلى المصلى فصلى بهم صلاة العيد ، وحملت العنزة له إلى المصلى فصلى إليها »(٥) ، ويكفى للدلالة على القبلة فى مثل هذه المساجد المؤقتة ، أو التى يراد تأسيسها ، وضع مجموعة من الأحجار بجنب بعضها على خط مستقيم وتمييز موضع الإمام بعود أو حربة أو عنزة تنصب وسط هذا الخط .

وفى عهده عليه الصلاة والسلام استقرت أبواب المسجد النبوى على ثلاثة

= وجده عمر رضى الله عنه عند رجل من الأنصار قد دفنه بأرض أكلته الأرضة ، فأخذ له عودا فشقه فأدخله فيه ، ثم شعبه ورده فى الجدار ... » ويفهم من هذه الرواية أنه بقى بعد موت الرسول الكريم للدلالة على موضع مصلاه الشريف حتى نقله عمر بن عبد العزيز إلى جدار القبلة بجوار المحراب العثمانى الذى كان داخل مقصورة الإمام بجوار المحراب العثمانى .

(١) المصدر السابق ص ٤٩٦ .

(٢) وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٧٤ .

(٣) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٤٣٨ .

(٤) تحفة الزوار إلى قبر النبى المختار ، ص ٦٢ .

(٥) تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ص ١٢٨١ .

أبواب ، هي : الباب الذى فتح فى مؤخرة المسجد بعد تحويل القبلة ، وباب عاتكة وهو المعروف بباب الرحمة ، والباب الذى كان يدخل منه النبى ﷺ المسجد ، وهو المعروف بباب آل عثمان أو باب جبريل [١]. وهذه الأبواب « هى فرج لا أغلاق عليها » [٢]. ومع إجماع الروايات المختلفة على ذكر الأبواب الثلاثة التى لا تزال محتفظة بمواضعها إلى اليوم [٣]، إلا أن ابن حجر الهيثمى يضيف إليها بابين هما: باب على رضى الله عنه ، الذى يقول عنه أنه « كان مكان الشباك الآن الذى تحته أرجل الصحابة [٤]، رضى الله عنهم » [٥]، وباب النبى الذى كان يدخل منه إلى المسجد ، وقد سد عند تجديد الجدار الشرقى [٦]. بيد أنه لا يمكن عد هذين البابين من أبواب المسجد التى كان الدخول منها والخروج إلى المسجد مسموحا به لجميع المسلمين ، ولذلك فقد سد باب على رضى الله عنه مع الأبواب التى كانت شارعة فى المسجد قبل وفاة الرسول عليه السلام عندما أمر بسدها إلا باب أبى بكر [٧]، وجاء أنه قال لعمه العباس رضى الله عنه « ما فتحت

---

(١) المطرى : التعرف بما أنست الهجرة ، ص ٣١ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٣٧ .

(٢) انظر أدناه ص ١٠٤ الحاشية رقم ١ .

(٣) أحمد فكرى : المدخل ، ص ١٨٧ .

(٤) يقصد به الشباك الواقع فى مشبك الحجرة الشريفة من جانبها الشرقى .

(٥) تحفة الزوار ، ص ١٠٦ .

(٦) ابن حجر الهيثمى : نفس المصدر ، ص ١٠٦ . وقد كان هذا الباب كما يقول ابن المحجوب فى قرة العين ، ورقة ٦٤ أ أن أبواب بيوت أمهات المؤمنين ، كانت شارعة إلى فناء المحاج والطرقات، فكان لكل بيت بابان ، باب هو خوخة يخرج منها إلى المسجد وهو شارع فى المسجد وباب شارع إلى الطرقات .

(٧) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ٢ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ . وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : خرج رسول الله ﷺ فى مرضه الذى مات فيه عاصبا رأسه فى خرقة فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : « أنه ليس أحد آمن على فى نفسه وماله من أبى بكر بن أبى قحافة، ولو كنت متخذا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن خلة الإسلام أفضل ، سدوا عنى كل خوخة فى هذا المسجد غير خوخة أبى بكر . وعد السمهودى فى الوفا ، جـ٢ ص٤٧١ وما بعدها باب حمزة بن عبد المطلب وباب على والعباس وعمر وعثمان .

عن أمرى ولا سددت عن أمرى »[١]. ولذلك بقى لخوخة[٢] الصديق رضى الله عنه أثر فى المسجد إلى زمن السمهودى .

ومهما يكن من أمر هذه الأبواب فقد كان الأمر بسد الأبواب الشوارع فى المسجد النبوى الشريف بمثابة عمل معمارى كبير اختتم به الرسول عليه السلام أعماله فى مسجده الشريف قبل تسليم روحه الطاهرة إلى خالقها العظيم .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ٢ ص ٢٢٧ وما بعدها .

(٢) عرف السمهودى فى وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٧١ الخوخة فقال هى طاقة فى الجدار تفتح لأجل الضوء ولا يشترط علوها ، وحيث تكون سفلى يمكن الاستطراق منها لاستقراب الوصول إلى مكان مطلوب وهو المقصود هنا ، ولهذا أطلق عليها باب ، وقيل لا يطلق عليها باب إلا إذا كانت تغلق .

٧ ـ منبرا الرسول صلى الله عليه وسلم

لقي المنبر الذى اتخذه الرسول عليه السلام فى مسجده بعد الزيادة الأخيرة فى السنة السابعة من الهجرة ، اهتماما كبيرا من قبل بعض المستشرقين الذين ألفوا البحث عن كل عنصر معمارى يستحدثه المسلمون ، للرجوع بأصله إلى غير العرب . وكان هدفهم هذه المرة النيل من أخلاق الرسول وشخصيته ، التى تأكدت عظمتها بالآية الكريمة ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [1]. ورغم تواضع الرسول الذى تشهد به كثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة والروايات المختلفة ، إلا أن المستشرق بكر BECKER يؤكد « أن محمدا لم يتخذ منبرا إلا عندما أصبح رجلا عظيما يستقبل السفارات بصفة مستمرة من جميع الجهات » [2]. ويذكر كريزويل CRESWELL أن المنبر الشريف « كانت تنقصه الدلالة الدينية فى الأيام المبكرة من الإسلام » [3]. بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك عندما أنكر أصله العربى ناسبًا له أصلا حبشيا معتمدا فى ذلك على شوالى SCHWALLY ونلدكه[4]، ومتخذا من ذكر اسم باقوم فى إحدى الروايات[5] حجة لاثبات ما ذهب إليه [6]. ويرى الدكتور فريد شافعى أن « حقيقة بناء الكعبة وصناعة أول منبر

---

(١) سورة القلم ، آية رقم (٤) ، وانظر سورة التوبة آية رقم ١٢٨ .

(٢) ، (٣) كريزول : العمارة الإسلامية المبكرة ، جـ١ القسم الأول ص ١٤ .

(٤) انظر كريزول : نفس المرجع ، جـ١ القسم الأول ص ١٤ .

(٥) ذكر المراغى فى تحقيق النصرة ، ص ٦٤ ـ ٦٥ مجموعة من الروايات التى تذكر أسماء مختلفة لاسم صانع المنبر وقال فى آخرها « ويقال : إنما عمله باقوم بانى الكعبة لقريش نقله بعض شيوخنا » . انظر السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٣٩٦ .

(٦) إذا كان ما ذكره الأزرقى فى أخبار مكة ، جـ١ ص ١٥٨ صحيحا بالنسبة لاستعانة قريش بباقوم الرومى فى بناء الكعبة ، فإن ما ذكره عن صغر رسول الله ﷺ الذى بلغ الحلم آنذاك ما ينفى قدرة هذا النجار المزعوم على صنع المنبر للرسول فى المدينة . فإنه ولا شك يكون حينذاك فى أرذل العمر . أى أننا لو فرضنا أن عمره عندما أعان قريش كان فى حدود الخمسين عاما ، وعمر الرسول عليه السلام خمسة عشر عاما ، وأن رسول الله ﷺ لم يستحدث المنبر إلا فى السنة السابعة أو الثامنة من الهجرة كما صرح به ابن النجار والمراغى عندما كان عمره ﷺ ستين =

للرسول الكريم فى المدينة لا تزال غامضة كل الغموض ولا تزال فى حاجة شديدة إلى دراسات وأبحاث أخرى على أسس سليمة ومنطق علمى ثابت »[١]. كما يحذر من أمثال الروايات التى استعان بها كريزول وغيره والتى يراد بها « إثبات الرأى الذى يقول بنشأة العمارة والفنون العربية الإسلامية بفضل الفنانين من غير المسلمين ومن غير العرب »[٢].

ومهما يكن من أمر هذه الروايات فإن صانع المنبر المختلف فيه غير هام بالنسبة لنا وإن ما يعنينا هو الزمان والمكان الذى استحدث فيه هذا العنصر المعمارى الهام فكان لوجوده ـ فى السنة السابعة أو الثامنة من الهجرة ـ فى المسجد النبوى الشريف أسباب منها :

١ ـ لم يكن عدد المسلمين فى المدينة قبل هاتين السنتين من الكثرة بحيث كانت تستوجب استخدام المنبر ، بل كانت تكفى لإسماعهم خطب الرسول وأقواله مصطبة من اللبن فى مقدم المسجد [٣]، وقيل أنه كان يستند إلى جذع نخل ـ عندما يخطب الناس [٤]، فلعله كان يقف على هذه المصطبة مسندا ظهره إلى جذع النخل المذكور فى رواية ابن سعد .

٢ ـ قلة عمق ظلة المسجد وانخفاض سقفها ، كان يساعد على سماع المسلمين

= عاما ، على اعتبار أن مولده كان ٥٧١م ووفاته ٦٣٢م . فإن عمر باقوم يكون فوق التسعين ، أى أنه عاجز عن إعداد منبر أو إرشاد أحد إلى صنعه . هذا فضلا عن أن من الروايات ما ينفى الاستعانة بباقوم فى بناء الكعبة فقد ذكر الأزرقى فى أخبار مكة ، جـ١ ص ١٦١ وابن هشام فى السيرة النبوية ، القسم الأول ص ١٩٥ تقسيم بناء جدران الكعبة بين قبائل قريش ومشاركتهم كلهم فى البناء . ثم من كان يبنى لقريش بيوتهم قبل ذلك .

(١) فريد شافعى : العمارة العربية ، ص ٦٢٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٣٣ .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨ .

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ١ ص ٢٥٢ .

لصوت النبى ﷺ فلم تكن هناك حاجة إلى منبر يعتليه الرسول [١].

٣ - كانت بدانة الرسول ﷺ وكبر سنه ، مما بدأت علاماته تظهر فى غزوة بدر[٢] من الدوافع الرئيسية لصناعة المنبر ، فقد روى محمد بن سعد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : « كان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إلى جذع فى المسجد قائما فقال : « أن القيام قد شق علىّ » ، فقال له تميم الدارى [٣] : «ألا أعمل لك منبرا كما رأيت يصنع بالشام ؟ » [٤].

---

(١) ذكر إبراهيم شريف : فى خواص المادة والصوت ، جـ١ ص ٢٥٤ أن من العوامل التى تزيد من شدة الصوت عند المستمع ما يلى :

- الخواص الانعكاسية للجدار والأسقف والأرضية وكل العواكس التى يمكن أن تساعد على توزيع الصوت توزيعا منتظما بقدر الإمكان .
- استخدام مكبرات الصوت . فالعواكس المستوية تساعد على زيادة شدة الصوت بينما العواكس المنحنية تسبب بعض المتاعب . ومن المستحسن تواجد عواكس مستوية خلف المتحدث لكى تساعد على انعكاس الصوت صوب المستمعين . ومن العوامل التى تساعد أيضاً على زيادة شدة الصوت عند المستمعين ، الأسقف المنخفضة بشرط تمرج سطوحها حتى يمكن توزيع الصوت توزيعا منتظما فى القاعة .

(٢) انظر ابن هشام : السيرة النبوية ، القسم الثانى ص ٨٦ ، السمهودى : المصدر السابق جـ١ ص ٢٩٣ الذى ذكر فى ص ٥٣٢ من الجزء الثانى أن رسول الله ﷺ كان « إذا هلك الهالك شهده يصلى عليه حيث يدفن ، فلما ثقل رسول الله ﷺ وبدن نقل إليه المؤمنون موتاهم فصلى بهم رسول الله ﷺ على الجنائز عند بيته » .

(٣) يذكر السخاوى فى التحفة اللطيفة ، جـ١ ص ٣٨٩ ترجمة تميم الدارى فقال : أنه تميم بن أوس بن خارجة بن سودان بن خديجة أبو رقية اللخمى الدارى الصحابى الشهير ، له مناقب جمة، وأحاديث جملة . روى عنه أنس ، وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ... قال ابن سعد ولم يزل بالمدينة حتى تحول بعد قتل عثمان إلى الشام . وبها مات سنة أربعين .

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبرى جـ١ ص ٢٥٠ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ص ٧٩ ، وذكر السمهودى فى وفاء الوفا جـ٢ ص ٣٩٦ أن « عند أبى داود باسناد جيد أن النبى ﷺ لما بدن قال له تميم الدارى : يا رسول الله ألا تتخذ لك منبرا يحمل - أو يجمع - عظامك قال ﷺ ، بلى ، فاتخذ له منبرا مرقاتين : أى غير القعدة » ثم ذكر أن الحافظ ابن حجر قال : « ليس فى الروايات التى سمى فيها النجار قوى السند إلا هذا » .

ويبدو أن ذلك قد راق للرسول ﷺ إلا أنه لم يشأ أن يحققه دون مشاورة أصحابه ، وهو ما أشار إليه ابن سعد بعد ما تقدم بقوله « فشاور رسول الله ﷺ المسلمين فى ذلك فرأوا أن يتخذه » نظرا لكثرة الناس وحاجتهم إلى رؤيته وسماعه وهو يخطب انظر شكل (٣٨) . ومن هذا يتبين للرسول ﷺ ضرورة اتخاذ المنبر لإبلاغ صوته إلى الجموع المحتشدة داخل المسجد بأبعاده المربعة[1] التى بلغ طول كل ضلع منها مائة ذراع فى وقت لم تعرف فيه الوسائل الحديثة لتكبير الصوت وقد أصبح استخدامها من الضروريات فى الوقت الحاضر فى مساجد لا تبلغ ربع مساحة المسجد النبوى الشريف [2]. أما وصف هذا المنبر ونوع خشبه فقد قيل أنه

---

(١) يبدو أن صحن المسجد كان يستخدم للصلاة لا سيما يوم الجمعة التى كان يخطب فيها الرسول عليه السلام باستمرار .

(٢) قال إبراهيم شريف فى خواص المادة والصوت ، ص ٢٤١ وما بعدها أنه عندما يصدر الصوت من مصدر صوتى فى القاعة فإن موجة مباشرة تصل إلى المستمع فى خط مستقيم وتصله تباعا موجات عديدة أخرى لنفس الصوت عن طريق انعكاسات متكررة فى الحوائط والأسقف . ويصل عدد هذه الانعكاسات فى بعض الأحوال إلى حوالى مائتين قبل أن تصل إلى المستمع » . ثم عدد العوامل التى تحكم زمن الانعكاسات فذكر منها :

١ ـ الخواص الانعكاسية لجدران وأرضية وسقف القاعة . ٢ ـ معامل امتصاص السطوح الموجودة فى القاعة مثل السجاد والمفروشات . ٣ ـ شدة الصوت قبل توقفه مباشرة . ٤ ـ تردد الصوت . ٥ ـ أبعاد القاعة .

أما الدكتور عبد الرحمن فكرى حسن ، الأستاذ بقسم الفيزياء بكلية التربية بمكة المكرمة . فقد أفادنى بالمعلومات التالية التى أنقلها عنه حرفيا فيما يخص الموضوع الذى نحن بصدده . قال : « من المعروف فى علم الفيزياء أن مساحة سطح الكرة = نق . نق = نق٢ ط . أى أن :

$$\frac{\text{الطاقة الكلية الصادرة من المتكلم}}{\text{مساحة سطح الكرة المحيطة به (نق صغير)}} = \frac{\text{نفس تلك الطاقة}}{\text{مساحة سطح كرة أكبر (نق كبير)}}$$

وبما أن الكمية التى فى البسط واحدة إذن النتائج لكل وحدة مساحات يكون أصغر كلما كبرنا المساحة . أى كلما كبرنا من الكرة المحيطة بالمتكلم . أى كلما بعدنا عن الخطيب . إذن لو وضعنا حاجزا ماديا بين المستمع رقم ١٠٠ والخطيب لساعدنا على عدم وصول تلك الطاقة الصوتية الضعيفة نسبيا عن تلك التى تصل إلى المستمع رقم ١ ويتمثل هذا الحاجز فى الصفوف الأمامية . ولكى نساعد على تقليل امتصاص هذا الصوت من أجسامهم نجعل الخطيب مرتفع بعض الشىء عن مستوى رؤوس هؤلاء المنصتين ، وهذا هو السبب الطبيعى (أى الفيزيائى) لاستخدام كرسى أو منبر أو عتبة . لوقوف الخطيب أو المحاضر عليها وهناك بجانب هذا السبب الأساسى أسباب أخرى بعضها يتمثل فى التأثير النفسانى على المنصتين ، بمعنى أن قوة تأثير الخطيب على المستمع تكون أكبر عند رؤيته له » . شكل (٣٨) .

من خشب الطرفاء ، وقيل أن الطرفاء هى العرعر [١]، وقيل من خشب الأثل على الصحيح فى عشرة أقوال [٢]. والأثل هو الصحيح لوجوده بكثرة فى المدينة ونواحيها، أما العرعر فلا ينمو إلا فى المناطق الباردة والعالية كالطائف وعموم جبال السراة . ولا يمكن أن يقال أن خشبه من غير المدينة ، لأن الفكرة نفذت فور اقتناع الرسول بجدواها كما تدل عليه عموم الروايات التى تذكر صناعة المنبر ومنها ما ذكره ابن النجار عن أبى الزناد « أنه عليه السلام كان يخطب يوم الجمعة إلى جذع فى المسجد فقال : « أن القيام قد شق علىّ » وشكا صعفا فى رجليه » . فقال له تميم الدارى وكان من أهل فلسطين : يا رسول الله أنا أعمل لك منبرا كما رأيت يصنع بالشام . قال : فلما أجمع ذو الرأى من أصحابه على اتخاذه قال العباس بن عبد المطلب : أن لى غلاما يقال له كلاب أعمل الناس فقال له النبى ﷺ : فمره يعمل فأرسل إلى أثلة بالغابة[٣] فقطعها ثم عملها درجتين ومجلسا ثم جاء بالمنبر فوضعه فى موضع المنبر اليوم ثم راح إليه رسول الله ﷺ يوم الجمعة فلما جاوز الجذع يريد المنبر حن الجذع ثلاث مرات ... » [٤].

وعلى أى حال فقد كان هذا المنبر يتألف من درجتين ومجلس ، أى ثلاث درجات كما شاهدها الهروى [٥]. وكان طوله كما يقول ابن النجار « ذراعين وشبر وثلاث أصابع وعرضه ذراع راجح وطول صدره[٦] وهو مستند النبى صلى

---

(١) الهروى : كتاب الأشارات إلى معرفة الزيارات ، ص ٩٠ ، وقد ذكر فى حاشية ص ١٣٠ من إحدى نسخة المخطوطة بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود المركزية بالرياض برقم ٩٥٧ تاريخ «أن الأثل شجر معروف بمصر - ويعرف فيها الآن باسم العبل ولا يزال أهل المدينة إلى يومنا هذا يستعملون الأثل ويسمونه أيضاً الطرفاء ويسقفون به بيوتهم » .

(٢) تاريخ مكة والمدينة ، لمؤلف مجهول . ورقة ٣٩ ب .

(٣) قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان ، جـ٤ ص ١٨٢ « أن الغابة موضع قرية بالمدينة من ناحية الشام ، فيه أموال لأهل المدينة من طرفائه صنع منبر النبى عليه السلام ، وهو على بريد منها » .

(٤) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ٧٩ ــ ٨٠ .

(٥) كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات ، ص ٩٠ .

(٦) أى الموضع الذى يسند إليه الرسول ظهره الشريف .

الله عليه وسلم إذا جلس يخطب شبر وأصبعان »[1].

ويمكن تصور صورة أوضح لحال المنبر الأول من خلال الحديث الشريف «قوائم منبرى رواتب فى الجنة»[2]. ويذكر ابن سعد عن يزيد بن عبد الله بن قسيط أنه قال : « رأيت ناسا من أصحاب النبى ﷺ ، إذا خلا المسجد أخذوا برمانة المنبر الصلعاء التى تلى القبر بميامنهم ثم استقبلوا القبلة يدعون »[3]. وطول هاتين الرمانتين كما فى رواية ابن النجار المتقدمة شبر واصبعان . وبهذا الأثر النبوى الموثوق به[4]، بدأ فن المنابر الإسلامية أولى إنجازاته فى المدينة المنورة فى ظل العقيدة الجديدة ، ثم أكمل نموه فى البلاد الإسلامية التى تنعم بوفرة المواد اللازمة لاظهار خصائص ومميزات هذا الفن الناشئ .

* * *

(١) الدرة الثمينة ، ص ٨٢ .
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ١ ص ٢٥٣ ، ابن النجار : المصدر السابق ، ص ٨٠ .
(٣) ابن سعد : المصدر السابق ، جـ١ ص ٢٥٣ .
(٤) سوفاجيه : المسجد الأموى فى المدينة ، ص ٨٦ .

المبحث الثانى

عمارة المسجد النبوى فى عهد الخلفاء الراشدين

المبحث الثاني

عمارة المسجد النبوي في عهد الخلفاء الراشدين

ا - زيادة عمر بن الخطاب في المسجد النبوي سنة ١٧هـ :

بقي المسجد النبوي الشريف على ما كان عليه في حياة الرسول ﷺ طوال حياة أبي بكر الذي لم يتمكن من توسعة المسجد نظرا لانشغاله أول الأمر بأمر السقيفة التي قال عنها عمر أنها « فتنة وقى الله شرها » [١]. ثم ما تلاها من حروب ضد المرتدين من العرب والحرص على تجهيز الجيش الذي أعده الرسول بقيادة أسامة بن زيد وبعثه إلى أرض الروم . كل هذا مع قصر مدة خلافة الصديق مما حال دون القيام بتوسعة المسجد النبوي الشريف [٢]، أو القيام بأي عمل معماري فيه [٣]. وفي خلافة عمر رضي الله عنه (١٣ - ٢٣هـ) ، وبالتحديد في سنة ١٧هـ [٤]، أحس عمر رضي الله عنه بضيق المسجد بالمصلين ومفاتحة بعضهم له بأمر التوسعة كما في رواية يحيى عن ابن عمر رضي الله عنهما « أن الناس كثروا في عهد

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، القسم الثاني ، ص ٦٥٨ ، تاريخ اليعقوبي جـ٢ ص ١٥٨ .

(٢) المطري : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٨٠ ، المراغي : تحقيق النصرة ، ص ٤٥ .

(٣) ذكر السمهودي في وفاء الوفا جـ٢ ص ٤٨١ نقلا عن أبي داود « أن سواريه نخرت في خلافة أبي بكر ، فبناها بجذوع النخل » . والسمهودي لا يستبعد قيام الصديق بهذا العمل « إذ أن المنفي كما يقول هو الزيادة » . ونظرا إلى قصر المدة التي مكثتها هذه الجذوع في المسجد من حين أقامها الرسول عليه السلام سنة ٧هـ إلى نهاية خلافة الصديق سنة ١٣هـ . وهي ستة أعوام وإلى ما عرف عن النخل من قوة تحمل لفترة أطول من هذه ، كما حدث في عمارة عمر للمسجد التي بدأت سنة ١٧هـ . وبقيت حتى وسع عثمان المسجد سنة ٢٩هـ أي ١٢ عاما ، فإنه يترتب على ذلك إحتمالان يجب التسليم بأحدهما : الأول استبعاد قيام الصديق بتغيير جذوع النخل في المسجد ، وثانيهما : التسليم بالروايات التي ذكرت استخدام عمر لأعمدة اللبن محل جذوع النخل . خلافا لما نقله السمهودي في الوفا جـ٢ ص ٤٨١ عن أبي داود « أن عمر رضي الله عنه زاد في المسجد ، وبناه على بنائه في عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد وأعاد عمده خشبا » .

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٥ ص ٨٧ ، السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٨١ .

عمر ، فقال له قائل : يا أمير المؤمنين لو وسعت في المسجد ، فقال عمر : لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أني أريد أن أزيد في قبلة مسجدنا ، ما زدت فيه »(١).

واحساس عمر رضي الله عنه بحاجة المسجد إلى التوسعة في هذه الفترة بالذات، أمر يتفق مع ازدياد عدد المسلمين الوافدين إلى المدينة نتيجة الفتوحات الإسلامية التي شهدتها تلك الفترة من تاريخ عمر رضي الله عنه . وعلى أية حال فقد وجد عمر في زيادة الرسول عليه السلام في مسجده سنة سبع من الهجرة أمرا يستند إليه في جواز التوسعة في هذا المسجد مستشهدا بما سمعه من أحاديث شريفة فيها الإذن بالتوسعة في المسجد عند الحاجة (٢).

وكان لا بد له من تحديد موضع الزيادة التي ينوى إدخالها في المسجد ، واضعا في اعتباره أمرين مهمين :

١ ـ أنه لا يمكن التعرض لحجرات أمهات المؤمنين الباقيات على قيد الحياة والتي

---

(١) السمهودي : نفس المصدر جـ٢ ص ٤٨٢ ، وانظر ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٨٠ ، المراغي : تحقيق النصرة ، ص ٤٥ .

(٢) ورد في جواز الزيادة في المسجد النبوى أحاديث عدة منها ما ذكره ابن اسحاق في كتاب المناسك ص ٣٦١ أن عمر قال : « لو زدنا فيه حتى الجبانة لكان مسجد رسول الله ﷺ ومنها أيضاً ما ذكره السمهودي في الوفا ، جـ٢ ص ٤٩٦ عن ابن شبة ، ويحيى عن أبي عمرة ، «زاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في المسجد من شامية ثم قال : لو زدنا فيه حتى نبلغ الجبانة كان مسجد رسول الله ﷺ . ولهما عن ابن أبي ذئب : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو مد مسجد رسول الله ﷺ إلى ذي الحليفة لكان منه ، ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا « لو بنى هذا المسجد إلى صنعاء كان مسجدى » .
كما يذكر المراغي في تحقيق النصرة ، ص ٤٦ أن عمر قال عندما فرغ من زيادته : « لو انتهى بناؤه إلى الجبانة لكان الكل مسجد رسول الله ﷺ .
أما ابن المحجوب في قرة العين في أوصاف الحرمين ورقة ٦٦ أفيذكر « أن عمر قال : سمعته ﷺ يقول لو بنى هذا المسجد إلى صنعاء « لكان مسجدى » . وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ أو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول حين زاد في المسجد لو زيد في المسجد ما زيد لكان الكل مسجدى . وفي رواية « عندما زيد في مسجدى فهو منه لو بلغ ما بلغ » .

يرقد في إحداها جثمان الرسول ﷺ وصاحبه الصديق رضي الله عنه . وقد أوضح عمر ذلك للعباس رضي الله عنهما ، كما في رواية لابن سعد [١].

٢ ـ ما روى عن رسول الله ﷺ من حبه للزيادة في قبلة المسجد ، فقد روى ابن النجار بسنده عن مسلم بن خباب أن النبي قال يوما وهو في مصلاه : لو زدنا في مسجدنا وأشار بيده نحو القبلة » [٢].

وفي رواية يحيى بن الحسين عن ابن عمر رضي الله عنه قال : أن عمر رضي الله عنه قال : « لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أني أريد أن أزيد في قبلة مسجدنا » ما زدت فيه » [٣].

وعلى هذا فإن الرواية التي يرويها ابن النجار ومن تبعه من مؤرخي المدينة ، أن عمر عندما أراد الزيادة « أجلسوا رجلا في المصلى ثم رفعوا يده وخفضوها ، ثم جيء بمقط[٤] فوضعوا طرفه بيد الرجل ثم مدوه ، فلم يزالوا يقدمونه ، ويؤخرونه حتى رأوا أن ذلك شبيه بما أشار به النبي ﷺ » [٥]، إنما تدل في نظري على محاولة عمر رضي الله عنه التوفيق بين الزيادة في المسجد ومراعاة الأحاديث الدالة على رغبة الرسول الكريم في زيادة قبلة مسجده . وهو ما يعنيه أيضًا ابن المحجوب بقوله « فتحرى عمر رضي الله عنه إشارة المصطفى بيده الكريمة » [٦]. فلو اقتصر عمر في الزيادة على ظلة القبلة لما تحقق الغرض الذي توخاه من الزيادة ، وهو توسعة المسجد ، هذا بالإضافة إلى أن ظلة القبلة ستصبح عميقة بحيث يبتعد فيها جدار القبلة عن موضع مصلى النبي ﷺ والمنبر الشريف وعن الروضة المطهرة ، ولذلك استخدم المقط في تحديد مواضع الزيادة .

---

(١) انظر أعلاه ص ٨٤ .
(٢) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ٩٣ . السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٨٢ .
(٣) السمهودي : نفس المصدر ، جـ٢ ص ٤٨٢ .
(٤) انظر تعريف المقط أعلاه ص ٤٩ .
(٥) المراغي : تحقيق النصرة ، ص ٤٦ ، السمهودي : وفاء الوفا جـ٢ ص ٤٨٢ .
(٦) قرة العين في أوصاف الحرمين ، ورقة ٦٥ ب .

وهذا العمل أشبه ما يكون باعداد مخطط لزيادة المسجد ، قدرت فيه الدور التى ستدخل فى توسعة المسجد تمهيدا لشرائها كما فى رواية ابن سعد التى ذكرت أنه « لما كثر المسلمون فى عهد عمر رضى الله عنه ، وضاق بهم المسجد فاشترى عمر ماحول المسجد من الدور إلا دار العباس بن عبد المطلب وحجر أمهات المؤمنين ، فقال عمر للعباس : يا أبا الفضل إن مسجد المسلمين قد ضاق بهم وقد ابتعت ما حوله من المنازل نوسع به على المسلمين فى مسجدهم إلا دارك وحجر أمهات المؤمنين ، فأما حجر أمهات المؤمنين فلا سبيل إليها ، وأما دارك فبعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين أوسع بها فى مسجدهم » [١].

وعلى أية حال فإن رغبة عمر فى إدخال هذه الدور فى المسجد لم تتحقق دون معارضة أصحابها [٢] ، ومنهم العباس بن عبد لمطلب الذى لم يقنعه إلا أبى بن كعب[٣] الذى يقول عنه عمر رضى الله عنه أنه سيد المسلمين[٤] ويبدو أن وقتا طويلا قد استغرق فى الإعداد لهذه الزيادة ، فيما بين نزع ملكية الدور وهدمها ، وإعداد اللبن وجذوع النخل ، وتقريب الأحجار اللازمة لتأسيس الجدران الجديدة ، التى قيل أن عمر رضى الله عنه بنى أساسها « بالحجارة إلى أن بلغ قامة » [٥].

---

(١) الطبقات الكبرى ، جـ٤ ص ٢١ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٨٢ .

(٢) ذكر الأزرقى فى أخبار مكة ، جـ٢ ص ٦٩ أنه حدث لعمر مثل هذه المعارضة عندما أراد توسعة المسجد الحرام سنة ١٧ هـ .

(٣) إبن اسحاق : كتاب المناسك ، ص ٣٦٢ .

(٤) عدد السخاوى فى التحفة اللطيفة ، جـ١ ص ١٥٧ ، فضائل أبى بن كعب بن قيس الخزرجى المدنى ، ومن خصائصه أن الله تعالى ذكره فى الملأ الأعلى وأمر نبيه ﷺ أن يقرئه القرآن . فقال له : « أن الله أمرنى أن أقرئك القرآن فبكى » . وسأله النبى ﷺ « أى آية فى القرآن أعظم ؟ قال: آية الكرسى فقال : ليهنك العلم أبا المنذر » . وكان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ فى حياته ، وهو أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهده ﷺ فى حياته . ولجلالته فإن عمر لما أراد أن يأخذ من العباس رضى الله عنهما دارا له بالثمن ليدخلها فى المسجد النبوى وامتنع ، حاكمه عمر وهو خليفة إلى أبى راشد ، فوعظ العباس ، فطابت نفسه ، وبذلها لله ووصفه عمر بسيد المسلمين » .

(٥) انظر ما نقله السمهودى عن يحيى ورزين فى الوفاء ، جـ٢ ص ٤٩٥ ، وانظر المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٨٠ .

ومن الطبيعى أن يؤخذ بنصيحته المعمارية التى قال فيها « عرضوا المداميك وقاربوا ما بين الخشب » فى بناء المسجد الشريف كما نقل السمهودى عن البخارى تعليقا عن أبى سعيد الذى قال : « أمر عمر ببناء المسجد ، وقال : أكن الناس من المطر ، وإياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس »[١]. وبعد ذلك أكمل البناء باللبن المضروب فى البقيع[٢] إلى أن بلغ به السقف الذى قيل أن ما بينه وبين الأرض أحد عشر ذراعًا[٣]، وهو ارتفاع متناسب مع عمق الظلة وطولها[٤]، فقد أصبح بها بعد هذه الزيادة أربع بلاطات واثنى عشر بائكة ، أى أن زيادة عمر فى القبلة كانت عشرة أذرع أو اسطوانة وفى الغرب عشرين ذراعًا[٥]، أو اسطوانتين وفى الشمال ثلاثين ذراعا أو ثلاث اسطوانات[٦]. وقد حدد السمهودى هذه الزيادة ، مخالفا المطرى والمراغى فى حدود المسجد من جهة الغرب إذ يقول : « فيكون نهاية المسجد فى زمنه من تلك الجهة الاسطوانة السابعة من غربى المنبر ، ومن المشرق الحجرة الشريفة ، لأنه لم يزد فى تلك الجهة شيئا ، ومن القبلة صف الأساطين التى تلى القبلة .. »[٧] انظر شكل (٣٩) .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الصلاة ، باب بنيان المسجد رقم ٦٢ ، جـ١ ص ٨٩ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٩٦ . ويقصد بقوله لا تحمر أو تصفر أى لا تجعل فيه ألوانا من الطلاء فتشغل الناس بالنظر إليه عن الخشوع الواجب للصلاة .

(٢) انظر ما نقله السمهودى عن يحيى فى المصدر السابق ، جـ٢ ص ٤٩٥ .

(٣) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٥ ص ٨٧ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ص ٨٠ .

(٤) إذا حولنا هذه الأذرع إلى أمتار على اعتبار أن الذراع ٥٠/٣ سم × ١١ ذراع كما هو ذراع اليد عند فالترهنتس . فى المكاييل والأوزان الإسلامية ص ٩١ لبلغ ارتفاع السقف ٥/٥٣م وهو قريب من الذراع الشرعية التى يقدرها هنتس ٤٩/٨٧٥ × ١١ = ٥/٤٨م .

(٥) لاحظ السمهودى فى المصدر السابق جـ٢ ص ٥٠٦ وجود تربيع فى أسفل الاسطوانة السابعة من المنبر وأنه زال بعد الحريق سنة ٨٨٦هـ ، ويعتقد أن ذلك التربيع الذى أدركه هو حد زيادة عمر رضى الله عنه من المغرب .

(٦) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ٩٤ ، ياقوت الحموى : المصدر السابق جـ٥ ص ٨٧ ، المطرى: المصدر السابق ص ٨٠ ، القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ، ص ١٢٧ ، المراغى : تحقيق النصرة ص ٤٦ .

(٧) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٩٣ .

وهذا الارتفاع الذى تطلبته التوسعة اقتضى بطبيعة الحال تغيير الأسطوانات القديمة كلها والتى كان ارتفاعها كما عرفنا فى آخر عمارة للمسجد الشريف فى عهد النبى ﷺ سبعة أذرع [١] . وما من شك فى أن عمر رضى الله حرص على إعادة الاسطوانات الجديدة فى مواضع الاسطوانات القديمة ، التى كانت على خلاف ما قاله ابن زبالة من جذوع النخل أيضًا [٢] . ويتناسب طولها مع ارتفاع السقف الذى بلغ ١١ ذراعا أى حوالى خمسة أمتار[٣] وهو ارتفاع لا يمكن أن تبلغه أعمدة اللبن وأكتافه إلا إذا زيد فى عرضها بأكثر من ذراع فى ذراع ، أى أن مساحة كبيرة من المسجد قد تحتلها هذه الأعمدة العريضة نسبيا .

وما تؤكده الروايات من أن عمر بدأ بالزيادة فى مقدمة المسجد[٤] أمر يتفق مع حرصه على تحرى الدقة فى رسم موضع جدار القبلة الجديد ، كما أنه عنى بإعادة الظلة الشمالية نظرا لاهتمامه بفتح باب النساء فى مؤخر الجدار الشرقى مما يلى هذه الظلة ، فقد نقل السمهودى عن أبى داود ما يفيد أن عمر خصص هذا الباب للنساء ، ونقل أيضًا عن ابن زبالة ويحيى عن طريقه عن ابن عمر قال : سمعت عمر حين بنى المسجد يقول : هذا باب النساء فلم يدخل منه ابن عمر حتى لقى الله ، وكان لا يمر بين أيدى النساء وهن يصلين [٥] . كما ذكر السمهودى أيضاً أنه « يؤخذ من كلام ابن زبالة ويحيى تسمية السقف الشامى ، بسقائف

(١) السمهودى : نفس المصدر ، جـ١ ص ٣٣٦ .

(٢) ذكر السمهودى : فى نفس المصدر ، جـ٢ ص ٤٨١ أن الذى فى صحيح البخارى وسنن أبى داود « أن عمر رضى الله عنه زاد فى المسجد وبناه على بنائه فى عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد . وأعاد عمده خشبا وهذا مخالف لما فى رواية ابن زبالة من أن عمر جعل أساطينه من لبن والمعول عليه رواية الصحيح » . كما أورد كل من القرطبى فى بهجة النفوس والأسرار ص١٢٧ ، ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار ص ٨٩ رواية بناء عمر لإسطوانات اللبن .

(٣) ذكر فالترهنتس ، فى كتاب المكاييل والموازين الإسلامية ص ٩١ أن ذراع اليد ٥٠/٣ سم .

(٤) ابن المحجوب : قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٦٥ ب . وأشار إلى تقديم عمر لجدار القبلة دون أن يصرح بذلك كل من ابن اسحاق فى كتاب المناسك ، ص ٣٦١ ، ابن رستة فى الأعلاق النفيسة ص ٦٧ ، والسمهودى وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٨١ وما بعدها .

(٥) السمهودى : نفس المصدر جـ٢ ص ٦٧٢ .

النساء»[1]. غير أنه لم يتوفر لى معلومات كافية عن عدد بلاطاتها أو بوائكها أو ارتفاعها . إلا أن الغالب على ظنى أن بعد الاسطوانات عن بعضها وارتفاعها كان متساويا فى جميع أنحاء المسجد ، كما أن عمقها يمكن أن يكون كعمق ظلة القبلة ، أو قريبا منه ، لأنه لم يكن فى المسجد سوى ظلتين ، ولما ثبت أنه كان بجدارها الشمالى بابان هذا بالإضافة إلى أن باب الرحمة وباب النساء كانا فى طرفيها الشرقى والغربى . انظر شكل (٣٩) .

وبقى المسجد بعد زيادة عمر على ما كان عليه فى عهد الرسول بظلتين إحداهما جنوبية والأخرى شمالية . ولم أجد فى المصادر التى اطلعت عليها ما يشير إلى أنه أحدث للمسجد ظلات جانبية . ويدل ضيق المسجد قبل التوسعة ، وطريقة توزيع الأبواب التى استحدثها عمر فى المسجد ، وهى باب السلام ، وباب النساء ، وباب فى مؤخر المسجد مع الإبقاء على الباب الذى كان فيه فى عهد الرسول ، وكذلك باب الرحمة ، وباب آل عثمان المعروف بباب جبريل ، الذى لم يتغير عن موضعه فى هذه العمارة على كثرة المصلين وعجز ظلتى المسجد عن استيعابهم خاصة فى الأوقات الحارة وأيام المواسم الأمر الذى أوجب فتح هذه الأبواب الستة [2]. وإذا كانت الظلتان الجانبيتان لم تنشأ فى عهد عمر أو عثمان كما زعم فريد شافعى فى المخطط شكل (٤٠) [3]، فإن الحاجة إليهما بدأت من ذلك الوقت ، الذى بدأت فيه العناصر المعمارية الجديدة تظهر فى المسجد تباعا ومنها السترة التى بنيت فوق سطح المسجد ، والتى يقول عنها السمهودى نقلا عن رزين[4] أنها ذراعان أو ثلاثة [5].

---

(١) السمهودى : نفس المصدر جـ٢ ص ٦٩٢ .

(٢) عن هذه الأبواب الستة ومواقعها انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥ ص ٨٧ ، المطرى: التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٨٠ ، القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ، ص ١٢٧ ، المراغى : تحقيق النصرة ص ٤٦ ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٦٨٦ .

(٣) العمارة العربية ، ص ٦٧ وما بعدها .

(٤) هو رزين بن معاوية العبدرى الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٥هـ صاحب كتاب أخبار المدينة . انظر : ترجمته عند السخاوى : التحفة اللطيفة جـ٢ ص ٦٢ ، وما بعدها .

(٥) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٩٥ .

ويذكر ابن النجار أن سقف المسجد في عهد عمر كان من جريد قدره « ذراعان وبنى فوق ظهر المسجد سترة ثلاثة أذرع »[١]، وتبعه في ذلك المطرى والمراغى[٢]. بيد أن السمهودى يعتقد أن ما ذكره يحيى في هذا الخصوص خطأ إذ يقول : « وقال يحيى في روايته المتقدمة[٣] وجعل أساطينه من جذوع نخل وسقفه بالجريد ذراعين فوق المسجد سترة حائطه ثلاثة أذرع ، وعبر ابن النجار عن ذلك بقوله : وسقفه جريد ذراعان وبنى فوق ظهره سترة ثلاثة أذرع ، انتهى . والذى يظهر أن في عبارة يحيى خللا ، وتبعه عليه ابن النجار ، وأن المراد ما ذكره رزين في هذه الرواية بعينها فإنه قال فيها : وجعل عمر سترة المسجد فوقه ذراعين أو ثلاثة . فكأن لفظ « أو » سقط قبل قوله ثلاثة أذرع »[٤]. ويلاحظ أن سترة المسجد النبوى حدث معمارى يظهر لأول مرة في عمارة عمر بن الخطاب رضى الله عنه للمسجد النبوى[٥].

وإذا كان عمر رضى الله عنه قد استكمل بناء المسجد ببناء تلك السترة فيبدو أنه قد استشعر بعض انكار من بعض المنكرين عليه فقال : « لو انتهى بناء هذا المسجد إلى الجبانة لكان مسجد رسول الله ﷺ »[٦]. وبعد أن أتم عمر رضى الله عنه بناء المسجد الشريف بدأ يتشاور مع كبار الصحابة حول الفرش الصالح للمسجد

---

(١) الدرة الثمينة ، ص ٩٤ .

(٢) التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٨٠ ، وتحقيق النصرة ، ص ٤٦ .

(٣) هى رواية نقلها عن يحيى قبل هذا النقل في ص ٤٨٨ في الجزء الثانى من الوفاء ذكر فيها قصة عمر مع العباس بن عبد المطلب في إبتياع الدار المجاورة للمسجد وشروعه في بناء المسجد بعد ذلك .

(٤) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٩٥ .

(٥) كان لابد لسطح المسجد من مدخل يؤدى إليه لتسقيفه وبناء السترة المذكورة . ولا يعرف شيئا عن موضع هذا الدرج في عهد عمر بن الخطاب بيد أن ابن عبد ربه ذكر في العقد الفريد ، جـ٧ ص ٢٥٣ عند حديثه عن المقصورة التى شاهدها في القرن الرابع الهجرى « أنها تحتل البلاط الأول الممتد من باب السلام إلى دار آل عمر ، أن منها يصعد إلى سطح المسجد » وبذلك يبدو أن الصعود إلى سطح المسجد النبوى كان قريبا من هذا الموضع .

(٦) ابن المحجوب : قرة العين في أوصاف الحرمين ، ورقة ٦٦ أ .

الشريف ، فقد روى « يحيى عن عبد الحميد بن عبد الرحمن الأزهرى قال : قال عمر بن الخطاب حين بنى مسجد رسول الله ﷺ ، ما ندرى ما نفرش فى مسجدنا، فقيل له : افرش الخصف والحصر[1]. قال : هذا الوادى المبارك فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « العقيق واد مبارك »[2].

ويبدو أن سبب فرش المسجد الشريف بالحصباء[3] المذكورة فى رواية ابن سعد التالية ، التى نقلها عنه المطرى هو أن « الناس إذا رفعوا رؤوسهم من السجود نفضوا أيديهم من التراب فجىء بالحصباء من العقيق[4] من هذه العرصة[5] فبسط فى المسجد »[6].

ولا ينافى ذلك ما ذكره المطرى عن ابن الأثير فى جامع الأصول عن أبى الوليد قال : « سألت ابن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما عن الحصباء التى كانت فى المسجد فقال : أنا مطرنا ذات ليلة فأصبحت الأرض مبتلة فجعل الرجل يجىء بالحصباء فى ثوبه فبسطه تحته فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال : ما أجمل هذا »[7]. ويبدو أن هذا الرمل قد قل عما كان عليه فى عهد الرسول ﷺ، كما أن تأثره بالعمارة التى أجراها سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى

---

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب ، جـ٤ ص ١٩٥ « أن الحصير وجه الأرض والجمع أحصرة وحصر والحصير سقيفة تصنع من بردى وآسل ثم تفرش ، سمى بذلك لأنه يلى وجه الأرض وقيل الحصير المنسوج سمى حصيرا لأنه حصرت طاقته بعضها مع بعض .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٥٦ .

(٣) ذكر ابن منظور فى المصدر السابق جـ١ ص ٨١٩ أن الحصباء هى الحصى الصغار وقيل هى صغارها وكبارها .

(٤) قال الفيروزبادى فى الجزء المطبوع من المغانم المطابة ، ص ٢٦٦ أن العقيق هو واد عظيم ، عليه أموال المدينة وهو على ثلاثة أميال من المدينة وميلين أو ستة ، أو سبعة .

(٥) قال الفيروزبادى فى المصدر السابق ، ص ٢٥٢ أن العرصتان بعقيق المدينة ، من أفضل بقاع المدينة » .

(٦) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ص ٦٢ .

(٧) التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٦٢ .

المسجد النبوى قد حتم على المسئولين عن العمارة المذكورة استبداله بحصباء واد العقيق التى يقول عنها المطرى أنها تحمل من « العرصة التى تسيل من الجما الشمالية[١] إلى الوادى فيحمل منه وليس بالوادى رمل أحمر غير ما يسيل من الجبل »[٢].

وقد حصب أيضاً الجزء الذى خصصه عمر لمن أراد أن يقول شعرا أو يتحدث فى غير ما بنى المسجد له . وكانت هذه البطيحاء كما يقول السمهودى نقلا عن ابن شبه « فى جهة شرقى المسجد مما يلى مؤخره زمن عمر رضى الله عنه »[٣]. وزاد على ذلك أن تلك البطيحاء دخلت « فى المسجد فيما زيد فيه بعد عمر رضى الله عنه »[٤]. وبفرش المسجد الشريف تكون عمارة المسجد النبوى قد اكتملت بعد أن روعى فيها الاحتفاظ بمعالم المسجد الشهيرة فى عهد الرسول ﷺ كالمنبر وموضع المصلى الشريف وحدود الروضة ومواضع الأبواب . إلا أن هناك أمرا انفرد به أحد مؤرخى المدينة المعاصرين دون أن يشير إلى سنده فيما ذكره من إنشاء عمر رضى الله عنه « للبئر المشهورة ببئر زمزم فى وسط الحصوة »[٥][٦].

وإذا صح هذا فإن البئر التى كان حولها النخلات المعروفة ببستان فاطمة خارجة عن حدود المسجد الشمالية آنذاك ، وإنما توسطت الحصوة بعد الزيادات التالية للمسجد الشريف من هذه الناحية . وربما تكون البئر التى ذكرها أبو عبيد

---

(١) ذكر الفيروزبادى فى المغانم المطابة ، ص ٩٠ أن الجماء جبل بالمدينة على ثلاثة أميال من ناحية العقيق ، إلى الجرف . ولذلك يبدو أن « الجما » هى الجماء .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٢ ، وزاد السمهودى فى وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٥٦ ، أنه رمل أحمر يغربل ثم يفرش فى المسجد » .

(٣) نفس المصدر جـ٢ ص ٤٩٨ .

(٤) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٤٩٨ .

(٥) ذكر دوزى فى المعجم المضاف على القواميس العربية ، جـ١ ص ٢٩٧ ، أنها صحن المسجد ويبدو أنها اكتسبت هذا الاسم من الحصا التى توضع فى الصحن .

(٦) أحمد ياسين الخيارى : تاريخ مساجد المدينة المنورة ص ٥ .

البكرى المتوفى سنة ٤٨٧هـ حين قال : ومما يلى مؤخر المسجد حائط فيه نخل كثير ، وهو الحائط الذى كان لأبى طلحة الأنصارى المعروف ببيرحا » [1] .

* * *

(١) أبو عبيد البكرى : جزيرة العرب (من كتاب المسالك والممالك) ، ص ٨٩ ولكن الفيروزبادى فى الجزء المطبوع من المغانم المطابة ص ٣٦ يقول : أن بئرحا هى « بئر وبستان شمالى سور المدينة من جهة الشرق وقد صارت بئرحا لأبى بن كعب ، وحسان بن ثابت رضى الله عنهما حين دفعها إليهما أبو طلحة رضى الله عنه كما ورد فى « الصحيحين وغيرهما » .

٢ ـ زيادة عثمان رضى الله عنه فى المسجد النبوى سنة ٢٩ هـ

أُختلف فى زيادة عثمان (٢٣ ـ ٣٥هـ) رضى الله عنه للمسجد النبوى ، فالسمهودى ينقل عن يحيى بن الحسين عن المطلب بن عبد الله بن حنطب أنه قال : « لما ولى عثمان سنة أربع وعشرين كلمه الناس أن يزيد فى مسجدهم وشكوا إليه ضيقه يوم الجمعة ، حتى أنهم ليصلون فى الرحاب [١] ... فأصبح فدعا العمال وباشر ذلك بنفسه » [٢]. بيد أن القرطبى ينقل عن الإمام البخارى أن عثمان رضى الله عنه عندما « بلغت خلافته أربع سنين كلمه الناس فى الزيادة ...» [٣]. وتبعه فى ذلك رزين المتوفى سنة ٥٣٥هـ الذى ينقل عنه كل من المطرى والمراغى وابن المحجوب والسمهودى[٤] ما يؤيد قول الإمام البخارى . ولكن بعض الروايات تفيد أن « أول عمل عثمان إياه فى شهر ربيع الأول سنة ٢٩هـ وفرغ من بنائه فى المحرم سنة ٣٠هـ فكانت مدة عمله عشرة أشهر » [٥].

وينقل السمهودى عن الحافظ بن حجر أن « بناء عثمان للمسجد سنة ثلاثين على المشهور ، وقيل فى آخر سنة من خلافته » [٦] . وقيل أيضا أن ذلك كان

---

(١) الرحبة جمعها رحاب ، وهى الساحة المتسعة كما يقول ابن منظور فى لسان العرب جـ١ ص٤١٤ والمقصود بها فى النص المذكور الساحات المحيطة بالمسجد ولعل المقصود بها البلاط الذى كان يحيط بالمسجد النبوى من جميع الجهات.

(٢) وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٠٢ .

(٣) بهجة النفوس والأسرار ، ص ١٢٨ ، ابن الضياء القرشى : تاريخ مكة المكرمة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ، ورقة ١٤١ ب .

(٤) التعريف بما أنست الهجرة ، ص٨٠ ، تحقيق النصرة ، ص ٤٧ ، قرة العين فى أوصاف الحرمين ورقة ٦٦ ب ، وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٠٣ .

(٥) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٥ ص ٨٧ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ص ٩٧ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٨٠ ، القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ، ص ١٢٨ ، الخوارزمى : اثارة الترغيب والتشويق ، ص ٣٣١ ، المراغى : تحقيق النصرة ، ص ٤٧ .

(٦) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٠٣ .

البكرى المتوفى سنة ٤٨٧هـ حين قال : ومما يلى مؤخر المسجد حائط فيه نخل كثير ، وهو الحائط الذى كان لأبى طلحة الأنصارى المعروف ببيرحا » [(١)].

* * *

(١) أبو عبيد البكرى : جزيرة العرب (من كتاب المسالك والممالك) ، ص ٨٩ ولكن الفيروزبادى فى الجزء المطبوع من المغانم المطابة ص ٣٦ يقول : أن بشرحا هى « بئر وبستان شمالى سور المدينة من جهة الشرق وقد صارت بشرحا لأبى بن كعب ، وحسان بن ثابت رضى الله عنهما حين دفعها إليهما أبو طلحة رضى الله عنه كما ورد فى « الصحيحين وغيرهما » .

٢ - زيادة عثمان رضي الله عنه في المسجد النبوي سنة ٢٩هـ

أُختلف في زيادة عثمان (٢٣ ـ ٣٥هـ) رضى الله عنه للمسجد النبوى ، فالسمهودى ينقل عن يحيى بن الحسين عن المطلب بن عبد الله بن حنطب أنه قال : « لما ولى عثمان سنة أربع وعشرين كلمه الناس أن يزيد فى مسجدهم وشكوا إليه ضيقه يوم الجمعة ، حتى أنهم ليصلون فى الرحاب [(١)] ... فأصبح فدعا العمال وباشر ذلك بنفسه » [(٢)]. بيد أن القرطبى ينقل عن الإمام البخارى أن عثمان رضى الله عنه عندما « بلغت خلافته أربع سنين كلمه الناس فى الزيادة ...» [(٣)]. وتبعه فى ذلك رزين المتوفى سنة ٥٣٥هـ الذى ينقل عنه كل من المطرى والمراغى وابن المحجوب والسمهودى[(٤)] ما يؤيد قول الإمام البخارى . ولكن بعض الروايات تفيد أن « أول عمل عثمان إياه فى شهر ربيع الأول سنة ٢٩هـ وفرغ من بنائه فى المحرم سنة ٣٠هـ فكانت مدة عمله عشرة أشهر » [(٥)].

وينقل السمهودى عن الحافظ بن حجر أن « بناء عثمان للمسجد سنة ثلاثين على المشهور ، وقيل فى آخر سنة من خلافته » [(٦)] . وقيل أيضا أن ذلك كان

---

(١) الرحبة جمعها رحاب ، وهى الساحة المتسعة كما يقول ابن منظور فى لسان العرب جـ١ ص٤١٤ والمقصود بها فى النص المذكور الساحات المحيطة بالمسجد ولعل المقصود بها البلاط الذى كان يحيط بالمسجد النبوى من جميع الجهات .

(٢) وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٠٢ .

(٣) بهجة النفوس والأسرار ، ص ١٢٨ ، ابن الضياء القرش : تاريخ مكة المكرمة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ، ورقة ١٤١ ب .

(٤) التعريف بما أنست الهجرة ، ص٨٠ ، تحقيق النصرة ، ص ٤٧ ، قرة العين فى أوصاف الحرمين ورقة ٦٦ ب ، وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٠٣ .

(٥) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٥ ص ٨٧ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ص ٩٧ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٨٠ ، القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ، ص ١٢٨ ، الخوارزمى : اثارة الترغيب والتشويق ، ص ٣٣١ ، المراغى : تحقيق النصرة ، ص ٤٧ .

(٦) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٠٣ .

« قبل أن يقتل بأربع سنين »[١]. وعلى هذا فإنه يمكن حصر هذه الروايات المتعددة فى ثلاث مجموعات :

١ ـ ما يجعل التفكير فى أمر الزيادة فى أول خلافة عثمان رضى الله عنه التى بدأت سنة ٢٤هـ دون الإشارة صراحة إلى البدء فى تنفيذها ، والمرجع الأول فى هذا الإمام البخارى .

٢ ـ ما يتفق مع ما رواه البخارى من أن مفاتحه الناس لعثمان رضى الله عنه فى أمر الزيادة كان فى أول خلافته ، أى فى سنة ٢٤هـ، ثم يشير إلى أن البداية الحقيقية للزيادة كانت فى ربيع الأول سنة ٢٩هـ . والفراغ منها فى المحرم سنة ٣٠ هـ والمرجع فى هذا يحيى بن الحسين المتوفى سنة ٢٧٧هـ ، وفيما ينقله عنه السمهودى[٢] وتبعه عليه ابن النجار المتوفى سنة ٦٤٣هـ[٣].

٣ ـ ما يجعل الزيادة فى المسجد النبوى الشريف قبل أن يقتل عثمان بأربعة أعوام ، والقائل بذلك ابن إسحاق الحربى المتوفى سنة ٢٨٥هـ فيما ينقله عن يحيى بن الحسين أيضا[٤].

ويمكن التوفيق بين هذه الروايات على النحو التالى :

أن التفكير فى أمر الزيادة كان فى أول خلافة عثمان رضى الله عنه لأن المسجد ، كما يقول السمهودى نقلا عن يحيى ، عجز عن استيعاب المصلين «يوم الجمعة حتى أنهم ليصلون فى الرحاب »[٥] وهو ما أشارت إليه الروايات التى ذكرت أمر الزيادة فى أول خلافة عثمان دون أن تشير إلى البدء فى تنفيذها .

---

(١) ابن إسحاق : كتاب المناسك ، ص ٣٦٣ ، السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٥٠٥ .
(٢) نفس المصدر جـ٢ ص ٥٠٢ .
(٣) الدرة الثمينة ص ٩٧ .
(٤) المصدر السابق ، ص ٣٦٣ ، وانظر ما نقله السمهودى فى المصدر السابق جـ٢ ص ٥٠٥ عن خارجة بن زيد ، المراغى : تحقيق النصرة ص ٤٧ .
(٥) انظر أعلاه ص ٩٢ .

وضيق المسجد بعد توسعة عمر له سنة ١٧هـ أمر يتفق وتطور المجتمع الإسلامي خلال سبعة أعوام ، كانت كلها حافلة بالانتصارات العسكرية والفتوحات الكبيرة . ولا يمكن أن يكون عثمان رضى الله عنه قد شرع فى تنفيذ أمر الزيادة بمجرد التفكير فيها[١] ، خاصة وأن هذه العمارة بالذات كانت تختلف عن العمائر السابقة لها من ناحية البناء والمواد المسخدمة فيها[٢] ، وبعبارة أخرى فإن المواد القديمة التى كانت مستخدمة فى بناء المسجد فى عهد عمر رضى الله عنه لم تسهم فى هذه العمارة التى استخدم فيها الحجر المنحوت . وإعداد مثل هذه الأحجار المنحوتة اللازمة لبناء المسجد كله وكذلك أحجار أعمدته التى قيل أنها كانت مستديرة كأنها « سوارى »[٣] ، كان يتطلب وقتًا كبيرًا مما يزكى الروايات التى تقول أن بدء العمل كان فى ربيع الأول سنة ٢٩ هـ .

أما الروايات التى ذكرت أنه زاد فى المسجد قبل أن يقتل بأربع سنين فإنه يمكن تأويل هذا الخلاف البسيط بأن المسجد لم يستكمل تبييضه وفرشه بالرمل الأحمر إلا فى سنة ٣١ هـ . وهذا العمل كما هو معروف لا يكون إلا بعد إتمام البناء ، وقد نقل ابن المحجوب عن ابن زبالة أن عثمان رضى الله عنه « بيضه بعد

---

(١) علق السمهودى على رواية يحيى بن الحسين عن المطلب بن عبد الله بن حنطب ، التى تقول: « إن الناس كلموه فى ضيق المسجد سنة ٢٤هـ فأصبح فدعا العمال وباشر ذلك بنفسه إلى قوله وكان أول عمله فى شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين ... إلخ » ، إذ يرى أن ما ذكره أخيرًا هو الصواب المذكور فى كلام غيره فيحتمل ما ذكره أولا على أنه لم يشرع فى المشاورة والعمارة عقب كلام الناس له ، بل استمر تلك السنين وربما تكرر الكلام فخطبهم فى السنة التى وقعت فيها العمارة » انظر وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٠٢ .

(٢) استخدم فى هذه العمارة خشب الساج فى تسقيف المسجد ، وهو غير محلى موطنه الأصلى بلاد الهند كما يقول حسين عبد الله باسلامة فى تاريخ عمارة المسجد الحرام ، ص ٨٧ ويتطلب استيراده من الهند إلى أقرب ميناء للمدينة ، ثم نقله إليها وقتا طويلا . كما أن الاهتداء إلى المحاجر الصالحة لقطع الأحجار ثم نحتها ، أمران غير يسيران . وقد قابلت هذه الصعوبة العمال الأتراك أثناء عمارة السلطان عبد المجيد خان للحرم النبوى سنة ١٢٦٦هـ .
انظر : البرزنجى : نزهة الناظرين ، ص ٢٣ .

(٣) ابن المحجوب : قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٦٦ ب .

ما فرغ من بنائه »[١]. كما ذكر ابن إسحاق الحربى عن خارجة بن زيد أن عثمان رضى الله عنه قتل « وقد فرغ من بنيان المسجد ، وأن نقاشة الحجارة[٢] لعلى أبواب المسجد وقبابه »[٣].

هذا عن زمن الزيادة وما قيل فيها ، أما الأسباب الكامنة وراء هذه التوسعة فالروايات تشير إلى أن الناس أحسوا من أول خلافة عثمان بعجز المسجد عن استيعابهم وطلبوا منه أن يزيد فى المسجد ، ولكن المتتبع للزيادة التى زادها عثمان رضى الله عنه ، والتى هى ، على أشهر الأقوال ، بلاطة مما يلى القبلة وأخرى مما يلى الغرب[٤] وبلاطتان مما يلى الشمال ، شكل (٣٩)، يجد أن هذه الزيادة البسيطة التى قدرها مكتب التوسعة السعودية ٤٩٦م٢[٥] والتى تقل كثيرا عن زيادة عمر رضى الله عنه ، التى قدرت هى الأخرى بـ ١١٠٠م٢[٦]، لا يمكن أن يكون المقصود بها أساسا توسعة المسجد . ويزيد من تشككى فى أن الهدف من وراء هذه العمارة هو مجرد التوسعة ، بقاء المسجد إلى زمن الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨هـ على زيادة عثمان رضى الله عنه . وقد جاء أن زيادة عثمان من الشمال كانت خمسين ذراعا[٧] ، أى أن طوله من الجنوب إلى الشمال كان مائة وتسعين ذراعا ،

---

(١) نفس المصدر ، ورقة ٦٦ ب .

(٢) ذكر الدكتور حسن الباشا فى الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، جـ٣ ص ١٢٨٢ وما بعدها أن كلمةنقاش وردت « على الآثار العربية بدلالات حرفية مختلفة نابعة من معانيها اللغوية « فقد تستخدم فى تسمية النقش على المعادن والأحجار أو ألواح الرخام والأشرطة الجصية . ويبدو أن معناها هنا محصورا فى تكحيل الأحجار بالقصة أو الجص . ولعله يقصد بقباب المسجد ، تلك العقود التى كانت فوق عتب الأبواب إذ اننى لم أجد ما يشير إلى استخدام القباب فى عمارة المسجد النبوى فى تلك الفترة المبكرة .

(٣) كتاب المناسك ، ص ٣٦٤ .

(٤) ذكر السمهودى فى وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٠٦ أن زيادة عثمان مما يلى الغرب هى البلاطة الواقعة بعد الاسطوانة السابعة من المنبر وذلك لملاحظته وجود تربيع فى أسفل تلك الاسطوانة .

(٥) إبراهيم الشورى : جلالة الملك سعود والحرمين الشريفين ، جـ١ (الحرم النبوى) ، ص ٤٣ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٤٣ .

(٧) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٥٠٥ .

وهو ما لم يبلغه المسجد إلا فى زيادة الوليد وإنما كان طوله حوالى مائة وسبعين ذراعا وقد حددت نهاية المسجد من الشمال بإسطوانة « مربع أسفلها قدر الجلسة »، شاهدها السمهودى واعتبرها نهاية لزيادة عثمان من الشمال[1].

وبمقارنة هذه العمارة بما سبقها من عمائر فى المسجد النبوى من حيث البناء ونوعية المواد المستخدمة يتبين أن نخر جذوع النخل المستخدمة فى عوارض السقف وأعمدته كان لها دور كبير فى عمارة عثمان رضى الله عنه . فقد نقل السمهودى عن أبى داود ما يؤيد هذا ، وذكر أنه رآه « فى أصول متعددة معتمدة من السنن»[2]. ثم ذكر أن مؤدى ذلك « يقتضى أن السبب فى بناء عثمان للمسجد كون الجذوع التى هى السوارى نخرت »[3].

ويبدو أن الأعوام الخمسة التى تلت مفاتحة الناس لعثمان رضى الله عنه بأمر الزيادة فى أول خلافته أكدت له حاجة المسجد إلى التوسعة وتجديد الأسلوب القديم الذى اتبع فى بناء المسجد ، وذلك بتغيير اللبن والأحجار الغشيمة بأحجار منحوتة هى ما تعبر عنه الروايات بالأحجار المنقوشة[4]. وحلت الأعمدة التى تتألف « من

---

(١) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٥٢١ وما بعدها . وقد أنكر السمهودى فى ص ٥٠٧ الرواية التى تقول أن عثمان رضى الله عنه زاد فى شمال المسجد خمسين ذراعا فقال : « قد تقدم أن عمر رضى الله عنه جعل طول المسجد أربعين ومائة ذراع فلو زاد فيه عثمان خمسين ذراعا لكان طوله فى زمنه تسعين ومائة ذراع على أن الأقرب أن طوله فى زمن عثمان كان ستين ومائة ذراع » . والحقيقة أن هذا الطول للمسجد الشريف ، الذى قال به السمهودى يخالف ما ثبت من أن عثمان زاد بلاطة مما يلى القبلة وبلاطتين مما يلى الشمال فإذا أضفنا هذه الأذرع إلى طول المسجد فى عهد عمر والتى بلغت ١٤٠ ذراعا لأصبح طول المسجد فى عهد عثمان رضى الله عنه ١٧٠ ذراعا .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٠١ .

(٣) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٥٠١ .

(٤) ابن قتيبة : كتاب المعارف ، ص ٢٤٥ ، ابن اسحاق : كتاب المناسك ص ٣٦٤ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ٩٧ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٣ ص ١٠٣ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٨٠ ، القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ، ص ١٢٨ ، الخوارزمى : اثارة الترغيب والتشويق ، ص ٣٣٠ ، المراغى : تحقيق النصرة ، ص ٤٧ ، السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٥٠١ ، ٥٠٢ .

حجارة منقوشة فيها أعمدة الحديد وفيها الرصاص »[١]، ليزيد في تماسكها محل جذوع النخل التي قيل أن زيد بن ثابت ، الذى كان يباشر عمارة المسجد في عهد عثمان ، وضعها في موضع الإسطوانات السابقة[٢]. حرصا منه رضى الله عنه ألا يتغيز موضع الإسطوانات التى كانت على عهد الرسول ﷺ ، « وهذه سنة اتبعها جميع الذين تعرضوا لتعمير المسجد وتحديده وزيادته منذ إنشائه »[٣].

وأدت الحاجة إلى حماية الخليفة من المعتدين إلى بناء مقصورة من لبن تحيط بالمصلى الذى استحدثه عثمان في البلاط الذى زاده في مقدم المسجد[٤]، وقيل أنه « جعل فيها كوة ينظر الناس منها إلى الأمام ، وكان يصلى فيها خوفا من الذى أصاب عمر »[٥]، وأقام عليها السائب بن خباب لحراسته ، ورزقه دينارين[٦] وكانت صغيرة يدل اللبن المستخدم فيها على أنها لم تبن مع المسجد سنة ٢٩هـ ويبدو أن الأحداث التى شهدتها المدينة في أواخر عصره كانت هى السبب في استحداثها بهذه الصفة .

وقد نسبها بعض الرواة إلى مروان بن الحكم أيضا ، مما دعا البرزنجى إلى القول

---

(١) ابن النجار : المصدر السابق ، ص ٩٨ ، ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ٣ ص ١٠٣ ، وذكر ابن حجر الهيثمي : تحفة الزوار إلى قبر النبي المختار ، ص ٨٩ ، أن هذه القطع من الحجارة « في وسطها عمد من حديد مثبتة بالرصاص » .

(٢) ابن إسحاق : المصدر السابق ص ٣٦٤ ، السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٥٠٥ .

(٣) أحمد فكرى : المدخل ، ص ١٧٤ .

(٤) إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين ، جـ١ ص ٤٦٩ . ويلاحظ أن المحراب المجوف لم يستخدم إلا في عمارة الوليد .

(٥) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٨٠ ، القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ، ص ١٢٨ ، المراغى : تحقيق النصرة ، ص ٤٨ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥١١ ، ابن الضياء : تاريخ مكة المكرمة والمدينة الشريفة والقبر الشريف ، ورقة ١٤١ ب ، فريد شافعى : العمارة العربية ص ٦٤٩ .

(٦) المراغى : المصدر السابق ، ص ٤٨ ، السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ، ص ٥١١ ، السخاوى: التحفة اللطيفة ، جـ٢ ص ١١٣ .

بأنه « يجمع بأن عثمان أول من بناها من لبن ومروان أول من بناها من حجر فإنهم ذكروا أنه بناها بالحجارة المنقوشة »[١]. وعلى أية حال فرغم ما فى هذا البناء من إحكام للصنعة وإتقان للبناء ، فإننى لم أجد ما يشير إلى جنسية البنائين أو موطنهم، على أن الغالب على الظن أنهم من أهل المدينة أو ممن استوطنها من أهل البلاد المفتوحة . وفي ذلك ما يفند دعوى من ذهب إلى أن الوليد بن عبد الملك استقدم الأروام والقبط ممن يدينون بغير الإسلام لبناء المسجد النبوى سنة ٨٨هـ بما يزكى ما ذهب إليه فريد شافعى[٢].

إذ أنه كان هناك من الوقت ما يكفى لتعلم أهل المدينة وإتقانهم فن العمارة الذى بلغ كماله فى عمارة الوليد للمسجد النبوى الشريف ، وما حدث من دقة فى بناء جدران المسجد وإسطواناته ، فإنه اقتضى بطبيعة الحال أن يكون سقف المسجد محكم الصنعة أيضا فكان الخشب المستخدم فى سقفه ساجا[٣]. وهو ما يعبر عنه ابن إسحاق الحربى « بالخشب والجريد »[٤]، بينما يقول عنه ابن المحجوب «وعوض الجريد الذى كان فيه بخشب الساج الرفيعة »[٥]. وكان هذا الخشب

---

(١) البرزنجى : نزهة الناظرين ص ٤٩ ، وذكر السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥١١ نقلا عن يحيى أن « أول من أحدث المقصورة فى المسجد مروان بن الحكم ، بناها بالحجارة المنقوشة وجعل لها كوى (فتحات) وكان بعث ساعيا إلى تهامة ، فظلم رجلا يقال له دب ، فجاء دب إلى مروان : فقام حيث يريد أن يقوم ، حتى إذا أراد أن يكبر ضربه بسكين فلم يصنع شيئا فأخذه مروان فقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال بعثت عاملا فأخذ ذودى بمزة (أخذ إبلى كلها) وتركنى وعيالى لا نجد شيئا ، فقلت أذهب إلى الذى بعثك فاقتله ، فهو أصل هذا، فجاء ما ترى ، فحبسه مروان حينا فى السجن ، ثم أمر به فاغتيل سرا . فكانت المقصورة ». ويفهم من هذه الرواية أن مروان صلى فى المصلى النبوى الذى لم يكن عليه مقصورة أو أنه صلى داخل مقصورة اللبن التى بناها عثمان فى آخر حياته والتى كان بها كما يقال فتحات ينظر منها إلى الأمام . ويبدو أن الأعرابى قد وصل إليه من إحدى هذه الكوى مما جعل ضربته غير مميته .

(٢) انظر أدناه ص ١١٦ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٣ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ص ٨٠ ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٠١ .

(٤) كتاب المناسك ص ٣٦٤ .

(٥) قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٦٦ ب .

عاما فى سقفى الظلتين الشمالية والجنوبية ، وهما الثابت وجودهما فى هذه العمارة خلافا لما ذكره الدكتور فريد شافعى من أنه « من المحتمل أن يكون قد أضاف أيضا ظلات أخرى إلى جانب الفناء الأوسط المكشوف »[١].

وعلى أية حال فإن سقفى هاتين الظلتين ، سطحان مستويان يرتكزان على عوارض تمتد فوق الإسطوانات وذلك لأنه « لم تقم على هذه الأساطين عقود ، بل امتد فوقها السقف على أوتار أو عوارض خشبية »[٢]. وفتح لكل من الظلتين طيقان[٣] ، وهى عبارة عن نوافذ مرتفعة فى الجدارين الشرقى والغربى إلا أن فكرى يقصرها على رواق القبلة أو بيت الصلاة كما يسميه[٤]، وهو ما لم تشر إليه النصوص[٥].

وإذا كان عثمان بن عفان رضى الله عنه قد زاد فى المسجد وغير من شكل البناء فإنه احتفظ بعدد الأبواب التى كانت فى عهد عمر رضى الله عنه ، وكذلك أماكنها [٦]. فما كان منها فى الجدار الشرقى وهو باب جبريل وباب النساء أبقاهما فى موضعيهما الأولين ، وما كان منها فى الجانبين اللذين شملتهما التوسعة ، وهما الجانب الغربى والشمالى ، فقد جعلهما بمحاذاة الأبواب

---

(١) العمارة العربية ، ص ٢٣٧ ، وقد كان رأى فريد شافعى هذا مبنيا على الظن فقط إذ أنه لم يوفق إلى إيجاد مصدر لما ذكره ،كما أننى بحثت فى مصادر كثيرة فلم أوفق إلى من يشير إلى استحداث الظلتين الجانبيتين فى عهد عثمان رضى الله عنه .

(٢) أحمد فكرى : المدخل ، ص ١٧٤ .

(٣) ابن إسحاق : المصدر السابق ، ص ٣٦٤ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ٩٦ ، السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٥٠٥ ، ابن الضياء : تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ، ورقة ١٤٢ أ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧٤ .

(٥) أهمل فكرى فى قصره فتح النوافذ على ظلة القبلة ، حاجة الظلة الشمالية إلى مثل هذه الطيقان لتزويدها بالضوء والهواء . لأنها قريبة من عمق ظلة القبلة نظرا لاقتصار المسجد آنذاك عليهما فلا بد أن تكون عميقة أيضاً لتساعد فى حماية المصلين من الشمس والبرد .

(٦) القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ، ص ١٢٨ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص٨٠، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٠٧ .

الأولى[١] ، انظر شكل (٣٩) ، كما احتفظ المسجد الشريف فى هذه العمارة بمعالمه الرئيسية[٢] ، وكان ذلك أمرا ضروريا لكل من أراد أن يتعرض للمسجد النبوى بعمارة أو ترميم ، احتراما لعلاقتها الوثيقة بمؤسس المسجد عليه السلام .

وكان حرص عثمان رضى الله عنه على دقة العمل وخلاص النية فيه كبيرا جدا فلم يكتف بإسناده إلى زيد بن ثابت ـ المشرف على عمارة المسجد فى عهده ـ بل كان « يباشر رضى الله عنه العمل بنفسه »[٣] ، وفى هذا المعنى أورد السمهودى بسنده إلى شاهد عيان هو عبد الرحمن بن سفينة الذى قال : « رأيت القصة [٤] تحمل إلى عثمان وهو يبنى مسجد رسول الله ﷺ ، من بطن نخل[٥] ، رأيته يقوم على رجليه والعمال يعملون فيه حتى تأتى الصلاة فيصلى بهم ، وربما نام ثم رجع وربما نام فى المسجد »[٦] ، وقد كانت هذه الأعمال الصغيرة كفرش المسجد بحصباء وادى العقيق[٧] ، وتبييضه بالقصة المجلوبة من وادى نخل بمثابة اللمسات الأخيرة لهذه العمارة التى ابتغى بها أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ما وعد به الحديث الشريف من أن « من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا فى الجنة »[٨] ، على أنه رضى الله عنه قد وجد معارضة فى هذه العمارة كما جاء فى

---

(١) ابن المحجوب : قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٦٦ ب حيث يذكر أن عثمان رضى الله عنه جدد بناء فرج أبواب المسجد وابقاها ستة أبواب كما كانت فى خلافة عمر » .

(٢) اشتهرت هذه المعالم بعد تحويل القبلة فى السنة الثانية من الهجرة وهى : المنبر الشريف ، والمصلى ، والروضة ، والاسطوانات المشهورة والأبواب الرئيسية (باب آل عثمان ، باب عاتكة ، باب مؤخر المسجد) .

(٣) المطرى : المصدر السابق ، ص ٨٠ ، السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٥٠٢ .

(٤) قال الفيروزبادى فى القاموس المحيط ، جـ٢ ص ٣٢٥ أن القصة هى الجص .

(٥) قال ابن الأثير فى الكامل ، جـ٥ ص ٥٥٦ « إن بطن نخل على ليلتين من المدينة » وذكر المراغى : تحقيق النصرة ، ص ٢٢ أن بطن نخل على أربعة أميال من المدينة .

(٦) السمهودى : وفاء الوفا . جـ٢ ص ٥٠٤ ، وانظر السخاوى : التحفة اللطيفة ، جـ٣ ص ١٣٦ .

(٧) ابن إسحاق : كتاب المناسك ، ص ٣٦٤ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣ .

(٨) الزركشى : اعلام الساجد بأحكام المساجد ، ص ٣٦ .

صحيح مسلم « عن محمود بن لبيد أن عثمان بن عفان أراد بناء المسجد فكره الناس ذلك وأحبوا أن يدعه على هيئته »[١]، وقوله في حديث آخر « إنكم قد أكثرتم وأني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من بنى مسجداً لله عز وجل بنى له الله بيتا في الجنة » [٢].

ويقول السمهودي أن ذلك يدل على حبهم لبقاء المسجد « بجذوع النخل واللبن كما فعل عمر رضي الله عنه لموافقته لفعله ﷺ ، ولهذا قال البغوي في شرح السنة : لعل الذي كره الصحابة من عثمان بناؤه بالحجارة المنقوشة ، لا مجرد توسيعه »[٣]، فإنه ذكر أنه رضي الله عنه لم يشرع في البناء حتى استشار فيه كبار الصحابة في عهده إلا أنه يبدو أنهم بعدما شاهدوا نوع العمارة واختلافها عن سابقتها عارضوه .

* * *

(١) ، (٢) رواهما مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ، جـ٥ ص ١٤ ، وانظر السمهودي : المصدر السابق جـ٢ ص ٥٠١ .

(٣) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٠٢ .

المبحث الثالث

عمارة المسجد النبوى فى عهد الدولة الأموية

المبحث الثالث

عمارة المسجد النبوى فى الدولة الأموية

١ - المسجد النبوى فى أوائل الدولة الأموية :-

توالت على المدينة المنورة بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، أحداث جسيمة أدت فى النهاية إلى تحويلها من عاصمة للمسلمين إلى مجرد مدينة روحية تتوالى على أهلها فى المواسم صدقات الخلفاء وهبات المحسنين . ولا غرو فقد انعكست هذه الأحداث أيضا على المسجد النبوى الشريف الذى بقى محتفظا بعمارة عثمان له ثمانية وخمسين عاما لم يشهد خلالها من الأعمال المعمارية إلا ما قام به مروان بن الحكم[١] ، الذى بلط حول مسجد رسول الله ﷺ بالحجارة[٢] فى خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه .

وجاء أنه رفع منبر رسول الله ﷺ وزاد فى درجه ، وسمر فى مقعده لوحا لئلا يجلس أحد على ما كان يجلس عليه الرسول عليه الصلاة والسلام[٣] ، انظر شكل (٤١) ، وأن معاوية رضى الله عنه كساه قبطية[٤]. وأعاد مروان بن الحكم واليه

---

(١) ذكر الطبرى فى تاريخ الرسل والملوك جـ٣ ص ١٦٢ ، ١٨١ أن ولاية مروان بن الحكم للمدينة كانت سنة ٥٤هـ بعد عزل سعيد بن العاص ، وبقى فى ولاية المدينة حتى عزل سنة ٥٨هـ بعتبة بن أبى سفيان .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٧٣٥ ، وكان السبب فى تبليط ما حول المسجد أن الحكم كان قد أسن وأصابه مرض سمى بالريح فكان يجر رجليه إذا خرج إلى المسجد فتمتلئ ترابا فبلط ابنه مروان الطريق من داره إلى المسجد فأعجب ذلك معاوية وأمر بتبليط ما حول المسجد .

(٣) قيل أن معاوية أمر بنقل المنبر النبوى الشريف إلى الشام ، فحاول مروان ذلك ، ولكن الشمس كسفت وهبت الريح لذلك ، وهى روايات لا صحة لها . فالشمس والقمر لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فكيف يكسفان لنقل المنبر ، هذا بالإضافة إلى أن معاوية لا يمكن أن يجرأ على هذا العمل . وعن هذه الروايات انظر الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٧ ص ٩٢ ، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ، جـ٣ ص ٤٦٣ - ٤٦٤ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٣٩٩ .

(٤) الطبرى : المصدر السابق ، جـ٧ ص ٩٢ .

على المدينة آنذاك بناء المقصورة بالأحجار المنحوتة(١).

وسُمح للمصلين فى خلافة عبد الملك بن مروان بالدخول إلى حجر أمهات المؤمنين والصلاة فيها يوم الجمعة(٢)، وما خلا هذه الأعمال البسيطة التى لم تمس جوهر عمارة المسجد النبوى بشىء بقى المسجد « بعد عثمان على حاله ، لم يزد فيه أحد من الولاة حتى كان زمن الوليد بن عبد الملك »(٣).

* * *

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥ ص ٨٧ ، المراغى : تحقيق النصرة ، ص ٤٨ ، السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٥٢٤ ، وانظر ما ذكره فى نفس المصدر ، جـ٢ ص ٥١١ ، نقلا عن يحيى عن أول من استحدث المقصورة فى المسجد النبوى .

(٢) المراغى : المصدر السابق ، ص ٥٠ ، السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٥١٧ .

(٣) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٦٤ ، السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٥١٣ .

٢ - زيادة الوليد بن عبد الملك وأسبابها

اهتم الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) بعمارة المسجد النبوى الشريف ، وأولاها من العناية ما جعل الرواة يختلفون فى الدوافع التى حدت به إلى التفكير فى عمارة المسجد النبوى ، فقد نقل ابن النجار عن الإمام مالك رضى الله عنه قوله : « حدثنى الثقة عندى أن الناس كانوا يدخلون حجرات أزواج النبى بعد وفاته يصلون فيها يوم الجمعة ، قال مالك : وكان المسجد يضيق عن أهله وحجر النبى ﷺ ليست من المسجد ولكن أبوابها شارعة فى المسجد »[١]. واعتقد أن ضيق المسجد ، كما فى رواية الإمام مالك هو السبب الحقيقى لهذه العمارة ، خاصة إذا لاحظنا بقاء المسجد دون توسعه أكثر من نصف قرن (٢٩ ـ ٨٨هـ) مع احتفاظ المدينة بمركزها الروحى رغم خسارتها لمركزها السياسى .

وإذا كان السبب هو ما أشرت إليه فإنه لا يبدو بوضوح إلا فى أيام الجمع والمواسم ، التى كان الوليد يتتبع أخبارها بدقة[٢]. وليس ببعيد أن يكون الخليفة نفسه قد لمس هذا الضيق عندما حج بالناس قبل البدء فى الزيادة ، وقد جاء أنه حج بالناس مرتين[٣]. ويزيد من قوة هذا الاحتمال ما عرف عن الوليد من حبه للبناء[٤]، وبالأخص عمارة المساجد الجامعة التى عمر فى عهده منها أربعة ، تمت كلها على ما يريد من دقة الصنعة وكمال البناء .

وإذا كانت كراهية الوليد المزعومة للعلويين ورغبته فى إدخال بيت الحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما فى المسجد ، هما السبب كما

---

(١) الدرة الثمينة ، ص ٧٤ .

(٢) ذكر كل من السمهودى نقلا عن ابن زبالة فى الوفا ، جـ٢ ص ٥١٤ ، ابن رستة فى الأعلاق النفيسة ، ص ٦٨ ، أن الوليد بن عبد الملك « كان يبعث كل عام رجلا إلى المدينة يأتيه بأخبار الناس وما يحدث فيها .

(٣) ابن إسحاق : كتاب المناسك ، ص ٣٦٦ ، ابن رستة : المصدر السابق ، ص ٦٧ ، الفاسى : العقد الثمين ، جـ١ ص ١٨٤ .

(٤) الذهبى : تاريخ الإسلام جـ٣ ص ٢٣٨ .

قيل ، فى عمارة المسجد النبوى الشريف[١] ، فإنهما لم يكونا السبب فى عمارته لبيت المقدس ولا الجامع الأموى ولا البيت الحرام ، ولئن كان أمر الوليد بإدخال حجر أمهات المؤمنين فى المسجد هو السبب فى الضجة التى أثيرت حول عمارة الوليد ، فإنه ما من سبيل أمام التوسعة الكبيرة التى قام بها هذا الخليفة فى المسجد النبوى سوى إضافة تلك الحجرات إلى المسجد الشريف ، لا سيما وأن هذه الدور كانت قد خلت منهن تماما وقت إقرار الوليد لزيادة المسجد الشريف ، كما يتضح من الجدول المرفق[٢].

ولو افترضنا جدلا أنه أضاف الزيادة التى أحدثها فى شرق المسجد والتى قدرت على أصح الروايات بأربع إسطوانات على الزيادة التى أضيفت فى مغربه وقدرها إسطوانتان لأصبح كل من المنبر الشريف ومصلى النبى ﷺ فى طرف المسجد الشرقى ، وبعبارة أخرى لأصبح بعد المنبر عن الجدار الغربى أربعة عشر إسطوانة ، أى ثلاثة أضعاف الإسطوانات الواقعة شرقى المنبر والتى كانت قبل الزيادة خمس إسطوانات[٣] ، انظر شكل (٣٩).

---

(١) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ٦٨ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥١٣ وما بعدها .

(٢) هذا جدول عن تاريخ زواج الرسول ﷺ بأمهات المؤمنين وتاريخ وفاة كل منهن . ويستفاد منه معرفة تاريخ بناء بيت كل واحدة منهن فى عهده ﷺ ، وتاريخ خلوه بعد وفاتهن . وقد أضيفت جميعها بعد وفاتهن إلى المسجد الشريف فى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٨هـ) . وقد اعتمدت فى وضع هذا الجدول على كتاب سمط النجوم العوالى جـ١ ، لعبد الملك بن حسين العصامى المتوفى سنة ١١١١هـ .

(٣) انظر حدود المسجد النبوى عند السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦ .

اسم أم المؤمنين	تاريخ الدخول بكل واحدة منهن	صفحة المصدر	تاريخ وفاة كل واحدة منهن	صفحة المصدر
١) أم المؤمنين خديجة بنت خويلد	قبل الهجرة	٣٦٧	قبل الهجرة بثلاث سنين	٣٦٧
٢) أم المؤمنين سـودة بنت زمعة	١هـ	٣٧١	فى خلافة عمر وقيل فى خلافة معاوية سنة ٥٥هـ	٣٧٢
٣) أم المؤمنين عائشة بنت الصديق	١هـ	٣٧٣	١٧ رمضان سنة ٥٨هـ	٣٨٠
٤) أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب	شوال سنة ٣هـ	٣٨٠	شعبان سنة ٤٥هـ	٣٨١
٥) أم المؤمنين زينب بنت خزيمة	رمضان سنة ٣هـ	٣٨٢	فى أواخر سنة ٣هـ	٣٨٢
٦) أم المؤمنين أم سلمة هند بنت أبى أمية	شوال سنة ٤هـ	٣٨٣	سنة ٦١هـ فى خلافة يزيد بن معاوية	٣٨٦
٧) أم المؤمنين زينب بنت جحش	ذو القعدة سنة ٤هـ	٣٨٧	سنة ٢٦هـ	٣٨٩
٨) أم المؤمنين جـويرية بنت الحارث بن أبى مزار	سنة ٥، ٦هـ	٣٨٩	فى ربيع الأول سنة ٥٠هـ	٣٩٠
٩) أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان	سنة ٧هـ	٣٩١	سنة ٤٤هـ	٣٩١
١٠) أم المؤمنين صفية بنت حيى بن أخطب	سنة ٧هـ	٣٩٢	سنة ٥٢ ، أو ٥٥هـ	٣٩٣
١١) أم المؤمنين ميـمـونة بنت الحارث الهلالية	سنة ٧هـ	٣٩٤	سنة ٦٢هـ	٣٩٦

ومما يجدر ذكره هنا أنه لا بد وأن تكون قد سبقت هذه التوسعة دراسة طويلة تحددت فيها الدور التي يجب إدخالها في المسجد ، خاصة وقد جاء أنه كان يفكر في إدخال بعض الدور المجاورة للمسجد إلى التوسعة المقترحة في ولاية الحجاج على المدينة المنورة في خلافة عبد الملك بن مروان[١] ، أي أن حاجة المسجد الشريف إلى التوسعة كانت قائمة قبل مجيء الوليد إلى الخلافة . ولذلك كتب الوليد سنة ٨٧هـ إلى عمر بن عبد العزيز « في ربيع الأول يأمره بإدخال حجر أزواج النبي في مسجد رسول الله ﷺ وأن يشتري ما في نواحيه حتى يكون مائتي ذراع في مثلها ، وأن يقدم القبلة .. »[٢] .

وذكر ياقوت الحموي أن صالح بن كيسان ، وهو المشرف على العمارة ، قال: « ابتدأت بهدم المسجد في صفر سنة ٨٧هـ وفرغت منه لانسلاخ سنة ٨٩هـ ، فكانت مدة عمله ثلاث سنين »[٣] وما بين صدور الأمر والبدء في التنفيذ وهو أحد عشر شهرا ، « أو عام إلا شهر » أمضاها عمر بن عبد العزيز في نزع ملكية الدور المجاورة وفي إعداد المواد اللازمة للعمارة ، ولم يكن عمر رضي الله عنه يقوم بذلك دون استشارة فقهاء المدينة وعلمائها فقد نقل الطبري عن محمد عن موسى بن يعقوب عن عمه قوله : « رأيت عمر بن عبد العزيز يهدم المسجد ومعه وجوه الناس القاسم وسالم وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وخارجة بن زيد ، وعبد الله بن عبد الله ابن عمر يرونه أعلاما في المسجد ويقدرونه فأسسوا أساسه »[٤] .

وفي رواية ذكرها ابن إسحاق الحربي « فأروه مسجد رسول الله ﷺ الأول ،

---

(١) السمهودي : نفس المصدر ، جـ٢ ص ٥١٥ ، وانظر ما ذكره الذهبي في كتاب العبر في خبر من ذهب ، جـ١ ص ٨٥ ، من أن عبد الملك بن مروان حج سنة ٧٥هـ وعزل الحجاج عن الحجاز وأمره على العراق .

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٨ ص ١١٩٢ ، المقريزي : الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ص ٣٠ .

(٣) معجم البلدان ، جـ٥ ص ٨٧ .

(٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٨ ص ١١٩٣ ، العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، لمجهول ، جـ٣ ص ٥ .

الذى زاد فيه عمر وعثمان ، فعلم عمر بن عبد العزيز المسجد الأول الذى كان على عهد رسول الله »[١]. وعلى هذا فإن الوليد لم يحدد كل الدور التى يجب على عمر بن عبد العزيز إدخالها ، وإنما اقترح عليه فقط أن يكون المسجد بعد الزيادة مائتين فى مثلها وأن تشمل التوسعة دور أمهات المؤمنين التى قيل أنها كانت تحيط بالمسجد من الشرق ومن الجنوب . وكانت كلما ماتت منهن امرأة[٢] أغلق بيتها ، وبقيت هذه الدور مغلقة حتى ألحقت بالمسجد [٣]، وسمح للناس بالصلاة فيها يوم الجمعة فى خلافة عبد الملك بن مروان . وكان قد بدىء فى هدمها فى صفر سنة ٨٧هـ[٤] وكان ذلك يوم حزن بالمدينة المنورة ، ويروى السمهودى من طريق مالك بن مغول عن رجاء بن حيوة قال : « كتب بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز ، وكان قد اشترى حجر أزواج النبى ﷺ ، أن اهدمها ووسّع بها المسجد ، فقعد عمر فى ناحية ، ثم أمر بهدمها ، فما رأيت باكيا أكثر من يومه »[٥].

ولم يكتف أهل المدينة بالبكاء بل عارضوا عمر بن عبد العزيز فى هدمها أشد المعارضة ، وصاح خبيب بن عبد الله بن الزبير فى مسجد رسول الله ، والحجرات تهدم فقال : « نشدتك الله يا عمر أن تذهب بآية من كتاب الله ، يقول : ان الذين ينادونك من وراء الحجرات ، فأمر به ، فضرب مائة سوط ، ونضح بالماء

---

(١) كتاب المناسك ص ٣٦٦ .

(٢) انظر الجدول الموضوع أعلاه ، حاشية رقم ١ من ص ١٠٩ عن تواريخ وفاة أمهات المؤمنين .

(٣) انظر موقع هذه الدور فى المخطط الذى توصلت إليه عن وضع المسجد فى عهد رسول الله ﷺ شكل (٢٨) وانظر أعلاه ص ٥٩ .

(٤) انظر أعلاه ص ١١٠ .

(٥) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٤٧ . وقال الذهبى فى تاريخ الإسلام ، جـ٣ ص ٢٣٨ نقلا عن الواقدى أن عطاء الخرسانى قال : « أدركت حجر أزواج النبى ﷺ من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود فحضرت كتاب الوليد يقرأ بإدخال الحجر فى المسجد فما رأيت باكيا أكثر من ذلك اليوم . فسمعت سعيد بن المسيب يقول لو تركوها فيقدم القادم من الآفاق (جمع أفق ، وهى أطراف الأرض . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، جـ١٠ ص ٥ ، فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ فى حياته .

البارد، فمات ، وكان يوما باردا فكان عمر لما ولي الخلافة ، وصار إلى ما صار إليه من الزهد ، يقول : من لي بخبيب ! »[١] ، وكانت هذه المعارضة القوية نابعة من حبهم لبقاء الآثار النبوية الكريمة وكراهتهم الصلاة إلى القبور الشريفة[٢]. على أن الحاجة إلى توسعة المسجد دعت كما يقول النووى إلى أن يبنوا « على القبر حيطانا مرتفعة مستديرة حوله ، لئلا يظهر في المسجد فيصلى إليه العوام ، ويؤدى إلى المحذور ، ثم بنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبر »[٣]، وذكر ابن تيمية « أن الحجرة لما أدخلت إلى المسجد سد بابها ، وبنى عليها حائط آخر ، صيانة له ﷺ أن يتخذ بيته عيدا وقبره وثنا »[٤].

وكان ذلك عملا هندسيا موفقا وفق بين حاجة المسجد إلى التوسعة وبين عدم الوقوع في المحذور الوارد في الأحاديث الشريفة . وقد كان من ابتكار أحد شيوخ المدينة المنورة ، إذ يقول عثمان بن عروة : « نازلت عمر بن عبد العزيز في قبر النبي ﷺ أن لا يجعل في المسجد أشد المنازلة ، فأبى وقال : كتاب أمير المؤمنين لابد من إنفاذه ، قال : فقلت : فإن كان لا بد فاجعل له جؤجؤا[٥]، وهو الموضع المزور[٦]

---

(١) تاريخ الواقدى ، جـ٢ ص ٢٨٤ . وذكر مؤلف كتاب العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، جـ٣ ص ٤ مثل هذا الخبر إلا أنه زاد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الوليد بأمر خبيب ، فأمره الوليد بضربه على النحو السابق . وفي هذا ما يدل على أن عمر بن عبد العزيز لم يضربه من تلقاء نفسه .

(٢) أورد محمد ناصر الدين الألبانى ، فى كتاب تحذير الساجد عن اتخاذ القبور مساجد ، ص ١١ ـ ١٨ أربعة عشر حديثا فى هذا المعنى .

(٣) النووى : شرح صحيح مسلم ، جـ٥ ص ١٤ . وانظر الألبانى : فى المرجع السابق ، ص ٩٨ .

(٤) ابن تيمية : الجواب الباهر فى زوار المقابر ، ص ١٢ ، وانظر الألبانى : المرجع السابق ، ص ٩٥ وما بعدها .

(٥) لم أقف له على معنى فى القواميس العربية . وما بعده من النص يشرح معناه .

(٦) قال ابن منظور فى لسان العرب ، جـ٤ ص ٣٣٤ أن الزور هو الميل ، وقال أيضًا أنه ميل فى وسط الصدر وهو ما يقصد به فيما برز فى الجزء المثلث من حائز عمر بن عبد العزيز .

خلف الحجرة [١]. انظر شكل (٥٤) .

وعمل كهذا يجعل الرد سهلا على من قال بأن بناة المسجد كانوا أقباطا وأروما ، فقد كان فى المدينة بناة ماهرين أمثال وردان البناء[٢]، وغيره ممن امتهن البناء فى المدينة ، وقد كان لهم ، كما قلت فى عمارة عثمان رضى الله عنه للمسجد ، من الوقت ما يكفى لإتقانهم فن هذه الصنعة التى بلغت كمالها فى عمارة الوليد للمسجد النبوى الشريف[٣] .

وتكفى هذه النصوص للدلالة على أن أول عمل لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فى المسجد كان ستر حجرة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، التى بها القبور الشريفة ، بهذا الحائز المخمس الذى اقترحه عليه عثمان بن عروة[٤]، ليخفف من حدة المعارضة التى قوبل بها عند هدمه لحجرات أمهات المؤمنين وإدخالها فى المسجد من قبل فقهاء المدينة المنورة ، وذوى الشأن فيها وفى هذا ما يبطل الروايات التى ذكرت محاولة أحد العمال النصارى امتهان القبر الشريف ، فعمر كما يقول

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٤٨ .

(٢) كان هذا البناء الذى شارك فى بناء المسجد النبوى فى عمارة الوليد أمينا متقنا لعمله بارعا فيه بحيث اختاره عمر بن عبد العزيز ، عندما مال جدار الحجرة الشريفة أثناء حفر الأساس لاسطوانات المسجد من هذه الجهة ، لدخول الحجرة وإعادة بنائه . وفى ذلك يقول ابن إسحاق فى كتاب المناسك ، ص ٣٧٥ « حدثنى صالح بن محمد بن دراج قال حدثنى سليمان بن عبد العزيز الزهرى عن أبيه قال : وأخبرنى جعفر بن وردان البناء عن أبيه قال : سقط جدار بيت النبى ﷺ الشرقى ، حين حفرت الأساطين فى ولاية عمر بن عبد العزيز حين بنى المسجد فبعث إلىّ فجئته ، ووجدت معه عبد الله وسالم ابنى عبد الله بن عمر قال : فقام عمر بن عبد العزيز ليدخل فى البيت فقال أحدهما : أدخل معك قريشا فقال : الآخر : إذن تغضب الأنصار فقال عمر : أدخل رجلا لا حشمة منه ، أدخل يا وردان فكنت الذى بناه ... » انظر السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٥٤٥ .

(٣) انظر المبحث الخاص بعمارة سيدنا عثمان رضى الله عنه ص ٩٥ .

(٤) قال عنه السخاوى فى التحفة اللطيفة ، جـ٣ ص ١٦١ « أنه أحد خطباء قريش وعلمائهم وأشرافهم ... مات قبل الأربعين ومائة فى أول خلافة أبى جعفر » .

السمهودى « أتقى لله من أن يهمل قبر نبيه بيد الكفار حتى يغشوا فى بنائه »[١] أو يمتهنوه بالصورة التى ذكرتها الروايات[٢]. وذكر ابن إسحاق الحربى أن عمر بن عبد العزيز أمر « بباب بيت النبى ﷺ الشرقى فبنى ، ثم بنى حوله بيت مربع بالحجارة والقصة ، وسقفه بالخشب، ثم جعل حول ذلك سورا وجعله مزورا لئلا يصلى إليه »[٣]. وبناء بهذا الشكل يجعل من الصعوبة الوصول إلى قبر الرسول ﷺ.

ويأتى بناء جدار القبلة كخطوة ثانية بعد تخميس الحجرة الشريفة ، فكان البناة لا ينزعون حجرا من البناء القديم ولا يضعون آخر فى مكانه إلا بإشراف عمر بن عبد العزيز الذى استدعى لهذا الغرض مشايخ المدينة من قريش والأنصار والعرب والموالى[٤]. وفى هذا دليل على هدم جدار القبلة الذى كان مبنيا فى عهد عثمان رضى الله عنه بالحجارة المنحوتة والقصة ، والذى لم يتغير عن موضعه فى هذه العمارة ، وإن كان قد امتد قليلا إلى الشرق والغرب ، إلا أن الارتفاع الكبير فى جدران المسجد الذى تطلبته هذه العمارة ، التى ارتفعت فيها جدران المسجد النبوى الشريف نحو ٢٥ ذراعا[٥]، قد أوجبت زيادة عرض الجدار الأول أو ما يسميه

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٢٤ ، وذكر السمهودى هذا التعليق فى معرض حديثه عن اللبن الذى وجد فى بناء الحجرة عند انكشافها سنة ٨٨١هـ ردا على من قال أن وجوده فى الحجرة كان غشا من البنائين الكفرة الذين استخدمهم عمر كما زعم فى بناء المسجد النبوى الشريف .

(٢) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ٦٩ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٨١ ، الخوارزمى : اثارة الترغيب والتشويق ص ٣٣١ ، المراغى : تحقيق النصرة ، ص ٥٠ ، السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٥١٩ .

(٣) كتاب المناسك ص ٣٧٦ ، وانظر الخوارزمى : المصدر السابق ص ٣٣٣ ، المطرى : المصدر السابق ص ٣١ .

(٤) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ٨٠ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ص ١٠٠ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ص ٨١ .

(٥) قال ابن النجار فى الدرة الثمينة ص ١٠٨ أن ارتفاع سقوف المسجد فى عهد المهدى ٢٥ ذراعا وهو الارتفاع الذى كانت عليه فى عهد الوليد بينما يذكر ابن المحجوب فى قرة العين ورقة ٦٧ب أن ارتفاع جدران المسجد فى عهد الوليد عشرون ذراعا ويبدو أنه ذرع من السقف إلى أرض المسجد .

السمهودى منقبته ، مما أدى إلى هدم هذا الجدار وتأسيسه كبقية جدران المسجد بالحجارة الغشيمة أولا[١] ، ثم بناء ما ظهر من الجدران « بالحجارة الجيدة المنقوشة المتقنة »[٢].

وإذا كان حرص عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كبيرا فى توخى الدقة فى وضع أساس جدار القبلة على ما كان عليه أولا فإنه كان حريصا أيضا فى إقامة الإسطوانات فى موضع الإسطوانات القديمة ، شأنه فى ذلك شأن عثمان رضى الله عنه ، وهذه سنّة اتبعها جميع الذين تعرضوا لتعمير المسجد وتجديده وزيادته منذ إنشائه[٣] ، وكانت هذه الإسطوانات كسابقتها تتألف من قطع حجرية مستديرة مثقوبة الوسط توضع قطعة فوق أخرى حتى تؤلف « إسطوانة مستديرة كسوارى الرخام »[٤]. وكان يوضع بوسط الأحجار المدورة عمود من الحديد يسكب عليه الرصاص المذاب ليملأ الفراغ حول العمود ويزيد من التحام القطع وقوتها ، وجاء أن عمر بن عبد العزيز « أمر حين بنى المسجد بأسفل الأساطين فجعل قدر سترة اثنين يصليان إليها وقدر مجلس اثنين يتساندان إليها »[٥].

وكانت الإسطوانات فى مقدم المسجد فى عهد ابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨هـ مجصصة ، وسائر إسطوانات المسجد رخام . بيد أننى لم أجد لإسطوانات الرخام ذكر فى عمارة الوليد للمسجد ، كما أن المصادر التى اطلعت عليها لم تشر إلى تجصيص الإسطوانات فى عهده ، ويبدو أنها جصصت فى عمارة المهدى للمسجد سنة ١٦١هـ كما سيأتى[٦] ، وذلك لأن ابن عبد ربه المتوفى سنة

---

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ٥ ص ٨٧ .

(٤) ابن المحجوب : المصدر السابق ، ورقة ٦٧ ب .

(٣) أحمد فكرى : المدخل ، ص ١٧٤ ، حسن الباشا : المدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص ١٢٣ .

(٤) ابن المحجوب : قرة العين فى أوصاف الحرمين ورقة ٦٧ ب .

(٥) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٢٢ .

(٦) انظر أدناه ص ١٥٠ .

٣٢٨هـ قد ذكر أن « العمد المجصصة على قواعد عظيمة مربعة ورؤوسها مذهبة عليها نجف[١] منقشة مذهبة »[٢]. ويظهر أن هذا هو سند الدكتور حسن الباشا حين قال : « وشيدت أعمدة رواق القبلة بالحجارة وكسيت بالجص فى حين صارت أعمدة الأروقة الأخرى من رخام »[٣]

ولا يعقل أن يكون البحث عن المحاجر الصالحة وقطع الأحجار وإعدادها قد ترك حتى حضور الفعلة من الشام[٤]، وإنما لا بد أن تكون قد سبقت بناء المسجد، بل سبقت هدمه أيضا . ولا أظن أن من قدر على قطع هذه الأحجار فى عمارتين متتاليتين للمسجد النبوى محتاجون إلى استقدام بناؤون مهرة يجيدون نحت الحجر وبناءه بدقة ، على أن اختلاف الروايات فى عدد العمال الذين قيل أن الوليد أرسلهم[٥]، تسمح بالاستعانة بما ذكره الدكتور فريد شافعى عن ذلك من أن « ما يمكن استخلاصه من عدد العمال الذين اشتركوا فى عمارة مسجد المدينة تختلف نتائجه المعمارية إلى حد كبير مع كثرة العدد أو قلته ، ذلك أن مائة أو ثمانين

---

(١) عن النجف انظر أدناه ص ١٣٨ .

(٢) العقد الفريد ، جـ٧ ص ٢٥٢ .

(٣) المدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص ١٢٣ .

(٤) نقل السمهودى فى الوفاء جـ٢ ص ٥٢٢ ، ما ذكره يحيى بسنده إلى صالح بن كيسان الذى قال بعد ذكره لوصول خطاب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز يأمره ببناء المسجد « واستعملنى على هدمه وبنائه ، فهدمناه بعمال المدينة ، فبدأنا بهدم بيوت أزواج النبى ﷺ ، حتى قدم علينا الفعلة الذين بعث بهم الوليد » . وانظر : أبا عبيد البكرى : جزيرة العرب (من كتاب الممالك والمسالك) ص ٨٥ .

(٥) اختلفت الروايات فى عدد هؤلاء العمال فهم ٨٠ عند البلاذرى ، فتوح البلدان ، ص ١٣ ، ١٠٠ عند اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ٢ ص ٢٨٤ ، وأبو عبيد البكرى : المصدر السابق ، ص ٨٥ ، وبضعة وعشرون عند كل من ابن رستة والمقدسى ، الأعلاق النفيسة ص ٦٩ وأحسن التقاسيم ص ٨١ ، ١٠٠ عامل عند ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٤ ص ٥٣٢ ، وهم كذلك عند المقريزى : الذهب المسبوك ، ص ٣٠ وعند السمهودى بضعة وعشرون فى رواية وعشرة فى رواية وأربعين فى رواية ثالثة ، الوفاء ، جـ٢ ، ص ٥١٨ ، وانظر كذلك فريد شافعى: العمارة العربية ، ص ٥٨٨ .

عاملا يعملون في مسجد مساحته نحو ١٠٠ × ١٠٠ متر ، ويبلغ الجزء المغطى المشيد منه نحو ٥٦٠٠ متر مربع كان من الممكن أن يساهم فيه أولئك العمال في البناء والزخرفة معا وفي غير ذلك من الأعمال » .

« أما إذا كان عددهم بضعة وعشرين أو عشرة فقط فإن عملهم لا يكاد يتجاوز الزخرفة والتزويق بالفسيفساء أو بغيرها حتى ولو كانوا يعادلون مائة على حد قول السمهودى . أما البناء نفسه فكان من عمل آخرين من العمال والصناع المحليين في منطقة الحجاز بوجه عام وفي منطقة المدينة بخاصة . وفي الحالة الأخيرة يصبح من غير المحتمل أبدا أن يكون القبط قد ساهموا بالبناء ، وبالتالى لم يعملوا القبلة على هيئة محراب مجوف أو على شكل هيكل الكنيسة »[١] .

وأنا أؤيد الاحتمال الذى قال به شافعى وهو أن عملهم لم يكن يتجاوز الزخرفة فقط وأنهم « كانوا من أهل الشام ويدينون بالإسلام »[٢] . وذلك للأسباب التالية :

١ ـ أن شخصية الدولة الإسلامية قد بدت بوضوح عقب التعريب الكامل الذى أحدثه عبد الملك بن مروان وتوجه سنة ٧٧هـ باتخاذ طراز جديد « للسكة وهو طراز عربي خالص »[٣] . كما أنه « مر على فتح الشام والعراق نحو سبعين سنة ، وضحت فيها شخصية الدولة العربية وقوى نفوذها »[٤] .

٢ ـ أن حضور هؤلاء العمال إلى المدينة كان متأخرا عن أعمال الهدم وقطع الأحجار ونحتها[٥] ، مما يؤيد أن مجيئهم كان بقصد الزخرفة فقط ، أو الأعمال التكميلية التى تتبع الانتهاء من البناء عادة .

---

(١) فريد شافعى : العمارة العربية ، ص ٥٨٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٥٩٥ .

(٣) عبد الرحمن فهمى : موسوعة النقود العربية (فجر السكة) ، ص ٤٩ .

(٤) فريد شافعى : المرجع السابق ، ص ٥٩٥ .

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ٨ ص ١١٩٣ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٢٢ .

٣ ـ أن هذه العمارة لم تكن الأولى التى استخدمت فيها الأحجار النحيتة المطابقة بالقصة وإنما سبقتها عمارة عثمان رضى الله عنه سنة ٢٩هـ ، ولم يرد فى المصادر التى اهتمت بذكرها شيء عن هؤلاء العمال الأجانب .

٤ ـ تم فى عهد الوليد بناء المسجد الحرام أيضا ، ولم يرد لهؤلاء العمال ذكر فى عمارته مع أن الأزرقى ذكر فى وصف هذه العمارة استخدام الفسيفساء فى تكسية الجدران أيضا[١] . وكانت هذه العمارة سنة ٩١هـ[٢]، أى أنها قريبة العهد بعمارة المسجد النبوى ، فهل كان عمال مكة هم عمال المدينة ؟

أن الظن الغالب هو أن هؤلاء العمال كانوا ينقلون من حرم إلى آخر كلما لزم الأمر ذلك .

٥ ـ أنه قد اتضح كما يقول فريد شافعى من البحث الذى أعدته الباحثة « فان برشم » عن فسيفساء قبة الصخرة والجامع الأموى بدمشق « أن الفنانين والصناع الذين قاموا بعمل فسيفساء قبة الصخرة ، وجامع دمشق كانوا من أهل الشام ، وأنهم كانوا أصحاب مدرسة خاصة بهم تميزهم عن المدارس البيزنطية ، أى الرومية والرومانية السابقة والمعاصرة وذلك من ناحية التكوينات الزخرفية والأسلوب التكنى »[٣].

ويمكننا تعميم هذا الاستنتاج أيضا على عمارة الحرمين الشريفين فى عهد الوليد ، ويزيد من قوة هذا الاستنتاج أن سوفاجيه ذكر أن الفسيفساء استخدمت فى تكوين الأشرطة الكتابية فى المسجد النبوى[٤]، مما يدل على معرفة هؤلاء العمال للغة العربية ، وأن كلمة رومى أو قبطى ظلت تلازمهم حتى بعد إسلامهم[٥]. كما

---

(١) أخبار مكة ، جـ٢ ص ٧٢ .

(٢) حسين باسلامة : عمارة المسجد الحرام ، ص ٤٨ .

(٣) فريد شافعى : العمارة العربية ، ص ٥٩٣ .

(٤) المسجد النبوى فى المدينة ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٥) اشتهر بعض الصحابة رضوان الله عليهم بجنسياتهم القديمة كصهيب الرومى وسلمان الفارسى وأم المؤمنين مارية القبطية .

أن أغلب ما كتب فى جدران المسجد فى هذه العمارة آيات قرآنية كريمة ، لا يمكن لعمر بن عبد العزيز أن يسند كتابتها إلا إلى مسلمين متطهرين[١]

* * *

(١) تحث كتب الفقه على استحباب التطهر قبل قراءة المصحف الشريف . كما أن قصة أخت عمر بن الخطاب التى أسلمت قبله سرا ، وطلبت منه التطهر عندما أراد قراءة بعض الآيات الشريفة مشهورة . كما أن ما ذكره ابن النديم فى الفهرست ، جـ١ ص ٦ نقلا عن ابن إسحاق يؤيد ذلك إذ قال : إن « أول من كتب المصاحف فى الصدر الأول ويوصف بحسن الخط خالد بن أبى الهياج ، رأيت مصحفا بخطه وكان سعد نصبه لكتب المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك وهو الذى كتب الكتاب الذى فى مسجد النبى ﷺ بالذهب من والشمس وضحاها إلى آخر القرآن ، ويقال أن عمر بن عبد العزيز قال أريد أن تكتب لى مصحفا على هذا المثال فكتب له مصحفا تفوق فيه فأقبل عمر يقبله واستحسنه واستكثر ثمنه فرده عليه » .

٣ـ العناصر المعمارية الجديدة

أ ـ المحراب المجوف :

أن ما ذكرته الروايات العربية بخصوص إسهام الروم والقبط فى بناء المسجد النبوى الشريف قد استغل من قِبَل المستشرقين المهتمين بأمر العمارة الإسلامية ، فحاولوا عن طريقة الربط بين وجود المحراب الذى استحدثه عمر بن عبد العزيز لأول مرة فى تاريخ المسجد(١) ، وبين حنية الكنيسة (٢)، وقالوا إن الإسلام قد اقتبس المحراب على مضض(٣)، مستغلين ما جاء فى مقالة السيوطى « إعلام الأديب بحدوث بدعة المحاريب » من أحاديث تصفه بالبدعة وتحرم الصلاة فيه(٤)، ومع أن الشكوك تحيط بسند هذه الأحاديث(٥) وبصحة نسبتها إلى السيوطى(٦)، إلا أن

---

(١) كانت لفظة القبلة معروفة فى عهد الرسول عليه السلام ، وتشير إلى ذلك أحاديث تحويل القبلة وآيات من القرآن الكريم ، وكان عليه السلام يركز عصاه أو حربته كعلامة لتمييز اتجاه القبلة ، انظر الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٢ ص ١٢٨١ ، ونجاة يونس الحاج : المحاريب العراقية ص ٢٠ .

(٢) يقول أحمد فكرى فى حاشية ص ٢٩٨ من المدخل « اختلف المستشرقون كعادتهم ، كما رأينا فى البحث عن أصل المحراب ، وقال البعض أن المحراب مأخوذ عن المعابد الهندية ، وقال البعض الآخر أنه مشتق من الكنائس السورية ، وقال فريق ثالث أنه منقول عن المذابح القبطية ، وقال أحدهم أنه مشتق من الهيكل اليهودى .

(٣) فريد شافعى : العمارة العربية ص ٥٩٩ ، حيث يقول أن صاحبة هذا الرأى هى جرتدودبل وتبعها كريزول ولا مانس .

(٤) عن تأييد المستشرقين لآراء السيوطى هذه وأخذهم بها أنظر نجاة يونس : المحاريب العراقية ص ٣٦ ـ ٤٣ .

(٥) تشككت نجاة يونس فى نفس المرجع ، ص ٣٢ ـ ٣٥ فى أحاديث السيوطى فقالت : أنه « أخذ بعضها من كتاب الزركشى « إعلام الساجد بأحكام المساجد » والقسم الآخر من كتاب المدخل لابن الحاج ، والأحاديث المذكورة هى عن عمل الزخرفة وخاصة على جدار القبلة والمحراب ، وأن السيوطى نسب هذه الأحاديث إلى المحراب كعنصر معمارى عندما يقول : « أن استعماله محرم وهو من أشراط الساعة » .

(٦) يبدى فريد شافعى تشككه فى صحة نسبة هذه المقالة للإمام السيوطى فى العمارة العربية ، ص٦٠١ وما بعدها فى صحة نسبة هذه المقالة إلى الإمام السيوطى وذلك فى « العمارة العربية » ص٦٠١ .

مناقشتها والاحتجاج بها له مكانة كبيرة عند المشتغلين بالآثار الإسلامية من المستشرقين . وقد حالف التوفيق بعض الباحثين العرب ممن أمكنني الاطلاع على بحوثهم أمثال فريد شافعي[١] وأحمد فكرى الذى أثبت بالدليل القاطع وجود محراب مجوف ينسب إلى عقبة بن نافع مؤسس جامع القيروان سنة ٥٠هـ[٢]، أى أنه وجد قبل محراب المسجد النبوى بأربعين عاما . وفيما قدماه من عرض وتحليل لآراء المؤرخين واستنتاجات المستشرقين والرد عليها ، ما يغنى عن البحث فيها مرة أخرى . وكان وجود المحراب فى المسجد ضرورة ملحة دعت إليها فوائد ثلاث كما تقول نجاه يونس الحاج[٣] .

١ ـ دخول الإمام فيه ، لأن النبى ﷺ أثناء الصلاة كان يترك بينه وبين جدار القبلة ثلاثة أذرع ، وأقله ممر الشاة ، ولهذا اضطر المسلمون إلى ابتكار المحراب المجوف لأن وقوف الإمام فيه يضيف إلى المسجد صفا كاملا .

٢ ـ ارشاد المصلين إلى الاتجاه الحقيقى للقبلة .

٣ ـ تضخيم الصوت أثناء الصلاة[٤] .

ب ـ المنارات :

لم يكن للمسجد النبوى قبل عمارة الوليد منارات يؤذن عليها ، وإنما كان يؤذن فى عهد الرسول ﷺ من فوق إسطوانة فى بيت حفصة[٥]، وقيل من على سطح امرأة من بنى النجار[٦]، ولا أعلم شيئا عن موضع الآذان فى المسجد النبوى قبل عمارة الوليد ، إلا أن الغالب على الظن أن الدور المجاورة ، وربما سطح المسجد، كانت تستخدم للآذان أيضاً .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٥٨٤ ـ ٦٢٤ .

(٢) انظر جامع القيروان ، ص ٥٧ ـ ٥٩ ، والمدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٩٧ .

(٣) ، (٤) المحاريب العراقية ، ص ٢٩ .

(٥) ، (٦) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٢٩ وما بعدها .

وهناك روايات كثيرة تشير إلى وجود منارات فى مساجد جامعة أقيمت قبل منارات المسجد النبوى . فقد ذكر البلاذرى أن بناء منارة جامع البصرة كان فى ولاية زياد بن أبيه سنة ٤٥هـ[١] ومنارات جامع عمرو بن العاص بالفسطاط أنشئت بأمر معاوية بن أبى سفيان فى ولاية قرة بن شريك سنة ٥٣هـ[٢] . ويبدو من انتشار المنائر فى خلافة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ، أن المسجد النبوى ولا شك كان بحاجة إلى مثل هذه المنائر خاصة بعدما هدمت الدور المجاورة له وألحقت بالمسجد فى الزيادات المذكورة سابقا . وقيام المنائر سواء فى المسجد النبوى أو غيره من المساجد الجامعة كان ضرورة أوجبها التوسع الكبير فى المدن وكثرة السكان بها على أن المستشرقين تناولوا هذا العنصر المعمارى بالدرس والتحليل محاولين إرجاع اشتقاقه من أصول غير إسلامية[٣] ، متناسين أن الحاجة هى التى دعت إليه ، والحاجة كما يقال أم الاختراع . ومهما يكن من أمر فإن ابن إسحاق الحربى نقل عن عبد العزيز بن عمران المتوفى سنة ١٩٧هـ قوله : « لم يبلغنا أن المسجد كان له منار يؤذن عليه بأكثر من تلك الإسطوان والأقباب[٤] ، فلما بنى عمر بن عبد العزيز جعل للمسجد أربع منارات فى كل زاوية منارة »[٥] .

وقد ذكر ابن زبالة فيما يرويه عنه السمهودى ، وصفا لعرض وطول ثلاث من مناير المسجد[٦] ، إلا أنه ذكر فى رواية نقلها عنه السمهودى أيضا إنشاء الوليد لأربع

---

(١) فتوح البلدان : ص ٤٨٥ ، وانظر فريد شافعى : العمارة العربية ص ٦٣٥ .

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جـ٢ ص ٢٤٨ ، وانظر فريد شافعى : المرجع السابق ص ٦٣٧ .

(٣) فريد شافعى : العمارة العربية جـ١ ص ٦٣٧ ، وانظر أحمد فكرى : جامع القيروان ، ص ١١٠ وما ذكره عن قول كريزول باشتقاق منارة جامع القيروان من برج الشيخ كاسون بالقرب من حاما.

(٤) قال ابن منظور فى لسان العرب جـ١ ص ٦٥٩ « أن القبة تجمع قبيب وقباب والقبة من البناء معروفة » ولعل المقصود فى هذا النص المبانى المرتفعة المجاورة للمسجد .

(٥) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٦٨ ، ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ٧٠ والمطرى : التعريف بما أنست الهجرة ص ٨١ ، الاسفرائنى : زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال . ورقة ١٨٥ ب ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٢٦ .

(٦) نقل السمهودى عن ابن زبالة قوله « وطول المنارة الشرقية اليمانية فى السماء خمس وخمسون ذراعا ، والمنارة الشرقية الشامية خمس وخمسون ، والمنارة الغربية الشامية ثلاث وخمسون ، وعرض المنارات ثمان أذرع فى ثمان أذرع » .

ذكر بأن باب المنارة الرابعة على المسجد مما يلي دار مروان[١]. وتبعهما ابن إسحاق الحربي الذى نقل عن عبد العزيز بن عمران عن كثير بن جعفر الذى أسند إليه يحيى روايته السابقة[٢]، وكذلك ابن رستة [٣]، وهؤلاء ومن تبعهم أكدوا هدم سليمان بن عبد الملك لهذه المنارة الرابعة . إلا أن ابن فرحون ، الذى عاصر إعادة عمارة هذه المنارة سنة ٧٠٦هـ لأول مرة بعد هدم سليمان لها كما قيل ، قال : « إن بعض المؤرخين يذكر أن هناك مأذنة مشرفة على دار مروان فهدمها غيرة على أهله من مؤذنها ، فلم يجدوا لذلك صحة ولا أثر البتة »[٤]. ولكن السمهودى يقول باحتمال « أن تكون على باب المسجد وسطحه مما يلي دار مروان ، وليس لها فى الأرض أساس »[٥]، ثم يقول : « فلا يلزم من عدم وجود أثرها عند الحفر عدم وجودها[٦].

ولكن التقارب فى طول المنارات التى ذكرها ابن زبالة وهو : ٥٥ ذراعا للشرقية والشرقية الشامية ، و ٥٣ ذراعا للغربية والشامية يجعل من المسلم به إذا صح وجودها أن طولها كان مساويا لهذه المنارات وبالذات للمنارة الشرقية اليمانية الواقعة فى قبلة المسجد . وهذا الطول الذى يبلغ بالأمتار ٢٥ مترا[٧] يجعل من غير المعقول أن تكون بنيت بغير أساس . كما أن سوفاجيه ينكر هذا الرأى « لأن السقف الخشبى لقاعة الصلاة لا يمكن أن يحتمل ثقل برج ارتفاعه ٥٠ ذراعا مهما ذهب الظن إلى خفته »[٨]. وفى هذا ما يدعو إلى الشك فى صحة هدم سليمان بن عبد الملك لها . ويزيد فى صحة القول بأن المنارات التى أورد ذرعها ابن زبالة هى

---

(١) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٥٢٦ .

(٢) كتاب المناسك ، ص ٣٦٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٧٠ .

(٤) نصيحة المشاور وتعزية المجاور ، ص ٣٣ .

(٥) ، (٦) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٢٩ .

(٧) انظر حسن الباشا : المدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص ١٢٤ وفالترهنتس : المكاييل والأوزان الإسلامية ص ٨٨ .

(٨) المسجد الأموى فى المدينة ص ٧٥ .

المنارات التى كانت فى عهد الوليدو أن ابن جبير الذى زار المدينة سنة ٥٨١هـ وجد « المنارتين الشاميتين صغيرتان على هيئة برجين »[١] أما المنارة الشرقية الجنوبية فإنها على هيئة الصوامع »[٢]، مما يحمل على الظن أن المهدى هدم المنارتين الشماليتين وأبقى المنارة الثالثة المعروفة بالرئيسية التى تقع فى الركن الجنوبى الشرقى والتى أورد وصفها ابن زبالة ، وأنشأ هذين البرجين . وبهذا تكون رواية هدم سليمان بن عبد الملك للمنارة الرابعة رواية غير صحيحة ، إذ ليس من المعقول أن يأمر بهدم منارة تطل على دار يسكنه بصفة مؤقتة تنتهى بانتهاء الحج ، بل الصواب كما أراه أن هذه المنارة لم تنشأ أصلاً لقربها من دار مروان التى استخدمت دارا للإمارة من قبل بناء المسجد فى ولاية مروان بن الحكم للمدينة فى أول خلافة معاوية بن أبى سفيان .

جـ - الشرافات :

ذكرت معظم الروايات أن أول من أحدث الشرافات فى المسجد النبوى عمر بن عبد العزيز فى عمارة الوليد[٣]، كما نقل السمهودى عن يحيى بن الحسين أن القاسم وسالم[٤] نظرا إلى الشرافات التى عملها عمر بن عبد العزيز « وقالا أنها من زينة المسجد »[٥]. غير أن من الروايات ما يذكر أن « عبد الواحد بن عبد الله

---

(١) رحلة ابن جبير ص ١٧٣ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ١٧٣ .

(٣) ابن اسحاق : كتاب المناسك ص ٣٦٨ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ١٠١ ، المراغى : تحقيق النصرة ، ص ٥١ ، والسمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٢٥ .

(٤) هو سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ذكر عنه السخاوى فى التحفة اللطيفة جـ٢ ص ١٠٦ ، أنه تابعى سمع أباه وعائشة ورافع بن خديج وأبا هريرة وسفينة ، ثم سعيد بن المسيب ومات سنة ١٠٧هـ . أما القاسم بن محمد بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام بن المغيرة فقد ترجم له السخاوى فى المصدر المذكور ، جـ٣ ص ٤٠٣ .

(٥) وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٢٥ .

(٦) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٨٥ ، ابن رستة : الأعلاق النفيسة جـ٧ ص ٧٠ ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٢٥ ، وقال السخاوى فى التحفة اللطيفة ، جـ٣ ص ٩٨ ، أن يزيد بن عبد الملك ولى على المدينة المنورة سنة أربع ومائة عبد الواحد النصرى .

النصرى وهو وال على المدينة سنة أربع ومائة »[٦] ولا يظن أن عمر بن عبد العزيز أهمل عمل شرافات المسجد إن صح أنه أهمل عملها ، مع أنه استخدم التذهيب والفسيفساء والكتابات فى تزيين داخل المسجد كما لا يظن أن ذلك ناشىء عن عدم معرفة بها أو كراهية لها[١]، خاصة وقد ورد ما يؤيد أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه جعل لسطح المسجد فى عهده سترة قدرت بذراعين أو ثلاثة [٢]. وفضلا عن ذلك فإن الأزرقى يذكر بناء الشرافات فى المسجد الحرام عند عمارة الوليد له سنة ٩١هـ[٣]، ولا يعقل بتاتا أن تعمل فى مكة وتهمل فى المدينة .

ويمكن الجمع بين الروايات المختلفة بأنها عملت فى عمارة الوليد ثم جددها عبد الواحد النصرى سنة ١٠٤هـ. والفارق فى الزمن بين انتهاء عمارة الوليد سنة ٩٠هـ، وعمل النصرى لها سنة ١٠٤ هـ كفيل بعطبها أو إحداث خلل فيها مما دعا النصرى إلى إصلاحها فنسبت إليه . ومن المحقق سواء كان عمر بن عبد العزيز هو الذى أحدثها أو النصرى ، أنها كانت تحيط بأعلى جدران المسجد الخارجية بالإضافة إلى إحاطتها بصحن المسجد الشريف من الداخل .

هذا عن أهم العناصر المعمارية التى استحدثت فى عمارة الوليد ، أما المقصورة التى جددها بالساج والتى قيل أنه أنفق عليها أربعين ألف دينار[٤]، فكانت مرتفعة

---

(١) ذكر الزركشى فى إعلام الساجد بأحكام المساجد ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ بأنه يكره نقش المسجد واتخاذ الشرافات له ، وروى عن البيهقى عن أنس مرفوعا قول الرسول عليه السلام « ابنو المساجد واتخذوها جما » وروى عن ابن عمر أنه قال : « نهانا ، أو نهينا أن نصلى فى مسجد مشرف » وانظر : السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٥٢٥ .

(٢) انظر أعلاه ص ٨٨ .

(٣) أخبار مكة جـ٢ ص ٧٢ ، حسين باسلامة : عمارة المسجد الحرام ص ٤٨ .

(٤) ابن إسحاق : كتاب المناسك ، ص ٣٦٩ ، ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ٧١ ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٢٣ ، ومع ذلك يبدو أن هذا المبلغ مبالغ فيه إذا كان المقصود به النفقة على المقصورة وحدها والصواب ما رواه ابن النجار من أن نفقة هذا المبلغ « كانت على جدار القبلة وما بين السقفين » ولعل مقصد ابن النجار بما بين السقفين ما ذكره ابن عبد ربه عن مجاز المسجد بقوله : « وقبالة المحراب موسطة البلاطات بلاط مذهب كله شقت به البلاطات من الصحن إلى أن ينتهى إلى البلاط الذى بالمحراب ولا يشقه ، وفى البلاط الذى يلى المحراب تذهيب كثير ... » انظر العقد الفريد جـ٧ ص ٢٥٢ .

عن أرض المسجد ذراعين[١] وكان يدخل لها من باب فى جدار القبلة يؤدى إلى دار مروان[٢] ، التى كانت دار للإمارة والتى كانت « تمتد فى قبلة المسجد من باب السلام إلى دار آل عمر »[٣].

أما أبواب المسجد فى هذه العمارة فقد ذكر كل من المطرى والاسفرائينى والمراغى أنها عشرين بابا[٤]. ولكن ابن النجار اعتبر هذه الأبواب بعد زيادة المهدى دون الإشارة إلى أنها كانت فى عمارة الوليد [٥]، وأيده فى ذلك السمهودى الذى عد قول من ذكر بأن الوليد جعل للمسجد عشرين بابا وهماً ، لأن المنقول كما يقول عن هذه الأبواب « أنها إنما كانت فى زيادة المهدى »[٦] والواقع أن توسعة الوليد التى قدرها مكتب التوسعة السعودية ٢٣٦٩م٢[٧]، والتى كانت أربع إسطوانات فى الشرق وإسطوانتين فى الغرب وأربع فى الشمال ، لا تحتاج إلى كل هذه الأبواب ، ولعلها اقتصرت على الأبواب التى كانت فى المسجد قبل عمارته .

ويزكى هذا ما يذهب إليه الدكتور حسن الباشا من أن المداخل القديمة «انتقلت إلى الجدران الجديدة على نفس المحاور القديمة ، ومن ثم ظلت محتفظة بأسمائها ، وهى باب النساء وباب جبريل فى الجدار الشرقى وباب الرحمة وباب

---

(١) المراغى : تحقيق النصرة ، ص ٥٤ ، السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٥١٢ ولعله يقصد بارتفاعها عن أرض المسجد أى ردمها بالتراب حتى ترتفع أرضها عن أرض المسجد بذراعين . وذلك لأنه قد جاء أن المهدى خفض أرضها حتى جعلها بمستوى أرض المسجد .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ١٠ ص ١٦٢ ، السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٧٠١ ، أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها جـ١ ص ١٢٩ .

(٣) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٧٢١ .

(٤) التعريف بما أنست الهجرة ص ٣١ ، زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال ، ورقة ١٨٥ ب ، تحقيق النصرة ، ص ٧٥ .

(٥) الدرة الثمينة ص ١٠٩ .

(٦) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٨٦ .

(٧) إبراهيم الشوارى : جلالة الملك سعود والحرمين الشريفين جـ١ ص ٤٣ .

السلام فى الجدار الغربى »[١]. وكذلك بابا مؤخر المسجد أيضاً[٢].

وكانت مداخل بدون أبواب مما دعا عمر بن عبد العزيز عندما فرغ من بنيان المسجد إلى التفكير فى « أن يجعل فى أبوابه فى كل باب سلسلة تمنع الدواب من الدخول فعمل واحدة وجعلها فى باب مروان ثم بدا له عن البواقى[٣] .. وأقام الحرس فيه[٤] يمنعون الناس من الصلاة على الجنائز فيه ومن أن يخترقوه »[٥].

* * *

(١) المدخل إلى الآثار الإسلامية ، ص ١٢٣ .

(٢) اقتصر سوفاجيه فى مخططه الذى وضعه عن المسجد النبوى فى عهد الوليد ص ٩١ ، من كتابه المسجد الأموى فى المدينة ، على باب واحد فى منتصف الجدار الخلفى للمسجد ، ومن المعروف أن هذا الباب فتح فى هذا الجدار فى عهد الرسول عليه السلام بعد تحويل القبلة . إلا أن من الثابت أيضاً أنه كان به فى عهد عمر بن الخطاب بابين ، وقد حافظ عليهما عثمان أيضاً فى عمارته . ومن الأولى أن يحافظ عليهما كذلك فى عمارة الوليد هذه ، خاصة وأن الزيادة الكبيرة التى زادها الوليد ، تستوجب المحافظة على هذه الأبواب . أما أحمد فكرى فقد استبعدهما من المخطط الذى وضعه فى كتاب المدخل ص ١٩٤ . والحقيقة أن لكل من سوفاجيه وأحمد فكرى ومن حذا حذوهما العذر فى اختلاف وجهات النظر هذه لأنه ليس لدينا نص صريح يمكن الاعتماد عليه فى عدد الأبواب ومواضعها الحقيقية فى عمارة الوليد ، سوى ما ذكرته بعض الروايات من أن عددها عشرون بابا ، إلا أن هذه الأبواب كما سيأتى ، ثبت وجودها فى عمارة المهدى للمسجد النبوى .

(٣) قال ابن النجار عقب ذلك « قلت فهى باقية إلى اليوم » . وقال ابن حجر الهيثمى المتوفى سنة ٩٧٤هـ « وهى اليوم معلقة بالباب المذكور كما تراها » . انظر مخطوط تحفة الزوار ، ورقة ١٠٨ أ . وذكر السمهودى أن « سلسلة باب السلام ترفع فى أيام المواسم ، لأنه اتفق فى سنة أربع وخمسين وثمانمائة لازدحام الناس عندها فهلك جماعة . وذكر سوفاجيه فى المسجد الأموى فى المدينة ، ص ٧٨ « أن هذا الإجراء متبع حتى الآن فى الشرق وخاصة فى أبواب الأسواق » .

(٤) يعنى المسجد النبوى .

(٥) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ١٠٣ ، وانظر القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ، ص ١٣٠ .

٤ـ نقوش المسجد وزخرفته

لم يكتف عمر بن عبد العزيز والى المدينة فى خلافة الوليد بن عبد الملك بعمارة المسجد النبوى الشريف بالأحجار النحيتة والقصة ، ولم يكتف أيضا بما أدخله على هذه العمارة لأول مرة فى تاريخ المسجد من عناصر معمارية وزخرفية ، وإنما عمد فوق هذا كله إلى استخدام أنواع كثيرة من أساليب الزخرفة التى بدأت تزين المساجد من ذلك الوقت ، وهى :

أولا : الأشرطة الكتابية المدونة بماء الذهب بالخط الكوفى السائد فى ذلك العصر[١] فى تحلية جدران المسجد الداخلية وكوشات العقود[٢] المطلة على الصحن إلا أن ما وصلنا مما كان مكتوبا فى عهده قليل جدا للأسباب التالية :

أ ـ لاعتداء الكثيرين من المتعصبين لبنى العباس من ولاه المدينة وغيرهم على هذه النصوص ومحو ما يسجل منها اسم أحد من خلفاء بنى أمية وإعادته باسم أحد خلفاء بنى العباس[٣] ، وقد أدى ذلك إلى جزم بعض المؤرخين بقيام بعض خلفاء بنى العباس بعمارة المسجد النبوى الشريف[٤] .

ب ـ لأن الكثير من هذه الكتابات عبارات دعائية وآيات عديدة من القرآن

---

(١) ذكر إبراهيم جمعة فى تطور الكتابات الكوفية ، ص ٧٧ أن مدة سيادة الخط الكوفى التذكارى فى العالم الإسلامى تمتد حتى القرن السادس الهجرى .

(٢) هى واجهات الجدار المقام فوق العقود .

(٣) ابن إسحاق : كتاب المناسك ، ص ٣٨٦ وما بعدها ، والمقريزى : الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، ص ٤٦ ، وانظر : سوفاجيه : المسجد الأموى فى المدينة ، ص ٦٥ .

(٤) انظر ابن قتيبة : المعارف ، ص ٢٤٥ . وقد استطاع سوفاجيه فى المسجد الأموى فى المدينة ص ٦٢ أن يصل من خلال تحليله للنصوص إلى أن ما قاله ابن قتيبة بخصوص زيادة المأمون كانت بناء على ما قرأه فى جدار المسجد فقط دون أن يكون له سند آخر .

الكريم ، وما سجله المؤرخون منها يفتقر إلى التأريخ أو اسم كاتبه[١] ، إلا ما ذكره ابن النديم مما كان فى جدار القبلة بأنه بخط خالد بن أبى الهياج .

جـ - لأن المؤرخين الذين اهتموا بتسجيل هذه النقوش ، وفى مقدمتهم ابن زبالة المتوفى سنة ١٩٩ هـ ، سجلوها بعد عمارة المهدى سنة ١٦٢هـ ، فخلطوا بين نقوش المسجد فى عهد الوليد ونقوش المسجد فى عهد المهدى . وفوق هذا كله فقد ذكر ابن إسحاق الحربى نقلا عن يحيى بن الحسين « أن عمر بن عبد العزيز كتب الكتب[٢] فى المسجد وأن الذى كتب الكتاب الذى فى القبلة فى مسجد النبى ﷺ أوله أم القرآن حتى ختمها ، « والشمس وضحاها » إلى خاتمة « قل أعوذ برب الناس » ، وهو من حذاء يمينك حين تدخل المسجد من الباب الذى يلى دار مروان حتى تنتهى إلى باب على » قال : « وكتبه مولى لأل حويطب بن عبد العزى يقال له سعد حطبة »[٣]. ولكن ابن النديم يروى خلاف ذلك عن محمد بن إسحاق إذ يذكر أن خالد بن أبى الهياج « هو الذى كتب الكتاب الذى فى قبلة مسجد النبى ﷺ بالذهب من « والشمس وضحاها » إلى آخر القرآن [٤].

---

(١) ورد فى بعض النقوش أن هذا من عمل أهل حمص وفى البعض الآخر عمل أهل بيت المقدس ولكن هذا لا يعنى أنه كان فى عهد الوليد أو فى عهد المهدى .

(٢) يقصد بها السور والآيات القرآنية المكتوبة على جدران المسجد .

(٣) كتاب المناسك ص ٣٨٥ ، ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ٧٠ ، إلا أنه أهمل ذكر كاتبه وقال صاحب رسالة وصف مكة والمدينة وبيت المقدس ، المنشورة فى مجلة العرب ، السنة الثامنة ، جـ٥ ، ٦ سنة ١٣٩٣هـ وصفا لما فى جدار القبلة من كتابات فقال : « وفى قبلة المحراب فى أعلى التراخيم مكتوب بالذهب من باب الرحمة إلى باب جبريل من أول سورة « والشمس وضحاها » إلى آخر سورة « قل أعوذ برب الناس » وفوق ذلك الجدار كله نقش بالفسيفساء »ومن هذا يفهم أن نقوش جدار القبلة لم تكن مكتوبة بفصوص الفسيفساء بل بحروف بارزة فى الجدران المطلية بالجص كما يفهم مما ذكره ابن عبد ربه فى ص ٢٥٢ من الجزء الثانى من العقد الفريد

(٤) الفهرست ، جـ١ ص ٦

ونقل كل من ابن رستة وابن إسحاق الحربى ، وابن قتيبة وابن النجار[١] ، النص المنقوش فى جدار رواق القبلة المطل على الصحن ، ومنهم من يزيد على غيره ومنهم من ينقص . وما دونه ابن قتيبة معتمدا فيما يبدو على ما حفظه[٢] ينقص كثيرا[٣] والنص كما أورده ابن إسحاق الحربى كالتالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله وحده ولا شريك له ، محمد عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون أمر عبد الله[٤] أمير المؤمنين بتقوى الله وطاعته ، والعمل بكتاب الله[٥] وطاعته[٦] وسنة نبيه[٧] صلى الله عليه[٨] وبصلة الرحم وتعظيم ما صغر الجبابرة من حق الله[٩] وتصغير ما عظموا من الباطل ، وإحياء ما أماتوا من الحقوق ، وإماته ما أحيوا من العدوان والجور[١٠] ، وأن يطاع الله[١١] ويعصى العباد فى طاعة الله . فالطاعة لله[١٢] ولأهل طاعة الله[١٣] ، لا طاعة لأحد فى معصية لله ،

---

(١) الأعلاق النفيسة ص ٧٣ ، كتاب المناسك ص ٣٨٧ ، المعارف ص ٢٤٥ ، الدرة الثمينة ص ١٠١ .

(٢) انظر ما ذكره سوفاجيه عن ذلك فى صفحة ٦٢ من المسجد الأموى فى المدينة .

(٣) هذا نص ما ذكره ابن قتيبة فى المعارف ، ص ٢٤٥ : أمر عبد الله عبد الله بتقوى الله ومراقبته وبصلة الرحم والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتعظيم ماصغر الجبابرة من حقوق الله واحياء ما أماتوا من العدل وتصغير ما عظموا من العدوان والجور وأن يطاع الله ويطاع من أطاع الله ويعصى من عصى الله فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الله والتسوية بينهم فى فيئهم ووضع الأخماس مواضعها .

(٤) ليست عند ابن النجار .

(٥) أضاف ابن النجار « عز وجل » .

(٦) ليست عند ابن النجار .

(٧) أضاف ابن النجار « محمد صلى الله عليه وسلم » .

(٨) صلى الله عليه ليست فى الأعلاق النفيسة .

(٩) أضاف ابن النجار « سبحانه » .

(١٠) ليست فى الأعلاق النفيسة .

(١١) أضاف ابن النجار « سبحانه » .

(١٢) أضاف ابن النجار « سبحانه » .

(١٣) استبدل ابن النجار طاعة الله بـ « طاعته » .

ندعو[١] إلى كتاب الله[٢] وسنة نبيه صلى الله عليه[٣] وإلى العدل فى أحكام المسلمين ، والقسم بالسوية فى فيئهم ، ووضع الأخماس فى مواضعها التى أمر الله[٤] بها ، لذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »[٥] .

وذكر ابن إسحاق الحربى أن الحرورية[٦] نقضت هذا النص ، « ثم أعاده عبد الملك بن محمد بن عطية السعدى حين ولى المدينة سنة ثلاثين ومائة ، ثم نقضه داود بن على حين قدم واليًا لأبى العباس سنة اثنتين وثلاثين ومائة فأعانه[٧] على إصلاح ذلك صالح بن كيسان فتوفى داود قبل أن يتمه[٨] ، فتمه زياد بن عبد الله الحارثى[٩] ، فدعى له مولى من موالى أهل المدينة يقال له ابن غزالة فكان هو الذى غيره وأتمه »[١٠] وقد حلل سوفاجيه تحليلا دقيقا هذا النص الذى أورده ابن رستة وابن قتيبة وابن النجار[١١] ، وانتهى سوفاجيه إلى أن هذا النص ليس هو النص الذى

---

(١) فى الأعلاق وعند ابن النجار « يدعو » .

(٢) أضاف ابن النجار « سبحانه » .

(٣) أضاف ابن النجار « وسلم » .

(٤) أضاف ابن النجار « سبحانه » .

(٥) ابن إسحاق : كتاب المناسك ، ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ .

(٦) هم طائفة « من الخوارج تنسب إلى حروراء بقرب الكوفة ، لأنه كان بها أول اجتماعهم وتحكيمهم حين خالفوا عليا . وكان عندهم تشدد فى الدين حتى مرقوا منه » انظر المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين ، جـ١ ص ١٦٦ ، ويترتب على النص السابق أحد احتمالين إما أن يكون تحريف الحرورية له كان من أصله الأموى إلى مؤيديهم أو من النص العباسى المحرف إلى أنصارهم ثم أن داود بن على أرجع ألفاظه لتؤيد العباسيين سنة ١٣٢هـ .

(٧) أعلن داود بن على .

(٨) كانت وفاته كما يذكر السخاوى فى التحفة اللطيفة جـ٢ ص ٣٤ فى ربيع الأول سنة ١٣٣هـ.

(٩) ذكر السخاوى فى المصدر السابق جـ٢ ص ٨٩ فى أول ترجمته له أنه ولى أمرة الموسم للسفاح فى « سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، ثم أمرة الحرمين لأخى السفاح المنصور ، وكان على ولايته زمنا، مجتمعة ومتفردة ، ثم عزل فى سنة أربعين ومائة » .

(١٠) ابن إسحاق : المصدر السابق ، ص ٣٨٧ .

(١١) لم يكن كتاب ابن إسحاق الحربى من المصادر التى اعتمد عليها سوفاجيه ومع ذلك فقد ورد به النص المذكور .

كان منقوشا فى عهد الوليد ، وأنه حرّف فى العصر العباسى[١] . وأن بداية النص الأصلى يجب ردها بما يتفق والتأريخ والتقاليد هكذا :

أمر عبد الله الوليد أمير المؤمنين ببنيان هذا المسجد وتزيينه

بدل من :

أمر عبد الله عبد الله أمير المؤمنين بزينة هذا المسجد وتزيينه

وذكر أن الذى سهل التغيير أن الكتابة بمكعبات الفسيفساء ، مما سهل نزع كلمة الوليد واستبدالها بكلمة عبد الله ونزع كلمة ببنيان واستبدالها بكلمة بزينة . واستشهد على ذلك بما حدث فى كتابات بيت المقدس حيث أمكن الاهتداء إلى النص الأول لتأسيس قبة الصخرة المشرفة وسط سلسلة طويلة من النقوش والآيات القرآنية[٢] .

ثانيا : مكعبات الفسيفساء :

استخدمت الفسيفساء فى زخرفة جدران المسجد النبوى الشريف فى عمارة

---

(١) ذكر المقريزى فى الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ص ٤٦ ، الخبر التالى ، وسوف أذكره هنا بنصه لما له من فائدة فى بيان تحريف النصوص الأموية فى العصر العباسى : «حكى محمد بن عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه، قال : رأيت فيما يرى النائم - فى آخر سلطان بنى أمية - كأنى دخلت مسجد رسول الله ﷺ - فرفعت رأسى ، فرأيت الكتاب الذى فى المسجد بالفسيفساء ، فإذا فيه : مما أمر به أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وإذا قائل يقول : يمحى هذا الكتاب ويكتب مكانه اسم رجل من بنى هاشم يقال له محمد ، قلت فأنا من بنى هاشم واسمى محمد فابن من ؟ قال ابن عبد الله قلت فأنا ابن عبد الله ، فابن من ؟ قال : ابن محمد ، قلت فأنا ابن محمد ، فابن من ؟ قال ابن على ، قلت : فأنا ابن على ، فابن من ؟ قال ابن عبد الله ، قلت : فأنا ابن عبد الله ، فابن من ؟ قال : ابن عباس ، فلو لم يبلغ العباس ما شككت أنى صاحب الأمر ، فتحدث بها ذلك الزمان ، ونحن لا نعرف المهدى ، حتى ولى المهدى ، فدخل مسجد رسول الله ﷺ فرأى اسم الوليد ، فقال : أرى اسم الوليد إلى اليوم » ؟ » فدعا بكرسى فألقى فى صحن المسجد ، وقال : ما أنا ببارح حتى يمحى ويكتب اسمى مكانه » ففعل ذلك وهو جالس » .

(٢) انظر المسجد الأموى فى المدينة ، لسوفاجيه ص ٦٥ - ٦٦ .

الوليد كما هو الحال فى المساجد التى عمرت فى عهده[١]، ومن المسلم به أن هذه الفصوص الزجاجية[٢]، مجلوبة من بلاد الشام ، أرسلها الوليد إلى المدينة[٣] مع عمال مختصين فى تركيبها ، وقد أكدت مارجريت فان برشم استقلال صناعة الفسيفساء فى الشام وأن أهل الشام كانوا أصحاب مدرسة خاصة تتميز عن المدارس البيزنطية والرومانية السابقة والمعاصرة ، وأكد فريد شافعى عروبة العمال الذين أرسلهم الوليد من الشام[٤]. وقيل أن الفسيفساء المجلوبة كانت أربعين حملا[٥] وكانت النورة تخمر سنة كاملة لتعمل بها[٦] الفسيفساء فى الحيطان قصورا

---

(١) كالجامع الأموى ومسجد قبة الصخرة والمسجد الحرام .

(٢) عرف أبى فضل الله العمرى فى كتاب مسالك الأبصار ، جـ١ ص ١٩٣ ، الفسيفساء فقال : « أنها قطع زجاجية من زجاج يذهب ثم يطبق عليه زجاج رقيق ، ومن هذا النوع المسحور ، وأما الملون فمعجون وقد عمل منه فى هذا الزمان شىء كثير برسم الجامع الأموى . وحصل منه عدة صناديق وفسدت فى الحريق الواقع سنة أربعين وسبعمائة . غير أنه لا يجىء تماما مثل المعمول القديم فى صفاء اللون وبهجة المنظر والفرق بين الجديد والقديم أن القديم قطعة متناسقة (عملت بمقدار) واحد والجديد قطعة مختلفة وبهذا يعرف الجديد والقديم » .

(٣) ذكر الطبرى فى تاريخ الرسل والملوك ، جـ٨ ص ١١٩٤ ، أن ملك الروم « أمر أن يتبع الفسيفساء فى المدائن التى خربت فبعث بها إلى الوليد فبعث بذلك الوليد إلى عمر بن عبد العزيز . وذكر الدكتور إبراهيم أحمد العدوى فى كتابه « الأمويون والبيزنطيون » ص ٢٧١ . طريقة حصول الوليد على فسيفساء الجامع الأموى فى دمشق ، فقال : « كان الوليد يفرض على الجيوش الإسلامية من أهل الشام ومصر والعراق أن يحمل كل جندى منها يغير على أرض البيزنطيين قسما من الفسيفساء وذراعا فى ذراع من رخام ، فيحمله أهل العراق وأهل حلب إلى حلب ويستأجرون من يحمله إلى دمشق ، ويحمله أهل حمص إلى حمص ومنه إلى دمشق ، وأهل دمشق يحملونه إلى دمشق » . ويصف زكى محمد حسن فى فنون الإسلام ، ص ٣٣ هذا التعاون بأنه مشابه للنظام الذى كان سائدا فى العالم القديم والمعروف باسم « الليتورجيا LEITURGIA وقوامه فى الإسلام إلتزام أقاليم العالم الإسلامى بتقديم الصناع والفنيين ومواد الصناعة إلى الحكومة المركزية للقيام بما تريده من الأعمال الفنية الجليلة » .

(٤) العمارة العربية ، ص ٥٩٣ وما بعدها .

(٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ٨ ص ١١٩٤ ، اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، جـ٢ ص ٢٨٤ .

(٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ٥ ص ٨٧ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ص ٨١. ولا أدرى هل لتخمير النورة سنة كاملة أثر كبير فى زيادة تماسكها وجودتها ؟ أم أن هذا من قبيل المبالغة ؟

وأشجارا . وقال العمال في ذلك إنما عملناه على ما وجدناه من صور الجنة وقصرها[١]. وكان عمر بن عبد العزيز يراقبهم ويستحسن عملهم ، ويكافيء المتقنين منهم[٢]. وهذه المراقبة الدقيقة من عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه تجعل من الصعب عليهم الغش في صنعتهم ، وبالتالي تبطل الروايات التي قيلت عن مخالفتهم وعقاب بعضهم بقطع رأسه عند تصويره لبعض الحيوانات[٣].

وذكر السمهودي نقلا عن الواقدي أن القبط عملوا « مقدم المسجد وكانت الروم تعمل ما خرج من السقف جوانبه ومؤخره » وأن سعيد بن المسيب كان يقول: « عمل هؤلاء أحكم يعني القبط »[٤] ولفظة القبط والروم ظلت تطلق على أهل مصر وأهل الشام حتى بعد إسلامهم ، ويزكي ذلك اسم أم المؤمنين مارية القبطية والصحابي الجليل صهيب الرومي ويذكر فريد شافعي « أن الروم هنا هم أهل الشام الذين أسلموا ولكنهم مع ذلك بقوا يسمون بالروم وإذن فقد ظل ذلك اللفظ يطلقه المؤرخون العرب في العصر الإسلامي على كل من النصارى والمسلمين على السواء من أهل الشام وعلى المسيحيين وأهل آسيا الصغرى التي تقلصت داخل حدودها الدولة البيزنطية التي كان يسميها المؤرخون العرب أيضا دولة الروم »[٥].

---

(١) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٦٥ ، السمهودي : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥١٩ .

(٢) قيل أن عمر بن عبد العزيز كان يعطي العامل إذا عمل شجرة كبيرة وأتقنها بمكعبات الفسيفساء ثلاثين درهما غير أجره اليومي وفي هذا ما يدل على أنه كان يراقب أعمال الزخرفة بدقة فائقة .

(٣) قيل أن أحد العمال صور خنزيرا فوق خمس بوائك مما يلي الصحن ، فأمر به فقطع رأسه . وخنزيرا بهذا الشكل الكبير يجعل من السهل اكتشافه بمجرد الشروع في رسم أحد أجزائه وبالتالي يمكن ايقافه قبل استكمال بقية أجزاء الصورة . ومما يزيد في غرابة هذه الرواية أن المسجد كان يستخدم للصلاة ، وأنه كان بمقدور أي من المصلين ملاحظة ما يصور فور الشروع في تصويره . وهذا يؤدي بنا إلى القول أن ما كان يصور في المسجد كان يعرض أولا على عمر بن عبد العزيز لأخذ رأيه فيه .

(٤) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٢٤ .

(٥) العمارة العربية ، ص ٢٩٥ .

وكان من الخطاطين الذين عملوا في المسجد النبوى في ولاية عمر بن عبد العزيز خالد بن أبي الهياج الذى عده ابن النديم نقلا عن ابن إسحاق « أول من كتب المصاحف في الصدر الأول »[١] وقال ابن إسحاق الحربى نقلا عن يحيى أن أحد موالى « آل حويطب بن عبد العزى يقال له سعد حطبة »[٢] هو الذى كتب ما في جدار القبلة في عمارة الوليد ، وساعد ابن غزالة ، وهو مولى من موالى أهل المدينة زياد بن عبد الله الحارثى في إتمام النص الذى نقضه داود بن على سنة ١٣٢هـ من جدار صحن المسجد[٣].

وهؤلاء وغيرهم ممن عُدوا من الروم أو القبط أو الفرس أسلموا وبرعوا في إتقان الخط العربى حتى عدوا من الأعلام البارزين فيه .

وإذا كان المرمر (الرخام) قد استخدم في تزيين جدران المسجد كما في خبر لابن زبالة نقله السمهودى[٤]. فإنه يحسن إيراد الوصف الدقيق الذى أورده ابن عبد ربه عن جدار القبلة في عهده ، على اعتبار أن جدار القبلة لم تمتد إليه يد التغيير في العصر العباسى ، فقال : إن وجه السور القبلى من داخل المسجد قد كسى بإزار من الرخام « من أساسه إلى قدر القامة منه ، ولف على الأزار بطوق رخام في غلظ الأصبع ، ثم من فوقه ازار دونه في العرض مخلق بالخلوق ، ثم فوقه إزار مثل الأول فيه أربعة عشر بابا في صف من الشرق إلى الغرب في تقدير كوى المسجد الجامع بقرطبة[٥]، منقشة مذهبة ، ثم فوقه إزار رخام أيضا ، فيه صنيفة سماوية[٦] فيها خمسة سطور مكتوبة بالذهب بكتاب تخين غلظه قدر إصبع ، من

---

(١) ، (٢) ، (٣) سبق ذكر هذه المصادر في ص ١٣٦ عند الحديث عن نقوش المسجد وزخرفته .

(٤) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥١٩ ، ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار ، ص ٩٠ ، حسن الباشا : المدخل ، ص ١٢٤ .

(٥) قال ابن منظور في لسان العرب ، جـ١٥ ص ٢٣٦ أن الكوى جمع كوة وهى الخرق في الحائط والثقب في البيت .

(٦) لم أجد لها معنى في القواميس العربية ولا في المعجم المضاف على القواميس العربية لدوزى بينما تبدو في الرسم الذى أعده سوفاجيه بناء على هذا الوصف شكل (٤٢) أنها مساحة مستطيلة تمتد على امتداد جدار القبلة بالقرب من سقف المسجد بها خمسة أسطر من الكتابة التى كانت تحلى جدار القبلة .

سور قصار المفصل ثم فوقه إزار رخام مثل الأول الأسفل ، فيه ترسة[١] من ذهب منقشة ، وبين كل ترسين منها عمود أخضر فى حافاته قضبان من ذهب، ثم فوقه إزار فسيفساء عريض ، ثم السماوات عليه[٢] ، والمحراب فى موسطه[٣] السور القبلى، على قوسه قصّة[٤] من ذهب ناتئة غليظة ، فى وسطها مرآة مربعة ذكر أنها كانت لعائشة رضى الله عنها

وقبو المحراب مقدر جدا ، وفيه دارات[٥]، بعضها مذهبة وبعضها حمر وسود ، وتحت القبو صنيفة ذهب منقشة ، تحتها صفائح ذهب مثمنة ، فيها جزعة مثل جمجمة الصبى الصغير مسمرة ، ثم تحتها إلى الأرض إزار رخام مخلق بالخلوق فيه الوتد الذى كان النبى ﷺ يتوكأ عليه فى المحراب الأول عند قيامه من السجود فيما ذكر[٦].

وعن يمين المحراب باب يدخل منه الإمام ويخرج ، وعن يساره باب صغير مشطرغ ..[٧]،[٨] وقد قام سوفاجيه بإعادة ترسم جدار القبلة على ضوء المعلومات الواردة فى النصوص السابقة وحاول كما يظهر فى الشكل رقم (٤٢). توضيح موضع كل نقش ولا نملك . أمام هذه المحاولة الجريئة إلا الإعجاب بدقة سوفاجيه

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب جـ٦ ص ٣٢ أنها من أدوات السلاح وهى جمع ترس ، وتجمع على أتراس وتيراس وترسة وتروس .

(٢) قال ابن منظور فى المصدر السابق جـ١٤ ص ٣٩٨ أنها جمع سماء وسماء كل شىء أعلاه ، والسماء سقف كل شىء وكل بيت . ويقصد أن مقف المسجد متصل بازار الفسيفساء .

(٣) الوسط اسم لما بين طرفى الشيء . انظر المصدر السابق جـ٧ ص : ٤٢٨ .

(٤) القَصة ما أقبل من الناصية على الوجه ، والقصة شعر الناصية ، انظر المصدر السابق جـ٧ ص ٧٣ و ويقصد بها أنها فى وسط عقد المحراب بارزة .

(٥) الدارات جمع دائرة ودارة وكلاهما ما أحاط بالشىء ، وكل موضع يدار به شىء يحجره فاسمه دارة ، انظر المصدر السابق جـ٤ ص ٢٩٦ .

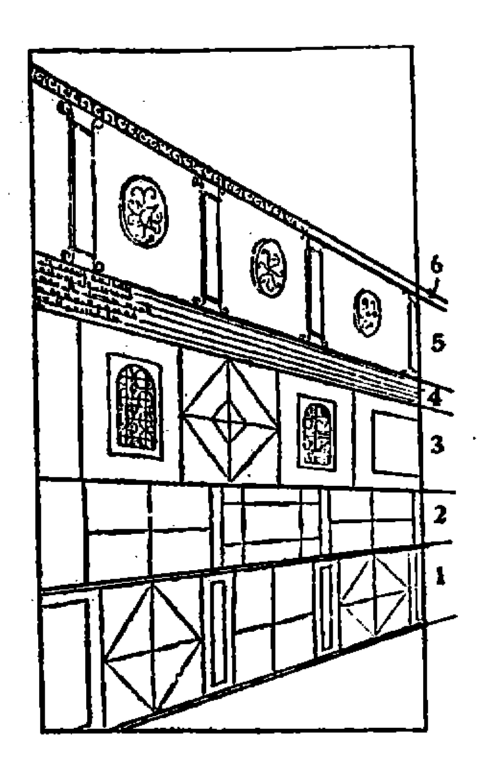
(٦) انظر ما ذكره ابن إسحاق بخصوص هذا العود فى حاشية رقم ٥ من ص ٦٩ من الرسالة .

(٧) أى على شاكلة رقعة الشطرنج ويبدو أنه مطعم بمربعات سود وبيض .

(٨) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٧ ص ٢٥٢ .

(٩) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٦٩ .

فى تتبع النصوص المختلفة وتلمس العذر له فيما يمكن أن يكون قد وقع فيه من أخطاء .



شكل رقم (٤٢)

ومهما يكن من أمر فقد ورد أن الوليد بن عبد الملك عندما ورد المدينة سنة ٩١هـ « فرش له المسجد ، وكشف عن الفسيفساء فجعل ينظر إلى حسنه وجاء الناس يهتشونه من كل ناحية .. »[1] ويشبه الكشف عن فسيفساء الجداران عند حضور الخليفة فى عصرنا الحاضر من كشف الستار عن اللوحات التأسيسية للأعمال المعمارية الكبيرة .

(١) ابن إسحاق الحربى : كتاب المناسك ، ص ٣٦٩ . وعن دخول الوليد إلى المسجد ، انظر ابن رستة: الأعلاق النفيسة ص ٧١ ، الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ٨ ص ١٢٣٢ وما بعدها .

ثالثا : تذهيب السقف :

كان الاهتمام بسقف المسجد النبوى الشريف فى هذه العمارة ، التى قام بها الوليد ، كبيرا وكذلك الرغبة فى أن يأتى متناسقا مع جمال الجدران الداخلية التى تزينها الفسيفساء وألواح الرخام . لذلك استخدم فى السقف خشب الساج المذهب[١] ، وكان كما يقول ياقوت الحموى سقفا دون سقف[٢] ، إلا أنه كان بالتأكيد يقل روعة عن سقف المقصورة ، التى رغب الوليد أن يكون سقف المسجد مثل سقفها .

وكان السقف الذى بلغ ارتفاعه حوالى ٢٥ ذراعا[٣] محمولا على عوارض خشبية تصل ما بين الإسطوانات وذلك لأن العقود لم تستخدم إلا فى البوائك المطلة على الصحن[٤] . وكانت بمثابة علامة للدور التى دخلت فى توسعه المسجد بجعل «منابر[٥] سواريها التى تلى السقف أعظم من غيرها من سوارى المسجد »[٦] ، وكانت رؤوس إسطوانات مقدم المسجد « مذهبة عليها نجف منقشة ، ثم السماوات على النجف[٧] ، وهى أيضا منقشة مذهبة : وقبالة المحراب موسطة البلاطات ، بلاط مذهب ، كله شقت به البلاطات من الصحن إلى أن ينتهى إلى البلاط الذى بالمحراب ولا يشقه ، وفى البلاط الذى يلى المحراب تذهيب كثير ، وفى وسطه سماء كالترس المقدر مجوف كالمحار[٨] ، مذهب »[٩] وفيما ذكره ابن

---

(١) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٦٥ ، ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ٦٩ ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥١٩ .
(٢) معجم البلدان جـ٥ ص ٨٧ .
(٣) انظر ص ١١٤ .
(٤) ابن المحجوب : قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٦٧ ب .
(٥) يقصد بالمنابر هنا تيجان الأعمدة .
(٦) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٥١٧ ، ابن الضياء : تاريخ مكة والمدينة ورقة ١٤٢ ب .
(٧) قال ابن منظور فى لسان العرب جـ٩ ص ٣٢٣ ، أن النجاف هو ما يستقبل الباب من أعلى الأسكفة والنجاف العتبة وهى أسكفة الباب يعنى أعلاه .
(٨) يبدو أن هذا هو مستند سوفاجيه فى تحديده لموضع القبة التى ظهرت فى مخططه شكل (٤٣) فى نهاية البلاطة الممتدة من المحراب العثمانى إلى صحن المسجد .
(٩) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ٧ ص ٢٥٢ .

عبد ربه من تذهيب بلاط المحراب الممتد من الصحن إلى المحراب ما يشير إلى استحداث المجاز القاطع[١] المستخدم في الجامع الأموى ، وهو ما أكده سوفاجيه[٢] غير أن مجاز المحراب لم يكن أعرض من بقية البلاطات الأخرى ، وذلك لحرص عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه على الإقتداء بالبعد التقليدى للإسطوانات القديمة ، وهو تسعة أذرع أى حوالى أربعة أمتار ونصف كما يتبين من قياس البتنونى للروضة الشريفة[٣] . انظر مخطط سوفاجيه شكل (٤٣) .

ومما يستحق الذكر أن المجنبتين الشرقية والغربية لم تحدثا إلا فى هذه العمارة ، وكان بالشرقية ثلاث بلاطات وبالغربية أربع وبظلة القبلة كما يذكر ابن عبد ربه خمس بلاطات « معترضة من الشرق إلى الغرب ، فى كل صف من صفوف عمدها سبعة عشر عمودا »[٤] ، وليس لدى نص صريح يبين عدد بلاطات ظلة مؤخرة المسجد ، إلا أن ما توصل إليه الدكتور أحمد فكرى يفيد بأنها أربع بلاطات[٥] ، كما كانت عليه فى عمارة عمر وعثمان رضى الله عنهما . ولم يكن

---

(١) فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الإسلامية . ص ١٨٤ وهو عبارة عن بلاطة عريضة تمتد عمودية على جدار القبلة حيث المنبر والمحراب ويكون سقفها أعلى بقية سقوف المسجد .

(٢) انظر المسجد الأموى فى المدينة ، ص ٨٢ .

(٣) ذكر البتنونى فى الرحلة الحجازية ص ٢٤٠ أن طول الروضة الشريفة ٢٢ مترا وعرضها ١٥ مترا وأيده فى ذلك إبراهيم رفعت باشا فى مرآة الحرمين جـ١ ص ٤٥١ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ٧ ص ٢٥٢ .

(٥) ذكر أحمد فكرى فى الحاشية رقم ٣ من ص ١٧٧ من المدخل أن السمهودى ذكر « فى صفحة ٤٨٧ من الجزء الأول من « وفاء الوفا » عن ابن النجار أن الطاقات المحيطة بصحن المسجد، أى البوائك أو العقود ، كانت جملتها ستين طاقة ، منها إحدى عشرة فى القبلة ، ومثلها فى المؤخر ، وتسع عشرة فى كل من المشرق والمغرب . وكان قد ذكر فى صفحة ٣٨١ ، أن زيادة المهدى تقدر بست أساطين منها خمس فى السقائف الشامية ، أى فى مؤخر المسجد . ومعنى ذلك أن « الطاقات » التى كانت محيطة بالصحن فى كل من المشرق والمغرب كانت أربع عشرة فى عهد الوليد وهو ما رجحه السمهودى فى تلك الصفحة ، وفى صفحة ٣٦٩ التى أكد فيها أن الوليد جعل « جدار المسجد من جهة الشام بعد ١٨ إسطوانة من مربعة القبر » ، منها ٤ أساطين للسقايف الشامية » ومن هذا الاستنتاج يتبين أن عدد البلاطات فى الرواق الشمالى خمس بلاطات فقط .

الجدار الشرقى للمسجد عموديا على جدار القبلة الجنوبى ، وذلك لأن مؤخرة المسجد كانت أقل عرضا من مقدمته بعشرين ذراعا[١].

وبتطبيق هذه المعلومات على المخطط الذى أعده أحمد فكرى ، شكل (٤٤) والذى خالف فيه مخطط سوفاجيه عن المسجد النبوى فى عهد الوليد ، ببعض النقاط التى حالفه التوفيق فى إثبات صحتها[٢] ، يجب التسليم بما جاء فيه بعد

---

(١) ذكر ابن النجار فى الدرة الثمينة ص ١٠٠ أن عرض المسجد فى زمن الوليد « فى مقدمة مائتى ذراع وفى مؤخره مائة وثمانين » إلا أنه عاد وقال فى ص ١٠٨ أنه ذرع المسجد بنفسه فكان طوله « من قبلته إلى الشام مائتا ذراع وأربعة وخمسون ذرعا وأربع أصابع ، ومن شرقية إلى غربية مائة ذراع وسبعون ذراعًا .. » . ومن المعروف أن مقدم المسجد لم يتعرض لأى زيادة منذ بناه الوليد حتى زمن ابن النجار وجزء من زمن السمهودى .

وكان هذا الذرع لمقدم المسجد قريبا من ذرع السمهودى الذى قال أنه ١٦٧,٥ ذراعا . ويبدو أن الإختلاف الواضح فيما رواه ابن النجار وما ذرعه بنفسه والذى يقدر بعشرين ذراعا على حسب ما رواه يمكن انتقاصها من ذرع السمهودى لمقدم المسجد . لأنه يبدو أنه ذرع المسجد من داخله وابن النجار ذرع المسجد من خارجه فكان الفرق بين الذرعين هو عرض الجدارين الشرقى والغربى. وبذلك يصبح طول مقدم المسجد ١٦٧,٥ ذراعا وطول جدار مؤخرته ١٤٧,٥ ذراعا .

(٢) ذكر أحمد فكرى فى المدخل ص ١٩١ وما بعدها عدة اعتراضات على مخطط سوفاجيه فيما يلى ملخص لها ، وابداء رأيى حول بعضها :

أ - ذكر أن سوفاجيه اعتبر بلاطات المحراب هى المقصورة ، والحقيقة أنه فرق بين المقصورة والمجاز . انظر ص ٨٢ من المسجد الأموى فى المدينة . كما أنه عد الباب الذى فتحه سوفاجيه فى الجدار الشمالى من الأخطاء المتعمدة .

ب - اعتبر جعل سوفاجيه طول الجدار الغربى مائة وتسعين ذراعا أول الأخطاء التى لم يتعمدها بينما طوله مائتى ذراع .

جـ - أنه جعل طول جدار المؤخر مساو لطول جدار القبلة وهو مائة وخمسة وستين ذراعا .

د - انتقد وضعه للحجرة الشريفة شمال موضعها الحقيقى بعشرة أذرع وهو خطأ جسيم لا أدرى كيف وقع فيه سوفاجيه .

و - أنه حدد الجدار الشامى بعد أربع عشرة اسطوانة من مربعة القبر . بينما الصواب أنه بعد ثمان عشرة اسطوانة ، كما أنه جعل عدد بلاطات مؤخر المسجد خمس بلاطات معترضة بينما عددها كما توصل إليه أحمد فكرى أربع بلاطات . كما أن عدد الاسطوانات المطلة على جانبى الصحن من الجهة الشرقية والغربية قد نقص أربع اسطوانات إذ أن عددها كما أثبته أحمد فكرى ثلاث عشرة اسطوانة .

توضيح بعض النقاط المهمة فيما يلى :

١ - أن البعد الحقيقى للإسطوانات عن بعضها هو تسعة أذرع أى حوالى أربعة أمتار ونصف .

٢ - لم يتغير طول مقدم المسجد منذ ذرعه ابن النجار وقال أنه مائة وسبعون ذراعا وكذلك السمهودى الذى ذكر أنه ١٦٧,٥ ذراعا . وهو ذرع موحد إذ يبدو أن ابن النجار ذرع مقدم المسجد من خارجه بينما ذرعه السمهودى من داخله، أو أن الاختلاف كان فى نوع الذراع .

٣ - لم يكن طول مؤخر المسجد فى عمارة الوليد مائة وأربعين ذراعا كما افترضه الدكتور أحمد فكرى ، وإنما طوله النسبى كما توصلت إليه هو حوالى مائة وسبعة وأربعين ذراعا[١] .

ومهما يكن من أمر هذه الاختلافات البسيطة حول مخطط المسجد النبوى فى عمارة الوليد ، فإن الاختلاف بين المؤرخين حول هذه العمارة ، وإهمال الروايات لبعض الجوانب المهمة هى التى أوجبت هذا الاختلاف بين الباحثين المحدثين عند محاولتهم استعادة ترسم وضع المسجد النبوى بعد عمارة الوليد بن عبد الملك وقد حاولت تطبيق ما توصلت إليه من نتائج فيما سبق ، على الشكل رقم (٤٥) . بعد أن تفاديت فيه ما اقتنعت بصحته مما وجه إلى المخططات السابقة من نقد ، لا سيما مخطط سوفاجيه .

وكان لابد لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، بعد انتهاء العمارة ، من فرش المسجد بالرمل كما هو المتبع بعد كل عمارة . ولم أجد أحدا من مؤرخى المدينة القدامى قد ذكر مصدر هذا الرمل . ويغلب على الظن أن الرمل الأحمر الذى كان يجلب عادة من وادى العقيق المبارك هو ما فرش به المسجد النبوى ، إلا أن ابن فرحون يصف ما وجد سنة ٧٠٦هـ من رمل عند حفر كافور المظفرى لأساس المئذنة الجنوبية الغربية عند بنائها لأول مرة ، فيقول أنهم وجدوا باب مروان بن الحكم أسفل من أرض المسجد بقدر قامة ، وأنهم « وجدوا تحصيب المسجد فى أيام

---

(١) انظر أعلاه الحاشية رقم ١ ، ٢ من صفحة ١٤٠ .

مروان بالرمل الأسود يشبه أن يكون من جبل سلع وذلك التحصيب عام في سائر مسجدهم القديم ، لأنهم لما أسسوا الرواقين (البلاطتين) اللذين زادهما الملك الناصر بشمالي الروضة المقدسة في سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وجدوا ذلك التحصيب فوقفت عليه فوجدته يشبه ما وجد في أساس المأذنة »[١].

وذكر المؤرخون اهتمام عمر بعمل الميازيب من الرصاص ، وذكروا أن أحدهما كان يصب في موضع الجنائز ، وأن الآخر كان على باب عاتكة[٢]. ولم يغفل المسئولون عن عمارة المسجد النبوي من تزويده بماء للشرب والوضوء ، فقد جاء أن الوليد كتب « إلى عمر بن عبد العزيز أن يعمل الفوارة التي عند دار يزيد بن عبد الملك اليوم (في زمن الطبري) فعملها وأجرى ماءها فلما حج الوليد وقف عليها فنظر إلى بيت الماء والفوارة فأعجبته وأمر لها بقوام يقومون عليها وأن يسقى أهل المسجد منها ، ففعل ذلك[٣]. وجاء أيضا أن الوليد حضر معه إلى المدينة بطيب»[٤] مسجد رسول الله ﷺ ومجمرة وبكسوة الكعبة فنشرت وعلقت على حبال في المسجد من ديباج حسن لم ير مثله قط »[٥] وبقي المسجد النبوي على ما عمره الوليد ، لم يحدث فيه أحد من بني أمية شيئا ، إلا ما نقله السمهودي عن ابن زبالة عن ابن عجلان من أن عمر بن عبد العزيز « كتب إلى عامله على المدينة أن لا يخلق إلا القبلة ، وأن يغسل الأساطين ، فقال : فلم تكن الأساطين تخلق في سلطانه »[٦].

* * *

---

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور ص ٣٣ ، غير أن تأكيد ابن فرحون الذي شاهد الرمل سنة ٧٠٦هـ بأنه رمل المسجد في العصر الأموي يمكن الإعتراض عليه بأن دار مروان وكذلك المسجد قد فرشت مرارا عديدة بالرمل ، وطرأت على المسجد عمائر أهمها عمارة المهدي وعمارة ما بعد الحريق الأول سنة ٦٥٤هـ .

(٢) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٨٥ ، السمهودي : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٢٥ .

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، جـ٨ ص ١١٩٦ .

(٤) « هو الأفضل من كل شيء ، وكل ما يتطيب به من عطر ونحوه » انظر : المعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين جـ٢ ص ٥٧٩ .

(٥) الطبري : المصدر السابق جـ٨ ص ١٢٣٣ .

(٦) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٦١ .

المبحث الرابع

عمارة المسجد النبوى فى عهد الدولة العباسية

المبحث الرابع
عمارة المسجد النبوى فى عهد الدولة العباسية

١ - المسجد النبوى فى أوائل الدولة العباسية :

كانت حاجة المسجد النبوى الشريف إلى التوسعة قائمة منذ بداية الدولة العباسية ، وبالتحديد فى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ) ، الذى فكر فى أمر الزيادة وشاور الناس فيها ، غير أنه صرف عزمه عنها آخر الأمر ، وإن كان ما ذكره بعض المؤرخين عن ذلك يبدو غير مقنع[١] . فقد كان بإمكانه وضع الزيادة فى مؤخر المسجد دون التعرض لدار عثمان كما فعل المهدى . وقد يظن أن هناك علاقة بين إحجام المنصور وما عرف عنه من حرص على نفقة الأموال ، وتقتيره فيها حتى عرف بالدوانيقى . إلا أن عمارته الكبيرة فى المسجد الحرام سنة ١٣٧هـ ، التى ضاعفت من مساحة المسجد آنذاك ، وتزيينه له بالفسيفساء والرخام وأنواع النقوش[٢] ، مما يزكى أيضا اهتمامه بأمر المسجد النبوى ، ومع ذلك يبدو أنه وجد أن تظليل صحن المسجد النبوى بالستور أيام الجمع والمواسم يفى بالغرض فاكتفى بذلك .

فقد روى ابن إسحاق الحربى عن يحيى بن حسن الطالبى عن محمد بن إسماعيل أنه قال : « أدركت المسجد صغيرا يعجز عن الناس يوم الجمعة حتى يصلى فى دار القضاء[٣] وهى يومئذ مبنية ، وفى دار ابن مكمل ، وفى دار

---

(١) ذكر السمهودى فى الوفا جـ٢ ص ٥٣٦ نقلا عن ابن زبالة أن أبا جعفر المنصور شاور الناس فى أمر الزيادة « فكتب إليه الحسن بن زيد يصف له ناحية موضع الجنائز ، ويقول أن زيد فى ناحيته الشرقية توسط قبر النبى ﷺ ، فكتب إليه أبو جعفر أنى قد عرفت الذى أردت ، فاكفف عن ذكر دار الشيخ عثمان بن عفان رضى الله عنه ... » . وانظر : ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ٧٢ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ص ١٠٣ .

(٢) الأزرقى : أخبار مكة جـ٢ ص ٧٣ ، حسين باسلامة : عمارة المسجد الحرام ص ٥١ .

(٣) قال المراغى : تحقيق النصرة ص ٩٩ ، أن دار القضاء « كانت غربى المسجد الشريف ، قريبا من باب السلام » وذكر بأن سبب تسميتها بدار القضاء هو بيعها فى قضاء دين عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد موته .

النجامين ، وفى دار عاتكة[١] ، قال : وكنت ربما صليت فى بعض تلك الدور وأنا غلام ، قال : فقدم أبو جعفر المدينة سنة أربعين ومائة فأمر بستور يستر بها صحن المسجد ، على عمد لها رؤوس كهيئات الفساطيط ، وجعلت فى الطيقان فكانت الريح تدخل تحتها فلا يزال العمود يسقط على الإنسان فغيرها ، وأمر بستور أكثف من تلك الستور ، وبحبال فأتى بها من جدة ، من حبال السفن .. فكانت تعمل على الناس كل جمعة فلم تزل كذلك حتى خرج محمد بن عبد الله ابن حسن فى جمادى الآخرة سنة خمس وأربعين ومائة ، فأمر بها فقطعت دراريع[٢] لمن كان يقاتل معه ... »[٣].

وبعد هذا لم يحاول المنصور استبدال الستور مرة ثانية ، بل وجد الحل هذه المرة فى هدم دار القضاء سنة ١٥١ هـ ، وأضافها رحبة للمسجد يصلى فيها ، وفتح للمسجد بابا ينفذ إليها سمى باب زياد[٤] . وكتب عليه فى لوح من ساج مضروب بمسامير من خارج المسجد ومن داخله كتاب هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو ـ الآية ـ محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، أمر عبد الله ، عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله ببناء مسجد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وعمارة هذه الرحبة وتوسعة مسجد رسول الله[٥] ، ولمن حضره من المسلمين فى سنة إحدى وخمسين ومائة ، ابتغاء

---

(١) ذكر المراغى فى المصدر السابق ص ٧٩ أن دار عاتكة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية تقع فى جهة الغرب من المسجد ونسب إليها باب عاتكة ، وهو المعروف حاليا بباب الرحمة .

(٢) صحة جمع كلمة درع كما يقول ابن منظور فى لسان العرب ، جـ٨ ص ٨٠ أدرع وأدراع وفى الكثير دروع .

(٣) كتاب المناسك ، ص ٣٧١ وما بعدها ، ابن النجار : الدرة الثمينة ص ١٠٥ وما بعدها .

(٤) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٧٠٠ وقد ذكر فى ص ٦٩٦ نقلا عن ابن زبالة أن زياد بن عبيد الله « هدم إذ كان واليا لأبى العباس على المدينة فى سنة ثمان وثلاثين ومائة دار القضاء وكانت تكرى من تجار أهل المدينة فهدمها وجعلها رحبة للمسجد وفتح الباب الذى إلى جنب الخوخة » . فى الجانب الغربى من المسجد النبوى ، انظر شكل (٤٦) .

(٥) ذكر محقق كتاب المناسك أن هناك نقص وأنا أعتقد ذلك أيضاً ، لأن المعنى مختل ولا يستقيم مع هذه الصيغة .

وجه الله والدار الآخرة . وكان أمير المؤمنين أكرمه الله أولى بالنظر في ذلك لقرابته من رسول الله ﷺ وما اختصه به من خلافته ، فأعظم الله أجر أمير المؤمنين وأحسن ثوابه »[١] .

ويدل تغيير بعض نصوص المسجد على ما كان من عداء سياسى بين بنى أمية وبنى العباس ، وقد يشير إليه أن نصا للمهدى نقش فى أحد جدران صحن المسجد، مكان نقش قديم[٢] ويؤيده أن داود بن على نقض النص المكتوب فى جدار صحن المسجد النبوى حين قدم واليا لأبى العباس سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، ولكنه توفى دون أن يتممه ، فأتمه زياد بن عبد الله الحارثى[٣]، الذى استبدل اسم الوليد بن عبد الملك باسم عبد الله[٤] الذى يطلق على كل من السفاح والمنصور ، وهما الخليفتان العباسيان اللذان يحملان فقط اسم عبد الله[٥].

* * *

(١) ابن إسحاق : كتاب المناسك ، ص ٤٩٣ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٧٠٠ .
(٢) انظر ص ٣١ ، ٣٢ .
(٣) ، (٤) انظر ص ٣١ ، ٣٢ .
(٥) سوفاجيه : المسجد الأموى فى المدينة ، ص ٥٨ وانظر ص ١٦١ .

٢ - زيادة المهدى وأسبابها

أتت زيادة المهدى للمسجد النبوى الشريف ، كما هى العادة فى الزيادات السابقة استجابة لتطور المجتمع الإسلامى . فقد أدرك المهدى حاجة الناس إلى توسعة المسجد عند زيارته للمدينة سنة ١٦٠هـ عقب انصرافه من الحج . وكان قد لمس هذا الضيق فى سنة ١٥٣هـ عندما أمّره والده على الحج[١] ، خاصة وأن والده لم يعاود تظليل صحن المسجد بعد سنة ١٤٥هـ . وعندما استعمل على المدينة جعفر بن سليمان بن على سنة إحدى وستين ومائة « أمره بالزيادة فى مسجد رسول الله ﷺ ، وولى بناءه عمر بن عاصم بن عمر بن عبد العزيز بن مروان ، وعبد الملك بن شبيب الغسانى من أهل الشام » [٢].

وبعد أن تدارس معهم أمر الزيادة وموضعها « أمر أن يشترى ما حول المسجد من المنازل والدور فيوسع به المسجد »[٣]. وقال وهو فى المدينة للإمام مالك « إنى أريد أن أعيد منبر النبى ﷺ على حاله ، فقال له مالك : إنما هو من طرفاء ، وقد سمر إلى هذه العيدان وشدّ ، فمتى نزعته خفت أن يتهافت ويهلك ، فلا أرى أن تغيره»[٤]. ثم أمر بخفض المقصورة إلى مستوى الأرض ، وقد كانت مرتفعة عن أرض المسجد قدر ذراعين[٥] وجاء أنه أراد مساواة المساجد الإسلامية جميعا بالمسجد النبوى فقد ذكر الأزدى المتوفى سنة ٣٣٤هـ أن المهدى فى سنة ١٦١هـ أخرج « المقاصير من مساجد الجماعات ، وأمر بتقصيرها على مقدار منبر رسول الله ﷺ ، وكتب بذلك إلى الأمصار »[٦]. إلا أنه قد عاد وسمح بإعادة المقصورة

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ٩ ص ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٤ .

(٢) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٧٠ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤ ، وقد ذكر ابن رستة فى الأعلاق النفيسة ص ٧٢ أن عبد الله بن موسى الخطى تولى بناء المسجد مع عبد الملك الغسانى بعد موت عمر بن عاصم .

(٣) الدينورى : الأخبار الطوال ، ص ٣٨٦ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ص ١٠٤ .

(٤) ابن النجار : نفس المصدر ص ٨٢ ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٣٩٩ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ١٠٤ .

(٦) تاريخ الموصل ، ص ٢٤٠ .

فى المسجد النبوى إلى ما كانت عليه ، وإقامتها على امتداد البلاط الأول من مقدم المسجد[١]. ويؤيد ذلك ما نقله الدينورى فى حوادث سنة ١٥٨هـ من أن المهدى أمر « باتخاذ المقاصير فى جميع مساجد الجماعات »[٢] .

ويذكر ابن إسحاق الحربى نصا من النصوص المكتوبة فى المسجد جاء فيه « وكان مبتدأ ما أمر به الله المهدى محمد أمير المؤمنين أكرمه الله بالزيادة فى مسجد رسول الله ، عمله فى سنة اثنتين وستين ومائة ، وفرغ منه سنة خمس وستين ومائة ... »[٣]، مما يدل على أن الزيادة تمت فى سنة ١٦٥هـ. ويبدو أنها لم تقتصر على نقل الجدار الشمالى إلى شمال الموضع الذى تحددت إضافته إلى مؤخرة المسجد ثم وصل الجدارين الشرقى والغربى به ، ووصل ظلتيهما بالظلة الشمالية ، بيد أن التسليم بذلك دون سند تاريخى أمر يعتريه الشك . فلنحاول إذن تلمس الدليل من خلال عمارة الوليد السابقة التى استخدمت فيها القطع الحجرية المدورة والمحشية بعمد الحديد والرصاص ، فى تكوين إسطوانات المسجد كله ويقصر ابن عبد ربه الموفى سنة ٣٢٨هـ وجود هذه الأعمدة على رواق القبلة فقط ، حيث يقول : والعمد التى فى البلاط (الرواق ، الظلة) القبلية بيض مجصصة شاطة[٤] جدا ، وسائر عمد المسجد رخام . والعمد المجصصة على قواعد عظيمة مربعة ورؤوسها مذهبة عليها نجف منقشة مذهبة »[٥] ومن هذا يتضح أن إسطوانات الرخام التى فى الظلات الثلاث الشمالية والشرقية والغربية هى ما أضيف إلى المسجد فى هذه العمارة . كما أن اليعقوبى المتوفى سنة ٢٩٢هـ ، قد ذكر استخدام إسطوانات الرخام فى عمارة المهدى هذه فقال : « أنه حمل إليه عمد الرخام والفسيفساء والذهب »[٦]، والواقع أن إستخدام إسطوانات الرخام يتفق والطابع المميز لعمارة

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ٧ ص ٢٥٣ ، ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧١ .

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٣٨٦ .

(٣) كتاب المناسك ، ص ٣٨٨ .

(٤) قال ابن منظور فى لسان العرب ، جـ٧ ص ٣٣٩ أن من معانى شاط الاستواء والنضوج ، ويقصد بها فى هذا النص مستوية البياض أو ناصعة البياض .

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، جـ٧ ص ٢٥٢ .

(٦) تاريخ اليعقوبى : جـ٢ ص ٣٩٦ .

المهدى فى المسجد الحرام ، التى استخدمت فيها إسطوانات الرخام التى جاء عنها أنها « نقلت فى السفن من الشام حتى أنزلت بجدة على عجل من جدة إلى مكة»[١] .

هذا ويبدو أن تلبيس إسطوانات القبلة بالجص أو الجيار[٢] ، كما يسميه ابن جبير ، كان فى عمارة المهدى هذه ، وقد بولغ فى صقله حتى أشكل الأمر على ابن جبير ، فاعتبر إسطوانات المسجد كلها مؤلفة من قطع « ململمة مثقبة توضع أنثى فى ذكر ويفرغ بينهما الرصاص المذاب إلى أن تتصل عمودا قائما ، وتكسى بفلالة جيار ، ويبالغ فى صقلها ودلكها فتظهر كأنها رخام أبيض »[٣] . ويظهر من طريقة توزيع الشرافات على جدران المسجد ما يدل على بقاء جدار رواق القبلة المطل على الصحن ، على ما كان عليه فى عهد الوليد ، إذ اقتصر الهدم على سقوف الظلات الجانبية . ويؤيد ذلك ما يذكره ابن رسته من أن « عدد شرفات المسجد مما يلى القبلة إثنتان وعشرون شرفة ومما يلى الشام ثمان وعشرون شرفة ، مما يلى المشرق ثمان وأربعون شرفة ، ومما يلى المغرب خمس وأربعون شرفة»[٤] ، فاقتصار ضلع الصحن الجنوبى على اثنتين وعشرين شرفة ، بينما أنه يزيد فى الطول على الضلع الشمالى المبنى فى عهد المهدى والذى به ثمان وعشرون شرفة ، دليل على اختلاف بناء الجدارين بالرغم من أن عدد العقود فى كل منهما أحد عشر عقدا[٥] . وقد وصف كاتب مراكشى من القرن السادس هذه العقود بأنها « أقواس

---

(١) الأزرقى : أخبار مكة جـ٢ ص ٧٦ .

(٢) ذكر ابن منظور فى المصدر السابق جـ٢ ص ١٥٦ أن الرماد إذا اختلط بالنورة والجص كان الجيار .

(٣) رحلة ابن جبير ص ١٧١ ، وانظر كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار لمجهول ، ص ٣٧ .

(٤) الأعلاق النفيسة ، ص ٧٦ .

(٥) انظر رسالة فى وصف مكة والمدينة وبيت المقدس ، لمجهول ص ٣٥٠ ، الهروى : الإرشادات إلى معرفة الزيارات ، ص ٩١ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ١٠٨ ، وكتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار لمجهول ، ص ٣٧ ، على أن ابن رستة : فى الأعلاق النفيسة ص ٧٦ يذكر أن عدد العقود هو إثنا عشر قوسا ، ويبدو أنه خلط بين عدد الأعمدة وعدد الأقواس .

٢ ـ أن مربع أسفل الإسطوانة التى شاهدها السمهودى ، يرجع إلى عمارة المسجد النبوى بعد الحريق الأول سنة ٦٥٤هـ. وقد ربعت من أسفلها آنذاك بناءا على إحدى الروايات المذكورة فى حدود المسجد النبوى .

٣ ـ أن الخلاف بين المؤرخين فى تحديد زيادة المهدى ينحصر فيما ذكره المؤرخان الأولان للمدينة وهما : ابن زبالة المتوفى سنة ١٩٩هـ، ويحيى بن حسين المتوفى سنة ٢٧٧هـ، اللذان أوردا روايات مختلفة عن مقدار زيادة الوليد ومقدار زيادة المهدى[١] .

٤ ـ أن مكتب التوسعة السعودية قدر هذه الزيادة بـ ٢٤٥٠م٢ أى أنها تزيد بعض الشيء عن زيادة الوليد التى قدرت هى الأخرى بـ ٢٣٦٩م٢ .

٥ ـ أن ما اعتمد عليه السمهودى من نقش كان على الباب المقابل لدار خالد بن الوليد ، وهو الباب الثالث فى الجدار الشرقى مما يلى الشمال ، يمكن الاعتراض عليه فى أن جدران المسجد ، التى أعيد بناؤها فى عهد المهدى ، إتصلت ببناء الجدران القديمة عند فتح هذا الباب والذى يليه ، لأن من المعروف أن هدم جدار مبنى بالحجارة بارتفاع عشرين أو خمسة وعشرين ذراعا ، لا يمكن أن يحدث بشكل عمودى دون تعدى الحد المطلوب هدمه بأذرع عديدة . وعلى ذلك فإن زيادة المهدى التى حددها ابن النجار ، الذى كتب تاريخه فى المدينة المنورة معتمدا على ذاكرته[٢] ، وعلى ما وجده من نقوش فى جدران المسجد النبوى ، بمائة ذراع يعارضها كما يقول المطرى : ما وافق فيه رزين[٣] من أن طول المسجد بعد عمارة عمر رضى الله عنه مائة وأربعين ذراعا ، ومائة وستين ذراعا فى عهد عثمان رضى الله عنه[٤] .

---

(١) انظر السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ الفصل السادس عشر ، الثامن عشر .

(٢) الدر الثمينة ، ص ١٠ .

(٣) قال السخاوى فى التحفة اللطيفة ، جـ٢ ص ٦٢ وما بعدها . أن رزين بن معاوية العبدرى السرقطى توفى سنة ٥٣٥هـ جاور بمكة والمدينة وألف فيهما كتابان آخرهما يعرف « بأخبار المدينة » .

(٤) التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٨٢ .

كما أن ابن النجار قد صرح فى موضع آخر بأن طول المسجد بعد عمارة الوليد من الشمال إلى الجنوب مائتى ذراع[١] وكان طوله فى عهده كما ذرعه بنفسه ١٧٠ ذراعا[٢]، وكما ذرعه السمهودى بنفسه ٢٥٣ ذراعا[٣]، فإذا استبعدنا زيادة الوليد بمائتين ، فإن الثلاثة والخمسين الباقية هى زيادة المهدى .

وكما ذرع السمهودى طول المسجد ، فقد ذرع عرضه أيضا من مقدمه ومؤخره ، « فكان عرضه من مقدمه فى القبلة مائة ذراع وسبعة وستين ذراعا ونصفا، فيزيد على ما ذكره ابن زبالة ذراعين ونصفا ، وذلك لاختلاف الأذرعة أو لرخاوة الحبل الذى وقع القياس به ، ونحو ذلك ، وكان عرضه من مؤخره فى الشام مائة وخمسة وثلاثين ذراعا ، فيزيد على ما ذكره خمسة أذرع »[٤] انظر الجدول المرفق شكل (٤٧).

وإذا كان مقدم المسجد قد احتفظ ببلاطاته الخمس كما هى فى عمارة الوليد فإن عدد الإسطوانات التى كانت به غير التى فى الطيقان « ثمان وستون إسطوانة منها فى القبر صلى الله على ساكنه وسلم أربع وفى الشام مثلها »[٥]. وكانت كما ذكر ابن عبد ربه من حجر ملبسة بالجص بخلاف إسطوانات الرخام المنتشرة فى بقية المسجد[٦] وكانت تشرف على الصحن بأحد عشر عقدا . ويقدم لنا ابن جبير وصفا شاملا لأروقة المسجد وبلاطاته ، إذ يقول : المسجد المبارك مستطيل وتحفه من جهاته الأربع بلاطات مستديرة به وسطه كله صحن مفروش بالرمل والحصى ، فالجهة القبلية منها لها خمسة بلاطات مستطيلة من غرب إلى شرق ، والجهة الجوفية الغربية لها أربعة (هكذا) بلاطات »[٧] وقد أعيدت عقود الجدار

---

(١) الدرة الثمينة ، ص ١٠٠ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٠٨ .
(٣) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٨٤ .
(٤) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٨٩ ، ٦٨٤ .
(٥) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ١٠٨ ، القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ، ص ١٣٧ .
(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٧ ص ٢٥٢ .
(٧) رحلة ابن جبير ، ص ١٦٨ ، وانظر كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، لمجهول ، ص ٣٧ .

الشمالى المطل على الصحن مساوية لعقود الجدار الجنوبى الذى كان به أحد عشر عقدا ، أما الجداران الشرقى والغربى فكان بكل منهما « تسع عشر طاقة »[١] ويذكر ابن النجار أن إسطوانات الظلة الشمالية ٦٨ إسطوانة كما هى فى رواق القبلة ، وفى الشرق « أربعون منها اثنتان فى الحجرة وفى الغرب ستون إسطوانا ، وبين كل إسطوانين تسعة أذرع »[٢]. وبإضافة إسطوانات العقود المطلة على الصحن من جوانبه الأربعة ، إلى ما ورد فى رواية ابن النجار السابقة لا تضح أن عدد إسطوانات المسجد ٢٩٦ إسطوانة[٣] وتوزيعها على أروقة المسجد موافق لما ذكره عفيف الدين القرطبى الذى قال : « وأما الأساطين غير التى فى الطيقان ففى القبلة ثمانية وستون ، منها فى القبر المقدس أربعة (هكذا) ، وفى الشام مثلها (وفى) المشرق أربعون ، منها اثنتان فى الحجرة المعظمة وفى الغرب ستون »[٤].

هذا عن إسطوانات المسجد وأروقته وبلاطاته وبوائكه ، انظر شكل (٤٦) أما

---

(١) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ١٠٨ ، كتاب الاستبصار ، ص ٣٧ ، وقد اختلف المؤرخون فى عدد العقود المطلة على الصحن من جهاته الأربع . فخالف ابن رستة غيره فى عدد العقود المشرفة على الصحن من الجهة الشمالية والجنوبية وقال أنها ١٢ عقدا بينما اتفق مع ابن النجار والهروى فى أن عدد العقود الشرقية ١٩ عقدا . وخالفهما صاحب رسالة وصف مكة والمدينة وبيت المقدس ، إذ اعتبر عقود الجدار الشرقى والغربى ١٨ عقدا . وقد أحس صاحب كتاب الاستبصار بهذا الاختلاف فلم يتعرض له . ويبدو أن هذا الاختلاف يرجع إلى اللبس بين عدد الاسطوانات وعدد العقود . فإن الاسطوانات تزيد على العقود باسطوانة واحدة فى كل جانب .

(٢) ابن النجار ، المصدر السابق ، ص ١٠٩ .

(٣) اختلف فى عدد اسطوانات المسجد ، فابن إسحاق فى كتاب المناسك ص ٣٨٣ يعدها ٢٩٧ اسطوانة وابن رسته فى الأعلاق النفيسة ص ٧٦ يعدها ٢٩٦ اسطوانة ، وصاحب رسالة وصف مكة والمدينة ص ٢٥١ يعدها ٢٧٦ عمودا ، وتبعه صاحب كتاب الاستبصار الذى نقل فى ص٣٧ الرقم المغلوط ، ومع أن صحة العدد هو ٢٩٦ اسطوانة . واهمال عشرين اسطوانة غير معقول اطلاقا . أما ابن جبير فعدها ٢٩٠ إسطوانة . ويبدو أنه هو أيضاً قد أهمل عدد الاسطوانات التى كانت داخل الحجرة الشريفة آنذاك وهن ست ، ولذلك فإن عده لما هو ظاهر من الاسطوانات يعتبر صحيحاً .

(٤) بهجة النفوس والأسرار ، ص ١٣٧ .

مناراته ، فلم يبق مما كان فى عهد الوليد من المنارات التى وصفها ابن زبالة بأنها تتراوح فى الإرتفاع بين « ثلاثة وخمسين ذراعا ، وخمسة وخمسين ذراعا ، وعرضها ثمانية أذرع فى مثلها »[١] ، إلا المنارة التى فى الركن الشرقى المتصل بالقبلة والتى لم تمتد إليها توسعة المهدى . وقد استبدلت المنارتان الشاميتان بمنارتين صغيرتين « على هيئة برجين »[٢] . أما المنارة التى فى مقدم المسجد فهى كما يقول ابن جبير « على هيئة الصوامع » [٣] ، وهى المنارة الوحيدة التى ثبت وجودها فى مقدم المسجد فى عمارة الوليد[٤] ، وكان إرتفاعها كما ذرعها ابن زبالة خمسة وخمسون ذراعا .

* * *

(١) ابن إسحاق ، كتاب المناسك ص ٣٨٣ ، ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ٧٦ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ١٠٨ .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ١٧٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٧٣ .

(٤) انظر أدناه ، منارات المسجد النبوى فى عمارة الوليد ، ص ١٢١ وما بعدها .

٤ - نقوش المسجد النبوى وزخرفته

استخدمت الفسيفساء فى زخرفة المسجد النبوى فى هذه العمارة [١] وكانت تحلى « جدران المسجد وأقواسه »[٢]، ويذكر السمهودى أنه « يؤخذ مما ذكره ابن زبالة من الكتابة على أبواب المسجد فى زمن المهدى ، أنه زخرفه بالفسيفساء كما فعل الوليد ، ويشهد لذلك بقية من الفسيفساء كانت فيما زاده من مؤخر المسجد عند المنارة الغربية الشامية وفيما يقرب منها من الحائط الغربى »[٣]. ولم يقتصر فى زخرفة المسجد الشريف على الفسيفساء وإنما استخدمت فيه أيضا ألواح الرخام[٤] التى أبدع فى وضعها وإن لم تأت مشابهة لجدار القبلة ، التى يقول عنها ابن جبير أن « الصنعة فى جدار القبلة أحفل »[٥]. ويذكر أيضا أن الجدار الشمالى المطل على الصحن مشابها فى الزخرفة « للجدار الناظر إلى الصحن من جهة القبلة كذلك »[٦].

أما الجداران الشرقى والغربى فهما « مجردان أبيضان ومقرنصان قد زينا برسم يتضمن أنواعا من الأصبغة »[٧]، ويبدو أن خلوهما من الفسيفساء فى عهد ابن جبير كان نتيجة ترميمات وتجديدات لهذين الجدارين ، بدليل وجود نقش للمعتضد العباسى على أحدهما[٨]. وكما أبقى على سقف مقدم المسجد من الساج فى عهد الوليد ، الذى يبدو من وصف ابن عبد ربه له أنه كان على هيئة جميلة ، فقد كانت بقية الأسقف فى عمارة المهدى « بالخشب الرفيعة

---

(١) تاريخ اليعقوبى ، ص ٣٩٦ .

(٢) ابن المحجوب : قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٦٧ ب .

(٣) وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٤٠ .

(٤) اليعقوبى : المصدر السابق ، ص ٣٩٦ .

(٥) ، (٦) ، (٧) رحلة ابن جبير ، ص ١٧٢ .

(٨) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ٧٤ .

المدهونة»[١]، التى روعى فيها أن تكون مشابهة لأسقف المسجد النبوى فى عهد الوليد ، والتى كانت مؤلفة من سقفين[٢].

ولقد بقيت زخارف مقدم المسجد ونقوشه الكتابية التى تخلو من اسم الوليد ابن عبد الملك على حالها فى عمارة المهدى للمسجد النبوى سنة ١٦٠هـ، ولذلك فإن الوصف الذى أورده ابن عبد ربه لمقدم المسجد ، وما به من أنواع الرخام وأشرطة كتابية وزخرفية ، يعتبر فى الحقيقة وصفا لحالة المسجد فى عمارة الوليد[٣] بيد أن العداء السياسى امتد أيضا إلى بعض نقوش المسجد الكتابية بالتبديل والتغيير من أول خلافة بنى العباس ، إذ من النقوش ما أقحم فيه اسم السفاح والمنصور بدلا من اسم الوليد بن عبد الملك .

وكان المهدى يسوؤه جدا أن يرى بقية لاسم الوليد فى المسجد النبوى كما ذكر المقريزى[٤] ومن النقوش ما صرح بتاريخ عمارة المهدى ويقع فى الجزء الذى لم تمتد إليه هذه العمارة ، فقد ذكر ابن إسحاق الحربى أن على الباب الذى عند دار مروان (المعروف بباب السلام) من الداخل منقوش .

بسم الله الرحمن الرحيم ان الله وملائكته يصلون على النبى ، ...

أمر بعمل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله عبد الله أمير المؤمنين ، سنة ستين ومائة ، كرامة من الله ، أكرم بها خليفته ، وذخيرة أذخرها

---

(١) ابن المحجوب : قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٦٧ ب .

(٢) ذكر الأزرقى فى أخبار مكة ، جـ٢ ص ٩٧ صفة سقوف المسجد الحرام بعد عمارة المهدى له فقال : « وللمسجد الحرام سقفان أحدهما فوق الآخر ، فأما الأعلى منهما فسقف بالدوم اليمانى ، وأما الأسفل فسقف بالساج والسيلح الجيد وبين السقفين فرجة قدر ذراعين ونصف ، والسقف الساج مزخرف بالذهب ، مكتوب فى دوارات من خشب ، فيه قوارع القرآن وغير ذلك من الصلاة على النبى ﷺ والدعاء للمهدى » ولا شك أن سقوف المسجد النبوى كانت كذلك أيضًا . أما خشب السيلح المذكور فى نص الأزرقى فلم أجد من عرفه أو أشار إلى الموضع الذى ينمو فيه .

(٣) العقد الفريد ، جـ٧ ص ٢٥٢ .

(٤) انظر أعلاه الحاشية رقم ٢ من ص ١٣٩ .

له، من كان قبله ، ونافلة نفله إياها على من بعده ، فالحمد لله الذى ولى أمير المؤمنين بعد غيره ، وأكرمه بنصر ملته ونشر سننه وتطهيره ، وأعظم الله لأمير المؤمنين أجره وكثر حسناته[١] .

وعلى الرغم من أن هذا النص يسجل التاريخ الذى بدأت فيه عمارة المهدى وهو سنة ١٦٠هـ، إلا أنه لم يصرح باسم المهدى ، وإنما اكتفى بذكر عبد الله عبد الله أمير المؤمنين ، وهو اسم لم يتسم به كما يقول سوفاجيه إلا السفاح والمنصور[٢] . وعلى هذا فإن النص المذكور قد حرف على ما يبدو مرتين : مرة فى عهد السفاح أو المنصور ، وأخرى فى عهد المهدى ، وقد اكتفى فى هذه المرة بتغيير السنة فقط ، والإبقاء على عبد الله عبد الله الذى لا يمكن أن يكون المقصود به المهدى الذى يدعى محمد بن عبد الله ومما سهل التغيير ، كتابة النصوص بمكعبات الفسيفساء التى يمكن بسهولة نزع الاسم المراد استبداله بآخر مساوى له فى الحجم[٣] ومن المهم ونحن نتحدث عن نقوش المسجد وزخرفته أن نذكر ما كان فى المسجد من نصوص كتابية نقلها لنا بعض المؤرخين القدامى . بيد أنه يلاحظ أن السمهودى الذى يعتبر فى الحقيقة مؤرخ المدينة حسًا ومعنى ، كما يقول السخاوى[٤] قد أهمل نقلها لأنها أزيلت من المسجد فى عهده بسبب الحريق الأول سنة ٦٥٤هـ، فلم ير ضرورة لنقلها[٥]، ويرجع بعض هذه النصوص إلى الوليد بن عبد الملك مع بعض تغيير وتبديل فى اسمه وهى كما يلى :

أ ـ نقوش صحن المسجد :

تحتل الكتابات التى حول الصحن على ما ذكره ابن رستة الجزء الضيق الذى

---

(١) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٩٤ .

(٢) المسجد الأموى فى المدينة ، ص ٥٨ .

(٣) سوفاجيه ، نفس المرجع ، ص ٦٥ .

(٤) التحفة اللطيفة ، جـ١ ص ٢١ .

(٥) وفاء الوفا ،جـ٢ ص ٥٢٣ .

ينحصر فوق الطاقات ودون الشرفات[١]. ويبدو من ضيق المساحة التى تشغلها وكثرة هذه النصوص أنها كانت على شكل أشرطة كتابية تدور حول صحن المسجد[٢]، وقد رأى سوفاجيه أنها خمسة نصوص رمز إليها بالحروف أ ، ب ، جـ ، د ، هـ شكل (٤٨) . ويذكر أن النص الذى يحتل واجهة الصحن الشرقى قد رمز إليه بحرف أ ، هو نص أموى محرف[٣] وقد أورده ابن إسحاق الحربى نقلا عن يحيى بن حسين كما ذكرت من قبل[٤].

ويلى هذا النص فى الجدار الشرقى للصحن نقش للمهدى بتاريخ سنة ١٦٢هـ رمز إليه سوفاجيه بحرف (ب) ونصه كما أورده ابن إسحاق الحربى كما يلى :

« أمر عبد الله المهدى أمير المؤمنين أكرمه الله وأعز نصره بالزيادة فى مسجد رسول الله ﷺ وإحكام عمله ، ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ، فأحسن الله ثوابه بأحسن الثواب ، والتوسعة لمن صلى فيه[٥] أهله وأبنائه من جميع المسلمين فأعظم الله أجر أمير المؤمنين فيما نوى من حسن نية فى ذلك وأحسن ثوابه[٦].

ويلى هذا النص بالقرب من مؤخر المسجد نص متأخر عن عمارة المهدى يعود إلى أيام المعتضد بالله العباسى ، وقد رمز إليه سوفاجيه بحرف (جـ) ونصه :

---

(١) الأعلاق النفيسة ، ص ٧٣ .

(٢) ذكر إبراهيم جمعة فى تطور الكتابات الكوفية ، ص ٧٧ ، أنواع الخط التذكارى فقال : أنها تشمل أولا : النقوش الكبيرة على العمائر ، وهى أفاريز خطية أو أشرطة تحلى الحيطان أو بواطن العقود ، أو رقاب القباب ، أو تدور حول المحاريب والمشاهد وأبدان المآذن ، محفورة فى مواد صلبة أهمها الحجر والجص والخشب وغالبها آيات قرآنية وعبارات دعائية أو تأسيسية . ثانياً : النقوش التأسيسية التى تؤرخ لاقامة أثر أو تشير إلى تجديده . وكلها عادة منقورة فى الحجر أو الرخام ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الكتابات ظلت حتى أواخر العصر الأيوبى تكتب بالخط الكوفى ....

(٣) سوفاجيه المسجد الأموى فى المدينة ، ص ٦٢ - ٦٤ .

(٤) انظر نقوش المسجد النبوى فى عهد الوليد ص ١٣٨ وما بعدها .

(٥) يبدو أن هذا نقص بالنص يمكن أن يكون (من) .

(٦) كتاب المناسك ، ص ٣٨٧ ، وانظر ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ٧٣ وسوفاجيه : المسجد الأموى فى المدينة ص ٥٦ .

« أمر أبو العباس الإمام المعتضد بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بتجديد عمارته فى سنة ٢٨٢ هـ »[١].

وموضعه فى المسجد « يدعو إلى الاعتقاد بأنه حل مكان جزء من نقش أقدم بسبب أحد التجديدات »[٢].

وفى مؤخر المسجد على الجدار الذى يقابل مُقدمه نقش رمز إليه سوفاجيه بحرف (د) ، وهو يعتقد أنه يحتل كل الجدار الشمالى وجزءا من الجدار الغربى[٣]، ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم - ثم أم القرآن كلها ، ثم على أثرها - إنما يعمر مساجد الله - الآية بكاملها ، ثم ، وكان مبتدأ ما أمر به عبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أكرمه الله بالزيادة فى مسجد رسول الله ﷺ ، عمله فى سنة اثنتين وستين ومائة ، وفرغ منه سنة خمس وستين ومائة ، وأمير المؤمنين - أصلحه الله ، يحمد الله على ما أذن له ، وما اختصه به من عمارة مسجد رسول الله ﷺ ، وتوسعته ، حمدا كثيرا ونحمد الله رب العالمين على كل حال »[٤].

وعلى أثر هذا النص فى آخر الجدار الغربى مما يلى القبلة نص رمز إليه سوفاجيه بحرف (هـ) وذكر أن تاريخه يعود إلى سنة ١٦٢هـ معتمدا فى ذلك على ابن رستة . وقد ناقش الخلاف بين تاريخ النص الذى يوافق عمارة المهدى وبين اسم

---

(١) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ٧٤ ، سوفاجيه : المرجع السابق ص ٥٧ .

(٢) سوفاجيه : نفس المرجع ، ص ٥٨ ، ويذكر فى نفس الصفحة « أن ابن النجار . الذى نقل هو أيضًا نقوش الصحن كما قرأها على الجدار ». أهمل هذه الوثيقة التى باسم المعتضد ، وبما أن هذا النص يقطع التتابع المنطقى للنصوص ، فإنه يظن أنه لم يتبع (ب) مباشرة على البناء وإنما فوق النص أو تحته على نفس الجدار الذى يسجل إعادة بنائه والذى جعله ابن رستة بين (ب) ، (د) .

(٣) انظر خارطة توزيع النقوش على جدار الصحن ، شكل (٤٨) .

(٤) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٨٨ ، ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ٧٤ ، سوفاجيه : المسجد الأموى فى المدينة ، ص ٥٨ .

عبد الله ، عبد الله أمير المؤمنين الذى أورده ابن رسته ، والذى « لا يمكن بأية حال أن يختلط باسم المهدى »[١]. على أن صحة التاريخ الذى أخطأ فى نقله ابن رستة هو سنة ١٣٢هـ كما أورده ابن إسحاق الحربى إذ يقول « ثم إلى جنب هذا الكتاب كتاب كتب فى ولاية أبى العباس ، وصل هذا الكتاب إليه[٢] ، وهو :

« أمر عبد الله ، عبد الله أمير المؤمنين بزينة هذا المسجد وترتيبه وتوسعة مسجد رسول الله ﷺ سنة اثنتين وثلاثين ومائة ابتغاء رضوان الله وثواب الله ، وأن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة . وكان الله سميعا بصيرا »[٣].

وبهذا النص تكون نقوش الصحن قد اتضحت وتحددت أماكنها .

ب - نقوش مقدم المسجد :

بقيت نقوش جدار القبلة على حالها الأول تحلى جدار القبلة من حذاء يمين الداخل إلى المسجد من الباب الذى يلى دار مروان حتى ينتهى إلى باب على[٤] وكانت تبدأ :

« بأم القرآن حتى ختمها ، والشمس وضحاها إلى خاتمة قل أعوذ برب الناس»[٥].

وقد خلا هذا الجدار من الكتابات التذكارية الأموية ، فترك بنو العباس النقوش القرآنية على حالها .

---

(١) سوفاجيه : نفس المرجع ص ٥٨ .
(٢) يقصد أن آخر النقش المذكور قد اتصل بأول النقش الأول الذى يعود إلى السفاح .
(٣) كتاب المناسك لابن اسحاق ، ص ٣٨٨ ، وانظر ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ٧٤ ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٣٦ .
(٤) ، (٥) ابن إسحاق : المصدر السابق ، ص ٣٨٥ ، وانظر رسالة فى وصف مكة والمدينة وبيت المقدس ، لمجهول من القرن الرابع الهجرى ، ص ٢٥١ . وانظر أيضًا كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، لمجهول من القرن السادس الهجرى ، ص ٤٠ .

جـ - نقوش الجدار الشرقى من المسجد :

كانت تحلى هذا الجدار النقوش من أوله مما يلى الحجرة الشريفة ، ولا غنى عن الاعتماد فيها على ابن إسحاق الحربى ، وابن رستة . فقد ذكر ابن إسحاق الحربى أول هذه النصوص إذ يقول ، : « وفى الزواية الشرقية فى جوف المسجد مكتوب :

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إن عبدك وخليفتك عبد الله بن أمير المؤمنين يحمدك على ما أذنت له فى عمارة هذا المسجد وتزيينه ، أمر عبد الله ، عبد الله أمير المؤمنين بزينة هذا المسجد وتزيينه ، وتوسعة مسجد رسول الله ﷺ سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، ابتغاء رضوان الله وثوابه ، وكرامة الله فإن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعا بصيرا ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، تبارك الله تعالى ، ثم تبارك الله وتعالى عما يقول الكافرون علوا كبيرا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم »[١].

وبين باب النبى وباب عثمان نقش يعود إلى هارون الرشيد الذى أصلح المسجد عند ميله من هذه الناحية فى ولاية محمد بن عبد الله بن سليمان الربعى للمدينة سنة ١٧٣هـ[٢]، وهو « مكتوب فى صفحة الجدار بالفسيفساء » ونصه :

« مما أمر به عبد الله ، عبد الله هارون أمير المؤمنين أطال الله بقاه على يدى إبراهيم بن محمد أصلحه الله ، عمل أهل بيت المقدس »[٣].

وعلى يسار طاقة باب النبى ﷺ :

---

(١) ابن إسحاق : كتاب المناسك ، ص ٣٨٩ . وهذا النص مما لم يطلع عليه سوفاجيه ، ذلك لأن ابن إسحاق الذى انفرد بذكره ، ليس من مصادره . ويبدو أنه نص أموى محرف . لأن التاريخ الذى يشيد به النص وهو سنة ١٣٣هـ يقع فى خلافة السفاح الذى لم يتعرض - بناءً على ما اطلعت عليه من مصادر لعمارة المسجد النبوى بأى حال من الأحوال .

(٢) ابن إسحاق : المصدر السابق ص ٣٧٢ ، السمهودى : وفاء الوفا ص ٦٨٤ .

(٣) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٨٩ ، وانظر ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ٧٤ .

« هذا ما انتهى[١] عمل أهل بيت المقدس »[٢].

« وفى القبلة من خارج ، فى موضع الجنائز ، حيث يصلى على الموتى عند باب على بن أبى طالب رضى الله عنه » منقوش :

« بسم الله الرحمن الرحيم ان الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ، اللهم صلى على محمد صلى الله عليه ورحمة الله وبركاته »[٣].

وعن يمين باب عثمان منقوش :

« عمل أهل حمص »[٤].

« وعن يساره منقوش أيضا :

« عمل أهل حمص »[٥].

وعلى باب عثمان من الخارج منقوش :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لقد جاءكم رسول من أنفسكم - إلى آخر السورة »[٦].

وعلى الباب المستقبل لباب دار ريطة[٧] ، من الداخل منقوش :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم - إلى - سميع عليم »[٨].

وعلى الباب المستقبل لباب دار ريطة[٩] ، من الخارج منقوش : « بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله - الآية » . وعلى الباب المستقبل باب أسماء بنت الحسن من الداخل منقوش :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، يا أيها الناس اتقوا ربكم ، واخشوا يوما - إلى آخر السورة »[١٠].

---

(١) يبدو أن هنا نقص لعله (إليه) .

(٢) ابن إسحاق : المصدر السابق ، ص ٣٩٠ .

(٣) ، (٤) ، (٥) ، (٦) ابن إسحاق : المصدر السابق ص ٣٩٠ .

(٧) هى ريطة بنت أبى العباس السفاح ، انظر السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٩١ .

(٨) ، (٩) ، (١٠) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٩٠ .

وعليه من الخارج منقوش :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا »[١] .

وعلى الباب المقابل لدار خالد بن الوليد[٢] من الداخل منقوش :

« بسم الله الرحمن الرحيم . والهكم إله واحد ـ الآيتان »[٣] .

وعلى أثرها :

« وإذا سألك عبادى عنى ، الآية »[٤] .

وعليه من خارج منقوش :

« وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . الآية »[٥] .

وفى حاف الباب منقوش من الداخل :

« اللهم صلى على محمد النبى صلى الله عليه ، مما أمر به المهدى محمد أمير المؤمنين مما عمل البصريون سنة اثنتين وستين ومائة[٦] .

ومنقوش أيضا :

« مبتدى زيادة المهدى فى المسجد »[٧] .

وعلى الباب المستقبل زقاق المناصع من الداخل منقوش :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض ـ الآيتان »[٨] .

وعليه من خارج : منقوش :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ألهاكم التكاثر ـ إلى آخر السورة »[٩] .

---

(١) نفس المصدر ص ٣٩١ .

(٢) ، (٣) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٧٣٠ .

(٤) ، (٥) ، (٦) ابن إسحاق : المصدر السابق ص ٣٩١ .

(٧) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٩١ ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٨٤ .

(٨) ، (٩) ابن إسحاق : المصدر السابق ، ص ٣٩١ .

وعلى الباب مما يلى الصوافى من الداخل منقوش :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أول آل عمران إلى قوله : كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم اللهم صلى على محمد عبدك ونبيك » [١].

وعليه من الخارج منقوش :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات والأرض ـ الآيتان »[٢].

د ـ نقوش جدار مؤخر المسجد :

كان على هذا الجدار نقوش عديدة غالبها آيات قرآنية كريمة ، وأولها ما كان على الباب الأول مما يلى المشرق من الداخل .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ـ إلى آخر السورة »[٣] .

ومن خارج الباب منقوش :

« الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة ـ الآية ـ اللهم صلى على محمد عبدك ورسولك ، إمام المتقين وخاتم النبيين »[٤].

وفى الباب الثانى مكتوب عليه من الداخل :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، فى بيوت أذن الله أن ترفع ، إلى منتهى ثلاث آيات »[٥].

وعليه من خارج :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم صلى على محمد عبدك ورسولك وأجزه

---

(١) ابن إسحاق : المصدر السابق ، ص ٣٩١ .

(٢) ، (٣) نفس المصدر ص ٣٩١ .

(٤) ابن إسحاق : كتاب المناسك ، ص ٣٩١ .

(٥) ابن إسحاق : نفس المصدر ص ٣٩٢ .

خير ما تجزى النبيين ، وأفضل ما تعطى المرسلين ، أمر بعمارة هذا المسجد وأن يبنيه ويوسعه عبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين »[١].

وفى الباب الثالث من الداخل منقوش :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، قد أفلح المؤمنون ـ إلى ـ هم الوارثون »[٢].

وعليه من خارج :

« لا إله إلا هو الحى الذى لا يموت وسبحان الله وتعالى عما يشركون علوا كبيرا ، هو الذى لم يتخذ ولدا وهو العلى الكبير »[٣]

وفى الباب الرابع من الداخل :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون ـ إلى ـ وتعالى عما يشركون »[٤].

وعليه من الخارج :

« الله العزيز الحكيم ، أذن بنعمته وفضله لعبد الله وخليفته المهدى محمد أمير المؤمنين ، بالزيادة فى مسجد رسول الله ﷺ ، وتوسيعه وتزيينه ، فأعظم الله أجره وأتم عليه نعمته ، وهناه كرامته وأعز نصره »[٥].

هـ ـ نقوش الجدار الغربى من المسجد :

كانت تحلى هذا الجدار من الداخل نقوش عدة ، وأولها ما كان على الباب الأول مما يلى مؤخر المسجد وعليه من الداخل :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إن فى خلق السموات والأرض ـ إلى ـ لا يخلف الميعاد »[٦].

وفى نجاف الباب من داخل المسجد :

---

(١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ابن إسحاق : نفس المصدر ص ٣٩٢ .

(٥) ، (٦) ابن إسحاق : كتاب المناسك ، ص ٣٩٢ .

« اللهم صل على محمد عبدك ورسولك ، مما أمر به عبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين ، عمل أهل البصرة »[١].

وعليه من الخارج :

« القارعة إلى آخرها »[٢].

وعلى الباب الثانى الذى يستقبل دار منيرة[٣] منقوش :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، محمد رسول الله ـ إلى خاتمة السورة »[٤].

وعليه من خارج الجدار :

« يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم »[٥].

وعلى الباب الثالث الذى يستقبل دار نصير صاحب الموصل من الداخل :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، قال : كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ـ إلى خاتمة السورة ـ اللهم صل على محمد عبدك ونبيك »[٦].

وعليه من الخارج :

« الحمد لله الذى صدقنا وعده ـ الآيتان »[٧].

وعلى الباب الرابع من أبواب هذا الجانب الذى يستقبل دار جعفر بن يحيى من داخل المسجد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ـ الآية ـ اللهم صل على محمد عبدك ورسولك أفضل ما صليت على أحد من أنبيائك ورسلك ، اللهم أبعثه المقام المحمود الذى وعدته يغبطه عليه الأولون والآخرون ، كما بلغ رسالاتك ، ونصح لعبادك ، وتلا آياتك »[٨].

---

(١) ، (٢) ابن إسحاق : كتاب المناسك ، ص ٣٩٢ .

(٣) قال السمهودى فى الوفا ، جـ٢ ص ٧٢٦ أنها منيرة مولاة أم موسى .

(٤) ابن إسحاق : المصدر السابق ، ص ٣٩٣ .

(٥) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٩٣ ، بيد أن هذا جزء من الآية رقم ٥٣ من سورة الزمر ويبدو أنها كانت مكتوبة كلها نظرا لما ذكر من أنها منقوشة فوق الباب من الخارج ونصها « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » .

(٦) ، (٧) ، (٨) ابن إسحاق : المصدر السابق ، ص ٣٩٣ .

وفى أسفل الطاق[١] منقوش :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إن ربكم الذى ـ إلى ـ رب العالمين صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته »[٢].

وعليه من الخارج :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، ألم نشرح لك صدرك إلى آخرها »[٣].

وعلى باب عاتكة من الداخل :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، آمن الرسول ـ إلى خاتمة السورة »[٤].

وعلى الطاق الذى على باب عاتكة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لقد جاءكم رسول من أنفسكم ـ الآيتان ـ وقل هو الله أحد إلى آخرها ـ وصلى الله على محمد النبى ، وعليه السلام ورحمة الله وبركاته »[٥].

وعليه من خارج :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ـ الآية ـ أمر عبد الله ، عبد الله ، أمير المؤمنين بعمل هذا المسجد »[٦].

وفوق باب زياد فى لوح من ساج مثبت بمسامير نقش من خارج المسجد وداخله ، سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن عمارة المسجد النبوى فى أوائل الدولة العباسية[٧].

---

(١) عن الطاق ، انظر أدناه ص ٥٢ الحاشية رقم ٣ .

(٢) ، (٣) ، (٤) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٩٣ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٩٤ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٣٩٤ ، بما أن هذا النقش على الأجزاء التى لم تمتد إليها عمارة المهدى فإن الظن يذهب إلى أنه أموى محرف ، استبدل فيه اسم الوليد ، باسم عبد الله الذى يمكن أن يكون المقصود به المنصور لأنه اهتم بعمارة رحبة القضاء وفتح لها باب من هذا الجانب .

(٧) انظر ص ١٤٦ .

أما خوخة الصديق رضى الله عنه ، فليس عليها « كتاب لا من داخل ولا من خارج »(١) . أما الباب الذى عند دار مروان فعليه من الداخل :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ، اللهم صل على محمد النبى وسلم عليه ، وبيض وجهه ، وأعل درجته ، وشرف بنيانه ، وأكرم نزله ، وأجزه خير ما جزيت نبيا عن أمته ، فإنه قد بلغ رسالاتك ، وجاهد على أمرك حتى عز دينك ، وظهر سلطانك وتمت كلمتك ، واستحل حلالك ، وحرم حرامك وأمر بعدلك وحدك لا شريك لك ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته ، أمر بعمل مسجد رسول الله صلى الله عليه عبد الله ، عبد الله أمير المؤمنين ، سنة ستين ومائة ، كرامة من الله، أكرم بها خليفته وذخيرة اذخرها له ، من كان قبله ، ونافلة نفله إياها على من بعده ، فالحمد لله الذى ولى أمير المؤمنين بعد غيره ، وأكرمه بنصر ملته ونشر سننه، وتطهيره وأعظم الله لأمير المؤمنين أجره وكثر حسناته »(٢) .

وعلى الباب نفسه من خارج المسجد :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ـ الآية ـ اللهم اغفر لأنبيائك وخلفاء المؤمنين حيهم وميتهم ، اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ، أنت وملائكتك والمؤمنون جميعا ، أمر عبد الله ، عبد الله أمير المؤمنين بعمل مسجد رسول الله ، وإصلاح ما أفسد منه ، وعمارته فى

(١) ابن إسحاق : كتاب المناسك : ص ٣٩٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٩٤ بما أن هذا النقش يقع على باب السلام من الداخل وهو ما لم تمتد إليه عمارة المهدى فإن الشكوك تحيط بنسبتها إلى المهدى العباسى . ويزيد من قوة هذا الاحتمال أن ما ورد فى النص المؤرخ بستين ومائة ، مخالف لما ذكر من النص الذى أورده ابن إسحاق فى كتاب المناسك ، ص ٣٨٨ ، والذى يصرح ببدء عمارة المهدى سنة ١٦٢هـ وانتهت سنة ١٦٥هـ . وبما أن الموضع الذى يحتله رقم السنة التى عمر فيها المسجد النبوى فى عهد الوليد ، وهو ما بين ٨٨ أو ٩١ من الهجرة ، لا يسمح بحلول الرقم الذى بدئ فيه بعمارة المهدى وهو سنة ١٦٢هـ ، فقد اكتفى بوضع سنة ١٦٠هـ كما أنه استبدل اسم الوليد بوضع عبد الله مكانه مما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا النص قد حرف فى العصر العباسى مرتين .

سنة اثنتين وخمسين ومائة »[١].

هذا عن أهم نقوش المسجد النبوى التى اعتمدت فى نقلها على كتاب المناسك لابن إسحاق الحربى ، وبعضها يعود إلى السفاح ومن بعده المنصور ثم المهدى والرشيد والمعتضد العباسى ، وذلك خلاف ما بقى من نقوش المسجد فى العصر الأموى . ويخلوا من اسم خليفة أو وال أموى وأغلب النقوش آيات قرآنية وعبارات دعائية .

* * *

(١) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٩٥ . ومما لا شك فيه أن هذا النص أموى محرف لأن أبا جعفر المنصور الذى يقع تاريخ النص المحرف فى عهده ، لم يعمر إلا رحبة القضاء وباب زياد ، انظر أعلاه ص ١٤٦ .

٥ - المسجد فى أواخر الدولة العباسية

بقى المسجد النبوى الشريف محتفظا بعمارة المهدى له حتى نهاية الدولة العباسية ، ما عدا بعض ترميمات وتجديدات لم تغير من جوهر عمارته شيئا . وكان أول هذه الأعمال ما تم فى خلافة هارون الرشيد ، عندما مال بعض جدار «المسجد من ناحية المشرق مما يلى موضع الجنائز » [١] . فى ولاية محمد بن عبد الله بن سليمان الربعى للمدينة سنة ١٧٣هـ، فأمر به فبنى ، وقد دل على عمل هارون الرشيد نص كتابى بين باب النبى ﷺ ، وباب عثمان رضى الله عنه ، فى عرض الجدار ، منقوش بالفسيفساء من داخل ، وقد سبقت الإشارة إليه عند الحديث عن نقوش المسجد النبوى فى عمارة المهدى[٢] .

وربما كان لميل الجدار الشرقى فى هذه الناحية أثر على ما تكسر فيما بعد من خشب المسجد فى ولاية أبى البحترى وهب بن منبه للمدينة فى عهد هارون الرشيد سنة ١٩٣ هـ. وقد تمكن آنذاك أحد علماء المدينة المعروف بأبى غسان[٣] ، من معاينة الحظار[٤] ، الذى يحيط بالحجرة الشريفة « وذلك حين انكسر خشب سقف المسجد فكشف السقف من تلك الناحية لعمارته ، وأبو البحترى بن وهب بن رشيد يومئذ على المدينة ، وذلك فى جمادى الأول من سنة ثلاث وتسعين ومائة »[٥] .

---

(١) ابن إسحاق : كتاب المناسك ص ٣٧٢ ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٨٤ .

(٢) انظر أعلاه ص ١٦٥ .

(٣) قال حمد الجاسر فى مقدمته للجزء المحقق من المغانم المطابة ، أن عمر بن شبه النميرى (١٧١ - ٢١٢هـ) قد استقى جل معلوماته من عالم مدنى مشهور هو أبو غسان محمد بن أحمد بن يحيى الكنانى . انظر ص (ز) .

(٤) قال ابن منظور فى لسان العرب جـ٤ ص ٢٠٣ ، الحظار كل ما حال بينك وبين الشىء وكل شىء حجز بين شيئين فهو حظار . ويقصد به هنا الفراغ الذى يقع بين جدران الحجرة وحائز عمر بن عبد العزيز .

(٥) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٦٠ ، وذكر ابن إسحاق الحربى فى كتاب المناسك ص ٣٨٤ نقلا عن يحيى بن حسين « أن عدد الخشب التالف الذى وجد بسقف المسجد سبعون خشبة » وتبعه فى ذلك ابن النجار فى الدرة الثمينة ص ١٠٥ ، ولكنه زاد عدد الخشب التالف ثلاثا . وذكر ابن إسحاق الحربى فى المصدر أن ذلك كان فوق المنبر وما يليه .

وأعيد السقف على ما كان عليه بعد إصلاح ما فسد منه . وفى ولاية أبى البحترى أيضا حجز ماء الصحن بحجارة مربعة مما يلى القبلة[١]، فمنع ماء الصحن ومنع حصباء القبلة أن يصل إلى الصحن »[٢]. وكان عمل أبى البحترى هذا سببا فى ارتفاع أرض المسقف القبلى فيما بعد ، مما أدى إلى خفض مصلى النبى ﷺ ، وكذلك موضع المنبر [٣] وقد دعا ذلك إلى إستحداث بالوعات عديدة فى صحن المسجد لتصريف مياه الصحن إلى خارج المسجد ، عدها ابن زبالة ويحيى أربعة وستين بالوعة[٤]، وأدرك السمهودى بالوعة واحدة لها فوهتان غير أنه يعتقد أن هذه البالوعة مما أحدث فى عمارة المسجد الشريف بعد الحريق الأول .

وبدأ عهد المأمون بثورة للعلويين ، قادها محمد بن جعفر الصادق سنة ٢٠٠هـ[٥]، وتعرضت بعض نقوش المسجد من جراء هذه الثورة لبعض التغيير والتبديل . فقد أورد ابن إسحاق الحربى نقلا عن يحيى بن حسين الطالبى نصا جاء فيه أنه لما « قام آل أبى طالب فى سنة مائتين ، وكان فى آخر أمرهم حكوا اسم المهدى من المسجد ، وقلعوا الفسيفساء الذى كان مكتوبا فيه[٦]، اسم محمد بن جعفر بن محمد حين دعا إلى نفسه ، فأقام ثلاثة أيام مكتوبا ، ثم قدم

---

(١) ابن إسحاق : المصدر السابق ص ٣٨٤ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ص ١٠٥ ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٧٦ - ٦٧٧ .

(٢) ابن النجار : المصدر السابق ص١٠٥ ، ويقصد بماء الصحن المذكور ماء المطر الذى يتجمع فى صحن المسجد .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٧ ص ٢٥٢ ، ابن جبير فى رحلته ، ص ١٧٠ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٧٦ . كان سبب خفض مصلى النبى عليه السلام وكذلك المنبر الشريف، هو أن هناك من يرى أنه لا يجوز تغيير موضع مصلى النبى عليه السلام أو وضع الخشب عليها حتى تستوى بأرض المسجد فعارضه أهل المدينة وأدى الأمر إلى عزله عن القضاء . انظر أدناه ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .

(٤) ابن إسحاق : المصدر السابق ص ٣٨٤ ، ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ٧٥ ، السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٧٧ .

(٥) انظر ترجمته عند السخاوى : التحفة اللطيفة ، جـ٣ ص ٥٥٣ .

(٦) يبدو من سياق المعنى أن هناك نقص صحته « وقلعوا الفسيفساء الذى كان مكتوبا فيه اسم المهدى ، ووضعوا مكانه اسم محمد بن جعفر ... » .

المسودة[١] المدينة فحكوا ذلك الكتاب من ساعته»[٢] وذكر ابن قتيبة أن المأمون زاد في المسجد زيادة كثيرة ووسعه وذكر أنه قرأ على موضع زيادة المأمون النص التالي :

« أمر عبد الله ، عبد الله بعمارة مسجد رسول الله سنة اثنين ومائتين طلب ثواب الله وطلب جزاء الله وطلب كرامة الله فإن الله عنده ثواب الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعا بصيرا »[٣].

ونقل عنه ذلك كل من ياقوت الحموي[٤] والمراغي[٤]، والسهيلي[٤]، ولكن رزين ينكر كما يقول السمهودي أن يكون للمأمون أي عمل في المسجد النبوي[٥]، وكذلك ابن المحجوب الذي قال : « وذكر السهيلي أن المأمون زاد في هذا المسجد المبارك في عام اثنين ومائتين ، وقد أنكر حذاق العلماء هذا النقل ووهموا السهيلي فيه لاتفاق أوائلهم على أنه لم يزل على ما تركه عليه المهدي»[٦].

ويذكر السمهودي أنه لم ير « في كلام أحد من مؤرخي المدينة أن المسجد الشريف زيد فيه بعد المهدي »[٧] على أن سوفاجيه استطاع من خلال دراسته لنقوش صحن المسجد التي أوردها ابن رستة وابن النجار وغيرهما أن يبين الخطأ الذي وقع فيه ابن قتيبة وذلك بدراسته للنص الذي أورده ومقارنته بما ذكره غيره من المؤرخين . وقد خلص من ذلك إلى القول أن « أبا قتيبة وجد نفسه ، كما نجد أنفسنا نحن ، أمام نقش لا يبرز فيه اسم ولا تاريخ ، ونسي أن اسم عبد الله يمكن

---

(١) نسبة إلى السواد الذي اتخذه العباسيون شعار لهم .

(٢) كتاب المناسك ص ٣٧٢ .

(٣) كتاب المعارف ، ص ٢٤٥ ، وقد أعقبه بالنص الذي قال عنه سوفاجيه أنه أموي محرف ، انظر نصه في ص ١٣٦ من الرسالة ، الحاشية رقم ٥ .

(٤) معجم البلدان ، جـ٥ ص ٨٧ ، تحقيق النصرة ، ص ٥٤ ، ووفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٤٠ .

(٥) السمهودي : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٤٠ .

(٦) قرة العين في أوصاف الحرمين ، ورقة ٧٣ أ .

(٧) المصدر السابق جـ٢ ص ٥٤٠ .

أن يعنى أول العباسيين (المعروف أكثر بكنيته أبى العباس وبلقبه السفاح) ، فعمد ببساطة إلى تصحيح الرقمين الأولين من التاريخ ليجعله فى مدة حكم الخليفة المسمى عبد الله المعروف له ، وهو المأمون . وقد فاته أنه ما من مصدر تاريخى ينسب إليه أعمالا قام بها فى مسجد المدينة »[١].

وفى خلافة المتوكل على الله العباسى ٢٣٢ ـ ٢٤٧ هـ تم تأزير وفرش الحجرة الشريفة بالرخام على يد إسحاق بن سلمة[٢]. غير أن أعمال المتوكل لم تكن كما يبدو قاصرة على ترخيم الحجرة الشريفة ، فقد ذكر البلاذرى أنه أمر فى سنة ٢٤٦هـ « بمرمة مسجد المدينة فحمل إليه فسيفساء كثير وفرغ منه فى سنة ٢٤٧ هـ »[٣].

وذكر ابن رستة نقشا للمعتضد العباسى (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ) فى الجدار الشرقى للصحن سبق ذكر نصه عند الحديث عن نقوش صحن المسجد[٤]. وهذا النقش وأمثاله من النقوش المتأخرة كانت تنقش عادة فى الجزء الذى أعيد تجديده وترميمه . وفى خلافة المقتدر بالله العباسى (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) أمر سنة ٣١٠هـ بتركيب « أبواب الساج على مسجد رسول الله ﷺ »[٥]. ويبدو أن معظم أبواب المسجد ، التى يقول عنها ابن جبير أنها « لم يبق منها مفتوحا سوى أربعة »[٦]، قد سدت فى عهد هذا الخليفة أو قبله إذ لا يعقل أن يكون قد ركب أبواب الساج على الأبواب التى كانت فى عهد المهدى كلها .

وفى أوائل القرن الخامس توالت على المسجد الشريف عدة أحداث أحدثت به بعض الأضرار البسيطة ، ومنها ما ذكره ابن كثير فى سنة ٤٠٧هـ من سقوط

---

(١) المسجد الأموى فى المدينة ص ٦١ .

(٢) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ١٣٨ ، السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٥٧٣ .

(٣) فتوح البلدان ص ١٤ .

(٤) انظر أعلاه ص ص١٦٢ .

(٥) أبو عبيد البكرى : جزيرة العرب ، ص ٨٦ .

(٦) رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٢ .

«جدار بين يدى قبر الرسول ﷺ بالمدينة»[١]. بيد أنه لا تعرف الصفة التى أعيد عليها بناء هذا الجدار، كما لا يعرف اسم من قام على بنائه، ولكن مثل هذه الأعمال البسيطة كانت مما يقوم به شاد[٢] عمائر الحرمين الذى كان يبعث به الخليفة العباسى كل عام[٣] وقد كثرت فى أواخر الدولة العباسية الترميمات البسيطة التى كان يقوم بها الشادى، ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزى أنه فى سنة ٤٦٠هـ «وفى جمادى الأولى كانت زلزلة بأرض فلسطين، أهلكت بلد الرملة، وهدمت شرافتين[٤] من مسجد رسول الله ﷺ»[٥] وفى سنة ٥١٥ هـ حدث أيضا «زلزلة عظيمة بالحجاز فتضعضع بسببها الركن اليمانى، وتهدم بعضه وتهدم شىء من مسجد رسول الله ﷺ» بيد أن ما تهدم من المسجد غير معروف على وجه التحديد، كما لا يعرف مقدار ما أصابه من الأضرار ولا الصفة التى بنى عليها، غير أن هذه الأعمال البسيطة هى مما اهتم بإصلاحه بعض الخلفاء العباسيين كما يذكر ابن النجار[٦].

وفى سنة ٥٤٨هـ من خلافة المقتفى (٥٣٠ ـ ٥٥٥هـ) إحتاج رخام الحجرة الشريفة إلى التجديد، فقام به «جمال الدين وزير بنى زنكى، وجعل رخام حولها قامة وبسطة»[٧] وكان ذلك كما يصفه ابن جبير برخام «بديع نحت رائع النعت»، ثم يقول بعد ذلك: «وينتهى الأزار منها إلى نحو الثلث أو أقل يسيرا وعليه من الجدار المكرم ثلث آخر، قد علاه تمضيخ المسك والطيب

(١) البداية والنهاية، جـ١٢ ص ٥ .

(٢) الشاد هو اسم وظيفة كانت تسند إلى أحد العارفين بالبناء والهندسة للإشراف عليها ومراقبة سير العمل منها . انظر حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف، جـ٢ ص ٦١٦ .

(٣) ابن النجار: الدرة الثمينة، ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٤) وردت عند ابن الجوزى شرافتين ونقل عنه ابن كثير شراريف .

(٥) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، جـ٨ ص ٢٤٨، وابن كثير: الكامل فى التاريخ، جـ١٢، ص ٩٦ . وإنى أشك فى أن المقصود بذلك هو مسجد المدينة ولعل ذلك يعنى المسجد الأقصى بالقدس .

(٦) المصدر السابق، ص ١٠٩، ١١٠، ١٤٢ .

(٧) السمهودى: وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٧٣ .

بمقدار نصف شبر مسودا مشققا [١] ، متراكما مع طول الأزمنة والأيام »[٢] ثم جعل لها شباكا من خشب الصندل والأبنوس وأحاطها[٣] بالحجرة الشريفة مما يلى السقف فوق حائز عمر بن عبد العزيز وقيل « أن أبا الغنائم النجار البغدادى عمله اروانكا[٤] وفى دورانه مكتوب على اقطاع الخشب الأروانك سورة الإخلاص فى صنعة بديعة»[٥] .

وتعاقبت على الحجرة الشريفة فى أواخر الدولة العباسية أحداث عدة ، أهمها ما وقع فى سنة ٥٤٨ هـ حين أمر أحد الشيوخ المجاورين بالمدينة ويدعى عمر النساى بالنزول « إلى الحظير الذى بناه عمر بن عبد العزيز ودخل منه إلى الحجرة ، ومعه شمعة يستضيء بها ، فرأى شيئا من طين السقف قد وقع على القبور فأزاله »[٦] وفى شهر ربيع الآخر من سنة أربع وخمسين وخمسمائة نزل « أحد خدام الحجرة الشريفة ومعه الصفى الموصلى متولى عمارة المسجد[٧] ، ونزل معهما هارون الشادى بعد أن سأل الأمير فى ذلك[٨] ، وبذل له جملة من المال »[٩] ، للبحث عن مصدر

---

(١) يقصد بذلك أن الطيب المدهون به جدران الحجرة قد تشقق من كثرته .

(٢) رحلة ابن جبير ، ص ١٦٩ .

(٣) صوابها واحاطه كما يقتضى سياق المعنى .

(٤) بحثت عن هذه الكلمة فى القواميس العربية فلم أجد لها معنى وكذلك فى المعجم المضاف على القواميس العربية لدوزى . وكذلك فى الألفاظ الفارسية المعربة لأدى شير الكلدانى ويبدو أنه اصطلاح فنى لبعض أنواع الخشب المخروط .

(٥) ابن النجار : الدرة الثمينة ص ١٣٩ ، وانظر السبكى : تنزيل السكينة على قناديل المدينة جـ١ ص ٢٩٣ .

(٦) ابن النجار : المصدر السابق ص ١٤٢ ، وذكر الفاسى فى العقد الثمين جـ٦ ص ٢٩١ أن اسمه عمر بن الحسين النسوى وأنه وجد اسمه مكتوبا فى حجر قبره بالمعلاه ، وأنه توفى فى المحرم سنة ٥٧١هـ .

(٧) يستدل مما ذكر ابن النجار عن الصفى الموصلى متولى عمارة المسجد النبوى أن اقامته فى مكة والمدينة كانت بصفة دائمة .

(٨) ذكر السخاوى فى التحفة اللطيفة جـ٣ ص ٤٠٤ ، أن أمير المدينة فى ذلك الوقت هو قاسم بن مهنا الحسينى .

(٩) ابن النجار : الدرة الثمينة ص ١٤٢ .

رائحة كريهة كانت تنبعث من الحجرة الشريفة . وقد تبين لهم أن مصدر هذه الرائحة هرة سقطت بين الحائز وبين الحجرة الشريفة ، فأخرجت وطيب مكانها . ونقل السمهودى عن الأقشهرى[١] أن بدرا الضعيف وهو أحد فتيان بنى العباس وأحد خدام المسجد أختير فى حدود سنة سبعين وخمسمائة للنزول إلى الحجرة الشريفة حين سمعت هدة داخلها فوجد جدار الحجرة الغربى قد سقط فأعاده بلبن من طين المسجد[٢] .

هذا عن أهم أحداث الحجرة الشريفة التى ثبت صحتها . أما ما ذكر عن قدوم نور الدين زنكى إلى المدينة بسبب رؤى رآها فإننى أرجئ الحديث عنها إلى الفصل الخاص بعمارة السلطان المملوكى ، الملك الناصر محمد بن قلاوون لوجود قصة فى زمنه مشابهة لهذه القصة .

أما صحن المسجد فقد أحدث به فى سنة ٥٧٦ هـ قبة كبيرة عمرها الناصر لدين الله العباسى (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ) . وقد شاهدها ابن جبير بعد عمارتها بأربعة أعوام عندما زار المدينة سنة ٥٨٠هـ، وقال عنها « أنها قبة كبيرة محدثة جديدة تعرف بقبة الزيت ، هى مخزن لجميع آلات[٣] المسجد المبارك وما يحتاج إليه فيه »[٤]، وقد سد الباب الرابع الواقع فى الجدار الشرقى إلى الشمال من باب النساء » وذلك عند تجديد الحايط الشرقى من المنارة الشرقية الشمالية إلى هذا الباب فى أيام الناصر لدين الله سنة تسع وثمانين وخمسمائة »[٥].

وكان العباسيون يولون المسجد النبوى اهتمامهم باستمرار ويقول ابن النجار :

---

(١) قال السخاوى : فى المصدر السابق ، جـ٣ ص ٤٦٠ أن اسمه محمد بن أحمد بن أمين الأقشهرى وقد توفى سنة ٧٣٩هـ وله كتاب أسماه « الروضة الفردوسية فى أسماء من دفن فى البقيع » .

(٢) وفاء الوفاء جـ٢ ص ٥٦٩ وما بعدها ، السخاوى : المصدر السابق جـ١ ص ٣٦٤ .

(٣) كالقناديل والزيوت وأنواع الطيب والمجامر والشموع وغير ذلك .

(٤) رحلة ابن جبير ، ص ١٧٢ وانظر المطرى : التعريف بما أنست الهجرى ص ٣٥ .

(٥) الفيروزبادى : المغانم المطابة ، ورقة ٨٣ أ .

« ولم تزل الخلفاء من بنى العباس ينفذون الأمراء على المدينة ويمدونهم بالأموال لتجديد ما يتهدم من المسجد . ولم يزل ذلك متصلا إلى أيام الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، فإنه ينفذ فى كل سنة من الذهب العين الأمامى ألف دينار لأجل عمارة المسجد وينفذ عدة من النجارين والبنائين والنقاشين والجصاصين والحراقين[١] ، والحدادين والدوجانة[٢] ، والحمالين ، ويكون مادتهم ما يأخذونه من الديوان من غير هذه الألف المذكورة . وينفذ من الحديد والرصاص والأصباغ والحبال والآلات شيئا كثيرا » .

وظلت العمارة متصلة فى المسجد ليلا ونهارا[٣]، على أنه ليس به أصبع إلا عامر وينفذ من القناديل والشيرج [٤]، والشمع عدة أحمال لأجل المسجد ، وينفذ من الند والغالية المركبة والعود لأجل تجمير المسجد شيئا كثيرا »[٥].

وهكذا بقى المسجد النبوى الشريف محتفظا بعمارة المهدى له مع مداومة الخلفاء بعده على الترميم والتجديد حتى حلت به كارثة الحريق الأول سنة ٦٥٤هـ.

* * *

(١) لعل المقصود بهم الذين يحرقون الجص والجير .

(٢) وردت فى النسخة المنشورة وفى آخر الجزء الثانى من شفاء الغرام للفاسى « الدوجارية » وقد حاولت أن أجد معنى لها فى القواميس المذكورة فى ص ١٩٢ الحاشية رقم ٤ فلم أوفق وقدسألت بعض العارفين باللغة الفارسية فذكروا أن دوز تعنى الخياطة فلعل الكلمة المذكورة تعنى العمال الذين يصنعون كسوة الحجرة الشريفة وكسوة المنبر وستائر الأبواب .

(٣) هذا يدل على أن ابن النجار أدرك فى المسجد بعض الترميمات والتجديدات إلا أنه لم يشر إليها .

(٤) هو نوع من الزيت ويسمى باللغة العامية (السيرج) . انظر نسخة الدرة الثمينة لابن النجار ، الملحقة بالجزء الثانى من شفاء الغرام للفاسى ، حاشية رقم ٢ من صفحة ٣٧٨ .

(٥) ابن النجار :الدرة الثمينة ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ . وانظر السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٤٧ .

الفصل الثانى

عمارة المسجد النبوى فى عهد المماليك البحرية

٦٤٨ - ٧٨٤ هـ

الفصل الثانى

عمارة المسجد النبوى فى عهد المماليك البحرية ٦٤٨ - ٧٧٨هـ

مقدمة : نار الحجاز وما قيل عن علاقتها بحريق المسجد النبوى الأول سنة ٦٥٤هـ :

تعرضت المدينة المنورة سنة ٦٥٤هـ لأحداث لم يسبق لها مثيل من قبل ، كان أولها وأعظمها خروج نار الحجاز التى أخبر عنها الرسول ﷺ بقوله : « لا تقوم الساعة حتى تظهر نار من أرض الحجاز تضىء أعناق الإبل ببصرى »[١]، وكان خروجها بوادى شظا[٢] شرقى المدينة[٣] بعد زلازل وهزات أرضية فى ثالث جمادى الآخرة سنة ٦٥٤هـ، « رجفت منها المدينة ، والحيطان والسقوف ، والأخشاب والأبواب ساعة بعد ساعة إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور ، ثم ظهرت نار عظيمة فى الحرة قريبا من قريضة »[٤].

(١) أبو شامة ، تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، ص ١٩٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٩١ ، انظر ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ١ القسم الأول ص ٢٩٨ .

(٣) قبل أن اسم الوادى « حُبس سيل » كما جاء فى الحديث الذى أورده : الطبرانى فقال أن عاصم بن عدى الأنصارى قال : سألنا رسول الله ﷺ حدثان ما قدم فقال : « أين حبس سيل ؟ » قلنا لا ندرى ، فمر بى رجل من بنى سليم فقلت : من أين جئت ؟ فقال : من حبس سيل : فدعوت بنعلى ، فانحدرت إلى رسول الله ﷺ ، فقلت يا رسول الله سألتنا عن حبس سيل فقلنا: لا علم لنا به ، وأنه مر بى هذا الرجل فسألته فزعم أن به أهله ، فسأله رسول الله ﷺ فقال : « أين أهلك ؟ » فقال : بحبس سيل ، فقال « أخرج أهلك منها فإنه يوشك أن تخرج منه نار تضىء أعناق الإبل ببصرى » .

انظر السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ١٤٠ .

وذكر ابن منظور فى لسان العرب جـ٦ ص ٤٥ أن حُبس سيل « هو فلوق فى الحرة يجتمع فيها ماء لو وردت عليه أمة لوسعهم . وحبس سيل اسم موضع بحرة بنى سليم بينها وبين السوارقية (قرية من قرى المدينة) مسيرة يوم .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

وكان منبعها من واد يقال له « أحيلين » [١] فى الحرة الشرقية ، وسارت من مخرجها إلى جهة الشمال مدة ثلاثة أشهر تدب دبيب النمل تأكل كل ما مرت عليه من جبل وحجر[٢] كعادة الحمم البركانية المنصهرة . وتصديقا لكلام الرسول ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى فقد رؤيت هذه النار من بصرى كما أخبر به «صفى الدين مدرس مدرسة بصرى أنه أخبره غير واحد من الأعراب صبيحة الليلة التى ظهرت فيها هذه النار ممن كان يحاضره ببلد بصرى أنهم رأوا صفحات أعناق إبلهم فى ضوء تلك النار »[٣]. وقال القطب القسطلانى وهو ممن أدرك نار الحجاز « إن جاء من أخبر برؤيتها ببصرى فلا كلام وإلا فيحتمل أن يكون ذكر ذلك فى الحديث على وجه المبالغة فى ظهورها ، وأنما بحيث ترى ، وقد جاء من أخبر أنه أبصرها بتيماء وبصرى منها مثل ما هى من المدينة فى البعد »[٤] وقال أيضا « أن ضوءها استوى على ما بطن من القيعان ، وظهر من القلاع ، حتى كأن الحرم النبوى عليه الشمس مشرقة ، وجملة أماكن المدينة بأنوارها محدقة ، ودام على

---

(١) بحثت عنه فى معجم البلدان للحموى فلم أجده وكذلك فى المغانم المطابة للفيروزبادى .

(٢) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٥٧ ، المراغى ، تحقيق النصرة ص ١٩٠ ، وقال المطرى فى نفس الصفحة « أخبرنى الشيخ صالح علم الدين سنجر العربى من عتقاء الأمير عز الدين منيف بن شيحة صاحب المدينة رحمه الله قال : أرسلنى مولاى الأمير المذكور بعد ظهور النار بأيام ومعى شخص من العرب يسمى حطيب بن سنان وقال لنا ونحن فارسان : أقربا من هذه النار فانظرا هل يقدر أحد على القرب منها ، فإن الناس هابوها لعظمها . فخرجت أنا وصاحبى إلى أن قربنا منها فلم نجد لها حرا فنزلت عن فرسى وسرت إلى أن وصل النصل (هى قطعة الحديد التى توضع فى رأس السهم) إليها فلم أجد لذلك ألما ولا حرا فحرق النصل ولم يحترق العود . فأدرت السهم فأدخلت فيها الريش فاحترق ولم يؤثر فى العود » ويظهر أنه اقترب مما خمد من الحمم لأن السمهودى نقل عن القطب القسطلانى المعاصر لها أن أمير المدينة أرسل أحد خواصه فوقف منها على قدر « غلوتين بالحجر ولم يستطع أن يجاوز موقفه من حرارة الأرض » انظر وفاء الوفاء ، جـ١ ص ١٤٦ .

(٣) السمهودى : نفس المصدر ، جـ١ ص ١٤٨ ، ابن إياس : بدائع الزهور جـ١ ، القسم الأول ، ص ٢٩٨ .

(٤) السمهودى : المصدر السابق ، جـ١ ص ١٤٨ ، ولكن تيماء أقرب إلى المدينة بكثير من بصرى التى تقع فى بلاد الشام .

ذلك لهبها حتى تأثر له النيران »[١]. وعلى هذا فقد كان لها شهرة كبيرة « وتواتر العلم بخروج هذه النار عند جميع أهل الشام »[٢] بل وصل خبرها إلى ولاة الأمر فيها[٣] عاشر شعبان من سنة ٦٥٤هـ ، أى بعد وقوعها بشهر وخمسة أيام[٤].

وليست هذه النار المخبر عنها سلفا من قبل الرسول عليه السلام ، إلا نوعا مما عرف حديثا بالبراكين الثائرة ، وكانت حممها المحترقة « كالفحم لونا وخفة »[٥]. ولم يكن هذا أول بركان فى الجزيرة العربية ، بل سبقه بركان عدن بعامين كما يقول سبط ابن الجوزى فى حوادث سنة ٦٥٢هـ من أن « نارا ظهرت فى أرض عدن فى بعض جبالها بحيث أنه يطير شررها إلى البحر فى الليل ، ويصعد منها دخان عظيم فى أثناء النهار فما شكوا أنها النار التى ذكر النبى ﷺ أنها تظهر فى آخر الزمان »[٦].

وكعادة البراكين فى الثوران من آن لآخر فقد عادت نار الحجاز إلى الظهور سنة ٦٩٢هـ كما نقله ابن كثير من تاريخ ظهير الدين الكازرونى من أن نارا ظهرت « بأرض المدينة النبوية فى هذه السنة نظير ما كان فى سنة أربع وخمسين على صفتها إلا أن هذه النار كان يعلوا لهيبها كثيرا ، وكانت تحرق الصخر ولا تحرق السعف ، واستمرت ثلاثة أيام »[٧].

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ١٤٧ ، وقال أبو شامة فى تراجم رجال القرنين السادس والسابع » ص ١٩٢ أنه بان عندهم « بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورهم على الحيطان وكنا حيارى من ذلك إلى أن جاءنا الخبر عن هذه النار » .

(٢) السمهودى : المصدر السابق ، جـ١ ص ١٤٣ .

(٣) كانت دمشق فى ذلك الوقت تحت حكم الناصر صلاح الدين يوسف ٦٤٨ ـ ٦٥٨هـ .

(٤) أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، ص١٩٠ ـ ١٩٢ . وابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ص ١٩٢ . الذى نقل عن ابن الساعى « أن وصول الخبر إلى دمشق فى يوم الجمعة ثامن عشر رجب » .

(٥) ابن كثير : المصدر السابق ، جـ١٣ ص ١٩٢ .

(٦) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ص ٧٩٠ ، وانظر ابن كثير ، المصدر السابق ، جـ١٣ ص ١٨٥ .

(٧) ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ١٣ ص ٣٣٦ ، ولم أجد تاريخ الكازرونى أبدا .

وقد عد الفيروزبادى ما شاهده ابن جبير سنة ٥٨٠ هـ في البحر الأبيض المتوسط المعروف قديما ببحر رومة من براكين[١]، « مما يناسب هذه الواقعة ويضاهيها »[٢] . وقد عزا على بن حسين السليمان السبب في حريق المسجد النبوى إلى نار سنة ٦٥٤ هـ . فقال : « وكان سبب الحريق الثورة البركانية فى أحد وديان المدينة تلقاء جبل أحد التى سببت زلازل هدمت كثيرا من الدور ونشبت النار فى الحرم النبوى »[٣]، معتمدا في ذلك على مخطوط قطب الدين قدس سره، الذى تبين لى بعد مراجعة نسخة معهد المخطوطات العربية المصورة من مكتبة رضا برامبور بالهند[٤]، أن ما ذكره المؤلف ليس فيه ما يشير إلى ما عزى إليه [٥] ونص كلامه « واحترق مسجد رسول الله ﷺ ليلة الجمعة أول شهر رمضان سنة إحدى وخمسين وستمائة بعد خروج نار الحرة الآتى ذكرها »[٦].

والحقيقة أنه ليس هناك من مأخذ فيما ذكر قطب الدين سوى تاريخ احتراق المسجد الذى جعله في عام أحد وخمسين وستمائة بدلا من أربعة وخمسين الذى يعتبر عاما مشهورا لا أظن قطب الدين يجهل ما وقع فيه ، فلعل الخطأ من الناسخ. وكان بين آخر ظهور لهذه النار وهو السابع والعشرين من رجب كما حدده أحد المعاصرين[٧]، وبين حريق المسجد النبوى فى أول يوم من شهر رمضان المبارك أكثر من شهر ولذلك فلا أظن أنه كان لها تأثير مباشر على حريق المسجد الشريف ، ولم

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٣٠١ .

(٢) المغانم المطابة ، ورقة ٩٤ ب ، وانظر السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ١٤٣ .

(٣) العلاقات الحجازية المصرية ص ١١٥ .

(٤) رقمها من مكتبة رضا برامبور بالهند ٣٦١٨ ، ورقم الفلم فى معهد المخطوطات ٣٠٣٣ .

(٥) تاريخ المدينة المنورة ، ورقة ١٢٥ ويبدو أن النسخة التى اعتمدعليها غير النسخة التى رجعت إليها لأنه ذكر رقمها بمعهد المخطوطات ٩٦٥ تاريخ . وقد عاد فذكر فى حاشية ص ١١٦ أن النار لم تسببها زلازل البركان بل أحد الخدام فى المسجد النبوى معتمدا على علي حافظ فى كتاب فصول من تاريخ المدينة المنورة ص ٢٩ .

(٦) قطب الدين قدس سره : تاريخ المدينة المنورة ، ورقة ١٢٥ .

(٧) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ١٤٥ .

يقل بذلك أحد من المؤرخين الذين أرخوا لهذا الحدث سوى ما ذكره على بن حسين السليمان عن إحدى المخطوطات التى يبدو أنه تسرب إليها الخطأ .

ويؤيد هذا ما اجتمعت عليه كتب التاريخ التى تعرضت لهذا الحادث من وقوف السيل المحرق من حمى البراكين عند وادى الشظاة المعروف حاليا بوادى قناة الذى « يبعد عن المدينة نحو ٤ كم شمالا »[١] ، مكونة بذلك سدا منيعا لحجز المياه شاهده المطرى سنة ٧٢٧هـ وقال أنها قطعت « فى وسط وادى الشظاة المذكور إلى جهة جبل وعيرة فسدت الوادى المذكور بسد بالحجر المسبوك بالنار»[٢] ومع أنه لم يكن للبركان أثر فى حريق المسجد إلا أنه لا بد أن تكون الزلازل والهزات العنيفة قد أحدثت بجدران المسجد وصوامعه بعض الأثر ، فقاضى المدينة آنذاك يقول : « لقد زلزلت مرة ونحن حول حجرة رسول الله ﷺ فاضطرب لها المنبر إلى أن أوجسنا منه صوتا للحديد الذى فيه واضطربت قناديل الحرم الشريف النبوى »[٣] واضطرب أيضا « منار المسجد بعضه ببعض وسمع لسقف المسجد صرير عظيم»[٤] . وقد تكون هناك آثار أخرى لم تذكر بسبب قصر الوقت بين هذه الزلازل التى أصابت المدينة وبين حريق المسجد النبوى الذى أتى بعدها

---

(١) عمر الفاروق رجب : المدينة المنورة ، ص ٦٠ .

(٢) التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٥٨ . وقال الفيروزبادى عن وادى قناة « أنه واد بالمدينة وهو أحد أوديتها الثلاثة ، عليه حرث ومال ، بين أحد والمدينة . وقال المدائنى « وقناة واد يأتى من الطائف ويصب فى الأرضية وقرقرة الكدر ، ثم يأتى بئر معاوية ، ثم يمر على طرف القدوم ، فى أصل قبور الشهداء بأحد .. » المغانم المطابة قسم المواضع ، ص ٣٥١ . وقال عمر الفاروق رجب فى « المدينة المنورة » ص ٦٠ . أما وادى قناة فالمرجح أن مصدره من « وج الطائف » ويعرف محليا باسم سيدنا حمزة ، ويبعد عن المدينة نحو ٤ كم شمالا ، يفصل بينها وبين جبل أحد الذى يقع شمال الوادى بنحو ٥ر١ كم ، ويتجمع فى وادى قناة مايسيل من الأودية النجدية أو يدخل منطقة المدينة منحدرا من جبل تيم ثم يملأ حوض العاقول ، ويتجه شمالا فى موازاة الحرة حتى يرجع إلى اتجاهه الغربى وتتصل به أودية « نقمى ، النعمان ، القدوم ، الضيقة » والأخير ينحصر بين سلسلة « غربيات » من الغرب وضليعات الحرمى من الشرق ، وعند هذا الأخير ينتهى وادى العقيق أيضاً .

(٣) أبو شامة : « تراجم رجال القرنين السادس والسابع » ص ١٩٢ .

(٤) نفس المصدر : ص ١٩١ .

بقليل وبسبب خلو المدينة آنذاك من مؤرخ أو مهتم بتسجيل ما حدث سوى القطب القسطلاني الذى سجل الأخبار التى كانت تصله فى مكة المكرمة[١].

ومهما يكن من أمر فقد كان لهذا الحادث أثره الكبير فى نفوس أهل المدينة الذين تجمعوا داخل الحرم النبوى ، وكفوا عن المعاصى ورد عليهم أميرهم مظالمهم، واعتبروا هذه المعجزة التى أكرم الله بها نبيه آية من آيات الله الكبرى وظنوا أنها القيامة ، وضجوا إلى الله بالدعاء [٢]، ونظموا الشعر فى هذا المعنى[٣] وازدادت علاقتهم بالله قوة فكفوا عن المعاصى وقال قاضى المدينة آنذاك وهو يصف حال أهلها لأحد أصدقائه فى دمشق : أن « المدينة قد تاب جميع أهلها ولا بقى تسمع فيها رباب ، ولا دف ولا شرب »[٤]. وحق لهم أن يعتبروا وأن يصدقوا

---

(١) ذكر السمهودى فى وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٩٨ أن القطب القسطلانى صنف فى هذه النار وفى حريق المسجد كتابا سماه « عروة التوثيق فى النار والحريق » .

(٢) الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، جـ٥ ص ٢١٥ .

(٣) ومن ذلك قول قائلهم كما ينقله السمهودى فى وفاء الوفا ، جـ١ ، ص ١٤٩ :

يا كاشف الضر صفحا عن جرائمنا   لقد أحاطت بنا يارب بأساء
نشكو إليك خطوبا لا نطيق لها   حملا ونحن بها حقا أحقاء
زلازل تخشع الصم الصلاب لها   وكيف تقوى على الزلزال شماء
أقام سبعا يرج الأرض فانصدعت   عن منظر منه عين الشمس عشواء
بحر من النار تجرى فوقه سفن   من الهضاب لها فى الأرض إرساء
ترى لها شررا كالقصر طائشة   كأنها ديمة تنصب هطلاء
تنشق منها بيوت الصخران زفرت   رعبا وترعد مثل السعف أضواء
منها تكاثف فى الجو الدخان إلى   أن عادت الشمس منه وهى دهماء
قد أثرت سعفة فى البدر لفحتها   فليلة التم بعد النور عمياء

ونقل ابن الوردى فى تاريخه ، جـ٢ ، ص ١٩٤ من نظم سيف الدين عمر بن قزل :

ولما نفى عنى الكرا خبر التى   أضاءت بأحد ثم رضوى ويذبل
ولح سناها من حبال قريظة   لسكان تيماء فاللوى فالعقيقل
وأخبرت عنها فى زمانك منذرا   بيوم عبوس قمطرير مطول
ستظهر نار بالحجاز مضيئة   لاعناق عيس نحو بصرى لمجتلى
فكانت كما قد قلت حقا بلا مرا   صدقت وكم كذبت كل معطل

(٤) أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، ص ١٩١ .

بأن الله تعالى قال : « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا »[١] . وقال أيضا : « أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف ، فإن ربكم لرؤوف رحيم »[٢] .

* * *

(١) سورة الإسراء : الآية ٥٩ .

(٢) سورة النحل : الآية ٤٥ ـ ٤٧ .

المبحث الأول

الحريق الأول للمسجد النبوي سنة ٦٥٤ هـ

المبحث الأول

الحريق الأول للمسجد النبوى سنة ٦٥٤هـ

١ - أسباب الحريق :

كانت الزلازل والبراكين التى روعت سكان المدينة المنورة سنة ٦٥٤هـ قد تركت فى نفوس أهلها أثرا قويا بضرورة الصلة بالله تعالى فى كل زمان ومكان ،. وكان هذا حالهم حتى إذا كان شهر رمضان المبارك من العام نفسه ، اهتم القوم بتنظيف قناديل المسجد وصب الزيت فيها استعدادا لإحياء ليالى الشهر الكريم بالصلاة وتلاوة القرآن فى مسجد رسول الله ﷺ كعادتهم فى كل عام ، بل قد يكون لقرب العهد من ظهور النار فى جمادى الآخرة من ذلك العام ، أثر فى زيادة الاهتمام وكثرة المتعبدين ، ولحكمة ارتآها الله تعالى . فقد حدث حريق المسجد الشريف فى ليلة الجمعة أول ليلة من شهر رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة[١] ، نتيجة إهمال أحد القائمين على خدمة المسجد النبوى الشريف كما ذكر القطب القسطلانى ، أحد المعاصرين لذلك الحريق إذ قال : « وكتب إلىّ الصادق فى الخبر ، وشافهنى من شاهد الأثر ، أن السبب فى حريق المسجد الشريف دخول أحد قومة المسجد فى المخزن الذى فى الجانب الغربى من آخر باب لاستخراج قناديل لمنائر المسجد ، فاستخرج منها ما احتاج إليه ، ثم ترك الضوء الذى كان فى يده على قفص من أقفاص القناديل وفيه مشاق[٢] فاشتعل فيه ، وبادر لأن يطفئه فغلبه وعلق بحصر وبسط وأقفاص وقصب فى المخزن ثم تزايد الالتهاب وتضاعف إلى أن علا إلى سقف المسجد »[٣] .

---

(١) أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ص ١٩٤ .

(٢) قال دروزى فى المعجم المصناف على القواميس العربية ، جـ١ ص ٥٩٥ ، أنها خيوط من الكتان أو الصوف تستخدم لاشعال القناديل .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٩٨ - ٥٩٩ .

ولم يكن لذلك المخزن وجود فى زمن ابن جبير الذى زار المدينة سنة ٥٨٠هـ، ولعله استحدث بعده ، وكان بالقرب من المخزن الذى انبثق الحريق منه منجنيق (سلم) لتنظيف سقوف المسجد وجدرانه ، حدد موضعه ابن إسحاق الحربى بين آخر بابين من أبواب الجدار الغربى مما يلى الشمال[١] ويبدو أن ما كان يحتويه ذلك المخزن من أثاث المسجد وأدواته كان كثيرا ، مما ساعد النار على التغلب على محاولات القيم داخل المخزن فى إطفائها ولكنها أودت بحياته[٢].

وانتقلت النار إلى سقف المسجد مباشرة بعد التهامها لمحتويات المخزن ويستنتج من ذلك أن المخزن كان من داخل المسجد وربما كان مبنيا من الخشب مما أعجز القيم عن إطفاء النار . ويذكر السمهودى نقلا عن الذهبى والسبكى أن حريق المسجد كان ليلة الجمعة قبل أن ينام الناس[٣] كما يذكر ابن العماد الحنبلى أنه كان بعد صلاة التراويح [٤].

ومهما يكن من أمر فقد إلتهمت النار هذا المخزن وما يليه من سقوف المسجد متجهة إلى جدار القبلة ، فعجز أمير المدينة ومن معه عن إطفاء النار أو حصرها ولعل ارتفاع السقف الذى جاء أنه كان فى عمارة المهدى حوالى خمسة وعشرين ذراعا [٥]، أى ما يعادل اثنى عشر مترا[٦]، مما ساعد النار على التنقل بين سقوف المسجد الشريف بسهولة ويسر . وكان لكبر مساحة الجزء المسقوف فى المسجد أثر فى إبقاء النار ملتهبة فى محتويات المسجد من أول الليل حتى ساعة متأخرة منه[٧]، بحيث لم تبق على خشبة كاملة[٨] مما أذهل أهل المدينة جميعا

---

(١) كتاب المناسك ، ص ٣٩٢ .

(٢) المطرى : التعريف بما انست الهجرة ، ص ٢٣ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٩٨ .

(٣) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٩٨ ، ٦٠١ .

(٤) شذرات الذهب ، جـ٥ ص ٢٦٣ .

(٥) انظر أعلاه ص ١٥١ الحاشية رقم ٥ .

(٦) انظر أعلاه ص ١٥١ حاشية رقم ٥ .

(٧) أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، ص ١٩٤ .

(٨) علق السمهودى فى الوفا جـ٢ ص ٥٩٩ ، على ما ذكره المؤرخون من أن المسجد احترق =

حتى أنهم عدوا هذا الحريق عقابا لتسلط الإمامية[١] على المدينة . وقال شاعرهم فى ذلك :

لم يحترق حرم النبـى لحادث   يخشى عليه ولا دهاه العـار

لكنما أيدى الروافض لامست   ذاك الجناب فطهرتـه النـار

٣ ـ آثار الحريق :

لعل من المهم عند الحديث عن الخسارة الجسيمة التى سببها هذا الحريق للمسجد النبوى الشريف ومحتوياته أن نستحضر حال المسجد قبل الحريق من خلال ما ذكره الرحالة والمؤرخون[٢]، لندرك مدى الخسارة العظيمة التى لحقت بانجازات الفن الإسلامى خلال خمسة قرون ونصف (٩١ ـ ٦٥٤هـ) . أى منذ بناء الوليد إلى أن عفت النار خلال ساعات على تلك الروائع الإسلامية المختلفة ، فأصبحت أثرا بعد عين .

= جميعه حتى لم تبق خشبة واحدة » بأن مرادهم لم تبق خشبة كاملة وذلك لأنه شاهد «بقايا خشب كثير عند اخراج الهدم الذى كان بالحجرة» ويناسب ذلك مشاهدة البلوى الذى زار المدينة سنة ٧٣٧هـ اثار خشب المقصورة التى كانت تمتد محيطة بالبلاط الأول الذى به المحراب العثمانى » مفروز فى رواق القبلة (بلاط القبلة) ، وكذلك العود الذى كان فى مصلى النبى عليه السلام » .

(١) الإمامية طائفة تنسب إلى على بن أبى طالب وهى إحدى فرق الشيعة الذين يرون أن الإمامة يجب أن تكون لعلى ثم لبنيه من بعده . ومنهم الغلاة الذين يتبرؤن من الشيخين ، أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . قد افترقت الإمامية إلى فرقتين هما الإسماعيلية والاثنا عشرية . انظر مقدمة ابن خلدون ، ص ١٧٩ . وحسن الباشا فى الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، جـ١ ص ١١٢ وما بعدها .

(٢) انظر الوصف الجميل الذى وصف به ابن عبد ربه جدران مقدم المسجد وسقوفه فى الجزء السابع من العقد الفريد ص ٢٥٢ وما بعدها ، وكذلك ابن جبير فى رحلته ، ص ١٦٨ وما بعدها . وانظر الجزء الذى خصصته لزخرفة المسجد ونقوشه بعد عمارة المهدى ، ص ١٥٩ وما بعدها .

فمن أهم ما أتلفته النار ، منبر المسجد النبوى الشريف[١] الذى كان بسيط الصفة ، إلا أن ما يتمثل فيه من ذكريات جليلة لما يثير لدى المسلمين مشاعر الحزن والأسى على فقدان هذا الأثر الجليل[٢]. مضاف إلى ذلك تلف سقف المسجد ، وما كان يشتمل عليه من خشب مزخرف[٢]، كان من أروع ما أنتجته يد الفنان المسلم . وكان يتدلى من سقوف المسجد قناديل كان حكام العالم الإسلامى خلال عدة قرون يتنافسون فى إهداء أجمل وأثمن ما يصنعه الصناع فيها للمسجد النبوى الشريف . وكان عددها كما ذكر ابن رستة مائتين وتسعين قنديلا موزعة على أجزاء المسجد النبوى الشريف[٣].

وكانت الزخارف المتنوعة تحلى كوشات العقود المطلة على صحن المسجد وتزين جدرانه الداخلية والخارجية وقد أتلفها الحريق حتى أنه لم يبق من فسيفساء المسجد إلا شيء قليل شاهده السمهودى وقال عنه أنه « شيء يسير فى مؤخر السقف الغربى بجدار المسجد مما يلى الدكاك[٤]، وشيء يسير بالمأذنة الغربية

(١) ذكر المطرى فى التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٢٣ ـ ٢٤ أن منبر النبى عليه السلام « الذى زاده معاوية ورفع منبر النبى ﷺ تهافت على طول الزمان وأن بعض خلفاء بنى العباس جدده واتخذ من بقايا أعواد منبر النبى ﷺ أمشاطا للتبرك بها وعمل المنبر الذى ذكره ابن النجار أولا » . ومعنى هذا أن منبر النبى عليه السلام قد فقد قبل حريق المسجد الأول سنة ٦٥٤هـ .

(٢) قال صاحب رسالة وصف مكة والمدينة وبيت المقدس « وسماء المسجد منقوش مداهن محفورة ، ومذهب كله على عتب منقوشة على أعمدة من خرز أسود بعضه على بعض ، ملبسة بالجيار » انظر مجلة العرب ، السنة الثامنة ، جـ٥ ، ٦ ، ١٣٩٣/١٩٧٣م ص٣٥٠ . انظر اعلاه ص ١٣٧ .

(٣) ذكر ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ٧٦ أن توزيعها فى المسجد كالتالى : ثمانية وثمانون قنديلا مع ثريا القبلة وعدد قناديله مما يلى الشام خمسة وثمانون قنديلا ، ومما يلى المشرق خمس واربعون قنديلا ، ومما يلى المغرب اثنان وسبعون قنديلا فذلك مائتان وتسعون قنديلا » . وذكر أبو عبيد البكرى : فى جزيرة العرب ، ص ٨٩ أن عددها ٢٧٠ قنديلا وذكر ابن النجار فى الدرة الثمينة ص ١٤٠ أن « فى سقف المسجد الذى بين القبلة والحجرة على رأس الزوار إذا وقفوا معلق نيف وأربعون قنديلا كبارا وصغار من الفضة المنقوشة والساذجة وفيها اثنان بلور وواحد ذهب » .

(٤) قال ابن منظور فى لسان العرب ، جـ١ ص ٤٢٥ أن « الدكة بناء يسطح أعلاه » والدك والدكة (ما استوى من الرمل وسهل وجمعها دكاك) ويقصد بها هنا الأجزاء المرتفعة من مؤخر المسجد الشريف فى عهد السمهودى .

الشمالية مما يلى بابها فيه شيء من الفسيفساء . وأما جدار القبلة فليس به اليوم إلا لوح يتضمن صور أشجار عن يمين مستقبل المحراب الشريف وهو من الآثار القديمة، وكان يقابله فى جهة يسار المستقبل لوح خشبى مثله سقط قريبا ، ثم زال ذلك كله فى الحريق الثانى »[١] أما المقصورة التى كانت تحتل البلاط الأول من رواق القبلة ممتدة « من السور الغربى لاصقة بالباب إلى الفصيل اللاصق بالسور الشرقى »[٢] فقد راحت هى الأخرى ضحية الحريق ولم يبق منها إلا بعض قطع خشبية كانت مغروزة فى ركن المسجد الشريف ، أدركها ابن فرحون وقال : « أن منها بقية أثر إلى الآن »[٣].

وتلفت أيضا أبواب المسجد التى كانت تغلق « بمصاريع مشرجبة »[٤] من خشب الساج وكذلك الفواصل الخشبية المعمولة من الخشب المخروط ، التى كانت تملأ فتحات العقود المحيطة بالصحن من جوانبه الأربعة[٥] . وكانت إسطوانات الرخام التى ثبت استخدامها فى عمارة المهدى للمسجد النبوى فى الرواق الشرقى والغربى والشمالى[٦] ، والتى يسرع تأثرها بالنار[٧] ، مما تلف فى هذا الحريق .

واحترقت خزائن الكتب والمصاحف التى ذكر ابن النجار أنها « عدة مصاحف موقوفة ، بخطوط ملاح مخزونة فى خزائن من ساج بين يدى المقصورة خلف مقام

---

(١) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٧٣ .

(٢) انظر أدناه ص ١٢٥ .

(٣) نصيحة الشاور وتعزية المجاور ، ص ١٣ .

(٤) كتاب الاستبصار فى عجائب الامصار ، لمجهول ، ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٥) نفس المصدر ، لمجهول ، ص ٣٧ ، ابن المحجوب : قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٧٦ أ .

(٦) انظر أدناه ص ١٤٩ .

(٧) قيل أن ابن طولون قال عندما أراد بناء جامعة فى القاهرة « أريد أن ابنى بناءاً إن إحترقت مصر بقى وإن غرقت بقى » فقيل له . « يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى النار إلى السقف ولا يجعل فيه أساطين رخام ، فإنه لا صبر لها على النار » . انظر بحث جامع ابن طولون لحسن الباشا المنشور فى كتاب القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها ص ٤٣٨ .

النبى ﷺ ، وهناك كرسى كبير فيه مصحف مقفل عليه أنفذ به من مصر وهو عند الإسطوانة التى فى صف مقام النبى ﷺ محاذى الحجرة الشريفة وإلى جانبه مصحفان على كرسى يقرأ الناس فيهما »[١]. ولم يسلم من هذه الكنوز الثمينة إلا ما كان فى قبة صحن المسجد الشريف التى عمرها الخليفة العباسى الناصر لدين الله « لحفظ حواصل الحرم والمصحف الكريم العثمانى وعدة صناديق كبار متقدمة التاريخ صنعت بعد الثلاثمائة وكانت عمارتها سنة ٥٧٦هـ وجميع ما فيها سالم إلى اليوم »[٢].

ولم تسلم كذلك الحجرة الشريفة من الحريق ، فتلفت كسوتها المتراكمة عليها [٣] ومشبكها الذى كان يحيط بها فوق حائز عمر بن عبد العزيز المعمول من خشب الصندل والأبنوس سنة ٥٤٨هـ فى خلافة المقتفى العباسى[٤]. وعلى هذا فإنه ما من جانب من جوانب المسجد إلا وقد امتدت إليه النار وشملته بالدمار ، الأمر الذى يحزن عشاق الفن الإسلامى لفقدان ذلك المتحف الكامل لأنواع عديدة من الصناعات الإسلامية التى كانت تعبر عن خصائص الفنون الإسلامية فى العصور التى ترجع إليها تلك الصناعات الفنية . ويمكن تقدير فداحة الخسارة البالغة من خلال تلخيص القطب القسطلانى بقوله أن النار دمرت « جميع ما احتوى المسجد الشريف من المنبر ، والأبواب ، والخزائن ، والشبابيك والمقاصير والصناعات ، وما اشتمل عليه من كتب وكسوة الحجرة وكان عليها إحدى عشرة ستارة »[٥]. وهذه ولا شك خسارة كبيرة جدا ذهبت نتيجة إهمال غير مقصود .

---

(١) الدرة الثمينة ص ١٠٧ .

(٢) ابن فرحون : نصيحة المشاور وتعزية المجاور ص ١٣ ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٠٠ ، والمقصود بكلمة اليوم فى النص زمن ابن فرحون المتوفى سنة ٧٦٩هـ .

(٣) ذكر السمهودى فى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٩٩ ، أن عددها كان أحدى عشرة ستارة .

(٤) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ١٣٩ .

(٥) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٩٩ .

٣- موقف أهل المدينة من حريق المسجد النبوي الأول :

اختلفت وجهات نظر أهل المدينة بخصوص هذا الحريق ، ففئة ترى أن ذلك كان انتقاما من غلو حكام المدينة المنورة آنذاك ، وذلك لأن أمرها كان بأيدى الشيعة الإمامية « فالقاضى والخطيب منهم »[1] وكانت سلطتهم المدعومة من حكام المدينة الروافض أيضا ، قوية على أهل السنة حتى أن أحدا منهم لم يكن يجرؤ على التظاهر « بقراءة كتب أهل السنة »[2] مما جعل أحد الشعراء يسند سبب الحريق إلى عملهم فقال :

لم يحترق حرم النبى لحادث   يخشى عليه ولا دهاه العـار
لكنما أيدى الروافض لامست   ذاك الجناب فطهرته النار[3]

وقال معين الدين بن تولوا المغربى :

قل للروافض بالمدينـة ما لكـم   يقتادكم للذم كل سفيـه
ما أصبح الحرم الشريف محرقا   إلا لسبكم الصحابة فيه[4]

---

(١) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٠٠ .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٠ .

(٣) أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، ص ١٩٤ ، قطب الدين اليونينى : ذيل مرآة الزمان ، جـ١ ص ١٠ ، ابن حبيب : درة الإسلاك فى دولة الاتراك ، جـ١ ورقة ٩ ب . وذكر السمهودى نقلا عن الاقشهرى المتوفى ٧٩٦هـ قوله « وانشدنى الحافظ الصالح الشيخ إبراهيم ابن محمد الكنانى رئيس المؤذنين هو وأبوه قال : وجد بعد الحريق في بعض جدران المسجد بيتان هما :

لم يحترق حرم النبى لريبـة   يخشى عليه وما به من عار
لكنه أيدى الروافض لامست   تلك الرسوم فطهرت بالنار »

انظر وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٠ . وقد قال أبو شامة فى المصدر السابق ص ١٩٤ « ونظمت فى حريق مسجد رسول الله ﷺ وذكر البيتين ، ولكن ابن بهادر فى فتوح النصر جـ١ ص ٨٢ ينسبهما إلى سبط بن الجوزى ونسبهما السخاوى فى الضوء اللامع ، جـ٤ ص ٢٦٨ إلى عبد القادر بن شعبان المغربى .

(٤) قطب الدين اليونينى : المصدر السابق ، جـ١ ص ١٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١ ص ٣٦ .

أما الفئة الثانية وهى التى تمثل وجهة النظر الإسلامية التقليدية فترى أن الحريق كان انتقاما مما زين به المسجد من زخارف ونقوش ، وهم يرون وجودها فى المسجد النبوى أو غيره من المساجد بدعة منكرة[١] ، ويمثلها بعض علماء الحجاز وكبار المجاورين ، ويتمثل هذا الموقف فيما قاله قطب الدين القسطلانى الذى عاصر هذا الحريق كما ذكر السمهودى وقال أن له حكما وأسرارا « لكون تلك الزخارف لم ترضه ﷺ »[٢] ونظم ابن الوردى فى هذا المعنى الأبيات التالية :

والنار أيضا من جنود نبينا لم تأت إلا بالذى يختار

متغلبون يزخرفون بسحتهم حرم النبى فطهرته النار[٣] .

ونظم الاقشهرى المتوفى سنة ٧٩٦هـ أبياتا فى هذا المعنى « مضمونها أن تسليط النار كان على تلك الزخارف المنهى عنها ، وأن ما كان حقا فيبقى ، وما كان زورا فبالنار يحرق »[٤] . وجاء آخر من القرن التاسع ليؤكد وجهة النظر هذه فيقول : « إن الله سبحانه وتعالى اختار لمسجد رسوله ما هو الأليق به من السذاجة والتواضع الذى كان مذكورا فى طبعه ﷺ لا سيما فى البعد عن زينة الدنيا والفرار

---

(١) عارض ابن فرحون فى كتابه نصيحة المشاور وتعزية المجاور ص ٢٣ - ٢٤ ، ذلك أذ يقول : « قال أبو الحسن اللخمى فى التبصرة ، قال مالك رحمة الله عليه : كره الناس ما فعل فى قبلة المسجد بالمدينة من التزويق لأنه يشغل الناس فى صلاتهم وأرى أن يزال كلما يشغل الناس عن صلاتهم وإن عظم ما كان انفق فيه : قلت وإنما زخرف المساجد من زخرفها لمعنى قصده لا للزخرفة لأن الوقت كان من الكفر والجاهلية قريبا فما كان يقوم للمسجد من التعظيم والتفخيم قبل ما صنع فيه ما يقوم بعد ذلك فأراد ذلك المعنى . ومما يدل عليه إن جامع بنى أمية لما بنى على هيئته اليوم بالفسيفساء وولى عمر بن عبد العزيز كره أن يكون المسجد على هيئة يشغل المصلى فأمر أن تستر القبلة بالقباطى ثم قدم الشام راهبان فسألوا عن الكشف حتى ينظروا إليه فارسلوا إلى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يسألونه ذلك فأذن لهم فلما رأوه استعظموا ذلك وحصل عندهم من ملك الإسلام رهبة وعظمة فبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز فقال أرى ما هنالك يغيظهم ويكبتهم ارفعوا القباطى فرفعوها .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٠ .

(٣) ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر (تاريخ ابن الوردى) جـ٢ ص ١٩٥ .

(٤) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٠٠ .

من زخرفها[١] .

ومهما يكن من أمر اختلاف وجهتى النظر هاتين إلا أن الإجماع منعقد على التألم لما أصاب المسجد النبوى بما حوى من آثار نبوية غالية على كل مسلم . وفى مقدمتها المنبر الشريف والحجرة النبوية المقدسة الحاوية للقبور الشريفة ، لذلك اجتمع أهل المدينة عند مطلع فجر يوم الجمعة « فعزلوا مواضع للصلاة »[٢] من الأروقة المحروقة واستخدموها مع صحن المسجد فى أداء فروضهم وكتبوا « بذلك إلى الخليفة المعتصم بالله[٣] أبى أحمد عبد الله بن الإمام المستنصر من المدينة فى شهر رمضان »[٤] الذى وقع فيه الحريق .

* * *

(١) ابن المحجوب : قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٧٦ب .

(٢) أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ، ص ١٩٤ .

(٣) بعض المصادر تذكر أن اسمه المستعصم بالله والبعض الآخر يذكر أن اسمه المعتصم بالله .

(٤) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ص ٢٤ .

المبحث الثانى

عمارة المسجد النبوى بعد الحريق الأول

المبحث الثاني

« عمارة المسجد النبوى بعد الحريق الأول »

أولا : أعمال الخليفة العباسى المستعصم بالله فى سنة ٦٥٥ هـ :

لم تكن الظروف التى كانت تعيشها بغداد في ذلك الوقت مؤاتية لأن يهتم الخليفة العباسى المستعصم بالله (٦٤٠ ـ ٦٥٦هـ) بعمارة المسجد النبوى الشريف على النحو الذى قام به المهدى سنة ١٦٠هـ وذلك بسبب الأخطار التى كانت تحيط بدار الخلافة العباسية في بغداد[١] فضلا عن الضعف المادى الذى كان يعانى منه بلاط الخليفة فى ذلك الوقت[٢]. ولكن الخليفة استطاع أن يتدبر للمسجد الشريف من الآلات والعمال ما يتفق وإمكانيات الدولة العباسية المحتضرة . « فوصل الصناع والآلات صحبة حجاج العراق وابتدئ فيه بالعمارة من أول سنة خمس وخمسين وستمائة »[٣].

وكان لا بد لهم قبل الشروع فى العمارة من تنظيف المسجد من آثار الحريق الذى أتى على كل شيء وهو عمل كبير لا يمكن إنجازه في وقت قصير ، الأمر الذى يجعل ما أنجز من عمارة المسجد الشريف سنة ٦٥٥ هـ قاصرا على تسقيف « الحجرة الشريفة وما حولها إلى الحائط القبلى وإلى الحائط الشرقى إلى باب

---

(١) كانت معظم البلاد التابعة للخلافة العباسية قد استقلت عن بغداد ، بالإضافة إلى تحكم بنو بوية ومن بعدهم السلاجقة في البلاط العباسى وما تبقى له من بلاد ، كما قام النزاع بين القواد داخل بغداد بسبب مطالبتهم بزيادة أرزاقهم بالإضافة إلى تفاقم العداوة بين الشيعة وأهل السنة . انظر حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى جـ٤ ص ١٣٤ وما بعدها .

(٢) فقد البلاط العباسى ما كان يرد عليه من الأقاليم التابعة له بسبب استقلالها بالإضافة إلى اشتداد فيضان نهر دجله وأثره السيء على أراضى العراق كما أن نظام الرى فى العراق قد أهمل منذ بداية العصر العباسى الثانى ٢٣٢هـ حتى تحولت أجزاء كثيرة من جنوبى العراق إلى مستنقعات، انظر حسن إبراهيم . المرجع السابق جـ٤ ص ١٣٥ وما بعدها .

(٣) القرطبى بهجة النفوس والأسرار ، ص ١٣٢ ، الاسفرائينى : زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال ورقة ١٨٦ أ ، السمهودى . وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٠١ .

جبريل عليه السلام .. ومن جهة المغرب الروضة الشريفة جميعها إلى المنبر الشريف»[١]. ويبدو من اقتصار الأمر آنذاك على التسقيف فقط ، أنهم ، ولا شك، إستفادوا من إسطوانات المسجد المحترق في دعم السقف وذلك بعد إصلاح ما سقط منها نتيجة ذوبان الرصاص من بعضها[٢] وتأثير سقوط السطح على البعض الآخر . وقد كانت جميع إسطوانات مقدم المسجد مؤلفة من قطع حجرية مستديرة مركب بعضها فوق بعض تربطها أعمدة الحديد والرصاص ولم يذكر جمال الدين المطرى أو غيره ممن تعرضوا لذكر هذه العمارة نوع الخشب المستخدم فى تسقيف المسجد ومصدره . إلا أن المطرى ذكر أنهم عندما ابتدأوا بالعمارة « قصدوا إزالة ما وقع من السقوف على القبور المقدسة فلم يجسروا على ذلك واتفق رأى صاحب المدينة يومئذ وهو الأمير منيف بن شيحة بن هاشم بن القاسم بن المهنا ، ورأى أكابر أهل الحرم الشريف من المجاورين والخدام أن يطالع الإمام المستعصم بذلك ويفصل فيه ما يصل به أمره ورأيه ، فأرسلوا بذلك وانتظروا الجواب فلم يصل إليهم الجواب وحصل للخليفة شغل ولأرباب الدولة بإزعاج التتار لهم واستيلائهم على البلاد تلك السنة فترك الردم على ما كان عليه[٣]، ولم ينزل أحد هناك ولا حركوه وأعادوا سقفا فوقه على رؤوس السوارى التى حول الحجرة الشريفة »[٤].

---

(١) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٢٥ ، الاسفرائيين : زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال، ورقة ١٨٦ أ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٢٠٣ ، ص ٦٠٣ .

(٢) أبو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع ص ١٩٤ ، المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ص ٢٤ ، الذهبى : العبر فى خبر من غبر ، جـ٥ ص ٢١٦ ، السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٠٠ .

(٣) ذكر السمهودى : فى نفس المصدر جـ٢ ص ٦٠١ أنه شاهد هذا الهدم عند انكشاف سطح الحجرة بعد الحريق الثانى وأنه خلف الحجرة الشريفة بين الجدارين (جدار الحجرة وحائز عمر بن عبد العزيز) ثم ذكر أنه نحو القامة وأن « معظمه ردم سقف المسجد الأعلى وما بين السقفين من البناء الذى على رؤوس السوارى وغير ذلك » .

(٤) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ص ٢٤ ، وذكر أن الحائط الذى بناه عمر بن عبد العزيز رحمه الله حول بيت النبى ﷺ بين هذه السوارى التى حول بيت النبى ﷺ لم يبلغ به السقف الأعلى بل جعلوا فوق الحائط وبين السوارى شباكا من خشب من الحائط إلى السقف الأعلى . وانظر الفيروزبادى : المغانم المطابة فى معالم طابة ورقة ٨٨ ب .

وعلى الرغم من تأييد المؤرخين الذين أتوا بعد المطرى لما ذكره فإن ما شاهده السمهودى فى العمارة التى أدركها فى المسجد النبوى سنة ٨٨١هـ يخالف ما ذكره المطرى ومن تبعه وذلك أن العمال « وجدوا عليها سقفا مربعا على جدارها الداخل ، ويتصل بالخارج من المشرق والمغرب ، دوين[١] رأس الجدار الخارج بنحو شبر ، ثم تبين عند كشفه آثار السقف المنهدم ، وأن أخشابه كانت فى الجدار الداخل ولم يعيدوا هذا السقف المجدد موضع الأول لأنه لا يتأتى إلا بهدم سترته وإصلاح أماكن لرؤوس الخشب ، فتركوا ذلك تأدبا واحتراما ، ووضعوا ذلك السقف على أعلى سترة الجدار ، وبنوا فوقه سترة لطيفة وجعلوا على ذلك السقف ستارة من المحابس[٢] اليمنية المبطنة بقماش أزرق مربوط بمقط فى الشباك الذى بأعلى الحائز الظاهر ، وليس ذلك السقف مطينا ، وهو سقف محكم من ألواح ثخينة جدا من الساج الهندى وسمروا بعضها إلى بعض تكليبا[٣] محكما ، وجعلوا تحته ثلاث جزم[٤] من الساج الهندى تحمله وأوصلوا أطراف تلك الألواح بالجدار الظاهر كما تقدم ، ولم يجعلوا فى تلك الألواح دهانا ولا نقوشا ولا كتابة ، غير أن النجار الذى صنع السقف المذكور كتب اسمه على طرفه نقرا ، وكذلك سقف المسجد المحاذى للحجرة الشريفة مما يلى هذا السقف جميعه من الساج النقى ليس عليه دهان ولا نقوش وفى وسطه طابق عليه قفل فوقه أنطاع[٥] ومشمع ، ولم يزل موجودا إلى أن عملت القبة الثانية بعد الحريق الثانى ، وجعلوا على جدار

---

(١) تصغير كلمة دون

(٢) قال ابن منظور فى لسان العرب جـ٦ ص ٤٤ أن المحابس نوع من البسط التى توضع على وجه الفراش للنوم وتعرف أيضا بالمقرمة .

(٣) أى شد بعضها إلى بعض بمسامير معطوفة لأن الكلاب « حديدة معطوفة كالخطاف وكلاليب الباز مخالبه كل ذلك على التشبه بمخالب الكلاب والسباع وكلاليب الشجر شوكه كذلك » انظر ابن منظور المصدر السابق جـ١ ص ٧٢٥

(٤) هى قطعة من خشب الساج وقد اخذت من الجزم بمعنى القطع كما يذكر ابن منظور فى المصدر السابق جـ١٢ ص ٩٧

(٥) النطع بساط من الأديم جمعه انطاع ونطوع انظر ابن منظور فى لسان العرب جـ٨ ص ٣٥٧ والفيروزبادى فى القاموس المحيط جـ٣ ص ٩٢

الحجرة الداخلة من جهة الشام ألواحا من رأس الجدار إلى سقف المسجد »[١] .

وكان المشرف على عمارة المسجد الشريف قاضي المدينة آنذاك[٢] ويبدو أن الدور المنوط به من قبل الخليفة العباسي هو تولى أمر الصرف على هذه العمارة بالإضافة إلى الإشراف عليها . ولكن ذلك لم يدم طويلا لأن ما كان يصل إلى المدينة من دعم مادى لهذه العمارة انقطع قبل سقوط عاصمة الخلافة العباسية فى المحرم من سنة ٦٥٦هـ فى يد التتار . فأدى ذلك بالمشرفين على العمارة التى تمونها دار الخلافة فى بغداد ، أن يستعيضوا عن كسوة الحجرة التى لم يتمكن الخليفة من إرسالها فى موسم عام ٦٥٥ هـ بأن اشتروا « من بنى شيبة ستارة الكعبة وعلقوها على الضريح الشريف »[٣] . وهذه أول مرة يلجأ فيها إلى استخدام الكسوة القديمة للكعبة المعظمة فى تغطية الحجرة الشريفة بدل الكسوة التى كانت تصلها من الخلفاء والتى أدرك ابن النجار منها ثلاث ستائر بعضها فوق بعض[٤] . ثم زاد عدد هذه الستائر حتى بلغت قبل حريق عام ٦٥٤هـ إحدى عشرة ستارة[٥] . ولم تكن كسوة الحجرة الشريفة والكعبة المعظمة هى ما افتقده أهل الحجاز من عاصمة الخلافة العباسية بل « إن الحاج انقطع من العراق عن مكة فى سنة خمس وخمسين وستمائة إلى سنة ست وستين ، فلم يرد من هناك حاج فى هذه المدة » [٦] لأن ما حصل ببغداد كان أعظم كارثة فى تاريخ الإسلام وحضارته وفى ذلك يقول الشاعر :

يا عصبة الإسلام نوحى واندبى حزنـا على ما تـم للمستعصـم
دست الوزارة كان قبل زمانـه لابن الفرات فصار لابن العلقمى[٧]

* * *

(١) السمهودى : وفاء الوفا : جـ٢ ص ٦٠٣ .

(٢) الخزرجي : العسجد المسبوك فيمن تولى اليمن من الملوك ، ص ٢٣٠ .

(٣) الخزرجي : نفس المصدر ص ٢٣٠ .

(٤) الدرة الثمينة ، ص ١٤٠ .

(٥) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٩٩ .

(٦) المقريزى : الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك ص ٤٨ .

(٧) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ٥ ، ص ٢٧١ .

ثانيا : عمارة المسجد النبوى بعد سقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ

(فى عهد الملك نور الدين بن عز الدين أيبك ، ويوسف بن رسول ، وسيف الدين قطز) .

كان النزاع من أجل السيطرة على الحجاز قائما على أشده بين الأيوبيين فى مصر والرسوليين فى اليمن منذ وفاة الملك الكامل سنة ٦٢٥هـ . وظل الأمر مذبذبا بينهما فيدعى « لهذا حينا ولذلك حينا آخر »[١] ، وعلى منابر الحرمين الشريفين ، وهو مكسب سياسى عظيم طالما حرص الولاة والحكام المتنافسون على الفوز به ، حتى عد لقب خادم الحرمين الشريفين من أهم الألقاب فى الدولة المملوكية الأولى[٢] ، التى ورثت السلطة على الحجاز من الأيوبيين بعد مقتل الملك المعظم توران شاه سنة ٦٤٨هـ.

والحقيقة أن الفترة الى صاحبت قيام الدولة المملوكية الناشئة كانت مليئة بالأحداث الداخلية والخارجية[٣] ، هذا فضلا عن الضعف الكبير فى الموارد الرئيسية لهذه الدولة الحديثة نتيجة الأحداث التى صاحبت قيامها . ولذلك فإن الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك (٦٥٥ـ ٦٥٦ هـ) بارك التعاون مع الدولة الرسولية فى إتمام عمارة الحرم النبوى الشريف التى بدأها الخليفة العباسى رحمه الله .

وإذا كانت المؤلفات التى اطلعت عليها لم تمكننى من معرفة كيفية ذلك التعاون وأول من أقره ، إلا أنه يمكن القول بأن الظروف التى كان يمر بها العالم الإسلامى آنذاك ، وما للحرم النبوى الشريف من قدسية يعظمها الطرفان ويحترمانها، أملت عليهما ذلك التعاون المشترك وأنستهما أطماعهما وأحقادهما

---

(١) على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ص ١٢ .

(٢) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، وقد ذكر أن صلاح الدين الأيوبى قد لقب بهذا اللقب كما ورد فى نص تعمير بتاريخ ٥٨٧هـ فى قبة يوسف فى بيت المقدس .

(٣) كان التنافس بين الأمراء المماليك يهدد الدولة الناشئة من الداخل وتحرك التتار نحو البلاد الإسلامية يهددها من الخارج

كشأن المسلمين عندما يحسون بخطر يتهدد أمنهم وكيانهم

لذلك فقد وصلت فى سنة ٦٥٦ هـ بعد موت الخليفة العباسى « الآلات من مصر وكان المتولى تلك السنة الملك المنصور نور الدين على بن أيبك المعز عز الدين أيبك الصالحى ، ووصل أيضا من صاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول آلات وأخشاب »[١] وبدئ فى إتمام العمارة المشتركة ، بيد أن الكثير من تفاصيلها غير معروف لنا ، إذ لا يعرف على وجه أكيد مصير العمال الذين أنجزوا ما تم من عمارة المسجد الشريف فى عهد الخليفة العباسى ، وهل أسند إليهم العمل فى تسقيف المسجد هذه المرة أيضا أم أن صناعا وعمالا أتوا من الدولتين المتعاونتين قاموا بذلك ؟ . بيد أنه يبدو من الأعمال التى أنجزت نتيجة هذا التعاون خلال سنة ٦٥٦ هـ والتى حددها المطرى بأنها إكمال سقف المسجد « إلى باب السلام المعروف قديما بباب مروان بن الحكم »[٢] أن العمارة قد أسندت إليهم أيضا ، وذلك لحرص المسئولين على أن تكون الصفة فى مقدم المسجد واحدة . وقد حرص الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول من أول يوم بدأ فيه هذا التعاون على عمل منبر يحل مكان المنبر المحترق فعمل منبرا رمانتاه من الصندل وأرسله « فى سنة ست وخمسين ونصب فى موضع منبر النبى ﷺ »[٣] . ورغم الاهتمام الكبير الذى بذله ملك اليمن فى إنجاز عمارة المسجد النبوى بالاشتراك مع الملك المنصور نور الدين على بن أيبك ، إلا أنه ليس لدى من المعلومات ما يبين الإنجازات اليمنية فى تلك العمارة التى شملت تسقيف المسجد الشريف فى تلك السنة « إلى باب السلام المعروف قديما بباب مروان بن الحكم »[٤] . ولم يذكر المطرى أو من تبعه من المؤرخين

---

(١) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٢٥ ، السبكى : تنزيل السكينة على قناديل المدينة ، جـ١ ص ٢٩٣ ، من فتاوى السبكى ، الفيروزبادى : المغانم المطابة ، ورقة ٨٩ أ .

(٢) المطرى : المصدر السابق ، ص ٢٥ ، الفيروزبادى : المصدر السابق ، ورقة ٨٩ أ .

(٣) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٢٥ ، وانظر وجيه الدين الوصابى : الاعتبار فى التواريخ والآثار (المعروف بتاريخ وصاب) ص ١١٧ ، الفيروزبادى : المغانم المطابة ، ورقة ١٠١أ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٠٧ .

(٤) المطرى : المصدر السابق ص ٢٥ .

المتأخرين[١] شيئا عن الإسهام اليمنى فى الجزء اليسير الذى أنجز من عمارة المسجد النبوى ، وكل ما ذكروه هو فى الحقيقة تكرار لما أوجزه المطرى الذى لم يعاصر العمارة وإنما كان يكتب معتمدا على ما يسمعه من شيوخ المدينة فى عصره ، وقد خلا ذلك الزمن مع الأسف من مؤرخ معاصر أو رحالة يصف لنا المراحل الدقيقة لهذه العمارة .

وترتب على ما حل بمصر فى أواخر سنة ٦٥٦هـ من أحداث جسام أتت بالملك المظفر سيف الدين قطز (٦٥٧ ـ ٦٥٨ هـ) على رأس السلطة فيها ، أن توقف التعاون المصرى اليمنى ، وانفرد سيف الدين قطز بإكمال عمارة المسجد النبوى الشريف رغم الجهود المكثفة التى كان يقوم بها فى إعداد الجيوش المصرية لصد الزحف المدمر من قبل التتار على شرق العالم الإسلامى وما أنجز من عمارة المسجد فى عهده ، فهو إكمال تسقيف المسجد الشريف » من باب السلام إلى باب الرحمة المعروف قديما بباب عاتكة .... ومن باب جبريل إلى باب النساء »[٢] وهو عمل كبير يعادل ما أنجز من عمارة المسجد إبان التعاون المصرى اليمنى الذى سبقه . ومن المؤكد أن معظم احتياجات المسجد الشريف من أخشاب الساج ، وهى المادة الأساسية فى تلك العمارة قد تكفل بها بعد سقوط الخلافة سنة ٦٥٦ هـ ملكا اليمن ومصر[٣] ، وأن ما قام به السلطان قطز لا يعدو تأمين الأجور البسيطة للقائمين بعمارة المسجد ، وبعض المواد اللازمة للعمارة.ومهما يكن من أمر فإن ما

---

(١) أمثال الاسفرائينى فى زبدة الأعمال ، والفيروزبادى : المصدر السابق ، والخوارزمى فى اثاره الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاثة ، والمراغى فى تحقيق النصرة ، بيد أن الخزرجى ذكر فى مخطوط العسجد المسبوك ، ص ٢٣٤ فى حوادث سنة ٦٥٧هـ أن الملك المظفر يوسف بن رسول تولى « أمر الحرم وعمارته واقامة منايره وخدمته وجوامك خدامه » وقد يكون المقصود بذلك الحرم المكى لا المدنى .

(٢) المطرى : التعريف بما انست الهجرة ص ٢٥ .

(٣) كانت النية عند ملكا مصر واليمن معقودة على إتمام عمارة المسجد النبوى بعد سقوط الخلافة العباسية ولذلك فظنى أن تأمين الأخشاب اللازمة لإكمال هذه العمارة قد سبق بدء العمل المشترك الذى قاما به أو خلال قيام أعمال العمارة لأنهما بالطبع لم يكونا يتوقعا ما يخفيه لهما الدهر من زوال ملك قطز وانفراد بيبرس بعمارة المسجد بعده .

انجز من هذه العمارة فى عهد المستعصم بالله العباسى ٦٥٥ ـ ٦٥٦هـ ونور الدين على بن أيبك . ويوسف بن رسول ٦٥٦ ـ ٦٥٧هـ وسيف الدين قطز ٦٥٧ ـ ٦٥٨هـ ـ وكان مقتصرا على تجديد سقف المسجد بطبقتيه [1]، على صفة لا تعرف تفاصيلها .

ـ لم ترجعه « إلى الصفة التى كان عليها ولا إلى قريب منها بل صار إلى السذاجة وصفات مساجد الإسلام »[2] المجرد من النقوش والزخارف انظر شكل (٤٩) .

ومع طول المدة التى استغرقتها هذه العمارة فى ظل أربعة حكام لفترات مختلفة من تاريخ العالم الإسلامى فإنها تنبئ عما كان للتمزق السياسى والضعف المادى من آثار سيئة فى حياة المسلمين على نقيض ما تدل عليه العمارات السابقة للحرمين فى العصور الذهبية للإسلام ، وبصفة خاصة فى عهد الوليد بن عبد الملك والمهدى العباسى من ازدهار وقوة سلطان .

* * *

---

(١) أعيد سقف المسجد كما كان قبل الحريق سقفان يعلوا أحدهما الآخر ، وأعلاهما ذو صفة بنائية وعليه العمدة فى تحمل السطح وهو فى العادة يتكون من قطع خشبية كبيرة . أما السقف الأسفل فهو ذو صفة جمالية وهو من ألواح الخشب المنتظمة الجميلة .

(٢) ابن المحجوب : قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٧٦ ب .

ثالثا : عمارة الظاهر بيبرس :

ا ـ أعمال السلطان الملك الظاهر بيبرس في المسجد النبوي :

إعتلى الملك الظاهر بيبرس عرش مصر فى أواخر سنة ٦٥٨هـ بعد مقتل سيف الدين قطز وهو على مشارف مصر عائدا بالنصر من أكبر لقاء بين المسلمين والتتار فى عين جالوت . وإذا كان قطز قد جوزى جزاء سنمار فإن بيبرس استفاد سياسيا من انتصار قطز فى دعم سلطانه . وما كاد يستتب له الأمر سنة ٦٥٩هـ حتى أخذ يتطلع إلى السيطرة على الحجاز وبسط سيادته على الحرمين ، ليقوى بذلك نقله الخلافة العباسية إلى مصر[١] ، التى كان قد أقامها فيها منذ عهد قريب ليدعم أن أمير المؤمنين الحقيقى هو من كان صاحب الحرمين[٢] وقد شهدت مصر فى عهده استقرارا سياسيا صاحبه ازدهار مالى بسبب النشاط التجارى عبر البحر الأحمر بعد « تعطيل الطريق التجارى البرى عبر وسط آسيا »[٣] ، على أثر غزوات المغول لغرب آسيا فى القرن السابع الهجرى[٤] .

ورغبة فى إضفاء الشرعية على الخلافة العباسية التى أحياها الظاهر بيبرس تحت كنفه فى مصر ، فقد اهتم بإكمال ما تبقى من عمارة الحرم النبوى الشريف ، فأرسل فى سنة ٦٥٩هـ « الأموال والأصناف صحبة الأمير علم الدين اليغمورى لعمارة الحرم النبوى بالمدينة »[٥] ويبدو أن مهمة الأمير اليغمورى كانت استطلاعا لأحوال المسجد وما يحتاج إليه فإن المواد اللازمة لهذه العمارة لم ترسل من القاهرة إلا فى رمضان سنة ٦٦١هـ[٦] ، وبقاء المسجد الشريف من سنة ٦٥٩هـ إلى سنة

---

(١) على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص ١٢٨ .

(٢) الفاسى : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، جـ٢ ص ٢٣٨ ، حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٣) على بن حسين السليمان : المرجع السابق ص ١٥٧ .

(٤) نفس المرجع ص ١٥٧ .

(٥) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ١ ، القسم الثانى ص ٤٤٥

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ص ٢٣٨ ، المقريزى : كتاب السلوك ، جـ١ القسم الثانى ص ٥٠٢ .

٦٦١هـ دون إكمال لسقوفه يثير إفتراضات عدة منها :

١ - أن شدة الاهتمام بأمر المسجد النبوى الشريف قد خف نوعا ما بعد إكمال سقف ظلة القبلة التى تحتوى على المسجد الأول لرسول الله ﷺ .

٢ - أن ما أعده الظاهر بيبرس لهذه العمارة من مواد وآلات ، يختلف عما أعد للمسجد النبوى فى المراحل السابقة بدليل اختلاف سقف مؤخر المسجد الذى عمر فى عهده عن بقية سقوف المساجد التى عمرت من قبل ، فقد جعل مؤخر المسجد الشريف سقف واحد(١) بالإضافة إلى أن تلف ما كان بالأروقة التى عمرها بيبرس من إسطوانات الرخام(٢) ، قد أخذ وقتا وجهدا كبيرين عند استبدالها بقطع حجرية منحوتة ، ولعل هذه إحدى مهام الأمير اليغمورى الذى قدم المدينة سنة ٦٥٩هـ .

٣ - أن ما أعد من أخشاب المسجد وأدوات بنائه من عام ٦٥٥ إلى ٦٥٨هـ (فى عهد المستعصم بالله ونور الدين على بن أيبك ، والملك المظفر يوسف بن رسول ، وسيف الدين قطز) لم يعد كافيا وربما غير صالح لإتمام هذه العمارة .

٤ - أن بعض أجزاء (أو ملحقات) المسجد كالمنارات مثلا(٣) عمرت فى الدولة

---

(١) انظر أعلاه ص ٢٢١ .

(٢) كان مقدم المسجد محتفظاً بعمارته من عهد الوليد حتى الحريق الأول وكانت اسطواناته مؤلفة من قطع حجرية مستديرة كما سبق ذكره فى عمارة الوليد والمهدى . ولا بد أن اغلبها قد سلم من التلف فى هذا الحريق . مما ساعد القائمين بعمارة مقدم المسجد على الاستفادة منها ، أما الرواق الشرقى والغربى والشمالى فكان المهدى قد استبدلها باسطوانات الرخام ويبدو أنها قد تلفت كلها فى الحريق الأول مما جعل بيبرس يستبدلها باسطوانات مشابهة لما كان فى مقدم المسجد .

(٣) ذكر ابن المحجوب فى مخطوط قرة العين فى اوصاف الحرمين ، ورقة ٦٨ أ . أنه شاهد صوامع المسجد النبوى ، على صفة صوامع مصر ، ثم ذكر أنها من تجديد ملوك الترك وأن « طول هذه الصوامع الموجودة الآن هناك فى هذه المائة التاسعة يقرب من مائة ذراع » . ولم تكن هذه المنارات مما عمر فى عهد السلطان قايتباى لأن المؤلف لم يذكر فى مخطوطه أى شىء من أعمال قايتباى فى المسجد النبوى ، وذلك لأن زيارته للمدينة كانت قبل الحريق الثانى . كما أن ابن فرحون المتوفى سنة ٧٦٨هـ أشار إلى بعض التغييرات الحادثة بهذه المنائر فى زمنه . انظر أدناه ص ٢٢٧ .

المملوكية الأولى ، ولم تذكر كتب التاريخ التى رجعت إليها اسم من عمرها، لذلك أظن أنها عمرت فى زمن الظاهر بيبرس استنتاجا من طول المدة التى استغرقتها هذه العمارة التى بدأت من سنة ٦٦١هـ وانتهت سنة ٦٦٨هـ .

ومهما يكن من أمر ، فما كادت تتوفر لدى الظاهر بيبرس الأخشاب والأدوات اللازمة لبناء المسجد الشريف ، حتى عمد إلى أن يتخذ من ذلك ذريعة لتأليف القلوب حوله ، وظهوره بمظهر الحاكم الحريص على خدمة الحرمين الشريفين ، فطافوا فى شهر رمضان من سنة ٦٦١هـ « بتلك الأخشاب والآلات بمصر فرحة وتعظيما لشأنها ، ثم ساروا بها إلى المدينة النبوية »[١]. وفى نفس السنة كما يقول المقريزى احتفل بيبرس بإرسال كسوة الكعبة المعظمة ، وقد حملت « على البغال وطيف بها فى القاهرة ومصر ، وركب معها الخواص وأرباب الدولة والقضاة والفقهاء والقراء والصوفية والخطباء والأئمة ، وسفرت إلى مكة فى العشر الأوسط من شوال ، وفوضت عمارة الحرم لزين الدين بن البورى »[٢] وفى شهر رمضان من سنة ٦٦٢هـ جهزت كسوة قبر النبى ﷺ ، وتعين سفرها مع الطواشى جمال الدين محسن الصالحى ومعها الشمع والبخور والزيت والطيب[٣].

وهذه الطريقة التى اتبعها بيبرس فى الإحتفال بإرسال الأدوات اللازمة للمسجد النبوى[٤]، وكذلك الاحتفال بإرسال كسوة الكعبة ، اتبعها أيضا سلاطين المماليك الذين أتوا بعده ، وخاصة عند إرسالهم كسوة الكعبة التى كانت تخرج من القاهرة كل عام[٥].

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٣٨ .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ١ ، القسم الثانى ، ص ٥٠٢ ، ابن بهادر : فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر ، جـ١ ص ١٠٥ .

(٣) المقريزى : المصدر السابق ، جـ١ ، القسم الثانى ، ص ٥١٢ .

(٤) لم تذكر المصادر أن بيبرس احتفل بارسال الأدوات اللازمة للعمارة القائمة فى المسجد النبوى إلا مرة واحدة وتفسير ذلك أن الأدوات المذكورة ، والحرفيين قد أرسلوا من مصر إلى المدينة بعد الاحتفال المذكور ، أما الأخشاب فكان مصدرها الهند ، ولذلك فلم يتمكن بيبرس من الاحتفال بوصولها .

(٥) على بن حسين السليمان ، العلاقات الحجازية المصرية ، ص ٧٧ .

ويبدو لى أن اهتمام الظاهر بيبرس بعمارة المسجد النبوى منذ أن تولى عرش مصر فى أواخر سنة ٦٥٨هـ حتى عام ٦٦٣هـ كان يتركز على إصلاح مقدم المسجد وإزالة آثار الحريق من الجدران والإسطوانات ، وذلك بالتبييض والدهان ، وغير ذلك من الأعمال ، وهى أعمال لم يتمكن المسئولون عن العمائر السابقة من إنجازها بسبب ضيق الوقت ، ولأنهم كانوا يعتزمون تجهيزه للمصلين والزائرين حتى تمكنوا من إكمال عمارة مؤخر المسجد وجوانبه ، وبذلك يتسنى لهم إخلاء مقدم المسجد حتى يتم تبييضه ودهنه .

ويعتبر الذهبى سنة ٦٦٣هـ هى السنة التى بدىء فيها « بعمارة مسجد الرسول ﷺ »[١] ويؤيد ذلك ما ذكره ابن كثير من أن الظاهر بيبرس بعث سنة ٦٦٣هـ «بأخشاب ورصاص وآلات كثيرة لعمارة مسجد رسول الله ﷺ »[٢]. وزاد ابن حبيب الأمر تفصيلا فقال فى حوادث السنة المذكورة أن السلطان المذكور عزم على « عمارة الحرم النبوى ، وجهز إليه البنائين والحجارين والقطاعين والنجارين وأهل الأعمال على اختلافها ، والآلات مع تباين أنواعها وأصنافها ، وأرسل معهم أميرين وناظرا وطبيبا ومباشرين وسائر ما يحتاجون إليه من المؤن والكلف والأشربة والأدوية»[٣] وقد جرت العادة بإرسال شخص أو أكثر من أصحاب المراكز الممتازة ليكون لهم الإشراف الأعلى على العمل . ومن أجل ذلك فقد أرسل الأميران «جمال الدين محسن الصالحى وشهاب الدين غازى اليعمورى »[٤]، مع الناظر المسئول عن عمارة الحرم الشريف الذى كان يصحبه من الصناع « ثلاثة وخمسين صانعا »[٥] وهم الذين شيدوا بقية سقف المسجد بعد أن توفرت لهم الأخشاب اللازمة خلال المدة المذكورة . وقد ظل العمل فى المسجد النبوى مستمرا حتى

---

(١) العبر فى خبر من ذهب جـ٥ ص ٢٧٣ .

(٢) البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٤٥ .

(٣) ابن حبيب : درة الاسلاك فى دورة الأتراك ، جـ١ ورقة ٢٨ ب .

(٤) الفيروزبادى : المغانم المطابة فى معالم طابة ، ورقة ٨٩ أ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٤ .

(٥) الفيروزبادى : المصدر السابق ورقة ٨٩ أ .

كملت عمارة السقف المتبقى وذلك لمدة أربعة أعوام على ما صرح به الإمام الذهبى[١]، وكان الظاهر بيبرس يمدهم خلالها بالأموال والآلات اللازمة[٢]. ومن ذلك ما ذكره المقريزى من أن الظاهر بيبرس أرسل فى سنة ٦٦٤هـ مع الأمير جمال الدين نائب دار العدل « مبلغ عشرة آلاف درهم لعمارة حرم رسول الله ﷺ، وسير الغلال لجرايات الصناع »[٣] ولم تتم عمارة المسجد النبوى الشريف إلا فى سنة ٦٦٨هـ وليس فى سنة ٦٦٢ هـ كما ذهب إليه على بن حسين السليمان[٤].

* * *

(١) العبر فى خبر من ذهب، جـ٥ ص ٢٧٣ ، ابن حبيب : درة الأسلاك فى دولة الأتراك جـ١ ورقة ٢٨ ب .

(٢) ذكر الفيروزبادى فى المغانم ورقة ٧٩ أ ، بعد كلامه عن ارسال بيبرس للأميرين وناظر الحرم أنه « كلما عارضهم شىء من الآلات والنفقات جهزها إليهم لعمل ما تبقى من المسجد » .

(٣) كتاب السلوك ، جـ١ ، القسم الثانى ، ص ٥٤٤ .

(٤) العلاقات الحجازية المصرية ، ص ٢٠

٢ - صفة العمارة التي اتمها الظاهر بيبرس :

أ - سقوف المسجد وجدرانه :

وجد المشرفون على عمارة المسجد النبوى الشريف أنفسهم أمام خيارات صعبة بشأن صفة السقوف التى ينوون إكمال عمارتها ، فإما أن يتموها على هيئة سقف مقدم المسجد الذى عمر من قبل فى عهد الخليفة العباسى وعلى ابن أيبك ويوسف بن سول بسقفين يعلو أحدهما الآخر ، وإما أن يتموها بسقف واحد تجتمع فيه مميزات السقفين معا . ويبدو أن الرغبة كانت كبيرة لدى المشرفين على هذه العمارة فى عمل سقف المسجد كله أو على الأقل سقفى المجنبتين (الشرقية والغربية) وسقف مؤخر المسجد بسقف واحد ، وهى الصفة التى ترجحت لدى المشرفين على العمارة لأسباب غير معروفة ، إلا أنهم وجدوا أنفسهم مضطرين لإكمال عمارة ما تبقى من سقفى المجنبتين على الصفة التى عمر بها السلطان سيف الدين قطز الأجزاء التى تلى رواق القبلة ، انظر شكل (٤٩) . وقد وصفهما المطرى بأنهما عادا كما كانا « قبل الحريق سقفا فوق سقف »[١] وبينهما مسافة تسمح أن يمر الشخص بينهما قايما »[٢].

وقد كان السقف المزدوج مستخدما فى المسجد النبوى قبل الحريق[٣] وإعادته فى العمارة المملوكية فى المسجد النبوى يشير إلى انتشاره فى العمائر المملوكية ، وتتكون السقوف المزدوجة من مستويين « أحدهما يعلو الآخر ، والعلوى ، وهو ذو الصفة البنائية فى تحمل ضغط البناء ، ويتكون من كتل خشبية ضخمة ، أما السفلى وهو الذى نراه فقد اهتم به المعمار من الناحية الفنية الجمالية »[٤]. وقد قلل هذا النوع من السقوف ما تميزت به جدران المسجد النبوى من إرتفاع بلغ فى

---

(١) التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٢٥ .
(٢) ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار إلى قبر النبى المختار ، ص ٩١ .
(٣) المطرى : المصدر السابق ، ص ٢٥ .
(٤) محمد مصطفى نجيب : العمارة فى عصر المماليك ، ص ٢٣٦ .

عمارة المهدى خمسة وعشرين ذراعاً [1]، وقد احتفظ أيضا بنفس هذا الارتفاع فى عمارة بيبرس للرواقين الشرقى والغربى ، أما الرواق الشمالى فقد انخفض مستوى السطح فيه بسبب استخدام السقف الواحد فى عمارته وبذلك لأنه استقر الرأى على أن يكون سقف الرواق الشمالى على صفة تخالف بقية سقوف المسجد ، الأمر الذى أدى بالمشرفين على عمارة المسجد إلى إعداد الأخشاب اللازمة لهذا السقف، وكانت تلك الأخشاب تختلف من حيث القوة والسمك عن الأخشاب المستخدمة فى بقية سقوف المسجد . وذلك لأنها صنعت لتؤدى الوظيفتين اللتين يقوم بهما السقف المزدوج . وهما : تحمل ضغط البناء الذى كان يقوم به السقف العلوى ثم إيفاء الناحية الجمالية حقها التى كان يؤديها السقف السفلى . فقد كانت تمتاز سقوف العمائر المملوكية بإهتمام الفنانين بزخرفة السقف الأسفل وتقسيمه « إلى مناطق مستطيلة تحيط بها مربعات صغيرة أو قصع مقعرة مستديرة ، وكل هذه المساحات مزخرفة بالزخارف النباتية المحورة (أرابسك) مموهة بالذهب واللازورد»[2].

وفى الغالب قد روعى ذلك أيضا فى سقوف المسجد النبوى وإن لم يشر إليه أحد من المؤرخين . ومن حيث ارتفاع هذا السقف فإن الأمر لا يخلو من احتمالين : إما أن يكون السقف المفرد فى مستوى السقف الأسفل فى كل من المجنبتين ، وفى هذه الحالة يكون البناء قد استخدم إسطوانات بطول الإسطوانات المستخدمة فى مقدم المسجد ومجنبته ، ويكون سطح المسجد على مستويين مختلفين كما يبدو فى الشكل (٥٠) نموذج « أ » والاحتمال الثانى أن يكون البناء قد جعل السقف المفرد فى مستوى السقف العلوى للسقف المزدوج فى مقدم المسجد والمجنبتين ، وفى هذه الحالة يقتضى الأمر زيادة ارتفاع الإسطوانات ويكون

---

(١) انظر أعلاه ص ١٥١ .

(٢) محمد مصطفى نجيب : المرجع السابق ص ٢٣٧ . وقال البيرونى فى كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر ، ص ١٩٥ ، أن اللازورد نوع من الجواهر « يبرد ويجلى ويطحن ويستعمل فى الأصباغ وما دام صحيحا فإنه يضرب إلى لون النيل وربما مال إلى السواد ... وإذا سحق وهو برخاوته مؤاتى للطحن أشرق لونه وجاء منه صبغ مؤنق لا يدانيه شيء من أشباهه » .

سطح المسجد على مستوى واحد بينما يكون سقف الرواق الشمالي أعلى بقامة رجل من سقفي المجنبتين شكل (٥٠) نموذج ب ، مما يترتب عليه أثر فني غير جميل ، خاصة إذا كان قد روعي زخرفة كل من هذه السقوف ، فضلا عما ينجم عن زيادة ارتفاع الإسطوانات من نفقة ووقت وجهد . وقد كان ارتفاع جدران المسجد خمسة وعشرين ذراعا[١] . ويؤيد الإحتمال الأول ما يذكره السمهودي من أنه شاهد قبل الحريق الثاني سقفي الظلتين الشرقية والغربية ، أي سقفي المجنبتين ، على مستوى سقف الظلة الشمالية وأنها جميعا كانت على مستوى سقف مقدم المسجد[٢] .

أما عدد البلاطات التي يتكون منها مؤخر المسجد الذي عمر في عهد الملك الظاهر بيبرس على صفة تخالف بقية سقوف المسجد ، فقد انتقص منها بلاطة واحدة فأصبح عددها أربع بلاطات بدلا من الخمس التي كان يتألف منها قبل الحريق الأول . ويذكر السمهودي أن انتقاص البلاطة المذكورة كان في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون عندما زاد في مقدم المسجد بلاطتين في سنة ٧٢٩هـ[٣] ، أما العبدري الذي زار المسجد النبوي الشريف سنة ٦٨٩هـ ، فيذكر أن في مؤخر المسجد النبوي الشريف أي في ناحية الشمال أربعة صفوف[٤] .

وكان اهتمام الظاهر بيبرس بجمال السقف الأسفل كبيرا إذ جاء أنه طلاه بماء الذهب[٥] ، ومن البديهي ألا تقتصر الزخرفة على ما أنجز من عمارة المسجد في عهده وإنما شملت جميع سقوفه[٦] ، كما جددت بعض الإسطوانات وأصلح

---

(١) احتفظ المسجد النبوي الشريف في هذه العمارة بالارتفاع الذي كان عليه في عمارة المهدي وهو خمسة وعشرون ذراعا أي يعادل ١٢ مترا . انظر الفصل الخاص بعمارة المهدي ، ص ١٥١ .

(٢) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٥ .

(٣) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٧١ .

(٤) رحلة العبدري (الرحلة المغربية) ورقة ١٠٦ أ .

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ص ٢٧٥ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، جـ٧ ص ١٩٤ .

(٦) ابن تغري بردي : نفس المصدر جـ٧ ص ١٩٤ .

البعض الآخر من آثار الحريق[١] وبيضت حيطان المسجد[٢] وإسطواناته بالفضة[٣]، وقد إستغرقت هذه الأعمال الكثيرة جزءا من المدة التى استغرقتها عمارة الظاهر بيبرس للمسجد النبوى من سنة ٦٥٩ ـ ٦٦٨ هـ . وهى فترة لم تستغرقها أية عمارة سابقة . ومع هذا كله لم يعد المسجد النبوى الشريف إلى ما كان عليه ولا إلى قريب منه ، ولم تدخل الفسيفساء هذه المرة فى عناصر زخرفته إلا أنه قد حوفظ على ما بقى منها سالما من الحريق . وكانت أجزاء صغيرة موزعة فى بعض أنحاء المسجد الشريف ، وقد بقيت حتى شاهدها السمهودى فى القرن التاسع وقال عنها « أنها شىء يسير فى مؤخر السقف الغربى بجدار المسجد مما يلى الدكاك[٤]، وشئ يسير بالمأذنة الغربية الشمالية مما يلى بابها فيه شىء من الفسيفساء، وأما جدار القبلة فليس به اليوم (زمن السمهودى) إلا لوح يتضمن صور أشجار عن يمين مستقبل المحراب الشريف ، وهو من الآثار القديمة ، وكان يقابله فى جهة يسار المستقبل لوح مثله سقط قريبا ، ثم زال ذلك كله فى الحريق الثانى »[٥].

وإذا كانت القناديل التى كانت تحلى سقوف المسجد النبوى ، قد تلفت فى

---

(١) عن اسطوانات الرخام التى قام بيبرس باستبدالها نظرا لتلفها باسطوانات الحجر المنحوتة . انظر اعلاه ص ٢١٦ وما بعدها .

(٢) ابن تغرى بردى : المصدر السابق جـ٧ ص ١٩٤ .

(٣) ذكر العبدرى الذى زار المدينة بعد انتهاء عمارة الظاهر بيبرس بواحد وعشرين عاما فى ورقة ١٠٦ أ من رحلته « أن أساطينه مبيضة بالفضة » ولا يعقل أن يكون التبييض الذى أشار إليه ابن تغرى بردى فى جدران المسجد بالفضة أيضًا فلعل التبييض فى جدران المسجد بالقصة وفى أساطينه بالفضة .

(٤) انظر أدناه ص ١٩٨ وما بعدها .

(٥) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٧٢ ـ ٦٧٣ . ذكر البلوى الذى زار المدينة المنورة سنة ٧٣٧هـ فى رحلته الموسومة بتاج المفرق ، جـ١ ص ٢٨٧ ، وصفا لجدار القبلة يظن لأول مرة أنه تجسيد لواقع المسجد أثناء زيارته للمدينة ، غير أنه يتبين من مقارنة ما يذكر بما أورده ابن جبير فى رحلته ص ١٧٢ ، أنه استقاه منه إذ يقول : « ونصف جدار القبلة الأسفل رخام موضوع إزار على إزار مختلف الصنعة مجزع أبدع تجزيع والنصف الأعلى من الجدار منزل كله بالذهب قد انتج فيه نتائج غريبة من الصنعة فيها تصاوير أشجار مختلفات الصنعة مائلات الأغصان فيه بثمرها . والمسجد المكرم كله على تلك الصفة ، لكن الصنعة فى جدار القبلة أحفل »

الحريق المذكور ، فإن ما كان يختزن فى قبة صحن المسجد الشريف من أمثالها قد قلل من حجم الخسارة ، وقد أستعين بهذه القناديل فى إنارة جزء من المسجد الشريف بالإضافة إلى ما ورد من مصر من شماعد ومشكوات زجاجية ، وقناديل كانت تصل دائما للمسجد الشريف عند الانتهاء من كل عمارة[١].

ب - منبر المسجد النبوى الشريف :

أتلف الحريق الأول سنة ٦٥٤هـ المنبر الشريف الذى كان يزين المسجد النبوى الشريف[٢]. وبقى المسجد بعده دون منبر يخطب عليه حتى أخذ الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول على عاتقه عمل منبر جميل الصنعة طيب العود وصفت رمانتاه بأنهما من الصندل ، ونصب فى موضع المنبر الأول سنة ٦٥٦هـ[٣]. وظل يخطب عليه عشرة أعوام حتى استبدله الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦هـ بمنبر جميل امتاز بدقة الصنعة التى ميزت المنابر المملوكية المصنوعة من الخشب آنذاك[٤]، ويصفه البلوى الذى زار المدينة فى موسم ٧٣٧هـ وشاهده أنه « فى أدق نمنمة[٥] وأوضحها رقم[٦] من رفيع الأبنوس ونفيس الصندل الأحمر والأصفر والبقس

---

(١) تعرضت هذه القناديل المصنوعة من الذهب والفضة لسرقات عديدة من أمراء المدينة مما سأشير إليه عند الكلام عن أثاث المسجد الشريف .

(٢) انظر ما نقلته عن المطرى بخصوص تشككه فى بقاء منبر الرسول عليه السلام حتى زمن الحريق فى حاشية ص ١٩٨ .

(٣) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٢٥ .

(٤) اعتبر زكى محمد حسن فى فنون الإسلام ص ٤٦٧ ، المنابر المملوكية من التحف الدقيقة وذلك لأن النجارين استطاعوا « أن يبدعوا فى زخرفة الحشوات بالرسوم الدقيقة واصبح العنصر الزخرفى السائد فى ترتيب الحشوات تجميعها بحيث تؤلف أطباقا نجمية وأجزاء من أطباق .

(٥) يعنى أدق صنعة . والنمنمة كما يقول ابن منظور فى لسان العرب ، جـ١٢ ص ٥٩٣ « خطوط متقاربة قصار شبه ما تنمنم الريح دقاق التراب ، ولكل شىء نمنمة : وكتاب منمنم منقش ونمنم الشىء نمنمة أى نقشه وزخرفه . وثوب مرقوم موشى .

(٦) يعنى طعم .

واللبع والبقم والشوحط والقيعب[١] بأحكم تصنيف وأبدع تركيب »[٢]. ورغم جدوى هذا الوصف الذى أورده البلوى عن أنواع الخشب التى طعم بها هذا المنبر، إلا أنه لا يغنى عما أورده الفيروزبادى المتوفى سنة ٨١٠هـ من معلومات مفيدة عن حال هذا المنبر الذى قال عنه أن « طوله أربعة أذرع فى السماء ومن رأسه إلى عتبته سبعة أذرع يزيد قليلا . وعدد درجاته سبع بالمقعد وفى جانبه الشرقى تجاه الحجرة الشريفة طاقة صغيرة مفتوحة مثمنة دورها [٣] يزيد على ذراع ويقال أنه مثال الطاقة التى كانت فى المنبر الذى كان غشيا[٤] لمنبر النبى ﷺ ، وكان الزايرون يدخلون أيديهم من تلك الطاقة فيتمسحون بالمنبر الشريف من داخله[٥].. وللمنبر باب بمصراعين فى كل مضراع رمانة من فضة وتاريخ المنبر مكتوب فى عتبة الباب بنقر فى الخشب صورته فى سنة ست وستين وستمائة ، وكتب على جانبه اسم صانعه أبو بكر بن يوسف النجار »[٦].

---

(١) البقس واللبع أو النبع والبقم والشوحط والقيقب ، أنواع من الأشجار معروفة يصبغ بطبخها ، والبقس شجر معروف كالآس ورقا وحبا ، صلب تتخذ منه المغالق والأبواب والمعالق والأوانى ، والبقم شجر يصبغ به قيل هو العندم (دخيل معرب) ورقه كاللوز وساقه أحمر والشوحط ضرب من النبع تتخذ منه القس وهو ما ينبت فى الحضيض والنبع ما ينبت فى الأعالى » . انظر البلوى : تاج المفرق جـ١ حاشية ص ٢٨٦ .

(٢) نفس المصدر : جـ١ ص ٢٨٦ .

(٣) يقصد طول ضلعها .

(٤) يعنى غطاء لمقعد رسول الله ﷺ . وهو المنبر الذى صنعه معاوية رضى الله عنه ، ووضعه فوق منبر الرسول عليه السلام لكى يخطب عليه ويصان منبر رسول الله من الجلوس عليه . انظر شكل (٤١) .

(٥) هذه من البدع التى شاع العمل بها فى زمن المؤلف .

(٦) الفيروزبادى : المغانم المطابة فى معالم طابة ، ورقم ١٠١ أ ، وقد ذكر ابن فرحون المتوفى سنة ٧٦٩هـ فى نصيحة المشاور وتعزية المجاور ، ص ١٦٠ . أنه أدرك هذا النجار فقال : « وكان ممن أدركناه من الأكابر الصلحاء المتقدمين فى عمارة الحرم بالنجارة الشيخ أبو بكر بن يوسف المعروف بالمحجوب النجار . قدم المدينة بعد حريق الحرم بالمنبر الشريف الموجود اليوم فصنعه فأحسن فى صنعه وفى نجارته وكتب إسمه عليه وذلك فى سنة ست وستين وستمائة ، إنقطع بالمدينة إلى أن توفى بها رحمه الله » .

وكما اهتم الظاهر بيبرس بالمنبر الذى رأينا من وصفه مدى عنايته به ، فقد إهتم أيضا بالمحراب النبوى الشريف الذى عده الفيروزبادى والسمهودى عملا فنيا يليق بالمقام الشريف ، وقد أدركاه قبل أن يدمره الحريق الثانى ولكنهما لم يصرحا بنسبته إلى الملك الظاهر بيبرس أو غيره من ملوك المماليك الترك . بيد أننى من خلال الوصف الذى تقدم عن حال المنبر الذى أرسل به إلى المسجد النبوى وللإهتمام الكبير الذى أولاه لعمارة المسجد الشريف ، أعتقد أنه عمل فى عهده إذ لا يعقل أن يهتم بالمنبر دون المحراب ، وقد وصفه الفيروزبادى[1] فقال : إن فى موضع جدار القبلة الذى كان على عهد رسول الله ﷺ « محراب خشبى قد أنتج الصناع فيه نتائج مبدعة من صنعة النجارة ، وفيه حجرة صغيرة مكتوب فى داخلها بنقر فى الخشب قبل وجه الإمام بعد البسملة آية الكرسى ، وقد قنطر على بابها بالخشب المنجور البديع الصنعة المرسوم بأنواع من الأصبغة . مكتوب عليه بعد البسملة « قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة رضاها »[2].

وجاء أنه مطلى بالذهب واللازورد ، ومكسى من داخله بكسوة من الحرير « من جنس كسوة الحجرة الشريفة ذات طراز منسوج »[3]. وبما أنه لا يرتكز على جدار كشأن المحراب العثمانى فقد أدعم من ورائه « بدعامة شبه التاج العظيم »[4]، ثم وضع درابزين الخشب عن يمين المحراب وشماله فى موضع جدار القبلة الذى كان على عهد رسول الله ﷺ ، تمييزا لجدار ، القبلة الأولى عن الجدار الذى استحدث بعد زيادة عثمان رضى الله عنه ، والذى يقع بعد بلاطتين من الدرابزين المذكور ، وجاء أنه وضع بأعلى المحراب المذكور « وعن يمينه وشماله مع امتداد الروضة مغارز لفرخات القناديل[5] المسماه بالبزاقات تسرج فى ليالى

---

(١) المغانم المطابة فى معالم طابة ، ورقة ٩٥ أ ، ب .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٤٤ .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٧٧ .

(٤) نفس المصدر ، جـ١ ص ٣٧٧ .

(١) المقصود بها صغار القناديل . وقد ذكر ابن منظور فى لسان العرب جـ٣ ص ٤٢ أن كلمة فرخ تستعمل « فى كل صغير من الحيوان والنبات والشجر وغيرها ، والجمع أفرخ وأفراخ وأفرخة » .

الزيارات »[١]. ويبدو أن بيبرس أول من أقام المحراب بشكله المجوف في موضع مصلى النبي ﷺ ، إذ أنني لم أقف من خلال المصادر التي اطلعت عليها إلى من يشير أنه عمل بشكله المجوف قبل عمارة بيبرس له[٢]. بل كان يكتفي للدلالة على موضع المصلى الشريف بالمحافظة على المستوى الذى كان عليه المصلى في عهد رسول الله ﷺ حتى تشكل من ذلك شبه حوض مربع مرخم طوله ستة أشبار وعرضه أقل من ذلك بنحو شبر[٣].

وعلى أية حال فإن هذا العمل وغيره من الأعمال التي قام بها الملك الظاهر بيبرس في المسجد النبوى تكشف بوضوح عن مدى العناية التي أولاها هذا الملك لعمارة الأماكن المقدسة .

جـ - منارات المسجد النبوى :

لم أجد من المؤرخين الذين تيسر لى الاطلاع على مصنفاتهم من ذكر أن أحدا من ملوك المماليك البحرية ، أو ممن سبقوهم عمّر أى منارة من منائر المسجد النبوى الشريف بعد الحريق الأول ، خلا ما ذكره ابن فرحون من تعمير شيخ الحرم كافور المظفرى لمنارة باب السلام سنة ٧٠٦هـ في سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية سنة ٦٩٨ - ٧٠٨ هـ وكان المسجد النبوى يحتفظ بثلاث منائر منذ عمارة الوليد بن عبد الملك له في حدود سنة ٩١هـ ثم قام المهدى العباسى بتجديد المنارتين الشماليتين فقط أثناء عمارته للمسجد النبوى الشريف . وقد شاهد ابن جبير الذى زار المسجد سنة ٥٨٠ هـ هذه المنائر وقال أنها « ثلاث صوامع إحداها في الركن الشرقى المتصل بالقبلة والإثنتان في ركني الجهة الجوفية صغيرتان كأنهما على هيئة برجين ، والصومعة الأولى المذكورة على هيئة

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٧٧ .

(٢) أن الروايات التي تناقلها المؤرخون العرب وغيرهم منصبة على المحراب المجوف الذى عمل في عمارة الوليد بن عبد الملك في موضع المحراب العثماني .

(٣) رسالة في وصف مكة والمدينة وبيت المقدس لمجهول من القرن الرابع الهجرى - مجلة العرب - السنة الثانية ، العدد ٥ ، ٦ سنة ١٣٩٣هـ ص ٣٥٠ .

(٤) انظر أعلاه ص ١٥٨ .

الصوامع »[٤] وزار العبدرى المدينة سنة ٦٨٩هـ ، بيد أن وصفه للمنائر التى شاهدها فى المسجد النبوى قاصر لا يفى بالغرض[١]. وذكر ابن فرحون المتوفى سنة ٧٦٩هـ فى إشارة يسيره يستدل منها على تجديد المنارتين الشماليتين فى زمن سابق وقد اعترض على ما أحدث بهما إذ يقول : إن أحق شيء بالإزالة « ما أحدث بالمنارتين الشماليتين قدم باباهما على بابيهما الأصليين ، وجعل ما بين البابين فى كل منارة خلوة اقتطع فيهما جانب كبير من المسجد »[٢].

ومن المعروف أن عمارة الظاهر بيبرس المجمع عليها كانت فى هذا الجانب من المسجد ، ولذلك فإن المنارتين المذكورتين كانتا مما عمر آنذاك إلا أنه يؤخذ مما ذكره السمهودى من إدراكه لبعض فسيفساء المسجد فى عهد المهدى بجدار «المنارة الغربية الشمالية مما يلى بابها »[٣]، أن المنارتين اللتين كانتا فى مؤخر المسجد على شكل برجين لم تهدما إلى أساسهما ، بل زيد فيهما فقط فى مستوى سطح المسجد فى عهد الظاهر بيبرس ، ويزكى ذلك أن المؤرخين الذين تعرضوا لتاريخ المسجد النبوى يذكرون أن منائر المسجد الشريف لم يحدث بها تجديد أو بناء بعد اكتمال عمارة المسجد فى عهد الظاهر بيبرس إلا فى سنة ٧٠٦هـ ، عندما أعاد شيخ الحرم آنذاك بناء المنارة الجنوبية الغربية (منارة باب السلام) وعندما هدمت الطاعقة المنارة الرئيسية (الجنوبية الشرقية) وسببت الحريق الثانى سنة ٨٨٦هـ .

ويزيد ذلك تأكيدا ما يذكره ابن المحجوب ، الذى زار المسجد النبوى فى القرن التاسع[٤]، عن هذه الصوامع الأربع من أنها « على صفة صوامع مصر وهى من

---

(١) رحلة العبدرى : ورقة ١٦ ب ، حيث يذكر أن « فى المسجد ثلاث صوامع اثنتان على الركنين الجنوبيين (صحته الشماليين) وواحدة فى مؤخر المسجد (صحته مقدم المسجد » .

(٢) نصيحة المشاور وتعزية المجاور ، ص ١٥ .

(٣) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٧٣ .

(٤) ذكر سوفاجيه فى تحليله لمصادر كتابه ، المسجد الأموى فى المدينة ص ٢٧ أن وصفه للمسجد كان ينبئ بأنه كان حيا فى سنة ٨٦٠هـ / ١٤٥٦م .

تجديد ملوك الترك »[١]، وقد أضاف إلى ذلك أن ابن زبالة ذكر أن طولها فى زمنه كان خمسة وخمسين ذراعا . وعنده « أن طول هذه الصوامع الموجودة الآن هنالك فى هذه المائة التاسعة يقرب من مائة ذراع »[٢].

وهو تقدير يختلف عما أثبته السمهودى عند ذرعه لهذه المنائر قبل الحريق الثانى ، إذ يقول معقبا على كلام ابن جبير « فكأن الشاميتين غيرتا بعد ابن جبير فإنهما اليوم على هيئة الشرقية اليمانية المعروفة اليوم بالرئيسية ، لاختصاص الرئيس بها ، وكان طول المنارة الرئيسية فى زماننا أولا (قبل الحريق الثانى) من رأس هلالها إلى أسفلها خارج المسجد بالبلاط سبعة وسبعين ذراعا .. وطول المنارة الشرقية الشامية وهى المعروفة بالسنجارية تسعة وسبعون ذراعا . وطول الشامية الغربية المعروفة بالخشبية اثنان وسبعون ذراعا ، كل ذلك من أعلى الهلال إلى الأرض الخارجية عن المسجد وبه يعلم أن المنارات التى كانت فى زمن ابن زبالة ليست هى الموجودة اليوم »[٣].

كما أن ما ذكره السمهودى من مشاهدته لاسم الظاهر بيبرس على خشب السقف القريب من المنارة الرئيسية فى مقدم المسجد عند انكشافه فى العمارة التى أدركها سنة ٨٨١هـ[٤]. وهو مما عمر فى عهد الخليفة العباسى المستعصم بالله (أى قبل عمارة الظاهر بيبرس للمسجد النبوى) ، ودليل آخر على كشف السقف مما يلى المنارة الرئيسية التى أعيد تجديدها فى عهد الظاهر أيضا . إلا أن نسبة تجديد هذه المنائر إلى الظاهر بيبرس يعتمد على طول المدة التى استغرقتها عمارة المسجد فى زمنه ، وعلى الاختلاف الملحوظ بين أرباب الصنائع الذين بعث بهم الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣هـ إلى المدينة ، والذين كان منهم بناؤون وحجارون وقطاعون ومطينون أى أصحاب حرف متخصصة فى البناء لم يكن ما يدعو إلى قدومهم إلى

---

(١) ابن المحجوب : قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٦٨ أ .

(٢) نفس المصدر ، ورقة ٦٨ أ .

(٣) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٢٧ ، ويقصد بكلمة اليوم المتكررة فى الكلام المنقول عنه زمن السمهودى المتوفى سنة ٩١١هـ .

(٤) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٠٨ .

المدينة إذا كان الأمر قد اقتصر على تسقيف المسجد النبوى الشريف

د - درابزين الحجرة الشريفة :

تعتبر حجة الظاهر بيبرس سنة ٦٦٧هـ ، كدليل آخر على عنايته بالحرمين الشريفين ، واهتمامه بمشاهدة العمارة القائمة فى المسجد النبوى الشريف ، التى أشرفت على الانتهاء عندما زار المدينة المنورة فى ذلك العام وأخذ يتفقد ما أنجزه منها مما أولاه كل اهتمامه . وكان لما اقترحه أثناء حجته من إحاطة الحجرة الشريفة بدرابزين من الخشب المخروط ردود فعل مختلفة لم تتضح آثارها إلا بعد ما نصب الدرابزين على الحجرة الشريفة فى سنة ٦٦٨هـ ، فحجز « طائفة من الروضة الكريمة مما يلى بيت النبى ﷺ ومنع الصلاة فيها مع فضلها وفضل الصلاة فيها»[1] . وبلغ من اهتمام بيبرس بإقامة الدرابزين توليه شخصيا أمر قياسه بيده

---

(١) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٣٥ ، البلوى : تاج المفرق فى تحليله علماء المشرق جـ١ ص ٢٨٦ ، الاسفرائينى : زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال ورقة ١٨٨ أ ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦١٣ . وذكر ابن المحجوب ما سمعه « من زعم بعض الناس أن سبب ذلك خرقة حيض وجدها خدام المسجد المرفع (المقدس) عند رأس النبى ﷺ فأنكر ذلك السلطان بيبرس وأمر بجعل الشباك ليكون حاجزا بين الناس وبين القرب من الحجرة الكريمة ، لأن بينه وبين جدارها قريب من سبعة أذرع أو ثمانية .. » قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٧٣ أ . وقد ظل هذا الدرابزين موضع جدل ونقاش بين بعض العلماء والسلاطين تارة وبين العلماء أنفسهم تارة أخرى . فقد ذكر ابن جماعة فيما ينقله عنه السمهودى أن الظاهر بيبرس حدث فى أمر هذا الدرابزين وما حجز من الروضة الشريفة فلم يلتفت لشىء من ذلك وذكر أنه تحدث شخصيا مع الملك الناصر عندما زار المدينة سنة ٧٣٢هـ فى غلق الدرابزين أيام المواسم فسكت ولم يجبه . وذكر السمهودى ما دار بين النجم ابن حجى قاضى الشام والوالى العراقى بخصوص إغلاق أبواب الدرابزين ، وأن اغلاقها لم يتم إلا عندما تولى النجم ابن حجى ديوان الإنشاء فتسبب فى بروز المراسيم السلطانية سنة ٨٢٨هـ بالأمر بغلقها ، ثم ذكر السمهودى أنه عزم على مفاتحة الأشرف قايتباى سنة ٨٨٤هـ بشأن فتح بعض أبواب الدرابزين فى غير أيام المواسم . إلا أنه تراجع عندما تبين له إعراض الأشرف من دخول الحجرة الشريفة . ويستدل على وجوب فتحة بما ذكره شرف الدين المناوى : « من أن ذلك المحل من المسجد فإن كان وجود القذر فيه مقتضيا لتعطيله وصيانته بالغلق فليغلق المسجد بأجمعه . فإن حكم الكل واحد من حيث وجوب صونه واختصاص ما تقرب من المحل الشريف بمزيد التعظيم حاصل بالجدار الكائن عليه » . انظر وفاء الوفا جـ٢ ص ٦١٤ - ٦١٧ .

وحمل القياس معه إلى القاهرة (١)، حيث صُنع الدرابزين بأيدى أمهر الصناع .

وكان من وصفه أنه كان عاليا وقد قدره بعض المؤرخين بقامتين(٢)، وله ثلاثة أبواب ، أحدها في الجانب القبلى والثانى فى الجانب الشرقى والثالث فى الجانب الغربى ولهذه الأبواب مصاريع « تغلق بأقفال وثيقة ثم يفتحها خدمة وقود القناديل الدايرة بالحجرة الكريمة عند دخولهم لوقود القناديل »(١) وعلى كل باب منها نص تذكارى يؤرخ لإقامتها أورده البلوى الذى زار المدينة سنة ٧٣٧هـ ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم خدم بهذه الداربزينة للحرم(٤) الشريف مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبي الفتح بيبرس الصالحى ، قسيم أمير المؤمنين(٥)، فى سنة ثمان وستين وستمائة »(٦).

ولا بد أن كان هذا الدرابزين دقيق الصنعة متناسبا مع عظمة المكان الذى جيء من أجله وجديرا باهتمام السلطان به شخصيا ، خاصة وأن فن خرط الخشب ونمنمته قد بلغ أوج عظمته فى العصر المملوكى(٧)، ويؤكد ذلك المنبر الذى أرسله الظاهر بيبرس إلى المسجد النبوى سنة ٦٦٦هـ ، والذى كانت تتمثل فيه الأساليب الفنية فى خرط الخشب وحشواته الدقيقة .

ولعل من المفيد وأنا بصدد الحديث عن الحجرة الشريفة على ساكنها أفضل

---

(١) المطرى : التعريف بما انست الهجرة ، ص ٣٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٥ ، المراغى : تحقيق النصرة ص ٨٥ .

(٣) ابن المحجوب : قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٧٣ ب .

(٤) صححها بزينة الحرم .

(٥) من الألقاب الرفيعة المضافة إلى أمير المؤمنين ومعناه مقاسم أمير المؤمنين فى سلطانه . وتلقب به بنو بويه فى فارس والعراق والسلاجقة فى أواخر عهدهم . وفى القرن السابع الهجرى عم إطلاقه على كبار سلاطين العالم الإسلامى ، ثم تلقب به الظاهر بيبرس عندما نقل الخلافة إلى مصر ، وتابعه ملوك المماليك الترك فى التلقب به انظر حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٧

(٦) البلوى تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق جـ١ ص ٢٨٦

(٧) زكى محمد حسن فنون الإسلام ص ٦٧٤

الصلاة والسلام أن اذكر ما ورد فى سيرة الظاهر بيبرس من تعليق الكوكب الدرى على المقام الشريف عندما زار المدينة الشريفة[١]، وكان قد غنم هذا الكوكب كما يقول مؤلف السيرة من بعض ملوك الهند، ووصفه بأن له نوراً يأخذ البصر فهو كالشمس فى وضح النهار وكالقمر فى سناه[٢]. وقد بالغ مولف السيرة فى وصف هذا الكوكب وفى سرور السلطان بيبرس بالحصول عليه، ومع ذلك لا أجد له ذكر عند العبدرى، الذى زار المدينة سنة ٦٨٩هـ، ولا عند المطرى المتوفى سنة ٧٤١هـ، الذى هو أقدم من أرخ لتلك الفترة فى شىء من الوضوح، وعنده أن علامة الوجه الشريف « مسمار فضة مضروب فى رخامة حمراء »[٣] ولعل هذا المسمار هو ما عناه مؤلف السيرة الذى أسرف فى المبالغة والخيال فيما ذكره من حوادث وشخصيات تضمنتها السيرة التى حاكها عن الظاهر بيبرس .

هـ - فرش المسجد النبوى :

كان لابد للمسجد الشريف بعد هذه العمارة من تغيير رمل المسجد القديم بما علاه من آثار الحريق وفرش أروقته برمل جديد كما كان متبعاً بعد كل عمارة . وكان وادى العقيق هو مصدر الرمل دائماً[٤]، كما دعا الأمر إلى فرش المسجد وتجديده . ورغم افتقارى إلى دليل صريح عن مصدر الرمل الذى فرش به المسجد بعد إكمال عمارة الظاهر بيبرس، إلا أن ما أورده العبدرى عند زيارته للمسجد سنة ٦٨٩ هـ من أنه « مفروش برمل أحمر »[٥]. قد يشير إلى أن مصدره كان من وادى العقيق المشهور بحمرة رمله، بيد أنه يحتمل أن يكون الرمل قد جدد بعد

---

(١) لم يحج الظاهر بيبرس إلا مرة واحدة كانت فى سنة ٦٦٧هـ . انظر على ابن حسين السليمان: العلاقات الحجازية المصرية ص ١٢٩ .

(٢) سيرة الظاهر بيبرس، لمجهول، جـ٣ ص ٤٨٧ .

(٣) المطرى التعريف بما انست الهجرة، ص ٢٢، البلوى : تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، جـ١ ص ٢٨٥ الاسفرائينى : زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال، ورقة ١٥٩ أ .

(٤) ذكر المطرى فى المصدر السابق، ص ٥٩ - ٦٢ عدة أحاديث وردت فى فضل وادى العقيق المبارك ولذلك كان الحرص الشديد على فرش المسجد برمل منه تبركا به ولأن لونه أحمر جميل.

(٥) رحلة العبدرى : ورقة ١٠٦ أ .

الظاهر بيبرس ، وذلك لأنه طرأ على مقدم المسجد بعد هذه العمارة انخفاض ملحوظ في الحفرة المحيطة بالمقام النبوى الشريف مما يكون قد « تجدد بعد الحريق الأول »[1] بالإضافة إلى احتمال بقاء رمل المسجد الأول وآثار سقفه المتهدم ، تحرجا من إخراجه من المسجد[2] ، أو لأن تفاوت مراحل تعمير مقدم المسجد بعد الحريق فيما بينها[3] ، سبب ارتفاع أرض رواق القبلة عن مستوى موضع مصلى الرسول ﷺ وقد أدرك ابن فرحون هذا العلو فى أرض رواق القبلة عن مصلى الرسول ﷺ وقال أنه ذراع وأنه كان يرى دائما « الشيوخ من أهل الخير ينفضون الرمل من الروضة[4] ، فينسفونها نسفا بالمساحى حتى يعلو ما حول المحراب من الرخام محافظة على قرب المأموم من الإمام فى العلو »[5] .

وقد حاول قاضى المدينة محمد بن سليمان الحكرى المتولى لقضاء المدينة فى حدود سنة ٧٦٠هـ « إزالة الحفرة التى فى المحراب إما بسدها بحصى أو تطبيقها بأخشاب فعارضه الخدام ، فلم يكترث بهم وصنع لها لوحا يقف عليه الإمام »[6] .

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٣٧٦ .

(٢) نقل السمهودى فى وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٥٦ ما رواه الأقشهرى عن شيخ الخدام ظهير الدين ابن عبد الله الأشرفى قال أتانى عام خمسة عشر وسبعمائة رجل من الشام فى موسم الحاج وقال: كنت حججت عام أول ، وحملت شيئا من تراب المسجد وحصبائه فلم أزل أراه فى المنام يقول لى : ردنى إلى موضعى عذبتنى عذبك الله ، فها أنا أتيت به . قال : فأخرج صرة فيها ما ذكره فصببناه فى المسجد . وقد أورد السمهودى فى المصدر السابق جـ٢ ص ٦٥٥ أحاديث تمنع إخراج رمل المسجد منه ، إلا أنه نقل أيضًا عن الإمام مالك ما يفيد بجواز إخراج رمل المسجد منه. كما ذكر فى ص ٦٢٤ أنهم عملوا من الردم الذى أخرجوه من الحجرة الشريفة فى عمارة، قايتباى الأولى دكة بارزة فى مؤخرة المسجد النبوى .

(٣) لم يعمر مقدم المسجد فى عهد ملك واحد ، وإنما عمّر المستعصم العباسى الحجرة الشريفة وما حولها وعمّر نور الدين أيبك ويوسف بن رسول من الروضة إلى باب السلام . وعمّر قطز إلى باب الرحمة وإلى باب جبريل انظر أعلاه الشكل (٤٩) .

(٤) يقصد تقليل ارتفاع رمل مقدم المسجد وذلك بقطع جزء منه .

(٥) نصيحة المشاور وتعزية المجاور ص ٢٠ ، وقد زاد ابن المحجوب فى قرة العين فى أوصاف الحرمين ورقة ٧٨ ب « أن الحصباء تعوض فى كل عام عند انقضاء موسم الزيارة لأجل تلويثه بأوساخ الجهلاء وعدم تعظيم العوام » .

(٦) الفيروزبادى : المغانم المطابة ، ورقة ١٦١ ب .

ولكن ذلك لم يدم لعزل القاضى المذكور عن قضاء المدينة بعد ذلك بقليل[١]. وبقى هذا الانخفاض فى موضع المصلى حتى قطعت أرض المسجد بعد الحريق الثانى[٢] فاستوى مع بلاط المصلى الشريف .

وفى صحن المسجد احتفظ بالقبة التى عملها الناصر لدين الله العباسى سنة ٥٧٦هـ والتى سلمت من الحريق لخلوها من الأخشاب وبعدها عن سقوف المسجد ، ويعتقد أن الستائر التى كان يستر بها صحن المسجد أيام الجمع والمواسم ، والتى كان أبو جعفر المنصور أول من استحدثها ثم جددها الرشيد فى خلافته[٣] ، قد احترقت داخل الخزانة التى شبت فيها النار أول الأمر . ويرجح أن الظاهر بيبرس قد استحدثها من جديد إعتمادا على ما يذكره القرطبى من أن الملك الناصر محمد بن قلاوون لم يستخدمها عندما جدد البلاطتين اللتين فى مقدم المسجد مما يلى صحنه سنة ٧٢٩هـ[٤] ، مما يشير إلى أنها كانت مما استحدث بعد الحريق الأول .

واحتفظ المسجد الشريف فى عمارة بيبرس بأبوابه الأربعة التى كانت قبل الحريق وهى : باب السلام وباب الرحمة من ناحية المغرب ، وباب جبريل وباب النساء من ناحية الشرق »[٥] ، وكان ذلك مما أدركه المطرى المتوفى سنة ٧٤١ هـ .

ومن المفيد أن أختم الحديث عن العمارة التى أتمها الظاهر بيبرس للمسجد النبوى الشريف بما ذكره أحد الرحالة الذين زاروا المسجد بعد انتهاء عمارته بواحد وعشرين عاما فقد وصفه بأنه « عالى السمك مبيض مدور بالسقايف[٦] ، عجيب المنظر ، ووسطه فضاء مفروش برمل أحمر ، وأساطينه بالفضة عالية متسع ما بينها

---

(١) ذكر الفيروزبادى فى نفس المصدر أن الخدام عارضوه فلم يكترث بهم ، فوافق ذلك قدوم ابن جماعة إلى المدينة فانكر عليه ذلك وكتب إلى السلطان يطلب عزله . انظر ورقة ١٦١ ب .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٧٦ .

(٣) انظر اعلاه ، ص ١٤٦ .

(٤) القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ، ص ١٣١ ، وانظر ابن الضياء : تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف ورقة ١٤٤ ب .

(٥) رحلة العبدرى : ورقة ١٠٦ ب ، الاسفرئينى : زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال ورقة ١٨٦ ب .

(٦) يقصد الأروقة المحيطة بالصحن ، أو ما يسميه البعض الظلات

وأوسع سقايفه ناحية الجنوب ، وفيها المحراب وهى خمسة صفوف ، وفى مؤخر المسجد وهى ناحية الشمال أربعة صفوف[١] ، وفى ناحية الشرق ثلاثة صفوف وفى الغرب أربعة صفوف ، وفى الناحية الشمالية فى فضاء المسجد بيت مربع مليح هو مخزن المسجد[٢] ، وبالقرب منه نخلات صغار[٣] ، فاخرات »[٤] . انظر شكل (٤٩) .

ولم يغفل الظاهر بيبرس بعد هذه العمارة عن الاهتمام بأمر سكان الحرمين الشريفين فجدد بيمارستان المدينة المنورة « الذى أنشأه أبو جعفر المنتصر بالله سنة سبع وعشرين وستمائة » [٥] ، وقد اهتم به كثيرا بأن نقل إليه سائر المعاجين والأكحال والأشربة وبعث إليه طبيباً من الديار المصرية »[٦] .

وأجرى على أهل الحرمين من الخدام والمجاورين بصفة خاصة وسكان الحجاز من أهل بدر وغيرها بصفة عامة « ما كان انقطع فى أيام غيره من الملوك »[٧] من جرايات . وظل يهتم بأمر شيوخ المسجد وخدامه ، ومن ذلك أنه عندما قدم الطواشى جمال الدين محسن الصالحى شيخ خدام الحجرة النبوية الشريفة إلى القاهرة سنة ٦٦٧هـ ، فإنه أكرمه وقربه ودفع له « زيادة على مائتى ألف درهم»[٨] .

---

(١) هذا دليل قوى على مخالفة ما ذكر من أن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون هو الذى انقص الظلة الشمالية إلى أربعة صفوف بعد زيادته للبلاطتين اللتين فى مقدم المسجد مما يلى الصحن .

(٢) أن ما يقصده المؤلف بالمخزن هى القبة التى بناها الخليفة العباسى سنة ٥٧٦هـ . انظر شكل (٦١) .

(٣) يقصد حديثة الغرس لم تكبر بعد .

(٤) رحلة العبدرى (الرحلة المغربية) ، ورقة ١٠٦ أ ، ب .

(٥) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٩٥ .

(٦) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٧ ص ١٩٤ ، ابن بهادر : فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر ، جـ٧ ص ١٣٦ .

(٧) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٧ ص ١٨٠ .

(٨) المقريزى : كتاب السلوك ، جـ١ القسم الثانى ، ص ٥٨٠ .

بهذه الأعمال التى أداها الملك الظاهرة بيبرس للحرمين الشريفين ، وبما كان له من دهاء وحنكة سياسية ، إستطاع أن يفرض زعامة الدولة المملوكية في مصر على العالم الإسلامى آنذاك وكان أول من أقر بذلك خصمه الأول يوسف بن عمر بن رسول الذى أبىَ فى حج سنة ٦٥٩ هـ أن تظهر أعلامه إلى قرن عرفه قبل أعلام ملك مصر وقد قال لمن أشار عليه بذلك « أترانى أؤخر أعلام ملك كسر التتر بالأمس وأقدم أعلامى لأجل حضورى ومغيبه ؟ لا أفعل هذا أبدا »[١]، ثم قام بكسوة الكعبة وبعض لوازم الحرم المكى[٢]، بيد أنه يبدو أن ما قام به الملك المظفر فى سنتى ٦٥٩ ، ٦٦١ هـ من إرسال كسوة « البيت المعظم وكسوة الحجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام »[٣]، وكان بإذن من الظاهر بيبرس ، وذلك لأنه قد تابع هذا الولاء بإرسال الهدايا فى سنة ٦٦٦هـ، وطلب من الظاهر معاضدته له وشرط له أن يخطب له ببلاده[٤].

* * *

---

(١) الخزرجى : العسجد المسبوك فيمن تولى اليمن من الملوك ، ص ٢٣٨ . وقد كانت الأولوية فى ظهور أعلام المحمل إلى رأس جبل عرفة فى يوم الوقفة - التاسع من شهر ذى الحجة - مخصصة لمن كانت له السلطة على الحرمين الشريفين ، كما أن ذكر اسم السلطان فى الخطبة بالحرمين كان دليلا على الولاء والتبعية لذلك الملك .

(٢) الفاسى : شفاء الغرام ، جـ٢ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٣) الخزرجى : العسجد المسبوك فيمن تولى اليمن من الملوك ، ص ٢٣٩ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٧ ص ١٤١ .

رابعا : أعمال الملك المنصور سيف الدين قلاوون وابنه الناصر محمد

ا ـ أعمال الملك المنصور قلاوون :

بقي المسجد النبوى الشريف محتفظا بعمارته التى أتمها الملك الظاهر بيبرس حتى تولى عرش مصر الملك المنصور قلاوون الصالحى (٦٧٨ ـ ٦٨٩ هـ) الذى أبقى المسجد النبوى على حالته فيما عدا إقامة قبة على الحجرة الشريفة سنة ٦٧٨هـ وقد صاحبت ظروف غريبة بناءه لهذه القبة التى عرفت بالزرقاء تمييزا لها عن القبة الخضراء التى اتخذت فيما بعد ، إذ جاء أن ناظر قوص ورئيسها كمال الدين أحمد بن عبد القوى الربعى « هو الذى بنى على الضريح النبوى هذه القبة الموجودة الآن[1] على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، وقصد خيرا وتحصيل ثواب»[2] . وإقدام شخص على عمل مثل هذا لا بد وأن يكون مسبوقا بموافقة المسئولين فى القاهرة أو المدينة على الأقل . غير أن ما ذكره المؤلف من وقوع خصام بينه وبين بعض الولاة فى تلك السنة أدى فى النهاية إلى وصول « مرسوم بضرب الكمال »[3] أحمد بن عبد القوى الربعى ، واتهام البعض له بأنه أساء الأدب ، بعلو النجارين فوق القبور الشريفة . ومن هذا يستنتج أن منشأ معارضيهم له كان لأسباب منها :

١ ـ حسده بعض المقربين للسلطان ، فأثاروا عليه حفيظته مما دعاه إلى أن يعهد إلى الأمير علم الدين الشجاعى بمصادرته وتخريب داره وأخذ رخامها وخزائنها لاستخدامها فى بناء المدرسة المنصورية بالقاهرة[4] .

٢ ـ قد يكون منشأ غضب السلطان عليه هو اقتصاره على أخذ موافقة حكام المدينة دون الرجوع إلى السلطان ، وذلك بعد بذل الأموال لهم إذ كثيراً ما كان ذلك يكفل موافقتهم .

---

(١) زمن المؤلف المتوفى سنة ٧٤٨هـ .

(٢) كمال الدين الأدفورى : الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، ص ٨٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٨٥ .

(٤) نفس المصدر ص ٨٥ ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٠٩ .

٣ - وقد تكون صرامته في مجابهة المعارضين له بحرمة علو النجارين فوق القبور الشريفة قد أثار غضب الخدام وكبار المجاورين ، فأبلغوا السلطان بأمره، مما أدى إلى مصادرته وعقابه . وقد رأينا من قبل ما حصل لقاضي المدينة محمد بن سليمان الحكري في حدود سنة ٧٦٠هـ من عزل وانتصار للخدام الذين عارضوه في محاولته ردم حفرة المصلى الشريف[١] وقبل ذلك بقليل أخذ الخدام وعلى رأسهم شيخ الحرم الشريف يزيدون من ضغطهم على أشراف المدينة وبعض المجاورين[٢] . بسبب علو مكانتهم عند السلاطين ، ومن ذلك مثلا ما قوبل به أحد شيوخ الحرم من اهتمام وعناية عند زيارته للظاهر بيبرس سنة ٦٦٧هـ في القاهرة . ولقد نسب جميع مؤرخي المسجد النبوي هذه القبة إلى المنصور سيف الدين قلاوون[٣] ، وإن كان لا يعرف على وجه التحديد متى بدأ اهتمام السلطان بهذه القبة ، وهل كان ذلك قبل انتهاء ناظر قوص من عمارتها أو أثناء العمارة المذكورة ؟ بيد أنه يبدو من الإعتراض على اعتلاء النجارين فوق القبور الشريفة أن السلطان قلاوون قد أوقفه قبل إتمامها وبذلك وجد نفسه ملزما باتمام القبة التي صنعت من « أخشاب أقيمت ،

(١) انظر أدناه ص ٢٣٣ .

(٢) ذكر الفيروزبادي في المغانم المطابة ، ورقة ٢٥٤ أ أن شيخ الحرم النبوي كافور المظفري الذي ولي مشيخة الحرم من سنة ٧٠٠ إلى سنة ٧١١هـ قام في وجه الشريف منصور بن جماز عندما أراد إخراج جميع المجاورين من المدينة وذكر السخاوي في التحفة اللطيفة ، جـ١ ص ٣٥٧ ، أن اينال شيخ الذي ولي مشيخة الحرم النبوي سنة ٨٨٠هـ « كان شديدا سريع المبادرة بالضرب فضلا عن غيره حتى للفقهاء ، وللسلطان إليه ميل تام ، ومبالغة في الثناء على دينه وسيرته » وذكر في المصدر السابق ، جـ٢ ص ٢٢١ أن شفيع الطواشي أحد الخدام في المسجد النبوي في القرن الثامن كان « من أقدرهم على مخالطة الناس وله صولة عظيمة في المسجد على من يرى منه أدنى مخالفة ، خصوصا من يراه يخالط أهل الشر ... ويبطش ببأسه من خالط أحدا من المبتدعة وآلفه » .

كما ذكر ابن إياس في بدائع الزهور جـ٣ ص ٢١ أن مثقال الحبشي كان قبل أن يتولى مشيخة الحرم النبوي سنة ٨٧٣هـ « عشير الناس ، كثير الانهماك على شرب الراح ، فمقته السلطان وألبسه مشيخة الحرم الشريف لعله يتوب » .

(٣) أمثال المطري ، القرطبي ، الخوارزمي ، الاسفرائيني ، الفيروزبادي ، المراغي ، السمهودي .

وسمرعلى الألواح الخشب بألواح الرصاص »[١] وجاء أنها كانت مربعة من أسفلها مثمنة من أعلاها كما وصفها الاسفرائينى[٢] غير أن وصفه مقتصر على الشكل الخارجى للقبة دون أن يذكر شيئا عن طول أضلاع ما ربع منها. وقد وجدت السمهودى يحدد طول أضلاع حايز عمر بن عبد العزيز كما قاسه بنفسه عند بناء الحجرة الشريفة فى عمارة قايتباى الأولى سنة ٨٨١هـ، ومن المؤكد أن القبة قد أقيمت فوق هذه الجدران مرتكزة على الإسطوانات التى كانت بأركان الحجرة التى كانت أضلاعها كالتالى : الضلع الجنوبى ١٧ ذراعا والشمالى كذلك ، والغربى فى حدود ١٩ ذراعا والشرقى ١٨ ذراعا[٣]. ومعنى هذا أن الأذرع المذكورة هى أبعاد الجزء الأسفل من القبة وهو المعروف بالرقبة ويليها الجزء المثمن الذى به يبدأ تكوين سطح القبة .

وكانت هذه القبة خالية من النقوش والزخرفة كشأن قباب العصر المملوكى الأول[٤] وقد شاهدها الرحالة المغربى أبو عبد الله العبدرى سنة ٦٨٩هـ أى بعد إنشائها بأحد عشر عاما ، وقال إنها « قبة بيضاء[٥] إلى الركبة[٦] مصمتة أيضا ، مليحة عجيبة »[٧]. وقد استبدل السور (الحظير) الذى كان فوق سطح المسجد بعد الحريق الأول تمييزاً للحجرة الشريفة وصيانة لها ، بدرابزين من الخشب يحيط بالقبة ، « وتحته بين السقفين أيضا شباك خشب يحكيه »[٨] وجاء فى نص آخر أن « حول هذه القبة على سقف المسجد ألواح رصاص مفروشة فيما يقرب

---

(١) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٣٣ .

(٢) زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال ، ورقة ١٨٧ أ .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٦٦ وما بعدها .

(٤) محمد مصطفى نجيب : العمارة فى عصر المماليك ص ١٩ ، وانظر كمال الدين سامح : تطور القبة فى العمارة الإسلامية ص ١٩ وما بعدها .

(٥) يبدو من هذا الوصف أنها لم تطل باللون الأزرق الذى عرفت به إلا فيما بعد .

(٦) أى مقدار ارتفاع رقبتها عن سطح المسجد .

(٧) رحلة العبدرى ، ورقة ١٠٧ أ

(٨) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ص ٣٣ ، الخوارزمى : اثاره الترغيب والتشويق ، ص ٣٣٤، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٨

منها »[1] ، وكان القصد من ذلك حماية الحجرة الشريفة مما يصيبها من تسرب مياه الأمطار إليها كما حدث للمدينة سنة ٦٨٦هـ عندما أصابتها الأمطار بأضرار جسيمة ورد ذكرها في الكتاب الذى وصل منها إلى مصر عقب ذلك وفيه أنه « لما كان ليلة الرابع من المحرم سنة ست وثمانين وستمائة أصاب المدينة مطر عظيم وسيول كثيرة ولحق الحرم الشريف لذلك ضرر عظيم ووكف أكثر سطوحاته وأشدها السقف الشمالي وتصرف المطر جميعه إلى وسط الحرم والحجرة الشريفة ، ووكف الماء إلى باطنها من جوانب القبة من تحت الرصاص وليس تحت الرصاص إلا الخشب لا جبس ولا غيره ، فيخرج الماء من الرصاص إلى الخشب ويتسلط الماء إلى باطن الحجرة والقبة على عودين[2] متى لحقهما الماء خيف عليهما من الأرضة تأكلهما » [3].

وكانت الأمطار سببا في استحداث المنصور قلاوون للميضأة التى كانت عند باب السلام وذلك لأن « الأعين قد أتلفها السيل ، وخرب عين الأزرق حتى عادت ملحا أجاجا فكتب بذلك إلى السلطان »[4] ، الذى بادر في نفس السنة إلى تأمين الماء لرواد المسجد وزائريه إذ أمر ببناء دار للوضوء في الجانب الغربي من المسجد عند باب السلام وقد شاهدها العبدرى الذى زار المدينة سنة ٦٨٩ هـ أى بعد إنشائها بعامين ، وقال عنها أنها دار متسعة متقنة مزودة بالماء بها عدة مرافق للوضوء ، ثم ذكر أن الناس وجدوا فيها كثيرا من الرفق والراحة[5] . وكان المتولى لعمارتها الأمير علاء الدين الأعمى[6] الذى قدم المدينة لهذا الغرض .

---

(١) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٠٨ .

(٢) ذكر المطرى في التعريف بما أنست الهجرة ص ٣٧ وصفا لسقف الحجرة الشريفة فقال إن بين السقفين « ألواح قد سمر بعضها إلى بعض وسمر عليها ثوب مشمع وفيه طابق بقفل إذا فتح كان النزول منه إلى ما بين حائط بيت النبى ﷺ وبين الحائز الذى بناه عمر بن عبد العزيز رحمه الله » وما ذكره النص من أن القبة على عودين يشير إلى أنه قد وضع عتبتين كبيرتين فوق رؤوس الاسطوانات التى بأركان الحجرة ثم عقد عليهما القبة .

(٣) تاريخ ابن الفرات ، جـ٨ ص ٥٢ ، المقريزى : كتاب السلوك جـ١ القسم الثانى ص ٧٣٧ .

(٤) نفس المصدر جـ١ القسم الثانى ص ٧٣٧ .

(٥) رحلة العبدرى ، ورقة ١١٤ أ .

(٦) نفس المصدر ، ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٣٣٧ .

٣ - أعمال الملك الناصر محمد ب قلاوون :

لم يتمكن الملك الناصر خلال سلطنته الأولى ٦٩٣ - ٦٩٤هـ من القيام بأى عمل يذكر فى المسجد النبوى ، وذلك لأن المسجد الشريف كان لا يزال فى حالة جيدة ، ولأن الفترة التى قضاها فى السلطنة كانت قصيرة جدا ، لم يتمكن خلالها من الحج أو تقصى أخبار الحجاز ومطالب الحرمين الشريفين ، فضلا عن صغر سنه آنذاك . بيد أن الفرصة قد واتت الملك العادل زين الدين كتبغا ٦٩٤ - ٦٩٦هـ الذى استولى على السلطنة بعد خلع الملك الناصر محمد ، إذ بدأ فى أول سنة تولى فيها ملك مصر فى زيادة ارتفاع الدرابزين الذى أحدثه الظاهر بيبرس على الحجرة الشريفة . وكان ، كما تذكر كتب التاريخ ، نحو القامتين فزاد عليه «الملك العادل زين الدين كتبغا شباكا دائرا عليه ورفعه حتى وصله بسقف الحجرة الشريفة »[١] وكان قدوم هذا المشبك الخشبى إلى المدينة فى موسم سنة ٦٩٤ هـ صحبة ولده الذى حج على رأس ركب محمل تلك السنة .

ورغم ندرة المعلومات التى بين أيدينا عن الأسباب التى حدت به إلى هذا العمل ، إلا أنه لا يخلو من مغزى سياسى ، أراد به تأليف القلوب حوله ، فقد جاء أنه اهتم بأمر الحجاز وبذل العطاء السخى لأهله رغبة منه فى كسب مشاعر الناس وولائهم ، فضلا عما كان يراوده من رغبة فى جعل ابنه ، الذى حمل المشبك إلى المدينة ومعه الكثير من الهبات والصدقات ، وليا للعهد من بعده[٢] . بيد أن الأمور لم تسر فى صالحه ووفق تقديره ، فسرعان ما خلعه لاجين عن العرش سنة ٦٩٦هـ، ثم عاد السلطان الملك الناصر محمد مرة ثانية إلى عرش مصر ٦٩٨ - ٧٠٨هـ ، فأتاحت له مدة سلطنته الثانية الالتفات إلى الحرمين الشريفين ، لا سيما الحرم النبوى الشريف ، الذى حظى منه بالكثير من أعمال العمارة والترميم وهو ما أعرضه فيما يلى حسب ترتيبه الزمنى :

---

(١) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ص ٣٥ ، الاسفرائينى : زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال ، ورقة ١٨٨ ب ، الخوارزمى : إثارة الترغيب والتشويق ص ٣٣٥ ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦١٢ .

(٢) على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ص ١٣٥ .

أ - تسقيف الروضة الشريفة سنة ٧٠١ هـ :

كان أول عمل للسلطان الناصر محمد بن قلاوون فى الحرم النبوى الشريف فى سلطنته الثانية ٦٩٨ - ٧٠٨ هـ تجديده فى سنة ٧٠١ هـ « لسقف الرواق (البلاط) الذى فوق الروضة الشريفة »[١]. ولعل السبب فى تجديد هذا البلاط وحده دون بقية المسجد الشريف ، إصابة بعض خشبه بتلف من جراء المطر الذى تسرب من قبة الحجرة الشريفة وما يليها فى سنة ٦٨٦ هـ[٢].

ويبدو أنه لصغر المساحة التى جددت ، ولما للروضة الشريفة من قدسية على بقية أنحاء المسجد النبوى[٣] ، فقد أولاها السلطان مزيدا من العناية والاهتمام ، فظهرت فيها الصنعة مختلفة عن بقية أنحاء المسجد الشريف ، رغم صغر الفترة التى استغرقتها عمارتها . فقد كان ابتداء العمل كما ذكر فى النص التذكارى المحفور فى السقف « فى شهر ربيع الأول ، وانتهاؤه فى جمادى مستهل الأخير سنة إحدى وسبعمائة للهجرة النبوية »[٤]، وذلك حرصا على عدم تعطيل الصلاة فى الروضة الشريفة فترة طويلة ، واستخدمت فى تزيينها النقوش الكتابية المنقورة فى خشب السقف الأسفل من هذا البلاط وقد شاهدها الرحالة المغربى خالد بن عيسى البلوى سنة ٧٣٧هـ وانفرد دون بقية المؤرخين بذكر ما بها من كتابات إذ يذكر أن من أبدع ما رآه وأبرعه « قصيدة فريدة كتبت بالخط المذهب الرائق البديع وأثبتت فى ألوان الأزهار[٥] التى تخجل زهر الربيع ، ورفعت أمام المقدسة[٦] فى سقف المسجد الشريف الرفيع فتحلت القراطيس لؤلؤها ، ونقلت كل ما كان قبلها وبعدها ، وها هى تسفر عن غرتها الواضحة ، وتعبق عن نسمتها النافحة وتشهد

---

(١) الاسفرائينى : زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال ، ورقة ١٨٦ ب .

(٢) انظر أعلاه ص ٢٤٠ .

(٣) اختصها رسول الله ﷺ بالتعظيم فقال فيها حديثه المشهور « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » .

(٤) البلوى : تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق ، جـ١ ص ٢٨٥ .

(٥) وردت فى النسخة المحققة الأذهان ، وهى كلمة لا يستقيم معها المعنى .

(٦) يقصد بها الحجرة الشريفة .

لناظمها بالقريحة الراجحة والعقيدة الصالحة »[1].

ثم أورد نص القصيدة مسبوقة بالبسملة والصلاة على النبى ﷺ على النحو التالى :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

سلام كنشر الورد من مسقط الندا   عليك رسول الله يا منزل الهدى
ويا مهبط الأملاك والوحى لم تزل   أنيساً بزوراء[2] الرسول ممجدا
ويا تربة المختار أفديك تربة   بنفسى وإن كانت أقل من الفدا
ويا بيته حيا ومثواه ميتا   لك الفخر فى حاليك بيتا ومشهدا
تضمنت أعضاء الرسول مبوءا   مهادا من الفردوس فيك ممهدا
سقى الله منك الترب أفضل ما سقى   وصلى على من حل فيك موسدا
فيا منزل الأبرار جييت منزلا   ويا مسجد الأبرار شرفت مسجدا
كأنى أرى صحب النبى محمد   بأرجائك انبثوا ركوعا سجدا
ففيك بدت من جنة الخلد روضة   تطوف بها الأملاك مثنى ومفردا
سلام من الرحمن يذكو أريجه   أخص به خير الأنام محمدا
سلام ورضوان وروح ورحمة   على روحه ما راح ساع وما غدا
فيا خير أهل الأرض بيتا وعنصرا   وأشرف خلق الله نفسا ومحتدا
وأوسعهم خلقا وأزكى خلائقا   وأطيبهم خيما[3] وأطيب مولدا
ويا صفوة الرحمن من خير خلقه   وأطولهم حولا وأعظم سؤددا
شهدت بأن الله لا رب غيره   وأن رسول الله حقا[4] محمدا
وأشهد أن الله أهداك رحمة   إلى خلقه واختارك الله سيدا

---

(١) البلوى : تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق جـ١ ص ٢٨٣ .

(٢) يقصد بها الحجرة الشريفة التى عرفت بالزوراء بعد تحريف عمر بن عبد العزيز لجانب الحائز الشمالى خوفا من الصلاة إليها تشبيها بالكعبة الشريفة ، انظر أعلاه ص ١١٢ .

(٣) الخيم الطبيعة والسجية .

(٤) صحتها حقاً وقد وردت خلقا .

فصلى عليك اللـه يا خيـر مرسـل ويا خير من بالمعجـزات تفـــردا
وصلى عليـك اللـه ما لاح بـارق وما ناح طير فى الغصـون مغـــردا
وصلى على الأبـرار أهلـك أنهـم بنورهـم يأتـم مـن قـد تزهـدا
هم القوم عنهم أذهب الرجس كله وركب فيهم كل خيـر وأوجـدا
وصلى على أصحابـك الغر إنهـم نجوم بها ينجو غدا من بها اهتـدى
صلاة الا هـى والســلام مضاعـف على المصطفى المختار ما اتصل المدى[1]

وقد ذكر أنه بعد هذه القصيدة الجيدة النظم والمعنى مكتوب بالسقف نفسه نص دعائى وتأسيسى هذا نصه :

« اللهم أدم العز والتمكين والنصر والفتح المبين لعبدك المسكين الذى أوليته أمور المسلمين واخترته على كثير من العالمين السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، وأبو المعالى محمد قسيم أمير المؤمنين[2] سلطان الإسلام والمسلمين ، قاتل الكفرة والمشركين ، قاهر الفجرة والمتمردين ، حامى حوزة الدين سلطان الديار المصرية والعراقية ، والبلاد الشامية مالك البحرين[3] خادم الحرمين الشريفين[4] ولد السلطان المرحوم الملك المنصور ، سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى أدام الله أيامه، ونشر فى الخافقين رايته وأعلامه ، وجعل السعد والإقبال حيثما توجه أمامه ، وكان ابتداء العمل فى شهر ربيع وانتهاؤه فى جمادى مستهل الأخير سنة إحدى وسبعمائة للهجرة النبوية »[5].

---

(١) البلوى : تاج الفرق فى تحلية علماء المشرق جـ١ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .
(٢) انظر ص ٢٣١ الحاشية رقم ٥.
(٣) يقصد بالبحرين البحر الأبيض والأحمر . وهو لقب كان يرادفه ملك البرين فى معظم الأحيان ، وقد تلقب به نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ وكذلك قلاوون الصالحى وابنه الناصر محمد فى هذا النص . انظر حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ، ص ٢٠٤ وما بعدها .
(٤) هو لقب تسمى به صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٧هـ . ثم بيبرس عندما سيطر على مكة والمدينة حيث يقع الحرمان الشريفان . ثم احتفظ بقية السلاطين المماليك بهذا اللقب الذى أصبح من مميزات السيادة عندهم . انظر حسن الباشا : المرجع السابق ص ٢٦٧ .
(٥) البلوى : تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق جـ١ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٥ .

ومع احتفاظ البلوى بهذا النص التاريخي فإن نوع الخط وزخرفة الخشب ونفقات العمارة لم يتوفر لى معرفته من أى مصدر آخر ومع ذلك لابد من الافتراض أن الخط لم يخرج على أية حال عما نقشت به النصوص التذكارية فى العصر المملوكى ، الذى كانت فيه « للخط التذكارى اللين السيادة المطلقة »[١] ، بعد أن تقلصت مكانة الخط الكوفى التذكارى فى أواخر العصر الأيوبى .

وأما زخرفة الخشب فيبدو أن الغلبة فيها كانت للسمة التى ميزت سقوف العمائر المملوكية وهى تقسيم السقف « إلى مناطق مستطيلة تحيط بها مربعات صغيرة ، أو قصع مقعرة مستديرة ... مموهة بالذهب واللازورد »[٢].

ب - تجديد سقفى الرواقين الشرقى والغربى سنة ٧٠٥ - ٧٠٦ هـ :

بقى سقفا المجنبتين الشرقية والغربية محتفظين بتجديد الملك الظاهر بيبرس لهما، وكل منهما سقف فوق سقف على صفة سقف مقدم المسجد كله ، وما أنجز منهما فى عهد الملك المظفر سيف الدين قطز . ولم يطرأ عليهما أى تغيير حتى كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية ، وبتحديد أدق حتى سنة خمس وسبعمائة[٣]، عندما عزم هذا الملك لأسباب نجهلها على إعادة سقفى هاتين الظلتين على هيئة السقف الشمالى للمسجد النبوى ، الذى جعله الظاهر بيبرس كما عرفنا من قبل سقفا واحدا .

ومع غموض الدوافع التى حدت بهذا السلطان إلى تجديد السقفين المذكورين دون غيرهما ، فإننا نستطيع من خلال استقراء الأحداث التى عاشتها مصر فى تلك الفترة أن نضع أيدينا على بعض هذه الأسباب وفى مقدمتها السببان التاليان :

١ - رغبة السلطان فى كسب ود الرأى العام والظهور أمام العامة - الذين سروا

---

(١) إبراهيم جمعة ، دراسة فى تطور الكتابات الكوفية ، ص ٧٧ .

(٢) محمد مصطفى نجيب : العمارة فى عصر المماليك ، ص ٢٣٧ .

(٣) الأسفرائينى : زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال ، ورقة ١٨٦ ب . الفيروزبادى : المغانم المطابة ، ورقة ٨٩ ب ، السمهودى : وفاء الوفا جـ١ ص ٦٠٥ .

لعودته إلى الحكم مرة ثانية ـ بالمظهر التقليدى الذى يلجأ إليه السلاطين عادة عندما تهتز عروشهم ، وهو حماية الحرمين الشريفين والاهتمام بشئونهما[١] ، وقد رأينا كتبغا يلجأ إلى هذه الوسيلة فى أول سنة من سلطنته عندما كان يمهد الأمور بجعل ولاية العهد لابنه .

٢ ـ ظهور بعض الخلل فى بعض هذين السقفين من جراء المطر الذى أصاب المدينة المنورة سنة ٦٨٦ هـ ، والذى يقول عنه ابن الفرات أنه « لحق الحرم الشريف لذلك ضرر عظيم ووكف أكثر سطوحاته »[٢] .

ومن المعروف أن الأرضة تصيب الأجزاء التى يصلها الماء من السقف وأن أثرها لا يظهر إلا بعد فترة ، الأمر الذى يؤكد ظهور بعض هذه الأضرار فى زمن الملك الناصر الذى بادر إلى استغلالها فى تدعيم الأهداف المذكورة أولا .

---

(١) على بن حسين السليمانى : العلاقات الحجازية المصرية ، ص ١١٥ . ومما يناسب هذا ، حرص السلاطين على اختيار أصلح الأمراء وأفضلهم لقيادة ركب المحمل المتوجة إلى الحجاز وحثه على الرفق بالناس ومساعدتهم وملاحظة ذلك من سيرته مع الحجاج عند عودتهم ومن هذا ما حدث فى سنة ٧٠١هـ عندما قابل السلطان الملك الناصر أمير الحج المصرى عند بركة الحاج خارج القاهرة ، « وهو الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار فنزل عنده ثم طلع إلى القلعة ودخل المحمل إلى القاهرة ، وشكروا الحجاج من الجوكندار (هكذا) ودعوا له على ما فعله وذكروا من إحسانه وبره وصدقته على جميع الناس ، وأنه أنعم على أبو نمى (هكذا) وعلى أولاده بمائة ألف درهم وأنه أعطا (هكذا) جميع المجاورين بمكة ولما وصل إلى مدينة الرسول ﷺ خلع على صاحبها وعلى أولاده وأعطاه شيء كثير وحكا (هكذا) الشيخ الإمام سيف الدين على الأملى بالقاهرة وكان الجوكندار قد أخذه معه . أن الأمير سيف الدين الجوكندار لما دخل إلى الحرم النبوى أخلاه وأخذ أولاده وعياله وماله وجميع ما كان معه وأنا (هكذا) إلى الحجرة النبوية وقدم الجميع بين يدى الرسول ﷺ وسأل الرسول قبول ذلك وعاهده على أشياء من فعل الخير والمعروف بقية عمره . وذكروا أن جملة ما أنفقه خمسة وثمانين ألف دينار مصرية وأنه عندما ينزل فى المنزلة يحضر الوازنين ويزن من الزاد ويعطى لكل إنسان ما يكفيه هو وجماعته من أهل المركب من المحتاجين وغيرهم وكل ذلك يباشره بنفسه ولا يتكبر ولا يكرهه بل هو مقبل على فعل الخير مستبشرا بذلك » . انظر : تاريخ سلاطين المماليك ، لمجهول ، ص ١٠٤ .

(٢) تاريخ ابن الفرات ، جـ٨ ص ٥٢ .

وكعادة المصادر فى إجمال الكلام عن معظم الأعمال التى تمت فى المسجد النبوى الشريف فى عهد المماليك البحرية ، فإنها أجملت كذلك فيما ذكرته عن عمارة هذين السقفين إذ لم تزد فى وصفهما على أن كلا منهما جعل « سقفا واحدا شبه السقف الشمالى فإنه جعل فى أيام الملك الظاهر كذلك »[1] ويغلب على الظن أن يكون على شاكلته فى نوع الخشب والطلاء المستخدم فى عهد الظاهر بيبرس ، وهو كما سبق وصفه خشب الزان المدهون بالذهب واللازورد .

وعلى أية حال فإن الأعمال التى صاحبت تجديد هاتين الظلتين كانت كثيرة وهامة وقد تطلبت من الملك الناصر محمد بن قلاوون إعداد الأموال الكثيرة للصرف عليها وعلى القائمين بها ، وذلك لأن تجديدهما اقتضى نزع الأخشاب القديمة ، واستبدالها بأخشاب جديدة تجمع بين الصفتين اللتين كانت تتميز بهما الأخشاب القديمة ، وهما القدرة على تحمل ضغط البناء وجمال المنظر مما يلى أرض المسجد . وتسقيف هذا الجزء من المسجد فى المدة الزمنية التى حددها بعض المؤرخين بسنتى خمس وست وسبعمائة [2] ، وهو فى الحقيقة زمن يتناسب مع كبر المساحة التى تغطيها هذه السقوف والتى تقدر بـ ١٠٧٧٣ ذراعا مربعا على رأى من قال أن المسافة بين الأعمدة تسعة أذرع ، وبـ ١٣٣٠٠ ذراعا مربعا على رأى من قال أن المسافة عشرة أذرع[3] .

جـ - بناء منارة باب السلام سنة ٧٠٦ هـ :

بقى المسجد النبوى الشريف محتفظا بمنائره الثلاث منذ تأسيس عمر بن عبد العزيز لها أول مرة فيما بين ٨٨ ـ ٩١ هـ عندما كان واليا للوليد بن عبد الملك على المدينة المنورة . وقد جاء بناء منارة باب السلام فى بداية القرن الثامن ليضع

---

(١) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٢٥ ، الفيروزبادى : المغانم المطابة ، ورقة ٨٩ ب ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٠٥ .

(٢) المطرى : المصدر السابق ص ٢٥ .

(٣) عن الذراع ومقداره من المتر انظر حاشية ٤ ص ٣٤ من الرسالة .

نهاية لما تناقله المؤرخون من أن سليمان بن عبد الملك هدم المنارة الرابعة المطلة على دار الإمارة أثناء حجه سنة ٩٧هـ . وفي حديثي عن العمارة الأموية أبديت تشككي في صحة ذلك ، مستعينا بما ذكره ابن فرحون ، الذي عاصر حفر أساس هذه المنارة سنة ٧٠٦ هـ ، من عدم وجود أى دليل على أثر هذه المنارة في الموقع المذكور[١] .

والحديث عن بناء هذه المنارة أثناء الكلام عن أعمال الملك الناصر محمد بن قلاوون لا يعنى بالضرورة أنه هو الذى فكر في إنشائها وقام بالنفقة عليها ، وإنما يرجع ذلك إلى شيخ الخدام[٢] آنذاك كافور المظفرى[٣] ، الذى أخذ مصاريف عمارتها من حواصل الحرم النبوى الشريف وبيع بعض قناديله . وسبب الحديث عنها ضمن أعمال الملك الناصر هو وقوع تاريخ عمارتها في سلطنته الثانية ، ثم لوصول المراسيم من قبله بالإذن لكافور في بنائها خاصة وأن الحجاز كله كان يدين بالولاء منذ زمن طويل للدولة المملوكية التركية التى كان على رأسها في ذلك الزمن الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وكان بين التفكير في إنشاء هذه المنارة وبين إقامتها وقت كبير فابن فرحون يقول أن كافور المظفرى استغل وصول الأميرين بيبرس وسلار إلى المدينة لأداء فريضة الحج وكان له عليهما فضل في صغرهما « فكلمهما في بناء المنارة التى بباب السلام اليوم فأنعما »[٤] وحجة الأمير سلار المشار إليها كانت سنة

---

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور ، ص ٣٣ . وقد رد عليه السمهودى باحتمال وجودها فوق سطح المسجد دون عمل أساس لها في الأرض . ولكن سوفاجيه يعارض السمهودى بأدلة قوية . انظر أعلاه ص ١٢٣ .

(٢) وجدت بعض المصادر تذكر شيخ الخدام وأخرى تذكر شيخ الحرم المدنى ولا أعرف هل هما اسمان لوظيفة واحدة أم هما وظيفتان مختلفتان .

(٣) ترجم له ابن حجر في الدرر الكامنة ، جـ٣ ص ٣٤٧ فقال أنه : « ولى مشيخة الخدام بالمدينة الشريفة سنة سبعمائة فأثر آثارا حسنة منها المنارة التى على باب السلام في سنة ٧٠٦هـ وكانوا يأخذون سعف الجريد كل ليلة بعد العشاء في المسجد ، ويخرجون بها ، فجعل بدل ذلك الفوانيس ، ومات سنة ٧١١هـ » .

(٤) نصيحة المشاور وتعزية المجاور ، ص ٣٣ ويقصد بكلمة اليوم ، زمن ابن فرحون المتوفى سنة ٧٦٩هـ .

٧٠٣هـ[1] ويبدو أن الأمر بقى معلقا حتى اضطر شيخ الخدام إلى أن يكتب إلى السلطان سنة ٧٠٥ هـ يستأذنه كما يقول ابن كثير « فى بيع طائفة من قناديل الحرم النبوى لينفق ذلك ببناء مأذنه عند باب السلام عند المطهرة فرسم له بذلك»[2] وعند ذاك شرع شيخ الخدام فور موافقة السلطان فى إعداد المواد اللازمة لبناء المنارة ، ومنها الأحجار المنحوتة وهى المادة الأساسية فيها[3]. وبدأ أيضا فى بيع بعض القناديل ، التى قيل أن من جملتها « قنديلان من ذهب زنتهما ألف دينار»[4] وصرف من قيمتها على حفر أساس المنارة وتجهيز مؤنتها . وعندما تأخر قدوم العمال الذين وعده بهم السلطان شرع فى وضع الأساس بمن « كان بالمدينة يتعانا (هكذا) البناية »[5]، وقد دعاهم للاستعانة بخبرتهم وتجربتهم ، ولكن

---

(١) على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ص ١٣٦ ، وسبب سؤال شيخ الخدام لهما دون السلطان هو أنهما كانا مسيطران على أمور الملك الناصر فى ذلك الوقت . انظر أدناه ص٢٥٩ الحاشية رقم ٢ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ١٤ ص ٣٨ . وانظر العينى : عقد الجمان ، جـ٢٥ ص ٢٤ . ويبدو أن التفكير فى أمر بيع قناديل الحجرة الشريفة قد أثار جدلا كبيرا بين العلماء فى مصر الأمر الذى أخر السماح لشيخ الحرم فى الشروع فى بيع القناديل وبناء منارة باب السلام فى سنة ٧٠٣هـ إلى سنة ٧٠٥هـ وهو ما يشير إليه السبكى المتوفى ٧٥٦هـ عندما يقول فى تنزيل السكينة على قناديل المدينة ص ٢٧٥ « أنه بلغنى أنه وقع كلام فى بيع القناديل الذهب التى هى بحجرته المقدسة التى هى على الخير والتقوى مؤسسة ليصرف ثمنها على عمارة الحرم ، فحصل لى من ذلك هم وغم فأردت أن أكتب ما عندى من ذلك فأقدم حديثا صحيحا يكون فى الاستدلال من أوضح المسالك » ثم قال بعد ذلك : « وسبب كلامى فى ذلك أننى سئلت عن بيع القناديل الذهب التى بالحجرة الشريفة المعظمة ، وأن بعض الناس قصد بيعها لعمارة الحرم الشريف النبوى على ساكنه أفضل الصلاة والسلام والرحمة .فأنكرته واستقبحته » . ويبدو أن السؤال قد وجه إليه من قبل السلطان الملك الناصر أو من بيبرس وسلار .

(٣) يقول توفيق أحمد عبد الجواد فى تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ، ص ٥٥ ، أن « استعمال المواد فى بناء المآذن يتوقف على مادة البناء المستعملة فى الأقاليم ، ففى أسبانيا مثلا استعمل الحجر ، وفى المغرب الطوب ، وفى مصر الحجر ، وكذلك فى الشام وآسيا الصغرى واستعمل الطوب فى إيران وأفغانستان » .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٤ ص ٣٨ ، العينى : عقد الجمان ، جـ٢٥ ، ص ٢٤.

(٥) ابن فرحون : نصيحة المشاور وتعزية المجاور ، ص ٣٣ .

رئيس العمال ، الذين بعث بهم السلطان من مصر لمباشرة البناء ، رأى عدم بقاء هذا الأساس لأنه لا يأمن عاقبته وأن واجب الصنعة يقتضى هدمه »[١] بيد أن إصرار كل منهما على موقفه ، اضطر الأخير إلى العودة إلى مصر تاركا بقية العمال تحت تصرف شيخ الخدام ، الذى ثابر على الإشراف عليهم وتزويدهم بما يحتاجون إليه فجاء العمل « وثيق المبنى رشيق الصورة والمعنى يفاخر القرائن من المآذن حسنا »[٢].

وكانت أطوال منارات المسجد آنذاك ، وقال عنها السمهودى « وقد ذرعتها من أعلى هلالها إلى الأرض ، فكان ذلك خمسة وتسعين ذراعا »[٣].

ومن المسلم به أن يكون هؤلاء العمال الذين قدموا من مصر قد اتبعوا فيها الطراز الفنى السائد فى تحلية المنائر المملوكية فى مصر ، التى تمتاز « برشاقتها وتناسب أجزائها »[٤] ويؤيد ذلك ما يذكره ابن المحجوب الذى شاهد منائر المسجد النبوى فى أوائل القرن التاسع إذ يذكر أنها « على صفة منائر مصر »[٥] انظر موقعها من الشكل (٥١).

ومما يدل على ما كان لهذه المنارة من أهمية آنذاك فى إبلاغ نداء الحق إلى

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٤ .

(٢) الفيروزبادى : المغانم المطابة ، ورقة ٢٥٣ ب .

(٣) وفاء الوفاء ، جـ٢ ص ٥٢٩ .

(٤) محمد مصطفى نجيب : العمارة فى عصر المماليك ، ص ٢٣٨ .

(٥) ابن المحجوب : قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٦٨ أ . وقد ذكر محمد مصطفى نجيب فى المرجع السابق ص ٢٣٨ . أن المنائر المملوكية « تتكون من قاعدة مربعة مرتفعة » وضرب لذلك مثلا من المنائر القائمة الآن فى القاهرة كمئذنة المنصورة قلاوون بالنحاسين ومئذنة قوصون بالقرافة الصغرى ثم قال : « أما الأدوار التى تعلو القاعدة فهى على شكل مثمن فتحت فيه شرفات (بلكونات) ثم يلى هذا بدن مستدير تحيط به دورة تعتمد على حطات من المقرنصات ، ثم يعلو هذا جوسق يرتكز على أعمدة حجرية أو رخامية يحمل الخوذة العلوية للمئذنة ، وهى ذات أشكال مختلفة إما على شكل مبخرة أو قلة وهو النظام السائد » . وانظر ما ذكره أحمد توفيق عبد الجواد فى تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ص ٥٥ وما بعدها .

إحيـاء المدينة وخاصـة فى الغرب منها ما يذكره ابن فرحون من أن « العمل اليوم (فى زمنه) عليهـا لأنهـا متـوسطة المدينة »[١]. وقـد شـرح قـول رئيس المؤذنين حينذاك من أنه لو تركت له هذه المأذنة لكفى بهـا المدينة بأن « المدينة من جهـة الشمـال قليلة العرض وإنما امتدادها وقـوة عمـارتهـا وكثـرة أبيـاتهـا من جهـة الغرب»[٢].

ولم يقتصر عمل شيخ الخدام كافور المظفرى على ذلك وإنما ينسب إليه كذلك أنه استحدث طريقة جديدة فى إخراج الناس من المسجد بعد صلاة العشاء حلت محل الطريقة القديمة التى قال عنها البعض أنها كانت بدعة سيئة ، «وذلك أنهم كانوا قبل الحريرى وصدرا من ولايته يأخذ عبيد الخدام وبعض الفراشين شعلا من سعف فيطوفون بها عوض الفوانيس يجرون بها كأشد ما يكون من الجرى فإذا وصلوا باب النساء خرجوا بها وخبطوا بما تبقى معهم منها فكانت تسود المسجد وتسود بابه أيضا وفيها من البشاعة ما لا يخفى فأمر بالفوانيس عوضها »[٣] وينم عمل شيخ الخدام عن ذوق وحرص على خدمة المسجد وحسن إدارته على أحسن وجه ، وقد ظل يؤدى ذلك طوال خدمته التى استمرت من سنة ٧٠٠هـ إلى سنة ٧١١هـ[٤].

د - زيادة بلاطتى رواق القبلة سنة ٧٢٩ هـ:

روعى فى جميع عمائر المسجد النبوى الشريف التى تلك عمارة سيدنا عثمان رضى الله عنه ، المحافظة على عدد البلاطات التى تتكون منها ظلة القبلة (مقدم

---

(١) نصيحة المشاور وتعزية المجاور ، ص ٣٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٤ .

(٣) ابن فرحون : المصدر السابق ص ٣٥ . وقد زاد الفيروزبادى فى المغانم المطابة ، ورقة ٢٥٣ ب فى وصف الطريقة الجديدة فقال : « وأمر كافور أن تبدل بالشموع الزواهر أحسن إبدال ويحملها فتيان من الصقالبة الحاكين فى الانتظام سلك الآلى ، ومن سمتهم أنهم إذا وصلوا حذاء باب كافور وضعوا الفوانيس لحظة ثم رفعوها ايذانا بهذا الحال » .

(٤) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ، جـ٣ ص ٣٤٧ .

المسجد ، رواق القبلة) فلم يجرؤ الوليد بن عبد الملك أو المهدى العباسى على زيادة عدد هذه البلاطات التى تتكون منها ظلة القبلة فى المسجد الشريف . وقد وجدا السبيل لتوسعة المسجد بزيادة عرضه إلى الشرق والغرب وبذلك زاد بهذا الامتداد الجزء المسقوف من المسجد ، هذا بالإضافة إلى زيادة المسجد فى مؤخره ، وهو ما تم فى العمارة التى قام بها الوليد والمهدى .

وبقى هذا التقليد محافظا عليه حتى أمر الملك الناصر فى سنة ٧٢٩هـ بزيادة بلاطتين معترضتين فى مؤخرة مقدم المسجد مما يلى الصحن « فاتسع ظل السقف القبلى بهما وعم نفعهما »[١] (انظر شكل ٤٩) ، وكان فى بنائهما غنى عن الستور التى كانت تنصب على صحن المسجد أيام الجمع والمواسم منذ جددها هارون الرشيد فى خلافته بعد أن تركها المنصور سنة ١٤٥هـ[٢] حتى أقام الناصر محمد بن قلاوون هاتين البلاطتين فتركت هذه الستور[٣] .

ويذكر السمهودى أنه أدرك مؤخر المسجد وبه أربع بلاطات فقط ثم يقول : « فكأنه لما زيد بعد الحريق الأول الرواقان (البلاطتان) فى مسقف القبلة ، اختصروا رواقا (بلاطة) من السقف الشامى فأدخلوه فى صحن المسجد »[٤] ثم يضيف إلى ذلك « ولم أر من نبه على ذلك من المؤرخين »[٥] . بيد أن ما يذهب إليه السمهودى لا يتعمد على أساس صحيح ، وذلك لأن الرحالة المغربى أبو عبد الله العبدرى ، الذى زار المدينة المنورة سنة ٦٨٩هـ ، ولم يكن ما كتبه من المصادر التى اعتمد عليها السمهودى ، يقول عند وصفه للمسجد الشريف « وأوسع

---

(١) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٣٥ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٥ .

(٢) كان أبو جعفر المنصور أول من استحدثها سنة ١٤٠هـ بيد أن محمد بن عبد الله العلوى قطعها حين خرج على العباسيين سنة ١٤٥هـ . ثم جددها الرشيد وظلت تستخدم إلى أن أبطلها الملك الناصر محمد بن قلاوون .

(٣) القرطبى : بهجة النفوس والأسرار ، ص ١٣١ ، ابن الضياء : تاريخ مكة المكرمة والمسجد الحرام والمدينة المنورة والقبر الشريف ، ورقة ١٤٤ ب .

(٤) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٧١ .

(٥) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٧١ .

سقايفه ناحية الجنوب وفيها المحراب وهي خمسة صفوف ، وفي ناحية الشمال أربعة صفوف[١] .

ويدل هذا الوصف لبلاطات مؤخر المسجد في وقت قريب من إتمام عمارة الظاهر بيبرس له سنة ٦٦٨هـ على أن انتقاص البلاطة الخامسة من السقف الشامي أي مؤخر المسجد ، كان في العمارة التي قام بها الظاهر بيبرس لهذا الجزء من المسجد ، وينفي أيضا ما ذهب إليه السمهودي من إسناد انتقاص الرواق إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون إذ أنه لو كان الأمر كذلك لما خفي على أحد من المؤرخين ، خاصة وأنهم ذكروا في شيء من التفصيل عمارة الناصر للبلاطتين اللتين كان اتجاه بوائك العقود فيهما عموديا على جدار القبلة ، كما تقتضي القواعد الهندسية .

وقد يذهب الظن إلى أن انتقاص البلاطة المذكورة من السقف الشامي كان بعد عمارة الظاهر بيبرس للمسجد النبوي الشريف ، وذلك بسبب المطر الذي أصاب المدينة المنورة سنة ٦٨٦ هـ بأضرار جسيمة ، وكان منها إصابة سقوف المسجد بوكف شديد وأشدها ما أصاب « السقف الشمالي »[٢] كما يقول ابن الفرات . بيد أن أحدا من المؤرخين لم يذكر أدنى إشارة إلى ذلك ، فضلا عن أن انتقاص البلاطة المذكورة يقتضي القيام ببعض الأعمال المعمارية الضرورية ومنها إصلاح السقف والواجهة المطلة على صحن المسجد بحيث يتسقا مع بقية عمارة المسجد الشريف ، وهي أعمال تقتضي وقتا ومالا ولا يظن أن تسجيل ذلك يفوت على أحد من المؤرخين .

ومهما يكن من أمر فإن أحدا من المؤرخين لم يشر إلى ارتفاع سقفي البلاطتين اللتين زادهما الناصر محمد ، سوى ما أشار إليه السمهودي عند ذكره تجديد الأشرف برسباى سنة ٨٣١هـ لهاتين البلاطتين من أنه « سقف واحد في موازاة سقف المسجد الأسفل »[٣] لذلك يبدو أن سقفي البلاطتين المذكورتين كانا

---

(١) رحلة العبدري ، ورقة ١٠٦ أ .

(٢) انظر أعلاه ص ٢٤٠ .

(٣) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٥ ، ويقصد بسقف المسجد الأسفل ، السقف السفلي الذي يلي أرض المسجد الشريف .

في سنة ٧٢٩هـ أي في عمارة الناصر محمد ، على مستوى سقف ما جدده برسباى[١] بيد أن هذا المستوى ينخفض قليلا عن مستوى سقفي المجنبتين ، اللتين جعل كل منهما في سنة ٧٠٦ هـ سقفا واحدا بارتفاع سقف مؤخرة المسجد[٢] . وبذلك لم تكن سقوف المسجد النبوي على مستوى واحد أما إذا كانت سقوف المجنبتين ومؤخر المسجد في مستوى السقف الأسفل لمقدم المسجد ، الذي جعل على مستواه سقفا البلاطتين اللتين استحدثهما الناصر محمد سنة ٧٢٩هـ فتكون بذلك جميع سقوف المسجد على مستوى واحد ، وتكون سطوحه من قبل السماء متباينة المستوى ، بحيث كان سطح مقدم المسجد ببلاطاته الخمس يعلو على مستوى بقية السطوح[٣] . انظر شكل (٥٢) .

ولم يلبث أن استغل بعض أهل السنة من سكان المدينة بناء الناصر محمد للبلاطتين المذكورتين ، فعمدوا إلى هدم المقصورة التي شيدها كبار الشيعة مما يلي الجهة الشمالية للحجرة الشريفة لأنها تعوق امتداد الصفوف ولأن البلاطتين تغنيان عنها[٤] في حماية الحجرة الشريفة من الشمس إذ غربت[٥] . وكانت على شكل مقصورة كبيرة استحدثها الشيعة [٦] . وقاموا بالصلاة والتدريس فيها [٧] وجاء أن

---

(١) انظر أعلاه ص ٢٧٨ وما بعدها .

(٢) انظر أعلاه ص ٢٤٥ .

(٣) السمهودي : المصدر السابق جـ٢ ص٦٠٥ حيث ذكر أن سقف مقدم المسجد أصبح بعد تجديد الأشرف برسباى للبلاطتين اللتين استحدثهما الملك الناصر » مرتفعا من أعلاه على هذين الرواقين (البلاطتين) وغيرهما من بقية المسجد » .

(٤) المطرى : التعريف بما أنست الهجرة ، ص ٣٥ .

(٥) ابن فرحون ، نصيحة المشاور وتعزية المجاور ، ص ١٥ ، السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ص٦١٢ .

(٦) كان الهدف الظاهر عند بناء الشيعة لهذه المقصورة حماية الحجرة من حرارة الشمس .

(٧) ابن فرحون : المصدر السابق ، ص ١٥ . حيث يقول : « ولقد كنت أسمع الشريف اعزاز يقف على بابها ويؤذن بأعلى صوته من غير خوف ولا خجل حي على خير العمل . وكانت مواطن تدريسهم وخلوة علمائهم حتى قيض الله لها من سعى فيها فأصبحت ليلة مخلعة أبوابها معوجة أخشابها متصلة صفوفها ، وأدخل بعضها في الحجرة الشريفة وجعل فيها الباب الشامي . وكان مع زيادة الرواقين (البلاطتين) اللذين زادهما المالك الناصر » . وحدد السمهودي في الوفا ، جـ٢ ص ٦١٢ . موضعها فقال : « وذكر لي بعض مشايخ المدينة نقلا عمن أدركه من المشايخ أن هذه المقصورة كانت في شامي اسطوان الوفود إلى جهة باب الحجرة الشامي » .

المحرض على هدمها إمام المسجد النبوى الشيخ شرف الدين الأسيوطى وذلك فى أواخر سنة ثمان وعشرين وسبعمائة [١] أى بعد أن حد الملك المنصور قلاوون من تحكم قضاة الشيعة فى المدينة المنورة . عندما أسند الخطابة والقضاء سنة ٦٨٢هـ إلى الشيخ سراج الدين عمر بن أحمد بن الخضر بن طراد المصرى[٢] ، فارتفع بذلك أمر أهل السنة واقتصرت أحكام قضاة الشيعة على اتباع المذهب من أهل المدينة .

هـ - تحصين الحجرة الشريفة بالرصاص :

اختلف المؤرخون الذين تعرضوا لتأريخ المسجد النبوى الشريف فى شأن ما تعرضت له الحجرة الشريفة من محاولة بعض الأعداء ، ممن تظاهروا بالإسلام ، للوصول إلى القبور الشريفة من رباط قريب من المسجد النبوى الشريف[٣] ، ونسب المطرى ومن تبعه من المؤرخين[٤] ، ذلك إلى زمن الشهيد نور الدين محمود زنكى سنة ٥٥٧هـ ، بيد أن ابن المحجوب نسبه إلى زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون دون أن يحدد السنة التى وقع فيها ، ولما لروايته من أهمية فإنى أوردها كما رواها ، قال : « أعلم أن هذه الحكاية أوثق من نقلها الفقيه العلامة المحقق أبو عبد الله

---

(١) قطب الدين قدسى سره : تاريخ المدينة المنورة ، ص ٢٢٥ .

(٢) السخاوى : التحفة اللطيفة ، جـ٣ ص ٣١٣ وما بعدها . وقد ذكر أنه قدم سنة ٦٨٢هـ متوليا للخطابة وكانت بأيدى آل سنان بن عبد الوهاب بن نميلة الشريف الحسنى . بالإضافة إلى منصب القضاء . ثم ذكر أنه عندما « استقر فى الخطابة عمل معه الإمامية من الأذى ما لا يصبر عليه غيره . فصبر واحتسب ، حتى أنهم كانوا يرجمونه بالحصباء وهو يخطب على المنبر . فلما كثر ذلك منهم تقدم الخدام ، وجلسوا بين يديه فذلك هو السبب فى اقامة صف الخدام يوم الجمعة قبالة الخطيب ، وخلفهم غلمانهم وعبيدهم خدمة وحماية للقضاء وتكثيرا للقلة ، ونصرا للشريعة » . ثم ذكر أنه أضيف له القضاء فيما بعد .

(٣) حدد جمال الدين الاسنوى فيما ينقله عنه السمهودى فى الوفا ، جـ٢ ص ٦٥ هذا الموضع بأنه « فى الناحية التى قبلة حجرة النبى ﷺ من خارج المسجد عند دار آل عمر بن الخطاب التى تعرف باليوم (فى زمنه) بدار العشرة .

(٤) أمثال المراغى ، والفيروزبادى ، وابن الضياء ، والسمهودى ، وقطب الدين قدسى سره ، وعبد الحميد العباسى وغيرهم من المتأخرين .

محمد بن مرزوق التلمسانى[١] فى شرحه للبردة »[٢] ثم ذكر قول ابن مرزوق أنه سمع ذلك من « الإمام المحدث أبى الحسن على النويرى[٣] إمام مقام المالكية بمسجد مكة الحرام ومن غير واحد من أهل العلم والخير قالوا أن يهوديا جاور بمدينة الرسول ﷺ ، وأظهر الإسلام والتنسك الفائق حتى أسكنوه برباط بقرب من مسجد الرسول ﷺ ، ونزل فى بيت من الرباط بعض زواياه يلى قبر المصطفى الكريم ثم قصد لعنه الله بالحفر تحت الأرض نحو القبر وجعل يحفر قليلا قليلا ويخرج كل يوم زفة[٤] تراب تحت ثيابه ، فيرميها خارج المدينة حتى بقى لوصوله إلى الجسد الكريم مقدار ما يحفر ثلاثة أيام[٥] فرأى صاحب مصر يومئذ وهو المعروف بالملك الناصر فى منامه رسول الله ﷺ وأخبره بالقصة وبصفة اليهودى وقال له أدركنى فالهمه الله إلى السفر إلى المدينة من حينه فركب نجب الخيل الفارهة فى جماعة من خواص دولته ومعهم أخراج بالمال والذهب ثم بلغوا المدينة فى مدة قريبة فجلس الملك الناصر بالمسجد الكريم وأمر بإعطاء الصدقة لجميع سكان المدينة

---

(١) قال بدر الدين العينى فى عقد الجمان جـ٢٦ ص ٢٥٤ فى ترجمة ابن مرزوق أنه « كان من ظرفاء دهره ونادرة عصره ترقى عند السلطان حسن إلى أن صار صاحب سره وإمام جمعته ومنبره وفى سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة توجه إلى الأندلس خوفا من النكبة فأقبل عليه سلطانها وتولى الخطابة وتدريس المدرسة ، وفى عام أربعة وخمسين انتهز الفرصة وانصرف عزيز الرحلة ، واستقر بباب أمير المؤمنين بن عنان ، وأقام عنده مقبول القول ومسكه بنو يغمر أسن وجعلوه فى مطبق حديد مقفل ثم خلصه الله تعالى وقدم إلى الديار المصرية وتولى درس المنصورية فى الحديث ، ودرس الفقه بالشيخونية ودرس الحديث بالصرغتشمية وغير ذلك . وتوفى بالقاهرة يوم الجمعة النصف الأول من ربيع الأول من هذه السنة (؟) رحمة الله عليه» .

(٢) ابن المحجوب : قرة العين فى إوصاف الحرمين ، ورقة ٧٠ أ .

(٣) انظر ترجمته عند الفاسى فى العقد الثمين ، جـ٦ ص ١٣٢ - ١٣٤ ، حيث يذكر أنه عاش فى الفترة ٧٢٤ - ٧٩٨هـ وأنه تولى نيابة القضاء فى مكة عن أخيه . وولى تدريس الحديث بالمنصورية ودرس الفقه للأشرف شعبان .

(٤) زفة أى مجموعة من التراب وهى مأخوذة من زفا كما يقول ابن منظور فى لسان العرب جـ١٤ ص ٣٥٧ أن معنى أزفى إذا نقل الشىء من مكان إلى مكان . ومنه أزفيت العروس إذا نقلت من بيت أبوها إلى بيت زوجها .

(٥) هذه المدة لا تكفى لسفر السلطان من مصر إلى المدينة فى ذلك الوقت فلعلها وضعت بقصد المبالغة .

فجاءه جميع أهلها وهو يتأملهم فلا يرى للصفة التى رآها فى منامه حتى قيل له لم يبق أحد من سكان المدينة لم يأخذ من هذه الصدقة إلا رجل ناسك زاهد وأثنوا عليه وقال لابد من حضوره فأحضروه فإذا هو بالصفة التى رآها فى نومه فأخذه وتهدده فأقر فى حينه بأنه يهودى وأطلعهم على المكان والحفر فقتلوه شر قتلة واحتاطوا بعد ذلك على جوانب الروضة الكريمة[١]، وحفروا أساسها إلى أبعد ما أمكنهم ثم رفعوه بالبناء المرصص المحكم (حتى) لا يطمع أحد فى مثل تلك الفعلة التى فعلها اليهودى لعنه الله ، ومن ذلك الوقت لا يمكن من سكنا ذلك البيت ، إلا من يعرف نسبه فى الإسلام ويوثق بدينه وأمانته »[٢].

وأخذ ابن المحجوب يذكر رواية أخرى غير رواية ابن مرزوق التلمسانى إذ يقول : « وذكر غيره أن الملك الناصر محمد بن قلاوون رأى النبى ﷺ ثلاث مرات فى ليلة واحدة وهو يؤكد عليه بقوله أدركنى فقد أذانى هذا ويطلعه على شخص اليهودى حتى ارتسمت صورته فى ذهنه»[٣]. ثم ذكر بقية القصة على النحو الذى ذكره ابن مرزوق وزاد » أن هذا السلطان رحمه الله ما برح من المدينة حتى أمر بنقض جميع جدران الحجرة الكريمة وأمر بحفر أساسها إلى الماء ثم رفعه بعد الركن المتيسر مبنيا بالحجارة العظيمة مثبتة فى الرصاص حتى بلغ وجه الأرض فبنى فوق الأساس بالرخام البديع الجنس والصفة حتى بلغ به سقف المسجد الكريم ، فنقض السقف هنالك وأكب على (الحجرة) قبة رصاص كبيرة رفيعة »[٤] ولم يذكر المراغى شيئا عن اليهودى المذكور فى القصة التى ذكرها ابن المحجوب بيد أنه علق على ذلك بقوله : « وأنا أظن أن المراغى لم يدرك قصة اليهودى مع كونه

---

(١) يقصد بها الحجرة الشريفة كما أن البعض يسميها المقدسة .

(٢) ابن المحجوب : قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٧٠ ب .

(٣) نفس المصدر ، ورقة ٧٠ ب .

(٤) ابن المحجوب : قرة العين ، ورقة ٧١ أ . والقبة التى ذكرها المؤلف لم يستحدثها الملك الناصر وإنما هى تجديد للقبة التى كان الملك المنصور قلاوون قد بناها سنة ٦٧٨ هـ كما أشار إلى ذلك ابن المحجوب نفسه .

متأخرا[١] وإنما قصة تشبهها عن السلطان نور الدين بن زنكى صاحب ملك الشام فى أواسط المائة السادسة[٢].

وبمقارنة القصتين يتضح أنهما صياغتان لحادثين مختلفين ، مما يقوى الاعتقاد بتكرر وقوع محاولة الإعتدء على الحجرة الشريفة فى عهد كل من السلطان نور الدين بن زنكى والملك الناصر محمد بن قلاوون للأسباب التالية :

١ ـ أن ما يذكره المطرى المتوفى سنة ٧٤١ هـ عن « علم الدين يعقوب بن أبى بكر المحترق ليلة حريق المسجد سنة ٦٥٤هـ عمن حدثه من أكابر من أدرك أن

---

(١) عاش المراغى فى الفترة الواقعة بين سنة ٧٢٧ ـ ٨١٦هـ وقد ألف كتابه تحقيق النصرة سنة ٧٦٦هـ .

(٢) ابن المحجوب : المصدر السابق ، ورقة ٧١ أ . وانظر لأهمية القصة التى ذكرها المراغى ومن قبله المطرى الذى يبدو أنه نقلها عنه فإننى سوف أنقلها بنصها لأهميتها فقد ذكر المطرى فى التعريف بما أنست الهجرة ص ٧١ وما بعدها أن السلطان نور الدين محمود زنكى قدم إلى المدينة فى سنة ٥٥٧هـ « بسبب رؤيا رآها ذكرها بعض الناس وسمعتها من الفقيه علم الدين يعقوب بن أبى بكر المحترق أبوه ليلة حريق المسجد عمن حدثه من أكابر من أدرك أن السلطان محمود المذكور رأى النبى ﷺ ثلاث مرات فى ليلة واحدة وهو يقول له فى كل واحدة منها يا محمود أنقذنى من هذين الشخصين ، أشقرين تجاهه فاستحضر وزيره قبل الصبح فذكر له ذلك ، فقال له هذا أمر حدث فى مدينة النبى ﷺ ليس له غيرك ، فتجهز وخرج على عجل بمقدار ألف راحله وما يتبعها من خيل وغير ذلك حتى دخل المدينة على غفلة من أهلها ... فطلب الناس عامة للصدقة وفرق عليهم ذهبا كثيرا وفضة وقال لا يبقين أحد بالمدينة إلا جاء فلم يبق إلا رجلين مجاورين من أهل الأندلس نازلين فى الناحية التى قبلة حجرة النبى ﷺ من خارج المسجد عند دار آل عمر بن الخطاب رضى الله عنه التى تعرف اليوم بدار العشرة فطلبهما للصدقة فامتنعا وقالا نحن على كفاية ما نقبل شيئا فجد فى طلبهما فجىء بهما فلما رآها قال للوزير هما هذان فسألهما عن حالهما وما جاء بهما فقالا لمجاورة النبى ﷺ فقال أصدقانى وتكرر السؤال حتى أفضى إلى معاقبتهما فأقر أنهما من النصارى وأنهما وصلا لكى ينقلا من فى هذه الحجرة المقدسة باتفاق من ملوكهم ووجدهما قد حفرا نقبا من تحت الأرض من تحت حائط المسجد القبلى وهما قاصدان إلى جهة الحجرة الشريفة ويجعلان التراب فى بئر عندهما فى البيت الذى هما فيه هكذا حدثنى عمن حدثه فضرب أعناقهما عند الشباك الذى فى شرقى حجرة رسول الله ﷺ خارج المسجد ثم أحرقا بالنار آخر النهار وركب متوجها إلى الشام » وانظر المراغى فى تحقيق النصرة ص١٤٦ .

السلطان محمود المذكور رأى النبى ﷺ ثلاث مرات فى ليلة واحدة ... »[١] يدل على أن هذه القصة وقعت فى عهد نور الدى محمود زنكى ، وذلك لأن معرفة شيوخ المدينة ومنهم علم الدين يعقوب بن أبى بكر بها أقدم بكثير من تولى السلطان الملك الناصر حكم مصر[٢].

٢ ـ يبدو أن الأمر فى عهد نور الدين بن محمود زنكى اقتصر فقط على اكتشاف أمر الرجلين اللذين قدما من الأندلس[٣] وعقابهما دون ذكر شىء عن صب الرصاص فى الخندق[٤]. ولم يذكر أحد من المؤرخين الذين عاصروا نور الدين وأرخوا لسيرته شيئا عن هذه الحادثة العظيمة التى قيل أنه قدم إلى المدينة من أجلها[٥]، ومن هؤلاء المؤرخين ابن النجار (٥٧٣ ـ ٦٤٣ هـ) ، الذى ألم بالكثير من أخبار المدينة المنورة وأحداثها ومع ذلك لم يتكلم فى كثير أو قليل عن الحادث

---

(١) التعريف بما أنست الهجرة ص ٧٢ .

(٢) ذكر السخاوى فى التحفة اللطيفة جـ٣ ص ٧١٥ وما بعدها أن الملك الناصر « بويع بالسلطنة بعد قتل أخيه الأشرف خليل ، فى المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، وهو ابن تسع سنين . ولم يلبث أن خلع فى المحرم التى تليها بنائب السلطنة العادل كتبغا المنصورى مملوك أبيه وبعث بالناصر إلى الكرك ليتعلم به القرآن والخط . فدام حتى قتل المنصور حسام الدين لاجين المنصورى المنتزع المملكة من كتبغا . فبويع للناصر ، وخطب له بالديار المصرية مع كونه بالكرك فى ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين . ثم أحضر واستمر حتى أظهر التخلى عن الملك آنفا ، من كثرة حجر نائبه سلار واستاداره بيبرس الجاشنكير ... فى آخر سنة ثمان وسبعين ... واستمر بالكرك إلى أثناء سنة تسع ، فتوجه إلى دمشق وجاء العود ، وتقوى بمن وافقه من النواب وغيرهم ... وتمهد له الأمر حتى مات فى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة بقلعة الجبل عن ثمان وخمسين ... بعد أن حج فى سنة اثنتى عشرة ، ثم سنة تسع عشرة ، ثم سنة اثنين وثلاثين » .

(٣) انظر رواية المطرى والمراغى المتقدمة .

(٤) إن إحاطة الحجرة الشريفة بخندق مملوء بالرصاص أمر مبالغ فيه نظرا لثقل الرصاص وصعوبة نقل ما يكفى منه إلى المدينة لملء الخندق ، الذى قيل أنه حفر بعمق كبير . كماذكره ابن المحجوب.

(٥) قال السمهودى فى وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٥٢ : « والعجب أنى لم أقف على هذه القصة فى كلام من ترجم نور الدين الشهيد مع عظمها » .

٣ - أن ما حدث فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون من عمارة فى المسجد النبوى الشريف بصفة عامة والحجرة الشريفة بصفة خاصة يدعو إلى الاعتقاد بصحة القصة فى عهده ، أو خوفه من تكرار حدوثها مستقبلا ، خاصة وأن تفوق الناصر محمد على سلاطين المماليك فى عدد الحجات التى قام بها[1] يساعد على قبول القصة . كما أن النويرى وهو أهم مصدر للحدث المذكور قد عاش فترة من سلطنة الناصر محمد بن قلاوون ، إذ عاش من سنة ٧٢٤ - إلى ٧٩٨هـ[2] .

٤ - أن إغفال المصادر التى أرخت للعصر المملوكى لهذه الحادثة لا ينفى وقوعها وذلك لأن من المراسيم التى أصدرها السلاطين فى مناسبات عديدة من تاريخ المسجد وأحداثه ما ليس له ذكر فى هذه المصادر المتخصصة ، وهو عيب يضاف إلى ما تتسم به هذه المصادر من اعتماد على النقل من غيرها دون بحث أو تمحيص .

وقد اختلفت الروايات فى عدد المعتدين على الحجرة الشريفة وفى ديانتهم ونوع عقابهم ، فمن الروايات أنهما نصرانيان أشقران وأنهما قتلا ثم حرقا بالنار ، وهو أمر لم يأمر به الإسلام ولا أظن نور الدين الذى وصف بالملك العادل[3] يقدم عليه وهو يعرف حرمته . وهما عند الأسنوى الذى نقل عنه السمهودى كذلك إلا أن عذابهما اقتصر على القتل دون التحريق بالنار . وفى القصة المنسوبة إلى الملك الناصر هو يهودى واحد اقتصر عقابه على القتل فقط .

وكان مما قام به السلطان الملك الناصر محمد من تجديد الدرابزين الذى

---

(١) كان قد حج سنة ٧١٢هـ وسنة ٧١٩هـ ، وسنة ٧٣٢هـ . انظر : السخاوى : التحفة اللطيفة ، جـ٣ ص ٧١٥ ، وعلى بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص ١٣٠ ، وما بعدها .

(٢) انظر ترجمة النويرى عند الفاسى : العقد الثمين ، جـ٦ ص ١٣٢ .

(٣) قال السمهودى : فى الوفا ، جـ٢ ص ٦٥٢ نقلا عن ابن الأثير « طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا ». فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز ملكا ، أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين .

استحدثه الظاهر بيبرس سنة ٦٦٨هـ ، على أنه جعله يقل فى ارتفاعه عن سابقه بحيث اقتصر ارتفاعه هذه المرة على ستة أذرع أو سبعة وقد نقش اسمه فى أعلاه وبقى حتى شاهده ابن المحجوب فى القرن التاسع وذكر أنه « قصد بقصر الشباك (الدرابزين) أن يظهر شامخ بناء جدران الحجرة وبراعة رخامها وبهجة منظرها »[1] وزاد عدد أبواب الدرازين بابا رابعا ، وذلك بعد إزالة المقصورة التى كانت تظلل الحجرة الشريفة من الشمال سنة ٧٢٩ هـ .

ولم يلق الناصر محمد بالا إلى ما طلبه منه بعض العلماء المعاصرين من إزالة هذا الدرابزين الذى حجز جزءا من الروضة الشريفة [2]، وكانت هذه الأعمال مزامنة لبناء البلاطتين اللتين استحدثهما الملك الناصر . ويغلب على الظن أن لهذه الأعمال علاقة كبيرة بحادثة اليهودى التى نسبها ابن المحجوب إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون[3] وقد يزكى ذلك أيضا أنه حدث فى زمن الناصر محمد بعد تلك الحادثة تحول واضح فيما كان يحظى به اليهود والنصارى من معاملة[4].

وتتسم الأعمال التى قام بها الملك الناصر محمد بن قلاوون فى المسجد النبوى الشريف بسمات لا تشاركها فيها أعمال ملك سابق ، فهى لا ترتبط بزمن واحد ولا تتصف فى مراحلها المختلفة بصفة واحدة ، فالسقوف فى البلاطات المجددة من

---

(١) ابن المحجوب : قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٧٣ب .

(٢) ذكر السمهودى فى الوفا جـ٢ ص ٦١٤ نقلا عن ابن فرحون فى ترجمة الشيخ على الواسطى أنه بعث إلى الملك الناصر يقول له : « أنا أضمن لك على الله تعالى قضاء ثلاث حوائج إن قضيت لى حاجة واحدة ، وهى ازالة هذا الشباك (الدرابزين) الذى على الحجرة الشريفة يعنى هذه المقصورة ، فبلغه ذلك ، فتوقف ولم يفعل » ثم ذكر السمهودى فى ص ٦١٥ من المصدر السابق أن ابن جماعة قال : « وقد تحدثت مع الملك الناصر رحمه الله لما حج وزار سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة فى غلق الدرابزين أيام المواسم ، فسكت لما ذكرته ، ولم يجبنى بشىء » . ثم ذكر السمهودى أن أبواب الدرابزين المذكورة أغلقت بعد ذلك . ولا يدخلها إلا بعض الخدام والفراشين . ومن هذا يتبين أن أمر الملك الناصر باغلاقها فى أوقات السنة كلها كان بعد سنة ٧٣٢هـ وهى آخر حجة له .

(٣) قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٧٠ أ .

(٤) وليم مومير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ، ص ٨٤ وما بعدها

الروضة أحفل منها فى سقوف الظلتين الشرقية والغربية ، والعقود المستخدمة فى البلاطتين المضافتين إلى مقدم المسجد هى فى الحقيقة حدث جديد وهام فى عمارة المسجد النبوى الشريف ، وذلك بالإضافة إلى منارة باب السلام التى كانت أطول منارات المسجد آنذاك .

خامسا : عمارة المسجد النبوى فى أواخر عصر المماليك البحرية:

لم يكن للسلاطين الذين تولوا بعد الملك الناصر محمد بن قلاوون كبير أثر فى عمارة المسجد النبوى الشريف ، وذلك لأن ما تم فى عهدهم من أعمال اقتصر على تجديد جوانب يسيرة من بعض العناصر المعمارية .

وكان أول هذه الأعمال ما قام به السلطان حسن بن قلاوون (٧٤٨ ـ ٧٥٢هـ ، ٧٥٥ ـ ٧٦٢هـ) من تجديد القبة الزرقاء التى بناها جده المنصور قلاوون سنة٦٧٨هـ على الحجرة الشريفة سنة ٧٥١هـ[(١)] على أن المصادر التى بين يدى لم تشر إلى أسباب تجدد هذه القبة التى لم يمض على عمارتها وقت طويل ، خاصة وأن ابن المحجوب قد أشار إلى تجديد الملك الناصر محمد بن قلاوون لها عند ذكره لحادثة اليهودى المشهورة . وسواء صح ما ذكره ابن المحجوب أم لم يصح فإن الوقت الذى مر على بناء هذه القبة فى سنة ٦٧٨هـ فى عهد الملك المنصور أو على تجديدها فى حدود سنة ٧٢٩هـ فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون كفيل بتعرضها لآثار المطر ومضاعفاته . وندرة الأخبار عن هذا التجديد لا تمكن من معرفة حجمه وموضوعه . ومع ذلك فإن إعادة تجديدها سنة ٧٦٥هـ فى عهد الأشرف شعبان يفيد بأن تجديد السلطان حسن بن قلاوون لها كان

---

(١) الاسفرائينى : زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال ، ورقة ١٨٧ أ، الخوارزمى : إثارة الترغيب والتشويق ، ص ٣٣٤ ، السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٩ . وقد ذكر المراغى فى تحقيق النصرة ص ١٤٧ « تجديد سور المدينة المنورة سنة ٧٥١هـ فى أيام السلطان الشهيد الملك الناصر حسن بن قلاوون » . ومع أنه لا يعرف أن السلطان حسن قد قام بعمل فى المدينة المنورة فى وقت آخر ، فإنه لا يبعد استنتاجا أن يكون تجديد القبة الزرقاء قد صاحب تجديد سور المدينة .

بالخشب والرصاص أيضا على نسق عمارتها فى عهد جده المنصور قلاوون أو والده الملك الناصر[1] مع الاستفادة بما جد من أساليب فنية فى عمارة القباب المملوكية آنذاك[2].

وقد عرفت هذه القبة بالقبة الزرقاء فى ذلك الوقت أو قبله بقليل ، وذلك لأن العبدرى الذى شاهدها بعد إنشائها بقليل فى عهد الملك المنصور قلاوون وبالتحديد فى سنة ٦٨٩هـ ، قال أنها قبة مليحة بيضاء[3] وفى هذا إشارة إلى أنها لم تعرف بالزرقاء إلا فيما بعد ومع حرصى الشديد فى البحث فى المصادر المختلفة من كتب ومخطوطات عن السلطان حسن فإننى لم أجد من ذكر له عملا آخر فى المسجد النبوى

ويبدو أن تجديد السلطان حسن لهذه القبة لم يكن محكما مما دعا إلى تجديدها بعد أربعة عشر عاما فى سلطنة الأشرف شعبان بن حسين (٧٦٤ ـ ٧٧٨هـ) عندما تبين خروج ألواح الرصاص عن مواضعها بسبب الأمطار وتسرب مياهها إلى أخشاب القبة[4] وقد حرص المسئولون عن عمارتها هذه المرة على أن يكون تجديدها قويا ومحكما ، كما أشار إل ذلك من ذكرها من المؤرخين ، حتى أنها بقيت سليمة مدى ١١٦ سنة عندما دب إليها شىء من الخلل فى سنة ٨٨١هـ[5].

وإلى جانب اعتناء الأشرف شعبان بإحكام تجديد هذه القبة ، فقد اهتم بعد ذلك بعامين بتجديد شرافات المسجد الشريف التى أتلفها حريق سنة ٦٥٤هـ إذ لم

---

(١) ليس لدى من النصوص ما يذكر تجديد الملك الناصر لهذه القبة سوى ما ذكره ابن المحجوب فى قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٧١ أ .

(٢) يذكر الدكتور كمال الدين سامح فى بحثه « تطور القبة فى العمارة الإسلامية » ص ١٩ « أن كبر القباب وخلوها من الزخارف فى عصر المماليك البحرية هو من أهم مميزاتها » ثم يذكر « أنها قبة كبيرة من الخشب تغطى حوالى ثلاث بلاطات مربعة » .

(٣) انظر أدناه ص ٢٣٩ .

(٤) الاسفرائينى : زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال ، ورقة ١٨٧ أ ، المراغى : تحقيق النصرة ص ١٨ .

(٥) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦١٠ .

يكن « للمسجد شرافات منذ حريقه »[1]. ولم يفكر أحد من الملوك الذين اهتموا بالعمائر السابقة بإعادة هذه الشرافات التى كانت تزين المسجد النبوى فجددها السلطان شعبان سنة سبع وتسعين وسبعمائة[2]، على هيئة الشرافات التى كانت تزين العمائر المملوكية في ذلك الوقت ، وكانت قطعا حجرية منحوتة على شكل الورقة النباتية الثلاثية ، أو المركبة أو المسننة [3].

وقد اختتم الأشرف شعبان أعماله هذه بما قام به مدير مملكته الأمير يلبغا الخاصكى من إلغاء للمكوس التى كانت تجبى « بمكة والمدينة المشرفتين ورتب على بيت المال المعمور فى كل سنة مائتى ألف وستين ألفا »[4].

---

(١) المراغى : تحقيق النصرة ، ص ٢٤ ، السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٢٥ .

(٢) المراغى : المصدر السابق ص ٢٤ .

(٣) مصطفى نجيب : بحث العمارة فى عصر المماليك ص ٢٣٨ .

(٤) بدر الدين العينى : عقد الجمان جـ٢٦ ص ١٤٨ . ولكن ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة جـ١١ ص ٢٤ قد جعلها فى سنة ٧٦٤هـ فى حين أن المؤلفين لم يذكرا ما المقصود بالعدد المذكور فى النص هل هو دراهم ودنانير . أم دنانير وحبوب ؟ إلا أنه يبدو من مقارنة ما ذكره العينى وابن تغرى بردى أن الأخير قد نقل عن العينى خلاصة النص المذكور أعلاه . أما الفاسى المتوفى سنة ٨٣٢هـ فقد ذكر أن الأشرف شعبان قد ألغى مكوس مكة دون أن يشير إلى المدينة . ولكن ابن فهد المتوفى سنة ٨٨٥هـ قد ذكر فى اتحاف الورى حوادث سنة ٧٦٦هـ أنه اتفق مع الشريف عجلان على أن يرتب له من المال فى كل سنة مائة وسبعون (وفى نسخة أخرى ستون) ألف درهم وألف أردب قمح . مقابل ترك الجبا . وأنه « كتب له بذلك مثال شريف من مصر وكتب عليه بذلك محاضر أثبت منها بمكة واحد وفى المدينة النبوية واحد وعند صاحب مصر فى القلعة واحد » . وفى المبالغ التى ذكرها ابن فهد مخالفة لما ذكره الفارسى فى شفاء الغرام ، جـ٢ ص ٢٤٩ وما بعدها إذ أنه يجعل الدراهم ١٧٠٠٠٠ درهم بدلا من ٦٨٠٠٠ درهم . أما القمح فمقداره ألف أردب عند المؤلفين .

الفصل الثالث

المسجد النبوى فى عصر المماليك الجراكسة

٧٨٤ ـ ٩٢٣ هـ

المبحث الأول
الأعمال المعمارية في المسجد النبوى
قبل السلطان الأشرف قايتباى

المبحث الأول

الأعمال المعمارية فى المسجد النبوى قبل الأشرف قايتباى

اكتفى سلاطين المماليك الجراكسة بالمحافظة على عمارة المسجد النبوى الشريف التى تمت بعد حريقه الأول سنة ٦٥٤ هـ . وأخذوا يتعهدونه بالترميم والتجديد كلما دعت إلى ذلك ضرورة ملحة ، مدفوعين إلى هذه المحافظة التقليدية بأمور كثيرة لعل أهمها ، التمسك بما جرت عليه العادة فى جميع عمائر المسجد النبوى من عدم إحداث مالا ضرورة له ، وأخذ الحذر والحيطة عند إدخال عنصر معمارى جديد لم يألفه الناس بعد . يضاف إلى ذلك انعكاس الفتن والأحداث التى صاحبت قيام دولة المماليك الجراكسة على اهتمام سلاطينها بالحرمين الشريفين ، فلم يتكفلوا بعمارتها إلا عند الضرورة ، كما ذكرت آنفا[١] وعلى ذلك فإن غالب الأعمال التى تمت فى المسجد الشريف قبل سنة ٨٧٢هـ ، هى فى الحقيقة أعمال بسيطة لم تتجاوز الترميم والتجديد إلا فى عهد السلطان الأشرف قايتباى .

ويغلب على الأعمال التى تمت قبل عمارة هذا السلطان ، كثرة المنابر المرسلة من مصر إلى الحرم النبوى الشريف . وأولها منبر الظاهر برقوق (٧٨٤ - ٧٩١هـ) الذى أرسل به فى سنة ٧٩٨هـ ليحل محل منبر الظاهر بيبرس الذى ظل يخطب عليه فى المسجد النبوى مائة واثنين وثلاثين سنة « حتى أن الأرضة كانت قد أثرت فيه كثيرا فنقل ذلك للسلطان ، فأمر بعمل منبر جديد وجهزه فى هذه السنة »[٢] ،

---

(١) ذكر على بن حسين السليمان فى العلاقات الحجازية المصرية ، ص ٤٢ ، أن المظهر التجارى كان قد تغلب فى الظهور على المظهر الدينى فى دولة المماليك الجراكسة الذين اهتموا باحتكار السلع وإيجاد الأسواق لها .

(٢) ابن حجر العسقلانى : أنباء العمر بابناء الغمر ، جـ١ ص ٧٩٧ ، وانظر السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٤٠٧ ، حيث نقل عن المراغى خبر وصول هذا المنبر من قبل الظاهر برقوق إلى المدينة سنة ٧٩٨هـ . وقد بحثت فى النسخة المحققة من كتاب المراغى المسمى تحقيق النصرة عما أسنده إليه السمهودى فلم أجد لذلك ذكرا ، فلعل ذلك أضيف إلى إحدى النسخ التى وقعت للسمهودى لأن تأليف الكتاب كما نص عليه المؤلف فى ص ١٤٦ من النسخة المحققة هو سنة ٧٦٦هـ . وانظر السخاوى : التحفة اللطيفة جـ١ ص٣٦٧.

أى سنة ٧٩٨ هـ صحبه أمير الحج المصرى الأمير أيتمش[١]، فاهتم بوضعه فى موضع منبر الظاهر بيبرس الذى نقل إلى حاصل الحرم الشريف[٢] كما فعل من قبل بمنبر ملك اليمن فى عهد الظاهر بيبرس .

ومن المسلم به أن يكون هذا المنبر مضاهيا فى الصنعة والمنظر للمنبر الذى كان قبله[٣] وأنه كان يتحلى بالدقة والجمال اللذين اتسمت بهما عموم المنابر المملوكية فى ذلك الوقت[٤] مدفوعين إلى ذلك بسبب قداسة المكان الذى سوف يتبوأه المنبر من المسجد النبوى ، وتبنى السلطان شخصيا لفكرة إهدائه . ولكن لسوء الحظ لم يتيسر لى من المعلومات ما يكفى للإلمام ببعض التفاصيل الهامة من حيث ارتفاعه وطوله ونوع الخشب المصنوع منه ، وغير ذلك من الصفات التى تعتبر ضرورية فى مثل هذه الحالة ، ومع ذلك يمكن الاستنتاج من خلال ما ذكر عن إبلاغ السلطان عن آثار الأرضة المنتشرة فى أجزاء المنبر السابق ، ومن واقع الحرص المتناهى على المحافظة على الشكل التقليدى الذى اتخذته المنابر السابقة ، أن هذا المنبر كان مساويا فى الطول والعرض والارتفاع للمنبر الذى كان قبله أو قريبا منه[٥] .

وكما لم يصلنا الكثير عن تفاصيل هذا المنبر فإن المصادر التى أمكننى

---

(١) قال السخاوى فى نفس المصدر جـ١ ص ٣٥١ فى ترجمته له أنه « صاحب المدرسة بباب الوزير له درس للحنفية بالمدينة » .

(٢) ابن حجر العسقلانى : أنباء الغمر بأنباء العمر ، جـ١ ص ٧٩٧ .

(٣) يتبين من الوصف الذى أورده البلوى فى رحلته جـ١ ٢٨٦ ، والفيروزبادى فى المغانم المطابة ورقة ١٠١ أ . أن منبر الظاهر بيبرس كان على درجة كبيرة من الدقة والجمال شأنه فى ذلك شأن المنابر المملوكية عموما .

(٤) عن صناعة المنابر فى العصر المملوكى ، انظر زكى محمد حسن : فنون الإسلام ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، وعبد الرءوف على يوسف فى بحث له عن الخشب والعاج ، ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٥) قال الفيروزبادى فى وصفه لمنبر الظاهر بيبرس ورقة ١٠١ أ أن « طوله أربع أذرع فى السماء ومن رأسه إلى عتبته سبعة أذرع يزيد قليلا ، وعدد درجاته سبع بالمقعد ... وللمنبر باب بمصراعين فى كل مصراع رمانة من فضة .. » .

الاطلاع عليها لم تنسب على كثرتها إلى السلطان برقوق أعمالا أخرى فى المسجد النبوى الشريف أو المدينة المنورة [١]. ومن الجدير بالذكر أن مدة الخطابة على هذا المنبر كانت قصيرة نسبيا فلم يكتب له البقاء فى المسجد النبوى كثيرا ، كما تم لمنبر الظاهر بيبرس ، وذلك لأن السلطان المؤيد شيخ المحمودى (٨١٥ ـ ٨٢٤هـ) كان قد أمر بعض النجارين من أهل الشام[٢] بعمل منبر لمدرسته التى بناها فى القاهرة ، والمعروفة بالمؤيدية « فوجدوا أهل مصر قد صنعوا لها منبرا ، فجهز المؤيد منبر أهل الشام إلى المدينة الشريفة[٣] . وينقل السمهودى عن ابن حجر « أن المنبر الموجود اليوم (فى زمن ابن حجر) أرسله المؤيد سنة عشرين وثمان مائة »[٤] خلافا للقول الشائع بأنه أرسله سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة[٥] ، وعلى هذا فمدة بقاء منبر الظاهر برقوق فى الحرم النبوى الشريف تكون من سنة ٧٩٨هـ إلى ٨٢٠هـ ، أى اثنان وعشرون عاما ولذلك يبدو أن استبداله لم يكن لسبب من الأسباب سوى أن المؤيد شيخ وجد نفسه أمام تحفة فنية نادرة تفنن فيها أمهر النجارين من أهل الشام فأشار هو أو ربما أحد خواصه بوضعه فى المسجد النبوى الشريف ، فأرسل به إلى المدينة سنة ٨٢٠ هـ ليحل مكان منبر الظاهر برقوق . وظل يخطب عليه فى المسجد الشريف قرابة « سبع وستين سنة »[٦] حتى دمره الحريق المروع الذى حل بالمسجد النبوى الشريف فى شهر رمضان من عام سته وثمانين وثمان مائة[٧] .

وعلى أية حال فإن بعض التفاصيل الهامة عن هذا المنبر قد أتتنا لحسن الحظ هذه المرة من مؤرخ معاصر له شغف كبير فى تتبع آثار المسجد النبوى وتدوين

---

(١) ذكر الصيرفى فى نزهة النفوس والأبدان ، جـ١ ص ٢١٢ ، أن هذا السلطان « بنى بحيرة برأس وادى بنى سالم قريبا من المدينة الشريفة » ويبدو أن ذلك كان بقصد خدمة الحجاج والأعراب .

(٢) يذكر غرس الدين بن خليل بن شاهين الظاهرى فى زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، ص ١٤ أن هذا المنبر هو من بعلبكى ، ولعل مقصده أنه من خشب بعلبك الواقعة حاليا فى لبنان، التى تعد جزء من بلاد الشام التى كانت تضم لبنان وفلسطين وسوريا قديما .

(٣) ، (٤) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٠٨ .

(٥) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٤٠٨ ، السخاوى : التحفة اللطيفة ، جـ٢ ص ٢٢٧ .

(٦) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٤١٠ .

(٧) نفس المصدر جـ٢ ص ٤١٠ .

تفاصيلها ، وهو مؤرخ المدينة المشهور على بن أحمد السمهودى المتوفى ٩١١ هـ . فقد ذكر أن « طول هذا المنبر فى السماء سوى قبته وقوائمها ، بل من الأرض إلى محل الجلوس ، ستة أذرع وثلث ، وارتفاع الحافتين اللتين يمين المجلس وشماله ذراع وثلث ، وامتداد المنبر فى الأرض من جهة بابه إلى مؤخره ثمانية أذرع ونصف راجحة ، وعدد درجه ثمانية ، وبعدها مجلس ارتفاعه نحو ذراع ونصف[١] ، وقبته مرتفعة ، ولها هلال قائم مرتفع أيضا »[٢] ، وأضاف إلى ذلك مشيرا إلى ارتفاعه الكبير » وما أظن منبرا وضع مثله فى موضعه أرفع منه ، وله باب بصرعتين »[٣] وكان يرجى من السمهودى الذى أدرك هذا المنبر الاستفاضة بذكر تفاصيل أخرى هامة عن نوع الخشب وطريقة الزخرفة التى اتبعت فى حشوات المنبر المذكور . ومع ذلك فإن ما ذكره عن قبة المنبر يعتبر فى الحقيقة أول إشارة إلى صفة القبة فى المنابر السابقة .

ويتبين لنا من مقارنة هذا المنبر بالمنابر السابقة له[٤] أن السبب فى اختلافه فى

---

(١) يقصد بالمجلس هنا موضع جلوس الإمام بين خطبتى الجمعة .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٤١٠ ، ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار ص ٨٦ .

(٣) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٤١٠ .

(٤) جدول مقارنة بين منبر المؤيد شيخ والمنابر السابقة له :

	المنبر الذى ادركه ابن جبير سنة ٥٨٠هـ	المنبر الذى ادركه ابن النجار فى القرن السابع الهجرى	منبر يوسف بن رسول عام ٦٦٦هـ	منبر الظاهر الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦هـ	منبر الظاهر برقوق عام ٧٩٨هـ	منبر المؤيد شيخ سنة ٨٢٠هـ
ارتفاع المنبر	قامة أو يزيد	ثلاثة أذرع وشبر وثلاثة أصابع	؟	اربعة أذرع	؟	ستة أذرع
سمته	خمسة أشبار	ذراع راجح	؟	–	؟	–
طوله	خمس خطوات	خمسة أذرع وشبر	؟	سبعة أذرع وشيء	؟	ثمانية أذرع ونصف
عدد درجه	ثمان درجات	تسع درجات بالمقعد	؟	سبع بالمقعد	؟	تسعة بالمقعد
صفة بابه	على هيئة الشباك طوله ٤ أشبار	باب	؟	له باب زمانتاه من الفضة	؟	باب بصرعتين

الطول والعرض والارتفاع هو أنه لم تراع فى صنعته الأبعاد التقليدية التى حافظت عليها المنابر التى كانت قبله فى المسجد النبوى الشريف فلقد أُعد كما عرفنا من قبل للمدرسة المؤيدية ، التى تمتاز كغيرها من المدارس المملوكية بارتفاع السقف وعمق إيوان القبلة[١] ، مما جعل هذا المنبر يتقدم فى موضعه « على الذى قبله من جهة القبلة بما يقرب من ذراع ، وكذا ظهرت زيادته من جهة الشام أيضا على الدكة الأصلية المتقدم وصفها بقريب من ذراع »[٢] وفى بقاء هذا المنبر فى المسجد النبوى الشريف إلى أن دمره الحريق الثانى سنة ٨٨٦هـ دون أن يتعرض له قايتباى فى عمارته الأولى بالتجديد أوالتبديل ، دليل على ما امتاز به من دقة فى الصنعة ومتانة فى التركيب . ويظهر أن هذا المنبر هو العمل الوحيد الذى قام به المؤيد شيخ فى المسجد النبوى الشريف .

أما أعمال الأشرف برسباى فتختلف فى شكلها ومضمونها عن أعمال الظاهر برقوق والمؤيد شيخ اللذين اقتصرت أعمال كل منهما على إرسال منبر إلى المسجد الشريف . وقد افتتح السلطان برسباى أعماله بإرسال القمح إلى أهل الحرمين سنة ٨٢٩ هـ « وأمر على الصدقة الأمير أقبغا التركمانى وبدا بالمدينة وفرق خمسمائة أردب قمح على القضاة والعلماء والفقهاء والخدام والأشراف والأيتام والأرامل ...»[٣] . ثم أقر فى حدود سنة ٨٣١ هـ ما قام به الشيخ علاء الدين البخارى الحنفى فى الحرم النبوى الشريف من تسمير لأبواب الدرابزين المحيطة بالحجرة الشريفة [٤] بقصد تعظيمها « وتنزيه المشهد الشريف عن كثرة اللامسين

---

(١) محمد مصطفى نجيب : العمارة فى عصر المماليك ص ٢٤٥ وما بعدها .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤٠٩ ، وفى ص ٦١٢ يذكر أنه كان مفرط الطول بحيث كان قاطعا للصف الباقى من الروضة الشريفة .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٦٤ . وقد ذكر فى نفس الصفحة أنه فرق فى مكة « خمسمائة أردب قمح على أهل الحرم كلهم وعلى الأربطة والمجاورين وعم بها أهل مكة » .

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٩ ص ٣٩٤ ، حيث ذكر فى ترجمته لهذا الشيخ مدى الحظوة والجاه اللذين لقيهما عند سلطان مصر بسبب ورعه وعلمه وقال أنه قام فى حجة سنة ٨٣١هـ باغلاق « أبواب المسجد الحرام بمكة مدة حجه فكانت لا تفتح إلا أوقات الصلوات الخمس ومنع من نصب الخيام وإقامة الناس فيه أيام المواسم وأغلق أبواب مقصورة الحجرة الشريفة النبوية ومنع كافة الناس من الدخول إليها » .

بالأيدى»[١] وغير ذلك من البدع المكروهة وأصبح الجزء المحجوز من الروضة الشريفة معطلا[٢] لا يصله إلا الخدام عند إسراجهم لقناديل الحجرة الشريفة أو تنظيفها ، وبقى هذا الدرابزين مستمرا حتى احترق سنة ٨٨٦هـ [٣].

أما أكبر عمل قام به الأشرف برسباى فى المسجد النبوى الشريف فقد كان تجديده للبلاطتين اللتين أحدثهما الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٩هـ، وذلك فى

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦١٦ . وذكر محمد بن محمود بن خليل الحلبى المتوفى سنة ٨٦٠هـ فى عمدة الناسك فى أفعال الحج والمناسك ، ورقة ١٢ أ ما يفعله الناس عند هذا الدرابزين فقال : « ولما دخلتها مع سيدى الوالد رحمه الله حين حججت معه فى سنة تسعة وعشرين وثمان مائة رأيت كثيرا من الناس يحصل منهم (اساءة) أدب عند زيارته ويعتقدون أن ذلك زيادة فى محبته ﷺ وليس الأمر كذلك . وبعد ذلك منعوا من الدخول وغلقوا أبواب الحجرة النبوية لأمر اقتضى ذلك » . وعن ما ذكره ابن المحجوب فى قرة العين فى أوصاف الحرمين ورقة ٧٣ أ عن سبب إستحداث الظاهر بيبرس لهذه المقصورة . انظر اعلاه ص ٢٣٠ .

(٢) علق السمهودى فى الوفا جـ٢ ص ٦١٦ على هذا العمل بأنه يجب فتح بعض تلك الأبواب ، خصوصا فى غير أيام المواسم ، وليس الطريق فى إزالة المفسدة المذكورة غلق تلك الأبواب وتعطيل تلك البقعة ، بل وقوف الخدام عند ذلك المحل ومنع من يتعاطى فيه مالا يليق بالأدب ، على أن ذلك لم يحسم المادة لأن تلك الأمور - أعنى لمس الجهال ووضعهم الظهور - يفعل اليوم (فى زمنه) بهذا الدرابزين ، ولا شك أن الجدار الذى كان يفعل به ذلك ليس هو نفس القبر ، بل ولا جدار الحجرة كما قدمناه . بل جدار آخر دائر به كما أن هذه المقصورة دائرة به ، فإن كان ذلك يقتضى تعطيل ذلك المحل ، فليعطل من أجله المسجد بأجمعه ، وتعطيل المسجد أو شيئ منه حرام فلا يرتكب لدفع مكروه مع إمكان دفعه بغيره » . ثم علق على ما قيل من أسباب اغلاق هذه الأبواب فقال : « وما يقال من أنه ربما وجد فى بعض المواسم هناك قذر ، فقد كان شيخنا شيخ الإسلام فقيه العصر شرف الدين المناوى يقول فى جوابه ولا شك أن ذلك المحل من المسجد ، فإن كان وجود القذر فيه مقتضيا لتعطيله وصيانته بالغلق فليغلق المسجد بأجمعه ، فإن حكم الكل واحد من حيث وجوب صونه ، واختصاص ما تقرب من المحل الشريف بمزيد التعظيم حاصل بالجدار الكائن عليه » .

(٣) يذكر السمهودى فى وفاء الوفا ، جـ٢ ص٦١٧ أنه حاول مفاتحة قايتباى عندما قدم المدينة «للزيارة سنة أربع وثمانين وثمانمائة واجتمعت به بالروضة الشريفة ، أردت أن أتكلم معه فى مفاتحة بعض تلك الأبواب فى غير أيام المواسم ، فرأيته قد تعاظم دخول هذه المقصورة لما عرض عليه ذلك» ثم قال فعلمت أنه لا يوافق على ما أريده .

سنة ٨٣١ هـ عندما بعث السلطان « مع الرمحى[١] الأمير مقبل القديدى[٢] معمارا لما يحصل فى الحرمين فى الأماكن الضروريات فبدأ بعمارة الحرم النبوى»[٣] ويبدو أن ما قام به هذا المعمار الذى عرف بجمال الدين يوسف[٤] هو إرشاد العمال والصناع إلى الأجزاء التى تحتاج إلى ترميم وتجديد ، من المسجد الشريف وذلك لأنه قد عاد إلى مكة عندما وصل الركب الشامى إليها[٥]، للاتصال بالأمير مقبل القديدى الذى كان يقيم فى مكة المكرمة . ويظهر « أن ذلك كان باستدعاء منه للتشاور معه فى الأعمال القائمة فى المسجد النبوى فى المدينة ، وأخذ رأيه فى تصريف الأموال التى وصل من السلطان صحبة الركب المصرى ومقدارها كما قول ابن فهد « عشرة آلاف افلورى[٦]، خمسة آلاف صحبة أمير الركب الأول[٧] اينال

---

(١) نسبة إلى الرمح . وقال حسن الباشا فى الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، جـ٢ ص ٥٥٨ . أن الرماح « هو المحارب بالرمح والجمع رماحه ، وكان الرماحة والرماحية يؤلفون إحدى طبقات أو فرق الجيش فى عصر المماليك » .

(٢) ذكر قطب الدين النهراوالى ، فى اعلام الأعلام ص ٩٦ ، أن الأمير مقبل القديدى قد تولى فى أول عهد الأشرف برسباى عمارة سقف الكعبة المشرفة وبعض سقوف المسجد الحرام . ثم أسند إليه أيضاً فى سنة ٨٢٦هـ تجديد رخام جدران الكعبة وبعض الاسطوانات الموجودة داخلها ، وأنه كتب اسم السلطان على لوح من رخام ونقشه بالذهب وركبه فى جدار الكعبة من الداخل .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ، ص ٣٦٨ .

(٤) قطب الدين النهروالى : أعلام الأعلام ص ٢١٢ .

(٥) ابن فهد : المصدر السابق ص ٣٦٨ .

(٦) ضربت فلورنسا نقودها الذهبية التى راجت فى الأسواق الشرقية وعرفت باسم أفلورى سنة ١٢٥٢م وقد أمتازت هى والنقود البندقية عن النقود المملوكية بدقة سكها وارتفاع عيارها . انظر عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ص ٩٦ وما بعدها .

(٧) بحثت عن معنى هذا اللقب عند القلقشندى فى صبح الأعشى وكذلك فى الفنون الإسلامية والوظائف لحسن الباشا وكذلك فى نظم دولة سلاطين المماليك لعبد المنعم ماجد فلم أعثر على من يذكر هذه الوظيفة بهذا الاسم إلا أنهم جميعا يشيرون إلى أن أمير ميئة مقدم ألف هو أعلى لقب بين الأمراء المماليك فلعلها المقصودة هنا . انظر صبح الأعشى جـ٧ ص ١٥٨ والفنون الإسلامية والوظائف جـ١ ص ٢٤٩ ، نظم دولة سلاطين المماليك جـ١ ص ١٤٥ .

الشتمانى المحتسب ، أحد رؤوس نوبة النواب[1] ، وخمسة آلاف صحبة أمير المحمل قرا سنقر كاشف الجيزة ، ليعمر منها عين حنين بخمسة الاف ويتصدق على أهل الحرمين بخمسة آلاف ، فتسلمها مقبل وعمل لمقتضى ذلك فى السنة التى تليها »[2] .

ومهما يكن من أمر فإن التفاصيل الهامة عن الأعمال التى تمت فى المسجد النبوى الشريف فى عهد الأشرف برسباى تنحصر فيما أمدنا به السمهودى من معلومات بسيطة جاء فيها أنه حدث فى البلاطتين اللتين تقع فى مقدم المسجد مما يلى الصحن « خلل فجددهما الملك الأشرف برسباى فى ذى القعدة سنة إحدى وثلاثين ثمانمائة على يد مقبل القديدى من مال جوالى قبرص[3] ، على ما أخبرنى به بعض مشايخ الحرم ، ورأيته مكتوبا كذلك باللوح التى كانت بظاهر العقود من السقف القبلى مما يلى رحبة المسجد »[4] .

---

(١) كانت هذه الوظيفة من الوظائف التى استحدثها الظاهر بيبرس وهى وظيفة رئيس المماليك المكلفين بحراسة حجرة السلطان أو حراسته وقت خروجه فى المواكب عددهم أكثر من خمسة وعشرين . ونظراً لمكانة هذا الرئيس فإنه كان يلقب بالأخ أو الجناب الكبير وهو السفير بين المماليك والسلطان . انظر عبد المنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم ، جـ٢ ص ٥٣ وما بعدها .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ص ٣٦٩ .

(٣) قال المقريزى فى خططه جـ١ ص ١٧٣ « فأما الجزية وتعرف فى زماننا بالجوالى فإنها تستخرج سلفا وتعجيلا فى غرة السنة وكان يتحصل منها مال كثير فيما مضى . وقال القلقشندى فى صبح الأعشى ، جـ٣ ص ٤٥٨ - ٤٥٩ أنها « ما يؤخذ من أهل الذمة عن الجزية المقررة على رقابهم فى كل سنة ، وهى على قسمين ، ما فى حاضرة الديار المصرية من الفسطاط والقاهرة وما هو خارج عن ذلك » وقال عن القسم الثانى : « وأما ما هو خارج عن حاضرة الديار المصرية من سائر بلدانها فإن جزية أهل الذمة فى كل بلد تكون لمقطع تلك البلد من أمير أو غيره مجرى مال ذلك الاقطاع ، وأن كانت تلك البلد جارية فى بعض الدواوين السلطانية كان ما يتحصل من الجزية من أهل الذمة بها جاريا فى ذلك الديوان » . وانظر عد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ، جـ١ ص ٧٥ .

(٤) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٥ ، وانظر أيضًا السخاوى : التحفة اللطيفة جـ١ ص٣٦٦ .

وفي تخصيص السلطان برسباي للنفقة على هذه العمارة من الجزية المذكورة دليل على اهتمامه بتحري الدقة في نقاوة النفقة [١] على هذه العمارة وامعانا منه في كيد النصارى والإقلال من شأنهم[٢]، كما أن هذاالعمل يعتبر تتويجا للانتصار الساحق الذى حققه الأشرف برسباى سنة ٨٢٩هـ في غزوه لقبرص وأسر ملكها[٣].

ومع ذلك فإننى لم أجد رغم هذا الاهتمام الواضح من قبل السلطان من دون المراسيم الخاصة بذلك أو عني بتسجيل التفاصيل الهامة عن صفة التجديد ونوع الخشب المستخدم فيه ومقدار النفقة وغير ذلك من المعلومات المفيدة

ولا بد لنا أمام الندرة الواضحة في المعلومات الضرورية عن هذا العمل من الرجوع إلى الوراء قليلا لتذكر ما تميزت به عمارة هاتين البلاطتين حين عمرهما الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٩هـ دون بقية أجزاء المسجد النبوى ، فقد جاء أن العقود فيهما حلت محل الاعتاب الخشبية[٤] المربعة التى كانت تصل ما بين الإسطوانات لحمل سقوف المسجد ، بيد أنه لا يعرف ما إذا كان الخلل آنذاك قد أصاب تلك العقود أم أصاب السقف المحمول عليها ؟ أم أصابهما معا ؟

وعلى أية حال فإن السقف المجدد عاد كما كان أولا[٥] سقفا واحدا « في

---

(١) اعتاد بعض سلاطين المماليك أن يسألوا قضاة الشرع فى المورد المناسب للنفقة على عمارة الحرمين الشريفين . فقد ذكر ابن حجر العسقلانى فى أنباء الغمر بابناء العمر ، جـ٣ ص ١٠٥ ، أن السلطان المؤيد شيخ سأل قضاة الشرع فى سنة ٨٢٢هـ « عما أعلم به الحجاج من استهدام المسجد الحرام واحتياجه إلى العمارة ، من أى جهة يكون المصروف على ذلك » .

(٢) أشار السمهودى فى الوفا ، جـ٢ ص ٦٣٩ إلى فرح النصارى بالحريق الثانى فى المسجد النبوى سنة ٨٨٦هـ حيث يذكر « ولما وصل خبر الحريق لرودس فى بلاد النصارى أظهروا بذلك فرحا واستبشارا » .

(٣) قطب الدين النهروالى : أعلام الأعلام ، ص ١٨٢ .

(٤) تعرف هذه الاعتاب بالعبارات كما يسميها السمهودى فى الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٦ ، وتعرف أيضاً بالكمرات فى اللغة الدارجة .

(٥) ذكرت عند حديثى عن هاتين البلاطتين فى عهد الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٩هـ احتمال حرص القائمين بالعمل آنذاك على وضع سقوفها بمستوى السقف السفلى للمسجد القديم .

موازاة سقف المسجد الأسفل ، ولذلك صار سقف مقدم المسجد القديم مرتفعا من أعلاه على هذين الرواقين[١] وغيرهما من بقية المسجد ، وله باب يدخل إليه من بين السقفين شارع فى مبدأ الرواقين[١] المذكورين مما يلى المشرق » [٢]. ولكن هذا التجديد البسيط لم يكن العمل الوحيد الذى أنجز فى عهد الأشرف برسباى بل أن التجديد قد شمل أيضا « شيئا من السقف الشامى مما يلى المنارة السنجارية»[٣] الواقعة فى الركن الشمالى الشرقى من المسجد الشريف . ولم يذكر المؤرخون الأسباب الحقيقية التى أدت إلى تلف هذه السقوف المجددة مما يسمح بالاعتقاد بأن طول الزمن الذى مر على عمارة هذه الأجزاء وهو نحو مائة عام ، وتعرضها للأمطار طوال هذه المدة[٤] كانت وراء هذا التلف الذى أصاب أجزاء متفرقة من سقوف المسجد . وقد بدت آثار بعض التلف فى عهد الأشرف برسباى ، وتأخر ظهور بعضه حتى زمن السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢ ـ ٨٥٧هـ) ، الذى اهتم فى حدود سنة ٨٥٣هـ بإصلاح الخلل الطارئ على « سقف الروضة الشريفة وغيرها من سقف المسجد »[٥] النبوى الشريف على يد المعمار[٦] برد بك التاجى[٧]. ويظهر أن هذا الجزء المجدد من سقف الروضة هو ما سبق للملك الناصر

---

(١) يقصد البلاطتين فقد درج على تسمية البلاطة المعترضة بالرواق فى جميع النصوص المنقولة من كتابة وفاء الوفا .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٠٥ ، ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار ص ٩١ وانظر الشكل رقم (٥٢) .

(٣) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٠٥ ، السخاوى : التحفة اللطيفة جـ١ ص ٣٦٦ .

(٤) كان قد مضى على استحداث الملك الناصر محمد بن قلاوون لهاتين البلاطتين أكثر من مائة عام وعلى تجديد الظاهر بيبرس لسقف مؤخر المسجد الشريف قرابة مائة واثنين وستون عاما . انظر اعلاه ص ٢٢٢ .

(٥) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٠٥ ، السخاوى : التحفة اللطيفة جـ١ ص ٤٤٢ ، ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار ص ٩٢ .

(٦) يقول حسن الباشا فى الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية جـ٣ ص ١١١١ وما بعدها أن هذه الصيغة وردت « على كثير من الآثار العربية ، ويبدو أنها استخدمت بدلالتين إحداهما البناء ، أو المهندس ، الأخرى على من أشرف على العمارة أو تولى أمرها .. » .

(٧) يذكر السمهودى : فى المصدر السابق جـ٢ ص ٦٠٥ أن اسم هذا المعمار هو برد بك الناصر ولكن السخاوى فى التحفة اللطفة جـ١ ص ٣٦٦ ترجم له بما يلى : « برد بك التاجى ـ كان معمارا أيام الظاهر جقمق لما حصل من الخلل فى سقف الروضة وغيرها من اسقف المسجد فى سنتى ثلاث وخمسين وما قبلها » .

محمد أن جدده سنة ٧٠٦ هـ ، وقد عرفنا آنذاك مدى العناية التي أولاها السلطان لهذا السقف بحكم صلته بجزء المسجد النبوى المشبه برياض الجنة . ولا بد أن التجديد الذى قام به الظاهر جقمق لهذا الجزء من المسجد قد عاد به إلى الصفة التى كان عليها قبل التجديد أو قريبا منها وإن كنت للأسف لم أجد بين المؤرخين من دون أعمال التجديد هذه أو عنى بذكر تفاصيلها الضرورية ، خلاف ما ذكره السمهودى عن حال هذه السقوف التى شاهدها فى عمارة الأشرف قايتباى الأولى إذ يذكر أن هذا « السقف مع بقية سقف مقدم المسجد على عبارات من خشب موضوعة على أبنية فوق رؤوس السوارى بعرض تلك السوارى ، كما أن السقف الأسفل المشاهد مما يلى المسجد موضوع على عبارات كذلك فوق رؤوس السوارى »[1].

ويؤخذ من كلام السمهودى أن البعد الذى كان بين السقفين اللذين جددهما الظاهر جقمق مساو للفرق بين سقفى مقدم المسجد وهو أقل من القامة المعتدلة[2]، بيد أن ذلك التجديد لم يكن محكما بما فيه الكفاية إذ أعيد تجديده بعد مضى ثمانية وعشرين سنة على الانتهاء منه ، وقد يكون لقرب هذه السقوف من القبة الزرقاء أثر فى التبكير بتلفها لأنه قد وجد بالقبة المذكورة فى سنة ٨٨١هـ « أخشاب قد تآكلت من طول الزمان ونداوة مياه الأمطار »[3].

وقد جاء فيما ذكره السمهودى أن الخلل الطارئ على سقوف المسجد الشريف لن يكون محصورا فى سقف الروضة فقط بل جاء أنه « فى سقف الروضة الشريفة وغيرها من سقوف المسجد »[4] الأخرى التى لم تكن معروفة على وجه الدقة . إلا أن فيما ذكره السخاوى عند حديثه عن فضل باب الرحمة ما يشير إلى أن الأعمال المذكورة قد امتدت إليه أيضا إذ يذكر « أنه فى أيام مباشرة برد بك

---

(١) المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٠٦ .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٧ .

(٣) نفس المصدر جـ٢ ص ٦١٠ .

(٤) نفس المصدر جـ٢ ص ٦٠٥ ، وانظر السخاوى : التحفة اللطفة ، جـ١ ص ٣٦٦ ، ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار ص ٩٢ .

التاجى لعمارة المسجد - أيام الظاهر جقمق - راموا إصلاح الإسطوانة ، المقابلة لدكة بواب الرحمة ، لخلل فيها . وراموا ذوب رصاص بجانبها لسكبه فيها ، فلم تؤثر النار فيه . فصاح عليهم الشيخ الجمال عبد الله بن الشمس محمد بن أحمد الششترى .. أن النار لا تؤثر فى باب الرحمة ، فبادروا وتحولوا لمحل آخر خارج المسجد . فبمجرد أن أطلقت النار ذاب بعد يأسهم أولا »[١].

ولا يبعد أن يكون ذلك التجديد قد شمل أيضا أجزاء أخرى من سقوف المسجد النبوى لم يذكرها أحد من المؤرخين الذين أمكننى الإطلاع على مؤلفاتهم. وهكذا فإن الأخبار التى ساقها لنا السمهودى والسخاوى لا تفى برسم صورة واضحة عن هذه العمارة المجزأة ولولا غرابة القصة التى وقعت لبعض عمال البناء عند باب الرحمة ، لما عرف شىء عن عمارة هذا الجانب من المسجد .

ومن هذه الأعمال إستحداث سقف لطيف طوله نحو ستة أذرع يحيط به رفرف للباب الشمالى لدرابزين الحجرة الشريفة لحمايتها من حرارة الشمس[٢] وقد بسطت أرضه بالرخام الملون وذلك فى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة [٣]. وفى تلك السنة أيضا أمر الظاهر جقمق بإحاطة جدار القبلة بأزار من الرخام جاء فى وصف ابن المحجوب له أنه عجيب ساذج[٤]. وذكر السمهودى عن هذه الوزرة أنها اتصلت ببقايا الرخام الموجود بالمحراب العثمانى وما حوله من بقايا الحريق الأول ،

---

(١) السخاوى : التحفة اللطيفة جـ١ ص ٥٠ وكان يمكن عد ذلك من المبالغات التى عرف بها ذلك العصر إلا أن السخاوى يذكر بعد ذلك « وممن شهد ذلك حسين بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الواحد ، إبراهيم الششترى المذكور وغيرهما . وقال لى أبو الفتح الشكيلى - أحد رؤوس نواب الفراشين المجاور للباب المذكور أنه شاهد ذلك » .

(٢) سبق أن بعض المصادر ذكرت عند الحديث عن عمارة الملك الناصر محمد للبلاطتين اللتين أضافهما إلى رواق القبلة أن بعض شيوخ أهل السنة هدم المقصورة التى وضعها بعض الشيعة على الباب الشمالى للحجرة الشريفة بقصد حمايتها من حرارة الشمس . وأن وجود البلاطيتين المذكورتين قد حمى الحجرة من الشمس فلا ضرورة لبقاء المقصورة ، انظر أدناه ص ٢٥٤ .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦١١ ، ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار ، ص ٩٧ .

(٤) قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٧٨ ب .

وأنه كان بأعلى الوزرة المذكورة طراز محمر بماء الذهب(١).

ويستدل من كلامه عن وزرة الرخام الموضوعة فى جدار القبلة على أن رخام هذا الجدار لم يعوض بعد تلفه فى الحريق الأول إلا فى عهد السلطان جقمق، الذى اهتم بإعادته على الصفة التى كان عليها قبل الحريق أو قريبا منها كما يتضح من وصف ابن المحجوب والسمهودى له . ومن الأعمال التى تعهدها معمار السلطان جقمق فى المسجد النبوى الشريف فى السنة المذكورة استحداث رحبات(٢) فسيحة أمام أبواب المسجد لتمكين الناس من خلع نعالهم قبل الدخول إلى المسجد(٣)، منعا للزحام الذى كان يحدث عند درابزين الأبواب . فقد أقام «الأمير بردبك المعمار أيام عمارته للظاهر جقمق هذه الأحجار المصفوفة أفريزا عند طرف عقد باب السلام مما يلى الحصن العتيق(٤)، وجعل ما أمام الباب مما يحاذى العقد المذكور رحبة ، وصار الناس ينزعون النعال عندها ، وعمل عند باب الرحمة مثل ذلك . ورفع ذلك الدرابزين ، وكان ما بين الدرابزين وباب الرحمة منخفضا عن أرض المسجد فسواه بأرض المسجد كما هو اليوم ، فاحتاج إلى رفع عتبته ، فزاد العتبة المتخذة فوق العتبة الأصلية ، وقصر شيئا من أسفل الباب ، وذلك ظاهر فيه اليوم ، وحصل بذلك صيانة للمسجد ، واتخذ أيضا الرحبة التى أمام باب

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٧٤ .

(٢) قال ابن منظور فى لسان العرب جـ١ ص ٤١٤ « أن الرحبة ما اتسع من الأرض ، وجمعها رحب ، ورحبة المسجد والدار ، ساحتهما ومتسعهما » ، ويقصد بها هنا تحديد جزء واسع من الأرض التى تقع عند باب المسجد بدرابزين أو غيره لكى يخلع الناس أحذيتهم عنده منعا للزحام عند باب المسجد .

(٣) نقل المراغى من كتاب يحيى بن الحسين قول النبى ﷺ « تفقدوا نعالكم عند أبواب مساجدكم» انظر تحقيق النصرة ص ٨٨ .

(٤) ذكر السمهودى فى وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٧٠٢ وما بعدها أن الحصن العتيق كان منزلا لأمراء المدينة . وقد اشتراه غياث الدين بن سلطان بنجالة وبناه مدرسة سنة ٨١٤هـ ثم حوله متولى عمارة الأشرف قايتباى الثانية إلى مدرسة ورباطا للسلطان قايتباى سنة ٨٨٧هـ ويقع فى الجانب الغربى من المسجد بالقرب من باب السلام .

النساء ، ورفع الدرابزين الذى كان من داخله واتخذ لباب جبريل الرحبة التى أمامه، ولم يرفع الدرابزين لأن الناس لم يكونوا يمشون بنعالهم إليه »[١].

ومع جدوى هذه الأعمال فى المحافظة على نظافة المسجد الشريف إلا أن الإبقاء على السلسلة التى وضعها عمر بن عبد العزيز بباب السلام بعد عمارة الوليد للمسجد النبوى ، قد سببت كما يذكر السمهودى ، فى سنة ٨٥٤ هلاك كثير من الناس عند ازدحامهم عندها ، الأمر الذى أوجب رفعها فى أيام المواسم التالية[٢].

وإذا كنا نفتقر إلى الكثير من التفاصيل عن أعمال جقمق هذه ، فإن ما أجمله لنا ابن المحجوب فيه دلالة على اهتمام هذا السلطان بأمر المسجد النبوى الشريف فقد ذكر أنه « تفقد جميع المسجد بالرم وجدد جميع سقفه بالخشب المربعة الرفيعة والدهان المنوع بالذهب (واللازورد) . إلا أن سقف بعض مجنباته لم يتم تذهيبها لموت هذا الملك جقمق قبل تمام ذلك وقصور همم الملوك بعده عن إكماله »[٣] وجاء فيما ذكره السخاوى فى ترجمته لهذا السلطان « أن له فى المدينة ربع[٤] ودشيشة[٥] ومصحف وغير ذلك »[٦] ونفقة مثل هذه الأعمال من

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٧٠٥ ، ويقصد بكلمة اليوم المتكررة فى الاقتباس المذكور زمن السمهودى المتوفى سنة ٩١١هـ ، ويبدو أن عدم رفع درابزين باب جبريل لأن الداخلين إلى المسجد كانوا يأتون غالبا من باب السلام ، بقصد السلام على رسول الله ﷺ . كما صرح البرزنجى فى نزهة الناظرين ، ص ١٠٢ .

(٢) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٧٠٥ .

(٣) قرة العين فى أوصاف الحرمين ، ورقة ٧٨ ب .

(٤) الربع هو « المنزل والدار بعينها » كما ذكر ابن منظور فى لسان العرب جـ٨ ص ١٠٢ وهو هنا دار بها غرف كثيرة كالرباط يسكن فيها الفقراء والمساكين .

(٥) الدشيشة فهى الجشيشة وهى « أن تطحن الحنطة طحنا جليلا ثم تنصب به القدر ويلقى عليها لحم أو تمر فيطبخ » . ويقال أن الجشيش هو « الحب حين يدق قبل أن يطبخ فإذا طبخ فهو جشيشة » انظر ابن منظور : المصدر السابق جـ٦ ص ٢٧٣ . وانظر إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط جـ٢ ص ٢٨٣ .

(٦) التحفة اللطيفة ، جـ١ ص ٤٢٢ .

أوقاف السلطان الخاصة[1].

وعلى أية حال فإن ما قام به هذا السلطان يعتبر خاتمة الأعمال الهامة التى قام بها الملوك الجراكسة فى المسجد النبوى الشريف . وبعد التجديد المذكور فقد أصبح المسجد النبوى الشريف فى مأمن من الأضرار التى كانت تهدده ، بالإضافة إلى أن السلاطين الجراكسة الذين أتوا بعد الظاهر جقمق كانوا على درجة من الضعف وعدم الاستقرار السياسى[2] وهو ما عبر عنه ابن المحجوب « بقصور همم الملوك بعده »[3]. ومع ذلك فإن من المعلومات القليلة عن بعض الأعمال الفردية التى تمت فى المسجد النبوى الشريف فيما بين عهد السلطان جقمق والسلطان قايتباى ما أجد أنه من الواجب التعرض له فى حدود ما تسمح به المعلومات المتوفرة عن هذه الأعمال .

وفى مقدمة هذه الأعمال ما يذكره على بن حسين السليمان من أعمال تنسب إلى زوجة الأشرف إينال (٨٥٨ ـ ٨٦٥هـ) من أن لها بمكة والمدينة

---

(١) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ، ص ١٩٨ .

(٢) يتبين من الجدول التالى الذى اعتمدت فيه على كتاب تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين للشرقاوى ومن كتاب محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ . أن أغلب السلاطين الذين تولوا عرش مصر فى تلك الفترة خلعوا أو قتلوا من قبل الأمراء الآخرين المنافسين لهم .

ـ الظاهر جقمق ٨٤٢ ـ ٨٥٧هـ	استعفى لمرضه .
ـ عثمان بن جمق محرم سنة ٨٥٧ ربيع الأول سنة ٨٥٧هـ .	خلعه الأمراء
ـ الأشرف إينال ٨٥٨ ـ ٨٦٥ هـ	استعفى لمرضه
ـ المؤيد أحمد بن إينال محرم سنة ٨٦٥ ـ رمضان سنة ٨٦٥هـ	خلعه الأمراء
ـ الظاهر خشقدم ٨٦٥ ـ ٨٧٢هـ	توفى على عرشه
ـ يلبان المؤيدى ربيع الأول سنة ٨٧٢هـ ـ جماد الأولى سنة ٨٧٢هـ	خلعه الأمراء بعد ٥٦ يوما
ـ الظاهر تمربغا جمادى الأول سنة ٨٧٢هـ رجب ٨٧٢هـ	خلعه الأمراء بعد ٥٩ يوما .
ـ الظاهر خير بك تسلطن ليلة واحد من سنة ٨٧٢هـ	خلعه الأمراء .
ـ الأشرف قايتباى ٨٧٢ ـ ٩٠١ هـ	توفى على عرشه .

(٣) انظر أعلاه ص ٢٨٢ .

صدقات وميضأة ورباطا في المدينتين[١] ، ومن الضروري أنه كان المقصود من هاتين الميضأتين خدمة الحرمين الشريفين وفي عهد الأشرف إينال أيضا اجتهد الأمير طوغان شيخ الأحمدي[٢] في استحداث محراب خاص بالحنفية في المسجد النبوي. وقد تمكن على ما يبدو من أخذ موافقة السلطان إينال . إلا أنه قوبل بالمعارضة الشديدة من أهل المدينة الذين تعضدوا بمساعدة « أحد أرباب الدولة المصرية صاحب الشيم المرضية جمال الدين يوسف ناظر الخواص الشريف[١] تغمده الله برحمته ، فلم يتم لطوغان المذكور ذلك »[٤]. ولكن الأمير طوغان لسوء حظ أهل المدينة ، استطاع تنفيذ رغبته بعد موت ناظر الخاص الجمالي ، إذ سعى في الدولة التركية بمعونة الأمين الاقصرائي[٥] « فبرزت المراسيم به بعد الستين وثمانمائة واستمر إلى زماننا (زمن السمهودي) فيصلي أمامه الصلوات الخمس عقب انصراف إمام المحراب النبوي ، وهو إمام الشافعية ، إلا في التراويح فيصليان معا ، وهذا الأمر دب إلى المدينة الشريفة من مكة المشرفة »[٦].

ويبدو مما أورده محمد بن خضر الرومي عن تجديد هذا المحراب وتقديمه في محاذاة المحراب النبوي في حدود سنة ٩٤٨هـ ، أنه كان متأخرا عن المحراب النبوي

---

(١) علي بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص ١٣٧ .

(٢) ذكر السخاوي : التحفة اللطيفة ، جـ٢ ص ٢٦٧ في ترجمته لهذا الأمير أنه « قد ولي نظر المسجد الحرام المكي مدة من الزمن وأن كلمته في مكة كانت نافذة . ثم يذكر أنه توجه إلى المدينة المنورة أميرا على الترك بها » واظهر مؤلفا اعين فيه ، عارض فيه السيد السمهودي في امتهان البسط المكتوب عليها وعدم احترامها . كتب له عليه جماعة (ايدوه فيه) وكان يتفقه ويزاحم الفقهاء مع بلادة وعدم معرفة » ويذكر أنه مات بالقاهرة في ذي الحجة سنة إحدى وثمانين وثمانمائة .

(٣) قال حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، جـ٣ ص ١٢٠٧ أن وظيفة ناظر الخواص « من الوظائف الديوانية الجليلة التي كان يشغلها مدنيون ، وقد انشئت في عهد السلطان محمد بن قلاوون وذلك حين أبطل الوزارة وقسم أعمالها بين ثلاثة موظفين هم ناظر المال ، وناظر الخاص ، وكاتب السر » .

(٤) السمهودي : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٨٣ ، السخاوي : التحفة اللطيفة ، جـ٢ ص ٢٦٧ .

(٥) السخاوي : نفس المصدر جـ٢ ص ٢٦٧ .

(٦) السمهودي : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٨٣ .

بقدر كبير[١] وقد أخذ هذا المحراب بعد هذا التجديد اسما جديدا لا يزال يعرف به إلى اليوم وهو المحراب السليماني[٢]. أما العمل الثالث فهو ما ينسب إلى القاضي زين الدين أبو الصدق المعروف بابن مزهر (٨٣١ - ٨٩٣هـ) الذي ابتدأ بزيارة المدينة في موسم سنة ٨٧١هـ « وفعل هناك من المعروف ما عم به أهل المدينة بحسب مراتبهم ، وأمر بإصلاح ما تهدم من الرخام بالحجرة الشريفة » [٣].

ويظهر أن عمل هذا القاضي اقتصر على قيامه بالنفقة في إصلاح الرخام من ماله الخاص ، وذلك لأن اكتشافه لتلف الرخام كما يبدو مما سبق كان في زيارته للمدينة . وكان الأمر يقتضي إحضار الرخام المذكور من غير المدينة ، اللهم إلا إذا كان العمل مقصورا على إعادة ما تساقط من رخام الحجرة الشريفة ، فإن عمله ميسور جدا .

ومهما يكن من أمر فإن النصر الذي حققه الأمير طوغان شيخ الأحمدي في حدود سنة ٨٦١ هـ في استحداث محراب للحنفية بالمسجد النبوي الشريف اغراه في حدود سنة ٨٧٣هـ بزيادة عدد النخل المغروس بصحن المسجد ، إلا أن معارضة السمهودي له قد أحبطت ما أراد[٤] .

---

(١) التحفة اللطيفة في عمارة المسجد النبوي وسور المدينة الشريفة ، ص ٩٢ .

(٢) البرزنجي : نزهة الناظرين ص ٤٩ ، إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين ، جـ١ ص ٤٦٩ ، الأنصاري : آثار المدينة المنورة ص ٩٥ .

(٣) السخاوي : الذيل على رفع الأصر المعروف (ببغية العلماء والرواة ص ٤٨٢ .

(٤) وفاة الوفا ، جـ٢ ص ٦٨٢ . وانظر السخاوي التحفة اللطيفة ، جـ٢ ص ٢٦٧ . وعن هذا النخل يذكر السمهودي أنه لا يعلم شيئا عن أول من أحدثه سوى ما ذكره ابن جبير في رحلته عند ذكره للقبة التي بصحن المسجد من أن « بازائها في الصحن خمس عشرة نخلة » ثم ذكر أن ابن فرحون ، الفيروزبادي قالوا أن شيخ الحرم النبوي عزيز الدولة قد زاد من غرس هذا النخل في زمانه . وذكر من مساوئ هذا النخل ما حدث من سقوط « تلك النخيل لهبوب عاصفة هبت في أواخر مشيخة ياقوت الرسولي . ثم أعيد الغرس ووقع الإنكار من بعض الناس ولكن لم يصادف كلامه محلا من الإشارة والإفادة » .

وذكر السيد محمد كبريت الحسيني في الجواهر الثمينة في محاسن المدينة ص ٥١ بقاء هذا النخل حتى زمنه سنة ١٠٤٨هـ وأن « مسألة غرسه مختلف فيها ، فمنهم من كرهه ومنهم من منع ومنهم من أباح كما ذكر البرزنجي في نزهة الناظرين ص ٩١ بقاء هذا النخل في المسجد حتى بعد عمارة السلطان عبد المجيد .

المبحث الثانى
عمارة السلطان الأشرف قايتباى الأولى
فى المسجد النبوى سنة ٨٨١ هـ

المبحث الثانى

عمارة الأشرف قايتباى الأولى فى المسجد النبوى سنة ٨٨١ هـ

ذكرت عند الحديث عن عمارة المسجد النبوى الشريف فى عهد الملوك الجراكسة قبل السلطان قايتباى أنه قد أمن الأضرار التى كانت تتهدده بعد تعهد الأشرف برسباى ومن بعده الظاهر جقمق له بالترميم والتجديد فى أجزاء كثيرة من أروقته وأشرت بعد ذلك إلى قصور السلاطين الذين أتوا بعدهم عن الاهتمام بهذا المسجد الشريف معتمدا فى ذلك على ما ذكره ابن المحجوب من بقاء بعض مجنبات المسجد النبوى دون تذهيب بعد موت الظاهر جقمق[١].

وعندما تولى الأشرف قايتباى الحكم التزم الطريقة التى سار عليها السلاطين من قبله من حيث عدم التعرض لعمارة المسجد الشريف إلا عند الضرورة القصوى، وهو ما يتضح من عمارته الأولى والثانية ، اللتين سوف أتعرض لهما فيما يلى معتمدا فى ذلك على ما أورده مؤرخ المدينة المعاصر لهما ، وهو نور الدين على بن أحمد السمهودى ، الذى كتب عنهما بتفصيل واف مزودا ببعض الرسوم الهامة والتواريخ اليومية والشهرية لأهم الأعمال التى شاهدها . وهو يذكر أن السبب فى هذه العمارة هو مطالعة المسئولين فى الحرم النبوى الشريف للأمير شاهين الجمالى[٢] الذى ورد المدينة بعد منصرفة من جده فى طريقه إلى مصر ، فأروه بعض الأجزاء التالفة من سقف المسجد « وأروه الحائز المخمس الدائر على الحجرة الشريفة لانشقاق فيه قديم يظهر إذا رفعت الكسوة عند منتهى الصفحة الشرقية وانعطافها إلى الزاوية الشمالية »[٣] ولأهمية الموضوع فقد اقتضى رأيه آنذاك استدعاء بعض أرباب الخبرة ممن كانوا فى صحبته لأخذ رأيهم فى ذلك . إلا أنهم

---

(١) انظر أعلاه ص ٢٨٢ .

(٢) ذكر السخاوى فى التحفة اللطيفة جـ٢ ص ٢١٠ وما بعدها فى ترجمته لهذا الأمير أنه كان مندوبا للسلطان فى مكة للإشراف على عمائر مكة ونواحيها كاجراء عين عرفة وعمارة مسجدى نمرة والخيف وأنه استقر اخيرا فى مشيخة الحرم النبوى سنة ٨٩١هـ

(٣) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦١٧ .

لم يتفقوا على رأى واحد بشأن خطورة جدار الحجرة الشريفة ، مما أدى إلى اجتماع السمهودى بالأمير شاهين لأخذ رأيه فى أمر الجدار فيذكر له « أنه ليس بضرورى ، لأنه شق فى طول الحائط لا فى عرضه ، وهو قديم مملوء بالجص ، والحائط ليس عليه سقف يثقله فنخشى عليه »[١] ، ويضيف السمهودى إلى ذلك أن كلامه أعجبه[٢] .

ويبدو من ترجمة السخاوى لهذا الأمير أن مكانته عند الأشرف قايتباى كانت كبيرة جدا ، مما جعل المسئولين فى المدينة يعرضون عليه أمر المسجد الشريف وما يحتاج إليه من ترميم وتجديد ، فنقل فى سنة ثمان وسبعين وثمانمائة إلى الأشرف قايتباى « إحتياج المسجد الشريف للعمارة ، وسقوط منارة مسجد قباء »[٣] . فاهتم قايتباى بالأمر غاية الاهتمام ، واختار للعمارة الأمير الشمسى ابن الزمن الذى كان مغرما بمثل هذا العمل وقد « سبق له بالمدينة الشريفة عمارة لمدرسته المعروفة بالزمنية »[٤] واختيار شخص له إلمام بالمدينة المنورة وأحوالها للقيام بعمارة المسجد النبوى يعتبر فى الحقيقة دليلا على شدة عناية السلطان بأمر هذه العمارة غير أن تأخر حضور مندوب قايتباى إلى المدينة « فى اثنا سنة تسع وسبعين »[٥] . يدل على أن التفكير فى أمر هذه العمارة قد استغرق وقتا طويلا يقارب السنة أو أكثر . ومرد ذلك كما إعتقد إلى أن العمارة المقترحة لم تكن من الخطورة بمكان يقتضى من السلطان التدخل فورا ، كما اتضح للأمير شاهين من قبل[٦] ، وعلى عكس ما حدث بعد الحريق الثانى للمسجد النبوى سنة ٨٨٦هـ ، علاوة على

---

(١) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦١٨ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦١٨ .

(٣) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦١٨ .

(٤) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦١٨ ، وعن هذه المدرسة فإنه لم يرد فى المصادر التى اطلعت عليها ما يحدد موقعها على وجه الدقة . إلا أن السخاوى فى التحفة اللطيفة ، جـ١ ص ٦٤ قد عدها من المدارس المجاورة للمسجد النبوى الشريف .

(٥) السمهودى : وفاء اوفا ، جـ٢ ص ٦٠٥ .

(٦) السمهودى : نفس المصدر جـ٢ ص ٦١٨ .

ذلك فإن ما يذكره السمهودى عن ولع ابن الزمن بتولى العمارة فى المدينة ، وتفضيل السلطان له بحكم خبرته السابقة بالمدينة وأحوالها ، وقد يشير إلى كثرة الطامعين فى هذا الأمر ، كما أن إعداد الأموال وأدوات العمارة ولوازمها قد تطلب هو الآخر بعض الوقت .

وعلى أية حال فإن بقاء ابن الزمن فى المدينة لم يدم طويلا ، فقد عاد إلى مصر بعد ترتيبه لأمر العمارة[1] ومع عدم وضوح الأسباب الحقيقية التى دعته إلى العودة فى نفس السنة التى قدم فيها ، إلا أن تعطيل العمارة فى سنة ثمانين وثمانمائة على ما صرح به السمهودى[2] يوحي بوجود خلاف حول المقترحات التى حملها ابن الزمن معه إلى القاهرة عن هذه العمارة ، على أن مهندس العمارة[3] الذى بقى فى المدينة أمر العمال الذين كانوا معه « فهدموا عقود المسجد التى تلى رحبته من جهة المشرق وسقف البلاط الذى كان عليها لاقتضاء نظرهم ذلك، ونقضوا بعض أساطينه فوجد بعضها لا رصاص فيه ، وبعضها فيه رصاص»[4] وكان يرجى لو أشار السمهودى إلى موضع تلك الإسطوانات الخالية من الرصاص بتحديد أكثر لأن هذه المجنبة المعروفة بالرواق الشرقى قد عمر بعضها فى عهد الملك المظفر سيف الدين قطز ، وأكمل الباقى فى عهد الملك الظاهر بيبرس . وهذا التحديد الذى كان يرجى من السمهودى كان يلقى الضوء على نوعية العمارة فى عهد كل من السلطانين المذكورين وهو ما لم استطع الوصول

---

(١) نفس المصدر جـ٢ ص ٦٠٥ .

(٢) نفس المصدر جـ٢ ص ٦٠٦ .

(٣) ذكر النهروالى فى الأعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ٢٢٥ ، بأن المهندس الذى كان يلازم الأمير الشمس بن الزمن هو سنقر الجمالى . بيد أن السخاوى فى التحفة اللطيفة ، جـ٢ ص ١٩٧ يذكر بأن قدومه إلى المدينة كان بعد الحريق الثانى عندما أرسله الشمس بن الزمن من مكة إلى المدينة . ولم ترد ادنى إشارة إلى المهندس الذى كان يتولى عمارة المسجد النبوى سنة ٨٧٩هـ عقب عودة ابن الزمن إلى القاهرة ، ومع ذلك لعله كان سنقر الجمالى وأنه فات السخاوى ذكر ذلك .

(٤) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٦ وكانت هذه العمارة التى قام بها هذا المهندس كما يبدو مما ذكره السمهودى فى صفحات تالية هو فى سنة ٨٧٩هـ .

إلى معرفته عند تعرضى لعمارة المسجد النبوى الشريف بعد الحريق الأول .

ومهما يكن من أمر فقد أعادوا تثبيت تلك الإسطوانات بالحديد والرصاص ثم أعادوا تسقيف ذلك البلاط كما كان أولا سقفا واحدا فى موازاة السطح الأسفل لمقدم المسجد ، وكان ذلك فى سنتهم الأولى[١]. وانتقالهم فى تلك السنة إلى هدم « سور المسجد الشريف مما يلى المشرق من جهة المنارة الشرقية المعروفة بالسنجارية»[٢] دليل آخر على أن هذا الجانب من المسجد الشريف قد حظى بقدر كبير من الاهتمام فى هذه العمارة ، وهو ما سوف يتأكد لنا فى المراحل التالية . وكان الجزء المهدوم منه قد بدأ من « جهة المنارة الشرقية المعروفة بالسنجارية من باب سلمها ، وهو الباب الثانى جوف بابها الظاهر[٣] إلى ما يوازى حرف الدكاك من القبلة ، وذلك آخر المسقف الشامى ، ومقدار ذلك سبعة وعشرون ذراعا بذراع اليد »[٤].

وكان السبب فى احتياج هذا الجدار وغيره من العقود التى تلى الصحن إلى التجديد هو أنها كانت مبنية بالجص المسكوب فى المداميك من أساسها وهو مادة يسرع تأثرها بالسباخ[٥] التى تشكل معظم الأرض التى بنى فيها المسجد ، مما دعا المهندس إلى استخدام مادة أخرى مؤلفة من « الطين والنورة المخلوطة بناعم الحصباء» [٦] عند إعادة البناء واستخدام الجص بعد انتهاء البناء فى تكحيل وجوه الأحجار من داخل المسجد وخارجه . وقد اقتضى هدم الجدار المذكور بطول سبعة

---

(١) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٠٦ .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٠٦ .

(٣) كان للمنارات كما يبدو من هذا النقل بابان أحدهما خارجى وهو الذى يشرع فى المسجد والآخر داخلى يؤدى إلى سلم المنارة وكان يمكن غلقه لمنع من لا يراد صعوده إلى أعلى المنارة . وفى هذا ما يفيد بأنهم استفادوا مما بين البابين لتخزين بعض لوازم المسجد الشريف .

(٤) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٠٦ وطول الجدار المذكور حوالى ١٣٫٥ من المتر .

(٥) انظر ما ذكره السمهودى فى المصدر السابق جـ٢ ص ٦٠٦ عن مهندس العمارة بخصوص التأثير الذى تحدثه السباخ على مادة الجبس .

(٦) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٠٦ .

وعشرين ذراعا ، كما صرح بذلك السمهودى ، وبطبيعة الحال رفع « السقف الكائن أمام المنارة المذكورة إلى جنب ما هدموه من الجدار المذكور »[١] . وقد أعادوا ذلك فى نفس السنة (أى سنة ٨٧٩هـ) كما أنهم قاموا بفحص دقيق للمنارة السنجارية التى « كانت تضطرب عند الهدم بحيث خشى سقوطها »[٢] . واقتضى رأيهم سد الشق الذى ظهر بجدار المنارة المذكورة بالجص الجيد ، وقد أجدت هذه المعالجة حتى أنها لم تجدد إلا فى عهد السلطان العثمانى سليمان القانونى فى حدود سنة ٩٤٦هـ[٣] .

وعلى ذلك يمكن القول بأن العمارة التى تمت فى سنة ٨٧٩هـ تنحصر فى هدم عقود الرواق الشرقى وتجديدها ، وهدم بعض جدار هذا الرواق ، وإعادة بناء السقوف على نحو ما كانت عليه . وهى فى الحقيقة أعمال قليلة استخدمت فيها الأحجار التى كانت فى العمارة السابقة وربما بعض الأخشاب كذلك . ولم يذكر السمهودى أو غيره اختلافا ملحوظا فى طول الجدران ، أو نوعية الخشب المستخدم هذه المرة ، بل أن ما صرح به السمهودى من أسباب قيام العمارة فى هذا الجانب يشير إلى سلامة الأخشاب التى كانت فى الأجزاء المجددة من هذا الرواق مما يدل على الاستفادة من أغلبها عند إعادة تسقيف ما انكشف من الرواق المذكور .

وبعد انتهاء العمارة فى هذا الرواق توقف العمل فى المسجد كله حولا كاملا ، ولم أجد من أشار إلى الأسباب الحقيقية لهذا التوقف . ولا إلى مصير العمال الذين قاموا بعمارة المسجد سنة ٨٧٩ هـ على أنه يغلب على الظن أنهم عادوا إلى مصر صحبة المهندس الذى كان يشرف عليهم[٤] . ويؤيد ما ذكرته من احتمال توقف

---

(١) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٠٦ ، ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار ص ٩٢ .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٦ .

(٣) محمد بن خضر الرومى : التحفة اللطيفة فى عمارة المسجد النبوى وسور المدينة ص ٩١ .

(٤) تتبعت ما تيسر لى الإطلاع عليه من مصادر مختلفة عن الحجاز فى العصر المملوكى وما بعده فلم أجد من ذكر قيام أى عمارة للسلطان قايتباى فى الحجاز مما دعانى إلى القول بعدم بقاء المهندس ومن معه من العمال فى الحجاز بعد توقف العمارة المذكورة .

هذه العمارة بسبب المقترحات التى حملها ابن الزمن معه إلى القاهرة فى أول سنة ٨٧٩هـ اختلاف العمارة التى باشرها بنفسه فى أول سنة ٨٨١هـ عن سابقتها والتى شملت هدم معظم جدران الحجرة الشريفة وإعادة تجديدها كما سنرى فيما بعد ، وهو فى اعتقادى منشأ الخلاف الذى توقفت بسببه العمارة طوال عام ٨٨٠هـ ، بدليل مخالفة ذلك لما استقر عليه رأى الأمير شاهين الجمالى كما أوضحه السمهودى من قبل[١]. ثم أن تفويض السلطان أمر إكمال هذه العمارة أول الأمر إلى المقر الشرفى شرف الدين الأنصارى الذى حضر « صحبة الحاج إلى مكة وأقام بها مدة حتى يتكامل حصول الآت العمارة فتوفى بها ليلة سابع عشر صفر عام احد وثمانين وثمانمائة »[٢] فيه ما يشير إلى اختلاف ابن الزمن ـ الذى اضطر السلطان قايتباى إلى إسناد إشراف العمارة إليه بعد موت شرف الدين ـ مع المسئولين فى القاهرة .

ولكننى لم أتمكن من معرفة موقف ابن الزمن هذا على وجه الدقة ، ولكن قدومه إلى المدينة الشريفة « صحبة شاد جدة فى جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين »[٣] بعد ورود المراسيم الشريفة بتفويض العمارة إليه يدل على موافقة السلطان على إقتراحاته السابقة أو بعضها ، والتى كان منها تجديد جدران الحجرة الشريفة ، وهو الأمر الذى حرص كما يقول السمهودى على أن يكون اتمامه على يديه[٤].

وعلى أيه حال فقد كان قدوم ابن الزمن إلى المدينة هذه المرة مصحوبا بعدد

---

(١) انظر أعلاه ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦١٨ .

(٣) نفس المصدر جـ٢ ص ٦١٨ .

(٤) يذكر السمهودى فى نفس المصدر جـ٢ ص ٦١٩ أنهم عقدوا مجلسا « وطلبنى متولى العمارة للحضور فيه ، فترددت لأنه بلغنى أن بعض الناس اوغر صدره منى وقرر عنده أنى حريص على أن لا تكون هذه العمارة على يده . وكنت أرى منه محبة وميلا ثم تنكر بعض التنكر .. » وفى ص٦٢٠ يذكر أنه لم يحضر للمجلس الثانى الذى عقد بسبب هدم الحجرة وأنهم فسروا ذلك لابن الزمن بما يوافق ما ذكروه له من قبل » .

« من أرباب الصنائع »[1] وكانت آلات العمارة ولوازمها قد اكتملت فى أوائل عام ٨٨١هـ ، مما مكن ابن الزمن من الشروع فى العمارة فور وصوله المدينة فى شهر جمادى الأولى فى السنة المذكورة . وقد « أقام لمباشرة العمارة بنفسه ، فرفعوا سقف الروضة الأعلى وما اتصل به مما حول القبة الزرقاء .. ورفعوا أيضا شيئا مما يلى ذلك من جهة ما يوازى غربى المنبر الشريف لتكسر كثير من أخشابه»[2] .

وكان هذا الجزء من الروضة مما جدد فى عهد الظاهر جقمق سنة ٨٥٣هـ ، ويبدو أن الزمن والمطر كانا مما ساعدا على تلف السقوف خاصة وأنه قد وجد فى السنة نفسها فى القبة الزرقاء « أخشاب قد تآكلت من طول الزمان ونداوة مياه الأمطار »[3] ولطالما تسببت هذه القبة فى تلف هذا الجزء من سقف الروضة منذ إنشائها فى عهد المنصور قلاوون سنة ٦٧٨هـ[4] وذلك بسبب تجميع ما يسقط عليها من أمطار فوق سقف الروضة ، وقد اقتضى رأى متولى العمارة عند إعادة بناء السقف الأعلى للمسجد الشريف بناء عقود من الأجر « كهيئة القناطر التى حول رحبة المسجد، ورأى أن ذلك أبقى وأحكم من الأخشاب »[5] بما يكفل حفظ السقف مما يتعرض له من أمطار لقربه من القبة المذكورة . وفى الحقيقة كانت هذه الطريقة قد اثبتت جدواها فى البلاطتين اللتين أقامهما الملك الناصر سنة ٧٢٩هـ فى مقدم المسجد مما يلى صحنه . بيد أنه لم يقدر لها البقاء طويلا فى عمارة ابن الزمن وذلك بسبب الحريق الثانى ومع ذلك فقد اتبعت طريقة البناء بالعقود فى جميع سقوف مقدم المسجد بعد ذلك الحريق لجدواها .

وكان من نتيجة استخدام هذه العقود ارتفاع « ذلك المكان من السقف الأعلى

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦١٨ .

(٢) نفس المصدر جـ٢ ص ٦٠٦ .

(٣) انظر أعلاه ص ٢٧٩ .

(٤) جددها الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠١هـ ثم الظاهر جقمق سنة ٨٥٣هـ وكان تجديد قايتباى لها فى سنة ٨٨١هـ هو الثالث لهذا الجزء من المسجد خلال العصر المملوكى .

(٥) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٠٧ .

على بقية ما حوله منه ، وصار الماشى بين السقفين فى تلك الجهة يمشى منتصبا أو منحنيا قليلا ، وكان لا يتأتى قبل ذلك المشى هناك إلا مع انحناء كثير »[١]، ويتضح من هذا النص أن الارتفاع لم يكن يتجاوز نصف المتر وهو الفرق بين القامة المنحنية كثيرا والقامة المعتدلة . ولم يخل ذلك بمنظر سطح المسجد من الخارج وظل السقف الأسفل للمسجد على العبارات الموضوعة على رؤوس السوارى بأصل تلك العقود ، كما أنه ما من شك فى أن هذا الارتفاع البسيط فى السقف الأعلى للمسجد قد جنب ذلك الجزء من سقف الروضة الشريفة مضار المياه المنحدرة من سطح القبة وتسربها عبر ألواح الرصاص ، التى كانت تغطيها ، إلى أخشاب سقف الروضة .

وقد حدد السمهودى ذلك الجزء المجدد من سطح المسجد فقال : أن « تلك القناطر موضوعة على ما يحاذى صف الأساطين التى هى قبلة الروضة والمصلى الشريف من أولها من جهة الشرق إلى الإسطوانة التى تلى المنبر من جهة المغرب ، وعلى ما يحاذى الصف الثانى وهو صف إسطوان عائشة رضى الله عنها فى موازاة الصف المتقدم ذكره من المشرق إلى المغرب ، وعلى ما يوازى الصف الثالث وهو صف إسطوان الحرس من المشرق إلى المغرب أيضا ، وأما ما يوازى صف إسطوان الوفود فقد كان عليه بناء حائط حاجز لما بين السقف الأسفل والأعلى فيه باب يدخل منه إلى ما بين السقفين فهدموا ذلك الحائط ، واحكموا بناءه وجعلوا أطراف الخشب عليه أيضا »[٢].

وعلى ذلك فإن ذلك التجديد قد شمل الروضة ببلاطاتها الثلاث ابتداء من جدار الحجرة الشريفة وانتهاء بالإسطوانات التى تلى المنبر ، وصار سقف البلاطتين اللتين زادهما عمر وعثمان رضى الله عنهما فى مقدم المسجد « مع سقف ما يحاذى الحجرة الشريفة إلى الجدار الشرقى وسقف ما كان غربى المنبر من مقدم

---

(١) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٠٧ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٠٧ .

المسجد كله منخفض عن ذلك »[١] الجزء ومع إغفال السمهودى لذكر المدة التى استغرقتها عمارة ذلك السقف ، إلا أنه يفهم مما ذكره عن الشروع فى هدم جدران الحجرة الشريفة فى الرابع عشر من شعبان سنة ٨٨١هـ[٢] أن المدة التى استغرقها بناء سقف الروضة العلوى لم تتجاوز ثلاثة أشهر [٣] وهو وقت قصير جدا لا يتناسب مع عظم العمل الذى تم وما من شك فى أنه كان يدفع القائمين بالعمل إلى مضاعفة الجهد فى إنجاز ذلك الجزء من سقف الروضة حتى أتى على صفة تخالف المألوف فى العمائر السابقة ، حرصهم الشديد على عدم تعطيل الروضة ، وحرمان الناس من الصلاة فيها بسبب الأعمال القائمة فى سقفها .

ويبدو أن انتقالهم إلى أجزاء أخرى من سقوف المسجد الشريف حدث بعد الانتهاء من سقف الروضة نظرا لأهميتها ، فقد ذكر السمهودى تتبعهم للأخشاب التالفة فى أنحاء متفرقة من المسجد إذ يذكر أنهم « وجدوا أخشابا كثيرة متفرقة نحو الأربعين من السقف الأعلى أيضا قد تكسرت فزرقوا بدلها ، ووضعوا إلى جانب بعضها أخشاب مزرقة وسمروها من غير كشف للسقف »[٤] ونظرا لتفرقها فإن السمهودى لم يحرص على تحديد مواضعها . وقد ذكر عقب ذلك ما حدث بالسقف الأسفل الذى يغطى امتداد بلاطات الروضة مما يلى المشرق فقال إنهم «قلعوا السقف الأسفل الذى بالرواق (البلاط) الشرقى مما يلى الأرجل الشريفة ، وجانبا من سقف رواق (بلاط) باب جبريل إلى باب النساء»[٥].

وقد سبق ذكر عمارة هذه الأجزاء من السقف فى فترات مختلفة ، منها ما يعود إلى الخليفة العباسى المستعصم بالله سنة ٦٥٥ هـ ، ومنها ما عمّر فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى جعل فى سنة ٧٠٦هـ سقف المجنبتين

---

(١) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٠٧ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٢١ .

(٣) هى الفترة التى تقع بين قدوم ابن الزمن إلى المدينة فى جمادى الأولى وبين البدء فى هدم الحجرة الشريفة فى شعبان سنة ٨٨١هـ .

(٤) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٧ .

(٥) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٠٧ . وانظر ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار ص ٩٢ .

الشرقية والغربية سقفا واحدا على هيئة السقف الشمالى[١]. وعلى هذا فإن الوقت الطويل الذى مضى على بناء هذه السقوف[٢] كان له أثره فى تلف أخشابها ، بالإضافة إلى احتمال تعرضها لرطوبة مياه الأمطار التى تسقط على القبة الزرقاء فتنحدر إلى السقوف المجاورة .

ويذكر السمهودى أيضا ما حدث بالرواق الشرقى من تجديد فى هذه العمارة إذ يقول « أنهم سقفوا الرواق (البلاط) الأوسط الذى يلى الرواق (البلاط) الذى سبقت عمارتهم إياه فى العام الماضى[٣] وأعادوا ذلك »[٤] فى نفس العام . ولكن السمهودى لم يشر إلى أسباب تجديد هذا السقف كما لم يذكر كعادته مقدار الخشب التالف به ، مع أن العمارة التى تمت فى هذا الرواق فى عام ٨٧٩هـ قد شملت جوانب كثيرة منه[٥]، ولكن يبدو أن الحرص الذى أولاه ابن الزمن لهذه العمارة قد شمل أيضا ما يمكن أن يكون مصدر خطر فى المستقبل القريب وفى ذلك كله يتضح أن أغلب سقوف هذا الرواق قد جددت فى العمارة الأولى التى تعهدها الأشرف قايتباى بالتجديد فيما بين سنة ٨٧٩هـ إلى سنة ٨٨١هـ .

وإذا صح أن وصف السمهودى كان حسب مراحل العمل المختلفة التى انجزها القائمون بالعمل أثناء تجديد هذه السقوف فإن عودتهم إلى امتداد بلاطتى مقدم

---

(١) انظر أعلاه ص ٢٤٥ وما بعدها . وانظر خارطة توزيع العمائر فى المسجد النبوى بعد الحريق الأول شكل (٤٩) .

(٢) مضى على الجزء المجدد من السقف فى عهد المستعصم بالله العباسى مما يلى مقدم المسجد الشريف قرابة ٢٢٣ سنة . وعلى ما جدده الملك الناصر فى هذا الرواق ١٧٥ سنة .

(٣) أى عام ٨٧٩هـ لأن العمارة فى عام ثمانين وثمانمائة كانت توقفت كما عرفنا من قبل .

(٤) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٨ .

(٥) كانت هذه العمارة قد شملت تجديد جميع العقود المطلة منه على الصحن ، وتجديد جدار المسجد مما يلى المنارة الشمالية الشرقية وكذلك سقف البلاط الذى يلى جدار المسجد الشرقى ، والبلاط الذى يلى العقود المجددة . أولا انظر أعلاه ص ٢٩٢ وخارطة توزيع الأعمال فى عمارة قايتباى الأولى شكل (٥٣) .

المسجد مما يلي المشرق عندما « قلعوا السقف الأسفل المحاذي لموقف الزائرين تجاه الوجه الشريف »[١] دليل على أن مراحل العمل لم تكن تسير وفق خطة مسبقة، وأن الأمر كان متروكا لما يراه متولي العمارة ، الذي كان يلجأ في المسائل الهامة إلى أخذ رأي مشايخ الحرم الشريف وكبار رجال المدينة المنورة .

ومن الجدير بالذكر ملاحظة ما ذكره السمهودي عن متانة سقف مقدم المسجد مما يلي المشرق رغم قدمه ، إذ لاحظ أنهم « تعبوا في قلعة أكثر من غيره لاتقانه وإحكامه فإنه من عمل الأقدمين »[٢] وكان يرجى لو اتبع هذا المنهج في وصفه لبناء جميع السقوف المجددة ، بما كان يساعد بشكل أفضل على إلقاء الضوء على نوعية التجديد في العمائر السابقة وما ذكره السمهودي من وجود اسم الظاهر بيبرس على خشب هذا السقف أفاد في تحقيق ما سبق أن افترضته عن تجديد المنائر في عهد هذا السلطان[٣].

ولم يذكر السمهودي سببا لقلع السقف المذكور رغم إتقانه وإحكام صنعه ثم إعادة بنائه . ثم يعود السمهودي فيذكر أنهم انتقلوا هذه المرة إلى مؤخر المسجد الشريف فاصلحوا « شيئا في السقف الشامي وغيره »[٤] من سقوف المسجد ، ويظهر أنها أعمال بسيطة لا تتجاوز في أغلب الأحيان استبدال بعض الأخشاب التالفة . وبعد الانتهاء من تجديد السقوف على الصورة التي ذكرتها من قبل لا بد وأن يكون الأشرف قايتباي قد جدد دهان السقوف كلها ـ أو ما تجدد منها على الأقل ـ بالذهب واللازورد ، كما كانت عليه أولا .

أما القبة الزرقاء التي كانت تعلو الحجرة الشريفة ، والتي ذكرت أنها تسببت أكثر من مرة في تلف السطوح المجاورة لها ، ومنها سقفا الروضة الشريفة قبل هذه العمارة ، فإنه قد تبين بعد الكشف عنها في سنة ٨٨١هـ وجود خلل في بعض

---

(١) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٨ .

(٢) السمهودي : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٠٨ .

(٣) انظر أعلاه ص ٢٢٩ .

(٤) السمهودي : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٠٨ .

أخشابها » فعضدها متولى العمارة الشمس بن الزمن بأخشاب سمرت معها ، وقلع ما حولها من ألواح الرصاص التى على أعلى السطح[١] بينها وبين الدرابزين المتقدم ذكره[٢] فوجدوا تحت ذلك أخشابا قد تآكلت من طول الزمان ونداوة مياه الأمطار »[٣] ويذكر السمهودى بعد ذلك أنهم أصلحوا ذلك الخلل وإعادة الرصاص بعد أن أضافوا إليه كثيرا من الرصاص المخزون فى حاصل الحرم ومما أحضر من مصر ، كما أنهم جددوا الدرابزين المحيط بالقبة مما يلى سطح المسجد[٤].

وأظن أن عدم إلتحام الرصاص الذى كان يكسو سطح القبة وما يليها من مقدم المسجد مع طبقة الطمى أو الجص التى كانت فوق جميع سطوح المسجد الشريف[٥] ، وأثر المياه المنحدرة عند نزول المطر من سطح القبة ، بالإضافة إلى أثر جو المدينة الحار صيفا البارد شتاءا على ألواح الرصاص خلال المدة التى مضت على تجديد هذه القبة من سنة ٧٦٥هـ إلى سنة ٨٨١هـ ، قد ساعد ولا شك فى فتح مسام أو فتحات تصل عبرها مياه الأمطار إلى أخشاب السقف الأسفل لمقدم المسجد ، وقد إمتدت هذه الآثار الناجمة عن الأمطار إلى السقف الأسفل للحجرة الشريفة الذى قال عنه السمهودى أنه « سقف محكم من ألواح ثخينة جدا من الساج الهندى»[٦] ، فأثرت كما يقول فى جزء متين من الأخشاب التى تحته

---

(١) كانت ألواح الرصاص المذكورة امتدادا للألواح التى كانت تغطى سطح القبة وقصد من مدها على السطوح المجاورة للقبة حماية سقوف المسجد من نزول الأمطار إليها .

(٢) كان هذا الدرابزين قد حل محل السور الذى كان يحيط بسطح الحجرة الشريفة ـ تمييزا لها عن بقية سطوح المسجد ، وصيانة لها من المشى عليها ـ بعد استحداث القبة فى عهد المنصور قلاوون. انظر أدناه ص ٢٣٩ .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦١٠ .

(٤) نفس المصدر : جـ٢ ص ٦١٠ .

(٥) لا يزال الطمى يستخدم فى سطوح كثير من منازل القرى فى جنوب المملكة وكان قبل وجود الأسمنت هو المادة الأساسية فى حماية سقوف المنازل من الأمطار بالإضافة إلى أن تحكمه فى درجة الحرارة معروف فى المناطق التى يسودها الجو الحار صيفا والبارد شتاءاً .

(٦) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٠٣ .

كما أثرت في الشباك الذى كان بأعلى حائز عمر بن عبد العزيز[١]. وفى الستارة التى تحيط بسقف الحجرة الشريفة [٢] مما دعا المشرف على العمارة إلى تجديد ما تآكل من هذه الأخشاب[٣].

وبعد ذلك عمل على تجديد بعض الدرابزين المصنوع من الخشب الذى سبق للظاهر بيبرس أن أحاط به الحجرة الشريفة ، وكان ذلك كما يذكر السمهودى مما يلى الروضة[٤] وجدد دهان بعض السقف الأسفل الذى كان « حول الحجرة داخل المقصورة التى تعرف اليوم[٥] بالحجرة »[٦].

واهتم ابن الزمن كذلك بتجديد غالب الرخام الذى يلى جدار القبلة ، وكان من تجديد الظاهر جقمق سنة ٨٥٣هـ[٧] كما وابدل أيضا الطراز[٨] الأول الذى كان بأعلى الوزرة ، وكان محمرا بماء الذهب بالطراز الموجود اليوم »[٩]،[١٠].

وكان أجدى لو أن السمهودى وصف شكل الطرازين بتفصيل أكثر بما كان يفيد فى معرفة الزخارف التى كان يتحلى بها جدار القبلة .

* * *

(١) نفس المصدر جـ٢ ص ٦٠٣ .

(٢) يبدو من هذا النص أنه كان على حائز عمر بن عبد العزيز درابزينا وعلى الحجرة الشريفة درابزينا أيضاً .

(٣) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦١٠ .

(٤) نفس المصدر : جـ٢ ص ٦١٢ .

(٥) زمن السمهودى المتوفى سنة ٩١١ هـ .

(٦) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٠٨ .

(٧) انظر أدناه ص ٢٨٠ .

(٨) ذكر ابن منظور فى لسان العرب جـ٥ ص ٣٦٨ عدة معان لكلمة طراز فمنها ما ينسج للسلطان فى الثياب وذكر أنها فارسى معرب . وذكر ـ أيضاً أن الطراز تأتى بمعنى الشكل . وذكر عبد العزيز مرزوق فى الفنون الزخرفية الإسلامية ، ص ٦٩ ، أنها « كلمة إيرانية معربة تعنى شغل الإبرة أى البروداى ثم اطلقت على الثوب الذى يزدان بشغل الإبرة إذ كانت هذه الزينة أشرطة من الكتابة ثم صارت تطلق على المصنع الذى تطرز فيه هذه الأشرطة . وهى هنا شريط مزخرف لا يعرف عرضه ولا نوع الزخارف التى كانت تحليه .

(٩) زمن السمهودى المتوفى سنة ٩١١هـ .

(١٠) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص٦٠٨ .

١ - تجديد الحجرة الشريفة سنة ٨٨١هـ :

لعل من التوفيق الذى صاحب العمارة التى قام بها الأشرف قايتباى فى المسجد النبوى الشريف ، معاصرة مؤرخ لها ، له إلمام واسع بتاريخ المسجد الشريف خاصة ، وتاريخ المدينة المنورة عامة . ذلك لأنه حرص لحسن الحظ عند تدوينه ما شاهده من أعمال على أن يتتبع مراحلها المختلفة ويفيها حقها من الدقة والوصف . من ذلك أنه عندما استقر الرأى على هدم بعض جدران الحجرة الشريفة ، لم يتوان عن ذرع جدرانها بنفسه ، ومقارنة ما اتضح له من ذرعها بما ذكره المؤرخون السابقون ، وفضلا عن ذلك فإن ما سجله يدل على أن الشروع فى تجديد الحجرة الشريفة كان بعد الانتهاء من تجديد بعض سقوف المسجد التى مر ذكرها .

وسبب ذلك أنهم وجدوا عند تجديدهم لحلية الصندوق الذى كان يقابل الرأس الشريف مما يلى الروضة الشريفة[١] شقوقا وآثار تلف بأسفل الإسطوانة التى يرتكز إليها الصندوق والقائم الموضوع فوقه . وقد هالهم منظر الإسطوانة التالفة كما تأكد لهم خطورة الشق الذى لوحظ فى أوائل سنة ٨٧٨هـ فى مؤخرة جدار الحائز الشرقى مما يلى الشمال . وقد عقدوا النية على استخراج الخرزات التالفة من الإسطوانة المذكورة[٢] ، وهن ست قطع تقع كلها فى أسفل الإسطوانة . وقد استبعد السمهودى قدرتهم على استخراجها من الإسطوانة دون إلحاق الضرر ببقية أجزائها[٣] . وقد ثبت أن توقع السمهودى كان فى محله إذ أعجزهم استخراج الخرزات التالفة ، مما أدى إلى التفكير فى إبقاء الإسطوانة على حالها ، على أنه

---

(١) لمزيد من المعلومات عن تاريخ هذا الصندوق وصفة صنعته ومقدار ما يحليه من الذهب والفضة وكذلك القائم الموضوع فوقه انظر الفصل الرابع والعشرين من وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٧٤ .

(٢) ذكر السمهودى فى نفس المصدر جـ٢ ص ٦١٩ أن أهل المدينة يسمون كل قطعة من الاسطوانة خرزة وأنهم يسمونها أيضًا فلكة . وتتألف كل اسطوانة من عدد من القطع الحجرية المنحوتة بشكل دائرى مثقوبة فى وسطها ثم تركب فوق بعضها وتحشى بعمد الحديد ثم يصب الرصاص حول الأعمدة ليملأ الفراغ ويزيد من قوة تماسك القطع حتى تصبح كأنها قطعة واحدة .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦١٩ .

تيسر لهم ذلك « بعد كسر بعض الخرز وإخراجه »[١]. بيد أنه لم يكن لهم بدّ من نزع باقي الخرز ، وهو ما أقره المجلس الذى عقده متولى العمارة لهذا الغرض ، وكان قد دعى إليه كبار شيوخ المدينة ومعهم السمهودى ، ولكنه لم يلب الدعوة[٢]. ونظر المجلس إلى الأذى الناتج عن المعالجة القوية لخرزات الإسطوانة المذكورة ، ومجاورة ذلك للحجرة الشريفة التى كانت جدرانها « تهتز له لاتصالها بالإسطوان المذكور »[٣]. لذلك لم يكن لهم خيار سوى التسليم بالأمر الواقع ، لأن وقت النظر ، كما ذكر السمهودى كان قد فات .

ولابد هنا من تفصيل ما اتخذ من عمل فى هذا الصدد . فقد جاء على لسان السمهودى أن رأيهم اقتضى « تعميق[٤] ما على رأس الأسطوان المذكور من أخشاب السقف ، فجعلوا مرمة[٥] من الأخشاب حول الإسطوان المذكور ليكسروا الخرز المشقق من ذلك الإسطوان ، وهن ست ، ثم يعلقون ما صح من الاسطوان

---

(١) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦١٩ .

(٢) أوضح السمهودى فى نفس المصدر جـ٢ ص ٦١٩ السبب فى عدم حضوره ذلك المجلس إذ يقول : « طلبنى متولى العمارة للحضور فيه فترددت لأنه بلغنى أن بعض الناس اوغر صدره منى وقرر عنده أنى حريص على أن لا تكون هذه العمارة على يده ـ وكنت أرى منه محبة وميلا ، ثم تنكر بعض التنكر وعلمت أن الرجوع عن اصلاح الاسطوانة المذكورة غير ممكن لكسر بعضها واخرجه . فعلمت فوات وقت النظر . فاجبت الرسول بذلك ولم أحضر » .

(٣) أورد السمهودى فى المصدر السابق ، جـ٢ ص ٥٥٩ قول عمر رضى الله عنه « أن مسجدنا هذا لا ترتفع فيه الأصوات » وقال أبو بكر رضى الله عنه : « لا ينبغى رفع الصوت على نبى حيا ولا ميتا » . وروى ابن زبالة ويحيى من طريقه عن غير واحد ، منهم عبد العزيز بن أبى حازم ونوفل بن عمارة قالوا : أن عائشة كانت « تسمع صوت الوتد يوتد والمسمار يضرب فى بعض الدور المطيفة بمسجد النبى ﷺ فترسل إليهم لا يؤذوا رسول الله ﷺ ، وقالوا : وما عمل على مصراعى داره إلا بالمناصع ، توقيا لذلك » . وذكر ابن منظور فى لسان العرب جـ٨ ص ٣٥٦ أن المناصع موضع خارج المدينة . وهذا يعنى أن على نقل بابه إلى هناك ثم سمره وأعاده وهذا بعيد جدا . والصواب أنه رضى الله عنه قد استعاض عن المسامير بسيور من الجلد تربط بها أجزاء الباب لأن ابن منظور ذكر فى نفس الصفحة أن النصع هو ما يتخذ من الأدم .

(٤) لعلها تحريف « تعميد » أى تدعيم العتبتين أو العارضتين الخشبيتين اللتين تلتقيان فوق هذه الأسطوانة بأعمدة من الخشب .

(٥) يقصد بذلك دعامات من الخشب تحيط بالجزء العلوى من الأسطوانة ، وهو الجزء السليم منها . وبذلك يبدو أنهم بدأوا علاج الاسطوانة من أسفلها بدليل تعليق الجزء السليم إلى أن يتم ادخال خرزة بدل الخرزة التالفة وهكذا على التوالى ، مع احتمال حفر مجرى آخر فى أخر خرزة ركبت لسكب الرصاص منه إلى الخرزات المركبة أولا

إلى أن يدخلوا مكان ذلك بدله »[١] وجاء أنهم ظلوا يحاولون إخراج الخرز التالف عدة أيام حتى تمكنوا من ذلك . ثم أعادوا مكان تلك الخرزات الست مثلها من خرز إسطوان نقضوه من مسجد قباء ، فكان ذلك بقدر تلك الخرز سواء[٢] وأحكموا إعادتها بالرصاص وعمد الحديد أحسن إحكام »[٣] وهنا تجب الإشادة بالنجاح الذى حققه العمال فى استبدال الخرزات المذكورة أولا ، رغم بساطة آلاتهم المحدودة آنذاك ، مما أدهش السمهودى ، ودعاه إلى الاعتراف بحسن « معرفة المعلم المباشر لسبك الرصاص »[٤]، وفضلا عن النجاح الذى اعترف به السمهودى فإنهم أعادوا تجديد حلية القائم الذى كان فوق الصندوق الموجود بلصق الإسطوانة التى كان يستند إليها القائم[٥]، ومع العناية الواضحة بهذا القائم كما يبدو من وصفه قبل وبعد العمارة ، فإن حقيقته وسبب وجوده غير معروفين

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦١٩ .

(٢) ذكر ابن النجار فى الدرة الثمينة ، ص ١١٣ أن عمر بن عبد العزيز عمر مسجد قباء ووسعه عندما أشرف على عمارة الوليد بن عبد الملك للمسجد النبوى وقال أنه « بناه بالحجارة والجص وأقام فيه الاساطين من الحجارة داخلها عواميد الحديد والرصاص ونقشه بالفسيفساء وعمل له منارة وسقفه بالساج .. » ويمكن الاستنتاج من مزامنة هذه العمارة لعمارة المسجد النبوى الشريف، زمن الوليد ، ومن تشابه الصفات المعمارية بين المسجدين ، بالإضافة إلى وقوع ذلك فى ولاية عمر بن عبد العزيز القصيرة نسبيا للمدينة المنورة ، أن المحجر الذى قطعت منها أحجار الإسطوانات المستخدمة فى المسجدين كان واحدا ، كما يبدو من تساوى الخرز الذى فلك من بعض اسطوانات مسجد قباء واستخدامه فى الاسطوانة التالفة فى مقدم المسجد النبوى الذى لم تتغير اسطواناته منذ بناه الوليد بن عبد الملك حتى تلك العمارة الواقعة فى سنة ٨٨١هـ .

(٣) ، (٤) السمهودى : وفاء الوافا ، جـ٢ ص ٦١٩ .

(٥) يحسن إيراد ما ذكره السمهودى، فى نفس المصدر جـ٢ ص٥٧٥ ـ ٥٧٦ فى وصف هذا القائم بعد تجديد حليته فقد جاء أن طول القائم المذكور ثلاثة أذرع ، وهو خمس صفحات ألصقت بعضها على بعض وجعلت محيطة بما ظهر فى الاسطوانة التى الصندوق بأصلها فوقه (فوق الصندوق) فإن بعض الاسطوانة فى البناء الملاصق لها من الحائز المذكور ، ولو أحاطت الصفحات بجميع الاسطوانة لكانت أكثر من خمس . (ولكان) شكلها مثمنا ، وهو مخشم بالخشب الأسود الهندى ، معصب بصفائح الفضة المموهة طولا وعرضا بأحسن صناعة ، وصفائحه الطويلة من الفضة أربع ، والمقاطعة لها من جهة العرض خمس ، وفى رأسه من أعلاه حلية دقيقة كالزيق، وزنة ما عليه من الفضة زيادة على ألفى قفلة (أى حوالى ٢٠٠٠ درهم وازن والدرهم الوازن ما كان وزنه ٢٫٩٨جم) وأخذوا لأجل تمويهه من حاصل للمسجد أربعين مثقالا من الذهب » .

أما الصندوق فقال أنه لم يغير وأنه مغشى كله بالفضة . وجاء فيما نقله عن وصف الفيروزبادى له أنه « صندوق أبنوس مختم بالصندل مصفح بالفضة مكوكب بها » .

كما صرح بذلك الفيروزبادى والسمهودى[١] ، ومع ذلك فإن وجوده فوق الصندوق الذى كان يدل على موضع الرأس الشريف من الحجرة النبوية الشريفة يفيد بأن الهدف منه هو تحديد موضع الرأس للنبى ﷺ بيد أن السمهودى ينفى أن يكون موضعه الذى كان فيه فى المواجهة الحقيقية للرأس الشريف ، وذلك بسبب ما تبين له عند انكشاف الحجرة الشريفة فى العمارة التى أدركها من أنه « فى محاذاة الجدار الداخل[٢] القبلى »[٣] ، وأن الرأس الشريف « متأخر عن الصندوق المذكور يسيرا »[٤] ، كما يبدو فى الشكل رقم (٥٤) .

وبعد الانتهاء من إعادة الإسطوانة التى كانت سببا فى التوسع فى عمارة الحجرة الشريفة على النحو الموضح فى الصفحات التالية ، وعند تجديد رخام جدران الحجرة الشريفة « قلع رخام الصفحة الآخذة من الزاوية الشمالية إلى الصفحة الشرقية مع ما يليها من صفحة المشرق عند منعطفها ظهر الشق المتقدم ذكره[٥] ، وهو انشقاق قديم سد الأقدمون خلله بكسر الأجر وأفرغوا فيه الجص وبيضوه بالقصة فأنشق البياض من رأس وزرة الرخام إلى رأس الجدار المذكور »[٦] . وقد أراد متولى العمارة اختبار هذا الشق فعمد إلى استخراج ما بداخله من الأجر والجص فوجد أنه شق كبير يستطيع الإنسان منه أن يرى البناء الداخل للحجرة الشريفة . وقد وجد به هو الآخر شق فى محاذاة الشق الأول وذلك « عند ملتقى الجدارين المذكورين تدخل اليد فيه ، وهو قديم أيضا ، وقد سده المتقدمون ، ثم اتسع قليلا

---

(١) المغانم المطابة ، ورقة ٨٢ب ، وفاء الوفا جـ٢ ص ٥٧٥ ، ويعتقد البرزنجى فى نزهة الناظرين ص٧٣ أن سبب حدوث هذا الصندوق أمام الرأس الشريف كان بهدف وضع « ما كان يرد لتجمير المسجد الشريف من العود والند والصندل والعنبر وغيرها . وابتداء ذلك من زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثم صار ذلك سنة الخلفاء والملوك بعده غير أنه لما اتسعت الدوائر خصصوا الصندوق المذكور بوضع الصندل فيه ورفعوا ما يجمر به المسجد إلى أماكن أخرى » .

(٢) يقصد جدار الحجرة الداخلى وهو أحد جدرانها الأربعة التى تقع داخل حائز عمر بن عبد العزيز.

(٣) ، (٤) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٧٥ .

(٥) انظر أعلاه ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

(٦) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٢٠ .

على دوام الأيام »[1]. وكان الشق الداخلي من الخطورة بحيث أكد للقائمين بالعمل حاجة الحجرة الشريفة إلى تجديد بعض جدرانها ، وبدليل شروعهم قبل ذلك في تجديد رخام الحائز المذكور . ولو كان الأمير شاهين الجمالي قد تمكن سنة ٨٧٨هـ من رؤية الشق الداخلي في مبنى الحجرة ، وشاهد تلف الإسطوانة السالفة الذكر ، لتخلى مطلقا عن قناعته بعدم خطورة الشق الخارجي ، ولأوصى حينذاك بوجوب المسارعة بتجديد عمارته .

ولصدق إحساس ابن الزمن وطمعه في الفوز بأن يكون تجديد الحجرة الشريفة على يديه ، فقد حرص على عقد مجلس آخر داخل المقصورة المحيطة بالحجرة الشريفة عند الجدار المتداعى للسقوط « حضره القضاة والمشايخ والخدام وشيخهم الأمير أينال »[2]. وقد استطاع أن ينتزع من هذا المجلس موافقة شبه إجماعية[3] على وجوب المسارعة في تجديد الجدران التالفة ، وأكدوا إجماعهم هذا بمحضر وقع فيه بعض أهل المدينة وأرسل إلى مصر[4] وتمكن السمهودى لحسن الحظ من رؤية الجدار قبل هدمه وقدم وصفا تحليليا عن أسباب التلف الذى أصابه وغيره من جدران الحجرة . فقد ثبت له أن « سبب انشقاق الجدار الظاهر انشقاق الجدار الداخل وميلانه نحو الجدار الظاهر »[5]. وقد رأى احتمال ظهور الميلان بعد

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٢٠ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٢٠ .

(٣) إذا كان ما يذكره السمهودى فى نفس المصدر جـ٢ ص ٦٢١ خاليا من التحيز فإن تهافت هؤلاء الأعضاء الذين شملهم المجلس فى جلستيه الأولى والثانية على ابن الزمن دعاهم إلى الموافقة على ما كان يصبو إليه من الفوز بهذه العمارة كما صرح به أحدهم وهو القاضى الزكوى الذى اوغر صدره على السمهودى بسبب مخالفته لاجماعهم ، ومرد ذلك الاجماع من هؤلاء الأعضاء يرجع فى اعتقادي إلى أنهم أصحاب وظائف يخشون زوالها ، كما أن ما يمتلكه هذا الأمير من جاه وسلطة دعاهم إلى السير فى ركابه وتبنى آراءه .

(٤) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٢٤ ، حيث يذكر تبنى القاضى الزكوى ــ قاضى المدينة آنذاك ــ لكتابة ذلك المحضر الذى وقع فيه بعض أهل المدينة ، ولم يوقع فيه السمهودى بحجة أنه لم يسبق أن وقع على مثل ذلك المحضر من قبل .

(٥) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٢٠ .

الحريق الأول ، ومحاولة الأقدمين دعم « الجدار الداخل بأخشاب جعلوها بين الجدار الداخل والخارج عند رأسهما في شرقي الحجرة ، فمال الجدار الظاهر من أعلاه بحيث صار أعلاه لا يوزاى أسفله ، وخرج بسبب ذلك عن الاستقامة فحدث فيه الشق المذكور »[١]. وإلى جانب إجماع المجلس السالف الذكر ، فقد استلهم ابن الزمن من الرؤيا[٢] التى رآها مساء ذلك اليوم الشجاعة على وجوب الشروع فى التجديد .

وبدأ العمل فى صبيحة اليوم الرابع عشر من شعبان سنة ٨٨١هـ ، فهدم جزء من الضلع الشرقى من هذا المخمس ، وما يليه من ضلع المثلث الشمالى[٣] وكانت « سعة ذلك خمسة أذرع بذراع اليد »[٤]، وذلك من بعد نحو أربعة أذرع من الأرض إلى رأس الجدار المذكور »[٥]. وكان لخلو الحائز المذكور من سطح يرتكز عليه[٦] أثر فعال فى سهولة هدمه . وقد تبين لهم من خلاله أن بين الحائز وجدار

---

(١) السمهودى : نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٢٠ ، وقد ذكر بعد ذلك أنه اقترح إقامة بناء ثالث يدعم الجدار المائل من الحائز المخمس ، وعندما رفض متولى العمارة اقتراحه ، سأل المهندس عن رأيه فى الترميم باعتباره أعرف الحاضرين ، فقال له السمهودى : « هل تحققت الآن اشراف هذا الجدار على السقوط وأنه لا يتأتى تأخيره ، أم يحتمل التأخير مدة إذا رم بالجص والأجر كما كان أولا فيؤخر إلى أن يصير غير محتمل للتأخير فإنه لا يفعل هنا إلا ما تدعو إليه الضرورة فى الحال؟ فقال : الترميم شيء وقطع الفرط شيء آخر » .

(٢) ذكر السمهودى : فى المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٢١ إن متولى العمارة ذكر له « أنه رأى رؤيا فهم منها الهدم ، فصمم عليه » ثم ذكر السمهودى بعد ذلك أنه رأى « عنده من شجاعة الجنان وثبات الجأش فى هذا الأمر ما لا يوصف » . وعن مثل هذه الرؤيا يقول علماء النفس أنها انعكاسات للاهتمامات الشخصية بالأحداث الماضية . انظر أحمد عزت راجح : أصول علم النفس، ص ٥٠٣ ، محمد عثمان نجاتى : علم النفس فى حياتنا اليومية ، ص ٢٥١ .

(٣) انظر خريطة الحجرة الشريفة التى أعدها السمهودى بعد هذه العمارة شكل (٥٤) .

(٤) أى حوالى مترين ونصف .

(٥) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٢١ .

(٦) قال المراغى فى تحقيق النصرة ، ص ٥٣ « أعلم أن الحائط الذى بناه عمر لم يوصله إلى سقف المسجد بل دوين السقف بمقدار أربعة اذرع ، وادار عليه شباكا من خشب من فوق الحائط إلى السقف يراه من يتأمله من تحت الكسوة التى على الحجرة الشريفة ، وقد اعيد بعد احتراق المسجد (الحريق الأول) على ما كان عليه قبل ذلك » .

الحجرة ردم كثير من مخلفات الحريق الأول تركه الأقدمون لكثرته وقدسية مكانه ، فاجتهدوا فى إزالته فى الخامس عشر من شهر شعبان وكان أغلبه بقايا « السقف الأعلى وجص وأجر من الجدار الذى كان بأعلى سقف المسجد لتمييز الحجرة الشريفة عن غيرها ، كما تقدم بيانه ، ومما كان على رؤوس الأساطين ، ومما احترق من أخشاب ذلك »[١] السقف . ورغم جلال الموقف ، فإن السمهودى بحاسته الأثرية حرص على أخذ مقاس الفراغ الذى كان بين الجدارين ومقدار انخفاضه عن أرض المسجد ظنا منه أن الأمر سيقف عند ذلك الحد[٢]. إلا أن فحص المسئول عن العمارة للشق الموجود بجدار الحجرة الشامى قد بين له وجود شق مماثل فى جدارها « القبلى مما يلى المشرق أيضا »[٣]، وأكدت له المحاولات القديمة لدعم هذا الجدار[٤] ضرورة تجديده ، فرفع القناديل التى كانت معلقة بسقف الحجرة الشريفة إلى حاصل المسجد ثم أمر العمال بالبدء فى رفع سقف الحجرة الشريفة[٥] تمهيدا

---

(١) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٢٢ .

(٢) يؤخذ من المعلومات التى ذكرها السمهودى فى المصدر السابق جـ٢ ص ٥٦٥ ـ ٦٢٢ ، ٦٥٣ أن عمق الفراغ المذكور عن الأرض المرخمة والمحصورة بين ذلك الجدار ومقصورة الظاهر بيبرس ذراع وثلث ذراع . وكان جدار الحجرة الغربى ملاصقا لجدار الحائز الغربى ليس بينهما « فضاء أصلا ولا مغرز إبرة » وكانت مساحة المثلث الشامى ثمانية أذرع . وجاء أن بين جدار الحجرة الشرقى وجدار الحائز الظاهر « فضاء مختلف كالزقاق الرقيق ، فعند ابتدائه من جهة الشام نحو ذراع اليد يمر فيه الرجل منحرفا ، فإذا قرب من جهة القبلة تضاعف بحيث لا يمر فيه إلا الصغير منحرفا ، وسعته نحو ثلث ذراع » وكان الفضاء المحصور بين الجدارين القبليين « كالزقاق الرقيق ، فأوله من جهة الشرقى نحو ذراع اليد فإذا قرب من الوجه الشريف تضايق بحيث يصير نحو شبر ثم أقل من ذلك إلى ملتقى الحائطين فى جهة المغرب » .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٢٣ .

(٤) ذكر السمهودى فى نفس المصدر جـ٢ ص ٥٦٥ أن بحذاء الاسطوانة التى أمام وجه عمر رضى الله عنه فيما برز منها فى الفضاء الذى يقع بين الجدارين « بناء بنحو عرضها قد سد ما بين الجدارين من الفضاء وكأنه جعل لإدعام الجدار من أجل الانشقاق » المذكور . ثم ذكر فى ص ٦٢٣ أنهم وجدوا محاولة مماثلة لدعم الجدار الشرقى بقطع الخشب الموضوعة بأعلاه .

(٥) قدم السمهودى فى المصدر السابق جـ٢ ص ٦٠٣ وصفا دقيقا لنوع الخشب الذى كان بسقف الحجرة الشريفة وكيفية وضعه بعد الحريق الأول فى العمارة العباسية للمسجد النبوى .

لهدم الجدران المتداعية وقد شرعوا في الحادى والعشرين من شعبان المذكور في هدم الجدار الشامي والشرقي من البناء الداخل ، وتبين لهم فور الانتهاء من هدم الجدار الشامي في اليوم الثاني والعشرين من شعبان ضخامة الردم الذى كان يعلو القبور الشريفة[١] وقد استغرق رفع ذلك الردم منهم يوما كاملا[٢] رغم كثرة العاملين فيه . ودعي السمهودى في اليوم الخامس والعشرين لمشاهدة الحجرة الشريفة بعد تنظيفها ، فحضر وصحح اعتقاد الكثرة الحاضرة بوجود القبر الشريف في وسط الحجرة الشريفة[٣] مستندا إلى أصح الأقوال في ذلك[٤]. ولم يغفل عن

---

(١) قال السمهودى في المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٢٧ أن آثار الردم بلغت في بعض الجدران ثلاثة أذرع وفي بعضها الآخر نحو ذراعين .

(٢) ذكر السمهودى في وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٢٤ ، أن ما أخرج من الردم في يوم ٢٣ شعبان قد وضع في مؤخرة الرواق الغربي مما يلي الرواق الشمالي حيث عملت منه دكة بارزة هناك .

(٣) انظر المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٢٦ .

(٤) تعرضت أكثر المصادر التي تتحدث عن تاريخ المسجد النبوى للروايات التي تتحدث عن القبور الشريفة حسب أوضاعها المختلفة ، ولكنها في مجموعها تنقل ما تواتر من روايات دون ترجيح رواية على أخرى وقد تبين لي من المقارنة التي عقدتها بين هذه الأوضاع ترجيح الوضع التالي للأسباب التالية :

عمر رضى الله عنه		النبي عليه السلام
	أبو بكر رضى الله عنه	

- أن الروايات التي ذكرت هذا الوضع صحيحة كما ذكره الحاكم وأبو داود . انظر الوفا ، جـ٢ ص ٥٥٢ .
- أن السمهودى ذكر في ص ٥٦٦ من الوفا جـ٢ أن ذرع الجدار الجنوبي من الداخل (بين الشرق والغرب) عشرة أذرع وثلثي ذراع وبتحويلها إلى أمتار على أساس أن الذراع كما حدده هنتس ٥٠،٣ سم أي : أن مجموعها حوالي ٥،٥ من الأمتار . واستنادا إلى ما ذكره ابن إسحاق في كتاب المناسك ص ٣٧٥ وابن النجار في الدرة الثمينة ص ١٣٨ ، والسمهودى في الوفا ، جـ٢ ص ٥٤٥ من أن عمر بن عبد العزيز وجد أقدام عمر بن الخطاب رضى الله عنه في جدار الحجرة الشرقي وهو ما يتفق مع ما ذكره عن طوله رضى الله عنه .
- إذا فرضت أن طول الرسول عليه السلام ١،٥ من الأمتار استنادا إلى الروايات التي ذكرها ابن الجوزى في الوفا بأحوال المصطفى ، جـ٢ ص٦١ من أنه عليه السلام كان وسطا بين =

ذكر ملاحظة هامة تتعلق بحدوث ارتفاع ملحوظ فى أرض المسجد الشريف تضاعف مع الزمن إذ يذكر : « وقد تأملت التفاوت بين أرض الحجرة الشريفة وبين أرض الفضاء الخارج بين الجدار الشامى من الداخل ، وزاوية الجدار الخارج فوجدت أرض الحجرة أنزل منه بنحو ذراع ونصف ، وتقدم أن أرض الفضاء المذكور أخفض مما حول الحجرة من المسجد بذراع وثلث ، فيكون التفاوت بين داخل أرض الحجرة وأرض المسجد نحو ثلاثة أذرع »[1] انظر شكل (٥٥) .

وبعد تنظيف أعمال الحجرة الشريفة تتبعوا الأجزاء المتداعية من الجدار القبلى ، مما يلى الشرق فهدموا منه « نحو أربعة أذرع وشيء حتى بلغوا به أرض الحجرة»[2] وهدموا من الجدار الغربى نحو خمسة أذرع مما يلى الشمال ، ثم انتقصوا من إرتفاع الجزء المتبقي من الجدار الغربى والجنوبى مقدار خمسة أذرع . ولهذا لم يبق من بناء الحجرة الأول سوى ما بقى من هذين الجدارين ، وهو ارتفاع بسيط لا يزيد على الجزء المهدوم بشيء كثير .

ب ـ وصف القبة المحدثة فوق الحجرة الشريفة :

يبدو أن المسئول عن العمارة كان ينوى إعادة الجدار الشرقى إلى وضعه الأول ، بعد إصلاح الخلل الذى كان به . إلا أن تتابع الهدم فى جدران الحجرة الشريفة على النحو الذى سبق ذكره اقتضى بطبيعة الحال التفكير فى طريقة جديدة تجمع بين المتانة وجمال المنظر . فكان الإجماع على عقد قبة صغيرة تكون بين سقف

= الرجال ، وأنه لا بد أن يقى بين رأسه الشريف وجدار الحجرة الغربى مسافة قدرها السمهودى فى الوفا ، جـ٢ ص ٦٣٠ بذراعين (أى حوالى متر) ثم قدرت طول عمر رضى الله عنه ١,٧٠ من الأمتار فإن حاصل هذا كله ١,٥٠ + ١ + ١,٧٠ = ٤,٢٠ من الأمتار والباقى ١,٣٠ من الأمتار هى المسافة بين موضع جثمان الرسول عليه الصلاة والسلام وعمر رضى الله عنه ، وفرق الأذرع وما يمكن أن ينتج من خطأ فى تقديرى لطول الأجساد الشريفة .

ـ أن على حافظ قد أيد هذا الوضع فى كتابه فصول فى تاريخ المدينة المنورة ص ١٠٦ وما بعدها .

(١) أى حوالى متر ونصف ، انظر السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٢٧ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٢٨ .

المسجد الأعلى وجدران الحجرة الشريفة[١] ولكن عدم تربيع جدران الحجرة[٢] دعا إلى التفكير في إيجاد طريقة يتم بمقتضاها إقامة القبة المذكورة . وكان الفراغ الواقع بين جدران الحجرة الشريفة وجدران الحائز المحيط بها متفاوت الأبعاد[٣] مما ساعد على الاستفادة منه في إقامة جدران مساندة لبعض جدران الحجرة الشريفة حتى يتيسر تربيعها وكان من ذلك أن عقدوا قبوا » على نحو ثلث الحجرة الذى يلى المشرق والأرجل الشريفة ، وجعلوا الجدار الخارج من جهة المشرق متصلا بجدار الحجرة الداخل ، فأدخلوا ما كان بينهما في جدار القبو المذكور إلى نهاية ارتفاعه »[٤] . أما الفراغ الحادث في الجهة القبلية بين الحائز وجدار الحجرة فقد سدوه بالبناء[٥] . ووصلوا الجدارين الشمالى والغربى إلا أنهم زادوا في عرض الجدار الشامى مما يلى المشرق لتدعيم إسطوانة تقع قرب هذا الجدار بها آثار تلف خطيرة ، فزاد عرض الجدار المضاف مما يلى الإسطوانة المذكورة بنحو نصف ذراع[٦] . وكانت إعادة الجدران جميعها « بأحجار الحجرة التى نقضوها منها »[٧] وهى كما يقول السمهودى في موضع آخر « أحجار سود منحوتة لونها يقرب من لون أحجار الكعبة الشريفة »[٨] وكان ارتفاع الجدران المهيأة لعقد القبة المذكورة ١١ ذراعا[٩] .

---

(١) أى تحت السقف الذى أقيمت عليه القبة الزرقاء التى أقامها المنصور قلاوون سنة ٦٧٨هـ .

(٢) استخلصت من رسم السمهودى لجدران الحجرة في الجزء الثانى من الوفاء ، ص ٥٦٦ أن أضلاع الحجرة الشريفة كالتالى :
الضلع الجنوبى ١٣,٨٣ من الذراع = ٦,٩٥ من الأمتار)
الضلع الشمالى ١١,٤٢ من الذراع = ٥,٧٤ من الأمتار)
الضلع الشرقى ٩,٧٥ من الذراع = ٤,٩٠ من الأمتار) الذراع = ٠,٥٠٣ من المتر
الضلع الغربى ١٠,٧٥ من الذراع = ٥,٤٠ من الأمتار) .

(٣) انظر الرسم الذى أعده السمهودى عن الحجرة الشريفة قبل عمارتها ، شكل (٥٤) .

(٤) ، (٥) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٢٩ .

(٦) السمهودى : نفس المصدر جـ٢ ص ٦٣٠ .

(٧) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٢٨ .

(٨) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٥٦٣ .

(٩) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٢٩ .

وقد أشار السمهودى إلى عقد القبة المذكورة بالأحجار السود المنحوتة بدلا من الأجر الذى أشار به غيره ، حرصا منه على متانة بناء هذا المكان الشريف . ويظهر أن نصائح السمهودى قد بدأت تأخذ مكانها الطبيعى عند ابن الزمن ، فقد أيد ما أشار به . إلا أنه استخدم الحجر الأبيض فى بناء الجزء العلوى من القبة ، وذلك لأنه أطوع من الحجر الأسود فى التشكيل ، وهو ما يتطلبه عادة الجزء العلوى من القباب . وكان انتقال القبة من الشكل المربع إلى الشكل الدائرى الذى يكون رقبتها بمقرنصات متدرجة[١] وضعت بزوايا الحجرة . وقد اكتفى السمهودى عن ذكرها بخطوط رسمها على الزوايا الأربع للمخطط الذى أعده للحجرة الشريفة شكل (٥٦) دون أن يصرح باسمها الذى اشتهرت به فى العمائر الإسلامية .

أما التفاصيل الهامة الأخرى عن هذه القبة فقد ذكر السمهودى أن ارتفاعها «من داخل أرض الحجرة الشريفة إلى محدب القبة المذكورة ـ وهو أعلاها المغروز فيه هلالها ـ اثنا عشر ذراعا بذراع العمل ، فيكون بالذراع المتقدم وصفه[٢] ثمانية عشر ذراعا وربع ذراع »[٣]. وقال عن الهلال المذكور أنه قريب من سقف المسجد الأسفل وأنه من نحاس . وذكر أن القبة مبيضة بالجص . وأن الحجرة الشريفة نظفت ثم أدخلت الحصباء المجلوبة من وادى العقيق بعد غسلها إلى القبور الشريفة من جدار القبة الشامى[٤] . أما الدرابزين[٥] الذى كان يحيط بالحائز المخمس قبل

---

(١) قال زكى حسن فى فنون الإسلام ص١٥٢ عن المقرنصات أو الدلايات كما يسميها البعض : أنها « حليات معمارية تشبه خلايا النحل ، وترى فى العمائر مدلاة فى طبقات مصفوفة بعضها فوق بعض وتستعمل للزخرفة المعمارية أو للتدرج من شكل إلى آخر لا سيما من السطح المربع إلى سطح دائرى تقوم عليه القباب . كما تقوم فى بعض الأحيان مقام الكوابيل حين تتخذ أسفل دورات المؤذن فى المنارات » .

(٢) يقصد ذراع اليد وقال أنه « أربعة وعشرون إصبعا كل إصبع ست شعيرات مضمومة بعضها إلى بعض » . انظر وفاء الوفا ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

(٣) أى حوالى ٩٫١٧ من الأمتار على اعتبار الذراع ٥٠٫٣ سم . السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٢٩ .

(٤) السمهودى : نفس المصدر جـ٢ ص ٦٣١ .

(٥) بعض المصادر تسميه مشبك وبعضها تسميه درابزين .

هذه العمارة ، والذى سبق لابن الزمن تجديده قبل البدء فى تجديد جدران الحجرة[١] . فلم يشر السمهودى إلى إعادته على الحجرة الشريفة بعد عقد القبة المذكورة . إلا أن ما ذكره من تلف هذا الدرابزين فى الحريق الذى حل بالمسجد النبوى سنة ٨٨٦هـ[٢] يدل على إعادته قبل ذلك على أطراف الجدران التى انعقدت عليها القبة المذكورة . وكانت تعلق به كسوة الحجرة الشريفة التى أعيدت بعد بناء القبة ، كما يبدو من ذكر السمهودى لتلفها فى الحريق الثانى سنة ٨٨٦هـ[٣] . أما الدرابزين الذى كان يحيط بالحجرة الشريفة من عهد الظاهر بيبرس فقد بقى على وضعه الأول »[٤].

وبعد الإنتهاء من العمارة المذكورة على الصفة التى تقدم ذكرها جدد العمال محراب إسطوان التهجد الذى كان داخل المقصورة التى أنشأها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٨ هـ ، وزادوا من رخامه « وكتبوا فى ذلك بالرخام بروز الأمر بتجديد عمارة الحجرة الشريفة من السلطان الأشرف قايتباى ـ أعز الله أنصاره ـ وأن ذلك على يد الخواجا الجناب الشمس بن الزمن وتاريخ العمارة المذكورة ، كل ذلك مكتوب بالرخام فى أعلى محراب الإسطوانة المذكورة »[٥]. وقد استغرقت عمارة الحجرة الشريفة على النحو الذى سبق ذكره ثلاثة وخمسين يوما[٦] ، تضاعفت فيها الجهود المبذولة حرصا من المسئولين على ستر القبور الشريفة ، وتمكين الزائرين والمصلين من الصلاة فى المسجد الشريف والتبرك به . علاوة على ذلك قاموا بتنظيف البالوعة التى كانت بصحن المسجد[٧]. وأخرجوا ما بها من الحصباء .

---

(١) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦١٠ .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٣٦ .

(٣) نفس المصدر : جـ٢ ص ٦٣٧ .

(٤) ذكر السمهودى فى نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٣٦ احتراق هذه المقصورة فى الحريق الثانى سنة ٨٨٦هـ فدل هذا على بقائه بعد عمارة القبة المذكورة .

(٥) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٤٥٣ .

(٦) بدأ الهدم فى الحجرة الشريفة فى يوم ١٦ شعبان وتم العمل فيها فى اليوم السابع من شوال من نفس سنة ٨٨١هـ . انظر السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٢١ ، ٦٣١ .

(٧) كانت تستخدم البالوعة المذكورة لتصريف مياه الصحن للمسجد الشريف . وعن بالوعات المسجد انظر أعلاه ص ١٧٥ .

ومن الأعمال المزامنة لعمارة قايتباى الأولى وله علاقة مباشرة بخدمة المسجد ونظافته ما قام به متولى العمارة من تصريف المياه التى كانت تتجمع وقت الأمطار « أمام أبواب المسجد كالغدران الكبار ، خصوصا فى شرقى المسجد »[1]، وإخراجها عبر سرب امتد من البلاليع التى عند أبواب المسجد حتى اتصل بالسرب الذى تسير فيه أوساخ العين « فحصل بذلك غاية النفع ، وصار الماء لا يقف بعد ذلك بأبواب المسجد »[2].

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام ، هو أن مصاريف بعض هذه العمارة التى قام به الأشرف قايتباى سنة ٨٨١هـ - إن لم تكن كلها - كان من أثمان القناديل التى حملت فى أثناء هذه العمارة من حاصل المسجد الشريف إلى مصر طبقا لما رآه ابن الزمن الذى حسن « للسلطان صرف ذلك فى مصالح المسجد والمدينة الشريفة»[3].

وبعد الانتهاء من ذلك كله وما رافقه من عمارة منارة مسجد قباء وتجديد بعض الجوانب من سطحه تهيأت الظروف فى المدينة الشريفة لقدوم الأشرف قايتباى الذى عقد العزم على أداء مناسك الحج عندما تحين الفرصة المناسبة . فكان قدومه إلى المدينة فى موسم غام ٨٨٤هـ قدوم المؤمنين الأتقياء الذين يدل سلوكهم على قوة إيمانهم ونبل شعورهم الروحى . فقد ترجل عند دخوله المدينة المنورة وامتنع عن الدخول إلى الحجرة الشريفة عندما عرضوا عليه ذلك وقال : « لو أمكننى الوقوف للزيارة فى أبعد من هذا الموضع فعلت »[4] وقد ترتب على هذا التعظيم الذى استشعره الأشرف قايتباى من رؤية الحجرة الشريفة عدول السمهودى عن رغبته فى مفاتحة السلطان بأمر فتح بعض أبواب الدرابزين الذى أقامه الظاهر بيبرس حول الحجرة الشريفة ، عند اجتماعه به فى المسجد النبوى الشريف[5].

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٧٣٩ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٧٣٩ .

(٣) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٥٩٠ .

(٤) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ٦١٧ .

(٥) نفس المصدر : جـ٢ ص ٦١٧ .

وكانت الأوقاف التى خصصها لأهل المدينة عقب عودته إلى مصر هى من نتائج هذه الزيارة المباركة ، التى أكدت له ضرورة الإهتمام بأمور الحرمين الشريفين[١] . هذا علاوة على الأموال التى قام بتوزيعها فى المدينة المنورة ، والتى يقول عنها السمهودى أنها أكثر من ستة آلاف دينار [٢] ، وتعويض أمير المدينة عن المكوس التى كان يتقاضاها من الحجاج وغيرهم .

* * *

(١) ذكر السمهودى فى نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٤٤ . أن مقدار الذهب الذى خصصه السلطان لهذا الغرض من ماله الخاص هو ستون ألف دينار وأن حاصلها السنوى سبعة آلاف وخمسمائة أردب من الحب فى كل سنة . ويضيف إلى ذلك أنه انجز وقفها وشرع فى عمارة أماكن بمصر وعوض أمير المدينة عن مكوسها وأورد الصيرفى فى أنباء الهصر بأنباء العنصر ص ٤٨٠ وصفا للمجلس الذى عقد فيه السلطان هذا الوقف فقال فى حوادث سنة ٨٨٥هـ بعد وصفه لاحتفال السلطان بالمولد النبوى بقلعة الجبل « ثم حضر رئيس الدنيا ابن مزهر الانصارى كاتب السر حفظه الله وصحبته الأمير خشقدم الوزير والإمام والخزندار والقاضى الرئيس أبو البقاء ابن الجيعان وصحبتهم ستة أطباق مملوءة بالذهب مستورة بالفوط الكافورى فيها مبلغ ستون ألف دينار بين يدى السلطان والعسكر . وتكلم رئيس الدنيا ابن مزهر الأنصارى ... وقال ... « أنه لما حج (السلطان) تقبل الله منه ـ فى العام الماضى ووجد ما بأهل المدينة من القحط والإجحاف ومن عدم المؤنة والقوت فإنه أخرج من ماله الطيب هذا القدر وأرصده ليشترى به بلادا ويوقفها على حرم المدينة الشريفة وسكانها ليضع بها فى كل يوم خبزاً ودشيشة للفقراء والمحتاجين والقاطنين والواردين » . وانظر ابن إياس فى بدائع الزهور ، جـ٣ ص ١٦٥ ، ٣٢٩ . وقال النهروالى فى الأعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ٢٢٩ ، عن هذه الأوقاف أن « حصة كل نفر سبعة أرادب فى العام سوى فى ذلك بين الصغير والكبير والحر والعبد وذلك الخير جار إلى الآن . وزاد عليه سلاطين آل عثمان أكثر .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٧١٣ .

المبحث الثالث

عمارة السلطان الأشرف قايتباى الثانية

فى المسجد النبوى سنة ٨٨٦ هـ

المبحث الثالث

عمارة الأشرف قايتباى الثانية سنة ٨٨٦ هـ

حريق سنة ٨٨٦هـ وأثره على عمارة المسجد النبوى :

بقى المسجد النبوى الشريف محتفظا بالعمارة التى جددها ابن الزمن فى نهاية عام ٨٨١هـ فى عهد الأشرف قايتباى . وظل أهل المدينة بعد ذلك يتوقعون الهبات والعطايا نتيجة الأوقاف التى خصصها السلطان قايتباى سنة ٨٨٥هـ لهذا الغرض[(١)] ، إلا أن ما حل بالحرم الشريف فى نهاية عام ٨٨٦هـ من حريق ، حرمهم لذة ما كانوا يتوقعون .

وجاء أن السبب فى الحريق حدوث صواعق بالمدينة المنورة أصابت إحداها المنارة الرئيسية قبل صلاة الصبح فى الثالث عشر من شهر رمضان سنة ٨٨٦هـ[(٢)] ، وذلك عندما كان « رئيس المؤذنين وصدر المدرسين شمس الدين محمد بن الخطيب »[(٣)] يستعد لرفع آذان الفجر الأول من أعلى المنارة المذكورة ، فخر على أثرها صعقا بعد انشقاق الجزء العلوى الذى أصابته الصاعقة ، وسقوطه على سطح المسجد المجاور للمنارة ، وتناثرت بعض الأجزاء المتهدمة من المنارة إلى رباط مراغة المجاور لها فهلك من كان به[(٤)] .

وانتشرت النار فى المسجد الشريف ، ولعل مما حال دون مقاومتها ومحاصرتها

---

(١) ذكر السمهودى فى وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٤٥ أن محصول الوقف لم يصل إلا فى سنة ٨٨٩هـ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٣٣ ، عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى فى ذيل إتحاف الورى ، حوادث سنة ٨٨٦هـ ، ابن طولون : تاريخ ابن طولون ، ورقة ١١ب ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، جـ٣ ص ١٨٧ ، النهروالى : الأعلام بأعلام بيت الله الحرام ، ص ٢٢٧ .

(٣) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٣٣ . وزاد عبد العزيز بن فهد فى بلوغ القرى حوادث سنة ٨٨٦هـ أن الصاعقة نزلت أولا على جبل أحد ثم طارت منها شرارة نزلت على المئذنة الرئيسية .

(٤) عبد العزيز بن فهد : المصدر السابق ، حوادث سنة ٨٨٦هـ .

ما يتفق في بعض الوجوه مع العوامل التي حالت دون محاصرة الحريق الذي داهم المسجد النبوي في سنة ٦٥٤هـ، فقد اتضح من المصادر التي طالعت السمهودي بالخبر الموثوق عن ذلك الحريق ، أن النار قد بدأت قبل اسراج المسجد [١]، مما يدل على خلو المسجد آنذاك من المصلين إلا المؤذنين الذين كانوا بأعلى المنائر ، وبعض الخدام الذين كانوا يقومون بوظيفة الحراسة في المسجد ، وبين المناداة بالحريق وقيام الناس بمحاصرته كانت النار قد أتلفت جزءا كبيرا من سقوفه وامتدت إلى الشمال « والمغرب ، فعجزوا عن إطفائها ، وكلما حاولوا لم تزدد إلا التهابا واشتعالا فحاولوا قطعها بهدم بعض ما أمامها من السقف فسبقتهم لسرعتها »[٢]. ومرد إخفاقهم رغم جهودهم وتفانيهم قصور إمكانياتهم آنذاك[٣]، وارتفاع السقوف التي لا تطال بالأيدي [٤] ولا بد أن ساعد ذلك أيضا زيوت القناديل التي كانت مهية للإسراج فانتشرت النار بسرعة داخل أروقة المسجد ومجنباته ، وذلك بالإضافة إلى حدوث ذلك في آخر الليل الذي اشتد سوادا بالدخان المتصاعد من النار الملتهبة مما أودى بحياة الكثير من الذين حاولوا التغلب عليها .

ومهما قيل من أسباب خفية لوقوع ذلك الحريق ، وما صاحبه من حكايات غريبة تتناسب ونمط التفكير في ذلك الوقت ، مما لم يعد مقبولا للفكر الحديث[٥]، الذي يوجب البحث عن الأسباب العلمية الكامنة وراء الأحداث

---

(١) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٣٣ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٣٣ .

(٣) لم تكن وسائلهم في مكافحة الحريق تتجاوز جلب الماء في أوان صغيرة كالقرب وغيرها من المطاهر والبيوت المجاورة كما صرح بذلك السمهودي في المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٣٤ ، والنهروالي في الأعلام ، ص ٢٢٧ .

(٤) ذكر السمهودي في المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٨٥ أن أرتفاع سقوف المسجد بعد الحريق الثاني كان ٢٢ ذراعا ولا بد أن الأمر كان قريبا من ذلك قبل الحريق .

(٥) أورد ابن إياس في بدائع الزهور ، جـ٣ ص ١٨٨ ، مجموعة من أبيات الشعر التي تحاول تفسير سبب الحريق بما يشبه تفسيرهم لوقوع الحريق الأول سنة ٦٥٤هـ . وأورد السمهودي في وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٣٤ ، ما سمعه من أمير المدينة في ذلك الوقت من رؤية أحد الأعراب لجراد منتشر في السماء أعقبه نار عظيمة « فأخذ النبي ﷺ النار وقال : أمسكها عن أمتي » . ثم =

الطبيعية المماثلة . وكما يقع عادة من تعرض المباني العالية لمثل هذه الصواعق فإن الارتفاع الكبير لمنارات المسجد آنذاك[١] عن بقية منازل المدينة ، التي لا يمكن أن منها ما كان يرتفع إلى مستوى منارات المسجد ، قد عرضها للصاعقة المذكورة[٢].

وفي تعرض هذه المنارة في حدود سنة ٨٩٨ هـ لحادثة مشابهة دليل على صحة ما ذهبت إليه . واستطاعت النار التغلب على المحاولات المبذولة لإطفائها ، ودمرت في وقت قصير على حد قول السمهودي في « أقل من عشر درج »[٣] جميع سقوف المسجد الشريف وحواصله وأبوابه وما فيه من خزائن الكتب والربعات والمصاحف[٤] واتلفت الكثير من إسطواناته ما عدا « الأساطين اللاصقة بجدار الحجرة »[٥] وهدمت أكثر من ثلث المنارة الرئيسية . وليس بنا حاجة إلى إعادة ترسم حال المسجد الشريف قبل هذا الحريق لأن عمارة قايتباى الأولى ، التي تتبعتها بالتفصيل والتي لم يكن قد مضى عليها أكثر من خمسة أعوام ، قد عادت به كما

= قال في نفس الصفحة « ونقل عن جمع كثير أنهم شاهدوا حينئذ أشكال طيور بيض كالأوز يحومون حول النار كالذي يكفها عن بيوت الجيران » . وقال في موضع آخر « وصارت النار ترمي بشرر كالقصر فتسقط بالبيوت المجاورة للمسجد ، ومع ذلك فلا تؤثر فيها ، حتى سقط بعض الشرر على سعف فلم يحترق .. » وعن هذا واشباهه انظر ابن طولون في تاريخه ورقة ١٢ أ ، وابن حجر الهيثمي في تحفة الزوار ، ص ٩٣ ، والعباسي في عمدة الأخبار ، ص ١٣٥ . ولو أن الأمر كما يقول هؤلاء لكان المسجد الشريف وما به من الآثار الشريفة أولى بالحماية من البيوت المجاورة.

(١) كان طول منارات المسجد قبل هذا الحريق كما ذكرها السمهودي في الوفا ، جـ٢ ص ٥٢٧ كالتالي : الرئيسية التي وقع بها الحريق ٧٧ ذراعا أي حوالي ٣٨,٥ من الأمتار ومنارة باب السلام ٩٥ ذراعا أي حوالي ٤٧ مترا والسنجارية ٧٩ ذرعا أي حوالي ٣٩,٥ مترا ، والخشبية ٧٢ ذراعا أي حوالي ٣٦ مترا .

(٢) وليس في ذلك ما يتعارض وما تعنيه بعض الآيات الكريمة ومنها قوله تعالى : ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون ﴾ .

(٣) ذكر إبراهيم مصطفى وآخرون في المعجم الوسيط ، جـ١ ص ٣٧٧ أن الدرجة « جزء من ثلثمائة وستين جزءا من دورة الفلك » أي حوالي ساعتين ونصف .

(٤) السمهودي : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٣٥ ، السخاوي : التحفة اللطيفة جـ١ ص ٧٥ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ٣ ص ١٨٧ .

(٥) السمهودي : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٣٦ ، السخاوي : المصدر السابق ، جـ١ ص ٧١ .

عرفنا من قبل إلى صورة أفضل بكثير مما كان عليه من قبل . على أن حجم الخسارة التى سببها حريق سنة ٨٨٦هـ كان فى الواقع أقل بكثير مما دمره الحريق الأول ، بسبب الاختلاف الكبير فى عمارة المسجد النبوى قبل الحريقين ، كما أن بيع الكثير من قناديل المسجد فى العمارة الأولى التى قام بها قايتباى سنة ٨٨١هـ ورفع ما تبقى منها فى حاصل المسجد الشريف ، وسلامة القبة المشيدة فوق الحجرة الشريفة هى فى الواقع اعتبارات هامة لها وزنها عند تقدير الخسائر فى حادثى حريق ٦٥٤هـ ، ٨٨٦هـ . ولولا الخسائر البشرية التى راحت ضحية الحريق الثانى والتى قدرت « ببضع عشرة نفسا »[1] لكانت الخسارة الفنية والجمالية التى ترتبت على الحريق الأولى أغلى بكثير مما نجم من خسارة فى الحريق الثانى . إلا أن تعطيل المسجد النبوى من الصلاة وحرمان الناس من السلام على رسول الله ﷺ يرقيان فى الحالتين فوق كل الاعتبارات المادية مهما غلا ثمنها .

ولم يقف سكان المدينة المنورة حيال الحادث الذى حل بالمسجد النبوى موقفا سلبيا ، بل كان لهم دور بارز فى تنظيف آثار الحريق الذى حال دون أداء شعائر الصلاة فى أروقة المسجد ورحابه . وكانت مطالعة السلطان قايتباى بأمر الحادث من أول الأعمال التى قام بها أهل المدينة فى اليوم السادس عشر من شهر رمضان المذكور[2] . ورأوا من الواجب أن يشرعوا فور إطفاء النار فى رفع آثارها ، غير أن ناظر المسجد النبوى المقيم فى المدينة المنورة آنذاك أصر بما له من سلطة قوية على ترك الردم حتى ترد الأوامر إليه من مصر بما يجب عليه فعله ولكنه لم يلبث أن

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٣٤ ، وقد ترجم السخاوى فى التحفة اللطيفة لكثير منهم. انظر جـ١ ص ١٧٦ ، جـ٢ ص ١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، جـ٣ ص ٥٠ ، ٣٠٧ .

(٢) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٣٦ ، ويذكر ابن إياس فى بدائع الزهور ، جـ٣ ص ١٨٨ « أن مما كتب فى المحضر أن المؤذن لما طلع على المئذنة الشرقية ، لأجل التسبيح ، فرأى صاعقة عظيمة نزلت من السماء على المسجد الشريف ، فعملت فيه النار . فلما عاين المؤذن ذلك خرس ونزل من المئذنة ، فأقام ساعة ومات . وقد عاين الناس عدة أطيار بيض بأعناق طوال طائفة حول المسجد ، تمنع أن لا تحرق البيوت التى حول المسجد . وإن المسجد جميعه قد احترق حتى صار كالتنور .

اقتنع بعد فترة أن ما أمر به فيه إجحاف بحق المصلين والزائرين والمجاورين الذين حرموا من ثواب الصلاة والاعتكاف في شهر رمضان المبارك فى المسجد الشريف ، مما دعاه إلى قبول اتفاقهم معه على « سد أبواب حواصل المسجد حتى القبة التى بوسطه »[1] ، وإحاطة الحجرة الشريفة بحاجز من الأجر خوفا على القناديل التى كانت بسقفها[2] .

وبعد انجاز ما تم الاتفاق عليه قام أهل المدينة بنقل « هدم مقدم المسجد إلى ما يلى باب الرحمة من مؤخرة ، وعمل فى ذلك أمير البلد والقضاة والإشراف وعامة الناس حتى الكثير من النساء والأطفال »[3] واستبقوا فى أبواب المسجد خوخا وسدوا الباقى بالآجر ما عدا باب جبريل فقد بقى على حاله[4] ، وهيأوا منبرا من الأجر وضعوه فى مكان المنبر النبوى الشريف .

ولم ير السمهودى للزمن الذى استغرقه ذلك العمل أهمية تذكر فأعرض عن ذكره ، ومهما يكن فقد كان القائمون به يرجون فيه ثواب الله ، ولم يكن يضيرهم طول الزمن أو قصره ولكن ما ذكره السمهودى من تفقدهم لبقايا النار فى الردم المحيط بالحجرة الشريفة فى أثناء شوال بناء على مشورة قاضى المالكية شمس الدين السخاوى[5] يشير إلى تجهيز المسجد النبوى للصلاة فى الثلث الأول من شوال المذكور ولكن حرارة الشمس فى النهار وربما برد الليل دعا الخدام إلى نصب الخيام فى المسجد وتطوع بعض الناس بإسراج عدة قناديل من عنده بعد تعذر فتح الحاصل الذى فيه الزيت[6] وبقى المسجد الشريف وقتا من الزمن على هذا الحال حتى أشار السخاوى كما ذكرت بوجوب تفقد الردم المحيط بالحجرة .

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٣٦ ، يبدو من الكلام المذكور أن هناك حواصل كثيرة فى المسجد النبوى . ولكن المعروف أن ما سلم هو القبة التى بوسط الصحن ، فلعل قصده هو المحافظة على ما كان بهذه الحواصل من قناديل وغير ذلك .

(٢) و (٣) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٣٦ ، ٦٣٧ .

(٤) و (٥)

(٦) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٣٧ .

وقد وجدت النار « فى ثمانية مواضع فأطفأوا ذلك ، ثم رأوا أن مادة هذه النار لا تنقطع إلا بتنظيف الردم . فاجتمعت الآراء على ذلك بعد توقف تام من نائب الناظر . وعينوا لتعاطيه من يثقون به من الخدام والفقهاء والفقراء »[١] وقد وجدوا القناديل المذكورة وكذلك حلية الصندوق المحترق الذى كان حذاء الرأس الشريف . على أن هذه الأشياء ، رغم اهتمام نائب الناظر بها ، أقل بكثير جدا من قدسية المكان الذى عطل فترة من الزمن بسببها[٢] ، وفى هذا دليل على جمود نائب الناظر ، وسوء تصرفه ، ومدى النفوذ الذى كان يتمتع به فى المدينة ، وليس أدل على سوء عمله هذا من وصف السمهودى له بأنه « على كل خير مانع » . وكان بإمكانه العمل على جمعها من أول الأمر ، إلا أن حرصه المفرط عليها عد تقصيرا من جانبه .

ومهما يكن من أمر هذه المركزية التى كانت تدار بها أمور الحرم النبوى الشريف فى ذلك الوقت ، فإن أهل المدينة « أداروا على الحجرة الشريفة جدارا من الآجر فى موضع المقصورة المحترقة ، وجعلوا فيها شبابيك وطاقات وأبوابا ، وقام بمصروف ذلك بعض النساء المباركات وغيرها ، وسامح البناؤون بنصف أجرهم »[٣] . وقد تقدم ذكر سلامة القبور الشريفة بوجود القبة المنشأة فى سنة ٨٨١هـ على الحجرة الشريفة ، إلا أن إحتراق الكسوة أتاح للنساء اللاتى قمن بدفع نفقة البناء من مالهن الخاص ، صنع كسوة من القماش الأبيض غطيت بها جدران الحجرة بعد انتهاء العمل

وبعد تلك الأعمال الأولية أصبح المسجد النبوى الشريف معداً للصلاة طوال شهر شوال وجزء من ذى القعدة حتى اتصل خبر الحريق بالسلطان المملوكى الأشرف قايتباى ، الذى عد ذلك من نعم الله عليه ، رغم قساوة وقع الخبر على نفسه ، وإدراكه فداحة الخسارة من جانبيها المعنوى والمادى ، وقد استجابت عبراته

---

(١) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٣٧ .

(٢) انظر أعلاه ص ٣٢٢ .

(٣) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٣٧ .

لهول الحادث إذ يذكر ابن إياس أن السلطان عندما سمع ذلك « بكى وبكى من كان حوله »[١]، ثم رسم على الفور بتنظيف المسجد من آثار الحريق . ولم تذكر المصادر التى اطلعت عليها تاريخ وصول الخبر إلى السلطان فيما عدا ما ذكره ابن إياس من وصول الخبر إلى القاهرة فى رمضان وهو الشهر الذى احترق فيه المسجد[٢] .

وكان يرجى لو أشار السمهودى أو غيره إلى تاريخ صدور المرسوم بتنظيف المسجد النبوى من آثار الحريق الذى جمع بعضه كما عرفنا من قبل عند باب الرحمة مما كان سيساعد بشكل أفضل على تحديد بدء الأعمال السلطانية فى المسجد الشريف . على أنه يستنتج مما ذكره السمهودى من عدم إخراج ردم الحريق بعد نقله لمؤخر المسجد حتى حضر الحجاج من سائر الآفاق للزيارة وشاهدوا هذه العبرة العظيمة ، ورأوا ما اجتمع من الردم كالاكام والتلول الجسيمة »[٣]، أن أعمال التنظيف ومن بعدها العمارة الفعلية لم تبدأ إلا بعد انتهاء موسم الحج لعام ٨٨٦هـ حرصا على عدم تعطيل المسجد الشريف بقيام الأعمال فيه فى ذلك الوقت بالذات .

وجاء أن السلطان استقبل « أمر العمارة بهمة تعلو الهمم العلية ورسم بإبطال عمائره المكية ، وبتوجه شادها السيفى الأمير سنقر الجمالى[٤] صحبة الحاج الأول بزيادة على مائة صانع من البنائين والنجارين والنشارين والدهانين والحجارين والنحاتين والحدادين والمرخمين وغيرهم »[٥]. ويبدو أن أول ما عنى به الأمير سنقر

---

(١) بدائع الزهور ، جـ٣ ص ١٨٨ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٣ ص ١٨٧ . وقد ذكر عبد العزيز بن فهد فى بلوغ القرى ، حوادث سنة ٨٨٦هـ . وصول الخبر إلى مكة فى العاشر من شهر شوال . أى بعد وصوله إلى القاهرة بفارق كبير . وهو أمر بعيد جدا لأن البعد بين مكة والمدينة أقصر بكثير من البعد بين المدينة والقاهرة . فلعل هذا خطأ من الناسخ أو أن الخبر لم يصل المؤرخ نفسه إلا فى التاريخ المذكور .

(٣) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٣٨ .

(٤) انظر ترجمته عند السخاوى : التحفة اللطيفة ، جـ٢ ص ١٩٧ .

(٥) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٣٩ .

ومن كان معه من أصحاب الحرف المختلفة هو تنظيف المسجد بإخراج بقايا الحريق المتراكمة في جنباته ، بدليل إصطحابهم لكثير من الحيوانات . ويظهر أن بعض الأموال التى قدرها السمهودى بعشرين ألف دينار كانت من نفقات العمائر التى أوقفت فى مكة . وبدأ السلطان من جانبه يعد العدة لأمر العمارة ، ويبحث عن أمهر البناة والمهندسين ، ويتتبع وجودهم فى الأماكن المختلفة من مملكته الواسعة فقد ذكر ابن طولون فى تاريخه أن السلطان رسم بأن يكون شاد العمارة المذكورة «خير بك حديد[1] الذى كان محبوسا بقلعة دمشق فجاء وقال هذه عمارة طويلة واستمر منفيا بمكة فواخذناه عليه[2] فإن ذلك يدل على سوء طويته »[3]. وذكر فى موضع آخر ورود أمر السلطان إلى دمشق بأخذ « جماعة من الصناع الذين عمروا الجامع الأموى منهم محمد الكفتى الذى شاد منار الجامع الأموى فى عمارته »[4].

وكان السلطان قايتباى يبحث عن الفعلة وعن المادة اللازمة للعمارة فى آن واحد فقد ذكر السمهودى أن السلطان شرع « فى تجهيز الآلات والمؤن حتى كثرت فى الطور والينبع والمدينة الشريفة »[5]. ولم يكتف بما وصل منها إلى الأماكن المذكورة بل جاء فيما ذكره مؤلف بلوغ القرى أنه ورد فى ربيع الثانى سنة ٨٨٧هـ إلى مكة مرسوم سلطانى موجه إلى إبراهيم بن أخى الخواجا شمس الدين بن الزمن الذى كان يقيم بمكة « أن عمك الخواجا شمس الدين توجه إلى المدينة الشريفة لمباشرة العمارة بها وأنك والحاج بدر فتى عمك تشترون الخشب وجميع ما يطلبه عمك من الخشب وإننا وصينا الشريف والقاضى فى

(١) قال السخاوى فى ترجمته فى المصدر السابق ، جـ٢ ص ٢٨ أن اسمه « خير بك بن حيث لا حديد كما هو على الألسنة » .

(٢) يعنى استنكرنا قوله ، ويبدو أن عمله هذا كان انتقاما من قايتباى .

(٣) تاريخ ابن طولون ، ورقة ١٢ أ .

(٤) نفس المصدر ، ورقة ١١ ب . وكانت تلك عادة مرعية فى جميع أنحاء البلاد الإسلامية الذى طبق نظام الليتورجيا المعمول به فى العالم القديم . انظر أعلاه ص ١٣٣ .

(٥) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٣٩ .

إعانتكم»[١] وكان وصول المؤن والآلات يتوالى إلى المدينة تباعا على يدى موظفين مكلفين بذلك من قبل السلطان . وكما يتضح من نص ابن طولون السابق كان غضب السلطان شديدا على اعتذار خير بك الدال كما يقول المؤلف على « سوء طويته » ، مما دعا السلطان قايتباى إلى إسناد أمر العمارة إلى الأمير شمس الدين بن الزمن الذى قام بأمر العمارة الأولى وذلك بعد تجهيزه « فى أثناء ربيع الأول وصحبته أكثر من مائتى جمل ومن مائة حمار وأزيد من ثلثمائة من الصناع أهل الصنائع الأولى وغيرهم من الحمالين والمبيضين والسباكين والجباسين» [٢] وصرفوا لهم شيئا من أجرتهم قبل سفرهم . وقد تواجد من العمال الوافدين إلى المدينة بموجب المراسيم السلطانية أكثر من أربعمائة شخص من مختلف المهن والأعمال .

وإذا جاز لنا أن نعتبر الزمن الفعلى لبداية العمارة منذ وصول ابن الزمن إلى المدينة وقد جهز فى مصر أثناء ربيع الأول فإن وصوله يكون فى أواخر ربيع ثانى كما يفهم من النص الذى أورده عبد العزيز بن فهد من أن الأخبار وصلت إلى مكة فى السابع عشر من شهر ربيع الثانى « بأن الخواجا شمس الدين ابن الزمن وصل إلى الينبع ومعه القاصد ومعه خلعته وتوجه إلى المدينة الشريفة مشرفا ومتكلما على عمارة المسجد الشريف النبوى »[٣] . وعلى هذا بقى المسجد الشريف معطلا دون عمارة أكثر من ستة أشهر وهو زمن يتناسب والإمكانات الضخمة التى أعدت لهذه العمارة .

* * *

(١) عبد العزيز بن فهد : حوادث سنة ٨٨٧هـ .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٤٠ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ٣ ص ١٨٨ ، ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار ص ٩٤ .

(٣) عبد العزيز بن فهد : بلوغ القرى ، حوادث سنة ٨٨٧هـ .

ب - الأجزاء السليمة من العمارة السابقة :

لا سبيل للإحاطة بتفاصيل الأعمال التى تمت فى عمارة المسجد الشريف بعد الحريق الثانى ، إلا بمعرفة الأجزاء المعمارية التى سلمت من آثار الحريق المذكور . وتأتى الإسطوانات التى تنتشر فى أروقة المسجد الشريف فى مقدمة الأجزاء الهامة التى يعد وجودها ضروريا فى تسقيف المساحة الكبيرة للأروقة ، وقد عرفنا عند الحديث عن عمارة المسجد فى عهد المهدى أن عدد إسطوانات المسجد الشريف ٢٩٦ إسطوانة [١] أما بعد الحريق الأول فقد نقص من هذا العدد عشر إسطوانات فأصبحت جميعها ٢٨٦ إسطوانة وذلك عندما أنقص الظاهر بيبرس من بلاطات مؤخر المسجد بلاطة واحدة . ثم زاد الناصر محمد بن قلاوون بلاطتين فى مقدم المسجد وبها عشرون إسطوانة ولذلك فإن عدد إسطوانات المسجد قبل الحريق الثانى كانت ٣٠٦ إسطوانة ، وقد ذكر السمهودى أنه تلف منها « مائة وبضع وعشرون إسطوانا ، وما بقى منها فقد أثرت فيه النار أثرا بينا »[٢]. ويبلغ عدد الإسطوانات السالمة قرابة مائة وثلاث وثمانين إسطوانة [٣] ليس منها ما نص على سلامتها تماما سوى «الأساطين اللاصقة بجدار الحجرة »[٤] وهن فى الغالب أربع إسطوانات . ومع ذلك فإن الإسطوانات التالفة تضم فى مجموعها قطعا كثيرة سالمة ، يمكن أن تؤلف بعد فحصها واختيار الصالح منها عددا لا بأس به من الإسطوانات .

ويمكن أن يستنتج من ذلك أن عبء العمل على الحجارين والنحاتين كان عبئا كبيرا لا يقل عما يقوم به غيرهم من الحرفيين . ومما يزيد فى عبء الدور المنوط بهم أنهم مطالبون بالتزام المقاس الذى تتميز به القطع التى تؤلف

---

(١) انظر أعلاه ص ١٦٧ .

(٢) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٣٦ .

(٣) إذا أنقصنا الاسطوانات التالفة التى قال السمهودى أنها مائة وبضع وعشرون أى حوالى ١٢٣ من اسطوانات المسجد البالغ عددها ٣٠٦ اسطوانة فان الباقى هو ١٨٣ إسطوانة تقريبا .

(٤) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٣٦ .

الإسطوانات السليمة حتى يكون حجم جميع إسطوانات المسجد واحدا .

ويذكر السمهودى أن القبة التى أنشأها الأشرف قايتباى سنة ٨٨١هـ فى العمارة الأولى ظلت سليمة بعد الحريق[1]. وكان لها دور كبير فى حماية القبور الشريفة من ردم السطوح وبقايا القبة الزرقاء المحترقة . ومن المنشآت الهامة التى نجت من دمار الحريق ، تلك القبة التى أقامها الخليفة العباسى سنة ٥٧٦ هـ فى طرف الصحن الجنوبى الشرقى ، والتى كان لبعدها النسبى عن الأجزاء التى تكثر بها الأخشاب الملتهبة فضل فى سلامتها من الحريق الأول والثانى مع أنها كانت تحتوى على زيت قناديل المسجد وهو مادة كانت تزيد الوضع سوءا ، لو تمكنت النار منها .

أما العقود التى كانت تقوم فى أجزاء متفرقة من بلاطات المسجد النبوى والتى تعود فى تاريخها إلى عهود مختلفة ، فقد سقط أكثرها وما بقى منها فقد كان آيل إلى السقوط [2]. ويذكر السمهودى أنه كان لهذه العقود ، لا سيما المحدثة فى بلاطات القبلة فى عمارة قايتباى الأولى ، دور بارز فى تلف كثير من الإسطوانات المجاورة لها بسبب سقوطها عليها[3].

وعن جدران المسجد الخارجية فإنه يبدو أنها سلمت من الإنهيار والتشقق إذ لم يذكر السمهودى أو غيره ما يشير إلى إصابتها بأضرار مباشرة .

أما تجديد جدار القبلة عند بدء العمارة التالية فقد كان بناءاً على رغبة المهندسين فى زيادة عرضه من ناحية وتوسيع دخلة المحراب العثمانى من ناحية أخرى ، وما اقتضاه الرأى من هدم المنارة الرئيسية إلى آخرها من ناحية ثالثة . وعمل ابن الزمن على استحداث شبابيك وطاقات كثيرة بأصل هذا الجدار تمهيدا لما كان يقصده من اتخاذ الدور الواقعة خلف جدار القبلة والمعروفة بدور العشرة

---

(١) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٣٦ . وانظر ابن إياس : بدائع الزهور جـ٣ ص ١٨٧ ، ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار ص ٩٣ .

(٢) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٣٦ .

(٣) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٤٢ .

مدرسة ورباطا للسلطان قايتباى على أن المعارضة القوية التى قوبل بها قد أجبرته على سد أغلب الشبابيك وهدم الجدار الغربى الممتد من باب السلام إلى باب الرحمة من أساسه وفتح عدة شبابيك وأبواب فيه . وهدم كذلك الجدار الشرقى الممتد من المنارة الرئيسية إلى باب جبريل وخرج به عن موضعه الأول قليلا .

وعلى هذا فإنه بمقدرنا فى ضوء ما سبق من معلومات حصر العناصر المعمارية التى سلمت من الحريق وأدخلت فى مكونات العمارة الثانية دون تغيير يذكر[1] مما يفيد عند الحديث عن عمارة المسجد النبوى بعد الحريق الثانى . وهذه العناصر هى:

١ ـ منارات المسجد الثلاث (منارة باب السلام ، والمنارة السنجارية ، والخشبية)[2].

٢ ـ أكثر من نصف جدران المسجد الخارجية

٣ ـ أقل من نصف إسطوانات المسجد الشريف .

٤ ـ قبة الحجرة الشريفة السفلى .

٥ ـ قبة حاصل الحرم الشريف .

جـ ـ صفة عمارة قايتباى الثانية :

تنقص هذه العمارة معرفة كثير من التفاصيل الهامة فى أجزائها المختلفة ومرد ذلك إلى أن السمهودى المصدر الأول فى كثير من المعلومات السابقة قد غادر المدينة المنورة عند بداية العمل إلى مصر ، فلم يحضر شيئا من مراحل البناء الأولى[3]. على أنه تتبع أخبارها عند عودته ، ووصف لنا ما تم من عمارة المسجد أثناء غيبته ، وذلك بشكل يختلف عن المنهج الذى تعودناه منه فى العمارة الأولى ، مما يدعو إلى كثير من النقاش والاستفسار عن عدد كثير من التفاصيل المعمارية .

---

(١) هذا خلاف أعمال التبييض وأعمال الترميم التى شملتها مؤخرا .

(٢) عن مواقع هذه المنارات من المسجد ، انظر الشكل رقم (٥١) .

(٣) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٤١ .

وكان السمهودى قد لاحظ على العمال قبل سفره ارتفاع معنوياتهم الصادقة وحماسهم للعمل فيه بنية مخلصة رجاء المثوبة والأجر من الله تعالى . وكان استمرار السلطان بتزويدهم بأحمال المؤن التى « قل أن تنقطع برا وبحرا »[١] من العوامل التى ساعدت المسئولين فى المدينة على استثمار حماس العمال فى تدبير الأعمال الكثيرة دون انقطاع . وكان فى مقدمة الأعمال التى ذكرها السمهودى هدم المنارة الرئيسية وسور المسجد « من ركن المنارة التى بباب السلام إلى آخر جدار القبلة وما يليه من المشرق إلى باب جبريل وما يلى المنارة من المغرب أيضاً إلى باب الرحمة »[٢] ولم تكن هذه الأعمال إلا جزءا من تقسيمات تمت بين مختلف الحرفين الذين يخضعون لإدارة ابن الزمن . فقد عرفنا من قبل ما نتج عن الحريق الثانى من نقص واضح فى عدد الإسطوانات التى كانت بأروقة المسجد النبوى الشريف ، مما حمل ابن الزمن على تخصيص عدد كبير من الحجارين ومعاونيهم لقطع العدد الكافى من الخرزات المثقوبة ، وقد أوضحت من قبل جسامة العمل الذى نيط بهم[٣] . يضاف إلى ذلك إعداد الخشب الذى تطلبته العمارة والذى يقول عنه السمهودى أن العمال قطعوا من نواحى المدينة كثيرا من أخشاب الدوم[٤] « من الموضع المعروف بالشقرة[٥] ومن الصويدرة[٦] ومن

---

(١) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٤٠ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٤٠ .

(٣) انظر أدناه ص ٣٢٨ .

(٤) « الدوم شجر عظام من الفصلية النخيلية يكثر فى صعيد مصر وفى بلاد العرب ، وله ثمار فى غلظ التفاحة ذات قشر صلب أحمر ، ونواة ضخمة ذات لب ، وضخام الشجر مطلقا من كل نوع » انظر إبراهيم مصطفى وآخرين : المعجم الوسيط ، جـ١ ص ٣٠٥ .

(٥) الشقرة : موضع على بعد يومين من المدينة ، انظر السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٤ ص ١٢٤٥ .

(٦) قال ياقوت الحموى فى معجم البلدان ، جـ٥ ص ٤٣٥ أن صوير ، وذو الصوير موضع من عقيق المدينة . ووافقه الفيروزبادى فى المغانم المطابة ص ٢٢٤ ، والسمهودى فى وفاء الوفا ، جـ٤ ص٦٤٥ عند ترتيبه للمواضع على حروف المعجم . أما الصويدرة التى وردت فى وفاء الوفا، جـ٢ ص ٦٤٥ فلم أجد لها ذكرا فلعلها خطأ فى النسخة المخطوطة التى وقعت للمحقق وتصحيحها الصوير أو الصويرة .

الفرع[١] وغير ذلك ما لا يحصيه إلا الله تعالى . وكذلك أخشاب السمر »[٢] ويقتضى قطع الأخشاب من المواضع المذكورة ونقلها إلى المسجد لاستخدامها فى أعمال البناء عددا كبيرا آخر من العمال .

ولا بد أن العدد الكبير من قوالب الأجر المشوى الذى تطلبه بناء العقود التى عم استخدامها لجميع سقوف مقدم المسجد ، قد استوجب أيضا تخصيص فريق من العمال لتجهيزه وعلى ذلك كانت مهمة البنائين ومساعديهم تقتصر على الهدم والبناء داخل المسجد الشريف ، ولا يبعد أن يكونوا قد استعانوا بغيرهم من عمال المدينة المحليين .

ولم يزودنا السمهودى أو غيره بمعلومات كافية عن أول الأعمال التى بدئ بتنفيذها ، ومع ذلك يمكن القول بأن إعادة القبة الزرقاء كانت من أول الأعمال التى بدىء بها وقد نتج عن اتفاقهم على استحداث أكتاف عريضة تقام عليها القبة المذكورة « ضيق المسجد من جهة المشرق بسبب ابتناء تلك الدعائم هناك ، فخرجوا بجدار المسجد الشرقى - أعنى ما حاذى ذلك منه - بنحو عرض الجدار فى البلاط الشرقى »[٣]. وقد حدد مكتب التوسعة السعودية هذه الزيادة بـ ١٢٠م٢[٤].

وإذا كان قد عرف السبب فى هدم الجدار الشرقى الممتد من باب جبريل إلى جدار المنارة الرئيسية ، التى هدمت فى هذه العمارة ، فإن هدم جدار القبلة الممتد «من ركن المنارة التى بباب السلام إلى آخر جدار القبلة ... وما يلى المنارة من

---

(١) ذكر السمهودى فى المصدر السابق ، جـ٤ ص ١٢٨١ أن الفرع على مرحلة من المدينة « وقيل أنه عمل من أعمال المدينة واسع ، به مساجد للنبى ﷺ ومنابر وقرى كثيرة وقيل على ثمانية برد من المدينة وبها منبر (مسجد جمعة) ونخل ومياه كثيرة وهى قرية غناء كبيرة » .

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص ٦٤٥ . وخشب السمر ضرب من شجر الطلح ذكره إبراهيم مصطفى وآخرون فى المعجم الوسيط جـ١ ص ٤٥٠ .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٤٠ .

(٤) إبراهيم الشورى : جلالة الملك سعود والحرمين الشريفين جـ١ ص ٤٣ .

المغرب أيضا إلى باب الرحمة[١]. يحتاج إلى تقصى أسبابه التى أهملت ذكرها المصادر التى إطلعت عليها . فإذا أخذنا بعين الاعتبار عمق رواق القبلة الذى يتألف من سبع بلاطات ، وإجماع الرأى على تقصير إسطوانات مقدم المسجد المسقوف بسقفين تمهيداً لإقامة العقود المقترحة فوق رؤوس الإسطوانات ، مماله تأثيره بغير شك على التهوية والإضاءة الكافية فى جميع بلاطات الرواق ، لإتضح أن حاجة مقدم المسجد إلى نوافذ واسعة بأعلى الجدارين المذكورين كان سببا رئيسيا أوجب هدمها . أما الأسباب الثانوية أو المساعدة فمنها رغبة ابن الزمن فى بناء مدرسة الأشرف قايتباى بجوار الجدار القبلى من المسجد النبوى الشريف . وقد استحدث لأجلها كثير من الشبابيك[٢] بالجدار القبلى ، ثم اقتضى الأمر سدها وفتح غيرها فى الجدار الغربى بين باب السلام وباب الرحمة وذلك بسبب ما نشأ عنها من معارضة قوية[٣]. كما أن تعميق وتوسيع فتحة المحراب العثمانى وهدم المنارة الرئيسية وما يليها من الجدارين الشرقى والجنوبى ، تعد أسبابا ثانوية تضافرت مع السبب الرئيسى فى استكمال هدم الجدران الثلاثة[٤] وتجديد بنائها بنفس الأحجار القديمة بعد زيادة سمكها قليلا عما كانت عليه أولا . وقد بلغ الحرص فى الاستفادة من سمك الجدران المجددة إلى استحداث خزائن للكتب بأصل الجدار الشرقى « وطاقات كبار كالأبواب المقنطرة فى أعالى الجدار وطاقات متسعة مستديرة أيضا تكثيرا للضوء » [٥].

واستحدثت طاقات أخرى مستديرة فى الجدار القبلى ، غير أنه عدل بعد ذلك عن كثير من هذه الفتحات فسدت « بفصوص الأحجار كنسبة بناء الجدار ، وسد أيضا الطاقات التى بالجدار القبلى إلا ما يحاذى القبة التى على المحراب العثمانى .

---

(١) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٤٠ .

(٢) ذكر السمهودى فى المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٤٣ أن هذه الفتحات « ثلاثون فتحة » .

(٣) انظر أدناه ص ٣٣٤ وما بعدها .

(٤) هى الجدار الشرقى إلى قرب باب جبريل والجدار الجنوبى كله والجدار الغربى من باب السلام إلى باب الرحمة .

(٥) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٤٢ .

فجعل لها ولما بقى من الطاقات قمريات من الزجاج[١] وشبكات من شريط النحاس»[٢]. وكان ذلك بعد الاعتراض على المدرسة التى كان ابن الزمن قد اعتزم إحداثها مكان الدور المجاورة لمقدم القبلة والتى كانت تعرف بدور العشرة . ويذكر السمهودى أن السلطان استفتى علماء مصر فى ذلك فأفتوا بالمنع[٣] وقال ابن إياس فى حوادث شعبان سنة ٨٨٧هـ أن الأخبار وردت من المدينة الشريفة « بأن السلطان أنشأ هناك مدرسة وجعل لها شبابيك مطلة على الحرم النبوى فقامت على السلطان الأشلة[٤] بسبب ذلك ، وأفتى بعض العلماء بأن ذلك لا يجوز ، فإن حرمة النبى ﷺ وهو ميت كحرمته وهو حى . وقد أجاز ذلك بعض علماء الجاه»[٥] على أن السلطان آثر إقامة المدرسة فى الجانب الغربى بين باب السلام وباب الرحمة .

ويدل استكمالهم بناء جدار القبلة فيما يعلو النوافذ التى استحدثت به بالأجر على ما صرح به السمهودى[٦]، على نقص الأحجار التى كانت بأصل هذا الجدار قبل هدمه . وذلك بسبب زيادة سمك مداميك الجدران المجددة ، وعلو المنارة الرئيسية التى بلغت فى هذه العمارة مائة ذراع[٧]، والخروج بالجدار الشرقى قيلا ، بالإضافة إلى أن الأجر المتوفر يسهل بناء عقود الفتحات والشبابيك التى استحدثت بجدار مقدم المسجد الشرقى والغربى والجنوبى .

---

(١) يعرف زكى محمد حسن فى فنون الإسلام ص ٦١٢ القمريات بأنها جمع قمرية وأنها تعرف بالشمسية وأنها نافذة صغيرة من الجص المفرغ تسد فتحاته بزجاج ملون وتؤلف هذه الفتحات زخارف إسلامية من فروع نباتية أو زخارف هندسية ورسوم معمارية أو كتابات .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٤٣ .

(٣) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٤٣ .

(٤) لم أجد لها معنى فى القواميس العربية ولا فى المعجم الذى جعله دوزى مضافا إلى القواميس العربية ولعل المقصود بذلك كما يفهم من سياق المعنى أن المعارضة كانت شديدة على السلطان الأشرف .

(٥) بدائع الزهور جـ٣ ص ١٩٦ .

(٦) المصدر السابق جـ٢ ص ٦٤٢ .

(٧) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٢٧ ، ٦٤٠ .

وشرع فى إقامة الإسطوانات والعقود فور الانتهاء من إعداد موادها الأساسية المكونة من قطع الحجر المدورة المثقوبة ، وقوالب الأجر المحروق وجاء أن سطح مقدم المسجد قد وضع على تلك العقود سقفا واحدا[1] ، غير أنه لا يعرف إذا كانت العقود المذكورة ، فيما عدا بلاطات القباب ، متعامدة على جدار القبلة أو متوازية معه على هيئة العقود المطلة على صحن المسجد . وكان يبدو أن التوازى مقبولا لولا أن السمهودى يذكر أنه استحدث قبة فوق المحراب العثمانى[2] ، وقبة أخرى فيما بين الحجرة الشريفة والجدار القبلى « وحولها ثلاثة أخرى تسمى مجاريد»[3] ، كما استحدث قبتان بالقرب من باب السلام[4] وكما هى العادة عند عقد القباب فإنه لا بد لها من أربعة عقود كما هو الحال فى القباب الموجودة حاليا فى الجزء المشيد من المسجد النبوى فى العصر العثمانى وبذلك لا بد أن كان من العقود عقدان متوازيين مع جدار القبلة وعقدان متعامدين عليه .

وإذا كان السمهودى قد أفادنا فى معرفة طريقة تسقيف مقدم المسجد على النحو الذى تقدمت الإشارة إليه ، فإنه لم يذكر شيئا عن تسقيف بقية أروقة المسجد. وكان من الممكن أن يذهب الظن إلى أن الأمر كان فى سقوف بقية أروقة المسجد على نحو ما كانت عليه فى مقدمه لولا ما جاء فى كتاب نزهة الناظرين عن السقوف التى هدمت من مؤخر المسجد فى عمارة السلطان عبد المجيد سنة ١٢٦٥هـ من أنها كانت « على عبارات من خشب موضوعة على أساطين »[5] ، وكان الأمر كذلك أيضا فى الأروقة الجانبية . وعلى هذا فإنه يمكن حصر استخدام العقود فى عهد قايتباى فى تسقيف مقدم المسجد فقط . ولا بد أن استغرق إنشاؤها

---

(١) السمهودى : نفس المصدر جـ٢ ص ٦٤٠ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٤٠ .

(٣) نفس المصدر جـ٢ ص ٦٤١ .

(٤) نفس المصدر جـ٢ ص ٦٤١ .

(٥) البرزنجى ، ص ٢٧ . لم أجد أى ذكر لمن قام بعمارة شاملة للمسجد النبوى بعد الأشرف قايتباى حتى السلطان عبد المجيد سوى بعض الترميمات التى قام بها بعض السلاطين العثمانيين فى مقدم المسجد .

بطبيعة الحال وقتا وجهدا كبيرين ، خاصة وأن من الأعمال التى تمت فى مقدم المسجد الشريف القبة الكبيرة التى شيدت بقوالب الأجر بدلا من القبة الخشبية المحترقة .

ويبدو أن تعرض القبة الأولى للحريق الثانى وما كانت تسببه من تسرب مياه الأمطار إلى أخشاب السقوف المجاورة فتتلفها ، كما أن ما كانت تحتوى عليه من أخشاب كانت مع سقوف المسجد المجاورة طعمة سائغة للنار التى دمرت المسجد سنة ٨٨٦هـ ، قد حمل القائمين على العمل على بناء القبة الكبيرة على شاكلة القبة الأولى الواقعة فوق حجرة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، والتى كان لطريقة بنائها فضل فى وقايتها من شر الحريق الثانى[1] .

ونظرا إلى كبر حجم القبة الحالية واختلاف مادة البناء فيها عن الخشب والرصاص الذى كان قوام القبة الأولى ، ورغبة فى الحيطة والمتانة فقد استقر رأى مهندسى العمارة على استحداث أكتاف بزوايا متعددة ومن أحجام مختلفة[2] أقيمت فى مواضع الإسطوانات التى كانت تحمل القبة المحترقة وذلك كما يبدو من المخطط الذى أعده إبراهيم العياشى عن الحجرة الشريفة شكل (٥٧)[3]. ورغم اختلاف حجم هذه الأكتاف وقوتها ، فإن المعمار الذى قام بتصميمها قد أبقى على الإسطوانات المتقابلة فى الجهات الأربعة للحجرة ، وزاد فى ما كان منها

---

(١) انظر أعلاه ص ٣٢٩ .

(٢) استرعى انتباهى كثرة الزوايا فى الأكتاف التى تحيط بالحجرة الشريفة والتى تبلغ إحدى الأكتاف عشرين زاوية كما يبدو فى الشكل (٢٥٧) ، وقد سألت أحد المهندسين المسئولين عن عمارة المسجد الحرام عن تلك الزوايا وهل لكثرتها علاقة فى زيادة قوة تحمل الكتف للحمل الواقع عليها ؟ فأفاد بأن هذا التعدد الملاحظ فى الزوايا المذكورة هو بقصد المبالغة فى الناحية الجمالية ليس إلا .

(٣) إبراهيم العياشى هو صاحب مكتبة بالمدينة المنورة ، والمخطط المنسوب إليه مطبوع ومنه نسخة معلقة فى قاعة المطالعة بمكتبة الحرم المكى الشريف وبالسؤال عن مصدره قيل لى أنه مهدى لأحد موظفى المكتبة من الناشر ، ولكن الموظف المذكور أثر به المكتبة . انظر أيضًا : المخطط المنشور فى مرآة الحرمين ، لإبراهيم رفعت باشا ، جـ١ ص ٤٤٨ .

بالجانب الشرقى والغربى والجنوبى بإضافة إسطوانة أخرى إليها[١] كما يبدو من صورة المخطط شكل (٥٧) ، مع استحداث كتف خامس عند رأس الحائز المخمس مما يلى الشمال « ليشتد بها العقد الذى عليه القبة فى تلك الناحية »[٢] كما وضعت أكتاف أقل حجما فى شمال بيت فاطمة رضى الله عنها .

وأعيد محراب التهجد بأصل الدعامة المستطيلة التى تتوسط الضلع الشمالى لبيت فاطمة ، انظر شكل (٥٧)[٣] . ولم يذكر السمهودى مدى ارتفاع الأكتاف التى عقدت عليها القبة عن أرض المسجد ، ولم يتيسر لى قياس ذلك بسبب تشدد المسئولين عن الحرم النبوى فى إجابة ما يطلب إليهم من هذا القبيل ، ومع ذلك يمكن القول بأنها مساوية لسطح المسجد الذى كان ارتفاعه فى هذه العمارة على ما صرح به السمهودى « اثنان وعشرون ذراعا »[٤] .

ولا شك فى أن الانتقال بالقبة من الشكل المربع[٥] إلى الدائرى كان عن طريق الحطات (المقرنصات) التى استخدمت بأركان الحجرة فى موضع إلتقاء الأقبية بالأكتاف الأربعة ، حتى تمكن المعمار من بناء القبة وفق الإمكانيات التى كان يمتلكها فى ذلك الوقت .

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦١٠ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٤٠ . حيث يذكر أنهم حفروا لهذه الاسطوانة أساسا عظيما ظهر بسببه القبر المنسوب فى أحد الأقوال لفاطمة الزهراء رضى الله عنها . وفى هذا ما يزكى ما تذهب إليه الروايات التى تذكر أن قبرها فى بيتها .

(٣) كان هذا المحراب بأصل اسطوانة أقيمت فى موضعه فى العمارة الأولى التى قام بها الأشرف قايتباى ، انظر أعلاه ص ٣١٣ .

(٤) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٨٥ أى ما يعادل ١١ مترا .

(٥) ذكر البتنونى فى الرحلة الحجازية ، ص ٢٤٦ أن طول كل من ضلعى الحجرة الشريفة الجنوبى والشمالى ١٦ مترا وكل من ضلعيها الشرقى والغربى ١٥ مترا . هذا عدا بيت فاطمة رضى الله عنها . وذكر السمهودى فى المصدر السابق جـ٢ ص ٦٤٠ « أنهم أحدثوا اسطوانا فى جانب مثلث الحجرة ليشتد به العقد الذى عليه القبة فى تلك الناحية » وكان المقصود بهذا العقد تدارك الفرق الظاهر فى طول أضلاع الحجرة الشريفة .

ويظهر من وصف السمهودى للأضرار التى لحقت بهذه القبة سنة ٨٩١هـ أنها عقدت بالأجر الخالى من الجبس [١] وأنها كانت فى حجم كبير جدا مما دعا إلى اختصارها أكثر من مرة[٢] وكان سمك جدارها كبير جدا بحيث لا يأتى النظر إلى داخل الحجرة الشريفة من إحدى فتحات القبة المذكورة « إلا لمن مد رأسه مدا زائدا»[٣].

وقد أحدث بهذه القبة عدد كبير من الطاقات والشبابيك ، ولحسن الحظ . فقد ذكر مؤرخ مهتم بتاريخ المسجد النبوى الشريف وصفا رائعًا لها وطريقة توزيع طاقاتها وشبابيكها ، فقال أن « عدد شبابيك القبة الكبيرة وطاقاتها ست وسبعين ، وبيان ذلك أن للقبة الشريفة صفحات أربع فى كل صفحة من ذلك ستة ، ثلاثة مزور[٤] من أعلاها وفوقها ثلاثة مدور ، وللقبة أيضا أركان أربعة فوق ذلك فى كل ركن شباك كذلك مزور من أعلاه لكنه أوسع من البقية فصار جملة ذلك ثمانية وعشرين شباكا ويلى فوق ذلك ستة عشر طاقا مطافة بالقبة وفوق ذلك أيضا اثنان وثلاثون فبلغ جميع ما فى القبة الكبيرة من الطاقات والشبابيك ستا وسبعين » [٥]، ومن المؤكد أن تكون القبة قد طليت بالجبس والنورة فور الانتهاء من بنائها . وإذا كان داخل سطح القبة قد خلا من أعمال الزخرفة على عكس قباب العصر المملوكى الثانى [٦] فإن ما ذكره البرزنجى يشير إلى أنها قد زخرفت بالنقوش الكتابية من داخلها [٧]. ولكن الشقوق قد ظهرت على سطحها مبكرا ثم ازدادت

---

(١) المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٤٦ .

(٢) أول مرة فى سنة ٨٩١هـ ثم اختصرت ثانى مرة فى العصر العثمانى سنة ١٢٣٣هـ .

(٣) البرزنجى : نزهة الناظرين ، ص ٦٩ .

(٤) يقصد مقنطرة كما تبدو فى الصورة شكل (٥٨) .

(٥) البرزنجى : المصدر السابق ، ص ٧٠ ـ ٧١ .

(٦) محمد مصطفى نجيب : العمارة فى عصر المماليك ص ١٩ .

(٧) ذكر فى المصدر السابق ، ص ٧٠ أنه رأى داخل القبة مزينا « بنقوش ظريفة عليها طراز فيه كتابات بخط جلى لم يمكننى إلا قراءة ما قابلنى من جهتها الغربية وهو « أنشأ هذه القبة العالية المعترف بالتقصير الراجى عفو ربه القدير قايتباى » .

بعد أعمال الترميم الأولى التي قام بها ابن الزمن نفسه ، مما دعا إلى تغير السلطان عليه (١) .

وهذه القبة هي الثامنة من قباب المسجد النبوي(٢) عدا القبة السفلية التي استحدثت في العمارة الأولى فوق الحجرة مباشرة . ومع وفرة المعلومات عنها فإنه لم يتيسر لي معرفة ما إذا كانت القباب الأخرى كانت مزودة بفتحات مشابهة أم أن ذلك كان قاصرا على القبة الكبيرة . ويذكر السمهودي أنهم جعلوا بين عقود القباب ، التي كانت بمقدم المسجد مما يلي القبة الكبيرة « وبين المنارة الرئيسية التي أعادوها بادهنجا للضوء والهواء »(٣) وأضاف إلى ذلك أنهم نقلوا باب المنارة الغربي عند تجديدها في هذه العمارة إلى جهة الشام ، على خلاف المألوف فيما مضى ، وهو عمل لا يعرف الهدف منه ، غير أنه يبدو أنه لم يف بما كانوا يقصدونه منه ، مما حدا بالأمير شاهين الجمالي إلى إعادته إلى مكانه الأول عند إعادة بناء المنارة المذكورة سنة ٨٩١ هـ(٤) هذا عن سقوف المسجد الشريف وما عمر منها حتى أواخر شهر رمضان عام ثمان وثمانين وثمانمائة ، وقد قال عنها ابن طولون أنها « عمارة عظيمة »(٥) وقد اختتمها ابن الزمن بنقش اسم السلطان قايتباي في بعض أجزاء السقف مما يلي الجدار القبلي والشرقي(٦) . ثم قام فريق من الدهانين بدهن السقوف المذكورة . ويذكر السمهودي أن متولي العمارة استخدم بعض القناديل التي وجدت تحت ردم سقف الحجرة الشريفة « في تذهيب السقف المعادة بعد الحريق »(٧) . ويبدو أن ذلك اقتصر على بعض سقف المسجد ، فقد جاء

---

(١) اتضح بعد تجديدها في العهد العثماني سنة ١٢٣٣هـ أن ما أتهم به ابن الزمن من تساهل في المؤنة ليس بصحيح وأن سبب تلفها المتكرر هو ضخامة حجمها . انظر أدناه ص ٣٦٠ .

(٢) كان أمام باب السلام قبتان وعلى المحراب العثماني واحدة ، وبين الحجرة الشريفة وجدار القبلة أربع قباب . انظر السمهودي : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٤٠ ـ ٦٤١ .

(٣) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٤٠ ـ ٦٤١ .

(٤) السمهودي : نفس المصدر جـ٢ ص ٦٤٦ .

(٥) تاريخ ابن طولون ، ورقة ١٤ أ .

(٦) ابن الرومي : التحفة اللطيفة في عمارة المسجد وسور المدينة ص ٩٢ .

(٧) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٩٠ . ومع ذلك لم يشرح السمهودي فيما إذا كانت القناديل صهرت أو بيعت واستخدم ثمنها في التذهيب .

أنه بلغ السلطان قايتباى أن بعض أجزائه قد دهنت بالنيلة فأمر في سنة ٨٨٩هـ بإرسال فريق من الدهانين « لمحو ما بلغه أنه جعل فى بعض سقف المسجد الشريف من الدهان بالنيلة وإبداله باللازورد »[١].

أما الأعمال الأخرى بداخل المسجد فكان منها خفض أرض مقدمه حتى ساوت أرض المصلى الشريف[٢] وقد حرصوا على الاستفادة من التراب الذى قطعوه من رواق القبلة فى ردم الدكتين اللتين أحدثهما متولى العمارة بالرواقين الشرقى والغربى « فيما بين باب الرحمة وباب النساء إلى مؤخر المسجد »[٣]. وجاء أنهما كانا أخفض من الدكاك الشامية التى لا يعرف تاريخ حدوثها[٤] علاوة على ذلك جدد متولى العمارة النفق الذى كان يعرف بخوخة آل عمر رغم صدور الأوامر السلطانية فى سنة ٨٨٥هـ باغلاقه[٥]. وقد تباطأ مرة ثانية فى تنفيذ الأوامر التى وردت إليه سنة ٨٨٧هـ فى هذا الخصوص وكان ذلك سببا فى ضيق السلطان قايتباى وتبرمه منه[٦]. ودعا ذلك شيخ الحرم الشريف إلى سده فيما بعد « بالبناء المحكم من خارج المسجد ، ونزع باب طابقه ، وردمه بالأتربة حتى ساوى أرض

---

(١) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٤٥ .

(٢) نفس المصدر جـ٢ ص ٦٤١ حيث جاء أنه « كان شبه حوض عمقه ذراعان ونصف وثمن » .

(٣) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٤٢ .

(٤) ذكرت عند حديثى عن عمارة الظاهر بيبرس أن هذه الدكاك المعروفة بالدكاك الشمالية هى مما أحدث فى عهده . انظر أعلاه ص ٢٢٣ .

(٥) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٧١٣ ، كان السمهودى هو الذى فاتح السلطان فى شأن هذا النفق الذى كان يفتح فى البلاطة الثانية فى موقف الزائرين اليوم ، وقد ذكر فى المصدر السابق جـ٢ ص ٧١٥ أن السلطان قرر لمن كان بيده أمر هذا النفق « بضعة عشر دينارا كل سنة عوضا عما كان يحصل له منه » .

(٦) كان من الأعذار التى كان يحتج بها ابن الزمن فى تأخير تنفيذ أوامر السلطان باغلاق هذا النفق ما أشار إليه السمهودى فى الوفا ، جـ٢ ، ص ٧١٥ من أن الدور التى كان يؤدى إليها هذا النفق قد أصبحت ملكا للسلطان وأنه سوف يفاتح السلطان بجعلها مزارات . هذا عن الأسباب الظاهرية ، أما الأسباب الخفية فذكر السمهودى أن منها حقد بعض أصدقاء ابن الزمن على السمهودى باعتباره المحرض للسلطان فى سدها ، وغير ذلك من الأسباب التى قال عنها السمهودى « أنها أمور يطول شرحها » .

المسجد ولم يبق له أثر ، وذلك فى رابع ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وثمانمائة[١] .

ووضعوا على حدود المسجد النبوى الأول مما يلى القبلة درابزين من الخشب الخروط[٢] . وكان من الأعمال الهامة التى تأتى فى المقام الثانى حاجة المسجد الشريف بعد ذلك إلى كثير من أعمال المبيضين[٣] والمرخمين[٤] فى جميع جوانب المسجد الشريف ، الذى تأثرت جدرانه وما بقى من إسطواناته بالحريق . كما أن هدم جدران مقدم المسجد على النحو الذى سبق ذكره واستحداث كثير من العقود بأعلى السقف كل ذلك زاد من عبء العمل الملقى على عواتق هؤلاء العمال .

وكان من أعمال المرخمين تلبيس دكة المؤذنين بالرخام الجميل[٥] ، وتقع

---

(١) كان سد هذا الطابق بعد خفض أرض مقدم المسجد وانتهاء العمارة إذ يذكر السمهودى فى المصدر السابق جـ٢ ص ٦٤٤ أن سقوف المسجد النبوى قد كملت « كلها فى أواخر شهر رمضان عام ثمان وثمانين وثمانمائة وتمت عمارة المسجد الشريف عقب ذلك » .

(٢) ذكر البرزنجى فى نزهة الناظرين ، ص ٣٧ أثناء حديثه عن عمارة السلطان عبد المجيد خان أنهم « استبدلوا الدرابزين الخشب والخزائن الموضوعة فيما يسامت حد المسجد الأصلى من جهة القبلة ... بحاجز مسنم من الحجر الأحمر المنحوت ... » . كما أن السمهودى فى وفاء الوفا جـ١ ص ٣٧٧ قد أشار إلى وجود مثل هذا الدرابزين قبل الحريق الثانى ، مما يقوى الاعتقاد بأن الدرابزين الذى أشار إليه البرزنجى قد أعيد بعد احتراق الدرابزين الأول .

(٣) أن كلمة مبيض « تدل على مبيض القماش وتدل فى معناها الثانى على موظف يهتم بنسخ المراسلات والكتابات فى صورتها النهائية ، وتستخدم أيضًا فى اللغة الدارجة المصرية الحديثة للإشارة إلى من يحترف طلاء الجدران » . انظر حسن الباشا : الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ٣ ، ص ٩٨٩ .

(٤) تطلق كلمة المرخم على « المشتغل بالرخام من حيث رصف الأرضيات وتصفيح الجدران ، وعمل المقرنصات وصناعة الأعمدة وتيجانها ، ونقش الكتابات والزخارف على ألواح الرخام وشواهد القبور ، وعمل بعض الأثاثات الحائطية ، وقطع التحف ، وخرط التماثيل وغير ذلك من الأعمال المتصلة بالرخام » . انظر حسن الباشا : المرجع السابق جـ٣ ص ١٠٧٥ وما بعدها .

(٥) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٤٢ .

الدكة المذكورة فى البلاطة الخامسة مما يلى الصحن أمام المنبر الشريف[١] ، وكذلك بنوا باب السلام « بالرخام الأبيض والأسود ، وزخرفوه زخرفة عظيمة[٢] ، وجاء أنهم زخرفوا قباب المسجد جميعا[٣] .

أما المحراب النبوى فقد أعادوه فى موضع الصندوق الذى احترق بعد نزعهم الإسطوانة التى كانت فى محاذاة الإسطوانة التى إليها المصلى الشريف[٤] . وقد زخرفوه بالرخام « الملون ترخيما بديعا فيه صبغ ذهبى وغيره ، وهو أبهى منظرا من الأول ، وجعلوا أرض المحراب المذكور مرتفعة قليلا على المصلى الشريف ، لأنه إنما جعل فى محل الصندوق الذى كان أمام المصلى الشريف »[٥] وزخرف المحراب النبوى الشريف بكثير من الآيات القرآنية ، كتبت بخط بارز جميل مذهب فى إطار ضيق يحيط بالجزء العلوى من المحراب النبوى .

كما قاموا بتحلية واجهته مما يلى الروضة بكثير من التقسيمات الرخامية البديعة[٦] كما يبدو من صورته شكل (٥٩) ، ودخلته غير عميقة بسبب وضعه مكان الصندوق الذى كان علامة للمصلى الشريف[٧] . وكتبوا تاريخ عمارته فى لوح رخامى يوجد الآن بظهر المحراب النبوى الشريف . منقوش فيه بخط بارز فى خمسة أسطر ما يلى : انظر اللوحة رقم « ٦٦ ») .

---

(١) انظر موضعها من مخطط المسجد النبوى فى عمارة السلطان عبد المجيد شكل (٢٩) المنقول عن مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا ، جـ١ ، ص ٤٤٨ .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٤١ .

(٣) نفس المصدر جـ٢ ص ٦٤١ كان عدد هذه القباب غير الكبيرة سبع قباب ، وعن مواقعها من المسجد انظر أعلاه ص ٣٣٩ الحاشية رقم (٢) .

(٤) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٤٠ .

(٥) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٣٧٨ .

(٦) يذكر توفيق أحمد عبد الجواد فى تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ، ص ١٣٠ أن المحاريب المملوكية كانت « ميدانا لإبداع فن الموازيك الرخامى كما أنها كانت تصنع من الرخام الملون والصدف » .

(٧) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٧٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم   وصلى الله على سيدنا محمد

أمر بعمارة هذا المحراب النبوى الشريف العبد الفقير المعترف

بالتقصير مولانا السلطان الملك الأشرف

أبو النصر قايتباى خلد الله ملكه بتاريخ

شهر الحجة الحرام سنة ثمان وثمانين وثمانمائة من الهجرة النبوية

ويلاحظ على هذا النقش أن كاتبة لم يوزع الكلمات على الأسطر الخمسة بالتساوى ، فالسطر الأول به ٨ كلمات تتضمن ٣٩ حرفا والسطر الثانى به ٩ كلمات تشتمل على ٤٩ حرفا ، والسطر الثالث به ٥ كلمات تحتوى على ٣١ حرفا والسطر الرابع به ٧ كلمات تضم ٣٢ حرقا ، والسطر الخامس به ١٠ كلمات بها ٥٢ حرفا . ومن هذا يظهر أن النقاش وجد نفسه بعد استكمال السطر الرابع أما عدد كبير من الكلمات لا يمكن توزيعها على سطرين ولابد له من جمعها فى سطر واحد مما ساعد على اختلاف شكل الحروف وطريقة توزيع الكلمات فى هذا السطر عن بقية السطور السابقة .

واهتم المرخمون أيضا بزخرفة المحراب العثمانى وترخيمه ، شكل (٦٠) . ونقشوا الجزء العلوى من دخلته بطراز مذهب به كثير من الآيات القرآنية . ويمتاز المحراب العثمانى الذى لا يزال يحتفظ بعمارته إلى الوقت الحاضر[١] عن المحراب النبوى بعمق دخلته بسبب استناده إلى جدار القبلة الذى ساعد سمكه على تعميق دخلة المحراب[٢] . وزخرفوا أيضا محراب الحنفية[٣] الذى كان متأخرا عن المحراب النبوى[٤] . ، وأعاد ترخيم الحجرة الشريفة وما حولها وترخيم الجدار

(١) انظر أدناه ص ٣٦٣ .

(٢) كانت فكرة تعميق المحراب من الأسباب التى دعت إلى هدم جدار القبلة .

(٣) عن هذا المحراب انظر أعلاه ص ٣٨٤ . وقد ذكر السخاوى فى التحفة اللطيفة ، جـ١ ص ٦٠ هذا المحراب ضمن المحاريب الموجودة فى زمنه . ولما كان المحراب المذكور من أجزاء المسجد ابان عمارة قايتباى لذلك رجحت ترخيمه أيضاً .

(٤) عن أسباب تقديمه بمحاذاة المحراب النبوى انظر أدناه ص ٣٦٣ .

القبلى »[١] . وألبسوا الدعائم المحدثة فى المواجهة الشريفة من داخل المقصورة الشريفة وخارجها رخاما بديعا . ثم ألبسوا الحجرة الشريفة الستارة المرسلة من قبل السلطان[٢] .

وعند الانتهاء من تجديد رخام جدران الحجرة الشريفة « أزالوا البناء الذى عمله أهل المدينة فى موضع المقصورة المستديرة بالحجرة الشريفة ، وأبدلوا ما يلى القبلة من ذلك بشبابيك من النحاس ، وبأعلاها شبكة من شريط النحاس كهيئة الزرد»[٣] . ثم ذكر السمهودى بعد ذلك أنهم جعلوا لبقية الحجرة « من جهة الشام وما اتصل بها من المشرق والمغرب مشبكا من الحديد المشاجر[٤] ، وبأعلاه شريط النحاس أيضا ، وأحدثوا مشبكا من الحديد المشاجر أيضا لم يكن قبل ذلك ، جعلوه فاصلا بين الرحبة التى خلف مثلث الحجرة الشريفة وبينها ، وبها بعض المثلث المذكور ، وبه بابان أحدهما عن يمين المثلث والآخر عن يساره وصار هذا المشبك متوسطا بين مشبك الحجرة الشامى وما يقابله . وقد صارت هذه المقصورة تعرف بالحجرة الشريفة وأبوابها بأبواب الحجرة ، وما يعلق بسقفها بقاديل الحجرة[٥] .

وكان السلطان قايتباى قد احتفل بهذه المقصورة فى شعبان من سنة ٨٨٨هـ قبل إرسالها إلى المدينة ، وجاء أنها نصبت أمامه بحوش قلعة القاهرة وأن زنتها أربعمائة قنطار من الحديد ، وأنها حملت إلى المدينة المنورة على سبعين جملا[٦]

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٤٢ .

(٢) ذكر السمهودى فى نفس المصدر جـ٢ ص ٦٤٦ وجود كسوة على الحجرة الشريفة عند تجديد القبة سنة ٨٩٢هـ لذلك فإننى أعتقد بوجودها قبل ذلك بما يتفق والواقع والمنطق ، لأن الكسوة القديمة احترقت سنة ٨٨٦هـ .

(٣) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٤٢ .

(٤) المعمول على شكل ورق الشجر كما فى اللوحة رقم « ٦٧ ، ٦٨ » .

(٥) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦١٢ ، ٦٤٢ ، ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار ، ص ٩٧ . وقد عد البتنونى هذا المشبك مصنوع من نحاس وهو خطأ كما يبدو من حالها الآن وكما صرح به السمهودى وابن إياس . انظر الرحالة الحجازية ، ص ٤٤٦ .

(٦) يعتبر هذا الاحتفال تقليدا لما قام به الظاهر بيبرس فى أول حكمه لمصر عندما كان يحتفل بإرسال آلات عمارة المسجد التى قام بها . انظر أعلاه ص ٢١٧ .

وورد كذلك أن السلطان أرسل معها مصحفا كبيرا حُمل على جمل وحده ، وقد قال عنه ابن إياس « أنه من النوادر ، كتبه شاهين النورى ومات ولم يكمله ، فأكمله الشيخ خطاب بأمر السلطان وهو باق إلى الآن[1] فى الحجرة الشريفة »[2].

ويتألف مشبك الحجرة من تسع عشرة قطعة ، تسد الفراغات الحادثة بين الإسطوانات والدعائم التى يحيط بعضها بالحجرة الشريفة ويفصل بعضها الآخر بين بيت عائشة وبيت فاطمة رضى الله عنها . وهى محكمة الوضع مما يدل على أن صنعها كان بعد أخذ القياس الدقيق للبعد الحقيقى بين الإسطوانات والأكتاف .

وقد نقش بأصل المشبك المذكور بطريقة التفريغ بخط الثلث جميل ، نقشان متشابهان إلى حد كبير يقع أحدهما فى المشبك الغربى للحجرة الشريفة المطل على الروضة الشريفة بين الإسطوانتين اللتين كتب عليهما خطأ إسطوانة الوفود وإسطوانة المحرس [3]، وذلك بين جامتين فى إحداهما لفظ الجلالة وفى الأخرى اسم النبى عليه السلام . وهو فى ثلاثة سطور بخط متشابك جميل يصعب قراءته على غير المتمرسين ونصه : (انظر اللوحة رقم « ٦٧ »)

أنشأ هذه المقصورة الشريفة مولانا وسيدنا

السلطان أبو النصر قايتباى تقبل الله منه

فى عام ثمان وثمانين وثمانمائة من الهجرة النبوية

---

(١) إلى زمن ابن إياس المتوفى سنة ٩٣٠هـ .

(٢) بدائع الزهور ، جـ٣ ، ص٢٠٣ - ٢٠٤ . وقد تعرض السمهودى فى المصدر السابق جـ٢ ص ٦٦٨ - ٦٧٠ لتاريخ المصاحف المرسلة إلى المسجد النبوى وذكر البرزنجى فى نزهة الناظرين ، ص ٧٤ أن فى المسجد الشريف فى زمنه « عدة مصاحف مذهبة بخطوط نفيسة موقوفة بعث بها الملوك من سائر الجهات وأرباب الحشمة والخيرات » . وذكر على بن موسى فى وصف المدينة المنورة ص ٧٠ - ٧١ أن « فى الحجرة المعطرة من جهة الرأس الشريف بين الستر والشبكة صندوق عليه كسوة، من الحرير الثقيل فيه المصحف العثمانى بالخط الكوفى وهو الذى يعرف بالأم ؟ لأنه من الأربعة المكتوبة فى زمن سيدنا عثمان والمشهور أن دمه عليه ، لا يفتح إلا فى شدة الكرب - كما تقدم - وهو على رق غزال ، ونسخة ثانية بخط سيدنا على بن أبى طالب » .

(٣) انظر أعلاه ص ٦٣ .

ومكتوب بطريقة التفريغ أيضا فى شرافات هذا الجزء من المشبك شهادة التوحيد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

ويلاحظ على هذا النقش التأسيسى أن النقاش قد وازن بين توزيع الكلمات على الأسطر الثلاثة التى يتكون منها النص المذكور ، فالأول به ٦ كلمات متضمنة ٣٤ حرفا والثانى به ٧ كلمات مشتملة على ٣٣ حرفا والثالث به ٨ كلمات محتوية على ٤٠ حرفا .

ويقع النقش الآخر فوق الباب الشمالى للمقصورة الشريفة ، المعروف بباب الأغوات لدخولهم منه إلى الحجرة الشريفة[١]، وذلك فيما يلى بيت فاطمة رضى الله عنها أمام ركن دكة الأغوات . وهو بكتابة متقنة مفرغة متشابكة بأصل مشبك الحديد ، وذلك فى سطرين فوقهما شبه شباك صغير مقسم بمربعات كونتها قضبان حديدية متداخلة على شكل الخشب المخروط على يمينه شهادة التوحيد « لا إله إلا الله » وعلى يساره تكملة الشهادة « محمد رسول الله » وكل منهما داخل جامة مستطيلة وتحت ذلك كله اللوحة التأسيسية المفرغة لهذا المشبك فى سطرين نصها كالتالى : (انظر اللوحة رقم « ٦٨ ») .

أنشأ هذه المقصورة الشريفة السلطان الملك الأشرف أبو

النصر قايتباى عام ثمان وثمانين وثمانماية

وتنقص هذا النص بعض الكلمات التى شملها النص السابق[٢]، بيد أنه قد روعى عند ترتيب كلماته ، الطريقة التى استخدمت فى النص السابق فالسطر الأول به ٨ كلمات تحتوى على ٤٣ حرفا والثانى به ٦ كلمات تتضمن ٣٥ حرفا .

---

(١) إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين جـ١ ص ٥٤١ .

(٢) عند مقارنة النصين ببعضهما وجدت أن الأول يزيد على الثانى بالكلمات التالية : « مولانا وسيدنا... تقبل الله منه فى ... من الهجرة النبوية » . ويزيد الثانى على الأول بكلمتين فقط هما « ... الملك الأشرف ... » .

ولا يعرف ما إذا كان اللون الأخضر الذى يشاهد فى الوقت الحاضر على مشبك الحجرة هو نفس اللون الذى دهنت به فى عهد الأشرف قايتباى . على أن الغالب على الظن أنه قد استحدث فى العهد العثمانى عندما استخدموا اللون الأخضر فى طلاء قبة الحجرة الشريفة سنة ١٢٥٣هـ[١] .

ولهذه المقصورة أربعة أبواب « باب غربى فى الروضة يسمى باب الوفود أو باب الرحمة ، وفى جنوبه شباك التوبة ، ولها باب آخر فى الجهة الجنوبية ويدخل إليها من باب فى الجهة الشرقية ، ومن باب آخر فيها فى الجهة الشمالية وهو الذى يدخل منه الأغوات لايقاد الحجرة الشريفة[٢] . وقد عد أحمد ياسين الخيارى الجزء المحجوز حاليا بين حائز عمر بن عبد العزيز ومشبك الحديد المحيط بالحجرة الشريفة من زيادة قايتباى فى الحجرة الشريفة[٣] . بيد أن ما قام به الأشرف قايتباى فى هذا الصدد لم يكن إلا تقليدا لما سبق إليه الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨هـ عندما أحاط الحجرة الشريفة بدرابزين من الخشب المخروط حل محله مشبك الحديد الذى أحدثه الأشرف قايتباى .

وعن أبواب المسجد الرئيسية ، التى احتفظت بعددها ومواضعها فى هذه العمارة ، يلاحظ أن السمهودى لم يذكر شيئا عن مصاريعها ، على أنه ما من شك فى أنها كانت على شاكلة باب السلام الذى وصفه محمد لبيب البتنونى أثناء أدائه الحج فى معية خديوى مصر عباس الثانى ، إذ يذكر « وقد رأيت له بابا كان أرسل من مصر أثناء هذه العمارة ووضع على باب السلام ، ولما وسع هذا المدخل فى عمارة السلطان عبد المجيد نقلوه إلى الباب المجيدى . وهو من الخشب الثمين المغطى بالقطع النحاسية المنقوشة أو المكتوبة ، بل هو من أفخر ما يرى

---

(١) البرزنجى : نزهة الناظرين ، ص ٧٧ .

(٢) إبراهيم رفعت باشا : مرآة الحرمين ، جـ١ ص ٤٥١ ، البتونى : الرحلة الحجازية ، ص ٤٤٦

(٣) تاريخ مساجد المدينة المنورة ، ص ٦ ونص عبارته « ويعتبر الممر العام فى داخل الحجرات من زيادة قايتباى »

الناظرون فى الصناعة المصرية القديمة التى قبرت من عهد بعيد »[١].

وكان بالمسجد الشريف إلى جانب هذه الأبواب الرئيسية عدد من الأبواب الصغيرة فتحت فى الجدار الغربى بين باب السلام وباب الرحمة كان الدخول منها إلى المدرسة والرباط اللذين أحدثهما الأشرف قايتباى فى هذا الجانب من المسجد[٢]. أما حواصل المسجد فكان أهمها قبة الصحن التى يذكر السمهودى عنها أن غالب ما كان يوضع فيها فى زمنه هو « زيت وقود المسجد[٣]. وكان أمام كل من منارات المسجد الأربع خزانة « إلا أن ما أمام المنارتين القبليتين من ذلك أصلى ، بخلاف المنارتين الشاميتين فإنه محدث »[٤]. انظر شكل (٦١).

وذكر السمهودى بعد ذلك عدد من الحواصل منها خزانة صغيرة بجانب باب المنارة الشمالية الغربية المعروفة بالخشبية « يضع بعض الخدام فرشهم فيها ، وربما أقام بها من يريد الإعتكاف بالمسجد ويليها فى جهة المغرب أيضا حاصلين كبيرين يوضع فيهما القناديل الزجاج وبعض آلات المسجد »[٥] ثم ذكر أنه يقابل ذلك فى جهة المشرق مما يلى المنارة المعروفة بالسنجارية خلوة كبيرة فيها فرش الخدام أيضا ، وإلى جانبها خزانتان إحداهما بيد من تكون له النوبة من الفراشين يضع فيها فوانيس المسجد ونحوها ، والثانية بيد الخدام أيضا وفى جهة المشرق قريبا من باب جبريل بينه وبين باب النساء خزانة يضع فيها الخدام الماء لشربهم ، وبعض فرشهم وأمتعتهم »[٦].

---

(١) محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازية ، ص ٢٤٤ . وكان بودنا لو دون ما كان به من كتابات ووصف لنا نقوشه خاصة وأن الباب المذكور قد زال فى التوسعة السعودية .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٤٣ ، ٦٨٠ .

(٣) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٨٠ .

(٤) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٨٠ وذكر أن أول من أشار إلى أنهما محدثتان هو ابن فرحون المتوفى ٧٦٩هـ .

(٥) المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٨٠ .

(٦) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٨٠ .

وجاء أيضا أن فى غربى المسجد بين باب الرحمة وباب السلام « حاصل يوضع فيه النورة ، يعرف بابه بخوخة أبى بكر رضى الله عنه »[١].

ويبدو من ذرع السمهودى لارتفاع المسجد من داخله وخارجه بعد خفض أرض مقدم المسجد ، فرق ستة أذرع[٢] أى نحو ثلاثة أمتار وهو فرق كبير لا يشرحه احتمال وجود ستارة فوق سطح المسجد ، ولا ارتفاع مستوى أرض المسجد وما يتبعه من ارتفاع الأبواب عن مستوى الأرض المحيطة بالمسجد . مما يدعو إلى الاعتقاد بأن هناك خطأ فى الذرع أو فى النسخة المحققة .

ورغم بعض المآخذ التى أخذت على ابن الزمن[٣] فلم يكد عام ٨٨٩هـ يشرف على الانتهاء حتى اكتملت عمارة المسجد الشريف على الصورة التى تقدم ذكرها انظر شكل (٦٢) ، وعاد حجاج العام المذكور إلى دمشق كما يذكر ابن طولون بأخبار العمارة التى اكتملت « على أحسن حال »[٤]. ومع أنه ظهر فى بعض أجزاء المسجد بعض الخلل بعد الانتهاء من عمارته مباشرة ، إلا أنه لا خلاف فى أن ابن الزمن قد اجتهد فيما يبدو غاية الجهد فى اتقان ما قام به من أعمال بما يتفق وقداسة المكان الشريف من جهة ، وتحقيق رغبة السلطان فى الفوز بالثواب

---

(١) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٨١ .

(٢) ذكر السمهودى فى نفس المصدر جـ٢ ص ٦٨٥ أن « بين أرض مقدم المسجد وسقفه بعد خفض أرضه عقب الحريق الثانى اثنان وعشرون ذراعا ... وذرع ما بين الأرض المحيطة بالمسجد من خارجه وأعلى سترة جداره من جهة المغرب ثمانية وعشرون ذراعا » .

(٣) ذكر السمهودى فى المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٤٣ أن ابن الزمن عزم على اتخاذ الدور الواقعة فى مقدمة المسجد لبناء مدرسة ورباطا للسلطان ، وما ظهر بسبب ذلك من معارضة وفتوى شرعية من فقهاء المدينة والقاهرة ، وأضاف أيضًا فى ص ٦٦٥ ، ٦٦٦ إدخال الدواب الحاملة لآلات العمارة إلى المسجد النبوى واستخدام صحنه لأعمال النجارة والنشارة والحجارة ـ وهى أعمال ينتج عنها صوت يؤذى الرسول ﷺ وهو ما يتعارض مع الأثر الثابت عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عندما قالت لإحدى أمهات المؤمنين وهى تسمر باب حجرتها « لا تؤذوا رسول الله ﷺ» . ثم ذكر السمهودى أيضًا فى ص ٧١٥ مماطلة ابن الزمن فى تنفيذ أوامر السلطان بسد خوخة آل عمر رضى الله عنهم .

(٤) تاريخ ابن طولون ١٤ أ .

والثناء من جهة أخرى .

وإذا اعتبرنا المدرسة[١] والرباط ، اللذين أنشآهما غربى المسجد فيما بين باب الرحمة وباب السلام ، واللذين زامنت عمارتهما عمارة المسجد الشريف ، من الملحقات الضرورية لعمارة المسجد فى ذلك الوقت ، وكذلك المنارة ، التى أقيمت بجوار باب الرحمة ، والتى كانت إلى جانب منارات المسجد الأخرى ، تقوم بإبلاغ نداء الحق إلى أحياء المدينة الواسعة ، فإن جملة ما تكلفته العمارة « نقدا وأثمان آلات وبهائم وغير ذلك مائة وعشرون ألف دينار »[٢] ، وذلك عدا أثمان الكتب الموقوفة على المدرسة الأشرفية والمسجد الشريف وما وصل فى نهاية سنة ٨٨٩هـ من ريع الوقف الذى وقفه قايتباى فى سنة ٨٨٥هـ على سكان المدينة ، صحبة مندوب السلطان من أحمال « الحب والدقيق والقدور النحاس التى جعلت برسم السماط[٣] الذى أقامه قايتباى على سكان المدينة .

ويعتبر ما حمله مندوب السلطان إلى المدينة احتفالا بانتهاء العمارة وكان السلطان قد قرر أمر السماط المذكور رغبة فى مساعدة أهل المدينة ، وقد صرف مندوبه « لكل شخص من المقيمين من الحب ما يكفيه على حسب عدة عياله ، لكل نفر سبع أردب مصرى ، وسوّى فى ذلك بين الصغير والكبير والحر والعبد ، وجعل للأفاقين[٤] ما يكفيهم من الخبز وطعام الجشيشة[٥] فى كل يوم وقرر أمر

(١) ذكر عبد الغنى النابلسى فى رحلته التى قام بها سنة ١١٠٠هـ ، جـ٣ ص ٧٨ عن مدرسة قايتباى أنها كانت « على شكل القاعة بأربعة أواوين كلها بالأحجار المنحوتة الملونة والشبابيك الكبار من النحاس الأصفر وفى وسطها الميدان المفروش بالبلاط المنقوش ، مرتفعة يصعد إليها بدرج ودهليز مبلط وشبابيك مطلة على داخل الحرم النبوى من جهة الغرب قبالة الحجرة وفيها الخلوات للمجاورين ولها شباك مطل على باب السلام » .

(٢) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٤٥ .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٤٥ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ٣ ص ٢١١ ، ويقصد بالسماط هنا الطعام الذى يقدم فى كل يوم من أيام السنة .

(٤) هم المجاورون القادمون من أطراف الأرض . انظر أعلاه ص ٣١٥ حاشية رقم ١ .

(٥) الجشيشة أو الدشيشة . طعام رقيق من قمح مدقوق . انظر إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، جـ١ ص ٢٨٣ .

المدرسة ، وصرف للمرخمين وغيرهم من أرباب الصنائع مصروف بقية عملهم»[١].

بيد أنه لم تكد تكتمل فرحة السلطان باتمام عمارة المسجد الشريف حتى أخذت تتوالى عليه الأخبار بما طرأ على العمارة من خلل ونقص فى بعض جوانبها، وكان أول ذلك ما ذكرته من قبل من مطالعة السلطان فى عام ٨٨٩هـ باستخدام النيلة فى طلاء بعض سقوف المسجد الشريف ، مما دعاه إلى إرسال فريق من الدهانين مزودين باللازورد وما يحتاجون إليه من الأساقيل[٢] وأمرهم باستخدام هذا الطلاء بدلا من النيلة التى كانت مستخدمة فى بعض سقوف المسجد الشريف[٣].

وعلم كذلك أنه حدث تشقق بالقبة التى بنيت فوق الحجرة الشريفة رغم ترميمها وأن سبب ذلك تساهل ابن الزمن فى استخدام مؤنة صالحة عند عقد هذه القبة[٤]، وأن المنارة الرئيسية التى جددت هى الأخرى فى هذه العمارة قد مالت[٥] فزاد ذلك من حنق السلطان على ابن الزمن [٦]، مما أدى إلى انتداب الأمير شاهين الجمالى لاصلاح ما طرأ من عيوب » وفوض إليه مشيخة الحرم ونظره ونظر السماط»[٧]. وكان الأمير المذكور ، كما يقال ، على درجة كبيرة من الفضل والنبل والذكاء ، وقد عقد فور وصوله المدينة فى موسم ٨٩١ هـ مجلسا ضم أهل الخبرة وكبار المدينة واقتضى رأيهم بعد بحث وتقصى لأسباب الخلل « هدم المنارة الرئيسية وهدم أعالى القبة المذكورة »[٨] ولا بد أن السلطان قد منح هذا الأمير

---

(١) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٤٥ ، السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٦ ص ٢٠٧ .

(٢) الأساقيل جمع سقالة .

(٣) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٤٥ .

(٤) عن براءة ابن الزمن من هذه التهمة انظر أعلاه ص ٣٣٩ .

(٥) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٤٦ .

(٦) كان خاطر السلطان قد بدأ يتغير على ابن الزمن عندما ماطل فى تنفيذ مراسيمه بخصوص سد خوخة آل عمر .

(٧) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٤٦ .

(٨) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٤٦ .

المملوكى إمكانيات ضخمة وصلاحيات واسعة للتصرف بما يكفل العلاج اللازم ، وهو ما يدل عليه الجمع له بين الوظائف الثلاث مشيخة الحرم النبوى ونظارة الحرم ونظارة السماط .

وفور انتهاء موسم الحج شرع فى هدم المنارة المذكورة ، وقد تبين أن السبب فى ميلانها هو عدم كفاية حفر أساسها ، فحفر أساسها من جديد « حتى بلغ به الماء ، واتخذ لها أحجارا من الحجر الأسود متقنة أحكم بناءها مع الحسن الفائق ، بحيث لم ير قبلها بالمدينة الشريفة مثلها[1] » ، وجاء أنه زاد فى طولها عشرين ذراعا. بحيث أصبحت مائة وعشرين ذراعا [2] وزاد أيضا فى عرض بعض جدرانها[3]، وأعاد بابها إلى جهة المغرب[4] واستغنى عن درجه بعد خفضه بمستوى أرض المسجد . وحرص عند هدم المنارة المذكورة وبنائها على حجب منطقة العمل بستارة من الخشب صيانة للمسجد من الأتربة والغبار وعدم اشغال المصلين والزائرين » بحيث يظن الظان أن المسجد لا عمارة به »[5]، وصان المسجد أيضا « من الامتهان بعمل أرباب الصنائع »[6]، وذلك باستحداث درج من الخشب (سقالة) بأصل الجدار الشرقى يصعد عليه العمال إلى منطقة العمل فى المنارة والقبة

ولا تزال المنارة الرئيسية لحسن الحظ محتفظة بعمارة الأمير شاهين لها إلى

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٦٤٦ ، ابن حجر الهيثمى : تحفة الزوار ، ص ٩٥ .

(٢) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٥٢٧ وقد ذكر عند حديثه عن ذرع منائر المسجد أن قياسه لها كان من أعلى أهلتها إلى الأرض ، مما يفيد بأن وجود الأهلة بمنائر المسجد الشريف كان من ذلك الوقت وربما أقدم من ذلك بكثير .

(٣) السخاوى : التحفة اللطيفة ، جـ١ ص ٥١ .

(٤) يذكر السمهودى فى المصدر السابق جـ٢ ص ٦٤١ أن بابها كان قبل عمارة شاهين لها سنة ٨٩٨هـ متجها إلى الشام وتحته أربع درج وفى جانبها الغربى فتح باب لجلوس الخطيب فيه قبل خطبة الجمعة ، ويبدو أن إحداث بابين فى جزء المنارة الأسفل يضعف من متانتها وقوتها مما دعا إلى إعادتها بباب واحد يستخدم لتحقيق الهدفين السابقين معا .

(٥) السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٤٦ .

(٦) السمهودى : نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٤٦ .

الوقت الحاضر مما يساعد على تتبع تفاصيلها المعمارية والفنية وتعميم تلك الخصائص على منائر المسجد الأخرى .

وتتكون هذه المنارة من قاعدة مربعة تبرز زاويتها الشمالية فى الركن الشرقى الجنوبى من المسجد الشريف ، ويرتفع بدن المنارة فوق سطح المسجد بشكل مربع وفى كل جانب فتحة مستطيلة فى طول الجدار بقصد الإضاءة يعلوها أربع فتحات أكبر منها على شكل أبواب مقنطرة أمامها شرافات صغيرة محمولة على مقرنصات متدرجة . ويعلوا هذا البدن المربع شرفة مربعة أيضا ، تزينها المقرنصات الجميلة وتنتهى بشرافات صغيرة أكبرها ما يعلو أركانها الأربعة .

ويأخذ بدن المنارة بعد هذه الشرفة شكلا مثمنا تزينه خطوط أفقية سوداء متكسرة تحيط بالبدن المثمن ويعلو ذلك شرفة مثمنة محمولة على مقرنصات متعددة تنتهى بدرابزين من الحديد . ويشرف على هذه الشرفة باب مقنطر تعلوه ثمان فتحات مقنطرة أيضا تحتل نصف أضلاع بدن المنارة الستة عشر ، ومن ثم يأخذ بدن المنارة شكلا مستديرا بعد الفتحات الثمان ، وذلك بزيادة أضلاعها إلى الضعف ، تنتهى بشرفة ثالثة محمولة على مقرنصات أيضا فوقها درابزين من الحديد . ويعلو الشرفة فتحات مقنطرة فوقها الشرفة الرابعة التى ترتكز عليها خوذة القبة ، يعلوها مربع به أربع فتحات تعلوه خوذة مفصصة يتوجها الهلال الذى يرتفع عن الأرض بمائة وعشرين ذراعا[١] .

ومن هذا الوصف يتبين أن هذه المنارة تشترك رغم ما طرأ عليها من تحسينات فى كثير من صفاتها مع المآذن المملوكية التى امتازت بصفة عامة « برشاقتها واعتدال ارتفاعها وبأن معظمها ذو قاعدة مكعبة وبدن مثمن وذروة علوية إسطوانية الشكل »[٢] .

أما القبة فيبدو أن ما أصابها من خلل اقتصر على جزئها العلوى ، وقد عمل

---

(١) انظر أعلاه ص ٣٥٢ .

(٢) توفيق أحمد عبد الجواد : تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ، جـ٣ ص ١٣٠ . وانظر محمد مصطفى نجيب : العمارة فى عصر المماليك ص ٢٣٩ .

العمال ، الذين قاموا بتجديدها ، على إقامة سقف على عوارض بأصل الطاقات التى كانت بجوانب القبة ، يمنع سقوط ما يتهدم منها إلى أرض الحجرة الشريفة[١] ثم أعادوا بناء ما تهدم من أعلى القبة وقد قصروا من ارتفاع محدبها ، واستخدموا الجبس فى تثبيت قوالب الأجر وعادت « القبة حسنة مع الاتقان الجيد »[٢] .

ونقل البرزنجى عند حديثه عن أصل الفتحة التى بأعلى القبة الخضراء مما يلى القبلة عن السمهودى . « أن الشجاعى شاهين الجمال لما بنى أعالى القبة الخضراء اتخذ فى ذلك كوة عليها شباك حديد ثم فتح كوة فى محاذاتها بالقبة السفلى المتخذة بدل سقف الحجرة الشريفة ، وجعل على هذا شباكا أيضا وجعل على هذا الشباك بابا يفتح عند الاستسقاء للجدب »[٣] .

ومن الأعمال التى تنسب إلى الأمير شاهين الجمالى فى المسجد النبوى ما ذكره السمهودى عن تمييزه حدود المسجد النبوى الأول إذ يذكر أنه « لما اتضح ذلك للمقر الشجاعى شاهين الجمالى ناظر الحرم الشريف النبوى وشاد عمائره وشيخ خدامه ، اتخذ لأعالى الإسطوانة الخامسة من المنبر فى صف الأساطين التى فى قبلة المنبر طرازا بالسقف منقوشا فيه « أن ذلك هو الذى استقر عليه الأمر فى نهاية المسجد النبوى وحده »[٤] .

---

(١) السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٤٦ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٢ ص ٦٤٦ .

(٣) نزهة الناظرين ، ص ٧٨ . لم أجد ذلك عند السمهودى فى النسخة المحققة ، ولكنى وجدته فى المصدر السابق جـ٢ ص ٥٦٠ يتحدث عن قول عائشة رضى الله عنها افتحوا بين القبر والسماء كوة ، وعما نزل بسبب ذلك من الأمطار . ثم ما ذكره المراغى من عادة أهل المدينة فى فتح الكوة عند الجدب . وقال السمهودى عقب ذلك وسنتهم اليوم فتح الباب المواجه للوجه الشريف من المقصورة المحيطة بالحجرة ، والاجتماع هناك » .

(٤) السمهودى : وفاء الوفا جـ٢ ص ٣٥٧ . وقد أعيد هذا الطراز فى العمارة العثمانية فى مقدم المسجد النبوى ونقش بأعلى الاسطوانات المذكورة « هذا حد المسجد النبوى » . انظر البرزنجى : نزهة الناظرين ، ص ٣٧ ، ولا يزال ذلك موجود إلى اليوم .

ولم يمض على العمارة التى قام بها الأمير شاهين الجمالى وقتا طويلا ، حتى أصابت صاعقة فى التاسع عشر من شهر صفر سنة ٨٩٨هـ « جانبا من المنارة الرئيسية ، فسقط على سطح المسجد بعض أحجارها ، بحيث خسف بعض المبانى التى علو موقف الزائرين »[١] وسلم المسجد من الحريق بسبب خلو منطقة سقوط الصاعقة من الأخشاب[٢].

وبادر شيخ الحرم وناظره الأمير شاهين الجمالى بتنظيف آثار الصاعقة وكتب للسلطان بأمر الحادث ، ثم شرع فى إصلاح « ما أمكنه من ذلك ، وترك الباقى إلى مجيء مهندسها أو غيره » [٣] ممن له دراية بالعمل . ولحسن الحظ لقد كانت الآثار طفيفة جدا . ويعتبر ذلك خاتمة الأعمال فى عهد الأشرف قايتباى بل فى عهد الدولة المملوكية كلها . فلم يتمكن أحد السلاطين الذين تولوا عرش مصر بعد قايتباى من القيام بأى عمل يذكر فى المسجد النبوى الشريف حسب المصادر التى تيسر لى الاطلاع عليها ، ولعل السبب هو أن الدولة المملوكية قد انتهى عهدها على يد العثمانيين سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧م أى بعد خمسة وعشرين سنة فقط من آخر عمارة مملوكية بالمسجد النبوى .

* * *

(١) السخاوى : التحفة اللطيفة ، جـ٢ ص ٢١٢ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ٣ ص ٢٩٤ .

(٢) ذكر السمهودى أنه كان بهذا الجزء من سطح المسجد « قبة لطيفة وحولها ثلاث أخر تسمى مجاريد » وبجوار المنارة بادهنجا للضوء . انظر أعلاه ص٣٣٩ .

(٣) السخاوى : المصدر السابق جـ٢ ص ٢١٢ .

المبحث الرابع
ما تبقى من عمارة وأثاث المسجد النبوى
فى العصر المملوكى

المبحث الرابع

ما تبقى من عمارة وأثاث المسجد النبوى فى العصر المملوكى

أولا : بقايا عمارة الأشرف قايتباى :

مضى على آخر ما قام به قايتباى فى المسجد النبوى الشريف من تعمير وإصلاح أكثر من خمسمائة عام [١] ، ومع ذلك فما يزال فى المسجد لحسن الحظ بقايا من أثاث المسجد وعناصره المعمارية ، التى كانت ومازالت تزين بعض جوانب المسجد الشريف منذ ذلك الوقت ، رغم ما شهده المسجد النبوى فى العصر العثمانى من أعمال وتجديدات كان أولها عمارة السلطان سليمان القانونى سنة ٩٤٦هـ[٢] وآخرها وأهمها ما قام به السلطان عبد المجيد خان فى العمارة الكبيرة التى استمرت من سنة ١٢٦٥ إلى سنة ١٢٧٧هـ[٣].

أ ـ الحجرة الشريفة :

تعتبر عمارة الحجرة الشريفة وما يحيط بها من أهم الأبنية المتبقية حتى الآن من آثار العصر المملوكى ، وقد ذكر ذلك كل من البرزنجى وعلى بن موسى الذى قال : « وأما الحجرة المعطرة فأعلم أنه ما تغير من وضعها القديم شىء فى هذه العمارة الأخيرة »[٤] ويرى ذلك أيضا البتنونى وإبراهيم رفعت باشا وعبد القدوس الأنصارى [٥] ، ولعل بقاء مشبك الحديد الذى يحيط بها إلى الآن وما به من

---

(١) كانت عمارة قايتباى الأخيرة التى حدثت عقب صاعقة سنة ٨٩٨هـ آخر عمارة للمسجد النبوى فى العصر المملوكى كما أسلفت ، ويذكر البرزنجى فى نزهة الناظرين ، ص ٢٢ أنه مضى عليها إلى زمنه أكثر من أربعمائة سنة .

(٢) محمد بن جعفر الرومى : التحفة اللطيفة فى عمارة المسجد وسور المدينة ص ٩٠ .

(٣) البرزنجى : المصدر السابق ص ٤٤ ، على بن موسى : وصف المدينة المنورة ص ٥٧ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٥ ، وصف المدينة ص ٦٥ .

(٥) الرحلة الحجازية ص ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ومرآة الحرمين جـ١ ص ٤٦٦ ، وآثار المدينة المنورة ص٩٦ .

كتابات صريحة مما يؤيد كذلك بقاءها محتفظة بعمارة قايتباى لها إلى الوقت الحاضر[1].

ولا تزال القبة محتفظة أيضا بعمارة قايتباى لها إلى الوقت الحاضر فيما عدا بعض الإصلاحات التى حدثت لها فى عهد السلطان العثمانى محمود الثانى ، وذلك لأنه قد حصل بمحدبها شقوق فى سنة ١٢٣٣ هـ « فورد أمره الشريف بتجديدها فهدموا أعاليها وأعادوها فى غاية الإحكام والإتقان » [2] وقد أمر هذا السلطان بدهنها باللون الأخضر سنة ١٢٥٣هـ[3]. وقد تشكك عبد القدوس الأنصارى فى بقاء هذه القبة محتفظة ببعض جوانبها التى شيدت فى عهد الأشرف قايتباى إلى الآن [4]. بيد أنه يتبين من مراجعة النصوص التى اعتمد عليها أنها لا تشير صراحة إلى هدم القبة بكاملها[5] بل أن إبراهيم رفعت باشا وهو مصدره

---

(١) انظر أعلاه ص ٣٤٤ .

(٢) البرزنجى : نزهة الناظرين ، ص ٧٧ ، على بن موسى : وصف المدينة المنورة ، ص ٦٦ حيث ذكر أن أمر السلطان المذكور ورد إلى القائم بأمر الحرم الشريف فى عهده ، ثم ذكر طريقة هدم أعالى القبة واصلاحها فقال : أنه أدخل الخشب من فتحات القبة التى تحيط برقبة القبة ثم غطاها بما منع من نزول التراب إلى الحجرة المعطرة « وشرع فى تنزيل القبة الخضراء مع كمال الأدب حتى وصل إلى الكبوش (؟) ، إختار بناءها من الطوب الكبير المربع بالخرج (؟) القوى فطويت فى أسرع وقت على وضعها الموجود الآن » . وذكر فى ص ٦١ أن القبة قبل هذا الاصلاح كانت من الخشب وملبسة بألواح الصينى الأخضر ، مما يتعارض مع النصوص التى ذكرت بناءها بقوالب الأجر فى عهد الأشرف قايتباى . لذلك يعتقد أنه اعتمد على ما ذكر من وضعها قبل الحريق الثانى . وأما تلبيسها بالصينى الأخضر فحدث فى أول العصر العثمانى لأن اللون الأخضر كانت له السيادة عند العثمانيين .

(٣) البرزنجى : المصدر السابق ، ص ٧٧ .

(٤) آثار المدينة المنورة ، ص ١٠٧ .

(٥) النصان اللذان اعتمد عليهما : أحدهما فى مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت باشا ، جـ١ ص ٤٦٥ حيث جاء « وفى سنة ١٢٣٣هـ بنى السلطان محمود القبة الشريفة ثم أمر بترميمها ودهانها باللون الأخضر سنة ١٢٥٥هـ » ، والنص الثانى للبتنونى فى الرحلة الحجازية ص ٢٤٥ حيث ذكر أنه « فى سنة ١٢٣٣هـ بنى السلطان محمود القبة الشريفة ، ثم أمر بترميمها ودهانها باللون الأخضر فى سنة ١٢٥٥هـ » ويبدو مما ذكره البتنونى أنه منقول بنصه عن إبراهيم رفعت باشا . ومع ذلك فالفعل بنى « فيما ذكره إبراهيم رفعت باشا يتعارض مع ما ذكره فى آخر عبارته من أن السلطان « أمر بترميمها ودهانها » إذ الترميم يعنى اصلاح ما هو قائم فعلا .

الأول يذكر أن عمارة السلطان عبد المجيد التى انتهت سنة ١٢٧٧ هـ قد « تناول المسجد كله خلا المقصورة وما فيها »[١].

أما النص المنقول من مرآة الحرمين لأيوب صبرى والذى يتضمن هدم القبة والحجرة معا[٢]، فإن ما يذكره البرزنجى وعلى بن موسى من تجديد السلطان العثمانى لجزئها العلوى أقوى من كل رأى آخر ، لأنهما كانا من سكان المدينة الذين يعتد برأيهم ، وفضلا عن ذلك فإن لدينا دليلا ماديا يدعم ذلك ويقويه ، وهو بقاء كتابات تسجل اسم قايتباى على جدران القبة من الداخل شاهدها البرزنجى سنة ١٢٩٦هـ أى بعد ثلاث وستين سنة من ذكر هدم السلطان محمود الثانى للقبة كما ذكر أيوب صبرى[٣].

ويذكر البرزنجى أنه دخل من أحد شبابيك القبة فى سنة ١٢٩٦هـ فرأى القبة كما يقول : « فى غاية الحسن والارتفاع مزينة بنقوش ظريفة عليها طراز فيه كتابات بخط جلى لم يمكننى إلا قراءة ما قابلنى من جهتها الغربية وهو أنشأ هذه القبة العالية المعترف بالتقصير الراجى عفو ربه القدير قايتباى »[٤]. وليس بعد ذلك الدليل المادى دليل آخر .

---

(١) مرآة الحرمين ، جـ١ ص ٤٦٦ .

(٢) ذكر الأنصارى فى آثار المدينة ، ص ١٠٧ ترجمة ملخص النص الوارد فى مرآة الحرمين الذى قال عنه أنه « أكمل تأليفه باللغة التركية فى سنة ١٢٩٦هـ وطبع فى الأستانة فى سنة ١٣٠٠هـ « فى عهد السلطان محمود خان الثانى وجد فى القبة الخضراء تشقق ، وذلك بسبب عدم متانة جدرانها وعدم متانة حزامها العلوى ، فأمر السلطان محمود بهدمها من قواعدها ، وبناها على قواعد متينة ورفع بناها الحالى » . ثم قال الأنصارى بعد ذلك « ويؤيد أن القبة الخضراء الحالية عثمانية البناء هذا الهلال الموضوع فوقها ، وهو شعار الدولة العثمانية كما هو معروف » . والهلال المذكور هو مما أحدث أثناء تجديدها فى عهد آل عثمان . بيد أنه وإن كنت لم أجد من يشير إلى وجود مثل هذا الهلال بأعلى القبة المذكورة أثناء عمارتها فى عهد السلطان قايتباى إلا أن ما يذكره السمهودى من وجود هلال بأعلى القبة السفلى التى وضعت فوق القبور الشريفة فى العمارة الأولى سنة ٨٨١هـ ووجود أهلة على منارات المسجد الأربع يدعو إلى الاعتقاد بأنه كان للقبة الكبرى هلال أيضاً .

(٣) نقل عبد القدوس الأنصارى فى آثار المدينة ، ص ١٠٧ عن أيوب صبرى قوله أن السلطان محمود الثانى هدم القبة سنة ١٢٣٣هـ .

(٤) نزهة الناظرين ، ص ٧٠ .

بيد أن القبة بوضعها الحالى مزيج من العمارة المملوكية والتركية ، وإن كان يغلب عليها اتصافها بالسمات المميزة للقباب المملوكية العالية التى تختلف عن القباب العثمانية المنخفضة [١]، ويبدو ذلك واضحا عند مقارنتها بالقباب الموجودة حاليا فى سطح مقدم المسجد والتى تمثلها الصورة رقم (٥٨) ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أنه لم يعد باق من إسطوانات العمارة المملوكية سوى إسطوانات الحجرة الشريفة وأكتافها الحاملة للقبة المذكورة ، وإسطوانة لا يقوم عليها بناء تقع « على يمين الخارج من باب المنارة الرئيسية أمام الوجه الشريف » [٢]، تركت عند هدم الإسطوانات المملوكية فى بقية المسجد فى عمارة السلطان عبد المجيد ، وهى تكاد تتساوى فى الطول مع الإسطوانات القائمة فى مقد المسجد الآن ، إلا أنها أقل منها فى الحجم ، أما بقية الإسطوانات فهى عثمانية البناء .

ب ـ المنارة الرئيسية :

أما المنارة الرئيسية فتحتفظ بعمارتها المملوكية حتى الوقت الحاضر ويؤيد ذلك عدد من النصوص التى تعود إلى فترات مختلفة ، يثبت كل منها بناء المنارة فى زمنه على هيئتها القديمة ، فيذكر ابن حجر الهيثمى المتوفى سنة ٩٧٤هـ عن عمارة الأمير شاهين الجمالى لهذه المنارة أنه « أعادها بالاتقان ورخمها كما ترى»[٣] ، ويذكر على بن موسى المتوفى فى حدود سنة ١٣٢٠هـ أن بناءها « على وضعه القديم من زمن قايتباى لم يتغير فيها شىء »[٤] ويشير عبد القدوس

---

(١) انظر كمال الدين سامح : تطور القبة فى العمارة الإسلامية ، ص ٢٣ .

(٢) البرزنجى : المصدر السابق ، ص ٤٣ .

(٣) تحفة الزوار إلى قبر النبى المختار ، ص ٩٥ .

(٤) وصف المدينة المنورة ، ص ٦١ . ومما يؤيد النصوص السابقة من حيث عدم تعرض هذه المنارة للهدم والبناء طيلة العهد العثمانى أن أحد المؤرخين المعاصرين لأول عمارة قامت فى المسجد النبوى فى عهد السلطان سليمان القانونى لم يشر فى رسالته « التحفة اللطيفة فى عمارة المسجد النبوى وسور المدينة الشريفة » المنشور فى كتاب رسائل فى تاريخ المدينة ص ٨٥ ـ ٩٢ إلى حدوث أدنى تغيير فى معالمها المملوكية الأصلية سوى تركيب الهلال الحالى فى حدود ٩٤٦هـ كما صرح به فى رسالته « وضع الأهلة فوق القبة ومنائر الحرم المدنى » المنشورة فى الكتاب المتقدم ذكره ص ١٩٧ .

الأنصارى إلى أنها من بناء الأشرف قايتباى[١]. ومع ذلك فمن المؤكد أنها قد تعرضت منذ عهد قايتباى لبعض الترميمات كما ذكر ذلك البرزنجى والأنصارى[٢]، وكما يبدو فى الصورتين المرفقتين شكل (٥٨) من اختلاف شرافات الشرفة الأولى[٣] .

جـ ـ المحرابان النبوى والعثمانى :

أما المحربان النبوى ، لوحة (٥٩) والعثمانى ، لوحة (٦٠) فهما « على بناء المرحوم الملك الأشرف قايتباى »[٤] لم يتغير منهما شيء سوى تمويههما بماء الذهب ، ويتحليان بكثير من الآيات القرآنية كتبت بخط بارز جميل فى إطار ضيق يحيط بالجزء العلوى من المحرابين .

ومما يدل على بقاء المحراب النبوى إلى الوقت الحاضر على نحو ما كان عليه فى عهد قايتباى وجود نقش كتابى بظهره فى لوح رخامى مربع منقوش فيه بخط بارز نص تذكارى فى خمسة أسطر[٥] .

واحتفظ المحراب العثمانى كذلك بعمارة قايتباى له ، رغم تعرض الجدار الذى يقوم فيه للهدم أثناء عمارة السلطان عبد المجيد للمسجد النبوى وذلك « لإحكام بنائه »[٦] أما المحراب السليمانى فقد بقى محتفظا بعمارة قايتباى له حتى سنة ٩٤٧ عندما ورد فى آخر تلك السنة صحبة أمير الحج المصرى مراسيم تقضى بتقديمه وتجديده فشرعوا فى سابع محرم سنة ٩٤٨ هـ ، « فى بناية محراب

---

(١) آثار المدينة المنورة ص ٩٩ ، وانظر أيضاً على حافظ : فصول من تاريخ المدينة المنورة ص ٦٧ .

(٢) نزهة الناظرين ص ٣٠ ، ٥٨ حيث يذكر أنهم جددوا بابها فى عمارة السلطان عبد المجيد للمسجد النبوى ، وانظر آثار المدينة المنورة ص ٩٩ .

(٣) عن وصف هذه المنارة انظر أعلاه ص ٣٥٣ .

(٤) على بن موسى : وصف المدينة المنورة ، ص ٦١ ، وانظر البرزنجى : نزهة الناظرين ، ص ٤١ .

(٥) انظر أعلاه ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ .

(٦) البرزنجى : المصدر السابق ، ص ٤١ .

الحنفية وجعله بين المنبر وحد المسجد النبوى محاذيا لمحراب الشافعية »[١].

ونقش فى لوح رخامى بخط بارز فى خمسة سطور جعل فى ظهر المحراب المذكور النقش التالى : (انظر اللوحة رقم « ٦٩ ») .

أنشأ هذا المحراب المبارك الملك المظفر

السلطان سليمان شاه بن السلطان سليم

خان بن السلطان بايزيد خان اعز الله

أنصاره بمحمد واله وسلم تاريخ شهر جمادى

الأولى سنة ثمان وتسعماية من هجرة النبوية

ويلاحظ أن التاريخ الوارد فى نهاية النص لا يقع فى عهد السلطان سليمان ابن السلطان سليم وهو ما يتجلى فيما يلى :

أولا : تقع سنة ٩٠٨هـ فى عهد السلطان المملوكى قانصوه الغورى الذى حكم مصر من ٩٠٦ إلى ٩٢٢هـ / ١٥٠٠ ـ ١٥١٦م وكانت له السلطة على الحجاز لا ينازعه فيها منازع .

ثانيا : من الثابت تاريخيا أن سلطة الدولة العثمانية على الحجاز بدأت بفتح العثمانيين مصر سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م وليس قبل ذلك[٢].

ثالثا : تولى السلطان سليمان القانونى عرش الدولة العثمانية فى سنة ٩٢٦هـ حتى توفى عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م[٣].

رابعا : يذكر مؤرخ معاصر وهو ابن خضر الرومى أن المحراب السليمانى قدم من موضعه الأول إلى محاذاة المحراب النبوى الشريف فى سنة ٩٤٨هـ [٤].

---

(١) محمد بن خضر الرومى : التحفة اللطيفة فى عمارة المسجد النبوى وسور المدينة الشريفة ص ٩٢.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ٥ ص ١٥٢ ، العصامى : سمط النجوم العوالى جـ٤ ص ٢٩٢ .

(٣) أحمد السعيد السليمانى : تاريخ الدولة الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة جـ٢ ص ٤٥١ .

(٤) محمد بن خضر الرومى : التحفة اللطيفة ، ص ٩٢ ويذكر حمد الجاسر عن هذا المؤلف فى تقديمه له فى ص ٢٢ من كتاب رسائل فى تاريخ المدينة أنه كان قاضى الحنفية بالمدينة المنورة وأن عبد العزيز الأهوانى يرجع وفاته إلى سنة ٩٤٨هـ / ١٥٤١م .

ولعل الاختلاف الواضح بين طرازى المحراب النبوى والمحراب السليمانى دليل كاف على عثمانية المحراب الثانى فضلا عن أن النقش المذكور يتضمن اسم السلطان العثمانى ، مما يكفى للدلالة على أنه لا يمت إلى العصر المملوكى بصلة.

ويذهب البرزنجى ، الذى يبدو أنه لم يطلع على ما ذكره ابن خضر الرومى إلى أن ذلك كان فى سنة « ثمان وعشرين وتسعمائة أو ثمان وثلاثين » [1]. معتمدا فى الحالة الثانية على حدوث عمارة للسلطان سليمان فى سور المدينة سنة ٩٣٩هـ، بيد أننى أرجح أن ذلك كان مزامنا للعمارة التى تمت فى المسجد النبوى سنة ٩٤٨هـ فى عهد السلطان المذكور على يد شيخ الحرم الشريف محمود جلبى[2]، وبذلك يكون قد سها النقاش عن كتابة « أربعين » بين « ثمان » و«تسعماية» . ولعل ضيق السطر واشتماله على سبع كلمات مجموع حروفها ٣٤ حرفا بغير واو العطف ولفظ « أربعين » وعدد حروفهما سبعة فى حين لا يزيد أى سطر آخر عن ٣٢ حرفا كانا مما ساعد على ذلك السهو ، وهو سهو محتمل جدا فى ضوء ما ذكرت .

ويتفق رقم الآحاد فى النقش وهو ثمانية مع رقم الآحاد فى التاريخ الذى يذكره ابن خضر الرومى ، مما يقوى الاعتقاد فى صحة ما ذهبت إليه ، وهكذا يؤيد النقش ، على ما فيه من نقص ، تاريخ ابن خضر الرومى الذى يظن أنه توفى سنة ٩٤٨هـ، وينفى التاريخين اللذين ذهب إليهما البرزنجى المتوفى سنة ١٣١٧هـ، ٩٢٨ و ٩٣٨هـ ، وإن كان يلفت النظر أن رقم الآحاد فى كل منهما يتفق ورقم الآحاد فى النقش كما يتفق ورقم الآحاد فيما يذكره ابن خضر الرومى فى تاريخه. ويغلب على الظن أنه قد فات المشرف على العمل ملاحظة النقص فى النقش وإلا لكان أمر بتغييره .

ومهما يكن من أمر فقد كان النقش المذكور بما يحتويه من تأريخ غير صحيح

---

(١) نزهة الناظرين ، ص ٥٠ .

(٢) محمد بن خضر الرومى : التحفة اللطيفة ، ص ٩١ .

سببا لعدم الأخذ بالرأى السليم عند بعض المؤرخين المعاصرين . فأحمد ياسين الخيارى يعتمد على تأريخ النقش فى تأريخ إقامة المحراب [١] . ويشير عبد القدوس الأنصارى إلى أن ذلك كان فى سنة ٩٣٨هـ[٢] معتمد فى ذلك فيما يبدو على البرزنجى .

ثانيا : ما تبقى من آثاث المسجد النبوى فى العصر المملوكى :

أ- منبر الأشرف قايتباى وهو موجود الآن فى مسجد قباء :

ذكرت عند الحديث عن عمارة قايتباى الثانية تجديده للمنبر الشريف المحترق فى سنة ٨٨٦هـ بمنبر من الرخام حل محل منبر الأجّر الذى أقامه أهل المدينة بعد الحريق المذكور فى شهر رجب سنة ثمان وثمانين وثمانمائة[٣] بيد أنه انحرف قليلا عن الوضع الذى كان عليه المنبر النبوى الشريف .

وكان منشأ هذا الانحراف الذى حذر منه السمهودى ، محافظة المكلفين بتركيبه على الوضع الذى كان عليه منبر المؤيد شيخ قبل الحريق الثانى ، والذى اختلف فى طوله وعرضه عن المنابر السابقة ، لأنه صنع أصلا لغير الموضع الشريف. وكان فى اتضاح موضع قوائم المنبر النبوى بعد قطع أرض مقدم المسجد فى عمارة قايتباى دليل كاف على وجوب التقيد به . إلا أن ذلك لم يتم رغم وضوح الأدلة التى أدلى بها السمهودى فى هذا الصدد عند طلبهم ذلك منه[٤] فعمدوا إلى نقض الدكة التى كان عليها المنبر الأول « وزادوا خلف أحجار الحوض المذكور[٥] نحو ربع ذراع العمل[٦] حتى ساوى ذلك محل المنبر المحترق من جهة

---

(١) تاريخ مساجد المدينة الأثرية ، ص ١١ .

(٢) آثار المدينة المنورة ، ص ٩٥ .

(٣) انظر أعلاه ص ٣٢٣ .

(٤) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤١٠ .

(٥) ذكر السمهودى فى وفاء الوفا جـ٢ ص ٤٠٤ أنهم حفروا عندما أرادوا تركيب منبر الرخام الذى أرسله قايتباى ، حول مكان المنبر القديم وهو عبارة عن دكة من الرخام « فظهر أنها منخفضة عن أرض المصلى الشريف » يسيرا .

(٦) أى حوالى ١٦ سم لأن ذراع العمل كما يقول فالترهنتس فى المكاييل والأوزان الإسلامية ، ص ٨٩ = ٦٦٫٥ سم .

القبلة ، وحرفوه على تلك الدكة لجهة الغرب أزيد من تحريف المنبر المحترق ، وجعلوا هذا المنبر في محل المحترق من جهة القبلة ومساو لطرفها الشرقي مما يلي القبلة أيضا »[١].

وقد انتهى الجدال الذي قام على أثر تحريف المنبر على الصورة المتقدمة بتمسك القائمين عليه بصحة رأيهم والتصريح للسمهودي بأنه لا يعوّل على كلام الأئمة الذين احتج بأقوالهم[٢]. وقد نتج عن هذا التحريف تغير طفيف في حدود الروضة .

ومهما يكن من أمر فإن ما يهمني هنا هو التثبت من أن المنبر الموجود في مسجد قباء حاليا هو منبر قايتباي الذي كان بالمسجد النبوي . ولقد أشار إلى ذلك البرزنجي عقب الحديث عن منبر السلطان مراد الذي وضع في المسجد النبوي سنة ٩٩٨هـ فذكر أنه نقل إلى مسجد قباء[٣]. وذهب إلى ذلك أيضا إبراهيم رفعت باشا[٤] وعبد القدوس الأنصاري[٥] وعلي حافظ[٦].

وكان يمكن الاكتفاء بما ذكر في إثبات إنتماء المنبر المذكور إلى الأشرف قايتباي ، بيد أن بروز سمات الخط المملوكي في الآية الكريمة المنقورة على عتبة باب المنبر ، لوحة (٦٣) مما يؤيد أيضا ذلك ويقويه ، فضلا عن مطابقة الوصف الذي أورده السمهودي لما يتصف به هذا المنبر وللقياسات التي قمت بها . فقد جاء في الوفا أن هذا المنبر « أقصر من امتداد المنبر المحترق في الأرض بنحو ثلاثة

---

(١) السمهودي : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٤١٢ .

(٢) كان ما تفوه به خصومه دون علم بمكانة العلماء الذين ساق أقوالهم مما دعا السمهودي إلى تأليف رسالة في هذا الموضوع سماها « النصيحة الواجبة القبول في بيان وضع منبر الرسول ﷺ » انظر وفاء الوفا جـ٢ ص ٤١١ .

(٣) نزهة الناظرين ، ص ٥٣ .

(٤) مرآة الحرمين ، جـ١ ص ٤٧١ .

(٥) آثار المدينة المنورة ، ص ٨١ .

(٦) فصول من تاريخ المدينة المنورة ، ص ١٢٥ .

أرباع ذراع[١]، وعدد درجه مع مجلسه كالمحترق [٢]، ومحل عود المنبر الأصلى منه مما يلى الروضة وهو الذى كان بأعلاه رمانة المنبر النبوى قبل عمود هذا المنبر بأزيد من قيراط ، وذلك على نحو ذراعين وشىء من طرف المنبر المذكور من قبله»[٣].

وأجزاء المنبر كلها من الرخام ما عدا قبته وبابه الذى يتألف من مصراعين والقبة والباب من خشب الزان المنقوش بزخارف هندسية جميلة ، لوحة (٦٣) ، وأول ما يلفت النظر فى هذا المنبر اختلاف الرخام فى كثير من أجزائه ، ومرد ذلك فيما يبدو إلى تلف كثير من ألواح الرخام عند قلعة سنة ٩٩٨هـ ، من المسجد النبوى وتركيبه فى مسجد قباء مما أوجب إستبدال ما تلف بغيره .

ويبلغ عرض المدخل ٦٦ سم وارتفاع الباب ١٥٦ سم . ويتوج هذا المدخل عتبة من الرخام طولها ١٢٥سم وعرضها ٤٤ سم منقوش فى واجهتها مما يلى المسجد بخط بارز ضمن إطار مستطيل (٩٨×١٧ سم) الآية الكريمة التالية : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم ﴾[٤] ويبلغ ارتفاع خافقى المنبر[٥] ٨٠ سم تقريبا ، يفصل بينهما مسافة

---

(١) ذكر السمهودى فى وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٤١٠ أن طول منبر المؤيد شيخ « من جهة بابه إلى مؤخره ثمانية أذرع ونصف راجحة » وذكر أن منبر الأشرف قايتباى أقصر من سلفه بنحو ثلاثة أرباع ذراع . ومؤدى ذلك أن طول هذا المنبر ٧٫٧٥ من الذراع . وقد تبين لى أن طول المنبر حسب قياسى له ٣٫٤٨ من المتر ، وعلى ذلك فإن مقدار الذراع الذى استخدمه السمهودى هو أكثر قليلا من ٤٦ سم ، وهو مساو تقريبا لما ذكره فى المصدر السابق جـ١ ص ١٠٣ من أن الذراع يساوى « أربعة وعشرين إصبعا ، كل أصبع ست شعيرات مضمومة بعضها إلى بعض » . والأصبع أقل قليلا من سنتيمترين .

(٢) حسب عدى لدرجه فإنها ثمان درجات بمجلسه وعدد درج المنبر المحترق كما صرح به السمهوى فى المصدر السابق جـ٢ ص ٤١٠ ثمان أيضاً .

(٣) السمهودى: المصدر السابق جـ٢ ص ٤١٢ .

(٤) سورة النحل ، آية رقم ٩٠ والآية تنقصها كلمتان هما « لعلكم تذكرون » وكان السبب فى انتقاصهما من النقش المذكور صغر المساحة التى نقشت عليها الآية المذكورة .

(٥) الخافق هو الجزء الذى يحيط بدرج المنبر ويتكون فى منابر الخشب القديمة من درابزين من الخشب المخروط بيد أنه فى منبر مسجد قباء بناء ملبس بالرخم من داخل الدرج وخارجه .

قدرها ٧٦سم ، وللمنبر سبع درجات ارتفاع كل درجة عن الأخرى ٢٠ سم ، وتليها جلسة الإمام التى يبلغ ارتفاعها ٥٠ سم .

ويعلو جلسة الإمام مظلة محمولة على أربع دعائم ، ويبلغ ارتفاع المظلة عن الأرض ٣٤٧ سم ويتوسط سطحها قبة مضلعة مصنوعة من خشب يشبه الخشب المصنوع منه باب المنبر شكل (٦٣) ، وبالقبة زخارف هندسية تشبه الزخارف التى يتحلى بها الباب المذكور ، وارتفاعها ٩٥سم ويعلو القبة جزء مخروطى خالٍ من الزخارف بأعلاه هلال من النحاس وطوله من قمة الهلال حتى سطح القبة ٢٧٠ سم .

وعلى هذا فإن ارتفاع المنبر من أعلى هلاله إلى أرض المسجد سبعة أمتار واثنا عشر سنتيمتر ، وهو ارتفاع يتناسب مع ارتفاع سقف المسجد النبوى الشريف بعد عمارة قايتباى الثانية ، الذى ذكر السمهودى عنه أنه « اثنان وعشرون ذراعا »[١] أى حوالى ٩٫٩٠م[٢].

وامتداد المنبر من مؤخره إلى عتبة بابه ثلاثة أمتار وثمانية وأربعون سنتيمترا والمنبر تحفة فنية نادرة ومع ذلك لا يرقى بأية حال من الأحوال إلى ما وصل إليه المنبر الموجود حاليا فى المسجد النبوى الشريف والذى يعد بحق من العجائب النادرة[٣].

* * *

---

(١) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٦٨٥ .

(٢) على اعتبار الذراع الذى ثبت أن السمهودى كان يستخدمه وهو يساوى ٤٦سم وحوالى ١٦ر١٠ من المتر على اعتبار الذراع = ٣ر٥٠ سم على ما قال به فالترهنتس

(٣) البرزنجى : نزهة الناظرين ، ص ٥٢ .

٢ - كنوز الحجرة الشريفة :

إقتدى كثير من المسلمين لا سيما الموسرين وولاه الأمر منهم بما فعله تميم الدارى وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما من إسراج المسجد وتجميره[١] وعلى أثر ذلك بدأت تتوالى على المسجد النبوى الشريف أدوات التجمير ولوازمه الثمينة ، والقناديل الفاخرة من الذهب والفضة وكان عددها يزداد بمرور الأعوام مما أوجب إستحداث حاصل لحفظها بصحن المسجد سنة ٥٧٦هـ على غرار بيوت المال التى كانت تقام داخل قبة وسط صحن المسجد الجامع[٢].

وقد حفظت لحسن الحظ مجموعة من النصوص المختلفة ، يمكن الاستعانة بها فى ترسم محتويات المسجد من هذه القناديل . فقد ذكر ابن رستة الذى زار المدينة سنة ٢٩٠ هـ أن عدد قناديل « مسجد رسول الله ﷺ ثمانية وثمانون قنديلا مع ثريا القبلة ، وعدد قناديله مما يلى الشام خمسة وثمانون قنديلا ، ومما يلى المشرق (خمسة) وأربعون قنديلا ، ومما يلى المغرب اثنان وسبعون قنديلا ، فذلك مائتان وتسعون قنديلا »[٣] وقال عنها أبو عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ أنها ٢٧٠ قنديلا[٤] وعدها كاتب مراكشى من القرن السادس ٢٨٤ قنديلا[٥] ، أما ابن جبير الذى زار المسجد الشريف سنة ٥٨٠ هـ فلم يذكر سوى القناديل التى أمام الوجوه الشريفة وعددها عشرون قنديلا فيها اثنان من الذهب والباقى من الفضة[٦]. وسار ابن النجار على طريقة ابن جبير فى الاكتفاء بعدّ قناديل المواجهة الشريفة ،

---

(١) عن اسراج تميم الدرى للمسجد النبوى فى عهد الرسول عليه السلام ، انظر السمهودى : وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٩٦ . وعن تجمير المسجد فى عهد عمر رضى الله عنه انظر ابن رستة : الأعلاق النفيسة ، ص ٦٦ ، ابن النجار : الدرة الثمينة ، السمهودى : المصدر السابق ، جـ٢ ص ٦٦٣ .

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ١٠ ص ٢٤٩١ .

(٣) الإعلاق النفيسة ، ص ٧٦ .

(٤) جزيرة العرب « من كتاب المسالك والممالك » ص ٨٩ .

(٥) كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، ص ٤١ .

(٦) رحلة ابن جبير ، ص ٤٧٠ .

باعتبارها فيما يظن أجمل ما فى المسجد وأثمنه فيذكر أنه كان « فى سقف المسجد الذى بين القبلة والحجرة على رأس الزوار إذا وقفوا معلق نيف وأربعون قنديلا كبارا وصغارا من الفضة المنقوشة والساذجة وفيها اثنان بلور وواحد ذهب ، وفيها قصر[١] من فضة مغموس فى الذهب ، وهذه تنفذ من البلدان من الملوك وأرباب الحشمة والأموال »[٢] وذكر عن مجمرة المسجد فى زمنه أنها منقوشة وقد كانت كذلك فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ثم غيرت فى ولاية إبراهيم بن يحيى للمدينة [٣]، بواحدة لا نقوش فيها[٤]. ولا يعرف على وجه الدقة متى أهديت للمسجد النبوى المجمرة المنقوشة التى شاهدها ابن النجار ، كما لا تعرف صفة النقوش التى كانت عليها .

ومهما يكن من أمر فإن ما تلف من هذه القناديل ، التى كانت تنتمى إلى فترات مختلفة ، فى الحريق الأول سنة ٦٥٤هـ كان كبيرا جدا ، ولكن ما سلم منها مما كان مخزونا فى قبة الصحن قد قلل من حجم الخسارة المذكورة . فقد أخرجت هذه القناديل بعد عمارة المسجد النبوى ، وعلقت فى سقوف أروقته مع القناديل التى وصلت من البلاد الإسلامية وخاصة مصر التى أصبح أمر المسجد الشريف وغيره من بلاد الحجاز فى هذه الفترة بيد سلاطينها المماليك . وقد راحوا يتنافسون فى إهداء أثمن القناديل وأجمل الشمعدانات إلى المسجد النبوى الشريف والحجرة المطهرة ، حتى اجتمع من ذلك فى عهد الدولة المملوكية الأولى شىء كثير . ودعا ذلك بأحد السلاطين إلى التفكير فى بيع ما تجمع منها وصرف ثمنه فى عمارة المسجد ، مما حدا بالإمام السبكى (٦٨٣ - ٧٥٦ هـ) إلى تأليف فتوى شرعية سماها « تنزيل السكينة على قناديل المدينة » ، أوضح فيها أنها من أوقاف

---

(١) لعل المقصود بذلك أن منها قنديلا على شكل قصر من فضة مغموس فى قاعدة من معدن الذهب .

(٢) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ص ١٤٠ .

(٣) كانت ولاية إبراهيم بن يحيى للمدينة فى سنة ٦٦ ، ٦٧هـ كما ذكر الفاسى فى العقد الثمين، جـ٣ ص ٢٧٣.

(٤) ابن النجار : المصدر السابق ، ص ٨٤ .

المسلمين ، وأنه لا يجوز مطلقا مخالفة الشروط التى وقفت بموجبها هذه الكنوز . ثم أوضح الطرق الشرعية لصرف أثمانها[١] . بيد أن ما أفتى به لم يحل دون بيعها أو استخدام ثمنها فى عمارة المسجد ، كمنارة باب السلام التى عمرت سنة ٧٠٦هـ بأثمان القناديل التى باعها كافور المظفرى[٢] ، وكبيع معظم القناديل فى عمارة الأشرف قايتباى الأولى سنة ٨٨١هـ[٣] .

ويذكر السمهودى أنه استمر إهداء القناديل من الذهب والفضة للمسجد النبوى حتى زمنه ، وقد نقل عن أحد المؤرخين إحصاءاً لما يرد فى بعض السنين منها للمسجد الشريف ، فذكر أنه ورد « فى سنة خمسة عشر قنديلا ، وفى أخرى ثلاثة عشر ، وفى أخرى عشرة وفى أخرى إحدى وعشرين »[٤] ثم ذكر أنها ضبطت فى سنة ٨٦٢هـ على يد الأمير بردبك التاجى ، فكان وزن قناديل الذهب ٦٤٨٠ قفلة[٥] ، ووزن قناديل الفضة ٣٢٦٥٠ قفلة[٦] ، ثم ضبطت فى أول سنة ٨٨١هـ بأمر السلطان قايتباى « فكان عدة معاليق الذهب ثمانية عشر قنديلا وبعض قنديل ، وأربع مشنات[٧] ومغرافان[٨] وسواران ، وزنة ذلك سبعة آلاف قفلة وستمائة وخمسة وثلاثون من ذلك قنديل كبير فى جهة الوجه الشريف زنته أربعة آلاف وستمائة قفلة ، أهداه سلطان الكلرجة شهاب الدين أحمد ، وعده معاليق

---

(١) فتاوى السبكى ، جـ١ ص ٢٧٥ ـ ٢٩٢ .

(٢) انظر أعلاه ص ٢٤٩ .

(٣) انظر أعلاه ص ٣١٤ .

(٤) وفاء الوفا ، جـ٢ ص ٥٨٥ .

(٥) أى دينار كامل الوزن وهو ما يقدر ٤٫٢٥ جرام من الذهب وعن القفلة انظر ابن منظور : لسان العرب ، جـ١١ ص ٥٦٢ ، الفيروزبادى : القاموس المحيط جـ٤ ص ٤٠ ، الزبيدى : تاج العروس ، جـ٨ ص ٨٣ .

(٦) أى درهم كامل الوزن ، وهو ما يقدر ٢٫٩٨ جم .

(٧) المشنة هى القفة أو الزنبيل من قصب أو خوص ، انظر دوزى : المعجم المضاف على القواميس العربية جـ١ ص ٧٨٩ ، وهى فى هذا النص قفة من أسلاك الذهب .

(٨) المغراف : أداة من حديد يغرف بها الطعام أو يقلى فيها الشىء أو يصفى بها ، انظر : دوزى فى المرجع السابق جـ٢ ص ٢٠٨ وتعنى هنا مغراف من ذهب .

الفضة ثلاثمائة قنديل وأربعة وأربعون قنديلا وثرية كبيرة وزنة ذلك؛ ستة وأربعون ألف قفلة وأربعمائة وخمسة وثلاثون قفلة »[١].

أما عدد القناديل المستخدمة في زمن السمهودى فقد ذكر أنها مائتان وخمسون قنديلا ونحو المائة تسرج في بعض الأوقات هذا عدا المشاعيل الأربعة التى كانت بصحن المسجد وما كانوا يزيدونه من تنانير[٢] وبزاقات[٣] في مقدم المسجد في ليالى الزيارات وليلة سبعة وعشرين من شهر رمضان[٤]. هذا بالإضافة إلى الشمعدانات والمشكوات الزجاجية .

ومهما يكن من أمر هذه القناديل فقد كانت على طول السنين هدفا لذوى النفوس الضعيفة وخاصة بعض أمراء المدينة ، الذين كانوا يعمدون إلى كسر حواصل المسجد النبوى وضرب شيوخه وإهانتهم ثم سرقة قناديله وما به من نذور وودائع ، وذلك عندما كانوا يفاجئون بعزل السلطان المملوكي لهم أو عندما كانت تحل بهم ضائقة مالية ، والأمثلة على ذلك متعددة ومتنوعة الأسباب[٥].

ومع الزمن نمت كثيرا كنوز الحجرة الشريفة وخاصة في عهد العثمانيين المتحمسين للإسلام ، بيد أن أتباع الدولة السعودية الأولى سنة ١٢٢١هـ على المدينة المنورة قد أخذوا جميع محتويات الحجرة الشريفة منطلقين في ذلك من وجهة نظر إسلامية متحمسة[٦] وعند انتهاء الحكم العثمانى للحجاز حمل الحاكم العسكرى لمنطقة المدينة المنورة المدعو فخرى باشا كثيرا من كنوز المدينة الثقافية

---

(١) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٥٨٩ .

(٢) التنانير جمع تنورة وهى مصنوعة من المعدن على شكل الثريا فى الوقت الحاضر ومنها تنورة تزين إحدى قاعات متحف الفن الإسلامى بالقاهرة .

(٣) البزاق شيء مصنوع من الزجاج ، انظر دوزى : المعجم المضاف على القواميس العربية جـ١ ص ٨١ ، وقد ذكر السمهودى فى وفاء الوفا ، جـ١ ص ٣٧٧ أن هذه البزاقات تعرف أيضاً بفرخات القناديل .

(٤) السمهودى : المصدر السابق جـ٢ ص ٦٨١ .

(٥) من ذلك ما حدث فى السنوات ٨١١ ، ٨٢٤ ، ٨٦٠ ، ٨٦٢ ، ٩٠١ ، ١٢٢١هـ .

(٦) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ٨٩ .

وحمل معه أيضا « الكوكب الدرى الذى كان موضوعا على الرأس الشريف وهو واحد من أكبر الماسات الثلاثة الموجودة فى الدنيا »[1] وحمل معها كل ما خف حمله من ذخائر المسجد وكنوزه .

ومهما يكن من أمر هذه الكنوز واختلاف وجهات النظر بشأنها ، فقد استقر فى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ثلاثة شماعد كبار من النحاس لا يعرف على وجه التحديد إلى أى فترة من فترات النهب السابقة يرجع خروج هذه التحف الثمينة من المدينة . على أنه يبدو أن خروجها من المدينة كان بعد إدخال الإضاءة الكهربائية إلى المسجد النبوى سنة ١٣٢٦هـ [2]، مما أدى إلى تساهل المسئولين فى الاحتفاظ بهذه الشماعد وأمثالها من المعادن الرخيصة ، دون معرفة لقيمتها الأثرية التى لم يكن يؤبه بها فى ذلك الوقت .

وقبل وصف هذه الشماعد تحسن الإشارة إلى ما تميزت به أدوات إنارة المساجد من دقة الصنعة وجمال فى الشكل . وكان من ذلك فى المسجد النبوى كما عرفنا أنواعا متعددة من القناديل المصنوعة من الذهب والفضة والثريات الكبيرة والشماعد ، والمشكاوات الزجاجية والمشاعيل الكبار . ويعد العصر المملوكى بحق العصر الذهبى فى صناعة هذه الأدوات وذلك بسبب رعاية السلاطين والأمراء لأربابها ، وتنافسهم فى اقتناء أدقها صنعة وأجملها منظرا[3]. وساعد الرخاء الذى تميز به العصر المملوكى فى تطور الصناعات المختلفة مما أدى « إلى تغالى السلاطين والأمراء فى اقتناء التحف الثمينة التى تحمل غالبا أسماءهم مصحوبة ببعض الألقاب والجمل الدعائية لهم »[4].

---

(١) انظر مقدمة أسعد طرابزونى لكتاب السخاوى : التحفة اللطيفة ، جـ١ ، ص . ك ، حيث ذكر الماسات الثلاث فقال أن الكوكب الدرى أحدهما والثانية ما كان فى التاج البريطانى والثالثة فى التاج الفارسى . ولا يزال هذا الكوكب فى متحف طوبقبى سراى باسطنبول .

(٢) قال عبد القدوس الأنصارى فى آثار المدينة المنورة ، ص ١٠١ أن السلطان عبد الحميد الثانى كان أول من أدخل الكهرباء إلى المسجد النبوى سنة ١٣٢٦هـ .

(٣) حسين عبد الرحيم عليوه : بحث المعادن ، ص ٣٧٧ .

(٤) مايسة محمود : المشكاوات الزجاجية فى العصر المملوكى ، ص ٨١ . رسالة ماجستير لم تطبع .

وإننا نلمس ذلك فى الشماعد الموقوفة على الحجرة الشريفة والمسجد النبوى التى وجدت سبيلها إلى متحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، ولا يبعد وجود شماعد وقناديل تعود إلى العصر المملوكي ضمن محتويات الحجرة الشريفة فى الوقت الحاضر ، بيد أنه لم يسمح لى بالتأكد من ذلك [١].

وفيما يلى دراسة مفصلة للتحف المعدنية المتبقية من كنوز الحرم النبوى الشريف والحجرة الشريفة وأولها الشمعدان التالى :

١ - شمعدان الأمير جانى بك :

يعود هذا الشمعدان إلى عهد السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق (٨٠١ - ٨٠٨هـ) وهو باسم أحد أصحاب دواوين الإنشاء فى عهده ويحمل رقم ١٥٠٦٤ بمتحف الفن الإسلامى - قسم المعادن[٢]. ويختلف هذا الشمعدان عن الشمعدانين المنسوبين لقايتباى وذلك لأنه لا يحتوى فيما يضمه إطاره الخارجى من كتابات إلى ما يشير إلى أنه صنع بقصد وقفه على الحرم النبوى الشريف . فقد استخدم على ما يبدو بعد صنعه فترة من الزمن قبل وقفه على الحرم النبوى ، أو أن النية لم تنعقد على وقفه إلا بعد صنعه وظهوره بمظهر جميل استحق من أجله أن يوقف على المكان اللائق به انظر شكل (٦٤).

---

(١) قال لى أحد المسئولين عن الحرم النبوى الشريف أنهم يدرسون فكرة عرض هذه القناديل فى متحف خاص بالحرم النبوى الشريف فأرجو أن يتحقق هذا المشروع المفيد فى وقت قريب .

(٢) قامت آمال أحمد العمرى بدراسة الشمعدان وغيره ضمن رسالة الماجستير التى تقدمت بها إلى كلية آداب جامعة القاهرة سنة ١٩٦٥ وقد تأكدت فيما يخص الزخرفة والنصوص الكتابية من صحة ما جاء بها من معلومات عن هذا الشمعدان وشمعدان الأشرف قايتباى - الذى يحمل الرقم ٤٠٧٦ بمتحف الفن الإسلامى - اللذين لهما علاقة وثيقة بموضوع بحثى ، مما يقتضينى الإشادة بدقة وصفها للشمعدانين المذكورين . بيد أنها اقتصرت على دراسة شمعدان واحد لقايتباى ، ولم تشر إلى أن بالمتحف نسختين أخريين منه بنفس الوصف والحجم ونوع المعدن ، وهما يحملان رقمين مختلفين ، أحدهما برقم ٤٠٧٦ ، والآخر برقم ٤٢٩٧ .

وقال لى رئيس قسم المعادن أن هناك نسخة ثالثة بنفس الصفات السابقة إلا أننى لم أطلع عليها بسبب إعارتها كما يقول لأحد المتاحف خارج مصر .

وقد دعا ذلك واقفه إلى كتابة عبارات الوقف بخط نسخى غائر صغير غير متقن فى جهتى متقابلتين من داخل الحافة السفلى لبدن الشمعدان تقرأ على النحو التالى :

« وقف الأمير جانى بك وكريمو[١] الأمير قايتباى أمير داوادار[٢] أكبر كان »

وفى الجهة المقابلة :

« برسم الحرم الشريف النبوى عليه أفضل الصلاة والسلام » .

والشمعدان مصنوع من النحاس الأصفر بارتفاع ٤٥ سم[٣]. ويتكون من بدن وعمود وشماعة وارتفاع البدن ٢١٫٥سم وقطر فتحته السفلى ٣٦ سم ، ويتدرج البدن فى الضيق حتى ينتهى بفتحة قطرها ٢٦ سم تتصل بعمود الشمعدان ويدور حول وسطه شريط عرضه ١٣ سم به كتابات نسخية بحروف بارزة كبيرة على أرضية نباتية نصها :

« المقر الشريف العالى المولوى[٤] القضاى[٥] العلائى[٦] ـ صاحب دواوين الإنشا[٧] بالممالك الشريفة الإسلامية » .

---

(١) لم تكن قراءتها واضحة ولعل المقصود بها وكريمة الأمير .

(٢) قال حسن الباشا فى الفنون الإسلامية والوظائف جـ٢ ص ٥١٩ وما بعدها أن الدوادار كلمة تتألف من مقطعين الأول « دواة » العربية وهى ما يكتب منه « ودار » الفارسية بمعنى ممسك ، والمعنى ممسك دواة السلطان ولم يكن للسلطان المملوكى داوادار واحد فقط ، بل ربما بلغ عدد الدوادارية عشرة من الأمراء والجند ، أعلاهم الداوادار الكبير المعروف بأمير داوادار وكان عادة فى رتبة أمير مائة .

(٣) دون فى سجلات متحف الفن الإسلامى أن ارتفاعه ٤٥ سم بينما تذكر آمال أحمد العمرى فى رسالتها أنه ٤٤ سم وقد اعتمدت على ما فى سجلات المتحف .

(٤) نسبة إلى كلمة المولى .

(٥) نسبة إلى كلمة القاضى .

(٦) نسبة إلى علاء الدين .

(٧) قال حسن الباشا فى الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ٢ ص ٦٧٢ أن المتولى لهذا الديوان كانت له « الرئاسة على أصحاب ديوان الإنشاء فى سائر الأقطار الخاضعة لسلطان المماليك » وأنه زاد من مكانته اتصاله الدائم بالسلطان . وذكر أن له الحق فى الإشراف على مكاتبات الدولة الصادرة وعرض الكتب الواردة على السلطان والرد عليها . وكان له النظر فى أمر البريد وأبراج الحمام ، والعيون والجواسيس والقصاد وغير ذلك من المهام التى تدل على علو مكانة هذه الوظيفة .

ويتخلل الشريط المذكور جامتان متقابلتان بالأولى منهما كتابة تشريفية نصها :

« عز لمولانا السلطان » .

وبالثانية :

« الملك الناصر فرج » .

وبين هاتين الجامتين زخرفة نباتية وحيوانية[١] ويحد الشريط الذى يتوسط بدن الشمعدان من أعلاه ومن أسفله شريطان بارزان يزخرف كل منهما رسوم هندسية ونباتية وحيوانية [٢] ويوجد على حافة الجزء الذى يعلو القاعدة شريط رفيع عرضه سنتميتر واحد عليه نص كتابى منقوش بحروف صغيرة ، تتخلله على مسافات مقدرة رسوم أوراق وأغصان ملتوية وجزء كبير من هذه الحافة مكسور وملحوم بلحام حديث أخل بمنظر الشمعدان ، مما أضاع جزءا من النقش ، وما وضح منه نصه «المقر الشريف العالى المولوى السيدى المالكى الصالحى العاملى المجاهدى الذخرى .... صاحب دواوين الانشا الشريفة الإسلامية »[٣] .

وعمود الشمعدان إسطوانى الشكل يبلغ ارتفاعه ٢٥ سم وقطره ٨٫٥سم بحافته السفلى شريط بعرض سنتيمتر واحد به كتابات نسخية بخط صغير بحروف بارزة تقطعها وريدات على مسافات مقدرة ونص النقش :

« المقر الشريف العالى المولوى المالكى الصالحى العاملى العادلى الكاملى الكافلى[٤] الغازى المحترمى القضاى الصلاحى ـ صاحب دواوين الإنشا الشريفة بالممالك »[٥] .

---

(١) ، (٢) ، (٣) ـ انظر آمال أحمد العمرى : الشماعد المصرية ص ١٣٧ وما بعدها .

(٤) يقول حسن الباشا فى الفنون الإسلامية والوظائف ، جـ٢ ص ٩٣٣ وما بعدها أن كلمة كافل دخلت فى تكوين بعض أسماء الوظائف التى ظهرت على الآثار العربية . وهى تعنى العائل الذى يعول إنسانا أو يكفله . ثم ذكر أن من المعتقد أن وظيفة الكافل بمعنى نائب السلطنة قد ابتدعت فى الدولة الأيوبية ، ثم أحياها السلطان بيبرس فى دولة المماليك .

(٥) يبدو أن هنا نقص كلمتين لعلهما « الشريفة الإسلامية » كما فى النقش فى وسط بدن الشمعدان .

وتحلى العمود عدة أشرطة من زخرفة نباتية وحيوانية ، بأعلى شريط منها كتابة نسخية بحروف متوسطة نصها :

« المقر الشريف العالى ـ المولوى القضاى العلاى »

ويفصل هذا النص جامتان متقابلتان بهما زخرفة نباتية وحيوانية ، وبأعلى عمود الشمعدان جزء تذكر آمال العمرى أنه ليس من نفس العمود وأنه جزء مضاف إليه لاحتوائه على كتابة كوفية مورقة[1] داخل شريط عرضه ٣ سم ، لا يتضح منها إلا الكلمات التالية :

« العمر السالم ... واليمن والبقاء والكرامة »

والجزء الذى يعلو الشمعدان المخصص لوضع الشمعة ، وهو ما يسمى بالشماعة ، قطره الأسفل ١١ سم والعلوى ٨ سم ، وبه أشرطة متنوعة بها أشكال هندسية وفروع نباتية مختلفة .

وجاء أن هذا الشمعدان كان من مجموعة الدكتور هرارى بك ولم تذكر آمال العمرى التى قامت بدراسته أو أحد من المسئولين فى المتحف الإسلامى ، الطريقة التى وصل بها إلى الدكتور المذكور . ومهما يكن من أمر ، فإن الشمعدان فى حالة جيدة رغم وضوح الكسر بأحد حوافه ، وتشهد الدقة التى يتحلى بها ببراعة صانعه الذى لم يشأ كتابة اسمه فى أحد جوانبه ، وعلى مدى التقدم والرقى الذى حققته صناعة المعادن فى العصر المملوكى الثانى .

---

(١) يظهر أن ما ذهبت إليه آمال أحمد العمرى فى رسالتها للماجستير عن الشماعد المصرية فى العصر العربى ، ص ١٤٠ كان مما توصلت إليه خلال دراستها . على أننى لم ألاحظ أية آثار للحام عند مشاهدتى الشمعدان المذكور . واختلاف نوع الكتابة على عمود الشمعدان ليس بدليل قاطع على اضافة جزء إلى الشمعدان ، إذ يذكر إبراهيم جمعة فى تطور الكتابات الكوفية ص ٧٧ أن الكتابات الكوفية لم تلغ تماما فى العصر المملوكى .

٢ - شمعدان قايتباى :

بمتحف الفن الإسلامى شمعدانان يحملان اسم الأشرف قايتباى أحدهما برقم ٤٠٧٦ شكل (٦٥) والآخر برقم ٤٢٩٧[١]، وقد اقتصرت آمال العمرى على دراسة الشمعدان الأول دون أن تشير إلى الشمعدان الآخر الذى يشبه الأول تماما . ولم يشر إليه كذلك كل من على بهجت فى بحثه الذى أعده سنة ١٩١٤م عن الحجرة النبوية الشريفة[٢]، ولا حسين عبد الرحيم عليوه فى بحثه عن المعادن المنشور فى كتابات القاهرة ، تاريخها وفنونها وآثارها[٣] .

ويبدو من اختلاف الرقمين أن الشمعدان الثانى كان من مقتنيات المتحف الإسلامى فى زمن متأخر عن البحثين سالفى الذكر . وقد قابلت بين الشمعدانين فوجدتهما يتماثلان تماما ، ويشتمل بحث على بهجت على معلومات هامة جدا بالنسبة للشمعدان الأول . فهو يذكر أنه قد سرق من المدينة أثناء حكم الأتراك للحجاز وأن ذلك تم بالإشتراك مع أحد حراس الحجرة النبوية الكثيرين ، وأن السارق الذى كان معاونا جريئا لبائع الآثار ركب القطار الذاهب من المدينة المنورة إلى حيفا ومنها أخذ الباخرة إلى بور سعيد[٤]. فإذا صح ذلك فإنه لا يظن أن هذا الشمعدان هو وحده الذى وقع فى يد السارق الجرئ ، ولعله قد تمكن أيضا من سرقة الشمعدان الثانى ، وإن كان وفد على المتحف الإسلامى فى وقت متأخر عن الشمعدان الأول . ويذكر على بهجت أن السارق لم يكن يعرف قيمته الأثرية[٥]، حتى أن أحد تجار الآثار ذكر متحسرا أن الشمعدان لو كان قد وقع فى يده لما باعه بتلك السهولة[٦] ويلاحظ أن على بهجت لم يذكر رقم الشمعدان أو موضعه مما قد يشير إلى أنه قام بدراسته قبل أن يستقر فى متحف الفن الإسلامى ، هذا إذا لم

(١) انظر أدناه ص ٣٧٥ حاشية رقم ٢ .

(٢) مجلة المعهد المصرى ، المجلد الثامن ، سنة ١٩١٤م ، ص ٧٢ - ٩٤ .

(٣) لحسن الباشا وآخرين ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٤) حجرة المدينة ، ص ٤ .

(٥) انظر أعلاه ص ٤٠٢ .

(٦) على بهجت : حجرة المدينة ص ٤ .

تكن دراسته كانت لنسخة أخرى مماثلة .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الشمعدان يمثل « المستوى الرفيع الذى بلغه فن صناعة المعادن فى القاهرة فى عصر سلاطين المماليك »[١] ويظهر من تكرار عبارتى وقفه على الحجرة الشريفة في موضعين من الشمعدان أنه صنع أصلا من أجلها ، وذلك عكس شمعدان صاحب دواوين الإنشاء سالف الذكر .

ويبلغ ارتفاع الشمعدان الذى نحن بصدده ٤٨ سم وقطر قاعدته من أسفل ٣٧ سم ، ومن أعلى ١١ سم[٢] وبدنه شبه مخروط يشبه إلى حد ما شمعدان صاحب دواوين الإنشاء ، ويدور بوسطه شريط عرضه ١٦ سم ، مكتوب فيه بخط نسخى مزهر عريض تنتهى حروفه من أعلاها بأشكال زخرفية على هيئة رؤوس المقصات « أو ربما تمثل ألسنة لهب الشموع وقد أمالها النسيم فبدت فى هذه الهيئة الزخرفية التى أضفت على الكتابة حياة وحركة »[٣] ونص الشريط المنقوش بوسط بدن الشمعدان هو :

« عز لمولانا السلطان الملك العادل المجاهد سلطا ـ ن الإسلام والمسلمين الملك الأشرف أبو النصر قايتباى »[٤].

ويعترض هذا النص جامتان كبيرتان متقابلتان بمحيطهما أسنان كأسنان المنشار تتصل بالشريطين البارزين اللذين بأعلى البدن وأسفله مكتوب فيهما بحروف بارزة فى ثلاثة سطور تمثل رنك السلطان ويقرأ من أعلى إلى أسفل :

أبو النصر قايتباى

عز لمولانا السلطان الملك الأشرف

عز نصره .

---

(١) حسين عبد الرحيم عليوه ، بحث المعادن ، ص ٣٨٢ .

(٢) على بهجت : المرجع السابق ، ص ٣ .

(٣) حسين عبد الرحيم عليوه ، المرجع السابق ، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ .

(٤) انظر الصورة رقم (٦٥) وانظر على بهجت فى بحث حجرة المدينة ، ص ٣ وآمال أحمد العمرى: الشماعد المصرية ، ص ١٤٢ .

والقراءة السليمة لمثل هذا النص التى يتناسب حجم خطها وسعه الأقسام الثلاثة التى قسمت إليها كل جامة هى :

« عز لمولانا السلطان الملك الأشرف - أبو النصر قايتباى - عز نصره » .

وقد جرت العادة بكتابة اسم السلطان أولا فى أعلى مكان من النقش تعظيما لشأنه ولتقع عليه العين أول ما تقع على النقش .

أما القرص الذى يصل بدن الشمعدان بعنقه ففيه جامتان صغيرتان متقابلتان نقش بداخل كل منهما فى ثلاثة سطور بحروف بارزة لقب السلطان التشريفى . وقد اتبع النقاش فى كتابتها الطريقة التى اتخذها فى الجامتين الكبيرتين ، فوضع النص الكبير فى وسط الدائرة لأن حيز الكتابة فيه أكبر ثم وزع الباقى كالتالى :

قايتباى

السلطان أبو النصر

عز نصره

وبين هاتين الجامتين النص الذى يسجل وقف الشمعدن على الحجرة الشريفة ويقرأ كالتالى :

« هذا ما أوقف على الحجرة النبوية مولانا السلطان الملك الأشرف أبوا - لنصر قايتباى عز نصره بتاريخ سنة سبع وثمانين وثمانمائة فى شهر رمضان المعظم قدره » .

ويتزامن هذا التأريخ مع تأريخ عمارة المسجد النبوى الشريف بعد الحريق الثانى . وبعنق الشمعدان شريط من كتابة مزهرة متداخلة تنتهى بأشكال زخرفية على هيئة رؤوس المقصات وتشبه إلى حد ما نهايات الحروف التى تميز الشريط الكبير فى بدن الشمعدان وهى تقرأ على النحو التالى :

« عز لمولانا السلطان الملك العادل المجاهد مالك الملك[1] الأشرف أبو النصر قايتباى »[2] .

---

(١) هذا اللقب من أسماء الله الحسنى وقد تجرأ النقاش وأضافها إلى السلطان قايتباى على خلاف ما تأمر به الشريعة الإسلامية من عدم التسمى بأسماء الخالق التسعة والتسعون .

(٢) لم يشر على بهجت فى بحثه إلى هذا النص .

ويحتل هذا الشريط أكثر من نصف مساحة العنق وفى كل من أعلاه وأسفله شريط تحليه زخرفة نباتية جميلة .

وتعلو هذا العنق الجميل شماعة بسطحها عدد من الأشرطة البارزة تحليها رسوم هندسية بارزة . ويتوسط الشماعة شريط عريض يشغل أكثر من نصفها به كتابة بخط نسخى بارز هو تكرار مختصر لنص الوقف المنقوش على القرص الذى يعلو بدن الشمعدان ، ويقرأ كالتالى :

« هذا ما أوقف على الحجرة النبوية مولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى بتاريخ سنة سبع وثمانين وثمانمائة » .

وعلاوة على ما تتميز به صناعة هذين الشمعدانين من دقة وجمال وإبداع فإنها تشهد كذلك بقدرة الصانع وعبقريته فى تكرار الأشكال البارزة فى أحجام متسقة رغم بساطة أدواته التى لم تكن تتجاوز مطرقة ومنقار .

* * *

*** النتائج العلمية للبحث :**

شملت دراسة هذا البحث جوانب عديدة من تاريخ المسجد النبوى الشريف ، وما تعرض له هذا المسجد من عمارة وتجديد وترميم خلال تاريخه الحافل بالأحداث المثيرة . وقد وجد من الصعب قصر هذه الدراسة على ما شهده المسجد النبوى خلال العصر المملوكى من أعمال معمارية ، دون معرفة الأثر الذى سببته أحداث ما قبل العصر المملوكى فى خصائص ومميزات هذه العمارة وذلك لأن تاريخ المسجد الشريف خلال عصوره المتعددة مترابط الحلقات ومن الصعب جدا فصلها عن بعضها .

ونظرا لأهمية النتائج التى توصلت إليها فى الفصل الذى خصصته لعمارة المسجد النبوى قبل العصر المملوكى ، فإننى قد أطلت الحديث عن هذا الفصل حتى طغى بشكل ملحوظ على حجم الرسالة .

وقد بينت فى مقدمة الرسالة أثر تخطيط المسجد النبوى الشريف فى تخطيط المساجد الجامعة فى صدر الإسلام ، وقد تبين لى أن المسجد الشريف قد شهد فى فجر الإسلام وصدره أربعة مخططات استقر على كل مخطط منها فترة من الزمن وهى على النحو التالى :

١ ـ قطعة أرض مكشوفة ومحاطة بسور مرتفع وكان هذا حال المسجد النبوى فى أول سنى الهجرة .

٢ ـ ظلة وصحن مكشوف فى مؤخر المسجد ، وكان المسجد على هذا المخطط قبل تحويل القبلة .

٣ ـ ظلتان وصحن مكشوف بينهما وهى مرحلة مر بها المسجد النبوى بعد تحويل القبلة .

٤ ـ صحن مكشوف وأربع ظلات تحيط به ، وكان هذا الوضع هو ما استقر عليه المسجد النبوى منذ بناه الوليد بن عبد الملك حتى نهاية العصر المملوكى .

وقد تبين لى من خلال المخططات التى رسمها بعض المؤرخين المحدثين لأشهر

المساجد الجامعة فى صدر الإسلام أن بعضها قد احتذى المخطط الثانى منذ إنشائه والبعض الآخر طبق المخطط الثالث ، وكثير منها سار على هيئة المخطط الرابع ، مع أنه كان للبيئة والظروف المحيطة بكل منها أثر واضح فى التقيد بتفاصيل هذه المخططات

كما أن من أبرز النتائج التى توصلت إليها فى عمارة المسجد النبوى فى عهد الرسول ﷺ حصر العمائر التى قام بها النبى عليه أفضل الصلاة والسلام فى مسجده فى أربع مراحل تتفق مع المخططات الثلاثة التى مر بها المسجد فى عهد الرسول ﷺ . وأن مجاورة الحجرة الشريفة لمقدم المسجد الحالى كان نتيجة من نتائج تحويل القبلة كما أننى قد توصلت إلى معرفة عمق رواق القبلة ، من خلال الإسطوانات المشهورة التى اكتسبت شهرتها من عهد الرسول ﷺ ، ومن هذه النتائج أيضا التأكيد على أن النبى ﷺ لم يتخذ المنبر إلا عندما بدن جسمه وكثر مستمعيه وقلت حركته ، وقد أثبت ذلك بأدلة موثوقة خلافا لما زعمه بعض المستشرقين من أنه لم يتخذ المنبر إلا عندما عظمت دولته وقوى نفوذه .

ومن النتائج التى توصلت إليها فى عمارة المسجد النبوى فى عهد الخلفاء الراشدين ، اقتداء عمر وعثمان رضى الله عنهما بالرسول ﷺ فى زيادة مساحة المسجد الشريف ، تلبية لنمو المجتمع الإسلامى المطرد مع محافظتهما على بقاء معالمه المشهورة . كما أن صفة العمارة التى قام بها سيدنا عثمان فى المسجد النبوى قد أعطت دليلا قويا على معرفة أهل المدينة لفن البناء المحكم مما يدعم الآراء المعارضة لاستخدام الوليد بن عبد الملك للروم والقبط فى بناء المسجد الشريف .

كما أنه قد برز فى أثناء الحديث عن عمارة المسجد النبوى فى العصر الأموى عدة نتائج منها عدم ثبوت ما أتهم به معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه من محاولة نقل منبر الرسول ﷺ إلى الشام . وقد توصلت فى هذا المبحث إلى تحديد الوقت الذى صارت فيه حجر أمهات المؤمنين تستخدم كملاحق للمسجد النبوى بعد وفاة آخرهن فى عهد يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ .

أما عمارة الوليد بن عبد الملك فأبرز النتائج فيها ثبوت عروبة وإسلام قبط مصر

وروم الشام الذين ساهموا فى زخرفة المسجد دون بنائه وتبرئة سليمان بن عبد الملك مما اتهم به من هدم منارة باب السلام التى ثبت أنهـا لم تنشـأ أصـلا إلا فى سنة ٧٠٦هـ . هذا بالإضافة إلى تحديد جديد لمقدار زيادة الوليد فى المسجد النبوى.

وكان من أبرز نتائج المبحث الخاص بعمارة المسجد النبوى فى العصر العباسى إظهار أوجه الشبه والإختلاف بين عمارة الوليد بن عبد الملك وما قام به المهدى العباسى فى المسجد من أعمال جليلة . هذا بالإضافة إلى تحديد مواقع النصوص الكتابية من جدران المسجد وتمييز النصوص الأموية المحرفة وأبرز الدوافع الرئيسية لتحريف تلك النصوص . كما أننى قد أوضحت اللبس الذى وقع فيه بعض المؤرخين عن عمارة المأمون المزعومة فى المسجد النبوى .

أما نتائج الفصل الثانى فكان من أبرزها نفى العلاقة بين نار الحجاز وحريق المسجد الأول ، وتحميل خدمة المسجد النبوى مسئولية هذا الحريق المروع ، ثم إبراز أثر التمزق السياسى والضعف المادى على ما تم فى المسجد النبوى من عمائر بعد هذا الحريق مباشرة على أن هذا الضعف لم يدم طويلا ، فسرعان ما جدد الظاهر بيبرس شباب الأمة الإسلامية بضمه مصر وبلاد الشام والحجاز تحت لوائه . وقام بعمارة ما تبقى من أروقة المسجد على أكمل وجه . وقد أبرزت الدوافع السياسية التى حدت بالظاهر بيبرس إلى الانفراد بعمارة المسجد النبوى ، وأبرز الخصائص المعمارية الجديدة التى امتازت بها عمارته .

وقد تبين لى من خلال هذا البحث أن بناء أول قبة على الحجرة الشريفة كانت نتيجة محاولة فردية من أحد أثرياء مصر فى عهد المنصور قلاوون إلا أنها قد تسببت فى إتلاف السقوف المجاورة لها بما كان يتسرب من خلالها من مياه الأمطار .

ومن الملاحظ أيضًا أن عمارة الناصر محمد بن قلاوون فى المسجد النبوى كان لها خصائص ومميزات جديدة انفردت بها عما تقدم فى المسجد من عمائر بعد الحريق الأول . كما أننى قد أثبت بأدلة جيدة بناء منارة باب السلام لأول مرة فى عهد الملك الناصر . هذا بالإضافة إلى أن هذا الملك قد أوجد لأول مرة فى تاريخ المسجد طريقة جديدة فى زيادة المساحة المسقوفة من المسجد ، وذلك عن طريق

تسقيف جزء من صحن المسجد مما يلى القبلة فى سنة ٧٢٩هـ كما أننى صححت ما اعتقده السمهودى من إنقاص هذا السلطان لبلاطات المسقف الشمالى للمسجد الشريف عندما زاد بلاطتين فى مسقف القبلة ، وأثبت بأدلة قوية نسبة هذا العمل إلى الظاهر بيبرس .

ومن النتائج التى استخلصتها من هذا الفصل أن الإهتمام بعمارة المسجد النبوى الشريف ، قد تأثر بالضعف السياسى والمادى الذى غلب على نهاية عصر المماليك البحرية وأن الدافع إلى أكثر الأعمال التى تمت خلاله كان سياسيا متخفياً وراء الورع والتدين .

وظهر لى بشكل جلى امتياز جهود السلاطين الجراكسة قبل قايتباى بإرسال المنابر الفاخرة إلى الحرم النبوى الشريف ، وأن هؤلاء السلاطين قد اكتفوا بعدم التعرض لعمارة المسجد النبوى إلا عند الضرورة القصوى . ولذلك فقد غلبت على الأعمال التى قام بها بعضهم فى المسجد صفة التجديد والترميم .

وقد وجدت أيضا أن الأشرف قايتباى قد تمسك بالعادة المرعية عند أسلافه الجراكسة ، من عدم التعرض لعمارة المسجد النبوى إلا عندما تدعو الحاجة إلى ذلك . بيد أن الرخاء والاستقرار اللذين شهدهما عصره قد مكناه من إنجاز أعمال جليلة فى سنة ٨٨١هـ . واتضح أيضا أن المتولى لهذه العمارة قد استفاد من الخلل الذى ظهر بجدران الحجرة الشريفة وحرص على أن تكون عمارتها على يديه رجاء المثوبة وتخليد الذكر .

وقد وجدت من المؤرخى المعاصرين لهذه العمارة من اهتم بذكر جميع الأبعاد والأوصاف التى كانت عليها الحجرة الشريفة بعد عمارة الوليد بن عبد الملك ، وهو ما لم تذكره الكتب القديمة التى أرّخت لعمارة الوليد .

وتوصلت أيضا إلى أن منارات المسجد العالية كانت هى السبب فى حريق المسجد الثانى سنة ٨٨٦هـ بسبب تعرضها للصواعق التى أحرقت المسجد الشريف.

وكان من أبرز النتائج أيضا تطبيق الأشرف قايتباى لنظام الليتورجيا (LITURGIA) المعمول به فى العالم الإسلامى منذ زمن قديم ، عندما استعان بصناع وعمال من البلاد الإسلامية ـ التابعة للدولة المملوكية ـ للعمل فى عمارة المسجد النبوى الشريف .

ومن النتائج التى توصلت إليها فى هذا المبحث أن المشرف على العمارة الثانية التى قام بها الأشرف قايتباى فى المسجد النبوى سنة ٨٨٦هـ لم يدخر جهدا فى الوصول بها إلى أقصى درجات الكمال ، وأنه برئ مما اتهم به من تقصير فى بناء القبة الشريفة والمنارة الرئيسية .

وقد أرجعت هذا التحامل إلى ما كان بين ابن الزمن ـ المتولى للعمارة الثانية أيضا ـ وبين السمهودى ـ الذى أورد الاتهام المذكور وأكده ـ من تنافر منذ تولى الإشراف على العمارة الأولى سنة ٨٨١هـ . كما أننى قد عثرت على نقوش كتابية لم تنشر من قبل تثبت بشكل قاطع بقاء عمارة الحجرة الشريفة وجزء كبير من القبة الزرقاء ـ الخضراء حاليا ـ على ما كانت عليه بعد عمارة الأشرف قايتباى الثانية . هذا بالإضافة إلى تحديد الأجزاء المتبقية فى المسجد النبوى إلى الآن من عمارة قايتباى المذكورة . وتصحيح الموقع الحالى لاسطوانتى الحرس والوفود اللتان وضعتا خطأ خلف إسطوانة السرير .

ومن النتائج الملموسة فى هذا البحث استفادة سكان المدينة المنورة من جراء العمائر التى شهدها المسجد النبوى فى العصر المملوكى بقسميه فالبعض قد عمل بيده فى المسجد ، والبعض الآخر استفاد تجاريا والكثرة الغالبة شملتهم المنح والهبات السخية التى كان يجود بها السلاطين الذين تولوا أمر العمائر المذكورة .

كما أنه قد تبين لى أن أى من العمائر التى شهدها المسجد النبوى بعد حريقه الأول ، لم تعد بالمسجد إلى ما كان عليه قبل الحريق المذكور ولا إلى قريب منه رغم كثرتها وعظمة الأموال التى أنفقت عليها .

وفى نهاية هذا الاستعراض السريع لأهم نتائج البحث أود أن أشير إلى أمرين هامين لمستهما خلال هذا البحث ، ولم أتمكن من معالجتهما بصورة مرضية

على أمل أن تتاح الفرصة لمن هو أوفر حظا منى لمعالجتهما وهما :

١ ـ تحديد ما ترتب على تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة بالنسبة لجداران المسجد النبوى . وقد أبدى المسئولون فى القسم الفلكى بكلية العلوم بجامعة الملك عبد العزيز بجدة إستعدادهم للمساعدة فى تحقيق ذلك . وسوف تفيد نتيجة هذا البحث العلمى فى التأكد مما إذا كانت جدران المسجد النبوى قد انحرفت عن موضعها الأول بعد تحويل القبلة وهو ما لم استطع الجزم بصحته لأن ذلك يحتاج إلى بحث ميدانى مرخص به من قبل المسئولين عن الحرمين الشريفين .

٢ ـ أما الموضوع الثانى فعن وظائف العاملين بالمسجد النبوى الشريف حتى نهاية العصر المملوكى وقد تبين لى أثناء جمعى لمادة هذا البحث أنه موضوع جدير بالبحث والاستقصاء .

فإلى ذلك أود أن ألفت نظر المسئولين عن قسم الحضارة والنظم الإسلامية بتشجيع الطلاب الراغبين فى بحث هذين الموضوعين .. والله الموفق .

* * *

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المخطوطات :

ابن بهادر محمد بن محمد المؤمنى (ت ٨٧٧هـ) .

١ ـ فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر . جـ ٧ .

صورة فتوغرافية بدار الكتب المصرية فى مجلدين برقم ٢٣٩٩ عن نسخة أيا صوفيا .

ابن حبيب بهى الدين أبو محمد الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ) .

٢ ـ درة الأسلاك فى دولة الأتراك ، جـ ١ .

ميكروفيلم بمركز البحث العلمي بكلية الشريعة بمكة المكرمة عن الأصل الموجود بمكتبة شستربتى برقم ٥١٤٦ .

الحسينى محمد كبريت بن عبد الله الحسينى المدنى الموسوى (ت ١٠٧٠هـ) .

٣ ـ الجواهر الثمينة فى محاسن المدينة .

مخطوط بمكتبة الحرم المكى برقم ٢٤ تاريخ .

الحشى ، بدر الدين محمد بن إسماعيل بن محمد بن يحيى الكبسى الحشى (ت ١٣٠٨هـ) .

٤ ـ اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية .

ميكروفلم بمكتبة جامعة الإمام محمد بن سعود المركزية بالرياض برقم ٤٤ تاريخ عن الأصل الموجود بمكتبة محمد بن عبد الرحمن العبيكان الخاصة بالرياض .

الحلبى ، محمد بن محمود بن خليل الحلبى (ت ٨٦٠ هـ) .

٥ ـ عمدة الناسك فى أفعال الحج والمناسك .

مخطوط بمكتبة الأوقاف بحلب برقم ٣٠٠ المولوية .

الخزرجى ، شمس الدين على بن الحسن (ت ٨١٣ هـ) .

٦ ـ العسجد المسبوك فيمن تولى اليمن من الملوك .

مخطوط بمكتبة الحرم المكي برقم ٤٨ تاريخ .

الخضراوى ، أحمد بن محمد بن أحمد الخضراوى المكى (ت ٣٢٧هـ)
٧ - مختصر حسن الصفا والابتهاج فى ذكر من ولى إمارة الحاج .
مخطوط بمكتبة الحرم المكى برقم ١٢ تاريخ .
الخوارزمى ، محمد بن إسحاق (ت ٨١٣ هـ) .
٨ - إثارة الترغيب والتشويق إلى المساجد الثلاثة وإلى البيت العتيق .
مخطوط بمكتبة الحرم المكى برقم ٤ تاريخ .
الاسفرائينى ، سعد الدين محمد بن عمر بن محمد بن على (المتوفى فى القرن الثامن الهجرى) .
٩ - زبدة الأعمال وخلاصة الأفعال فى تفاصيل أحوال الكعبة المكرمة والمدينة المنورة .
مخطوط بمكتبة الحرم المكى برقم ٩٩ تاريخ .
السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد (ت ٩١١ هـ) .
١٠ - اعلام الأديب بحدوث بدعة المحاريب .
مخطوط بمكتبة الحرم المدنى برقم ٤٥ / ٨٠ .
ابن الضياء أبو البقاء محمد بن أحمد القرشى الحنفى المكى (ت ٨٥٤ هـ) .
١١ - تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف .
ميكروفلم بمركز البحث العلمى بكلية الشريعة بمكة المكرمة عن الأصل الموجود بدار الكتب المصرية برقم ١٥٧٠ تاريخ .
ابن طولون ، شمس الدين محمد بن على بن خمارويه الدمشقى (ت٩٥٣هـ) .
١٢ - تاريخ ابن طولون .
مخطوط مصور بدار الكتب المصرية برقم ١٢٤٧١ عن الأصل الموجود بمكتبة توبنجن بألمانيا .

العبدرى أبو عبد الله محمد بن على بن مسعود (ت ٦٨٨ هـ) .
١٣ ـ الرحلة المغربية (رحلة العبدرى) .
ميكروفلم بمركز البحث العلمى بكلية الشريعة بمكة المكرمة عن الأصل الموجود فى الخزانة العامة بالرباط برقم ١٠١٢ / د .
العينى بدر الدين محمود العينى (ت ٨٥٥ هـ) .
١٤ ـ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان الأجزاء ٢٥، ٢٦، ٢٧ ، ٢٨ .
مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٨٢٠٣ح
ابن فرحون أبو محمد عبد الله بن محمد اليعمرى المالكى (ت ٧٦٩هـ) .
١٥ ـ نصيحة المشاور وتعزية المجاور .
مخطوط بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة برقم ٥١ تاريخ .
ابن فهد ، عبد العزيز بن عمر بن فهد القرشى (توفى فى القرن العاشر الهجرى) .
١٦ ـ بلوغ القرى فى الذيل على اتحاف الورى ، جـ ١ .
مخطوط بمكتبة الحرم المكى برقم ٢ تاريخ .
ابن فهد ، نجم الدين أبى القاسم محمد المدعو عمر بن أبى الفضل محمد تقى الدين بن فهد الهاشمى المكى الشافعى (ت ٨٨٥هـ) .
١٧ ـ اتحاف الورى بأخبار أم القرى .
مخطوط بمكتبة الحرم المكى الشريف برقم ٢ تاريخ .
الفيروزبادى ، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت ٨١٠ هـ) .
١٨ ـ المغانم المطابة فى معالم طابة .
مخطوط بمكتبة فيض الله بإسطنبول برقم ١٥٢٩ .
القرطبى ، أبو محمد عبد الله بن عبد الملك القرشى البكرى (توفى فى القرن الثامن الهجرى) .

١٩ ـ بهجة النفوس والأسرار فى تاريخ دار هجرة المختار .

مخطوط بمكتبة الحرم المكى برقم ١٣ تاريخ .

قطب الدين قدسى سره (توفى فى القرن الحادى عشر الهجرى) .

٢٠ ـ تاريخ المدينة المنورة .

ميكروفلم فى مركز البحث العلمى عن الأصل الموجود بمكتبة رضا رامبور بالهند برقم ٣٦١٨ .

مؤلف مجهول ،

٢١ ـ تاريخ مكة والمدينة والطائف .

صورة فوتوغرافية بمكتبة جامعة الملك عبد العزيز بجدة برقم ٧٦ عن أصل أهمل فيه ، تصوير صفحة العنوان

ابن المحجوب ، أبو عبد الله (توفى فى القرن التاسع الهجرى) .

٢٢ ـ قرة العين فى أوصاف الحرمين

ميكروفلم عن مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، برقم ١٢٠٣/ ٤ عربى .

النابلسى ، عبد الغنى (عاش فى القرن الحادى عشر الهجرى) .

٢٣ ـ الرحلة النابلسية المعروفة بالحقيقة والمجاز فى رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز.

مخطوط بمكتبة الحرم المكى فى ثلاثة مجلدات برقم ١١٢ تاريخ .

الهيثمى ، أحمد بن حجر (ت ٩٧٤ هـ) .

٢٤ ـ تحفة الزوار إلى قبر النبى المختار .

مخطوط بمكتبة الحرم المكى برقم ١٣٣ تاريخ .

* * *

ثانيا : المصادر المطبوعة :

ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى (ت ٦٣٠هـ).
١ ـ الكامل فى التاريخ .
دار صادر ، دار بيروت ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.
الأدفوى ، أبو الفضل كمال الدين جعفر بن تغلب (ت ٧٤٨هـ) .
٢ ـ الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد .
تحقيق أسعد محمد حسن .
نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦ م.
الأزدى ، أبو زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم (ت ٣٣٤هـ) .
٣ ـ تاريخ الموصل
تحقيق على حبيبة .
طبعة القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ م.
الأزرقى ، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٢٣هـ) .
٤ ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ، جـ ١ ، ٢ .
تحقيق رشدى الصالح ملحس .
الطبعة الثالثة ، مطابع دار الثقافة مكة المكرمة ، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
ابن إسحاق ، إبراهيم بن إسحاق الحربى (ت ٢٨٥هـ).
٥ ـ كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة .
تحقيق حمد الجاسر .
منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.
ابن إياس ، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفى (ت ٩٣٠هـ) .
٦ ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ ٣ .
تحقيق محمد مصطفى .
الطبعة الثانية ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.

الأصطخرى ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالاصطرخى (ت ٣٤٦ هـ).

٧ ـ كتاب الأقاليم .

تحقيق مويلر .

طبع بالأوفست عن طبعة قوته نشر مكتبة المثنى ببغداد .

البخارى ، محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) .

٨ ـ صحيح البخارى ، جـ ١ ـ ٣ .

مطبوعات محمد على صبيح وأولاده ، القاهرة .

البرزنجى ، جعفر بن السيد إسماعيل المدنى (ت ١٣١٧هـ) .

٩ ـ نزهة الناظرين فى مسجد سيد الأولين والآخرين .

الطبعة الأولى ، المطبعة الجمالية بمصر ، القاهرة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م.

البكرى ، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ).

١٠ ـ جزيرة العرب (من كتاب المسالك والممالك) .

تحقيق عبد الله يوسف الغنيم .

الطبعة الأولى ، المطبعة العصرية ، مكتبة ذات السلاسل ، الكويت ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

البلوى ، خالد بن عيسى البلوى (ت ٧٨٠ هـ) .

١١ ـ تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق ، جـ ١ .

تحقيق الحسن السائح .

مطبعة فضالة ـ المحمدية ، المغرب .

البلاذرى ، أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩ هـ).

١٢ ـ فتوح البلدان

تحقيق عبد الله أنيس الطباع وعمر أنيس الطباع .

دار النشر للجامعيين ، بيروت ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م.

البيرونى أبو الريحان محمد بن أحمد (توفى فى حدود سنة ٤٣٠هـ) .
١٣ ـ كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر .
عالم الكتب ، بيروت .
ابن تغرى بردى ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ) .
١٤ ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، جـ ١ .
نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومى بمصر ،
طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٤٨هـ .
ابن تيمية ، تقى الدين أبو العباس أحمد بن على
١٥ ـ الجواب الباهر فى زوار المقابر .
تحقيق سليمان بن عبد الرحمن الصنيع ، وعبد الرحمن بن يحيى المعلمى
المطبعة السلفية ، القاهرة .
ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد الكنانى (ت ٦١٤هـ) .
١٦ ـ رحلة ابن جبير
دار صادر ، دار بيروت ، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
ابن حجر ، شهاب الدين بن على العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ)
١٧ ـ أنباء الغمر بأنباء العمر ، جـ ١ .
تحقيق حسن حبشى .
القاهرة ١٩٦٩م.
١٨ ـ الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، جـ ٣ .
تحقيق محمد سيد جاد الحق .
مطبعة المدنى ، القاهرة .
الحموى ـ انظر ياقوت
الخزرجى ، شمس الدين على بن الحسن (ت ٨١٣هـ)
١٩ ـ العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية جـ ١
مطبعة الهلال ، القاهرة ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.

ابن دقماق ، إبراهيم بن محمد أيدمر العلائى (ت ٧٩٧هـ).
٢٠ ـ كتاب الإنتصار لواسطة عقد الأمصار
المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٣٠٩هـ ،
الدينورى ، أبو حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ) .
٢١ ـ الأخبار الطوال
تحقيق عبد المنعم عامر .
الطبعة الأولى ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٦٠م.
الذهبى ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ) .
٢٢ ـ تاريخ الإسلام وطبقات الأعلام ، جـ ١ ٣ ، ٦ .
مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٣٦٧هـ .
نشر مكتبة القدسى .
٢٣ ـ سير أعلام النبلاء ، جـ ٢
تحقيق إبراهيم الأبيارى
مطابع دار المعارف بمصر ١٣٥٧هـ .
نشر معهد المخطوطات ، ودار المعارف بالقاهرة .
٢٤ ـ العبر فى خبر من ذهب ، جـ ٥ .
تحقيق صلاح الدين المنجد .
مطبعة حكومة الكويت ، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.
ابن رستة ، أبو على أحمد بن عمر (توفى بعد سنة ٢٩٠ هـ)
٢٥ ـ الأعلاق النفيسة .
تحقيق دى جوخة .
طبعة أوفست ، مكتبة المثنى ببغداد عن طبعة ليدن ١٨٩١ م .
ابن الرومى ، محمد بن خضر (توفى فى القرن العاشر الهجرى)
٢٦ ـ التحفة اللطيفة فى عمارة المسجد النبوى وسور المدينة الشريفة ، رسائل فى تاريخ المدينة المنورة ، الرسالة الثانية .
منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

الزركشي ، محمد بن عبد الله (ت ٨٩٤هـ) .
٢٧ ـ إعلام الساجد بأحكام المساجد .
تحقيق أبي الوفا مصطفى المراغي
الطبعة الأولى ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ١٣٨٤هـ .
سبط بن الجوزي ، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزا التركي (ت ٦٥٤هـ) .
٢٨ ـ مرآة الزمان ، القسم الثاني من الجزء الثامن .
الطبعة الأولى ، طبعة حيدر أباد الدكن ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م.
السبكي ، أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي (ت ٧٥٦ هـ) .
٢٩ ـ فتاوى السبكي جـ ١ الفتوى رقم ٦١ « تنزيل السكينة على قناديل المدينة » .
مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٥٦هـ .
السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ) .
٣٠ ـ التبر المسبوك في ذيل السلوك .
طبعة بولاق ، القاهرة ١٨٩٦م.
مكتبة الكليات الأزهرية .
٣١ ـ التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة ، ثلاثة أجزاء .
تحقيق محمد حامد الفقي
مطبعة دار نشر الثقافة القاهرة ١٩٧٩م.
نشر أسعد طرابزوني الحسيني .
٣٢ ـ الذيل على رفع الأمر (بغية العلماء والرواة) .
تحقيق جودة هلال ومحمد محمود صبح .
الدار المصرية للتأليف والترجمة

٣٣ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، جـ ٩
طبعة أوفست
منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت .
السمهودى ، نور الدين على بن أحمد (ت ٩١١هـ) .
٣٤ ـ وفاء الوفا ، جـ ١ ، ٢ ، ٤ .
تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .
الطبعة الثانية ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ١٣٩٣هـ/ ١٩٧١م.
أبو شامة، شهاب الدين أبى محمد عبد الرحمن بن إسماعيل (ت ٦٦٥هـ).
٣٥ ـ تراجم رجال القرنين السادس والسابع . المعروف « بالذيل على الروضتين».
الطبعة الأولى ، مكتب نشر الثقافة الإسلامية ، القاهرة ١٣٦٦/ ١٩٤٧م.
ابن شاهين ، غرس الدين خليل الظاهرى (ت ٨١٣ هـ) .
٣٦ ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .
تحقيق بولس راويس ،
مطبعة الجمهورية بباريس ١٨٩٤م.
ابن الصيرفى ، على بن داود الجوهرى (ت ٩٠٠ هـ) .
٣٧ ـ أنباء الهصر بأنباء العصر
تحقيق حسن حبشى
مطبعة المدنى ، القاهرة ١٩٧٠م.
٣٨ ـ نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان .
تحقيق حسن حبشى
طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٧٠م.
الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)
٣٩ ـ تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠
تحقيق دى غويه وآخرين .
طبعة ليدن ١٨٧٦م ، ١٩٠١م ، نشر مكتبة خياط ، بيروت .

العباسى ، أحمد عبد الحميد (توفى فى القرن العاشر الهجرى) .
٤٠ ـ عمدة الأخبار فى مدينة المختار .
تحقيق محمد الطيب الأنصارى .
الطبعة الثالثة ، مطبعة المدنى ، القاهرة .
نشر أسعد طرابزونى الحسينى .
ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد الأندلسى (ت ٣٢٨هـ)
٤١ ـ العقد الفريد ، جـ ٥ ، ٧ .
تحقيق محمد سعيد العريان .
الطبعة الثانية ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م.
نشر المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة .
العصامى ، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكى (ت ١١١١هـ) .
٤٢ ـ سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى ، جـ ٤
المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة .
على بن موسى
٤٣ ـ وصف المدينة المنورة سنة ١٣٠٣ هـ / ١٨٨٥م .
رسائل فى تاريخ المدينة المنورة ، الرسالة الأولى .
منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
ابن العماد الحنبلى ، أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد (ت ١٠٨٩هـ)
٤٤ ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب جـ ٥ .
المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع بيروت .
العمرى ، انظر ابن فضل الله .
الفاسى ، أبو الطيب تقى الدين محمد بن أحمد الحسنى (ت ٨٣٢ هـ) .
٤٥ ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام جـ ٢ .
مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٦م.
نشر مكتبة النهضة الحديثة ، مكة المكرمة .

٤٦ - العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، جـ ٦ .
تحقيق فؤاد سيد .
مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م.
ابن الفرات ، محمد بن عبد الرحيم بن على المصرى الحنفى (ت ٨٠٧ هـ)
٤٧ - تاريخ الدول والملوك (تاريخ ابن الفرات) جـ ٨ ، ٩
تحقيق قسطنطين زريق .
بيروت ١٩٣٦ - ١٩٤٨م.
ابن فضل الله العمرى (ت ٧٤٢هـ).
٤٨ - مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار - جـ ١ .
تحقيق أحمد زكى باشا .
طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م.
الفيروزبادى ، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت ٨١٠ هـ)
٤٩ - القاموس المحيط ، جـ ٢ ، ٤ .
المؤسسة العربية للطباعة والنشر - بيروت .
٥٠ - الجزء المحقق من المغانم المطابة (قسم المواضع)
الطبعة الأولى ، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.
ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى (ت ٢٧٦ هـ).
٥١ - كتاب المعارف .
تحقيق محمد إسماعيل الصاوى .
الطبعة الثانية ، دار إحياء التراث العربى - بيروت ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م.
القرمانى ، أبو العباس أحمد بن يوسف الدمشقى (عاش فى القرن العاشر الهجرى) .

٥٢ ـ أخبار الدول وآثار الأول .

مطبعة عباس التبريزى ، بغداد .

القلقشندى ، أبو العباس أحمد بن على (٨٢١هـ / ١٤١٨م) .

٥٣ ـ صبح الأعشى ، جـ ٥ .

نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية .

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، القاهرة .

ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الحافظ (ت ٧٧٤هـ) .

٥٤ ـ البداية والنهاية ، الأجزاء ١٣ ، ١٤ .

الطبعة الثانية ، مكتبة المعارف ، بيروت ١٩٧٧م.

ابن الجوزى ، عبد الرحمن بن على (ت ٥٩٧ هـ) .

٥٥ ـ الوفا بأحوال المصطفى ، جـ ١ .

تحقيق محمد زهرى النجار .

المؤسسة السعيدية بالرياض ، ١٩٧٦م.

٥٦ ـ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، جـ ٨ .

الطبعة الأولى ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، ١٣٥٩هـ.

محمد بن خضر ، انظر ابن الرومى

المراغى ، زين الدين أبو بكر بن الحسين بن عمر أبي الفخر المراغى (ت ٨١٦هـ) .

٥٧ ـ تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة .

تحقيق محمد عبد الجواد الأصمعى .

الطبعة الأولى ، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م.

المطرى ، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٧٤١هـ) .

٥٨ ـ التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة .
تحقيق عبد المحسن الخيال .
مطبعة فؤاد الصيداوى ، دمشق ١٣٧٢هـ .
نشر أسعد طرابزونى الحسينى .
المقدسى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر المعروف بالبشارى (ت ٣٧٥ هـ) .
٥٩ ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم .
طبعة بالأوفست عن طبعة ليدن ، ١٩٠٦م.
نشر مكتبة المثنى ببغداد .
المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ) .
٦٠ ـ الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك .
تحقيق جمال الدين الشيال .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٥ م.
نشر مكتبة الخانجى بمصر والمثنى ببغداد .
٦١ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك .
القسم الأول . تحقيق محمد مصطفى زيادة حتى حوادث سنة ٧٥٥ هـ
القسم الثانى . تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور .
مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠م .
٦٢ ـ المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار (خطط المقريزى) جـ ٢
طبعة بالأوفست عن طبعة بولاق سنة ١٢٧٠هـ
مؤسسة البابى الحلبى وشركاه ، القاهرة .
مجهول . (كاتب مراكشى من علماء القرن السادس الهجرى)
٦٣ ـ كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار (كتب ٥٨٧ هـ) .
تحقيق سعد زغلول عبد الحميد
مطبعة جامعة الإسكندرية ، كلية الآداب ١٩٥٨م ، المطبوع رقم ١٠ .
مجهول

٦٤ ـ تاريخ سلاطين المماليك من ٦٩٠ ـ ٧٤١هـ .
طبعة ليدن ١٩١٦م.
نشر زيتر شتين .
مجهول
٦٥ ـ سيرة الظاهر بيبرس ، جـ ٣ .
الطبعة الأولى ، القاهرة .
مجهول
٦٦ ـ العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، جـ ٣
تحقيق دى غويه .
طبعة بالأوفست عن طبعة ليدن ١٨٦٩م.
نشر مكتبة المثنى ببغداد .
مجهول ، من علماء القرن الرابع الهجرى .
٦٧ ـ رسالة فى وصف مكة والمدينة وبيت المقدس .
نشرها حمد الجاسر فى مجلة عرب ، السنة الثامنة جـ ٥ ، ٦ ـ ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى (ت ٧١١ هـ) .
٦٨ ـ لسان العرب ـ الأجزاء ١ ـ ١١ .
طبعة مصورة عن طبعة بولاق ،
نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة .
ابن النجار ، أبو عبد الله محمد بن محمود (ت ٦٤٣ هـ) .
٦٩ ـ الدرة الثمينة فى أخبار المدينة (أخبار مدينة الرسول) .
تحقيق ، صالح محمد جمال .
الطبعة الثانية ، دار الفكر بيروت ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.
ابن النديم ، أبو الفرج ، أو أبو الفتح محمد بن إسحاق (توفى فى أواخر القرن الرابع تقريبا) .

٧٠ ـ الفهرست ، جـ ١
تحقيق جاستون فييت .
صورة بالفوتستات عن طبعة ليدن ،
نشر مكتبة خياط ، بيروت .
النووى ، يحيى بن شرف بن مرى بن حسن الحزامى الحورانى (٦٣١ ـ ٦٧٦هـ) .
٧١ ـ شرح صحيح مسلم ، جـ ٥ .
الطبعة الأولى ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩م.
النهروالى قطب الدين المكى الحنفى (ت ٩٩٠هـ).
٧٢ ـ الأعلام بأعلام بيت الله الحرام .
طبعة مدينة غتنقة ، ١٢٧٤هـ
الهروى ، أبو الحسن بن أبى بكر (ت ٦١١ هـ).
٧٣ ـ كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات .
تحقيق جانين سورديل ـ طومين
طبع ونشر المعهد الفرنسى بدمشق ١٩٥٣م.
ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك (ت ٢١٨ هـ) .
٧٤ ـ السيرة النبوية ، القسم الأول جـ ١ ، ٢ .
تحقيق مصطفى السقا وآخرين .
الطبعة الثانية ، مكتبة ومطبعة البابى الحلبى وأولاده ، القاهرة ، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م.
ابن واضح ، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب (توفى بعد ٢٩٢ هـ) .
٧٥ ـ تاريخ اليعقوبى ، جـ ٢ .
مطابع دار صادر ، بيروت ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م.
ابن الوردى أبو حفص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر (ت ٧٤٩هـ) .

٧٦ ـ تتمة المختصر فى أخبار البشر ، المعروف بتاريخ ابن الوردى جـ ٢ .
المطبعة الوهبية بالقاهرة ، ١٢٨٥هـ .
نشر جمعية المعارف .
الوصابى ، وجيه الدين الحبيشى (ت ٧٨٢هـ) .
٧٧ ـ تاريخ وصاب أو الاعتبار فى التواريخ والآثار .
تحقيق عبد الله محمد الحبشى .
مطبعة دار العودة ـ بيروت .
نشر مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء .
ياقوت ، شهاب الدين أبو عبد الله الرومى البغدادى الحموى (ت ٦٢٦هـ) .
٧٨ ـ معجم البلدان ، جـ ٤ ، ٥ .
دار الكتاب العربى ـ بيروت .
اليعقوبى ، انظر ابن واضح .
اليونينى ، قطب الدين موسى بن محمد (ت ٧٢٦ هـ) .
٧٩ ـ ذيل مرآة الزمان ، جزءان .
الطبعة الأولى . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥م.

* * *

ثالثا : المراجع الحديثة :

إبراهيم أحمد العدوى
١ ـ الأمويون والبيزنطيون .
الطبعة الثانية ، طبع ونشر الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م.
إبراهيم جمعة .
٢ ـ تطور الكتابات الكوفية .
المطبعة العالمية ، القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.
نشر دار الفكر العربى ، القاهرة .

إبراهيم رفعت باشا
٣ ـ مرآة الحرمين ، جـ ١
الطبعة الأولى ، طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م.
إبراهيم شريف .
٤ ـ خواص المادة والصوت جـ ١
الطبعة الخامسة ، دار المعارف بمصر . القاهرة ١٩٧٦م.
إبراهيم الشورى .
٥ ـ جلالة الملك سعود والحرمين الشريفين جـ ١ .
إبراهيم مصطفى
٦ ـ المعجم الوسيط ، جـ ١ ، ٣ .
مطبعة مصر ، القاهرة ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.
أحمد فكرى
٧ ـ مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) .
مطبعة دون بوسكو ، الإسكندرية ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .
٨ ـ مساجد القاهرة ومدارسها ، جـ ١ (العصر الفاطمى) .
مطبعة دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٥م.
٩ ـ مسجد القيروان .
مطبعة المعارف ومكتبتها ، القاهرة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م.
آمال أحمد العمرى
١٠ ـ الشماعد المصرية فى العصر العربى .
رسالة ماجستير لم تطبع ، بكلية الآداب ، جامعة القاهرة رقم ٤١٥ ، آثار إسلامية
باسلامة ، حسين عبد الله .
١١ ـ تاريخ عمارة المسجد الحرام .
تحقيق عمر عبد الجبار .
الطبعة الثانية ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
البتنونى ، محمد لبيب

١٢ ـ الرحلة الحجازية .
الطبعة الثانية ، المطبعة الجمالية ، القاهرة ١٣٢٩هـ .
التازى ، عبد الهادى
١٣ ـ جامع القرويين بمدينة فاس (٢٤٥ ـ ٨٥٩ هـ)
الطبعة الأولى ١٩٧٢م.
حسن إبراهيم حسن
١٤ ـ تاريخ الإسلام السياسى ، جـ ٤ .
الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٧م.
حسن الباشا
١٥ ـ جامع ابن طولون . بحث نشر فى كتاب القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها لحسن الباشا وآخرين . مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٧٠م.
١٦ ـ الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ثلاثة أجزاء مطبعة لجنة البيان العربى .
نشر دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٦م.
١٧ ـ المدخل إلى الآثار الإسلامية
مطبعة دار الاتحاد العربى للطباعة .
نشر دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٩م.
١٨ ـ الألقاب الإسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار .
صورة بالأوفست عن طبعة دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٨م.
الخيارى ، أحمد ياسين
١٩ ـ تاريخ مساجد المدينة المنورة .
المطبعة المتحدة القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.
نشر يوسف خليل غالى .
راجح ، أحمد عزت
٢٠ ـ أصول علم النفس .
الطبعة الحادية عشرة ، نشر دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.

رجب ، عمر الفاروق السيد
٢١ ـ المدينة المنورة .
الطبعة الأولى ، نشر وطبع دار الشروق ، جدة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.
رمزية محمد الأطرقجى
٢٢ ـ بناء بغداد فى عهد أبى جعفر المنصور
الطبعة الأولى ، مطبعة النعمان النجف الأشرف ١٩٧٥م.
زكى محمد حسن
٢٣ ـ فنون الإسلام .
الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨م.
سعاد ماهر
٢٤ ـ مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ ١
مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٧١م.
نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
سليمان ، أحمد سعيد
٢٥ ـ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة .
مطابع دار المعارف بمصر .
السليمان ، على بن حسين
٢٦ ـ العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك .
الطبعة الأولى ، طبع ونشر الشركة المتحدة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.
الشورى : انظر إبراهيم
عبد الجواد ، توفيق أحمد
٢٧ ـ تاريخ العمارة والفنون الإسلامية ، جـ ٣
دار وهدان للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٠م.

عبد الحميد زايد
٢٨ ـ القدس الخالدة .
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ م.
عبد المنعم ماجد
٢٩ ـ نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر .
مطبعة الرسالة .
نشر مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٦٧م.
العدوى : انظر إبراهيم محمد
على حافظ
٣٠ ـ فصول من تاريخ المدينة المنورة .
طبع ونشر شركة المدينة للطباعة والنشر ، جدة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
عليوه ، عبد الرحيم
٣١ ـ بحث فى المعادن . نشر فى كتاب القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها ، لحسن الباشا وآخرين . مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٧٠م.
فريد شافعى
٣٢ ـ العمارة العربية فى مصر الإسلامية (عصر الولاة) .
الطبعة الأولى ، المطبعة الثقافية ، القاهرة ١٩٧٠م.
نشر الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .
فكرى ، انظر أحمد فكرى
فهمى ، عبد الرحمن
٣٣ ـ الجامع الأزهر ، بحث نشر فى كتاب القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها لحسن الباشا وآخرين ، مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٧٠م.
٣٤ ـ النقود العربية ماضيها وحاضرها
وزارة الثقافة والإرشاد القومى . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر . القاهرة ١٩٦٤م.

٣٥ ـ موسوعة النقود العربية وعلم النميات ، جـ ١ (فجر السكة العربية) مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٥ م.

الكتانى ، محمد بن عبد الحى بن عبد الكبير بن محمد الحسينى الادريسى (ت ١٣٨٢هـ).

٣٦ ـ نظام الحكومة النبوية (التراتيب الإدارية) جـ٢ .

دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

كمال الدين سامح

٣٧ ـ تطور القبة فى العمارة الإسلامية

بحث نشر فى مجلة كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول ـ المجلد الثانى عشر ـ الجزء الأول ـ مايو ١٩٥٠م.

مارسيه ، جورج

٣٨ ـ الفن الإسلامى

ترجمة عفيف بهنسى .

منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومى ، دمشق ١٩٦٨م.

مايسة محمود

٣٩ ـ المشكاوات الزجاجية فى العصر المملوكى .

رسالة ماجستير لم تطبع ، بكلية الآداب جامعة القاهرة ـ رقم ٩١٨ آثار إسلامية .

محمد أمين

٤٠ ـ الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) .

الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٨٠م.

مؤنس ، حسين

٤١ ـ المساجد
مطابع الاتباع بالكويت .
نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
مؤير ، وليم
٤٢ ـ تاريخ دولة المماليك فى مصر
ترجمة محمود عابدين وسليم حسن
نجاتى ، محمد عثمان
٤٣ ـ علم النفس فى حياتنا اليومية
الطبعة الخامسة ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٦م.
نجاه يونس الحاج
٤٤ ـ المحاريب العراقية منذ العصر الإسلامى إلى نهاية العصر العباسى .
طبع ونشر مديرية الآثار العامة ، بغداد ١٩٧٦م.
نجيب ، محمد مصطفى
٤٥ ـ العمارة فى عصر المماليك .
بحث نشر فى كتاب القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها . لحسن الباشا وآخرين .
مطابع الأهرام التجارية ، القاهرة ١٩٧٠م.
هنتس ، فالتر
٤٦ ـ المكاييل والأوزان الإسلامية .
ترجمة كامل العسلى
منشورات الجامعة الأردنية ، عمان ١٩٧٠م.

* * *

رابعًا : المراجع الأفرنجية :

1 - **Ali Bey Bahgat** : La Houdjra de Medine, Cairo, 1914 .

2 - **Fr : Buhl**, Art Al-MADINA, The Encyclopadia of Islam . Vol, III, LEIDEN, 1936 .

3 - **Creswell (K. A. G)**, Early Muslim Architecture, Vol. I part 1,2 . Hacker Art Books, New York, 1979 .

4 - R. **Dozy**, Supplement Aux Dixtionnaires Arabes, Troisieme Edition, Leyde . Ej . Brill, Paris, G. P. Maisonneuveet, Larose .

5 - **Sauvaget (Jean)**, La Mosquee Omeyyade de Medine , Paris, 1947 .

* * *

فهرس الأشكال واللوح

١ - اسطوانة عائشة
٢ - اسطوانة التوبة
٣ - اسطوانة السرير
٤ - اسطوانة المحرس
٥ - اسطوانة الوفود
٦ - اسطوانة مصلى النبى
٧ - اسطوانة مقام جبريل
(من عمل الباحث)

شكل رقم ٢٩ مخطط المسجد النبوى بعد زيادة السلطان عبد المجيد خان سنة ١٢٧٧هـ عن مرآة الحرمين وبه يظهر موقع أهل الصفة فى الجانب الشمالى الشرقى من مؤخرة المسجد النبوى في عهد الرسول ، وفى هذا مخالفة لموقعها فى المخطط الذى أعده كريزويل ومن أخذ عنه .

شكل رقم ٣٠ مخطط المسجد النبوى الشريف قبل السنة السابعة وبعدها

شكل رقم ٣١ مخطط المسجد النبوى بعد تحويل القبلة ، وبه يظهر التشابه بينه وبين مخطط كريزول فى قصر موقع الصفة على الجزء الشمالى الغربى من مؤخرة المسجد النبوى

شكل رقم ٣٢ مخطط المسجد النبوى الذى نشرته سعاد ماهر فى كتابها مساجد مصر . وقد أخذته كما يبدو عن كريزول وبه يظهر موقع أهل الصفة مقتصرا على الجزء الشمالى الشرقى من مؤخرة المسجد النبوى .

شكل رقم ٣٣ مخطط المسجد النبوى فى آخر عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نقله أحمد فكرى عن محمود عكوش ، وبه تظهر الصفة فى الجانب الشمالى الشرقى من المسجد النبوى، وفى هذا مخالفة لما فى مخطط كريزول وفريد شافعى وسعاد ماهر.

شكل رقم ٣٤ مخطط المسجد النبوى بعد السنة السابعة من الهجرة

شكل رقم ٣٥ مخطط المسجد النبوى بعد السنة السابعة من الهجرة الشريفة (عن حسن الباشا) وبه يظهر أنه قصر البلاطات فى ظلتى المسجد على بلاطتين ، وهذا مخالف لما ثبت من أنها كانت ثلاث بلاطات فى كل منهما

شكل رقم ٣٦ مخطط المسجد النبوى فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين (عن حسن الباشا) وليس به أدنى إشارة إلى مقدار الأذرع المضافة فى كل زيادة من الزيادات المرقمة .

شكل رقم ٣٧ رسم تخطيطى للحجرة الشريفة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم
م(١) مصدر الصوت وهو على ارتفاع حوالى ١٦٠سم من سطح الأرض.
م(٢) نفس مصدر الصوت وهو على ارتفاع حوالى ٣٠٠سم من سطح الأرض.
(أ١ ، أ٢ ، أ٣ ، أ٤) تمثيل هندسى للطاقة الصوتية الصادرة من م (١)
(ب١ ، ب٢ ، ب٣ ، ب٤) تمثيل هندسى للطاقة الصوتية من م (٢)
الرسم يوضح أن الصوت الصادر من المصدر وهو فى وضع م (١)
جزء كبير يمتص فى الأجسام التى بين المصدر والمستمع قبل أن يصل إليه .
بينما نسبة أكبر تصل لنفس المستمع عندما يكون نفس المصدر فى الوضع م (٢)

شكل رقم ٣٨ رسم توضيحى لمدى انتشار الصوت من مكان مرتفع

شكل رقم ٣٩ رسم تخطيطى للمسجد النبوى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وزيادة عمر وعثمان رضى الله عنهما .

شكل رقم ٥٣ المراحل التى سارت عليها عمارة قايتباى الأولى ٨٧٩ ـ ٨٨١هـ
المرحلة الأولى المرحلة الثانية المرحلة الثالثة
المرحلة الرابعة المرحلة الخامسة

شكل رقم ٥٤ الحجرة الشريفة كما رسمها السمهودى فى وفاء الوفا جـ٢ ، ص ٥٦٦ بعد مشاهدته لها وذرعه أبعادها فى عمارة قايتباى الأولى سنة ٨٨١هـ .

شكل رقم ٥٥ الحجرة الشريفة كما شاهدها السمهودى عند انكشافها فى عمارة قايتباى الأولى سنة ٨٨١هـ . خلاصة الوفاء ، ص ٢٠٢ .

شكل رقم ٥٦ هاتان الصورتان تمثلان الوضع الذى استقر عليه بناء الحجرة الشريفة إلى الوقت الحاضر

شكل رقم ٥٧ صورة مخطط الحجرة الشريفة بوضعها الحالى وهى الحالة التى كانت عليها بعد عمارة الأشرف قايتباى لها سنة ٨٨٧هـ .

شكل رقم ٥٨ تمثل هاتان الصورتان المنارة الرئيسية فى زمنين مختلفين والصورة اليسرى نقلتها من مرآة الحرمين جـ١ ص ٤٥١ . وبعقد مقارنة بين شرافات الشرفة الأولى فى الصورتين يتبين أنه حدث بهما تحسينات فى العهد السعودى وهو ما يظهر واضحا فى الصورة الملونة

شكل رقم ٥٩ صورة المحراب النبوى وفيها يبدو جمال التقسيمات الرخامية والكتابات البديعة التى تحلى المحراب منذ جدده الأشرف قايتباى فى العمارة الثانية التى تمت سنة ٨٨٨هـ .

شكل رقم ٦٠ صورة المحراب العثمانى وبه تبدو الزخرفة المملوكية التى لا يزال يحتفظ بها من عهد عمارة الأشرف قايتباى له سنة ٨٨٨هـ .

شكل رقم ٦١ صورة مخطط للمسجد النبوى فى القرن التاسع نقلها سوفاجيه عن مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس لمؤلف مجهول برقم ٦٥٦٥ / عربى وهى توضح وضع المسجد النبوى بعد عمارة قايتباى الثانية وما به من حواصل .

شكل رقم ٦٢ مسقط يبين حالة المسجد النبوى بعد عمارة قايتباى الثانية.

لوحة رقم ٦٣ صورة منبر مسجد قباء الذى أرسله الأشرف قايتباى سنة ٨٨٨هـ إلى المسجد النبوى ثم نقل إلى مسجد قباء بعد إرسال السلطان مراد للمنبر الموجود حاليا فى المسجد النبوى سنة ٩٩٨هـ .

لوحة رقم ٦٤ شمعدان الأمير جانى بك الموقوف على الحرم النبوى الشريف فيما بين ٨٠١ ـ ٨٠٨هـ

لوحة رقم ٦٥ شمعدان الأشرف قايتباى الموقوف على الحجرة الشريفة بتاريخ شهر رمضان سنة ٨٨٨هـ

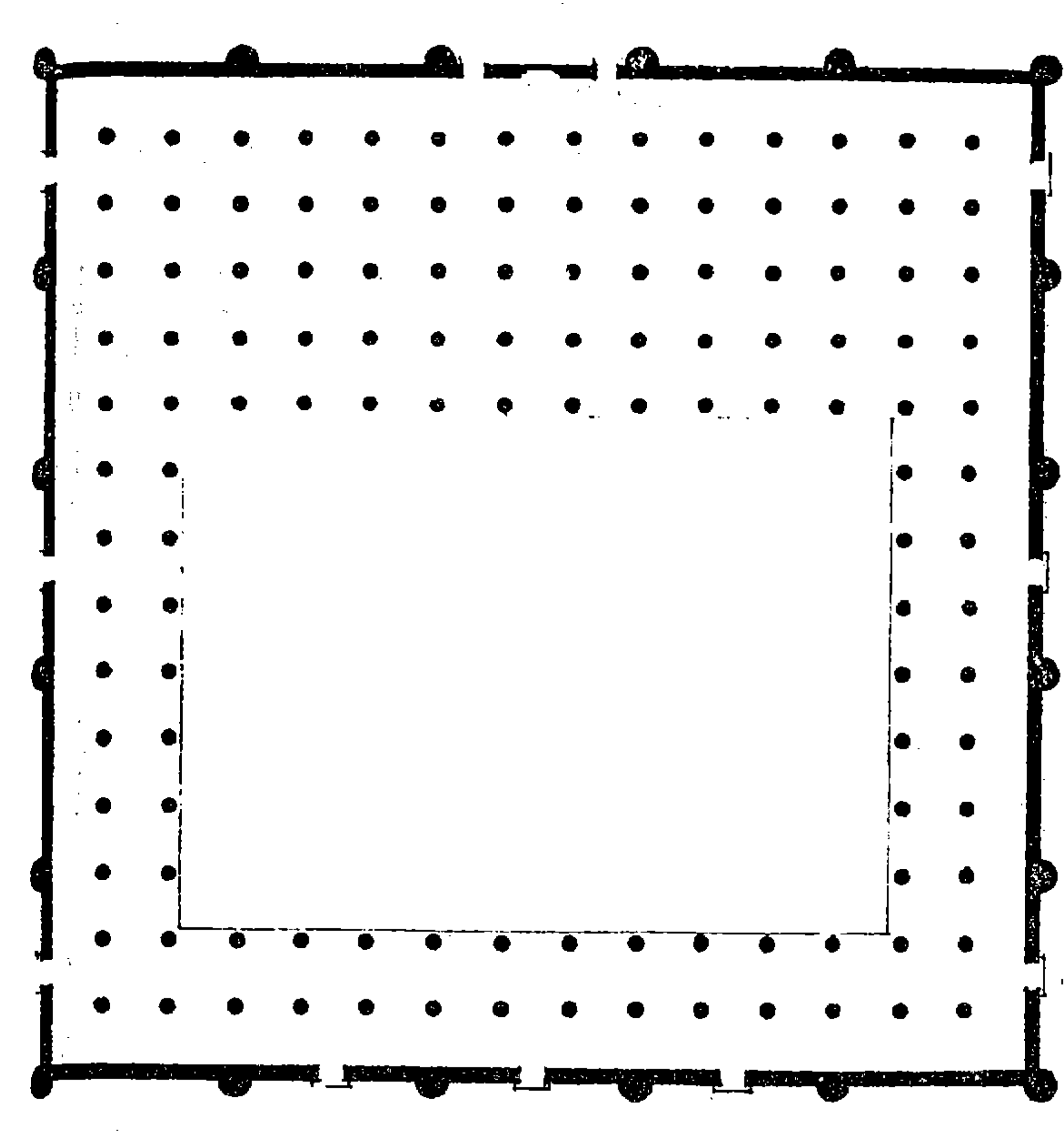
لوحة رقم ٦٦ صورة النقش الموجود خلف المحراب النبوى فى لوح رخامى بطول ٦٦× ٨٨ سم

لوحة رقم ٦٧ صورة النقش الموجود بأصل مشبك الحجرة الشريفة المطل على الروضة الشريفة

لوحة رقم ٦٨ صورة النقش الموجود بأصل مشبك الحجرة الشريفة الشمالى المطل على دكة الأغوات

لوحة رقم ٦٩ صورة النقش الموجود خلف المحراب السليمانى فى لوح رخامى بطول ٧٢×٦٦سم والمؤرخ خطأ فى سنة ٩٠٨هـ .

الأشكال والصوّر



شكل (١)

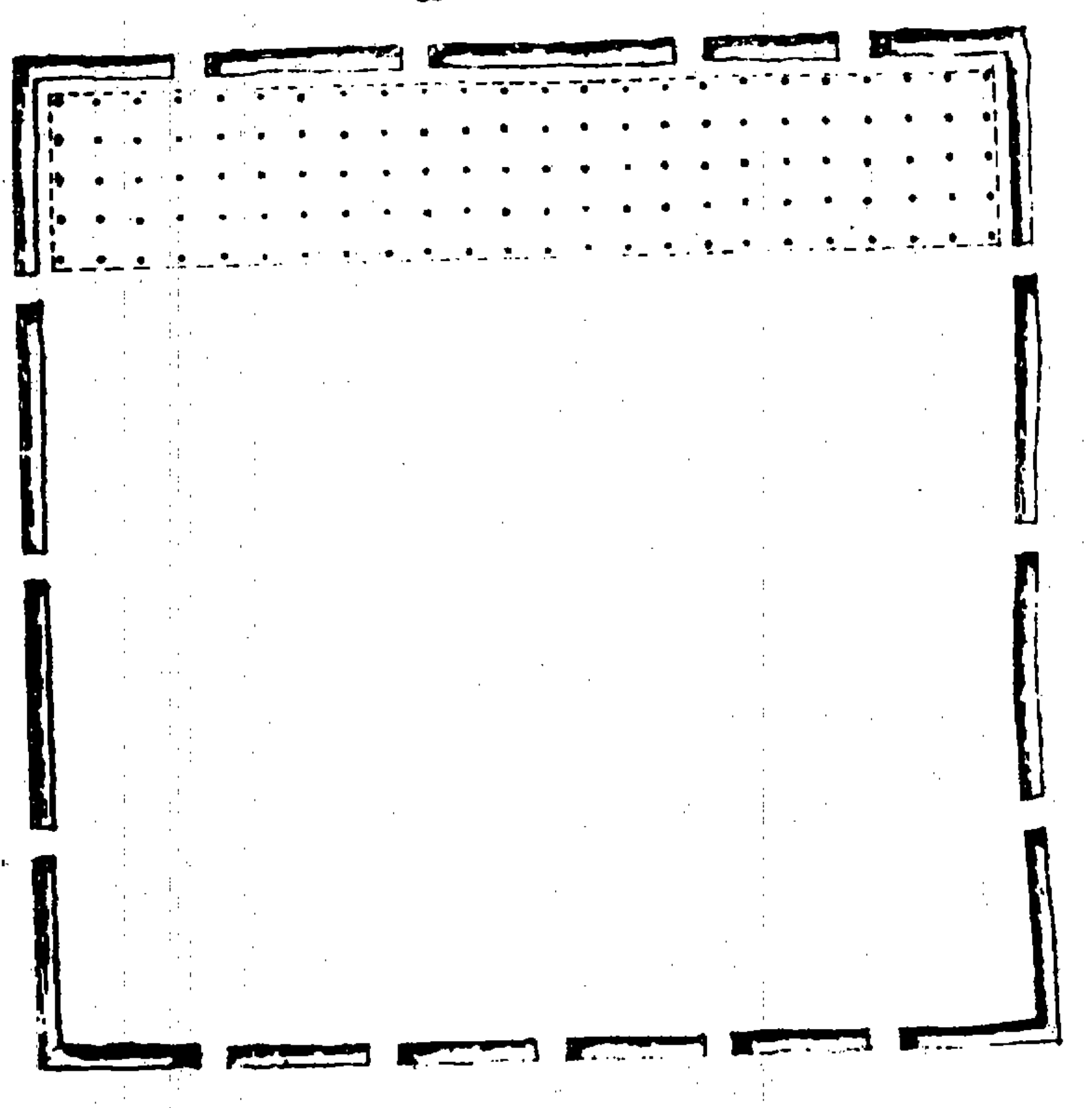
رسم تخطيطى لمسجدى البصرة والكوفة بعد زيادة

زياد بن أبيه لهما

سنة ٥٠هـ

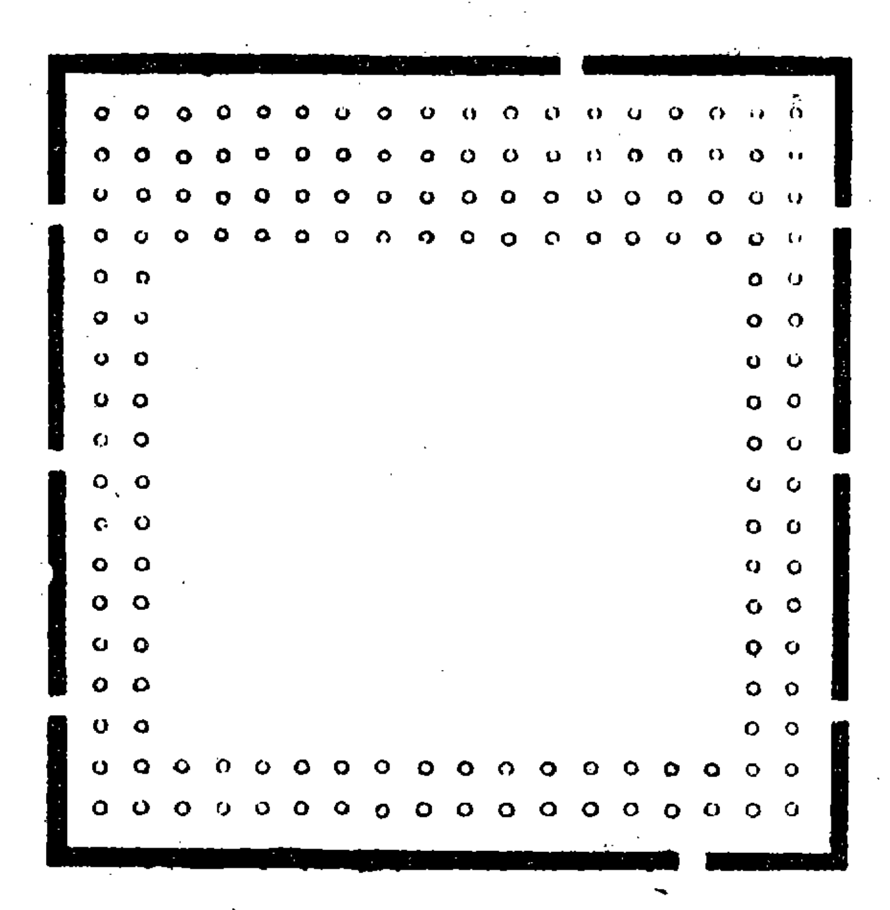
(عن فريد شافعى)

مسجد الكوفة الأول

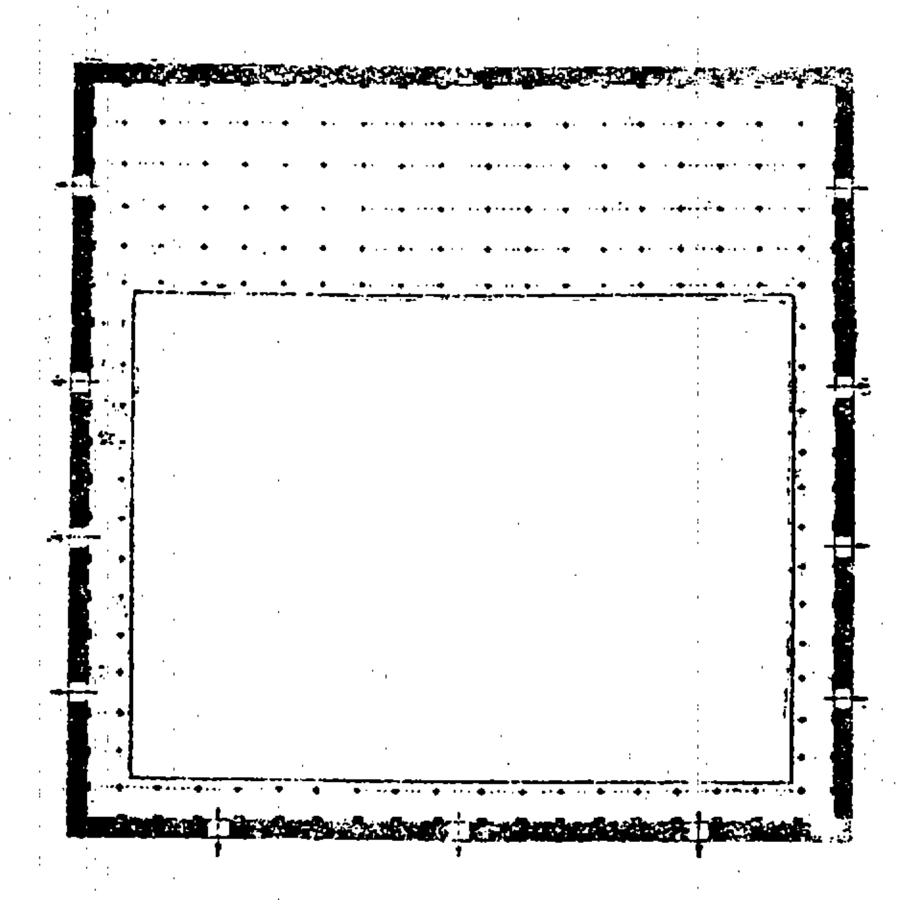


شكل (٢)
رسم تخطيطي لمسجد الكوفة الأول

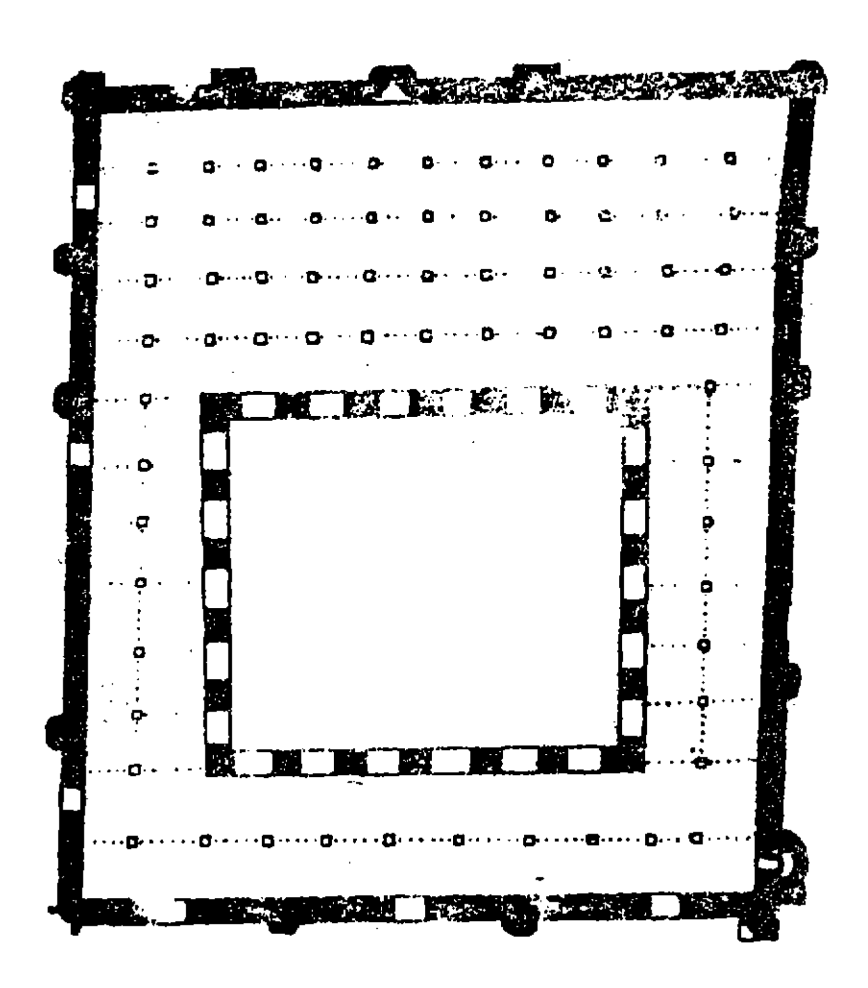
(عن فريد شافعي)



شكل (٣)
رسم تخطيطي لمسجد الكوفة بعد عمارة
زياد بن أبيه له سنة ٥١هـ
(عن أحمد فكري)

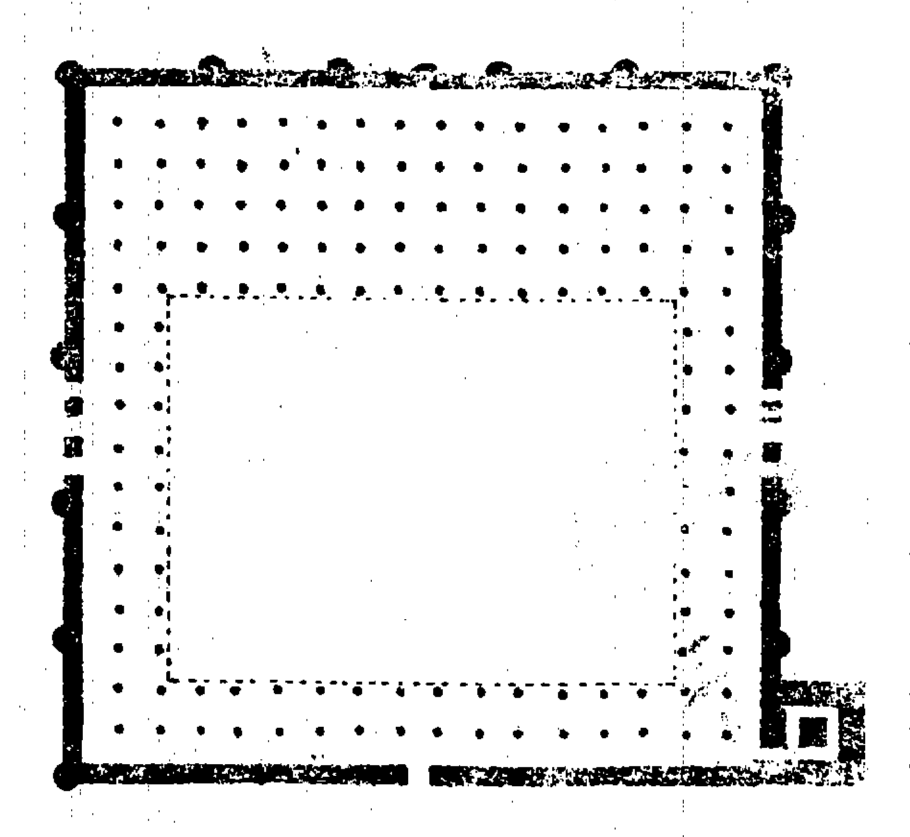


شكل (٤)
مخطط جامع واسط فى عهد الحجاج بن يوسف الثقفى
(عن أحمد فكرى)

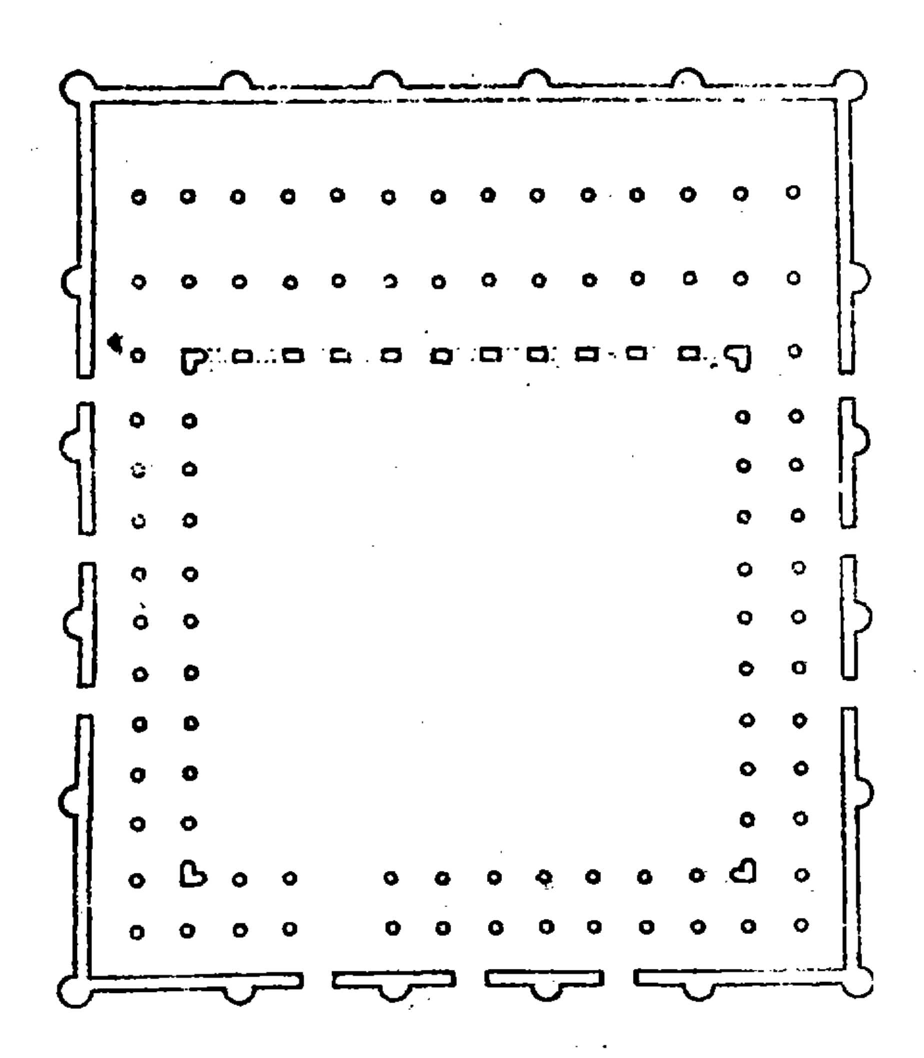


شكل (٥)
مخطط المسجد العلوى بمدينة أسكاف بنى جنيد بالعراق
سنة ١١٠هـ

(عن أحمد فكرى)

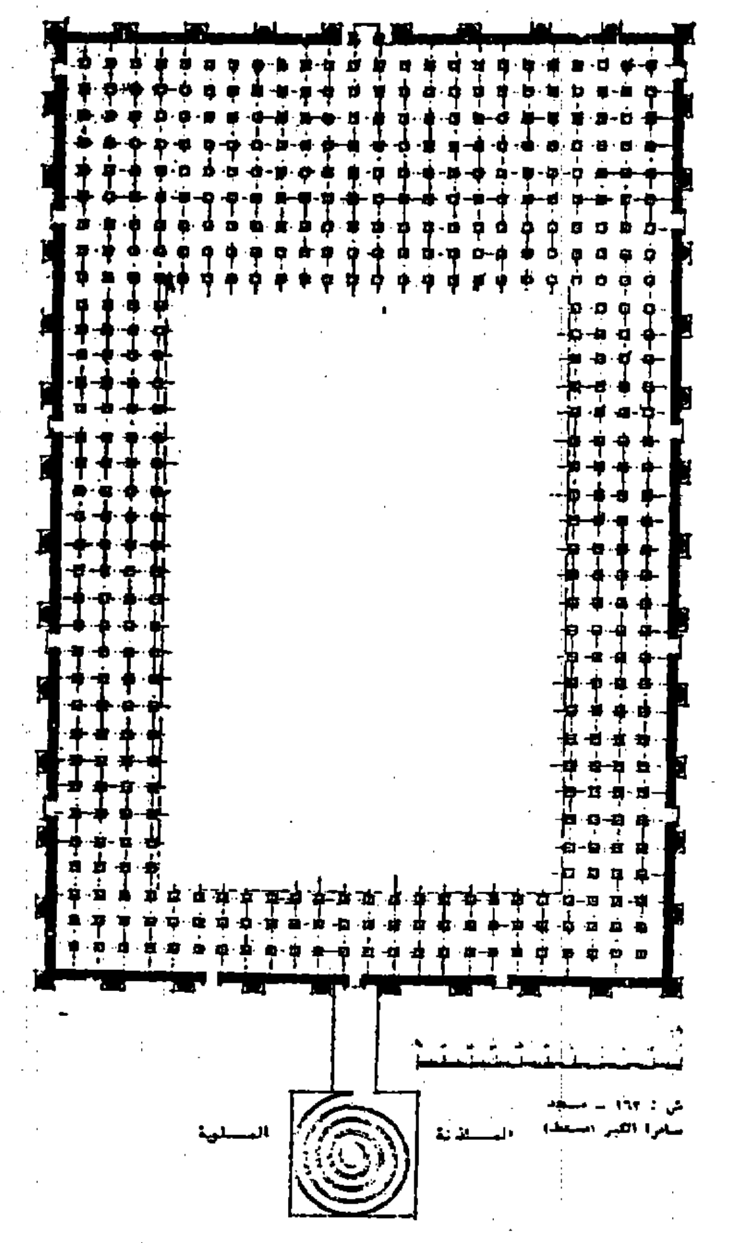


شكل (٦)
مخطط جامع بغداد فى عهد أبو جعفر المنصور سنة ١٤٩هـ
(أحمد فكرى عن هرتزفلد)



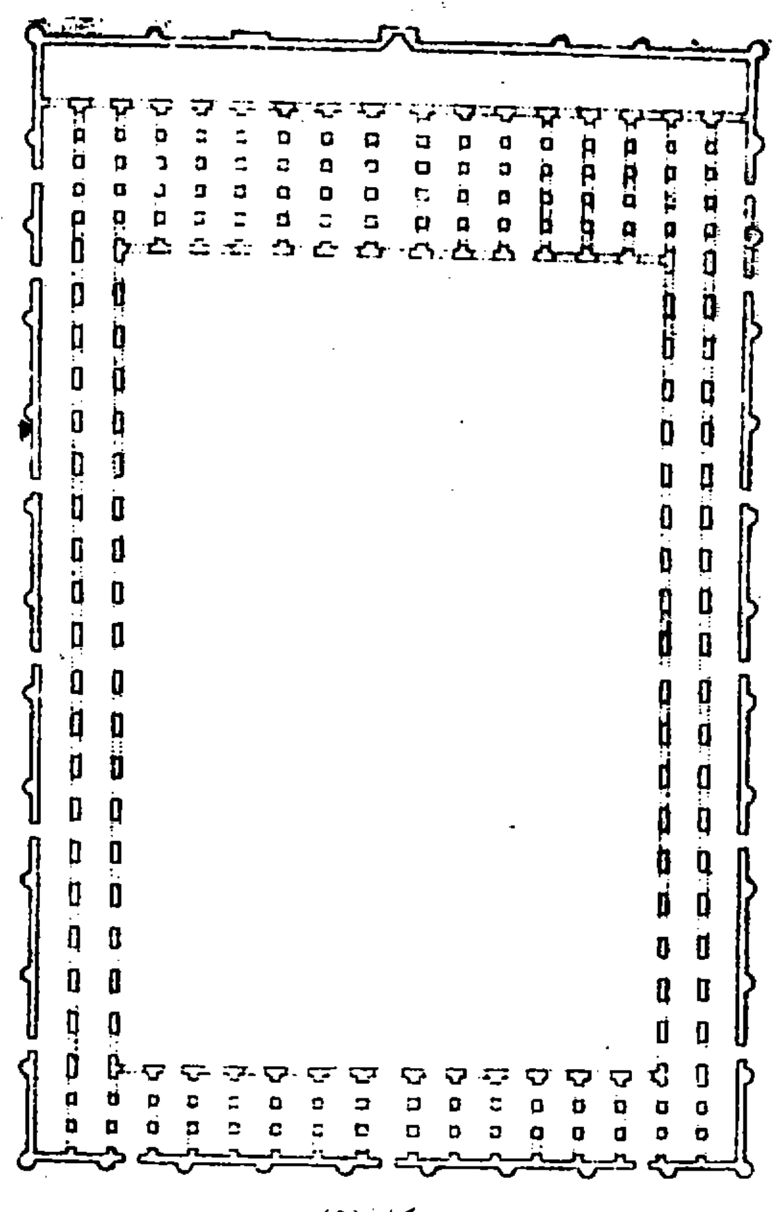
شكل (٧)
مخطط مسجد الرقة فى عهد المنصور
سنة ١٥٥هـ

(عن أحمد فكرى)



شكل (٨)
مخطط جامع سامراء الكبير

(عن فريد شافعي)



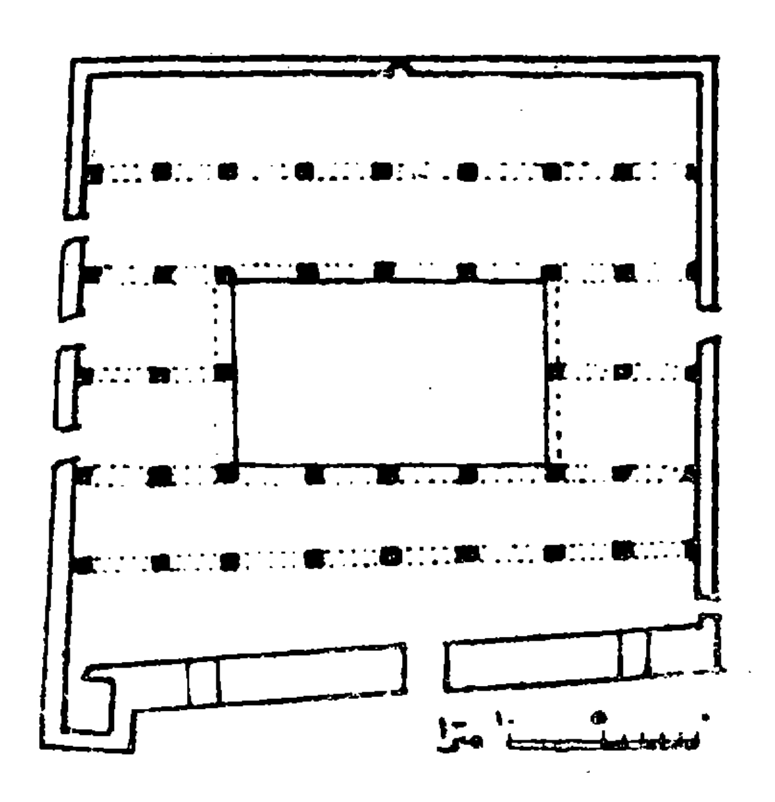
شكل (٩)

مخطط مسجد أبي دلف بالعراق فى عهد المتوكل على الله سنة ٢٤٥هـ

(أحمد فكرى عن هوتزفلد)

شكل (١٠)
مخطط الجامع الأموى بدمشق

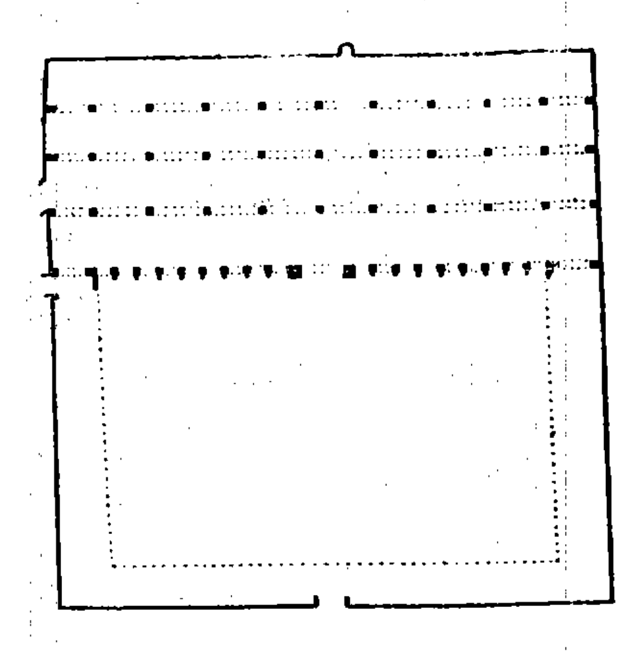
(عن أحمد فكرى)



شكل (١١)

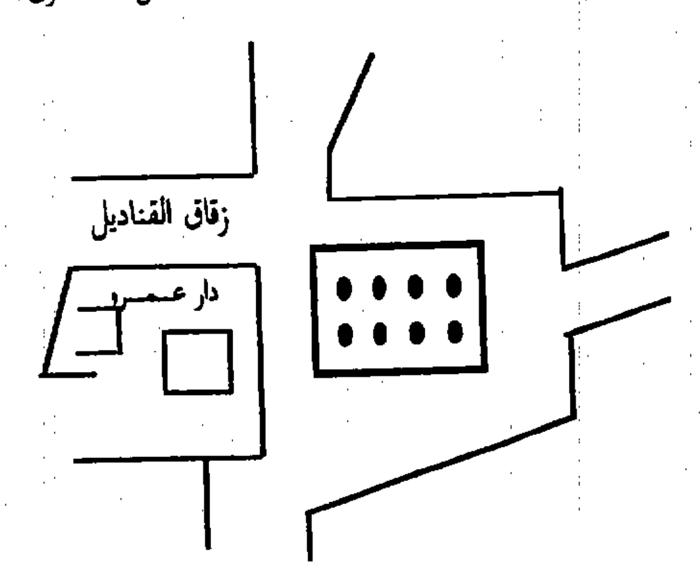
رسم تخطيطي لمسجد بصرى في جنوب الشام على عهد يزيد بن عبد الله في سنة ١٠٢هـ

(عن أحمد فكري)

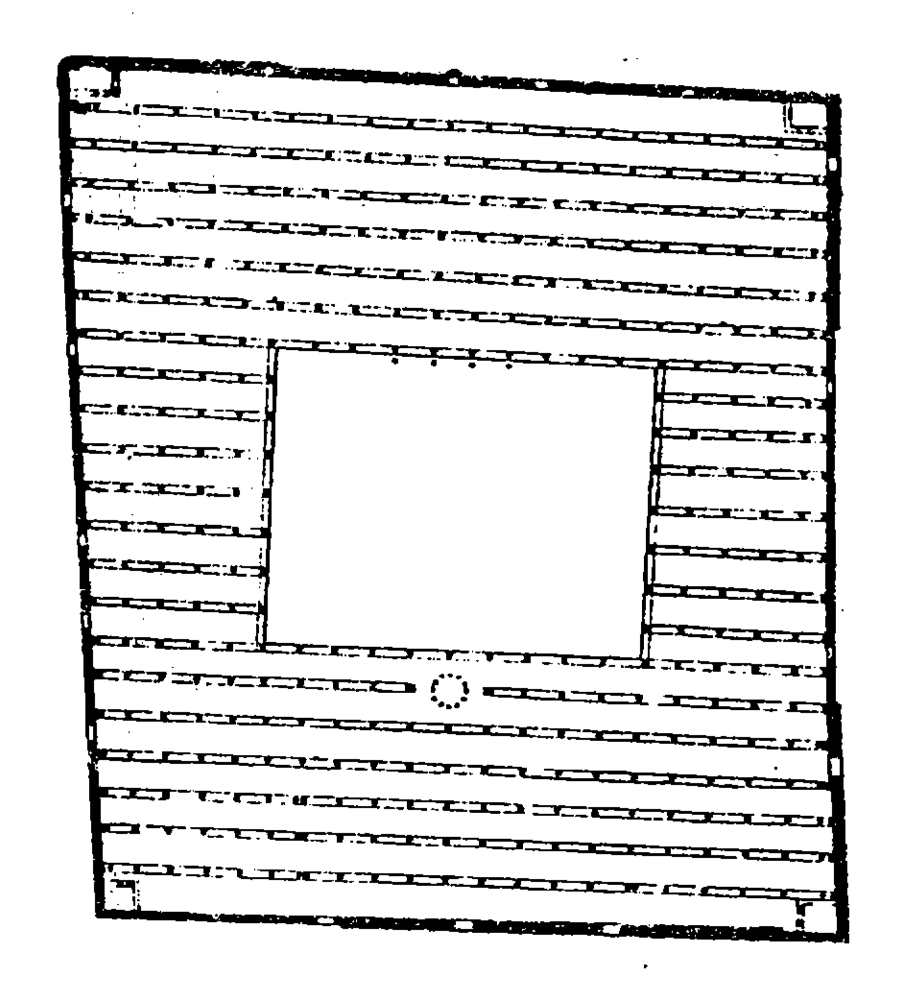


شكل (١٢)
مخطط مسجد حران فى عهد مروان بن الحكم
حوالى سنة ١٣٠هـ

(عن أحمد فكرى)

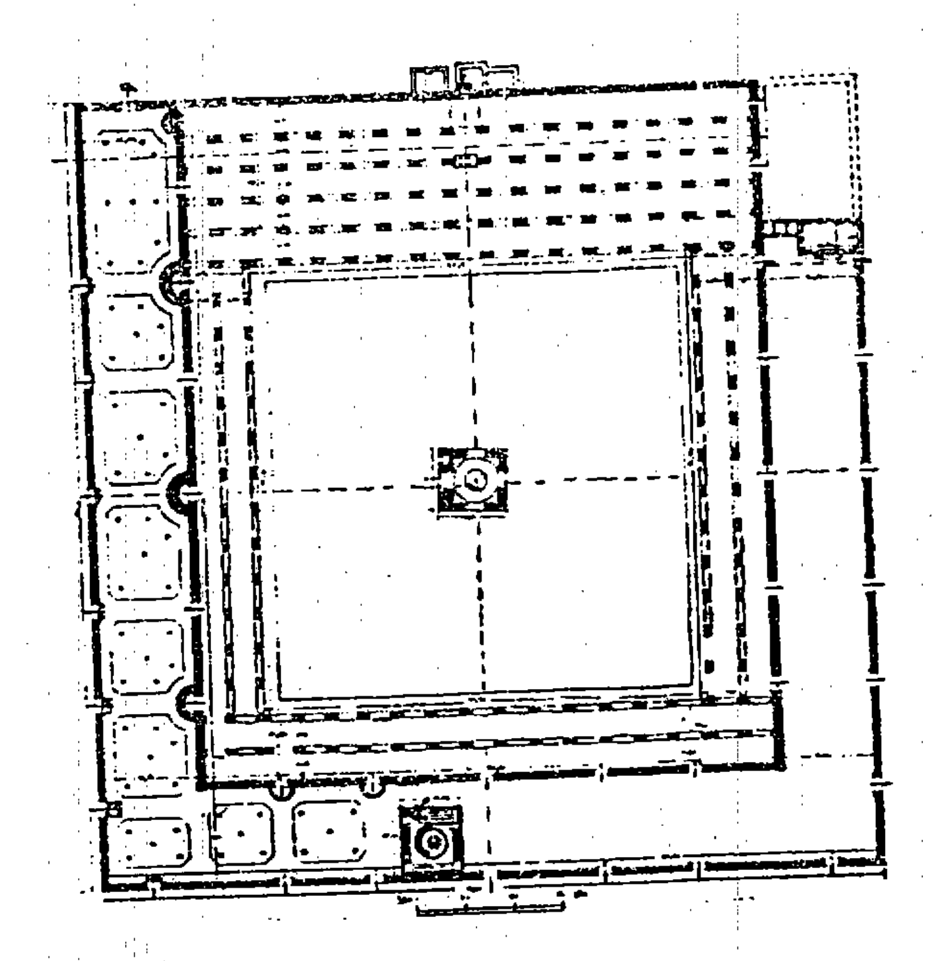


شكل (١٣) - رسم تصورى لتخطيط مسجد عمرو سنة
انشائه (٢١ - ٦٤٢م)
- عن محفوظات مصلحة الآثار .



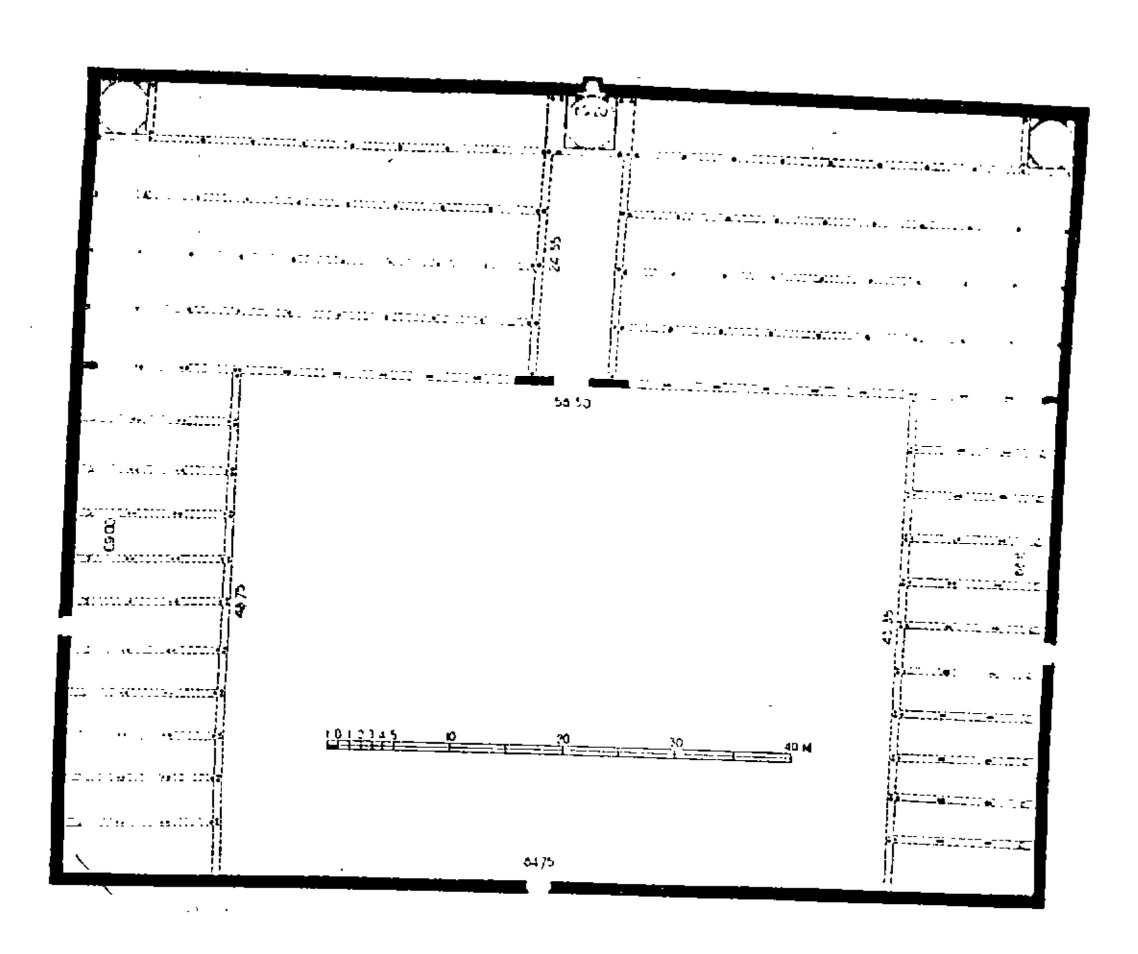
شكل (١٤)
رسم تخطيطي للمسجد العتيق على عهد عبد الله بن طاهر
سنة ٢١٢هـ

(عن أحمد فكرى)



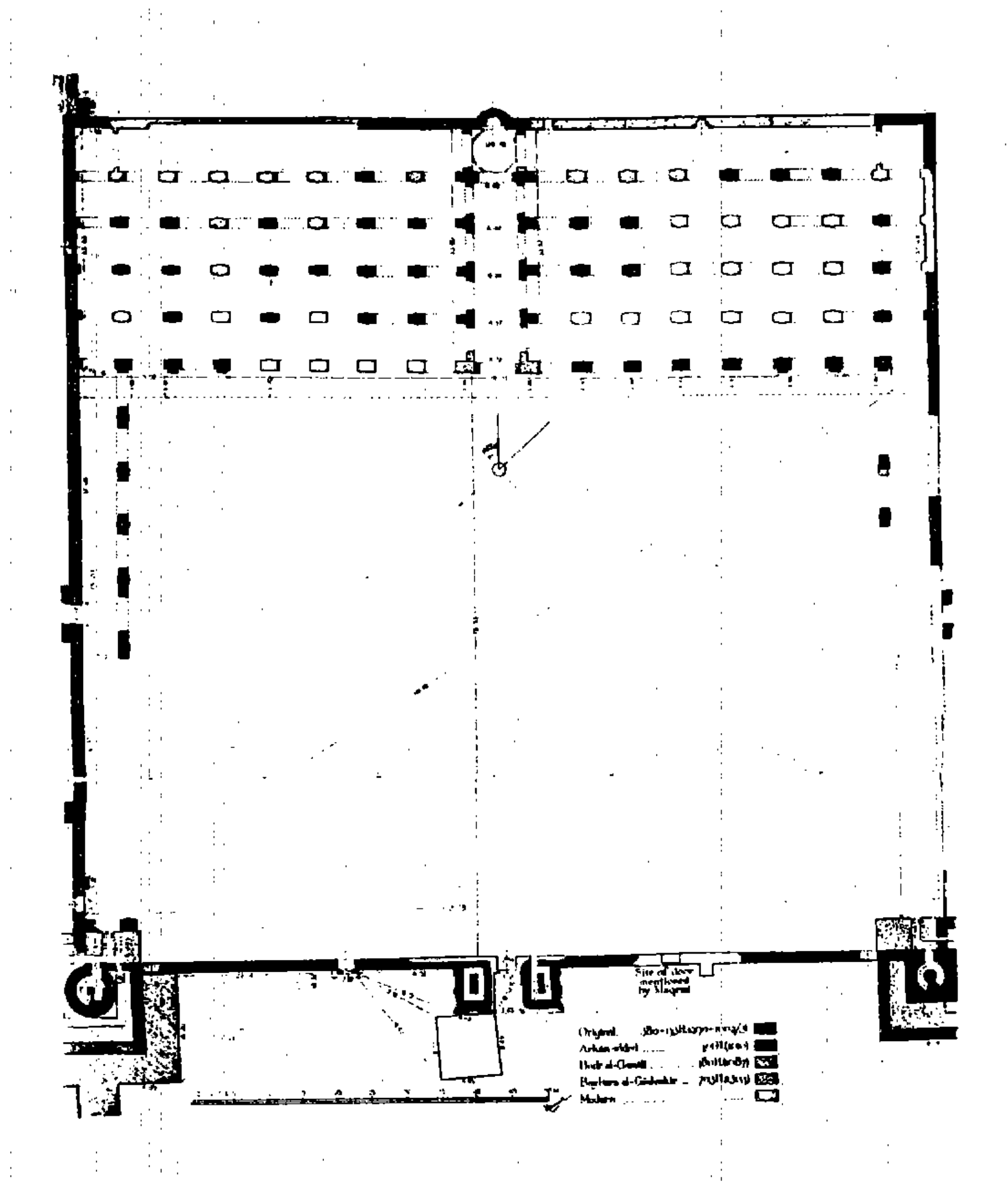
شكل (١٥)
مخطط جامع أحمد بن طولون

(أحمد فكرى عن مصلحة الآثار المصرية)



شكل (١٦)
مخطط الجامع الأزهر فى العصر الفاطمى

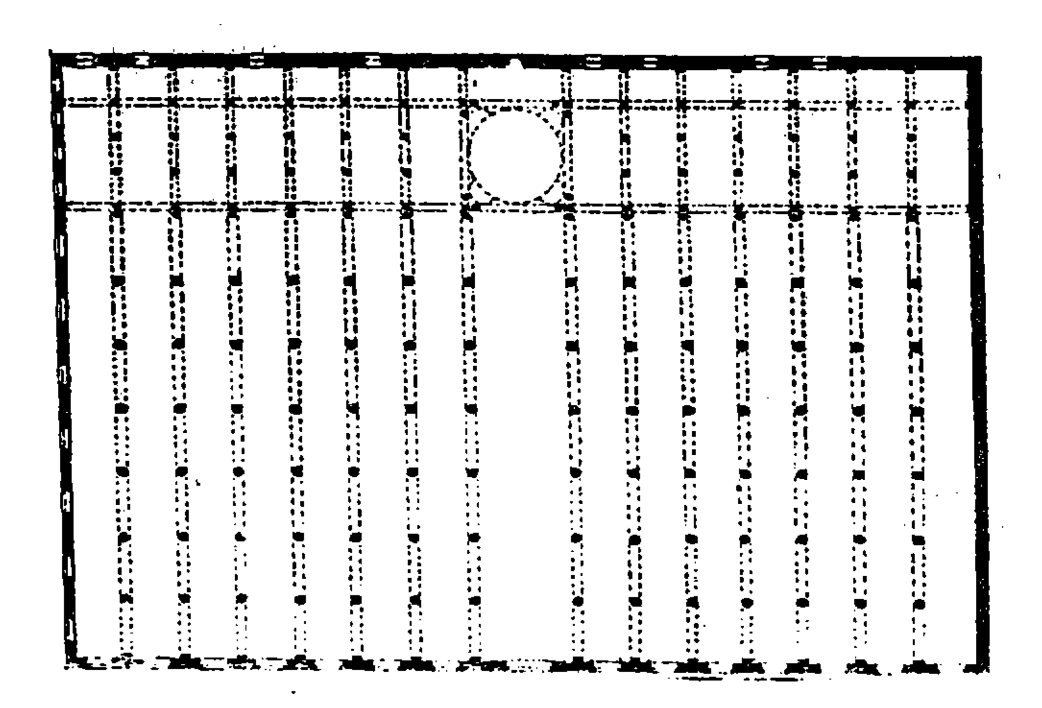
(عن كريزويل)



شكل (١٧)

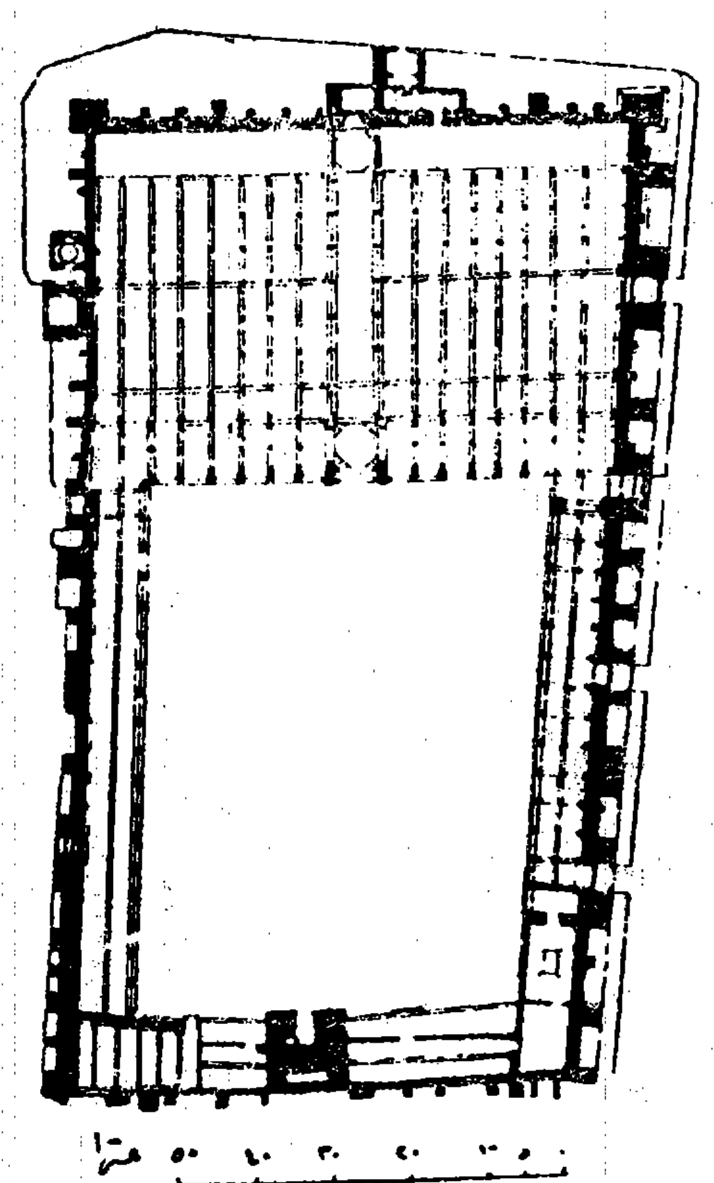
مخطط جامع الحاكم بأمر الله الفاطمى بالقاهرة

(عن كريزويل)



شكل (١٨)
مخطط المسجد الأقصى بعد عمارة المهدى العباسى له سنة ١٦٣هـ

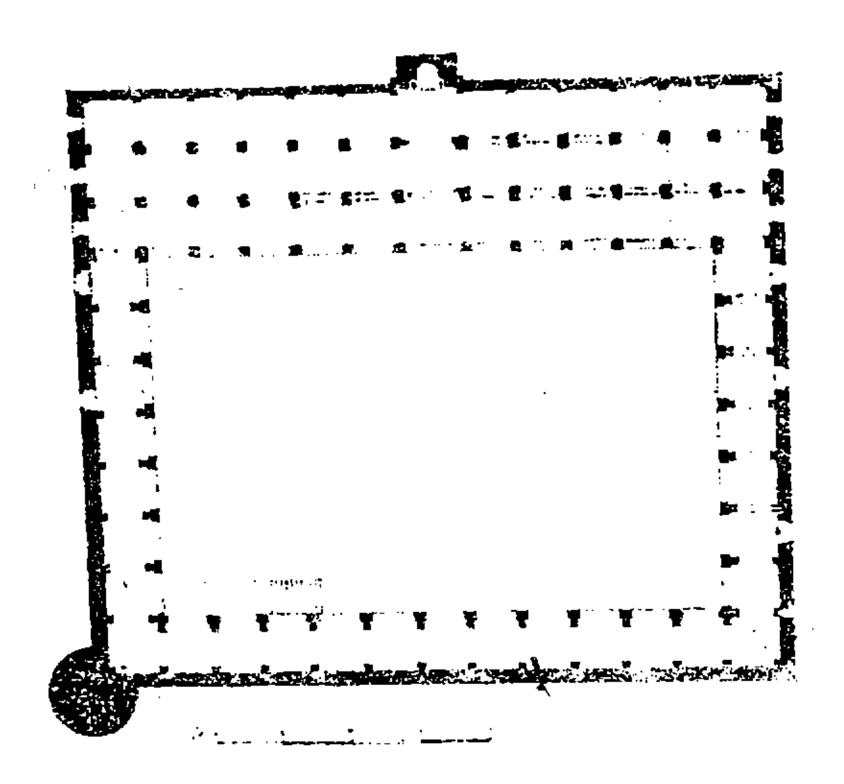
(عن فريد شافعى)



شكل (١٩)

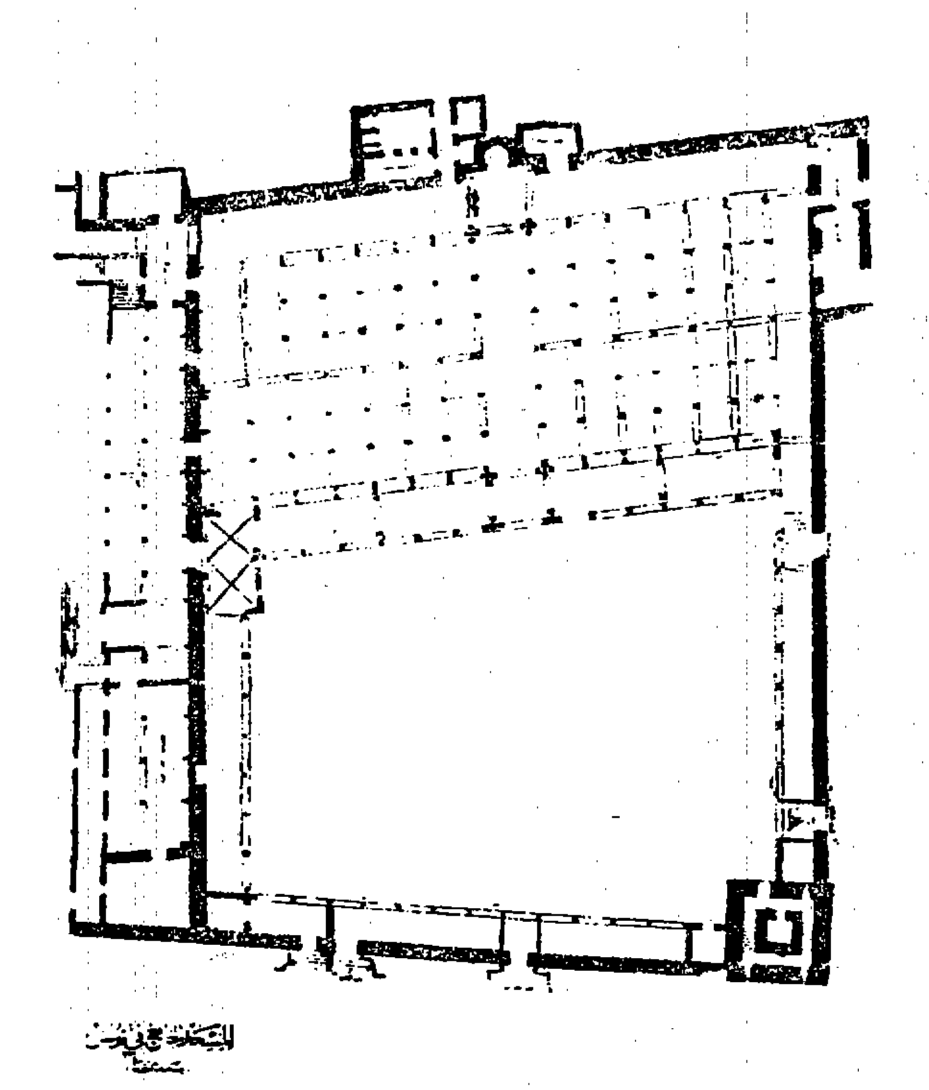
مخطط جامع القيروان بتونس بوضعه الراهن

(عن أحمد فكرى)



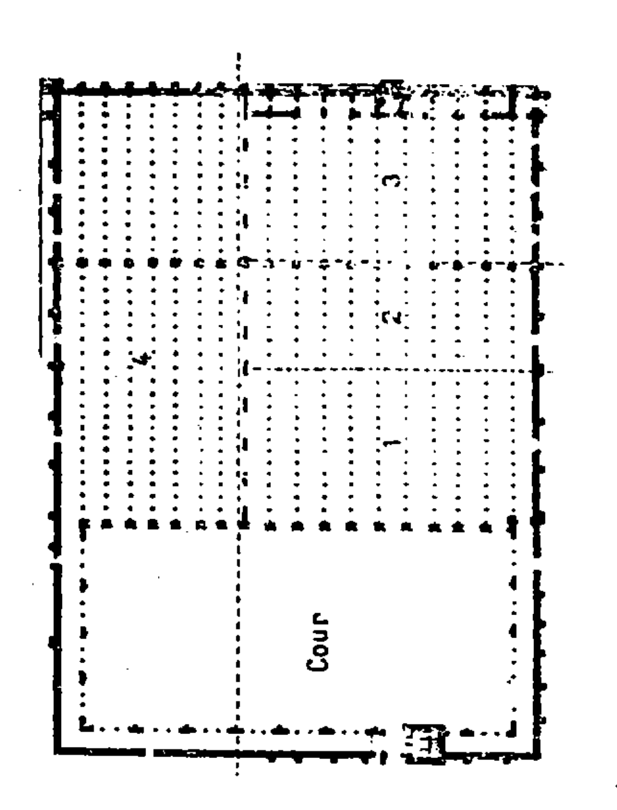
شكل (٢٠)
مخطط جامع سوسة فى تونس فى عهد أبى العباس محمد بن الأغلب
سنة ٢٣٦هـ

(عن أحمد فكرى)



شكل (٢١)
مخطط جامع الزيتونة بوضعه الراهن

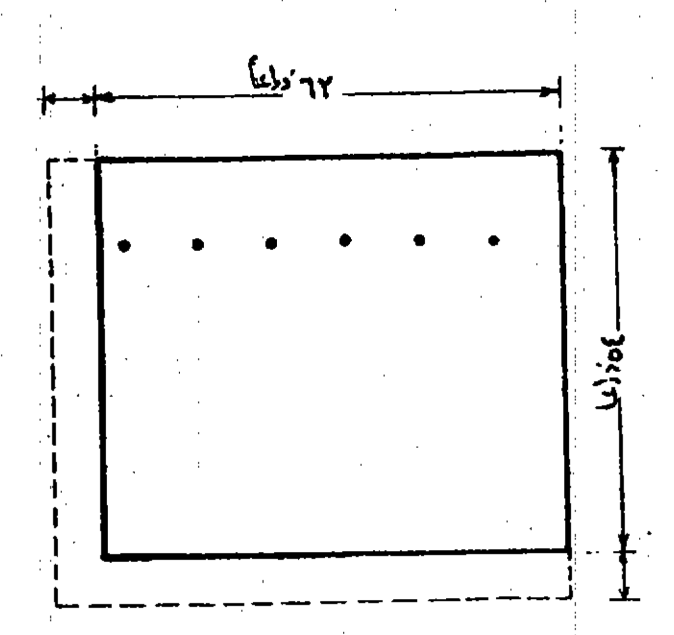
(عن أحمد فكرى)



شكل (٢٢)
مخطط المسجد الجامع بقرطبة

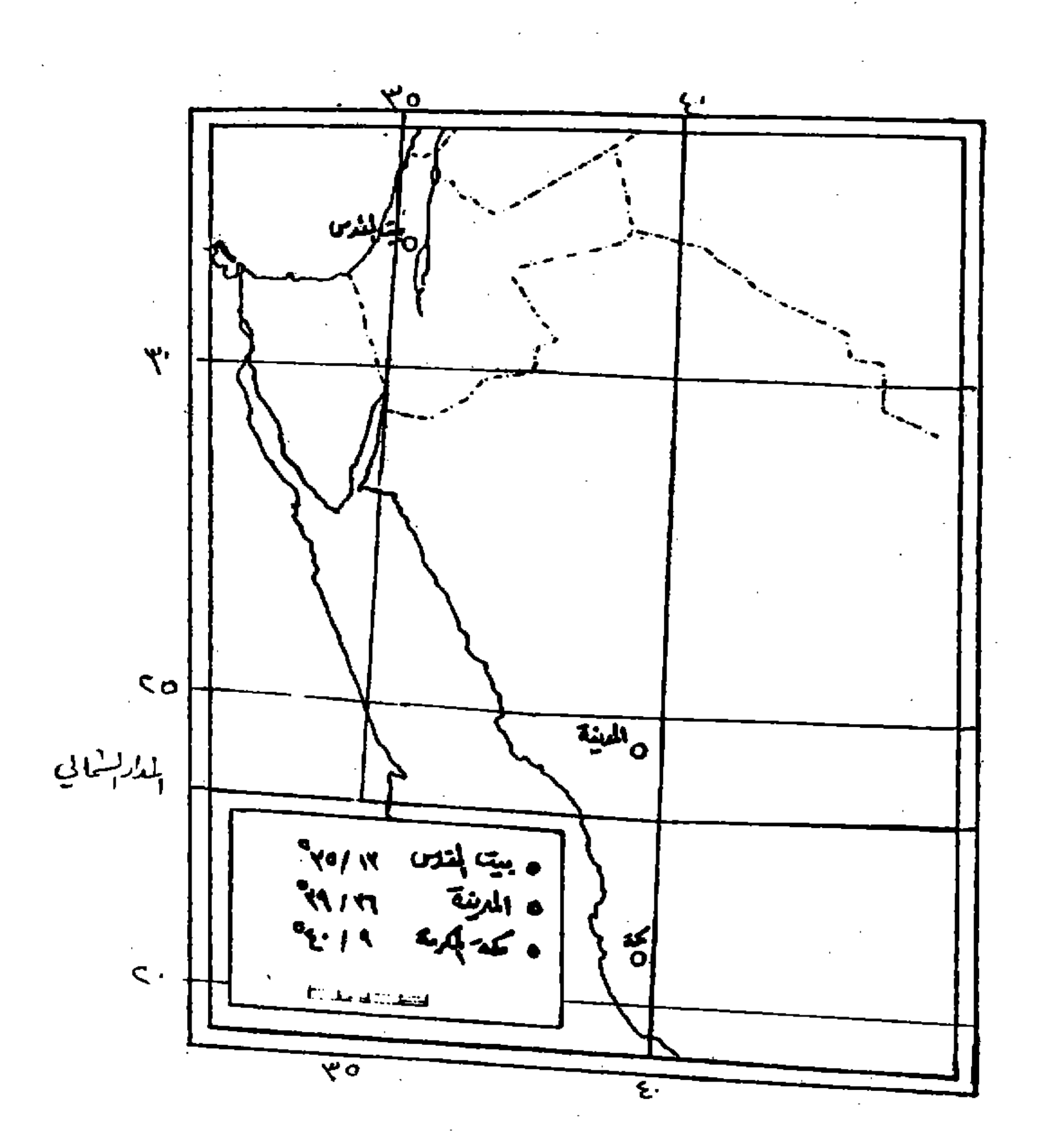
(عن جورج مارسيه)





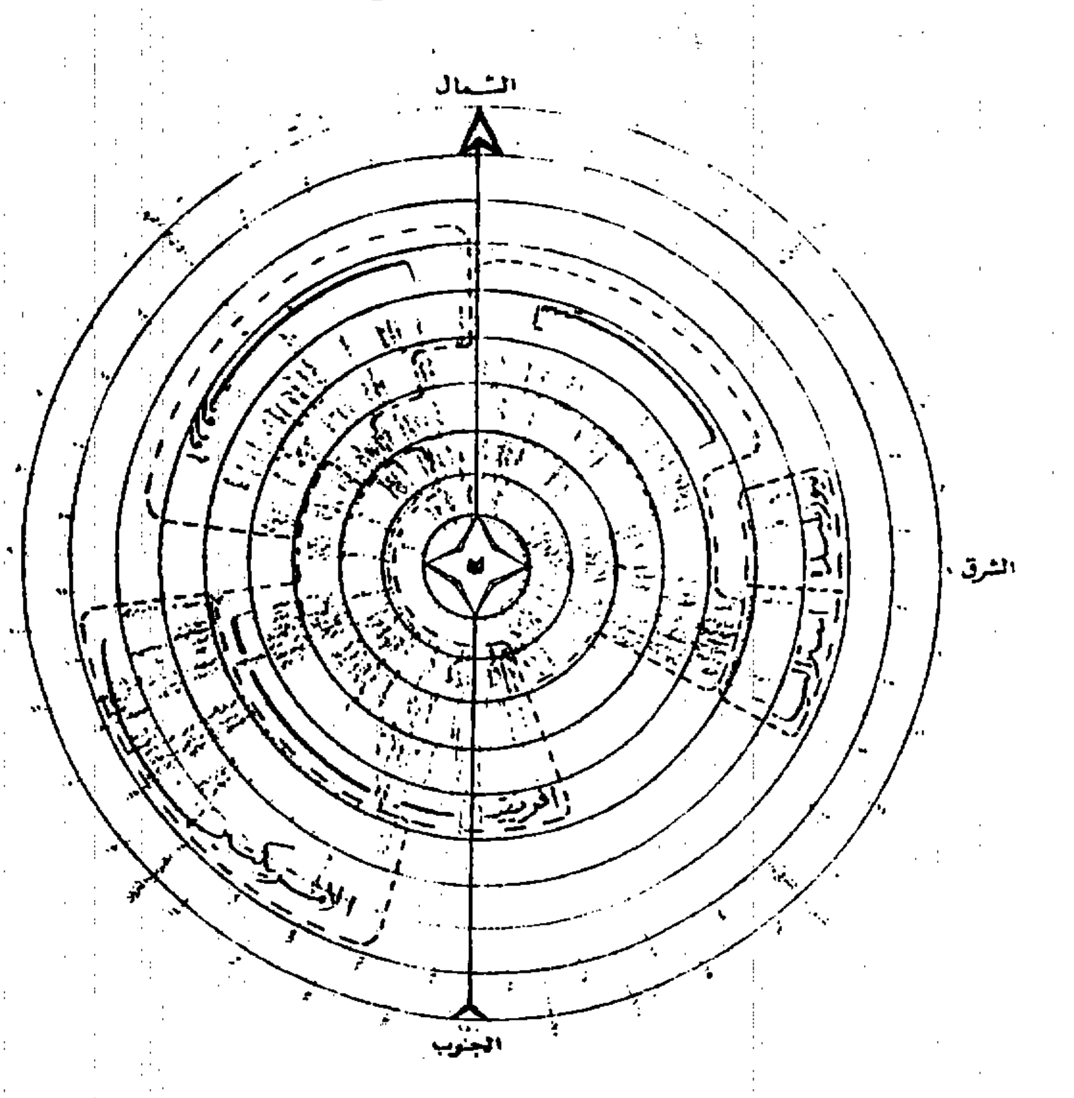
شكل (٢٣)
مخطط المسجد النبوى قبل تحويل القبلة

(من عمل الباحث)

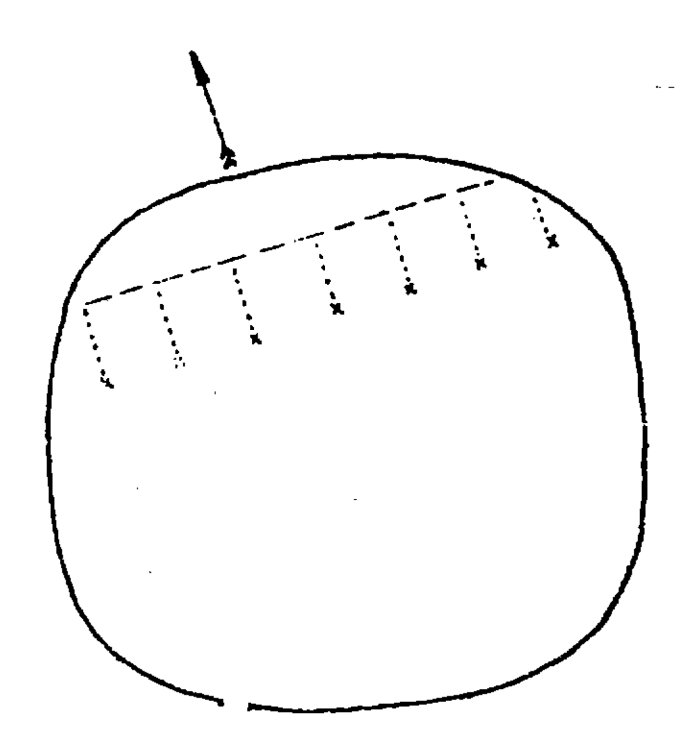


شكل (٢٤)
خريطة جغرافية يظهر بها موقع مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت المقدس
ويلاحظ أن المواقع المذكورة ليست على خط طول واحد

رابطة العالم الإسلامى
المرصد الإسلامى

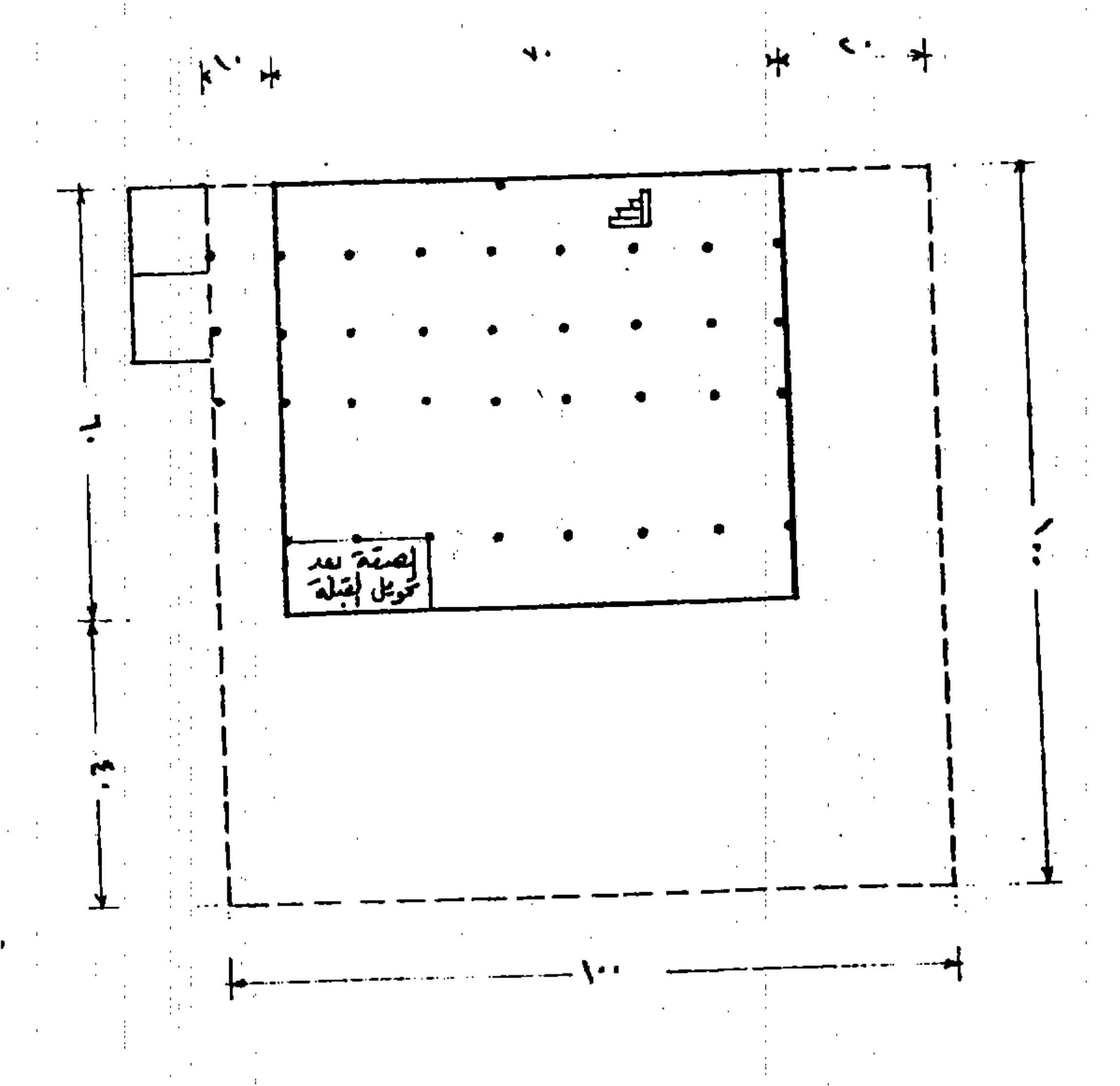


لوحة (٢٥)
تبين هذه الصورة الفرق بين موقع المدينة وبيت المقدس واتجاههما إلى الكعبة المشرفة



شكل (٢٦)

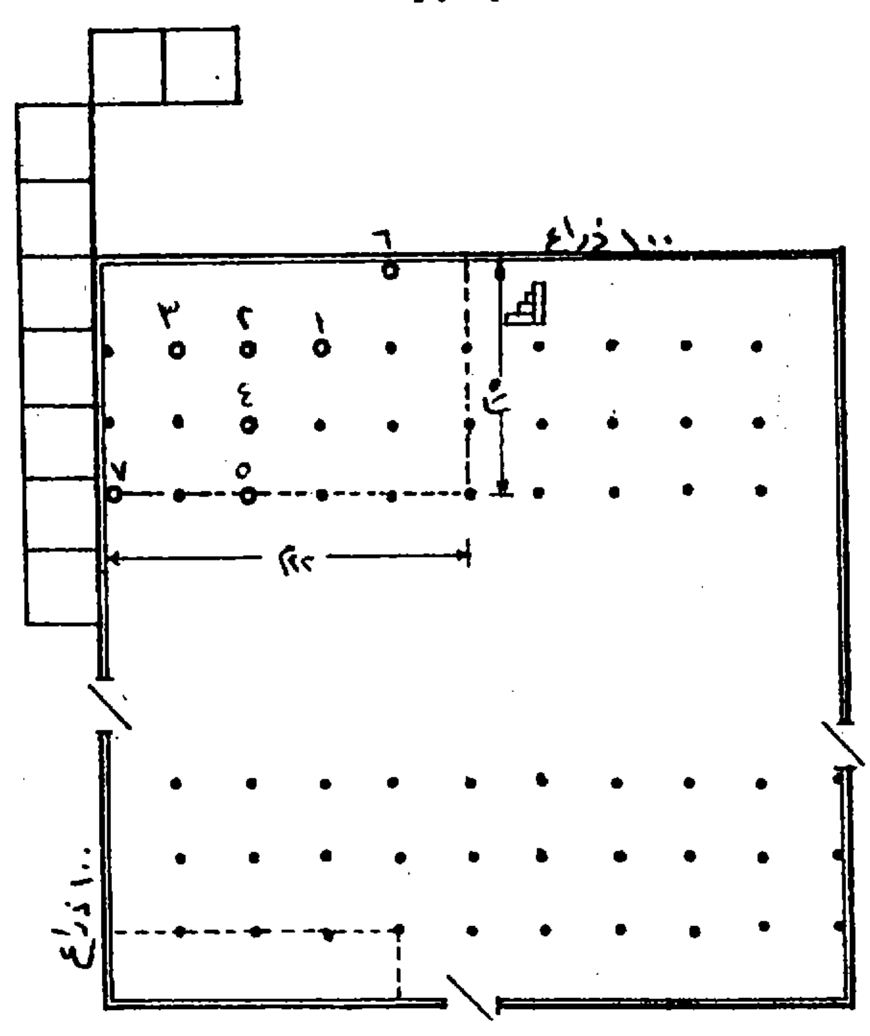
مخطط المسجد النبوى كما رسمه بوتى وهو مخطط لا يمكن قبوله إلا إذا كانت جدران المسجد النبوى لم تتغير بعد تحويل القبلة



شكل (٢٧)

مخطط للمسجد النبوى بعد تحويل القبلة وبه يظهر موقع أهل الصفة من الظلة الشمالية ، ومما لا شك فيه أنها انتقلت إلى مؤخرة المسجد النبوى بعد الزيادة الأخيرة فى عهد الرسول عليه السلام

(من عمل الباحث)

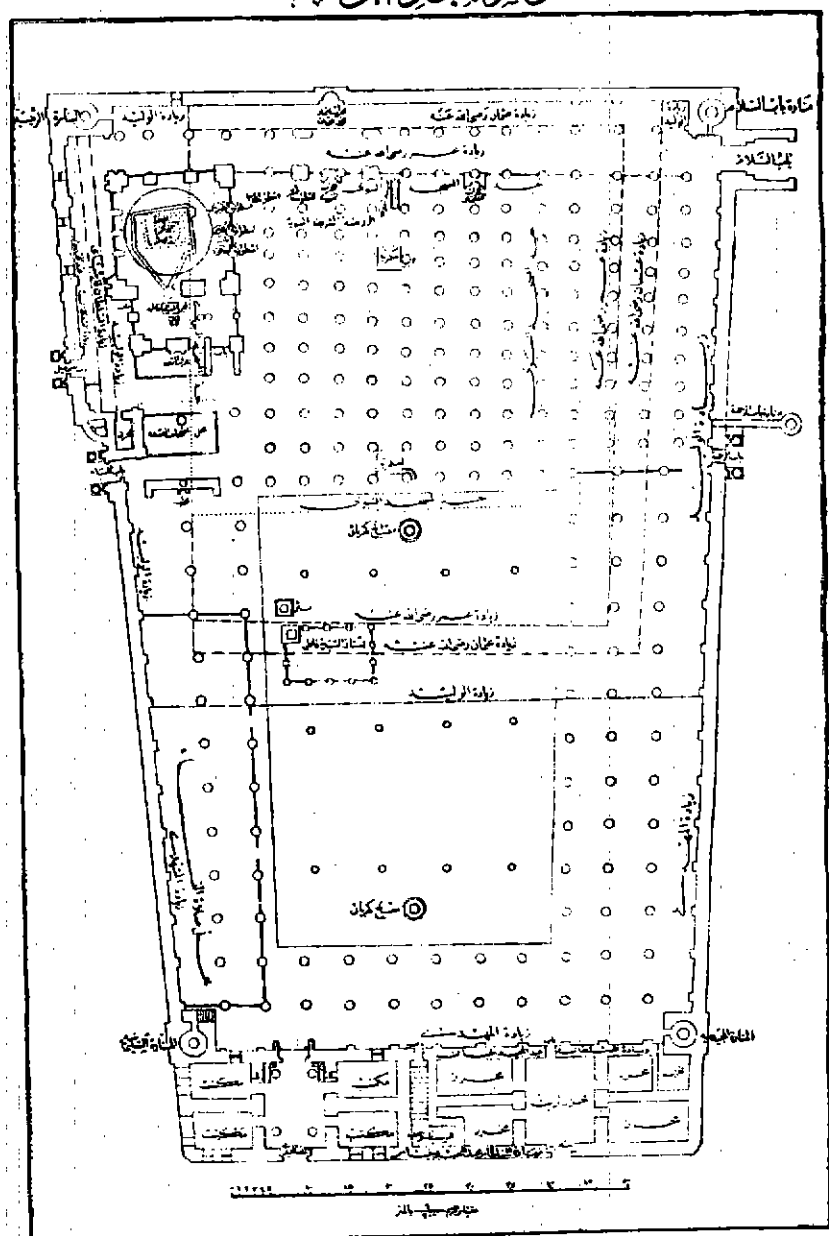


شكل (٢٨)

مخطط المسجد النبوى فى حياة الرسول وبه تظهر اسطوانات الروضة المشهورة التالية :

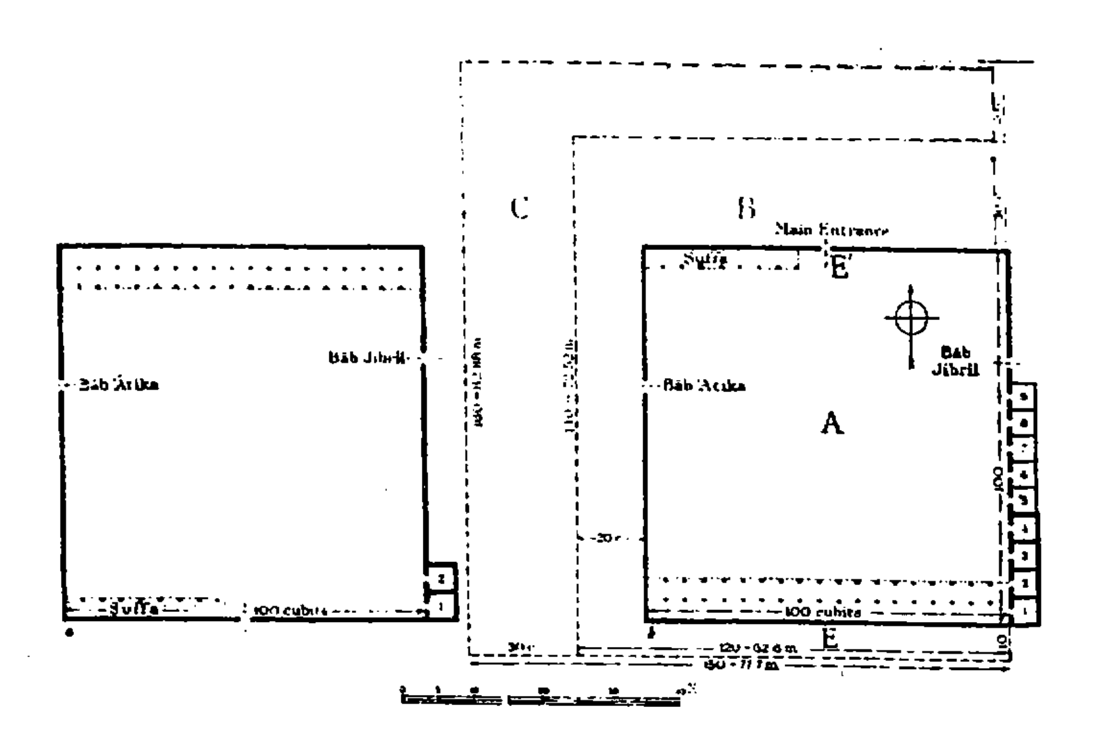
١ ـ اسطوانة عائشة
٢ ـ اسطوانة التوبة
٣ ـ اسطوانة السرير
٤ ـ اسطوانة المحرس
٥ ـ اسطوانة الوفود
٦ ـ اسطوانة مصلى النبى
٧ ـ اسطوانة مقام جبريل

(من عمل الباحث)



شكل (٢٩)

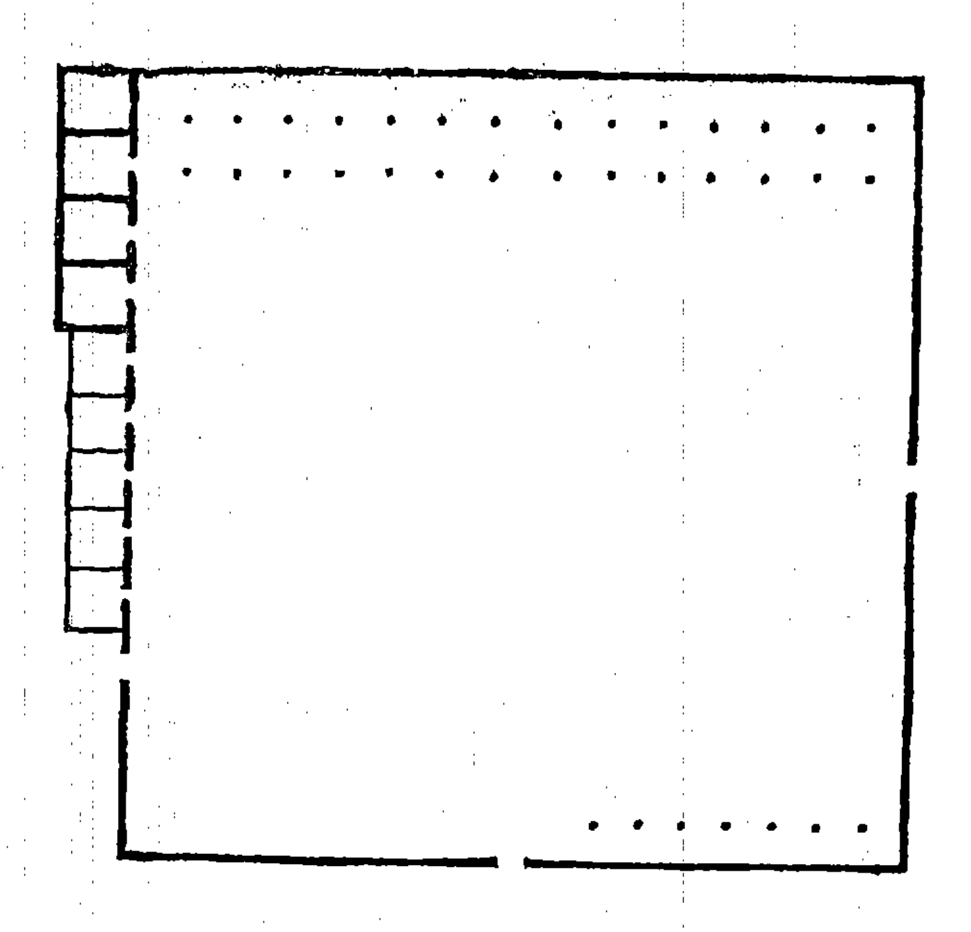
مخطط المسجد النبوى بعد زيادة السلطان عبد المجيد خان سنة ١٢٧٧هـ عن مرآة الحرمين وبه يظهر موقع أهل الصفة فى الجانب الشمالى الشرقى من مؤخرة المسجد النبوى فى عهد الرسول ، وفى هذا مخالفة لموقعها فى المخطط الذى أعده كريزويل ومن أخذ عنه .



شكل (٣٠)

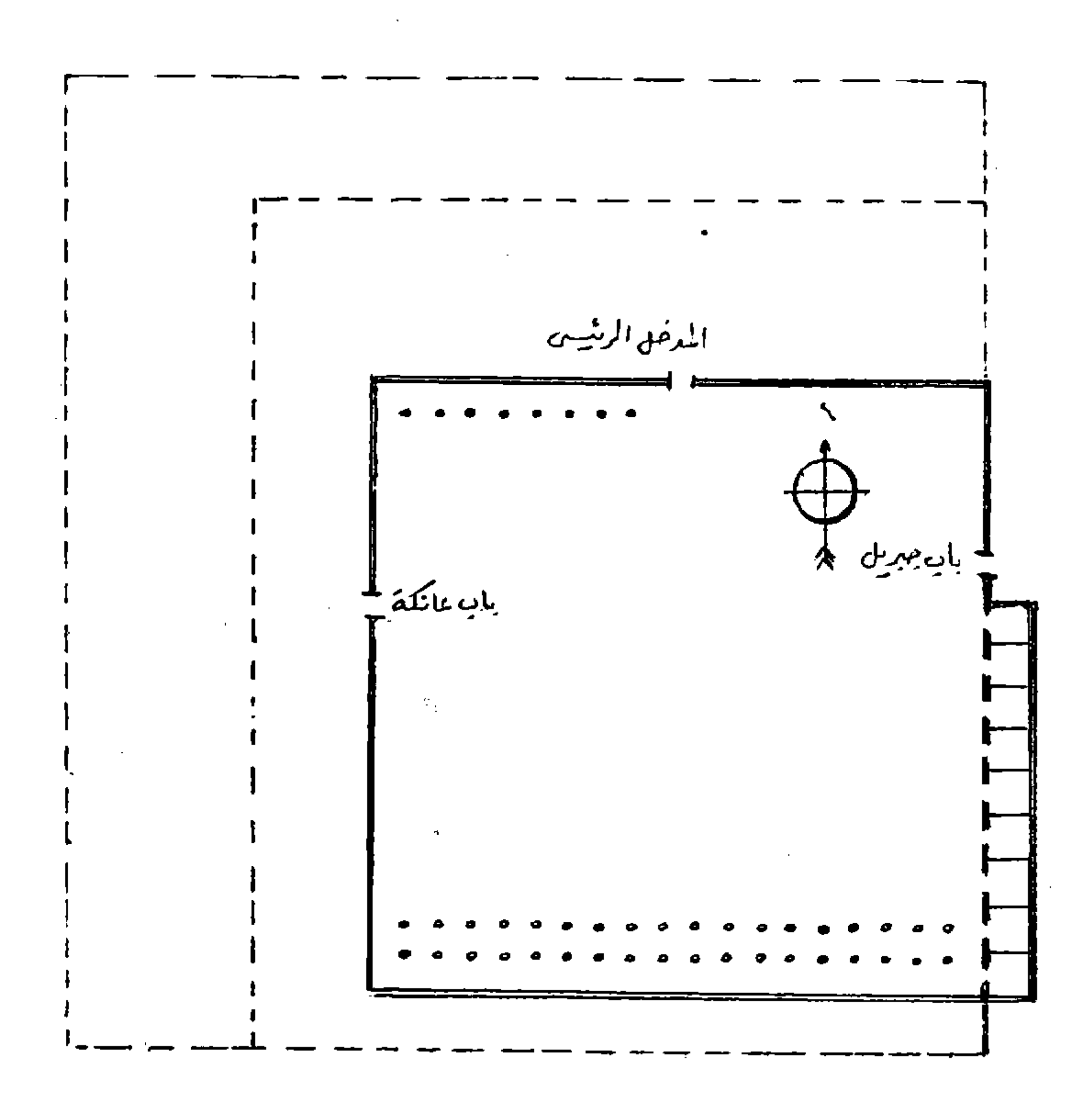
مخطط المسجد النبوى الشريف قبل السنة السابعة وبعدها

(من عمل كريزويل)

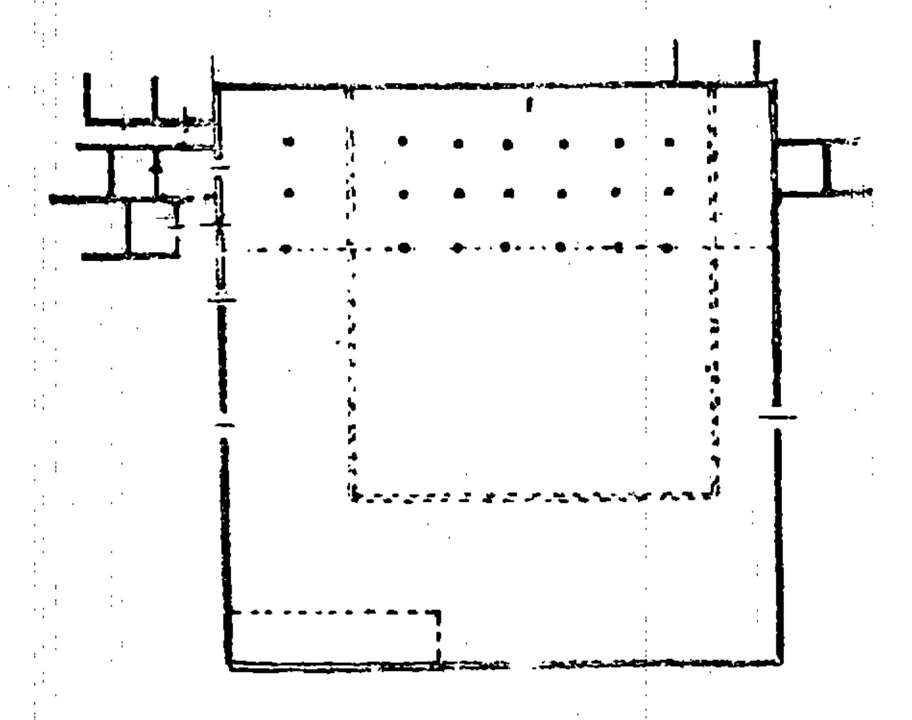


شكل (٣١)
مخطط المسجد النبوى بعد تحويل القبلة ، وبه يظهر التشابه بينه وبين
مخطط كريزول فى قصر موقع الصفة على الجزء
الشمالى الغربى من مؤخرة المسجد النبوى

(عن فريد شافعى)

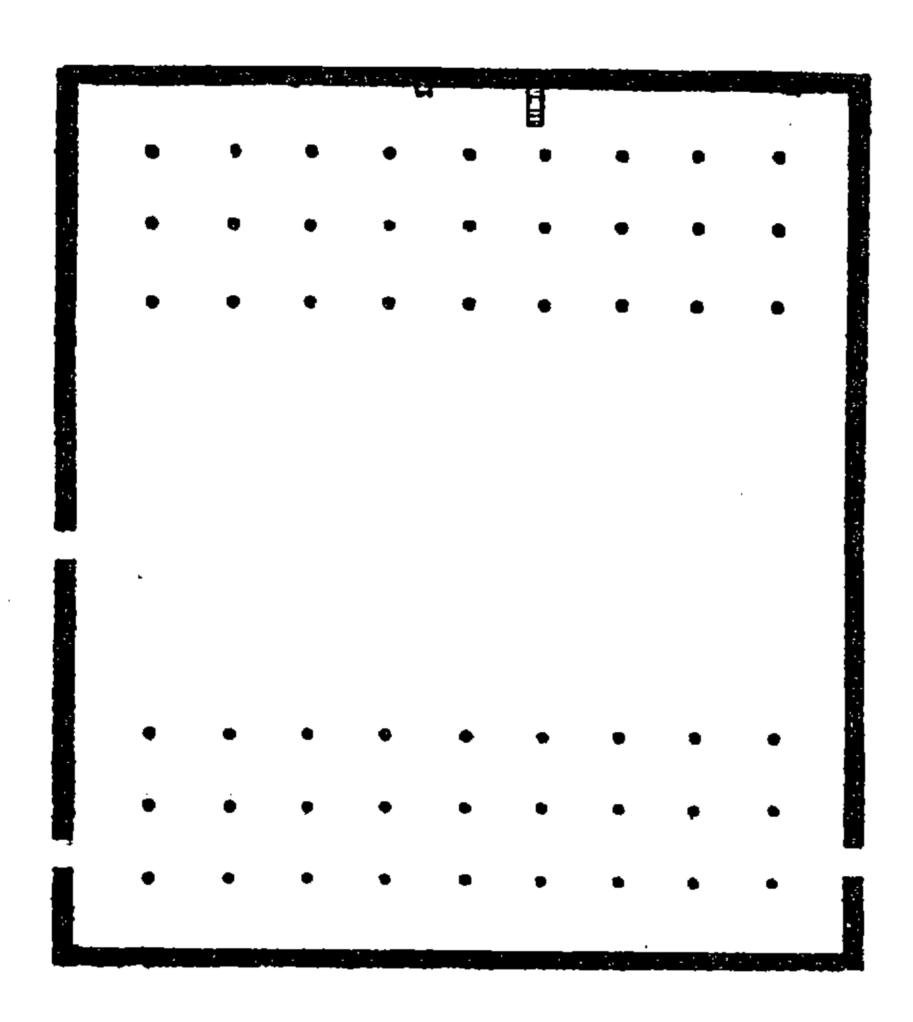


شكل (٣٢)
مخطط المسجد النبوى الذى نشرته سعاد ماهر فى كتابها مساجد مصر . وقد أخذته
كما يبدو عن كريزول وبه يظهر موقع أهل الصفة مقتصرا
على الجزء الشمالى الشرقى من مؤخرة المسجد النبوى .



شكل (٣٣)

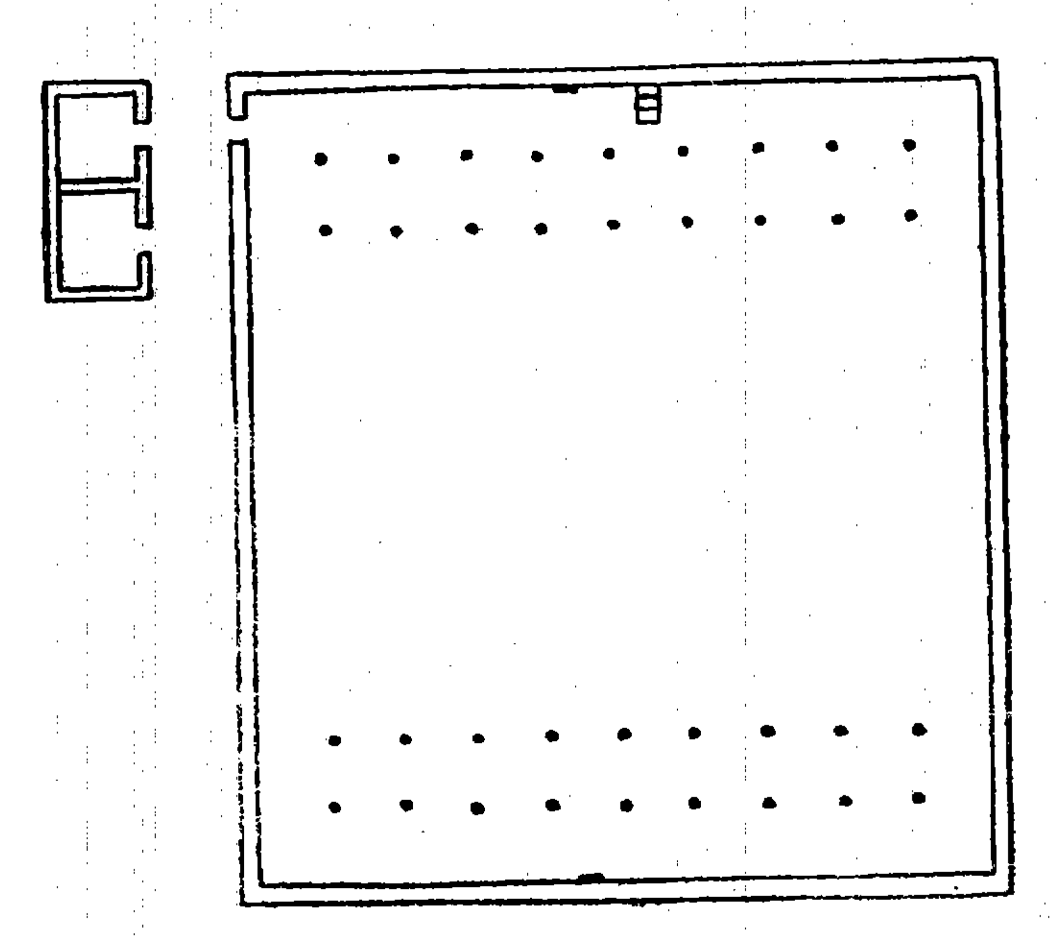
مخطط المسجد النبوى فى آخر عهد الرسول صلى الله عليه وسلم نقله
أحمد فكرى عن محمود عكوش ، وبه تظهر الصفة فى الجانب
الشمالى الشرقى من المسجد النبوى ، وفى هذا مخالفة لما
فى مخطط كريزول وفريد شافعى وسعاد ماهر.



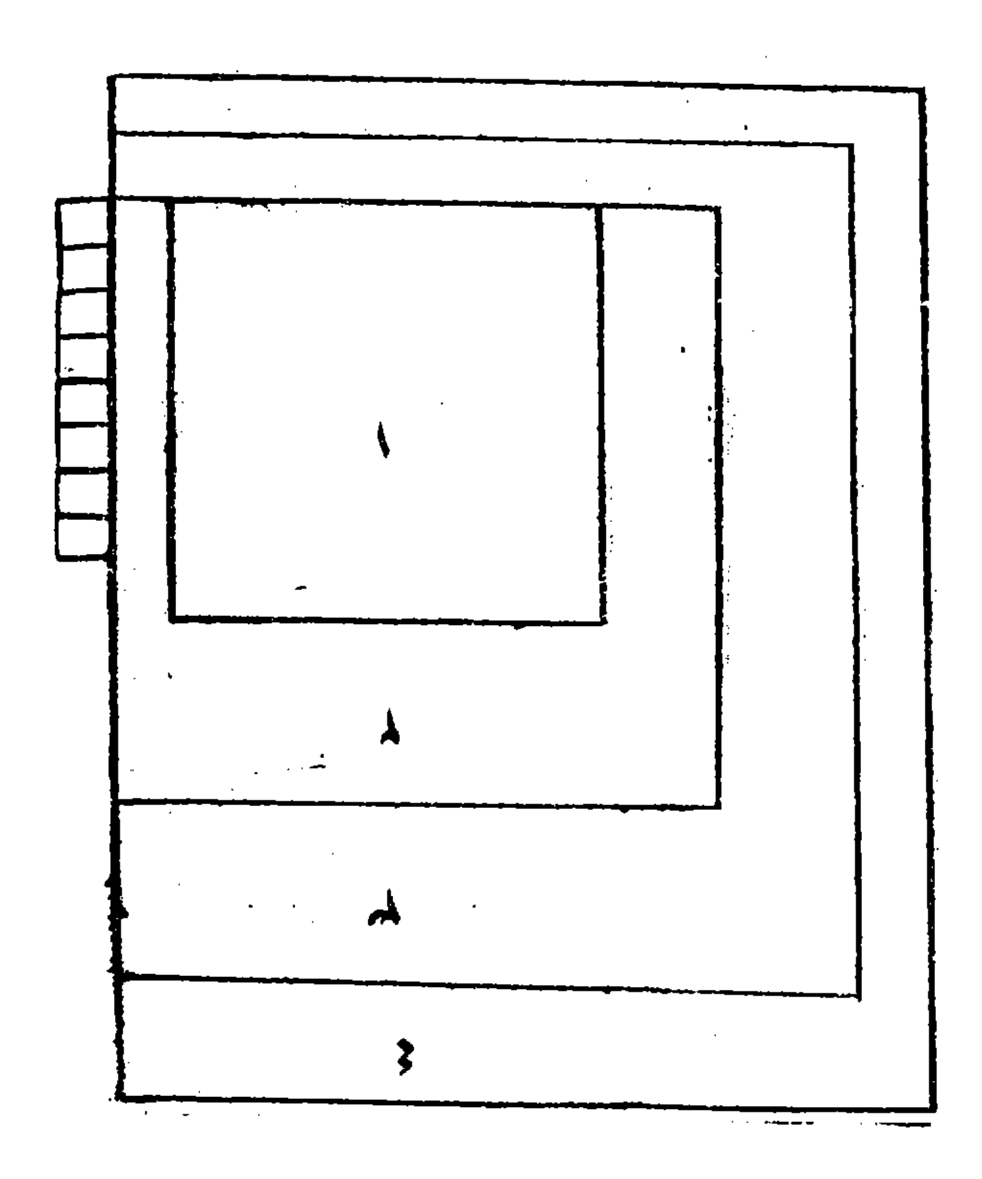
شكل (٣٤)

مخطط المسجد النبوى بعد السنة السابعة من الهجرة

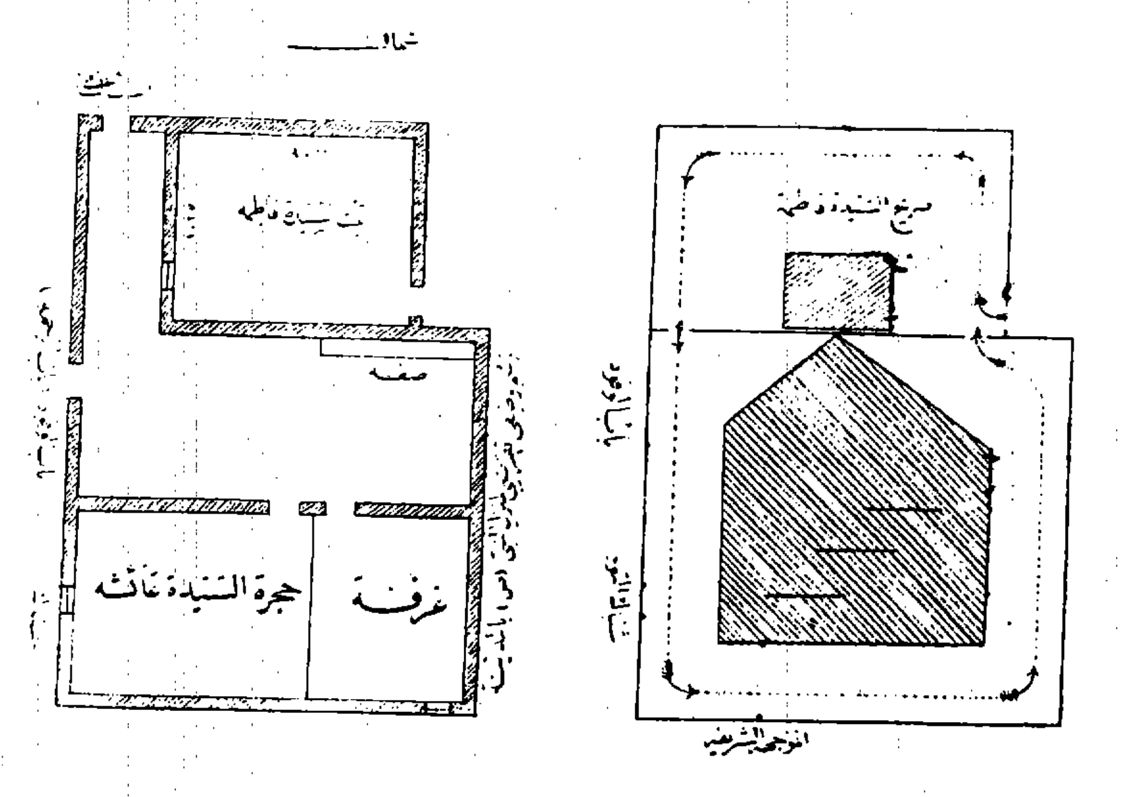
(عن أحمد فكرى)



شكل (٣٥)
مخطط المسجد النبوى بعد السنة السابعة من الهجـرة الشريفـة (عن حسن الباشا) وبه يظهر أنه قصر البلاطات فى ظلتى المسجد على بلاطتين ، وهذا مخالف لما ثبت من أنها كانت ثلاث بلاطات فى كل منهما



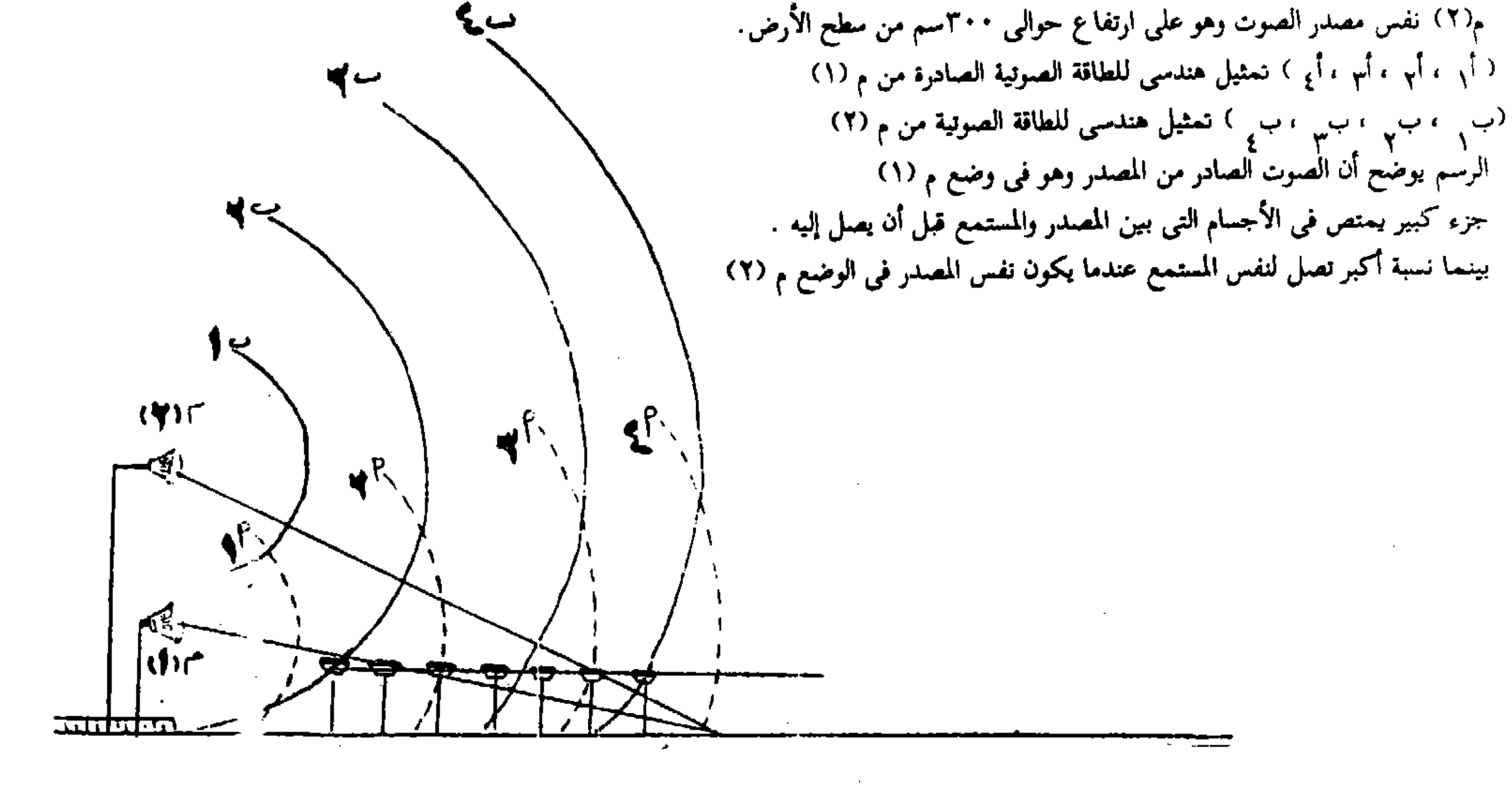
شكل (٣٦)
مخطط المسجد النبوى فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين
(عن حسن الباشا) وليس به أدنى إشارة إلى مقدار الأذرع
المضافة فى كل زيادة من الزيادات المرقمة .



شكل (٣٧)

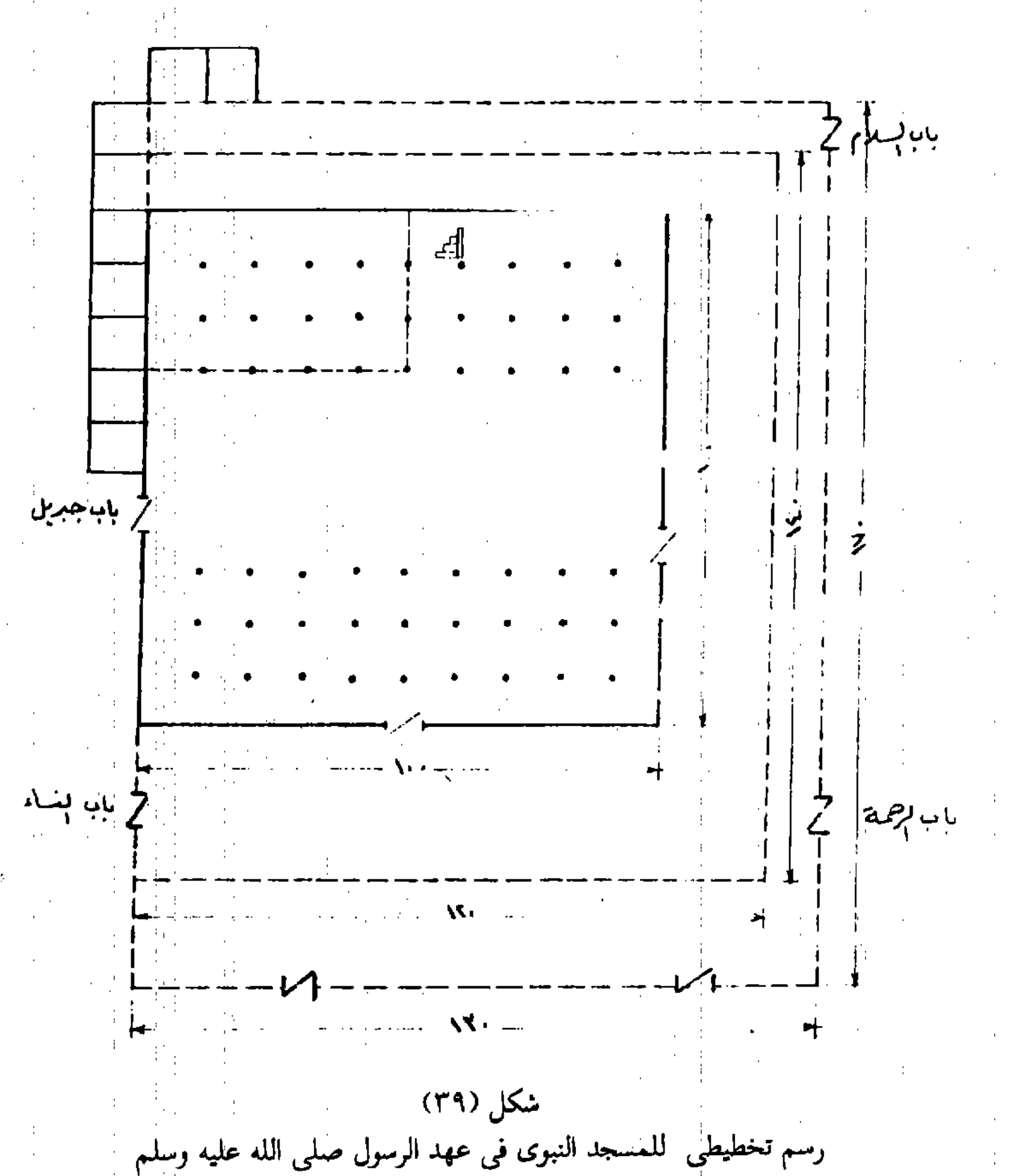
رسم تخطيطى للحجرة الشريفة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم

(عن محمد لبيب البتنونى)



م(١) مصدر الصوت وهو على ارتفاع حوالى ١٦٠سم من سطح الأرض.
م(٢) نفس مصدر الصوت وهو على ارتفاع حوالى ٣٠٠سم من سطح الأرض.
(أ١ ، أ٢ ، أ٣ ، أ٤) تمثيل هندسى للطاقة الصوتية الصادرة من م (١)
(ب١ ، ب٢ ، ب٣ ، ب٤) تمثيل هندسى للطاقة الصوتية من م (٢)
الرسم يوضح أن الصوت الصادر من المصدر وهو فى وضع م (١)
جزء كبير يمتص فى الأجسام التى بين المصدر والمستمع قبل أن يصل إليه .
بينما نسبة أكبر تصل لنفس المستمع عندما يكون نفس المصدر فى الوضع م (٢)

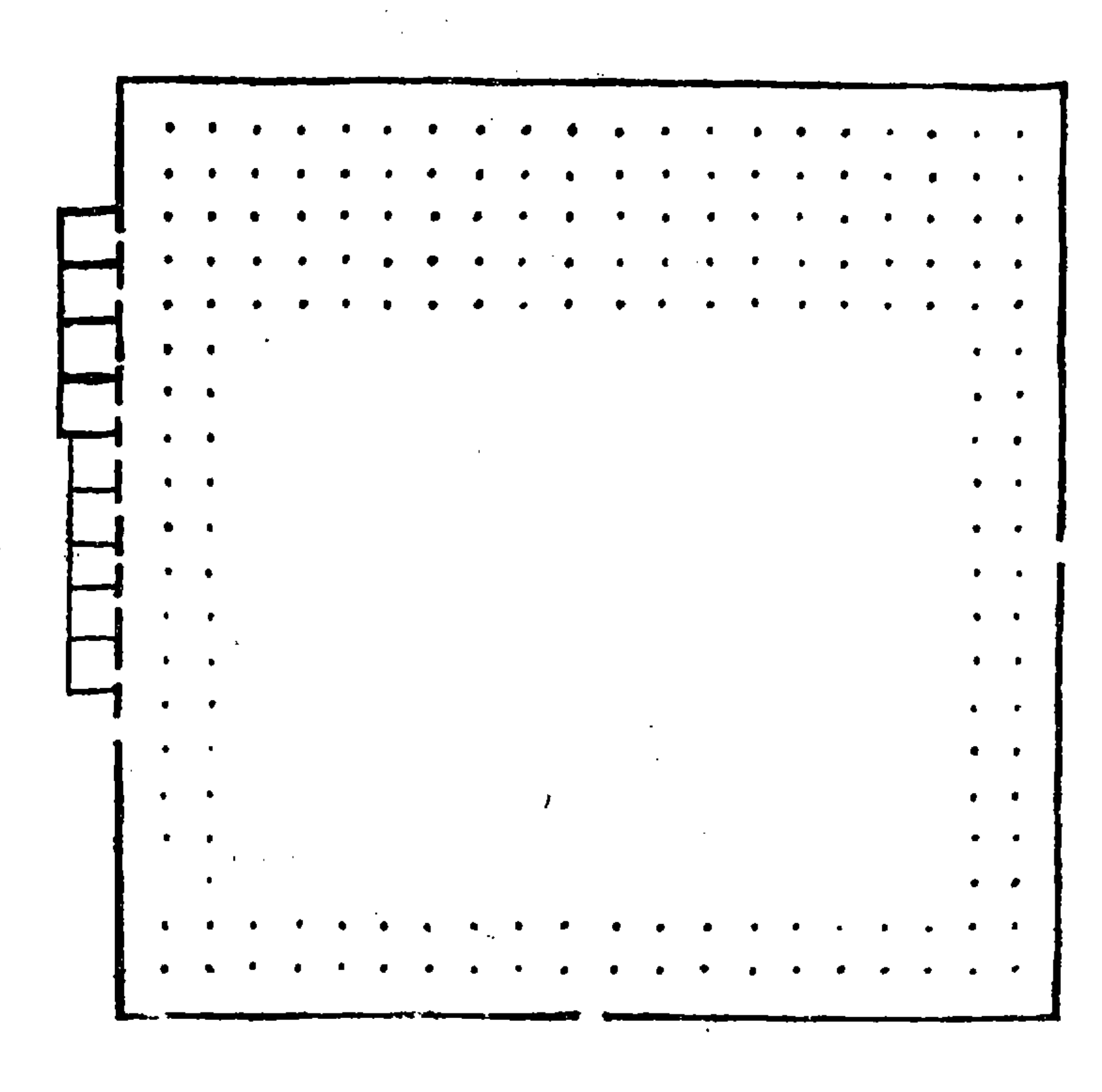
شكل (٣٨) رسم توضيحى لمدى انتشار الصوت من مكان مرتفع



شكل (٣٩)

رسم تخطيطى للمسجد النبوى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وزيادة عمر وعثمان رضى الله عنهما .

(من عمل الباحث)

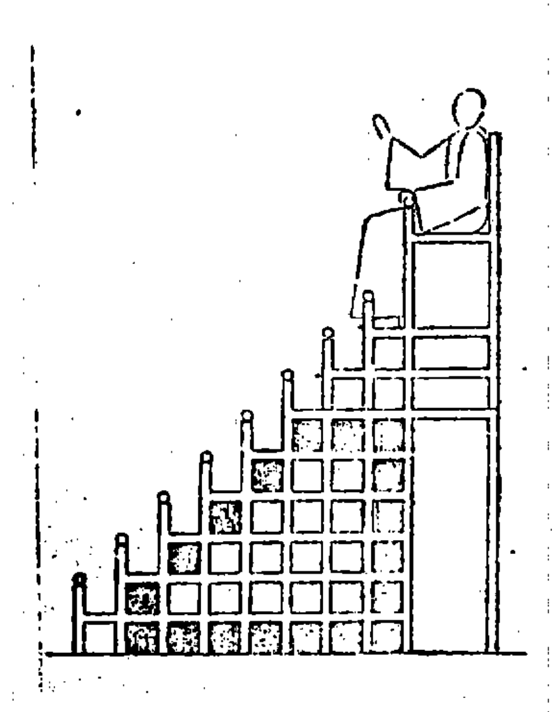


شكل (٤٠)

رسم تخطيطى للمسجد النبوى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(عن فريد شافعى)

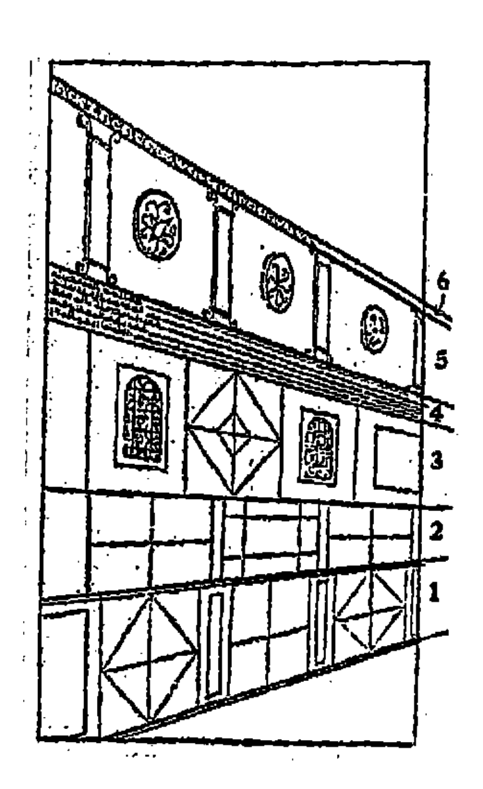
وقد تصور وجود الظلات الجانبية فى ذلك التاريخ المبكر
دون أن يكون لديه سند مقنع .



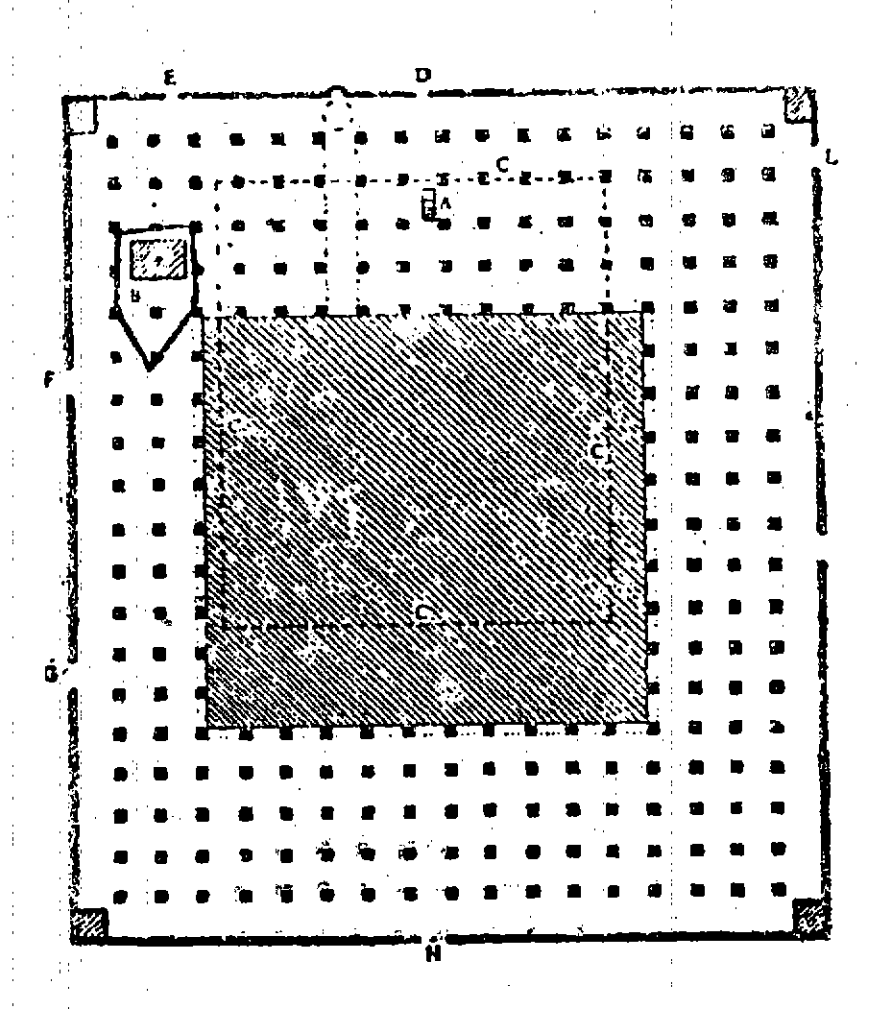
شكل (٤١)

رسم تخطيطى للمنبر النبوى بعد زيادة معاوية ابن أبى سفيان عدد درجاته

(عن سوفاجيه)



شكل (٤٢)

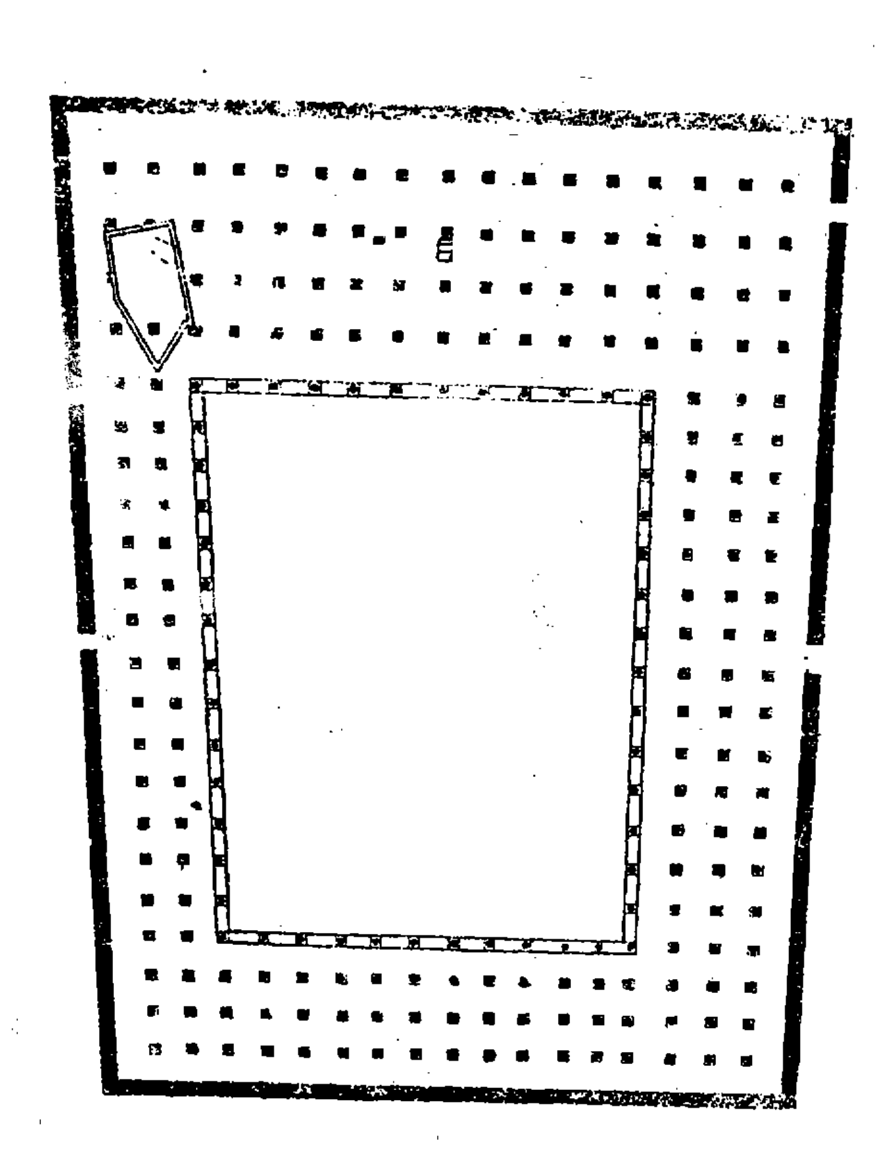


شكل (٤٣)

رسم تخطيطى للمسجد النبوى بعد زيادة الوليد بن عبد الملك

(من إعداد سوفاجيه)

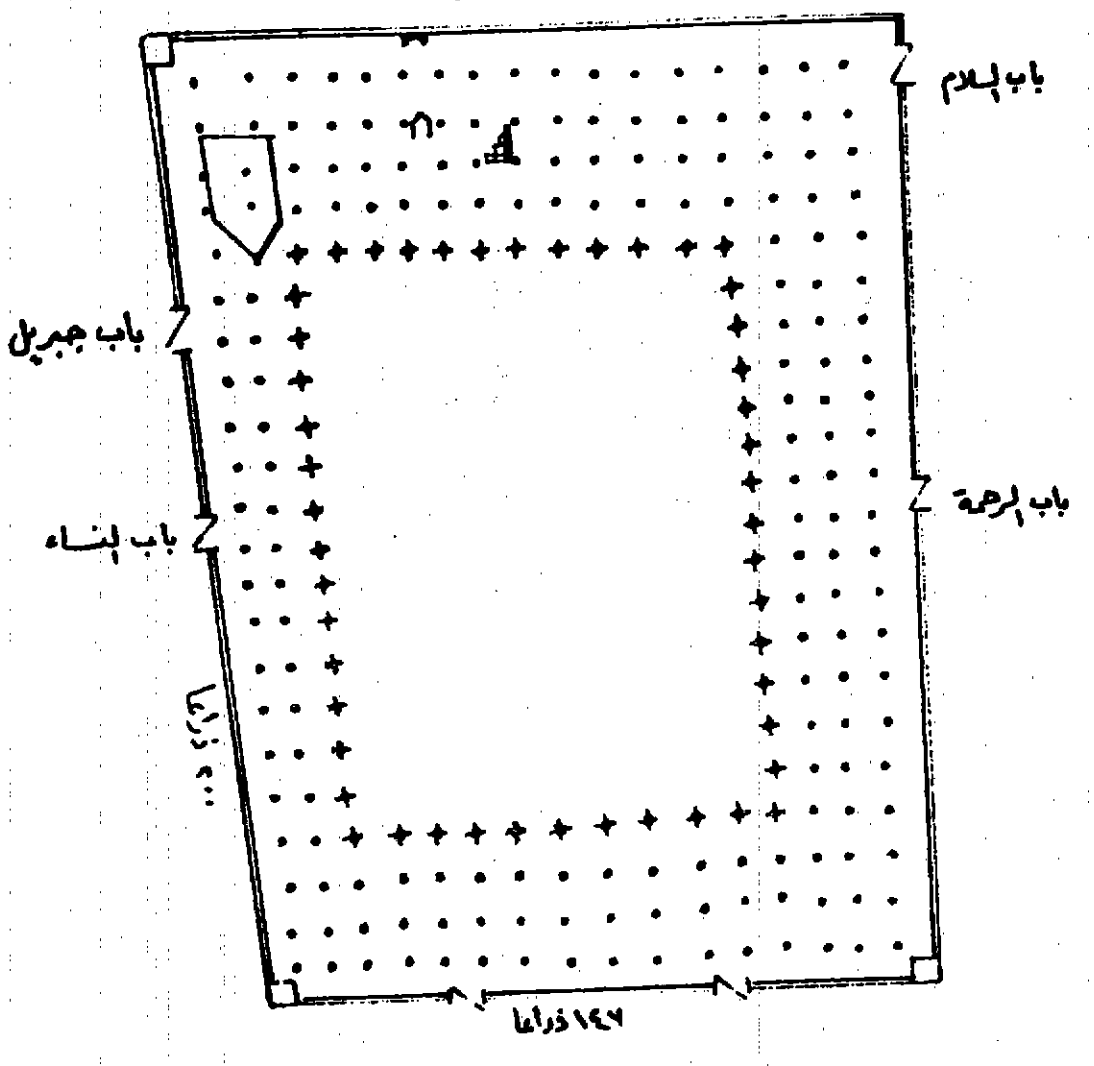
وبه يظهر المجاز المؤدى إلى المحراب العثمانى ، ويلاحظ عليه ضيق المجاز بسبب حرصهم على المحافظة على مواقع الأسطوانات التى كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم



شكل (٤٤)

المسجد النبوى بعد عمارة الوليد بن عبد الملك

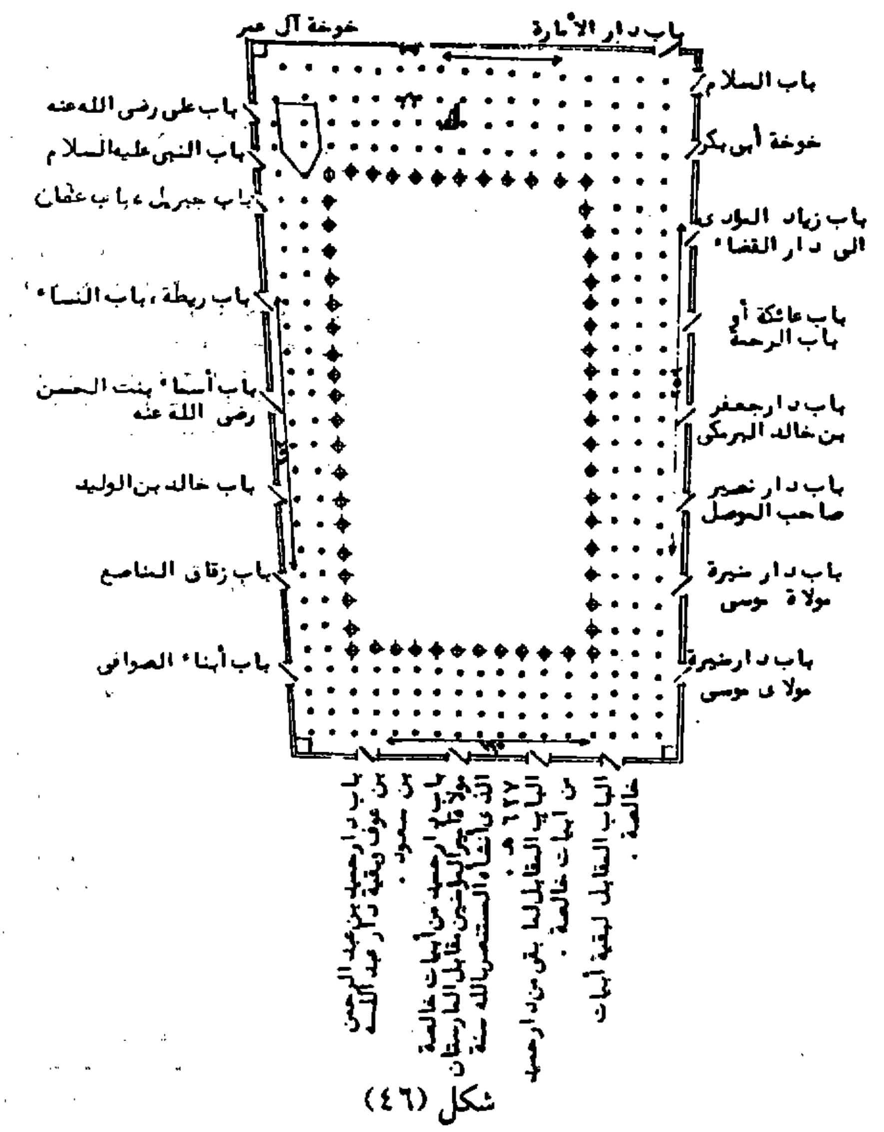
(عن أحمد فكرى)



شكل (٤٥)

مخطط المسجد النبوى بعد عمارة الوليد بن عبد الملك وبه تظهر أبواب المسجد الستة ومناراته الثلاث وذلك بعد تدارك الأخطاء التى وقع فيها سوفاجيه وأحمد فكرى

(من عمل الباحث)



شكل (٤٦)

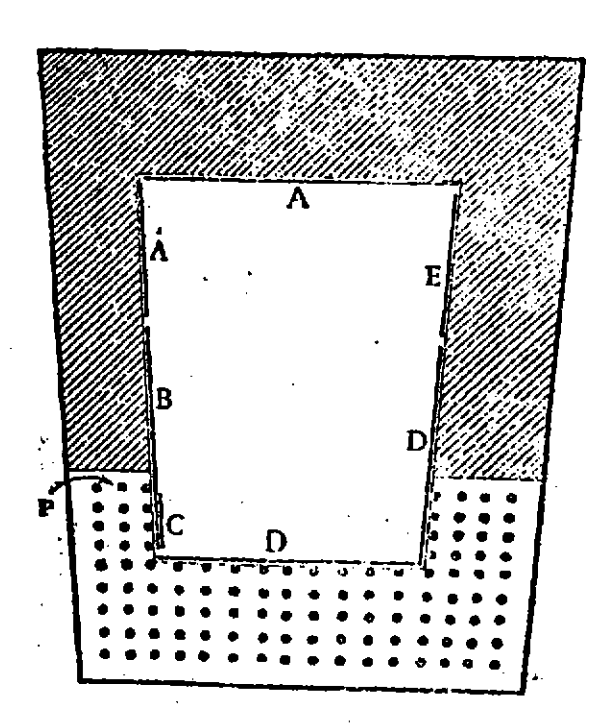
مخطط المسجد النبوى بعد عمارة المهدى العباسى وبه يظهر موقع منارات المسجد الثلاث وأبواب المسجد وعدد اسطواناته التى بلغت ٢٩٦ أسطوانة . ويلاحظ أنهم لم يتقيدوا فى زيادته بالبعد الحقيقى للأسطوانات فى العمائر السابقة والتى كانت عشرة أذرع عند بعض المؤرخين وتسعة أذرع عند البعض الآخر وإلا لبلغ طول المسجد من الشمال إلى الجنوب حوالى ثلاثمائة ذراع

(من عمل الباحث)

موضع جهة	من الشرق إلى الغرب مما يلى القبلة	من الشرق إلى الغرب مما يلى الشمال	من الجنوب إلى الشمال فى الشرق والغرب	اسم المصدر
البرزنجي	ذراع ١٧٥	١٢٥	٢٥٥	نزهة الناظرين فى مسجد سيد الأولين والآخرين، ص١٤
السخاوي	ذراع ١٦٥ ، ١٧٠	١٢٠ ، ١٢٥	٢٥٤ واصباع	التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة، ط١ ص٤٧
السمهودي	ذراع ١٦٧,٥	١٢٥	٢٥٢	وفاء الوفا، ط٢ ص ٥١٩، ٦٨٤
البلوي	ذراع ٢٠٠	؟	٢٠٠	تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، ط١ ص٢٨٦.
البلوي	خطوة ١٣٦	؟	١٩٦	(تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، ط١ ص٢٨٦.)
القرطبي	ذراع ١٧٠	١٢٥ وثلاث اصباع	٢٥٤ واربع اصباع	بهجة النفوس والاسرار فى تاريخ دار هجرة المختار، ص١٧١
ابن النجار	ذراع ١٧٠	؟	٢٥٤ واربع اصباع	الدرة الثمينة، ص١٠٢
ابن جبير	خطوة ١٢٦	؟	١٩٦	رحلة ابن جبير، ص١٧١
مجهول من القرن الرابع الهجري	ذراع ١٧٠	؟	٢٧٠	رسالة فى وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، مجلة العرب، السنة الثانية ج٦٩ ١٢٩٢هـ/١٩٦٧م ص٧٥٠.
ابن رسته	ذراع ١٦٥	١٢٠	٢٤٠	الأعلاق النفيسة، ص٧٥
ابن إسحاق الحربي	ذراع ١٦٥	١٢٠	٢٤٠	كتاب المناسك، ص٣٨٢.
ابن زبالة	ذراع ١٦٥	؟	٢٤٠	وفاء الوفا للسمهودي، ط٢ ص٦٨٤.

شكل (٤٧)

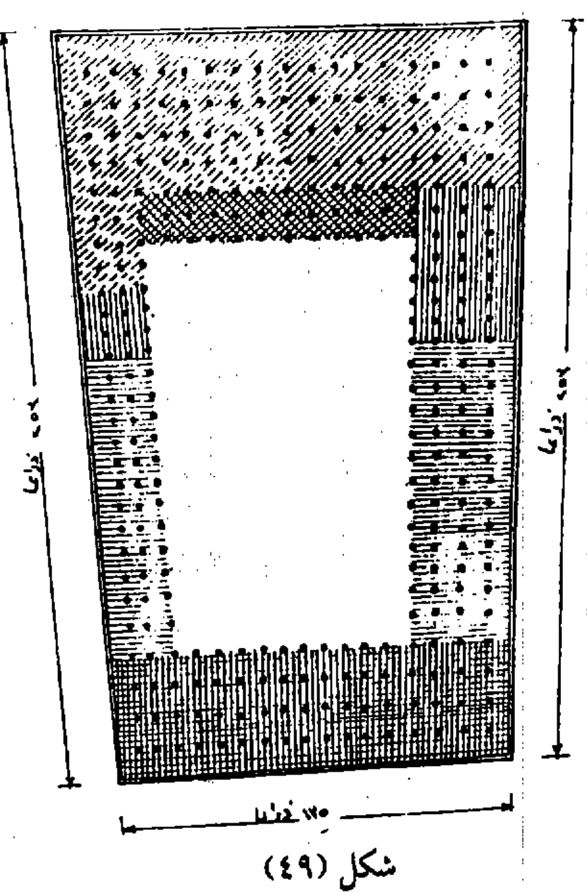
جدول يبين اختلاف ذراع المسجد النبوى فى عمارة المهدى العباسى عند المؤرخين



شكل (٤٨)

مخطط لموقع النصوص من صحن المسجد النبوى بعد عمارة المهدى

(عن سوفاجيه)

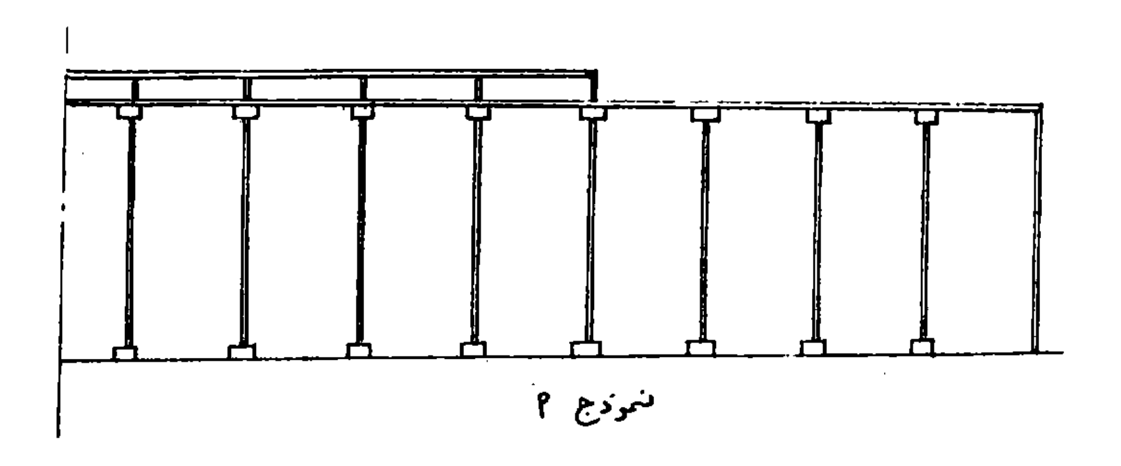


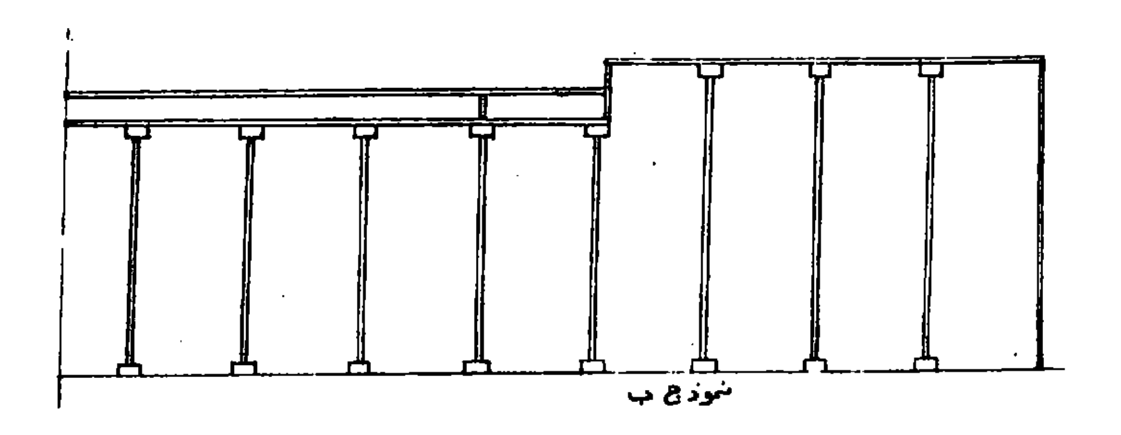
شكل (٤٩)

رسم يبين مراحل تجديد سقف المسجد النبوى بعد الحريق الأول حتى أواخر دولة المماليك البحرية

(من عمل الباحث)

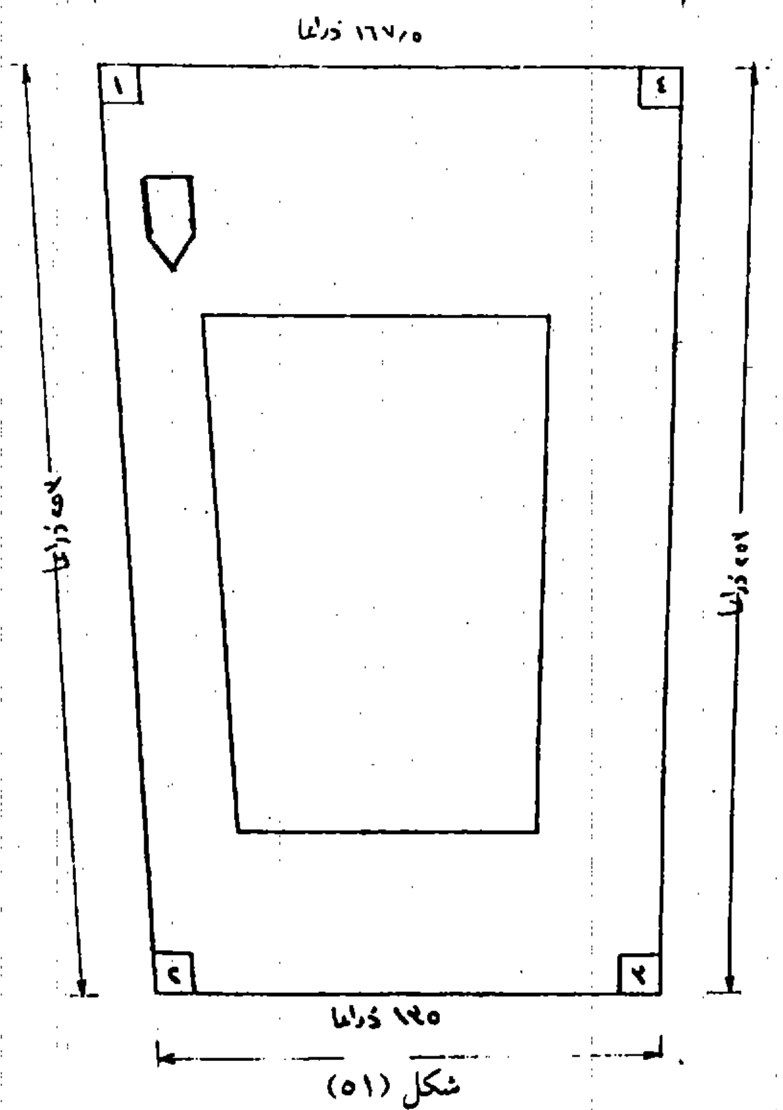
- عمارة الظاهر بيبرس بسقف واحد
- عمارة الظاهر بيبرس بسقفين
- العمارة المصرية اليمنية
- البلاطتان اللتان اضافهما الملك الناصر محمد بن قلاوون
- عمارة السلطان سيف الدين قطز
- عمارة الخليفة العباسى





شكل (٥٠)

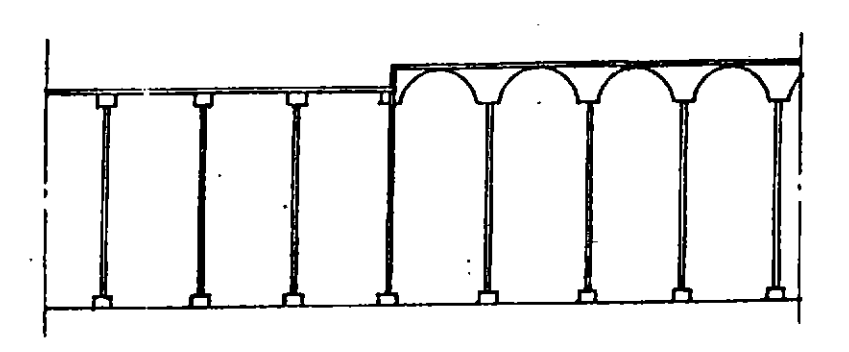
مقطع يبين حالة سقف مؤخرة المسجد التي عمرها الظاهر بيبرس بسقف واحد خلافا لما كانت عليه مجنبات المسجد الأخرى ، فإذا كان سقف مؤخرة المسجد في مستوى السقف السفلي للمجنبتين فإن السقف العلوى للمجنبتين سيرتفع كما في النموذج « أ » والعكس كما في النموذج «ب»

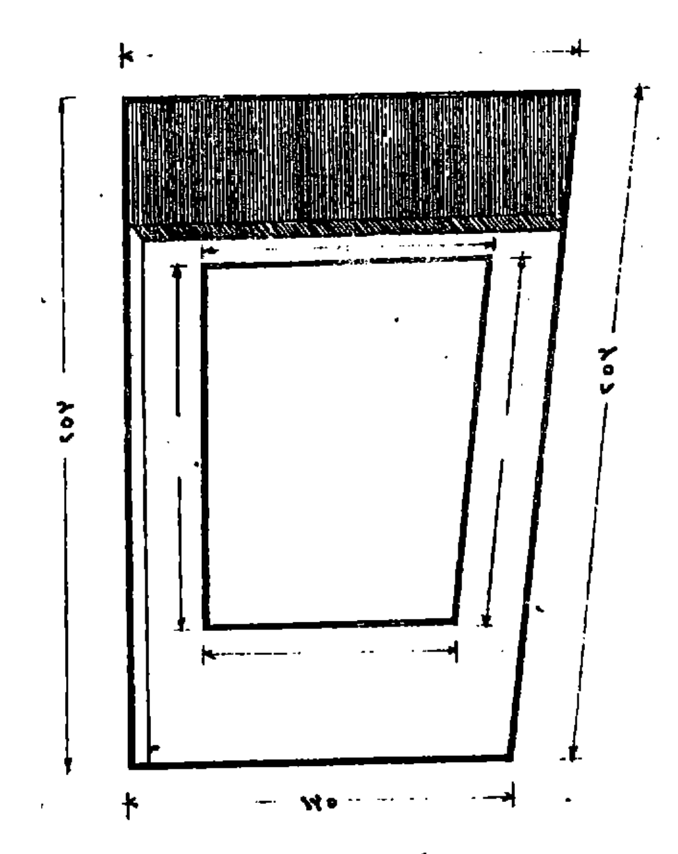


شكل (٥١)

مسقط يبين مواقع منارات المسجد النبوى فى عهد المماليك البحرية وأطوالها
(من عمل الباحث)

١ ـ المنارة الرئيسية ٧٧ ذراعا .
٢ ـ المنارة السنجارية ٧٩ ذراعا .
٣ ـ المنارة الخشبية ٧٢ ذراعا .
٤ ـ منارة باب السلام التى أقيمت سنة ٧٠٦هـ وطولها ٩٥ ذراعا .

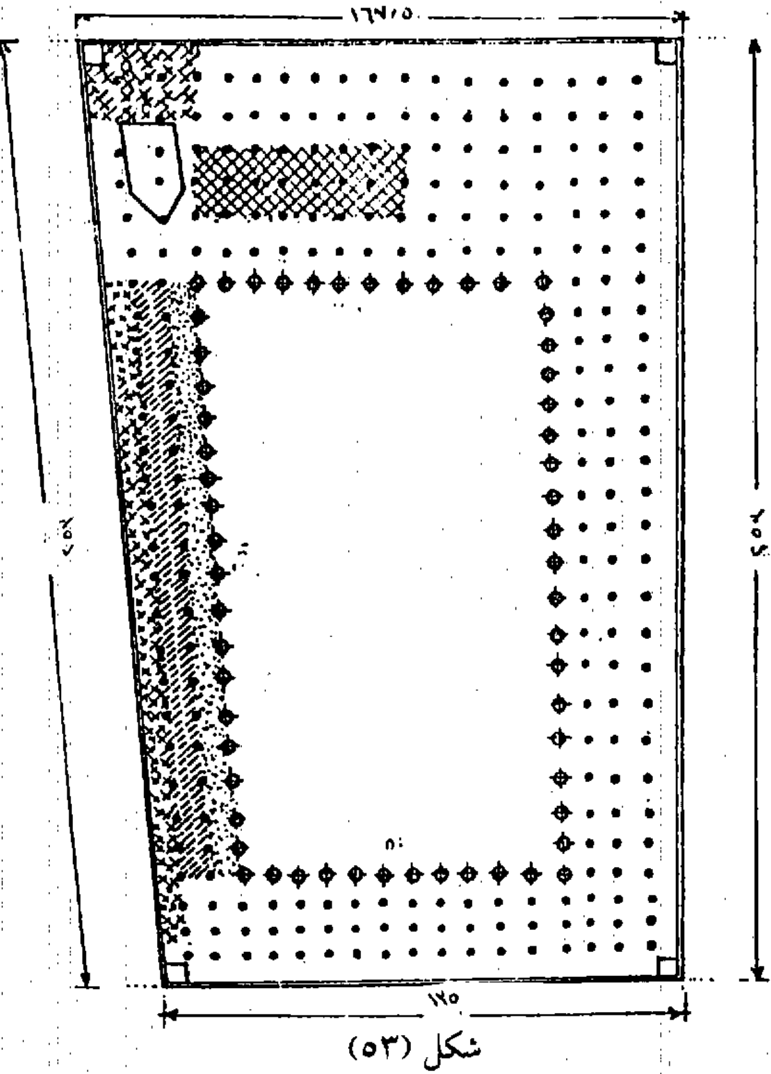




شكل (٥٢)

رسم يوضح الجزء المرتفع من سقف مقدم المسجد النبوى بعد إضافة
الناصر محمد بلاطتى مقدم المسجد

(من عمل الباحث)



شكل (٥٣)

المراحل التى سارت عليها عمارة قايتباى الأولى ٨٧٩ ـ ٨٨١هـ

(من عمل الباحث)

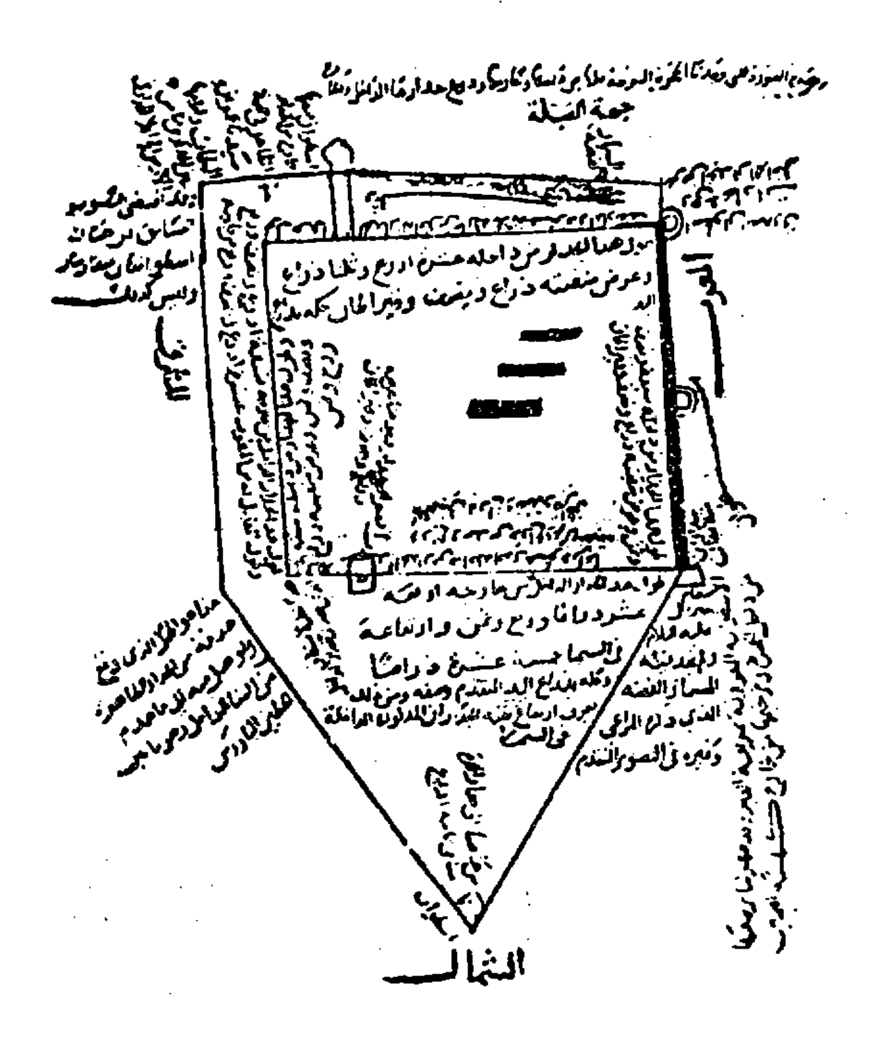
المرحلة الأولى

المرحلة الثانية

المرحلة الثالثة

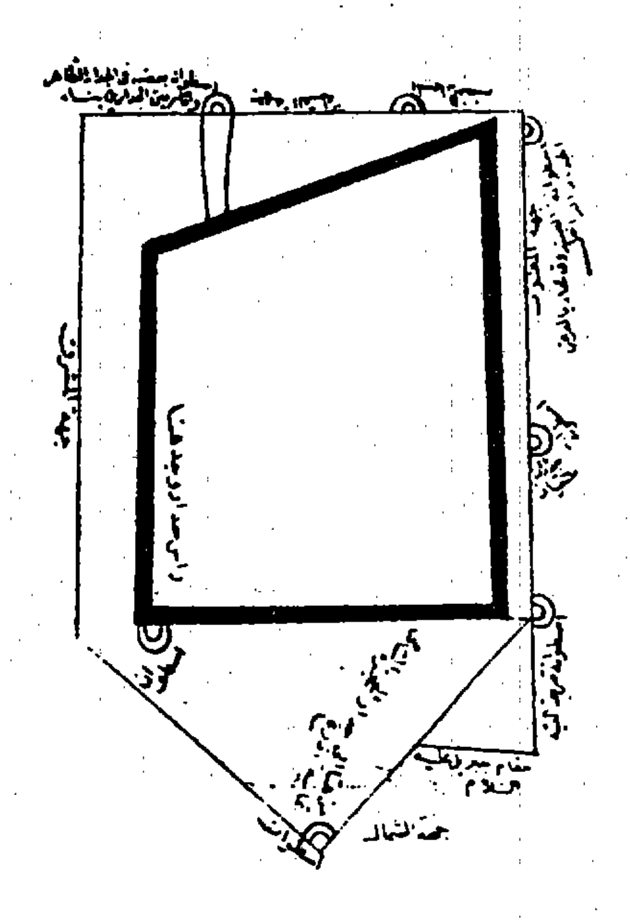
المرحلة الرابعة

المرحلة الخامسة



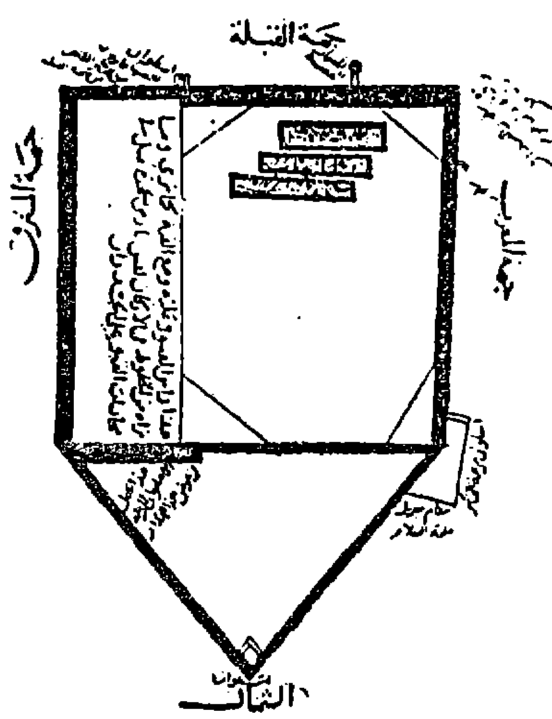
شكل (٥٤)

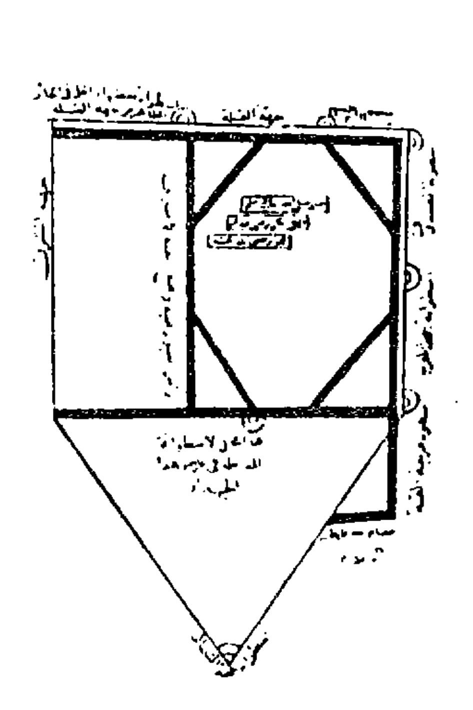
الحجرة الشريفة كما رسمها السمهودى فى وفاء الوفا جـ٢ ، ص ٥٦٦
بعد مشاهدته لها وذرعه أبعادها فى عمارة
قايتباى الأولى سنة ٨٨١هـ .



شكل (٥٥)

الحجرة الشريفة كما شاهدها السمهودى عند انكشافها فى عمارة قايتباى الأولى سنة ٨٨١هـ . خلاصة الوفاء ، ص ٢٠٢ .

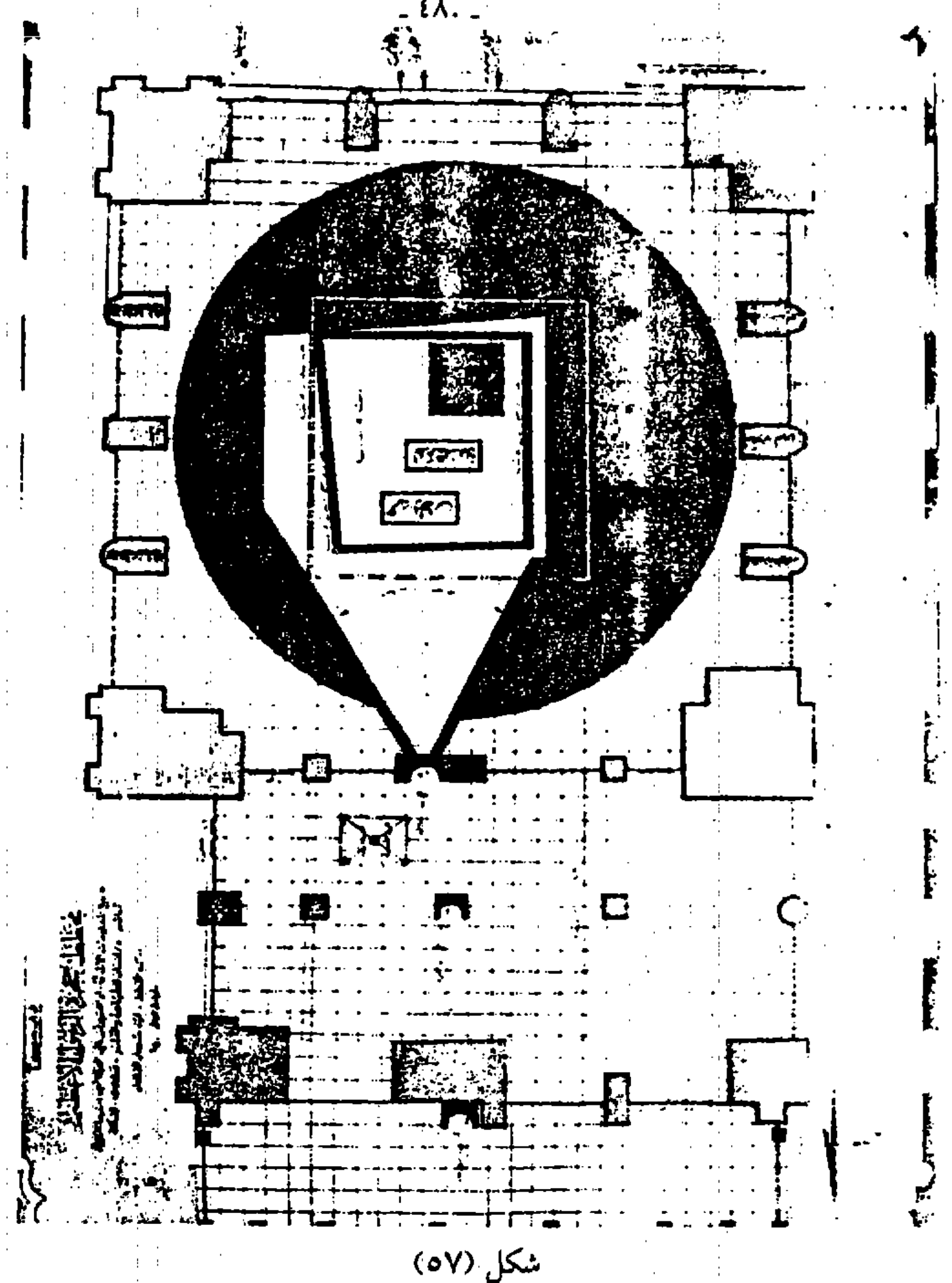




شكل (٥٦)

هاتان الصورتان تمثلان الوضع الذى استقر عليه بناء
الحجرة الشريفة إلى الوقت الحاضر

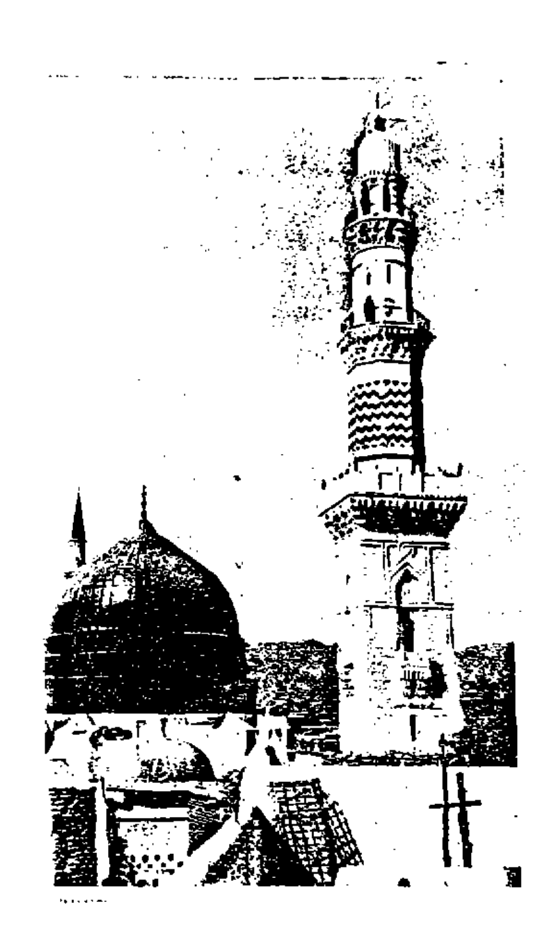
(عن السمهودى)

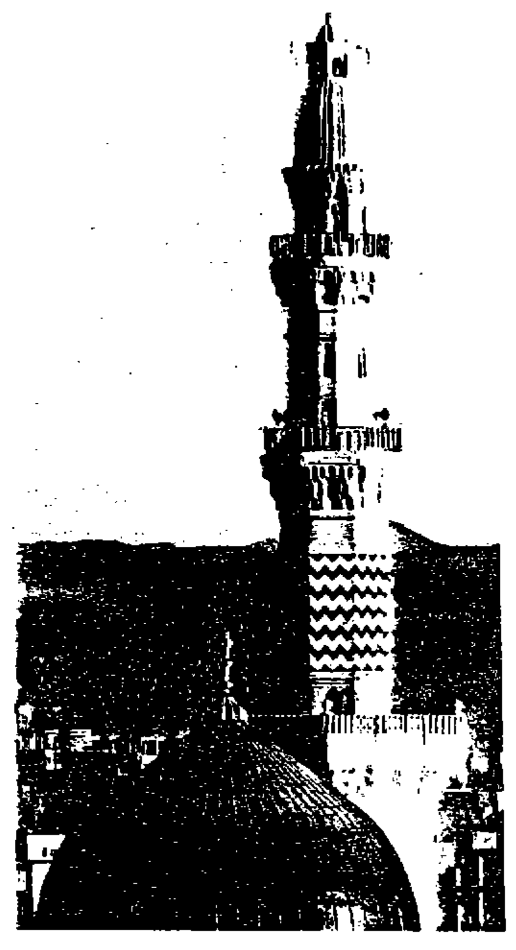


شكل (٥٧)

صورة مخطط الحجرة الشريفة بوضعها الحالى وهى الحالة التى كانت عليها بعد عمارة الأشرف قايتباى لها سنة ٨٨٧هـ .

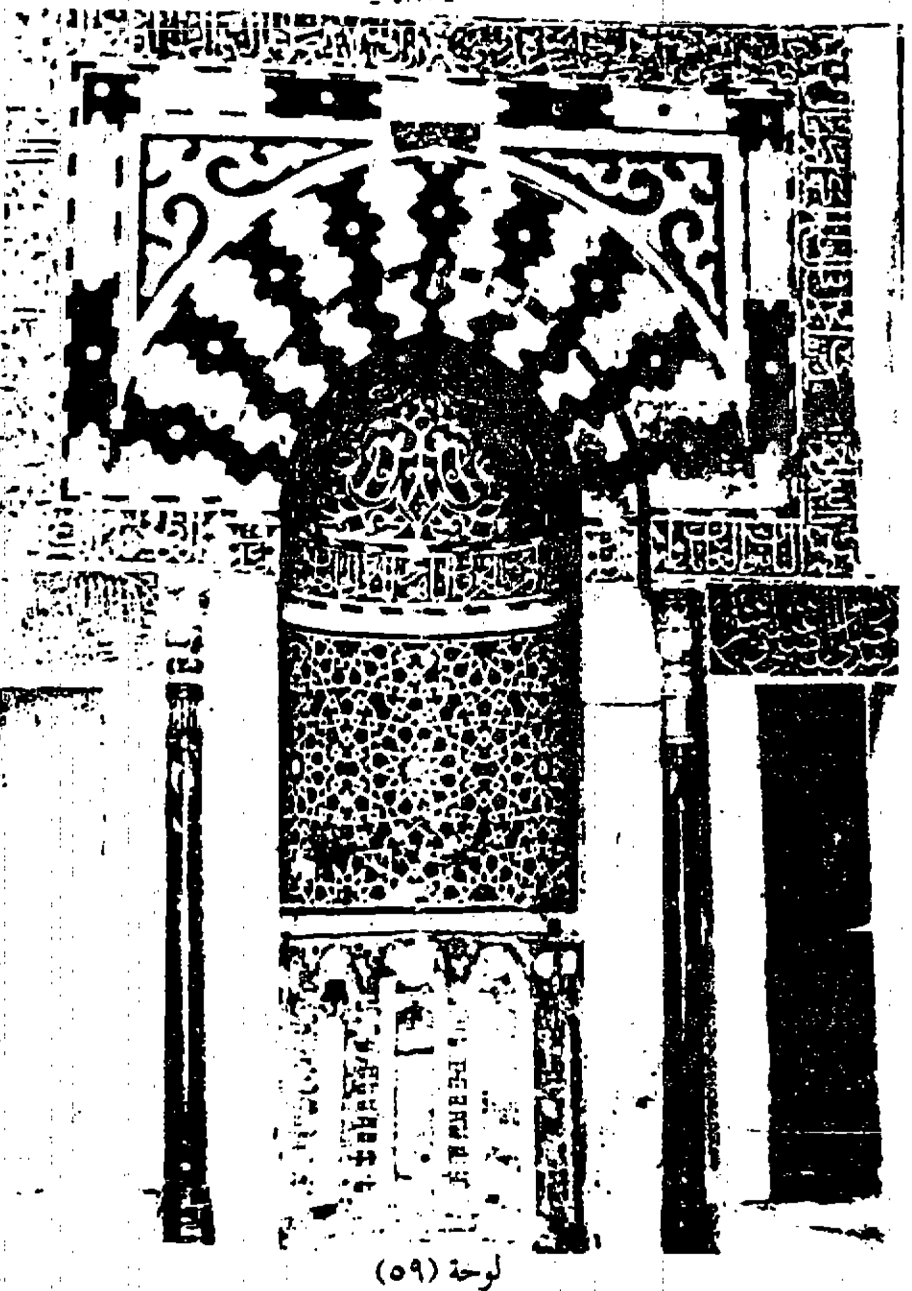
(عن إبراهيم العياشى)





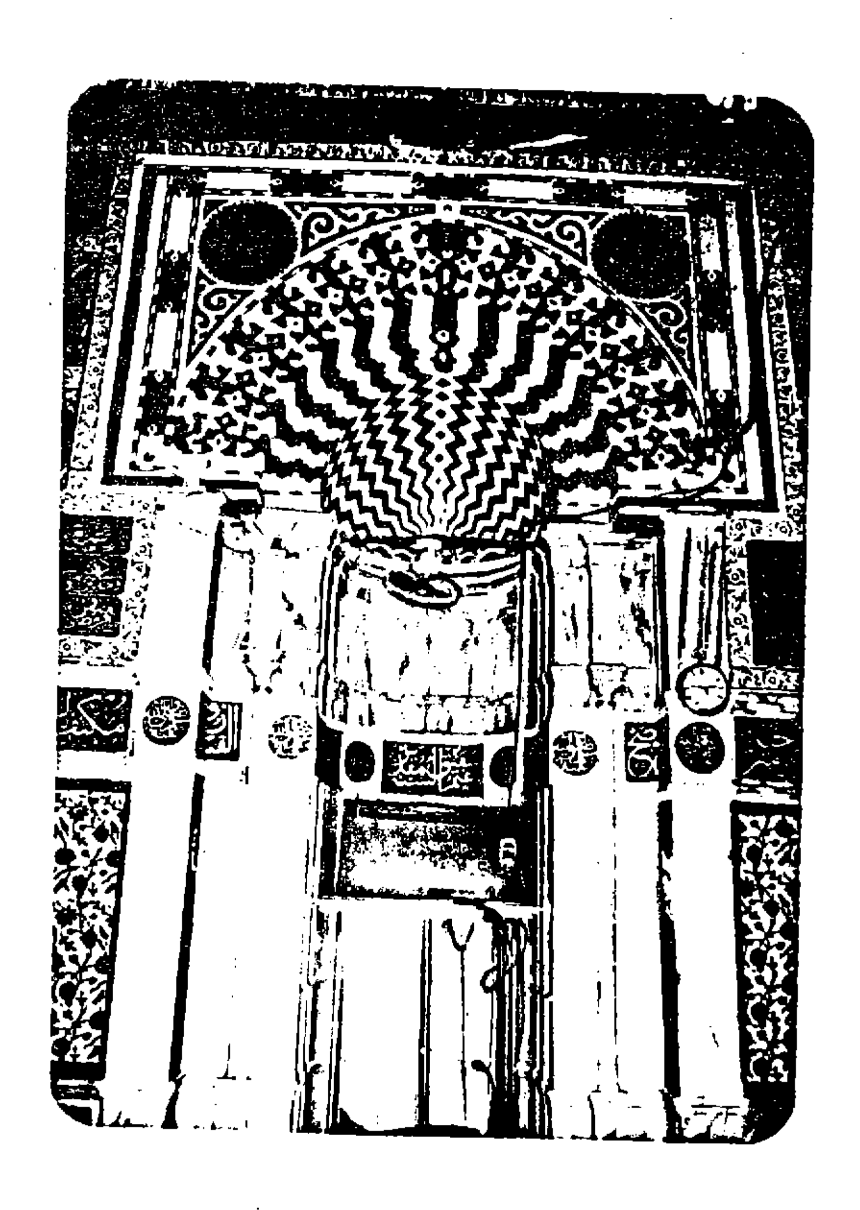
لوحة (٥٨)

تمثل هاتان الصورتان المنارة الرئيسية فى زمنين مختلفين والصورة اليسرى نقلتها من مرآة الحرمين جـ١ ص ٤٥١ . وبعقد مقارنة بين شرافات الشرفة الأولى فى الصورتين يتبين أنه حدث بهما تحسينات فى العهد السعودى وهو ما يظهر واضحا فى الصورة الملونة .



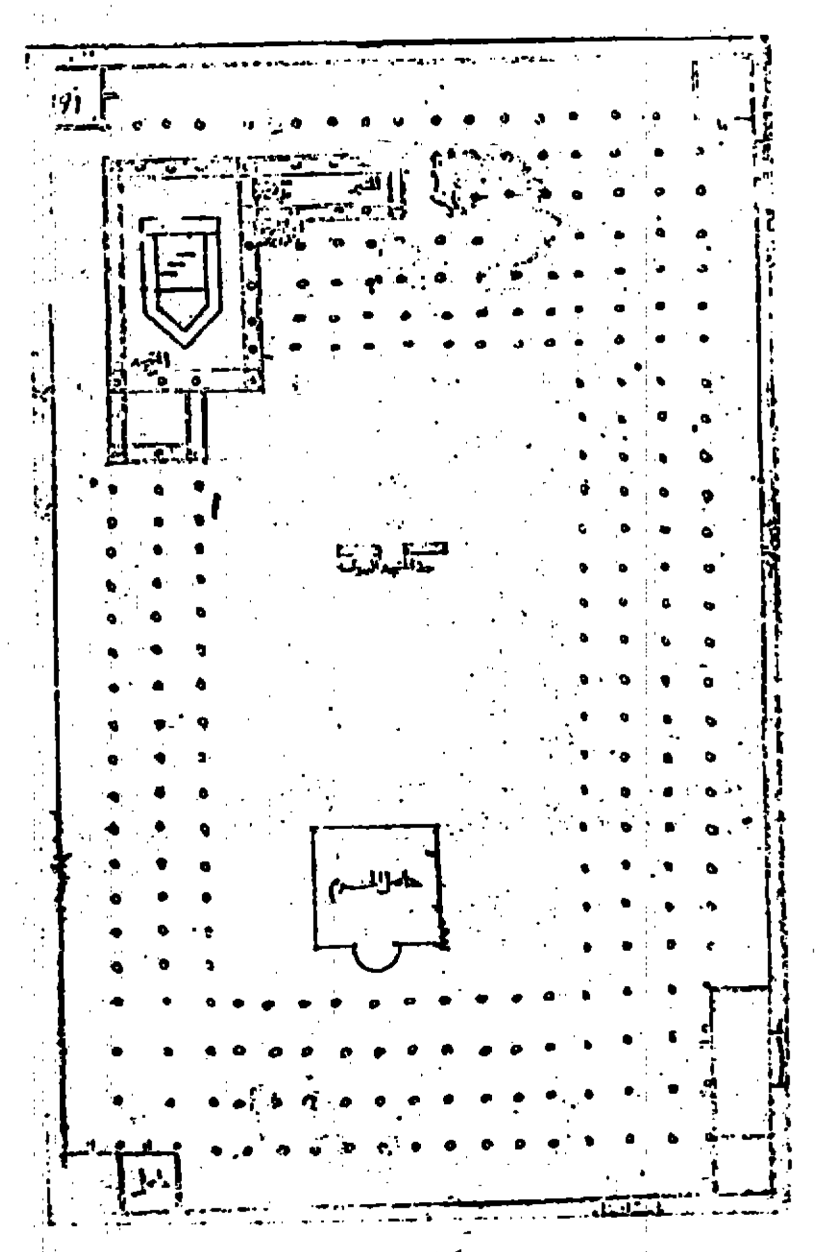
لوحة (٥٩)

صورة المحراب النبوى وفيها يبدو جمال التقسيمات الرخامية والكتابات
البديعة التى تحلى المحراب منذ جدده الأشرف قايتباى
فى العمارة الثانية التى تمت سنة ٨٨٨هـ .



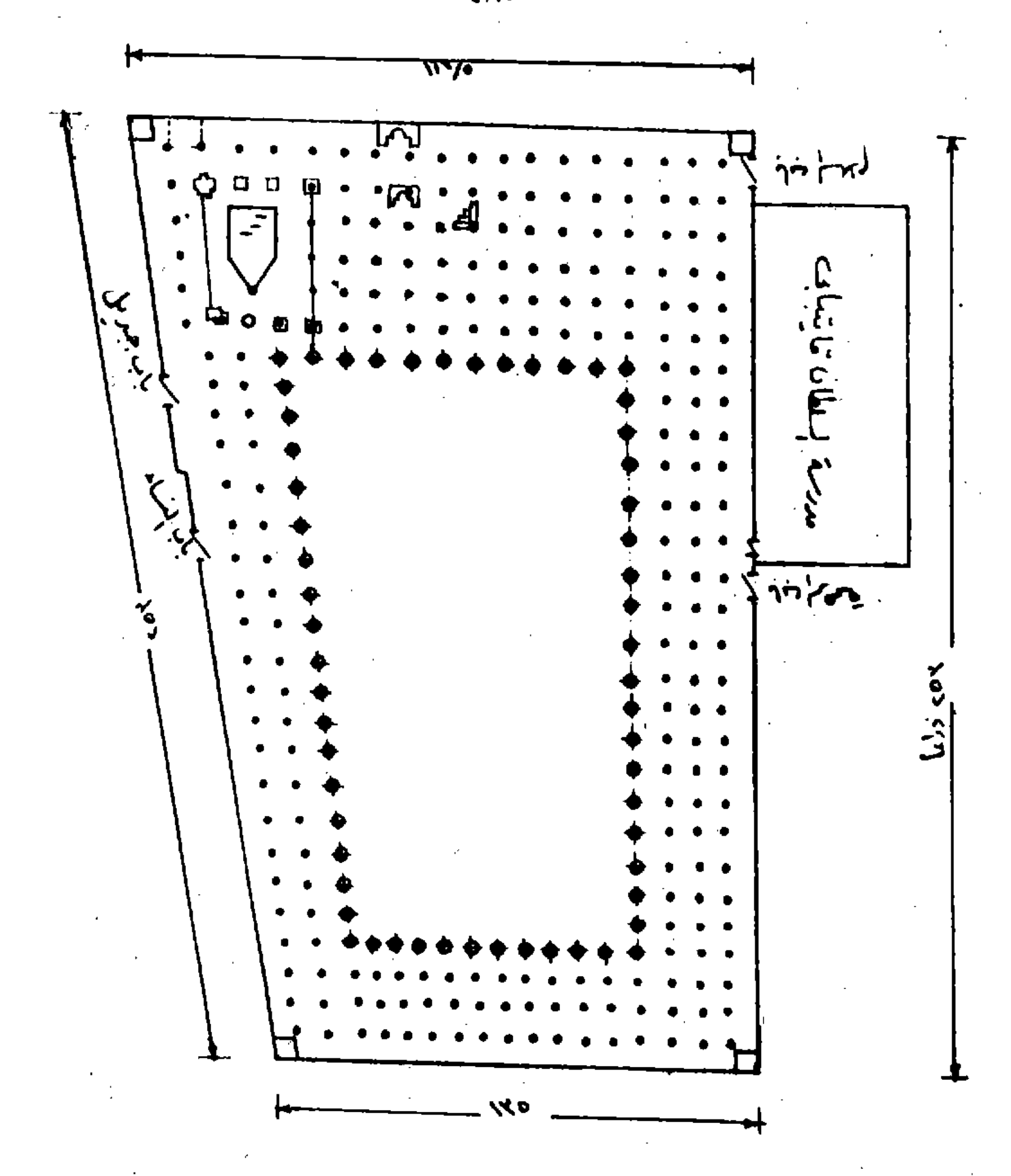
لوحة (٦٠)

صورة المحراب العثمانى وبه تبدو الزخرفة المملوكية التى لا يزال يحتفظ بها من عهد عمارة الأشرف قايتباى له سنة ٨٨٨هـ .



شكل (٦١)

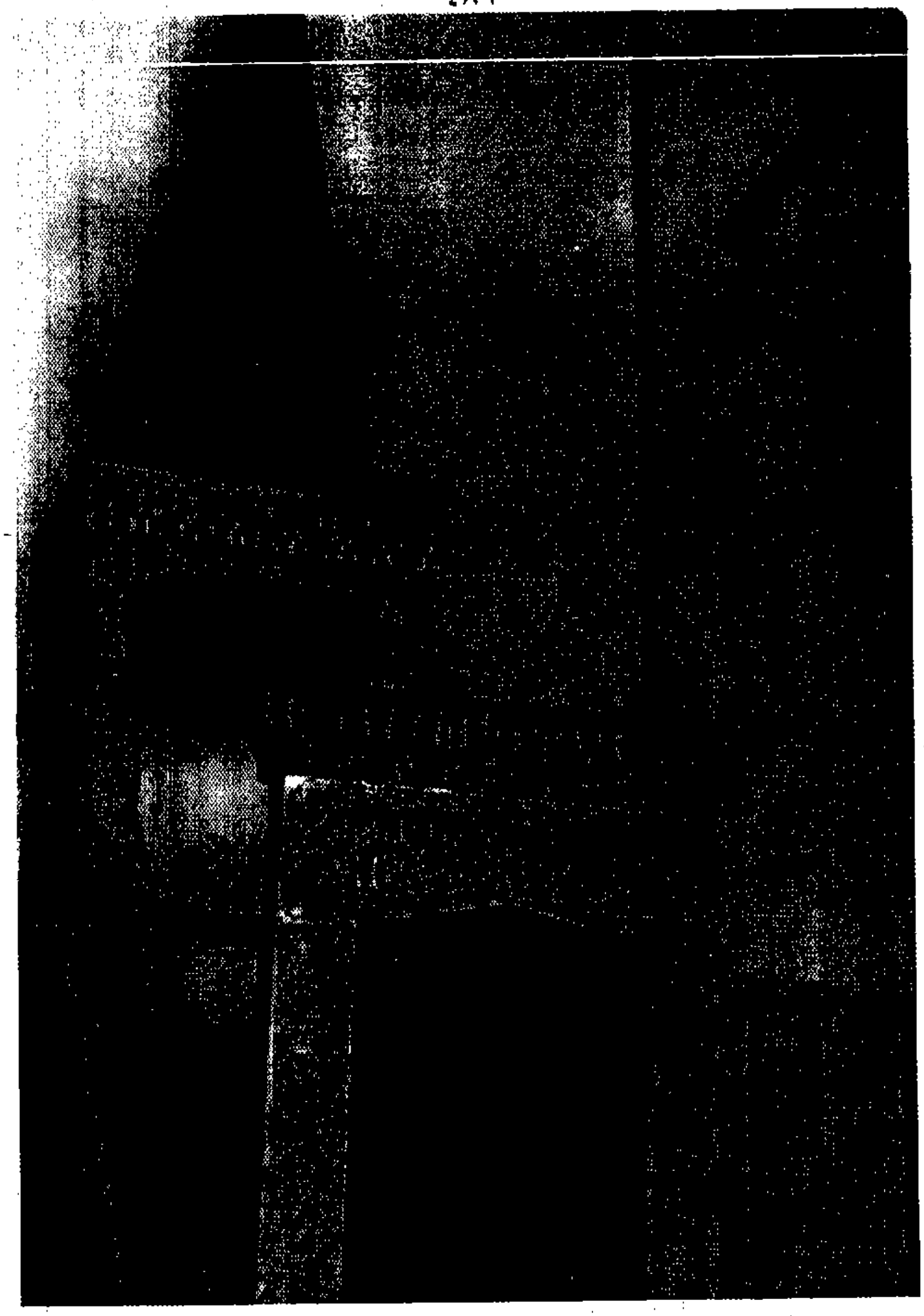
صورة مخطط للمسجد النبوى فى القرن التاسع نقلها سوفاجيه عن مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس لمؤلف مجهول برقم ٦٥٦٥ / عربى وهى توضح وضع المسجد النبوى بعد عمارة قايتباى الثانية وما به من حواصل .



شكل (٦٢)

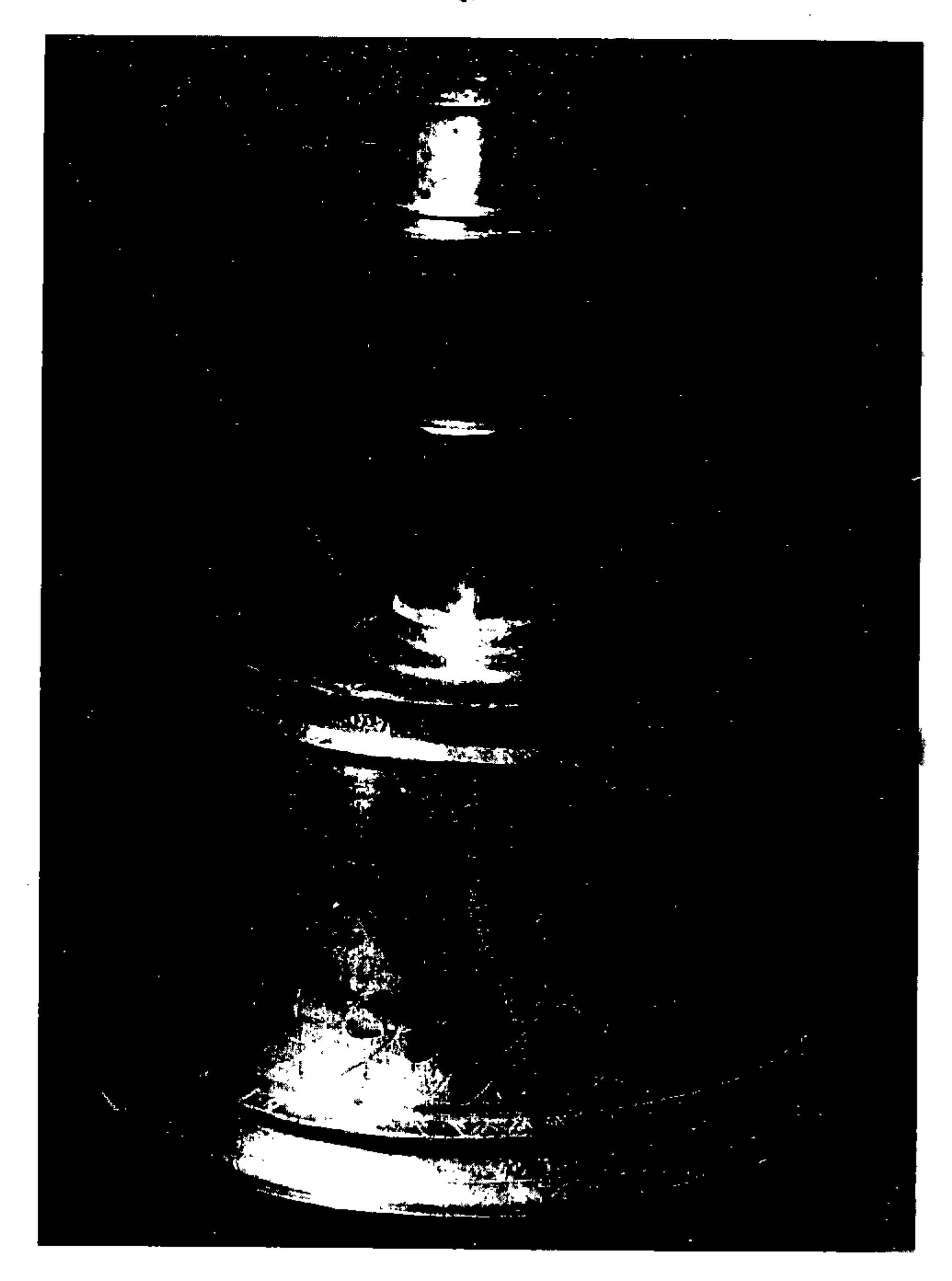
مسقط يبين حالة المسجد النبوى بعد عمارة قايتباى الثانية.

(من عمل الباحث)

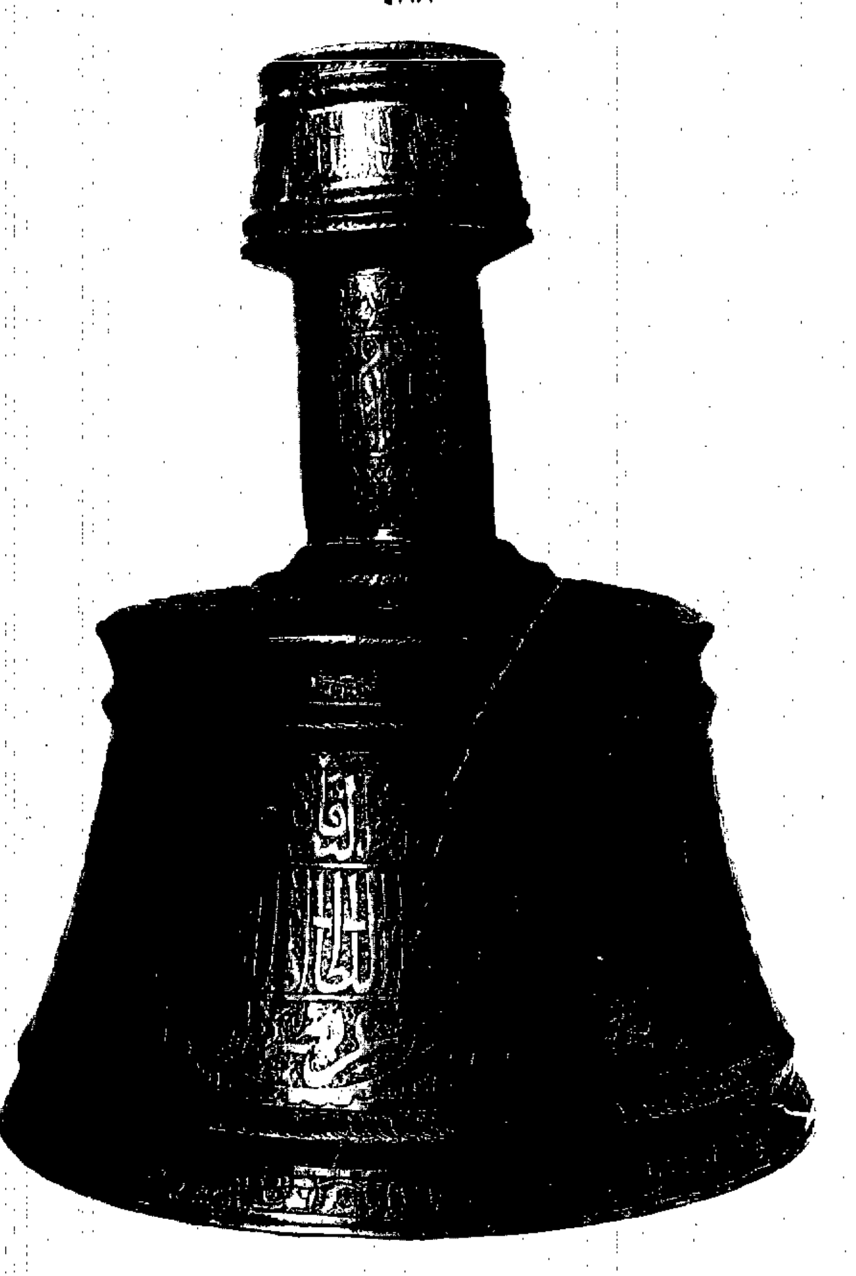


لوحة (٦٣)

صورة منبر مسجد قباء الذى أرسله الأشرف قايتباى سنة ٨٨٨ هـ إلى المسجد النبوى ثم نقل إلى مسجد قباء بعد إرسال السلطان مراد للمنبر الموجود حالياً فى المسجد النبوى سنة ٩٩٨ هـ



لوحة (٦٤)
شمعدان الأمير جانى بك الموقوف على الحرم النبوى الشريف
فيما بين سنة ٨٠١ - ٨٠٨ هـ



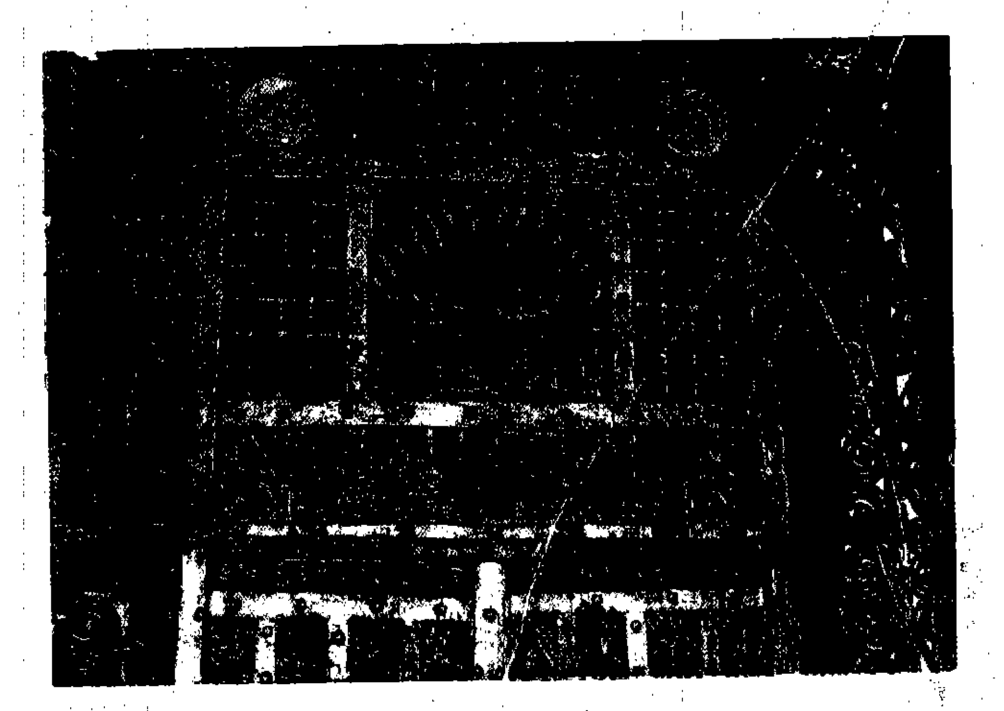
لوحة (٦٥)
شمعدان الأشرف قايتباى الموقوف على الحجرة الشريفة
بتاريخ شهر رمضان سنة ٨٨٨ هـ



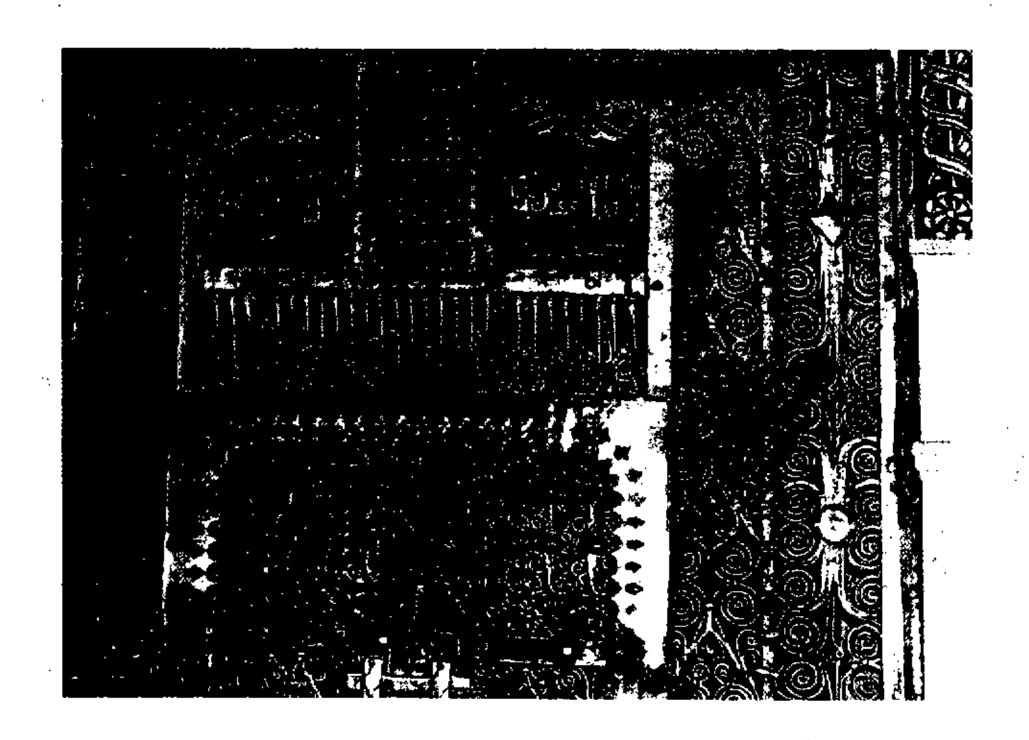
لوحة (٦٦)

صورة للنقش الموجود خلف المحراب النبوى

فى لوح رخامى بطول ٦٦ × ٨٨ سم



لوحة (٦٧)
صورة النقش الموجود بأصل مشبك الحجرة الشريفة
المطل على الروضة الشريفة



لوحة (٦٨)
صورة النقش الموجود بأصل مشبك الحجرة الشريفة
الشمالي المطل على دكة الأغوات



لوحة (٦٩)
صورة النقش الموجود خلف المحراب السليماني في لوح رخامي
بطول ٧٢ × ٦٦ سم والمؤرخ خطأ في سنة ٩٠٨ هـ